

الإنسان في التوراة والإنجيل

دراسة من منظور نوري

أ. د. عبد العزيز شهير^Ψ

قال الأستاذ سعيد التورسي رحمه الله :
" إن الإنسان ثمرة شجرة الخلقة ، والثمرة أكمل الأجزاء وأبعدها عن الجرثوم،
وأجمعها لخصائص الكل... وهي التي من شأنها أن تبقى وتُستبقى..."
(المثنوي العربي)

إلى هذه الثمرة التي تعتبر جوهر هذا العالم ولبه وجه الأستاذ سعيد التورسي رسائل
النور.

إلى هذا المخلوق الفاني الذي أنعم عليه الخالق الباقي بإمكانات تحقيق الكمالات،
توجهت رسائل النور مُنوعةً آليات الخطاب، تستهدفه كفرد ألزم طائرته في عنقه وحُمل
الأمانة فحق عليه أن يرهاها حق رعايتها كما تتوجه إليه ضمن النوع الذي ينتمي إليه
والفصيل الذي يندرج تحت لوائه. إن غاية رسائل النور تليغ حقائق الإيمان لهذا الكائن
الذي يسمو ليتحمل أمانة الخلافة، ويصغر ليكون من أضعف المخلوقات وأحوجهم إلى
يد تدفع عنه تسلط أصغر المخلوقات ممن يفوق وزنه وزنها ملايين المرات.

^Ψ من مواليد مدينة العرائس - المغرب. أكمل دراسته بجامعة غرناطة قسم الدراسات السامية ودرس
بجامعة الكوملوطنسي قسم الدراسات العبرانية والآرامية وتاريخ الأديان في إسبانيا وحصل على
الدكتوراه سنة 1991 شغل منصب رئيس شعبة الدراسات الإسلامية بكلية الآداب بتطوان وأُعيد خبيراً
في أكاديمية المملكة المغربية في الدراسات الموريسكية وهو رئيس وحدة البحث في تاريخ الأديان
والحضارات الشرقية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة عبد الملك السعدي - تطوان - المغرب.
نشر أبحاثاً بالعربية والإسبانية والفرنسية وترجم عن العبرانية والإسبانية القديمة والبرتغالية القديمة
واللاتينية.

إنها تكتفي بتبليغ حقائق الإيمان إلى من هم من أهل الضلالة والعناد الذين أنكروا حقيقة التوحيد وجحدوا النعم، وتجتهد من أجل تمتين صلة أهل الإيمان برهم ؛ وهم الذين اهتموا إلى الحقائق النورانية القرآنية وترقوا إلى أوج الخلافة. وهي كذلك تناظر أولئك الباحثين عن الحقيقة الذين سينقلبون إلى التوحيد وسيشايعون أهل الإيمان في حرهم ضد أهل الإلحاد.

في هذا الإطار العام، نظر الأستاذ النورسي إلى "الإنسان" لقد توجه إليه باعتباره ذاتا عاقلة للعالم، عاقلة للكون. والأبعاد الحقيقية لماهية هذا "الإنسان" ليست تنجلي إلا "الإيمان".

إن الإيمان وحده الكفيل يجعل الإنسان الذي سُويَ خلقا بعد خلق يتمثل مهمة الاستخلاف في الأرض ويرتقي في سلم الكمال ليصبح مؤهلا للتدبر والتفكر في آلاء الله العلي القدير رب السماوات والأرض وما بينهما رب العرش العظيم. وتلك الكمالات فقط تنكشف لهذا الإنسان أسرار الكون، فيصير هذا الأخير كما قال الأستاذ كتابا سطر فيه آلاف آلاف الحقائق تجتمع كلها وتترابط من أجل هدف سام هو معرفة الخالق وتمثل مهمة الأمانة.

يرى الأستاذ أن سمو الإنسان مشروط بنور الإيمان فهو " إما ينمو بنور الإيمان إلى أعلى عليين فيكتسب بذلك قيمة تجعله لائقا بالجنة" أو " يتردى بظلمة الكفر فيكون في وضع يؤهله لنار جهنم، ذلك لأن الإيمان يربط الإنسان بصانعه الجليل، ويربطه بوثاق شديد" إن الإيمان حسب الأستاذ، انتساب. ولهذا يكتسب الإنسان بالإيمان قيمة سامية من حيث تجلي الصنعة الإلهية فيه، وظهور آيات نقوش الأسماء الربانية على صفحة وجوده، بينما يقطع الكفر والجحود ذلك الانتساب

و إذا كان الإيمان هو الحاسم في ترقى الإنسان أو انحطاطه وبالتالي اندارجه ضمن فصيل أهل الإيمان أو سقوطه إلى درك أهل الإلحاد والضلالة والعناد، وبعبارة أخرى، إذا كان الإيمان هو الحاسم في عملية سمو الإنسان وتخلصه من الحيوانية أو سقوطه إلى حقير المادة، فإن حقائق هذا الإيمان مترابطة متلازمة وينبغي تمثلها في صيغتها الشمولية المترابطة. فهذه الذات العاقلة للكون هي جزء من هذا الكون وهي خاضعة إلى الزوال والفناء، إنها خاضعة لقانون إلهي ومدعوة إلى أداء وظيفتها ضمن فسيفساء هذا الكون، كما أنها آيلة إلى محكمة عليا في عالم آخر لا يتبدل ولا يتغير.¹

وبقدر ما تسمو هذه الذات العاقلة تترقى، وتصبح جديرة بأداء أمانة الاستخلاف. وذلك السمو متوقف على درجة التدبر والتفكر عند هذه الذات.

إن الإنسان رغم ما قد يبدو عليه من صور السمو محتاج إلى أكثر أنواع الكائنات وهو ذو علاقة صميمية معها، امتدت رغبته وآماله إلى حيث الأبد². وهذا الإنسان قد يبدو أحيانا "أقل شأنا من النحلة والعصفور وأضعف من الذبابة والعنكبوت"³ كما أن باستطاعته "أن يتجاوز الجبال والأرض والسموات فيحمل ما أشفقن منه" ويكون ظلوما جهولا⁴.

من هذه المنطلقات النورية رأيت أن أقف على "الإنسان" في التوراة والإنجيل. وأشير إلى أن الأستاذ سعيد التورسي رحمه الله كان يحرص في الرسائل على تأكيد أمر مفاده أن حقائق الكتب السماوية تتكامل في القرآن الكريم، وأن كل الدلائل والحجج المرتبطة بتلازم وترابط المسائل المتعلقة بحقيقة الإيمان تثبت صدق القرآن بل وبعبارة الأستاذ: تثبت صدق جميع الكتب السماوية. وعلى ما اعترى هذه الكتب (أعني العهدين القديم والجديد) من تحريف وتبديل بقي فيها من الأمور ما يتكامل مع حقائق القرآن الكريم. وأول ما يطالعنا في التوراة من النصوص المتعلقة بالإنسان هذا النص:

" قال الرب نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض. فخلق الرب الإنسان على صورته. على صورة الرب خلقه. ذكرا وأنثى خلقهم وباركهم، وقال أثمروا واكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض..⁵"

وقد أثارَت هذه الفقرة كثيرا من النقاش عند مفسري التوراة، وهي بقدر ما تؤكد ميزة سمو الإنسان وتحقق الكمالات له ليتحمل الأمانة ويكون خليفة للرب على الأرض، بقدر ما تسببت في تشويش عقدي طال الفكر الديني اليهودي. فقد فهم من جملة "نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا" جانبها المحسوس وسقط من فهموا هذا الفهم في التجسيم إلى درجة أن موسى بن ميمون وهو من شراح التوراة يقول مستنكرا:

" قد ظن الناس أن الصورة في اللسان العبراني يدل على شكل الشيء وتخطيطه، فأدى ذلك إلى التجسيم المحض لقوله: لنصنع الإنسان على صورتنا كمثلنا، وظنوا أن الله على صورة إنسان أعني شكله و تخطيطه فلزمهم التجسيم المحض فاعتقدوه ورأوا أنهم إن فارقوا هذا الاعتقاد كذبوا النص بل يعدمون الإله."⁶

يرى ابن ميمون أن المراد بالجملة المذكورة أعلاه الصورة النوعية الذي هو الإدراك العقلي لا الشكل والتخطيط.

وحسب نصوص التوراة، فإن الإنسان على الرغم من كونه مُنح السمو، ومُنح قدرة التسلط على مخلوقات الأرض تبقى قدراته متفاوتة ويبقى متذبذبا بين الألوهية والناسوتية. فهو وإن تسلط على مخلوقات أخرى يبقى خاضعا للحكم الذي لحق به بعد مخالفة الأوامر الإلهية. لقد أصبح بفعل تلك المخالفة كائنا أرضيا ناقصا ينساق إلى طبيعته الإنسانية: "لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مائة وعشرين سنة".⁷

وهذا الكائن شرير وإن كان ساميا بين الخلائق، فهو يخلق أفكاره التي تنشأ في قلبه، وكل شروره نابعة من الجهل: "قال الرب لا أعود ألعن الأرض أيضا من أجل الإنسان، لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حدثته. ولا أعود أيضا أميت كل حي كما فعلت...".⁸

يقول ابن ميمون: "هذه الشرور العظيمة الواقعة بين أشخاص الإنسان من بعضهم لبعض بحسب الأغراض والشهوات والآراء والاعتقادات كلها أيضا تابعة لعدم، لأنها كلها لازمة عن الجهل، أعني عن عدم العلم، كما أن الأعمى لفقده البصر لا يزال عاثرا مجروحا جارحا لغيره أيضا، لكونه ليس عنده من يهديه الطريق، كذلك فرق الناس، كل شخص على قدر جهله يفعل بنفسه وبغيره شرورا عظيمة في حق أشخاص النوع...".⁹

وشكلت النصوص الواردة في التوراة في موضوع "الإنسان" مادة خصبة لأولئك الذين خاضوا في مسألة الفرق بين الإنسان والحيوان. لقد امتاز هذا المخلوق السامي على جميع المخلوقات بما منحه الله من العقل وملكة التفكير. وصار بذلك كائنا يسمو ويترقى إلى درجة الاستخلاف، فيفكر ويفهم ويميز بين الحق والباطل ويمارس العدل ويدرك قيمة الزمن. كما يمكن أن يسقط إلى أسفل درك الحيوانية فيظلم ويستحوذ ويكفر بأنعم الله. و الإنسان من المنظور التوراتي آخر ما خلقه الرب، فهو يعتبر تنويجا لعملية الخلق، وهو بذلك يعتبر هدفا أساسيا من الخلق، كتبت له السيادة على المخلوقات. وعلى الرغم من هذه السيادة هو كائن ناقص، وجوده مشروط بوجود تلك المخلوقات حتى ما كان منها ضعيفا. إنه يحتاج إلى الغذاء... وأيامه معدودة، وليس أمامه إلا الاختيار بين طريقين:

- طريق الطاعة والخضوع للرب لينتهي إلى السعادة الأبدية.
 - وطريق العصيان الذي مآله الخسارة والندم.
- و الكل حسب التوراة باحث عن السعادة والخلود، غير أن سالكا فقط من بين هؤلاء السالكين ومن كان من شاكلته، يصل إلى المراد الذي من أجله أنزل الله كتابه وأرسل رسله وأعد جنته ووعد بجزائه.

في هذا المعنى قال ابن ميمون:

إن السلطان في قصره، وأهل طاعته كلهم، منهم قوم في المدينة، ومنهم قوم خارج المدينة. وهؤلاء الذين هم في المدينة: منهم من قد استدبر دار السلطان ووجهه متجه في طريق أخرى، ومنهم من هو قاصد دار السلطان ووجهه متجه إليه وطالب دخول داره والمثول عنده، لكنه إلى الآن ما رأى قط سور الدار، ومن القاصدين من وصل إلى الدار وهو يدور حولها يطلب بابها، ومنهم من دخل من الباب، وهو ماش في دهاليز، ومنهم من انتهى إلى أن دخل قاعة الدار، وحصل مع الملك في موضع واحد، وهو دار السلطان. وليس بمحصوله في داخل الدار يرى السلطان، أو يكلمه بل بعد حصوله في داخل الدار لا بد له من سعي آخر يسعاه، وحينئذ يحضر بين يدي السلطان ويراه على بُعد، أو عن قرب أو يسمع كلام السلطان، ويكلمه.¹⁰

إن الموقع من دار السلطان يتحدد باعتبار تحصيل العقيدة. فالذين هم خارج الدار لا عقيدة ولا مذهب لهم. وهم ممن غلبت عليهم الصيغة الحيوانية. وهم وإن كانوا من مرتبة الموجودات يبقون دون مرتبة الإنسان. وهناك من فصائل الناس من عُد من أهل الرأي والنظر، إلا أنه حصلت له آراء غير صحيحة إما من غلط وقع فيه أو غلط نشأ عن تقليده لغيره، وهذا من أخطر الفصائل لأنه قد يُضل غيره.

وهناك فصائل أخرى أكثر إنسانية مثل أهل الشريعة وهؤلاء أنواع، منهم الواصل ومنهم التائه بين الدهاليز، ومنهم من أعمل فكره بعد كماله في الإلهيات فأقبل على الله عز وجل ونأى على من سواه فاستحق أن يكون في حضرة الخالق وهذه درجة الأنبياء. كل هذه المعاني التوراتية نجد لها ما يقابلها في رسائل النور. وقد أشرنا عليها في بداية هذا البحث.

إذا انتقلنا إلى الإنجيل وجدنا أن كل هذه المعاني سوف تُركى خاصة وأن سياق النبوة واحد.

قال السيد المسيح عليه السلام: " لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس بل لأتممه. الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة من الشريعة حتى يتم كل شيء، فمن خالف وصية من أصغر هذه الوصايا وعلم الناس أن يعملوا مثله، عُد صغيراً في ملكوت السماوات".¹¹

إن الإنسان حسب ما تردد في الأناجيل مخير بين أمرين اثنين: الاندراج في ملكوت الرب باتباع الشريعة أو الطرد من ذلك الملكوت بالابتعاد عنها. إن الإنسان مدعو في الإنجيل بأن " لا يجمع له كنوزاً على الأرض حيث يُفسد السوس والصدأ كل شيء

وينتقّب للصوص ويسرقون" ¹² إنه مدعو إلى أن يجمع كنوزا في السماء حيث العالم الذي لا يزهو ولا يتغير. والإنسان مدعو في الإنجيل بأن يسلك الباب الضيق، لأن الطرق المؤدية إلى الهلاك سهلة وواسعة. ¹³

وإذا كانت أسفار موسى وكتابات الرسل والكتابات لم تول كبير عناية للعالم الآخر فإن الأناجيل وبقاى مكتوبات العهد الجديد ركزت على ذلك العالم. إن هذه الدنيا الفانية ليست إلا محطة للتزود، والسعادة الحقيقية تتحقق بالمرتبة التي سيحنيها الفرد في عالم ملكوت السماء.

هذه بعض ما اجتمع لدي من مسائل متعلقة بالإنسان في التوراة والإنجيل من منظور نورى، وقد عمدت في تقديمها إلى سلوك باب الاختصار، ولم أتطرق فيها إلى ما جاء في مسألة الخطيئة وغيرها من الأمور التي فيها خلاف بين الإسلام والمسيحية واليهودية. إن ما ذكرته يتكامل. إن هذا الإنسان وُجد لغاية، استخلف في الأرض وسيُبحن ويُمتحن في محكمة عليا فيجازى إن كان محسنا ويعاقب إن كان مذنبا، إن لكل أمر معنى وموقعا في هذا الملكوت. لقد أحكم الله عز وجل صنع هذا الكون فكل شيء فيه بقدر، وكل شيء فيه متلازم ومترايط ومتراص. وليس الإنسان في هذا الكون إلا كأدق جزء ذرة في بحر لحي وحده الرب سبحانه يعلم شُطآنه ومكوناته.

وتبقى الإنسانية "قصيدة حكيمة منظومة تعلن إعلانا لطيفا جميع تجليات الأسماء الإلهية القدسية، وهي معجزة قدرة باهرة جامعة كالنواة لأجهزة شجرة دائمة باقية" ¹⁴. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

الهوامش

- 1 انظر ما جاء في رسالة الحشر- الكلمة العاشرة.
- 2 انظر الكلمة الثالثة والعشرون - الكلمات ص:359
- 3 نفسه ص:360
- 4 نفسه ص:360.
- 5 سفر التكوين الإصحاح الأول، 26-30.
- 6 دلالة الحائرين ، ص:22-23
- 7 سفر التكوين، الإصحاح الثالث،6.
- 8 سفر التكوين الإصحاح الثامن.21.
- 9 دلالة الحائرين، ص:495.
- 10 انظر دلالة الحائرين ص: 714-715-716.
- 11 إنجيل متى الإصحاح الخامس،17-19.
- 12 إنجيل متى الإصحاح السادس،19
- 13 إنجيل لوقا الإصحاح الثالث عشر' 24 وإنجيل متى الإصحاح السابع،13.
- 14 المثنوي العربي، ص:361

الإنسان في القرآن الكريم بمنظور رسائل النور للداعية سعيد النورسي

أ00: وهبة الزحيلي^Ψ

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى صفوة عباده وسله وأوليائه وأئمة العلم والهدى إلى يوم الدين، وبعد:
فهذا بحث تحليلي عن (الإنسان في القرآن الكريم. منظور رسائل النور) لمؤلفها الداعية والعلامة المصلح بديع الزمان النورسي، يتبين فيه أن الإنسان وسيلة وغاية، ونجاح الوسيلة يتحقق بالإعداد الإلهي السديد للإنسان، وتسليحه بإمكانات وطاقات عجيبة وغريبة، مكّنة من الإفادة من مخزونات الكون، ووجهة نحو الوصول إلى الغاية القريبة في الدنيا: وهي إعمار الكون وتقديمه، وتحميله من خلال أعمال الفكر والعقل البشري، ودفع عجلة البناء بعزيمة قعساء وهمة علياء، لا تعرف التوقف أو الفتور والكلل. ثم التوصل إلى الغاية البعيدة في الآخرة وهي الحياة الدائمة في عالم الخلود، وتحقيق حلم السعادة عند الأسوياء، الذين صحت عقيدتهم أو إيمانهم، وعملوا صالح الأعمال التي تبوّههم هذه المنزلة الرفيعة.

ولقد وجدت من خلال قراءتي لرسائل النور للداعية الكبير سعيد النورسي¹ تصوراً شاملاً لحقيقة الإنسان في القرآن موضع العناية الإلهية، وصبغة الله تعالى الحكيمة، بما يشمل تكوين الإنسان، وبناء عقيدته، وتوظيفه الفطري لعبادة الله سبحانه بالتكليف وتحمل أمانته، وتقرير الحرية والاختيار له ضمن إطار المشيئة الإلهية الشاملة.

^Ψ رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه في كلية الشريعة بجامعة دمشق. له مؤلفات عدة وفي مقدمتها: الفقه الإسلامي وأدلته والتفسير المنير

خطة البحث:

- تكوين الإنسان.
- كونه غرسة الإيمان.
- مظاهر صبغة الله فيه.
- تكريمه وتسخير الكون له.
- تكليفه وإعداده المادي والمعنوي.
- توجيهه لتحقيق الهدف من إيجاداه أو إعداده للحياة الأبدية.
- مخاطبة جميع الناس.
- هل حقق الإنسان رسالته في الحياة؟.

← تكوين الإنسان:

الداعية المصلح النورسي شديد الإخلاص لربه ولدينه، يتفاعل مع الناس والأحداث والوقائع، وأحوال الأمة، فيسره سرورهم واستقامتهم وعزتهم، ويؤله قلقهم واضطرابهم وانحرافهم، لذا عني بالإنسان وقضيته وحاضره ومستقبله عناية كبرى، وتأمل تأملاً عميقاً بحقيقة الإنسان من خلال ثقافته القرآنية ومعرفته بشرائع دينه وآدابه.

وتحدث عن الإنسان في رسائل النور أو الشعاعات في موضوعات مختلفة. فآله ما آلت إليه الثقافة الغربية وريثة الحضارة الرومانية المادية، ولمس آفاتهما ونقائصهما ومقتل الداء فيها، بقيامها على النزعة المادية الطاغية، والفردية القاتلة، والتصوير بأن الإنسان مجرد آلة أو مادة، لا يهم إلا إرواء مطالبه المادية وشهواته الذاتية، وأهوائه المسيطرة، مع قطع الصلة بالروحانيات والمعنويات والنزعة الدينية الفطرية التي هي كائنة بالفطرة في كل نفس إنسانية. ولم تقتصر مفاهيم تلك الثقافة على أهلها، وإنما انتشرت في العالم الإسلامي وغيره بسبب قوة الغرب، وتراكم الضعفاء والمنهزمين لتقليدها في كل ما هبَّ ودب. وتسلت هذه النزعة المادية تدريجياً إلى بلاد الشرق الإسلامي، فأصبح بعض المسلمين مشغولين فقط بإرواء رغائبهم المادية.

لقد أدرك النورسي بثاقب نظره تكامل الحقيقة الإنسانية الجامعة بين الاعتبارات المادية والمعنوية، وبين متطلبات الجسد والروح، ففي قرارة كل إنسان ظمأ إلى الدين، وإشباع عواطفه ومشاعره، وحاجته إلى الذات الإلهية وإحساسه بالضعف أمام الحق جل جلاله.

وهذه الحقيقة القرآنية لها ارتباط وثيق بالإيمان وأصوله، وأبعاده وآفاقه، بل هي جسر لبناء عالم الدنيا والآخرة، ومعبر للربط المحكم بين آيات الكون ودلالاتها العقدية في غرس شجرة الإيمان في النفس البشرية، وتحقيق المطامح الذاتية والاجتماعية، القائمة على الطبيعة الإنسانية الجسدية والروحية، والمتفاعلة على الدوام مع استعدادات الإنسان الفطرية وسجاياه السامية، ومشاعر المروءة والمحبة والأخوة الإنسانية لديه.

وقيمة الإنسان الفعلية تبدو في هذا التكامل الجسدي (أو المادي) والروحاني (أو المعنوية) بل إن إنسانيته لا تبرز ولا تسمو إلا بالروح، لا بالجسد وحده. ولا يتميز الإنسان إلا بمعانيه وقيمه. ودينه وهو الإسلام منبع الفضائل كلها، ومجمع المحاسن برمتها، ومن أخصها الرقة أو الرحمة، والشفقة والغيرة، والعقل والوعي². وقال أيضاً عن كمال الإنسان وركبه: (وما دام كمال الخالق الذي أوجد الكون في الكمال هو ثابت ومحقق، وما دام كمال الإنسان الذي هو أفضل ثمرة للكون، وخليفة الله في الأرض، وأكرم مصنوع وأحب مخلوق للخالق سبحانه وتعالى، حقيقة ثابتة أيضاً³).

إن تكوين الإنسان المادي والمعنوي له دلالاته في تحقيق رسالة الإنسان في الحياة، وفي بناء العقيدة، وفي إدراك متطلبات المستقبل الأخروي. وكل بُعد عن أصالة هذا التكوين مرض عضال، وخطر على الإنسان نفسه، ولا يهدأ الإنسان وتطمئن نفسه ويشعر بوجوده الحقيقي الآمن إلا في مظلة العقيدة السوية الجامعة بين معاني الإحساس بالحاضر، والتطلع للمستقبل الهانئ السعيد، بل إن الممارسة الفعلية والتفاعل مع العقيدة هو محور المصادقية، وأساس الثقة والارتياح لجدوى الحياة وغاية الإنسان وتحقيق حلمه في الخلود الأبدي، لأن طعم الحياة الدنيا موقوت وقليل، ومذاق الآخرة خالد وغير محدود، قال الله تعالى: {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [الأعلى: 16-17]

◀ كون الإنسان غرسة الإيمان:

الإنسان في تقدير العالم الرباني ولا سيما الإمام النورسي رحمه الله، بما توافر لديه من أعجوبة الخلق والإحكام، والاكتمال والانسجام، والحواس والمشاعر، والعقل والإدراك، يدل دلالة قاطعة بهذا التكوين البديع والتعقيد والتركيب العجيب، على وجود الإله الخالق القادر، العزيز المهيمن، الصانع المبدع، فهو غرسة الإيمان القوية الدالة على الله تعالى. وهذا ما عبر عنه النورسي في مناسبات كثيرة من رسائله، فقال: زبدة الكلام: مثلما تتوجه الثمرة إلى مالك شجرتها من حيث كونها مفيدة، وترنو إلى جميع أجهزة تلك الشجرة وأغصانها وماهيتها من حيث نواها، وتنظر إلى جميع ثمار تلك الشجرة من حيث سكنتها المضروبة على وجهها والموجودة في مثيلاتها، فتقول جميعاً: (نحن على نخط

واحد، صدرنا من يد واحدة، ونحن ملك لملك واحد، فالذي خلق واحدة منا هو خالق جميعنا بلا شك).

كذلك الأمر في الكائن الحي الذي هو في نهايات دائرة الكثرة، ولاسيما الإنسان، وبخاصة من حيث العلامات الفارقة الموجودة على وجهه، ومن حيث ما في قلبه من فهرس، ومن حيث ما في ماهيته من نتائج، تتوجه كلها إلى الذي يمسك السموات والأرض بربوبيته الجليلة، وتشهد على وحدانيته جلّ وعلا⁴.

وقال النورسي في موطن آخر من رسائله:

نعم، فما من نوع من أنواع الصخور التي في الجبال، ولا قسم من أقسام المواد التي هي علاجات لمختلف الأمراض والعاهات، ولا جنس من أجناس المعادن المتنوعة جداً، والتي تلزم الأحياء ولاسيما الإنسان، ولا صنف من أصناف النباتات المزينة بأزهارها الجبال، وبأثمارها القفار..

إلا وتشهد بداهة على وجوب وجود صانع ذي قدرة غير متناهية، وحكمة غير متناهية، ورحمة غير متناهية، وكرم غير متناه؛ بما فيها من الحكم والانتظام وحُسن الخلق والفوائد، مما لا يمكن نسبتها إلى المصادفة⁵.

وفي معنى هذه الكلمة المشرقة قال أيضاً معبراً عن خطاب النباتات لله عز وجل بلسان الحال: كما أن النباتات والأشجار تعرفك-أي يا الله- وتعلم صفاتك القدسية وأسمائك الحسنى، فليس في الأحياء المألوفة للروح كالإنسان والحيوانات من فرد لا يشهد على وجوب وجودك، وعلى تحقق صفاتك، بأعضاء جسمه الداخلية منها والخارجية.. لأن هذه الصنعة الدقيقة ببصيرة، والحكمة اللطيفة بشعور، والموازنة التامة بتدبير، لا يمكن أن تتدخل فيها القوة العمياء، ولا الطبيعة الصماء، ولا المصادفة العشوائية، فلا يمكن أن تكون هذه الأمور من أعمالها⁶. وهذا ما عبر عنه الأقدمون: وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد. ويمكن تلخيص هذه الكلمات وأمثالها بأن الإنسان وغيره من المخلوقات دليل على وجود الخالق، وليس هناك أي قوة في العالم تخلق شيئاً كخلق الله، وكل ذلك مستمد معناه من القرآن العظيم، قال الله تعالى: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [النحل:17] وقال سبحانه: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف:54] {هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} [لقمان:11] {صَبَّغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صَبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ} [البقرة:138]

أي إن دليل الخلق والإيجاد: هو الدليل الوحيد القاطع الذي أورده القرآن لإثبات وجود الخالق. ويتحدى الله تعالى بالخلق أي موجود آخر يقدر على مثل خلقه، فقال

سبحانه: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ } [الحج:73].

◀ مظاهر صبغة الله في الإنسان:

الإنسان منحة الخالق، وهبة الله وعطاؤه، ومستودع أسرارهِ، وفيهِ شيء من صفات الله تعالى، وإن كانت محدودة مؤقتة، وأما صفات الله فهي غير محدودة ولا متناهية، وسرمدية دائمة.

ومن هذه الصفات: الحياة، والإرادة، والعلم، والقدرة، والتدبير، والسمع والبصر، والجمال، وغيرها من المعاني؛ لأن الإنسان وجد من روح الله وكلمته التكوينية وأمره المعبر عنه بقوله سبحانه: { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ } [يس:82]. واقتضت صبغة الله في الإنسان توافر معانٍ وخواص كثيرة فيه، لاحظها النورسي رحمه الله وهي ما يأتي:

أ. إنه مظهر لتجليات أسماء الله الحسنى فيه: قال النورسي في رسائل النور: (وكذا في الإنسان نقوش الأسماء الحسنى وتجلياتها، فهو بهذه النقوش والجلوات يشهد على تلك المعاني المقدسة)⁷ وقال في موضع آخر يوضح بقاء هذه التجليات في عالم الآخرة: (ثم إن الأسماء الحسنى المتجلية على الإنسان تشير إلى أن الذي هو مرآة عاكسة لتجليات تلك الأسماء في هذه الحياة القصيرة الفانية، سيحظى بتجلياتها الأبدية في عالم البقاء)⁸. وكذلك أسماء الله العديدة ذات دلالات عظيمة، فهو سبحانه الجليل والجميل والتقدير والمهيمن والرحيم واللطيف.. الخ.

ب. قوة ذاكرة الإنسان وحافظته:

الذاكرة الإنسانية عجيبة، تستكن فيها ذكريات الماضي، وتاريخ الأمم والشعوب، وأحداث الحياة والبشرية، ودقائق العلوم وآفاقها، وغير ذلك من أنواع اللطائف والمعارف والإشارات والشعاعات، فلا تنساها وتستحضرها بما يسمى في علم النفس (تداعي الأفكار) وكأن تلك المعلومات المختزلة تتفجر في الذاكرة الحافظة في أدق المناسبات. قال النورسي: (ثم إننا نرى أن وظائف المخلوقات تُنسج على منوال الحكمة، وتُكامل بميزان العدل، وهما من الدقة والحساسية لا يتصور الإنسان أفضل منهما.. فتري الحكمة الأزلية قد وهبت للإنسان قوة حافظة -كحبة الخردل حجماً- وكتبت فيها تفاصيل حياته وما يمسسه من أحداث لا تعد، وكأنها مكتبة وثائقية صغيرة جداً، ووضعتها

في زاوية من دماغه، لتذكره دوماً بيوم الحساب، يوم تنشر ما فيها من صحائف الأعمال) وقال أيضاً: (ثم إننا نرى (حفيظية) مهية محيطية بادية للعيان، تحكم على كل شيء حي، وتهمين على كل حادث، تحفظ صورته الكثيرة، تسجل أعمال وظيفته الفطرية، تدون تسيبحاته التي يؤديها - بلسان الحال - تجاه الأسماء الحسنى.. تدونها في لوحات مثالية، في بُذيراته ونوياته، في قوة الحافظة، وهي نماذج مصغرة للوح المحفوظ، ولاسيما في حافظة الإنسان التي هي مكتبة عظمى مصغرة جداً موضوعة في دماغه)⁹.
وأضاف في موضع آخر: "فمثلاً، إن خلق القوة الحافظة والخيالية والمفكرة وأمثالها من المكائن العجيبة، في موضع صغير في دماغ الإنسان، لا يتجاوز حجم جوزة واحدة، وجعل القوة الحافظة بمثابة مكتبة ضخمة، يبين انه سبحانه وتعالى يظهر نفسه بتجليات العلم الأزلي بياناً واضحاً كالشمس في رائعة النهار)¹⁰.
وهذا كله من صفات الله سبحانه، فقال: { وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا } [مرم:64]

ج. كون الإنسان مظهر الجمال الإلهي:

الإنسان وجميع ما في الكون يعبر عن جلال وجمال الله الصانع المبدع، ويعرف به وموازينه الدقيقة جداً، ولا سيما في إبداع خلق السموات والأرض، ومنها جمال النباتات والأزهار، قال النورسي (وترى العدالة المطلقة تضع كل عضو من الكائن الحي في موضعه اللائق به، وتنسقه بموازين دقيقة حساسة، ابتداء من مكروب صغير إلى كركدن ضخيم، ومن نحل ضعيف إلى نسر مهيب، ومن زهرة لطيفة إلى ربيع زاه بملايين من الأزهار.. وترها تمنح كل عضو تناسباً لا عبث فيه، وموازنة لا نقص فيها، وانتظاماً لا ترى فيه إلا الإبداع، كل ذلك ضمن جمال زاهر وحسن باهر، حتى تغدو المخلوقات نماذج مجسمة للإبداع والإتقان والجمال)¹¹.

وقال في مكان آخر من رسائله: (نعم، إن هذا الكون مرآة تعكس الجمال السرمدى والحسن غير المحدود، بل من تجلياته سبحانه، وما في الكون من جمال وحسن آت من ذلك الحسن السرمدى، ويتجمل بالانتساب إليه فيرقى ويعلو.. إذ لولا ذلك الانتساب، لتحول الكون إلى مآتم موحش وأخلاق ودمار وفوضى ضارب أطنابه)¹².
وهذا ما عبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (إن الله جميل يحب الجمال)¹³.

د. الإنسان ثمرة التوحيد:

الله واحد لا شريك له في ذاته، وصفاته، وأفعاله، فهو المتفرد بالألوهية والربوبية، ولا تشابه بينه وبين المخلوقات الحادثة: { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [الشورى:11]

وينعكس ذلك على الإنسان في ذاته وسجاياه وخصائصه، قال النورسي في رسائله، علماً بأنني لم أجد عند جميع المتكلمين في العقيدة مثل كلامه في ذلك: (نعم، إن الإنسان بسرّ التوحيد، صاحب كمال عظيم بين جميع المخلوقات، وهو أثن ثمرات الكون، وألطف المخلوقات وأكملها، وأسعد ذوي الحياة، ومحاطب رب العالمين، وأهل ليكون خليله ومحبوبه.

حتى إن جميع المزايا الإنسانية، وجميع مقاصد الإنسان العليا مرتبطة بالتوحيد، وتتحقق بسرّ التوحيد، فلولا التوحيد لأصبح الإنسان أشقى المخلوقات، وأدنى الموجودات، وأضعف الحيوانات، وأشدّ ذوي المشاعر حزناً وأكثرهم عذاباً والمأ...¹⁴ الخ.

ثم ضرب النورسي أمثلة لذلك من العقل، والشفقة والحنان، والمحبة وجميع مطالبه الدقيقة ومقاصده الكلية التي لا تتحقق بغير سرّ التوحيد:

وهذا المعنى مستمد من قول الله تعالى في بيان تحقيق مقاصد الإنسان بسبب التوحيد: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر: 29] هذا مثل للمشرك والموحد، فمن كان مشركاً يتنازعه الشركاء، ومن كان واحداً لا نزاع فيه أو معه، والله واحد لا نزاع بين عباده المؤمنين به، ويرعاهم بفضله، على عكس الشيء المشترك، يثور بين الشركاء فيه.

هـ حب الإنسان للبقاء:

الإنسان بطبعه أو فطرته يحب الحياة والبقاء في الدنيا، ويكره الموت والزوال عن عالم الدنيا، لما فيها من إغراءات ولذائذ وشهوات، ولتخوفه من مخاطر الفناء والحساب، وجهله بما عند الله تعالى من ألطاف المكارم والعطايا مالا يوازيه شيء في الدنيا، وكذلك يحب الإنسان الخلود والبقاء في الآخرة.

قال النورسي رحمه الله في رسائله: (فمثلاً، في الإنسان رغبة ملحة شديدة للبقاء، فلا يحقق له هذه الرغبة إلا من يتصرف في الكون كله بسهولة مطلقة، يفتح باب الآخرة بعد أن يسد باب دار الدنيا، كفتح باب منزل وغلق آخر. ففي الإنسان ألوف من الرغبات الإيجابية والسلبية، أمثال هذه الرغبة، رغبة البقاء، تلك الرغبات ممتدة إلى جهة الأبد والخلود ومنتشرة في أقطار العالم كله).¹⁵

وهذا لأن الله تعالى هو الصانع الفاطر الباقي، فلا حزن على زوال المصنوع لبقاء مدار المحبة في صانعه كما قال النورسي¹⁶، قال الله سبحانه: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ

القيوم..} [البقرة:256] وقال: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [الرحمن:26-27].

وقال النورسي أيضاً عن الإنسان: (وهو أشد شوقاً إلى البقاء، وأكثر حاجة إلى الخلود، بل هو الأجدر به.. وهو الذي يتوسل لأجل البقاء والخلود بأدعية غير محدودة، فلو أعطي له ما في الدنيا من متع، لما شفت غليله للخلود.. وهو الذي يحب الذي أنعم عليه حباً لحد العباداة، ويحببه للآخرين، وهو المحبوب أيضاً..)¹⁷. (وكما أنه يحب البقاء في الدنيا الفانية، فهو يتوق إلى بقاءه في الدار الباقية)¹⁸.

ومسيرة لحب الإنسان في البقاء والخلود الأخروي، دعا جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام إلى الحياة الباقية والسعادة الأبدية، وبشروا البشرية بها، وأثبتوا صدق دعواهم بما لا يحدد من المعجزات والدلائل القاطعة. قال النورسي: (فهل من الممكن لهذا الخالق الجميل، الصانع الجليل، الله ذي الكمال، ألا يجعل دار ثواب وجزاء؟ وألا يقيم الحشر والنشر لنوع الإنسان الذي يقابل بالشعور والعقل في هذه الدنيا الفانية جميع مقاصد ذلك الخالق الكريم، والذي يجب ذلك الخالق، ويحببه بجميع استعداداته، والذي يعرفه ويعرفه، ويتوسل إليه بأدعية لا حد لها لبلوغ السعادة الأبدية والبقاء الأخروي..)¹⁹.

و- سجايا الإنسان من خصائص صفات الله:

الإنسان مدين بطبائعه وسجاياه الحميدة وخصاله الفريدة، وتحقيق حاجاته لله وحده الموحّد الكامل في ذاته وصفاته، لأنه صاحب الجمال الإلهي، والكمال الرباني اللذين يظهران في التوحيد وفي الوحدانية، فالإنسان إذا أحسن فعل شيء وإتقانه، فلأن الله هو المتقن، وإذا أعطي شيئاً فلأن الله تعالى هو المعطي وهو واسع السخاء والجود، وإذا صبر فبتصبير الله، وإذا رضي واطمأن فبإرضاء الله: {أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد:28] وإذا منع شيئاً عمّن لا يستحق فلأن الله هو المانع، وهكذا جميع أسماء الله الحسنى تنعكس آثارها على الإنسان في حالته المعتدلة ومزاجه الصحيح قال النورسي رحمه الله: (إن مقام الإنسان الراقي وتفوقه على سائر الأحياء وامتيازها عليها، إنما هو لسجاياه السامية، ولاستعداداته الفطرية الجامعة، ولعبوديته الكلية، ولسعة دوائر وجوده.. هذا الإنسان يكسب سجايا المروءة والمحبة والأخوة والإنسانية على أساس حاضره الضيق، وتتحدد عنده على وفق مقاييسه وموازينه المحدودة..)²⁰

ز- تمييز الإنسان عن غيره من المخلوقات:

مَيَّزَ اللَّهُ تَعَالَى الْإِنْسَانَ وَفَضَّلَهُ عَلَى أَكْثَرِ بَقِيَةِ الْمَخْلُوقَاتِ الْكُونِيَّةِ، الْحَيَّةِ وَالْجَامِدَةِ، كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} [الإسراء:70].

وقد أوضح النورسي رحمه الله هذه الظاهرة، فقال أكثر من موضع من رسائله: (كذلك الأمر في الكائن الحي الذي هو في نهايات دائرة الكثرة، ولا سيما الإنسان، وبخاصة من حيث العلامات الفارقة الموجودة على وجهه ومن حيث ما في قلبه من فهرس، ومن حيث ما في ماهيته من نتائج، تتوجه كلها إلى الذي يمسك السموات والأرض بربوبيته الجليلة، وتشهد على وحدانيته جل وعلا)²¹.

وفي مناسبة أخرى قال النورسي: (وعلى وجه الإنسان تشاهد علامة وحدانية يبينها وجود العلامات الفارقة في وجه كل إنسان، بحيث تميزه عن جميع الوجوه الأخرى في الأرض كافة)²².

ح - الإنسان عالم مصغر عن الكون:

يرى النورسي أن الإنسان نموذج مصغر لخريطة الكون، فهو كون مصغر، وكل إنسان عالم أصغر، لما اشتمل عليه من تركيب دقيق وعظيم وشامل، فهو بذرة معنوية لشجرة الكون، ومرآة رقيقة لأكثر الأسماء الإلهية، فقال: والمؤمن لو نظر إلى الكائنات، وأبصرها ببصر الإيمان يجدها على صورة إنسان كبير، متسربل بسبعين ألف حلّة قشبية مخبطة بالرحمات والخيرات والحكم، بعضها فوق بعض، كأنها حورية من الجنة، لبست سبعين حلّة من حللها، ويجدها باسمه دوماً بالرحمة ضاحكة مستبشرة، ويشاهد نوع الإنسان الذي فيه كوناً مصغراً، وكل إنسان عالماً أصغر. وأضاف قائلاً:

إن الذرة والجزء والجزئي والنواة والإنسان ليست بأقل صنعة وجزالة من النجم، والكل، والكلبي، والشجر، والعالم. الإنسان الذي هو كون صغير ليس بأقل إبداعاً من الكون العظيم، من حيث إنه في أحسن تقويم، ويملك أجهزة خارقة جامعة مهيأة للقيام بألوف الوظائف العجيبة.

والله الذي جعل الإنسان أشبه ببذرة معنوية للعالم، وثمره جامعة له، ومظهر لجميع أسمائه الإلهية، ومرآة لها، ومرتبطة بالكائنات كلها وخليفة للأرض²³.

ط - الإنسان عاجز ضعيف فقير محتاج لربه:

الإنسان ضعيف أمام قدرة الله المطلقة غير المحدودة، فيحس بأعماق نفسه أنه محتاج إلى ربه، فقير لإمدادات خالقه، فلا يستغني عنه لحظة واحدة، في أي حركة وسكنة، أو

في صحة وعافية، أو في غنى وفقر أو في رزق وعدم، أو في منصب وجاه وذل وانكسار أو في غير ذلك من الأحوال، بسبب الحاجة إلى القوة والمدد والتوفيق الإلهي، قال الله تعالى: { يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا } [النساء: 28]. وهذا ما عبر عنه الثورسي رحمه الله في مناسبات كثيرة، فقال في رسائله: (وكذا الإنسان بضعفه وعجزه وفقره وجهله يؤدي وظيفة المرأة - بشكل آخر - إذ يشهد بها على صفات من يرحم ضعفه وفقره، ومن يمد عجزه، أي يشهد على قدرته جل وعلا، وعلى علمه وعلى إرادته، وهكذا على سائر صفاته الجليلة)²⁴ وقال أيضاً: (يجد الإنسان بانتسابه إلى السلطان ذي الجلال - بالإيمان والعبودية - مستنداً قوياً، ومرتكزاً عظيماً يهتمي إليه في دفع أعدائه كافة، ويجد فيه كذلك مدار استمداد يستغيث به لقضاء حاجاته وتلبيته رغباته وآماله كافة)²⁵.

ويقول أيضاً عن الإنسان: (وهو الأكثر فاقة وعجزاً من بين أحياء الكون: وهو الكائن الحي العاجز الفقير بلا حدود، مع أن له أعداء ومؤذيات بلا عد، ومقاصد وآلاماً بلا حد..)²⁶.

ي - محبة الإنسان للملائكة:

المؤمن لا يكتمل إيمانه إلا بالإيمان بالملائكة الكرام، وعليه أن يحبهم، لأنهم رسل الله، المفوضون بأمره، بشؤون العباد، ومنهم الأربعة العظام: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل.

فجبرائيل أمين الوحي الإلهي الذي هو نظام الحق لحياة الإنسان، وميكائيل موكل بإنزال المطر، وإسرافيل بنفخ الصور لموت الخلائق قاطبة، وللنشر من القبور، وعزرائيل الذي يخاف منه الإنسان، لتوكيله بقبض الأرواح، يكون للإيمان به ثمرة، وهو حفظ الإنسان من العبث والضياح والفناء قبل مجيء الأجل الحتمي.

وللإيمان بالملائكة الموكلين بتسجيل أعمال الإنسان بأمانة فائدة مهمة جداً هي حفظ أعمال الإنسان من الضياع²⁷، فهو المحقق لدخول الجنة بأمر الله، وهم الذين يصورون أعمال الإنسان في مناظر خالدة. حتى إن وجود ملائكة الشمال مفيد أيضاً، لإثبات ظاهرة العدل بين الناس قاطبة.

ك - تدوين أفعال الإنسان:

إن الصانع الجليل العادل يدون أعمال الإنسان صغيرها وكبيرها ولا يضيع منها ذرة واحدة، كما قال سبحانه: { وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا

وَأِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ { [الأنبياء:47]. وهذا ما أدركه النورسي بدقة قائلاً: (وهلّ يمكن لهذا الحاكم الحكيم، العليم الرحيم، ألا يسجل أعمال الإنسان التي تتعلق بالكائنات؟ وهل يمكن ألاّ يدون أفعاله للثواب والعقاب، ولا يكتب سيئاته وحسناته في ألواح القدر؟ حاشا لله وكلا بعدد حروف ما كتب في اللوح المحفوظ المقدر²⁸.

◀ تكريم الإنسان وتسخير الكون له:

كرّم الله الإنسان أيما تكريم، وجعله أكرم مخلوق، وأفضل كائن حي، وزوّده بطاقات هائلة لبناء حياته، وخلقها في أحسن تقويم، وسخرّ له جميع ما في السموات والأرض، من أجل عيش كريم، وحياة سعيدة، وهذا ما دلت عليه النصوص القرآنية الكثيرة، مثل قوله تعالى: { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا } [الإسراء:70]. وقال سبحانه: { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ } [التين:4] وقال عز وجل في تسخير المواد الكونية والذخائر الأرضية للإنسان: { أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } [لقمان:20]. { وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ } [الجاثية:13]، { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا } [البقرة:29] أي جعل جميع ذخائر الأرض وثرواتها من معادن وقدرة على الإنبات وغيرها مختصة بكم على جهة الانتفاع والاستثمار والاستنباط.

وردد النورسي رحمه الله هذه المعاني القرآنية كلها في رسائله، فقال عن كون الإنسان أفضل مخلوق: (فما دام الأمر هكذا، فإن دعاء للسعادة الأخروية والبقاء والخلود - وهو أفضل دعاء وأعمه، ويمس جميع الكائنات ويرتبط بجميع الأسماء الحسنى، وبجميع الصفات الجليلة - هذا الدعاء يسأله أفضل مخلوق - وهو الإنسان - ويضمه ضمن أدعيته أعظم عبد وأحبه إلى الله، ذلك الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم)²⁹.

وقال عن كون الإنسان مخلوقاً كاملاً في خلقه وتكوينه وجماله: (لأن كل ذي شعور يعلم أن الله سبحانه قد خلق هذا الإنسان في أحسن تقويم، ورباه أحسن تربيته، وزوّده من الأجهزة والأعضاء - كالعقل والقلب - ما يتطلع به إلى السعادة الأبدية ويسوقه نحوها...)³⁰.

وقال عن ادخار خيرات الأرض للإنسان: (وما دام لابن آدم - الذي له هذه الماهية والمزايا خلقية وطبعاً، وله حاجات لا تُحدّ مع ضعفه الشديد، وآلام لا تُعدّ مع عجزه الكامل - ربّ قدير، له من القدرة والرأفة المطلقة ما يجعل هذه الأرض الهائلة العظيمة

مخزناً عظيماً لأنواع المعادن التي يحتاجها الإنسان، ومستودعاً لأنواع الأطعمة الضرورية له، وحنوتاً للأموال المختلفة التي يرغبها، وأنه سبحانه ينظر إليه بعين العناية والرفقة، ويرببه، ويزوده بما يريد³¹.

وحول أهمية الإنسان عبر النورسي بتعبير موجز عن مدى تلك الأهمية، فقال: (وهكذا فقد منح سبحانه جامعية من جهات كثيرة جداً، ووهب له من الاستعداد ما يجعله مرآة كاملة لأحدثه وصمدانيته، ويمكنه من أن يلي عبودية كلية واسعة، ربوية كلية مقدسة)³². وقال أيضاً: (وإن إيجاد حياض رحمة كهذه للإنسان القادم ضعيفاً إلى مضيف الدنيا هذه، وتسخيرها لسيره وسياحته ولسفنته ولمنافعه.. يشير إلى أن الذي يكرم ضيوفه في ليلة واحدة، في دار استراحة شيدها لهم على طريق سفرهم، بهذا الكرم العظيم من هدايا البحار وعطاياها.. لا بد أنه قد أحضر في مقر سلطنته الأبدية بحار رحمة أبدية واسعة، بحيث إن المشهودة منها هنا ليست إلا نماذج فانية وصغيرة أمام تلك الأبدية)³³.

← تكليف الإنسان وإعداده المادي والمعنوي:

كان من عظيم التكريم الإلهي للإنسان تكليفه بالتكاليف الشرعية، المعبر عنها بكلمة (الأمانة) في قوله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} [الأحزاب: 72] لأن من المعلوم أن التكليف ومناطه العقل الإنساني والطاقة الفكرية دليل على أهمية الإنسان، واللطف به، وجعله محلاً للمسؤولية أو المساءلة عن جميع أقواله وأفعاله، فتعطيل المسؤولية وترك الإنسان من غير تكليف يدل على إهماله وعدم المبالاة به، وتركه يهيم في حياته كالحيوان في البراري.

وقد زود الله تعالى الإنسان بالإضافة إلى تكوينه الجسدي المادي لتحمل مسؤولية التكليف، مفاتيح المعرفة وأدوات العلم، وموهبة العقل وطاقته الفكرية، ليميز بين الخير والشر، ويدرك حقائق الأشياء، ويعمل على ما فيه خيره، وتجنب كل ما فيه ضرره. قال النورسي رحمه الله في رسائله: (فمثلاً العقل الذي هو أفضل أجهزة الإنسان وأرقاها، إن استعمل بسر التوحيد، فإنه يصبح مفتاحاً ثميناً بحيث يفتح الكنوز الإلهية السامية، وألوفاً من خزائن الكون، بينما إذا تخبط ذلك العقل في وحل الضلالة والكفر، فإنه يصبح آلة تعذيب ووسيلة إزعاج، بما يجمع من ألم الماضي الحزينة ومخاوف المستقبل الرهيبة).

ثم مثل بالشفقة والحنان، وهي ألطف سجية من سجايا الإنسان وأحلاها، وبالحنبة التي هي ألد شعور في الإنسان وأطيبه وأسماه، للدلالة على قيم الإنسان وكونه يسع الكون وله سلطان على المخلوقات كلها³⁴.

ثم قال مبيناً مدى الإخلال بالمسؤولية الكبرى وإهداء قيمة التكليف الإلهي بالإيمان والعبادة وأداء الحقوق وارتكاب الجناية العظمى: (إن كفر الإنسان إنما هو تجاوز - أي تجاوز - على حقوق الكائنات وأغلب المخلوقات، مما يثير غضب السماوات والأرض، ويملاً صدور العناصر حنقاً وعبطاً على الكافرين، حتى تقوم تلك العناصر بصفع أولئك الظالمين بالطوفان وغيره، بل حتى الجحيم تغضب عليهم غضباً تكاد تتفجر من شدته، كما هو صريح الآية الكريمة: { إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقاً وَهِيَ تَفورُ. تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ } [الملك:7-8].

إن الإعداد المادي والروحي للإنسان مظهر كمال، ودليل رفعة، وعلو شأن، وهئية للدرجات العليا في الدنيا، وفي عالم الخلود في الآخرة. ومن أخص مزايا رسائل النور للنورسي أنها تخاطب جميع لطائف الإنسان، مبينة أن القرآن (بخاطب العقل والروح والوجدان) معاً بحيث يلقي الطمأنينة في كل منها ويغذيها ويعطيها نصيبها الوافر منه بسهولة بالغة. كذلك ينبغي أن يكون تفسير القرآن أيضاً بليغاً جداً ونافذاً إلى الأعماق، بحيث ينير العقل والقلب والروح والوجدان والنفس وغيرها من اللطائف الربانية في الإنسان، مع إلزام صارم للشيطان وطرده لهمزاته، وحفظ النفس من وساوسه³⁵.

◀ توجيه الإنسان لتحقيق الهدف من إيجاده، أو إعداده للحياة الأبدية:

الإنسان كما يفهم من كلام النورسي وسيلة وهدف، فهو وسيلة لإعمار الكون، وهدف أو غاية، وهو أن يكون عابداً لله عز وجل، و مُعدّاً للحياة الأبدية، أما عبادة الله عز وجل: فلأن الدنيا مزرعة الآخرة، والغاية الكبرى من وجوده وتكليفه: إنجازُه من النار، وظفره بالخلود في جنات الخلد والنعيم، وطريق ذلك هو عبادة الله تعالى لقوله سبحانه: { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } [الذاريات:56].

استفتح النورسي رحمه الله مقدمة رسائل النور من الشعاعات بهذه الآية، ثم قال: (يفهم من أسرار هذه الآية الجليلة: أن حكمة مجيء الإنسان إلى هذه الدنيا والغاية منه، هي: معرفة خالق الكون سبحانه، والإيمان به، والقيام بعبادته، كما أن وظيفة فطرته، وفريضة ذمته، هي: معرفة الله والإيمان به، والتصديق بوجوده وبوحدانيته إذعاناً وبقيناً³⁶

أي إن وظيفة الإنسان الفطرية، هي: عبادة الله وتقديسه وتوحيده وتنزيهه عن مشاهة الحوادث، بل كل حيوان يؤدي عبادته الخاصة به، بلسان الحال أو المقال، مسبحاً خالقه وبارئه ومعبوده، مقدساً إياه من القصور والشرك، حامداً شاكراً لأنعمه وآلائه³⁷. وقال النورسي أيضاً: ولما كانت هذه الدنيا مزرعة الآخرة، فالحقائق الصغيرة التي فيها: تثمر وتتسبل في الآخرة. وفي موضوع آخر قال: وهكذا في كل موجود مخزن، حتى أن مخزن الآخرة هو دار الدنيا، ومزرعة الجنة ومستودعها: هو عالم الإسلام، وعالم الإنسانية الحققة، الذي تنبعث منه الحسنات والحسن والأنوار³⁸.

وأما الإعداد للحياة فمزدوج، فهو إعداد للحياة والروابط الاجتماعية- الإنسانية في الدنيا، من أجل التعاون على ظروف الحياة وتنمية المشاعر الإنسانية، وإعداد أيضاً للحياة الأبدية وعالم الخلود في الآخرة، قال النورسي رحمه الله: (الناس يجيئون خالقهم محبة خالصة بفطرتهم، وخالقهم يجبههم ويجب نفسه إليهم بكل وسيلة، واستعداد الإنسان وأجهزته المعنوية تتطلع إلى عالم آخر باق، وإلى حياة أخرى أبدية، وإن قلبه وشعوره ليطلبان البقاء، ويتوقان إليه، وإن لسانه ليتوسل إلى خالقه بأدعية غير محدودة طالباً البقاء)³⁹. وفي تعليقه على آية: {حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران:173]. قال: نعم، حسبي من بقاء الدنيا وما فيها: بقاء مالكتها وصانعها وفاطرها. حسبي من بقائي: أن الله هو إلهي الباقي، وخالقي الباقي، وموجدي الباقي، وفاطري الباقي، ومالكي الباقي، وشاهدي الباقي، ومعبودي الباقي، وباعثي الباقي⁴⁰.

وفي موضع آخر قال: (ومن هنا غدا الإنسان متمكناً من العمل للحياة الأبدية، وهو ينظر إلى فناء الدنيا، ويعمل في الوقت نفسه لعمارة الدنيا، وكأنه يعيش أبداً⁴¹). وفي مقالة أخرى يدمج النورسي بين الحياتين الدنيوية الاجتماعية، والأخروية، فيقول: (كما أن الإنسان - خلافاً للحيوان - ذو علاقة مع بيته، فهو أيضاً ذو ارتباط وثيق في الدنيا، ومثلما أنه مرتبط بأقاربه بروابط ووشائج، فهو كذلك ذو نسب فطري بالجنس البشري. وكما أنه يحب البقاء في الدنيا الفانية، فهو يتوق إلى بقائه في الدار الباقية. وما دام جميع لذائد الدنيا لا تشبع الخيال، الذي هو أحد خدام الماهية الإنسانية، فلا بد أن حقيقة الماهية الإنسانية الجامعة الشاملة جداً مرتبطة فطرةً بالخلود والبقاء)⁴².

وللايمان بالآخرة فوائد كثيرة، من أهمها الرضا بالمصيبة، والتفاعل بها، وتفويض أمر تجاوزها أو حلها إلى الله تعالى، فهي بتقدير الله وإذنه، قال الله تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ

يَسِيرٌ} [الحديد:22]، وقال سبحانه: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [التغابن:11].

ووجود الإنسان نفسه دليل على وجود الآخرة، بما هو مضمّر في النفس البشرية من الآمال والأشواق والمطالب الروحية، وقد علق النورسي على آية لذائد الجنة: {وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [الزخرف:71] فقال: (تبين أن أكثر ما يأنس الإنسان به من اللذائد المادية المحسوسة - والذي يتذوق نماذجها في الدنيا - سيرها ويتذوقها بصورتها اللائقة بالجنة... وهكذا تظهر ثمرات الإيمان بالآخرة ونتائجها: أنه مثلما تدل حقيقة معدة الإنسان وحاجاتها الفطرية وآماله الأبدية وحقائقه واستعداداته، تتطلب النتائج والفوائد المذكورة للإيمان بالآخرة، وتدل قطعاً على الآخرة، وعلى الجنة، وعلى لذائد مادية محسوسة باقية، وتشهد على تحققها. وإن حقيقة كمالات هذا الكون أيضاً، وآياته التكوينية الحكيمة، وجميع حقائقه المرتبطة بالحقائق الإنسانية، تدل دلالة قاطعة أيضاً على وجود الآخرة وعلى تحققها، وتشهد شهادة صادقة على مجيء الحشر وانفتاح أبواب الجنة والنار⁴³.

← مخاطبة جميع الناس:

لم يقصر القرآن الكريم خطابه العقدي والتشريعي على المسلمين فقط، وإنما وجه الخطاب لجميع الناس، لأن رسالة الإسلام خالدة وعامة للجنس البشري كله، في مختلف البلاد والأزمان. والداعية النورسي إلى الإيمان بالقرآن الكريم كان منهجه أيضاً موجهاً للإنسان والإنسانية، دون تمييز بين أحد في الجنس والعنصر واللون واللغة. قال في مقدمة الخطبة الشامية المشهورة:

(إن رسائل النور التي هي تفسير حقيقي للقرآن - وذلك بسر إعجازه - إذ تثبت كما أن في الانغماس في مهاوي الضلالة جحيماً معنوياً في هذه الدنيا، تؤكد أن في الإيمان نعيماً معنوياً في هذه الدنيا أيضاً. وهي تبرهن كذلك، كما أن في المعاصي والفساد والمتع المحرمة آلاماً مبرحة روحية، فإن في عمل الحسنات والخصال الحميدة، والالتزام بالحقائق الشرعية لذائد روحية، أشبه ما تكون بملذات الجنة، وهكذا فإنها بذلك تنقذ أهل السفاهة وأرباب الضلال من التمادي والاستمرار، مادامت لهم مُسْكَة من عقل، وذلك لأن عصرنا هذا يتميز بطابعين عجيبين:

الطابع الأول: هو التعامي عن رؤية العاقبة وترجيح درهم من اللذة المائلة على كثير من اللذات الآتية.. وما ذلك إلا بسبب طغيان المظاهر المادية على عقل الإنسان وفكره.

والسبيل الوحيد لإنقاذ أهل السفاهة من الناس من سفههم هو: إظهار الألم المبرح في تلك اللذات عينها والغالبية على حسهم.
الطابع الثاني: إن الضلال المترتب على الإلحاد والعلوم الطبيعية والتمرد المتولد عن الفكر العنادي في الماضي ليعتبران من الضالة بحيث لا تذكر، إذا ما قيس بما عليه الوضع في وقتنا الراهن.⁴⁴

◀ هل حقق الإنسان رسالته في الحياة؟

الإنسان في الجملة حقق في تقديري رسالة الخلق والإيجاد وتعمير الكون وبناء الدنيا، بغض النظر عن الإيمان والكفر، والاستقامة والضلال، بدليل هذا التقدم الزراعي والصناعي والتجاري والتقني الذي فاق في القرن العشرين كل ما عرفه التاريخ الإنساني من ألوان الابتكار أو الاختراع والإبداع. وذلك كله بتوفيق الله وإلهامه وتعليمه المكتشفين والمخترعين.

لكن بعض الناس بترّوا رسالتهم في الحياة عن غايتها الكبرى، فقصرّوا عملهم على الدنيا وعلومها، وإنجاز ما يناسبها، وقطعوا صلتهم بالآخرة، كما قال الله تعالى: {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} [الروم:7]. وهناك بعض آخر عملوا لآخرتهم غالباً وأهملوا دنياهم، وهم فئة قليلة، لأن الله تعالى أراد العمل للدنيا والعمل للآخرة معاً.
والفئة الثالثة وفقوا لتحقيق المقصود من الخلق، فنجحوا في مهام الدنيا، ولم ينسوا تعمير الآخرة بالتقوى والعمل الصالح.

وهذا التصنيف الثلاثي أرشد إليه القرآن مخبراً عنهم، فقال الله تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} [فاطر:32].

وأمام هذا التصنيف لا بد من جهود المصلحين، لإصلاح المنحرفين وتقويم المقصرين، وترغيب العاملين، أمثال النورسي رحمه الله وأمثاله من الدعاة المخلصين إلى الله تعالى، ومنهج النورسي في الإصلاح هو الربط الدائم بين الآيات الكونية في طبيعة الإنسان الجسدية والروحية، وبين الدلالات العقدية لتلك الآيات، قال مشفقاً على بعض الناس وهم البائسون الضعفاء العاجزون:

(لقد كنت أتألم لحال ذوي الحياة، ولا سيما لذوي الشعور منها، وبالأخص لحال الإنسان، وبخاصة المظلومين والمبتلين بالمصائب منهم، لما أحمل من عطف متزايد وشفقة مفرطة، فكانت أحوالهم تمس عطفي، وتثير شفقتي، وتوجع قلبي وتعصره⁴⁵).

ومنهج في تصفية الخصومات أو المنازعات البشرية: هو الصلح بين المتخاصمين، قال: (نعم، إن المصلحة والحقيقة في الصلح، والصلح خير، لأن الأجل واحد لا يتغير⁴⁶). ومصدر المعرفة للإصلاح: إنما هو القرآن الكريم الذي يغترف منه جميع أهل العلم والمعرفة والخبرة، فهو الذي يرشد إلى الحق وإلى صراط مستقيم.

الخلاصة

لقد انتهت بحمد الله إلى نتيجة محكمة في خاتمة هذا البحث عن الإنسان في القرآن الكريم. بمنظور رسائل النور، وهي أن عمالقة الإصلاح في العالم هم الذين يعانون في سبيل دعوتهم أشد الصعاب، فيعذبون، ويشردون، ويسجنون، ويقاومون على مختلف الأصعدة السياسية. وقد سجن الثورسي وشرد وطرد مراراً من وطنه. والثورسي رحمه الله عانى في سبيل نشر دعوة الله تعالى في الأرض معاناة شديدة، ولعل هذه المعاناة سبيل لفتح زناد الفكر لديه، وإخلاص العمل لله رب العالمين.

وكان السجن والتعذيب مفجراً للطاقات الفكرية والدينية والإنسانية في قلب الثورسي وعقله ونفسه، فظل قائماً بحملته الإصلاحية الجامعة بين المادة والروح، وعبر عن نفسه وصبره وجهاده بتعايير صادقة وواقعية ومؤثرة تأثيراً شديداً في سامعيه. فكان حديثه سلوة، وسيرته عطرة، وبيانه عذبا، ومنهجه وضاء، حتى إني لأسميه (أمير البيان في تبيان معاني القرآن) وهو مع ذلك (أمير البيان في فهم وإدراك حقيقة فلسفة عقيدة الإسلام).

لقد تحدث الثورسي عن الإنسان في القرآن حديث الروح إلى الروح، فأبان حقيقة تكوين الإنسان المادية والمعنوية أو الروحانية، وأدرك مدى كماله ورقيه، وعرف أنه أكرم مخلوق وأنه مخلوق في أحسن تقويم، وقرر بلسان العالم الكبير أن الإنسان شاهد على وجود الله تعالى، ودليل على وجود عالم الآخرة، وهو معد إعداداً مناسباً للحياة الأبدية، وأن الله يحبه وهو يحب الله، ويجب ملائكة الله، ويؤثر الخلود في الآخرة، ويجب البقاء في الدنيا، والخلود في الآخرة ويتميز بقوة حافظته، وهو أيضاً عالم مصغر عن الكون، وهو وسيلة للحياة وهدف لتعمير الكون وعبادة الله، وتدوّن أعماله وأفعاله عليه، فلا يضيع منها شيئاً، وهو مكرم ومعزز، والكون كله مسخر لخدمته، وهو ذو أهمية ملحوظة، فلقد كوّن الله، وأبدع خلقه في أحسن تقويم، وجعله أهلاً لتحمل المسؤولية والتكاليف، أو الأمانة، وهي تلازم الكرامة الإنسانية، ومن تكريم الله للإنسان: تسخير طاقات الكون وذخائره ومعادنه لخير هذا الإنسان، وجعله خليفة الأرض، ومظهر تجليات الأسماء الحسنى فيه، وهو ذو هدف واضح وهو العمل على عبادة الله تعالى.

الهوامش:

- 1 هو أعجوبة الثورة الإسلامية في تركيا بتعبير أود0 محمد سعيد رمضان البوطي، ولد بتاريخ 1293هـ/1876م، في قرية تابعة لقضاء خيزان في ولاية بدليس، من أبوين كرديين، ورسائل النور 130 رسالة، توفي في 25 رمضان 1379هـ.
- 2 انظر الشعاعات من كليات رسائل النور: ص80، 278 وما بعدها، 673، طبع شركة النسل للطباعة، الطبعة الأولى.
- 3 المرجع السابق: ص194 ومعنى الخلافة عن الله في الأرض انه مأذون بالتصرف في مناحيها ومعطياتها، وليس خليفة حقيقياً.
- 4 المرجع السابق: ص27.
- 5 المرجع نفسه: ص65 .
- 6 المرجع نفسه: ص60 .
- 7 المرجع نفسه: ص12.
- 8 المرجع ذاته: ص62.
- 9 ص215، 264، 269.
- 10 ص681.
- 11 ص264.
- 12 ص681.
- 13 أخرجه مسلم والترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
- 14 ص 18 - 19 .
- 15 ص 19 .
- 16 ص 96 - 97 .
- 17 ص 273 .
- 18 ص 277 .
- 19 ص 639 .
- 20 ص 278 - 279 .
- 21 ص 27 .
- 22 ص 39 .
- 23 ص 27، 645، 702 .
- 24 ص 12، وانظر أيضاً 19، 23، 63، 75، 196 .
- 25 ص 260 .
- 26 ص 273 .
- 27 رسائل النور: ص 318 - 319 .
- 28 المرجع السابق: ص 46، 299 .
- 29 ص 265، وانظر أيضاً ص194، 279، 702 .
- 30 ص 268، وانظر أيضاً ص 702 .
- 31 ص 236، وانظر أيضاً ص 635، 702 .
- 32 ص 78 .

-
- 33 ص 55.
34 ص 19.
35 بديع الزمان سعيد النورسي- نظرة عامة عن حياته وآثاره، للأستاذ إحسان قاسم الصالحي: ص 151-152.
36 ص 135 .
37 ص 63 .
38 ص 289، 635.
39 ص 62.
40 ص 97.
41 ص 106.
42 ص 277، 278 .
43 ص 286 .
44 بديع الزمان سعيد النورسي، الأستاذ إحسان قاسم الصالحي: ص 219-221.
45 ص 12 .
46 ص 531 .

الإنسان في فكر الإمام النورسي وجودا، ومهمة، وغاية

الأستاذ الدكتور فاروق حمادة^٣

حمداً لك يا من أنرت هذا الوجود بكتابك وهديك، الذي يحمله الركع السجود من عبادك، والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله نبيك وعبدك، وعلى آله الأخيار، وصحابته الأبرار، أما بعد :

فإن من المعالم الفكرية الإسلامية البارزة في القرن الرابع عشر الهجري، الإمام سعيد النورسي، الذي شق طريقاً في الدعوة الإسلامية جديداً، وقاوم دياجير الظلمات والمدهومات بنور القرآن وحيدا فريداً، وقدم لمن حوله وللآتين بعده مهيعاً قرآنياً رشيداً سديداً، فجراه الله عن الإسلام والمسلمين، وبوأه في الملأ الأعلى مكاناً رفيعاً حميداً.

وإن الحديث عن هذا الإمام الفذ ذو شجون وآفاق، وألوان متعددة، وأطباق وحري بأهل الدعوة والفكر وحملة القرآن والرسالة، ودعاة السنة، ومحاربي الجهالة والضلالة أن يقفوا أمام رسائله طويلاً، ويرجعوا البصر في أفكاره المشعة ونظراته للكون والحياة والإنسان تكراراً ومراراً، ليتمتحوها منها في عالم لم يتغير كثيراً عما عاشه هذا الإمام، وعالج قضاياها بكل حكمة واتزان واهتمام، بل إن كثيراً مما عالجه قد تعمق جرحه واستفحل خطره، وما أحوج البشرية إلى البلمس القرآني، والدواء الرباني لتضميد جراح الروح والنفس والجسد والمجتمع، فقد كان هذا الإمام يقدم المراهم والبلاسم من صيدلية القرآن جاهزة للاستعمال، سهلة قريبة المنال.

وإني سأتناول - بعون الله - في هذه الحلقة موقع الإنسان في تفكير هذا الإمام في وجوده، ومهمته، وغايته، وهو حديث طويل يمكن النظر إليه من جوانب شتى، أتناول اليوم بعضها على الاختصار، أكثر من أقواله، لأنها تحمل أفكاره صافية نقية...

^٣ستاذ كرسي السنة النبوية وعلومها بكلية الآداب، جامعة محمد الخامس - الرباط - المغرب.

1- لقد أعلن الإمام النورسي في كثير من كتاباته، أن عمله لا يعدو أن يكون عمل دلال في حانوت مجوهرات القرآن، يدل الناس على هذه الجواهر المتاحة المباحة للآخذين، ليقبسوا منها، وينتفعوا بها، ويصلوا إلى الغاية المرجوة منها. وبذلك يعلن أن ميدان عمله هو الإنسان أينما كان، وبأي لون، ودين وزمان. يقول رحمه الله في ذلك: شخصية مؤقتة خالصة لخدمة القرآن وحده، بكوني دلالا لخزينة القرآن الحكيم السامية¹.

ويقول: وكما يقوم شخص مفلس لا يملك شيئا بدور الدلال لدكان مجوهرات غالية جدا، فأنا كذلك دلال أمام دكان مقدس هو القرآن الكريم².
ويقول: فنحن مع أننا مفلسون ليس لنا شيء، إلا أننا أصبحنا خداما ودلالين في معرض أغلى المجوهرات³.
ويقول: فأنا لست المالك للبضاعة - بضاعة النور - بل لست إلا دلالا ضعيفا بسيطا في حانوت مجوهرات القرآن⁴.

لقد كان يعتز بهذه المهمة أيما اعتزاز، ويجعلها له أعظم انتماء، وأعلى شرف. أما سوق القرآن، ودكان مجوهراته، فهو هذا الكون الفسيح الرحيب بكل أنواع مكنوناته، وكل مصنوعاته وأشياءه، من وهاد وبحار، وجبال وأشجار، وأرض وسماء، ونجوم متدلية في جميع الأرجاء، وأزهار وأثمار ...
ويربط هذه الجواهر التي تحمل طابع القدرة الإلهية، والحكمة الربانية، وبدائع الصنعة الصمدانية، يربطها بأي القرآن الكريم المسطور المقروء، ويوائم بإحكام بين المسطور والمنظور ليؤكد لكل ذي لب، أن الذي أنزل هذا المسطور، هو الذي أبدع وأوجد المنظور، وكلاهما جواهر تدل على بارئها. فياله من حكيم عليم؟!
يقول رحمه الله: إن الأرض التي هي بمثابة قلب الكون، قد أصبحت مشهدا لعجائب مصنوعات الله البديعة، ومحشرا لغرائب مخلوقاته الجميلة، ومقرا لقافلة موجوداته الوفيرة، ومسجدا لعباده المتراصين عليها صفوفًا، ومكانا لأداء عباداتهم.

هذه الأرض تظهر من شعاع التوحيد ما يملأ الكون نورا وضياء⁵.
2- لقد نظر الإمام النورسي في عوالم الكون التي يقول: إنها تبلغ نحو من ثلاثمائة ألف أو أربعمائة ألف عالم، وتأملها جيدا في دوراتها وتبدلاتها، في موتها وحياتها وحدد موقع الإنسان المخاطب منها، وبين ما فيه من ضعف وقوة، وإقدام وتأخر ومواهب وطاقات... فوجد أن هذا الإنسان ضعيف ومصائبه كثيرة، فقير ولكنه في حاجة إلى الازدياد، عاجز إلا أن تكاليف عيشه مرهقة...⁶

وهذا الإنسان ضعيف بالفطرة، ومع ذلك فما أكثر المنغصات التي تورث الحزن والألم وهو في الوقت نفسه عاجز جدا، مع أن أعداءه ومصائبه كثيرة جدا، وهو فقير جدا مع أن حاجاته كثيرة وشديدة، وهو كسول وبلا اقتدار، مع أن تكاليف الحياة ثقيلة عليه... يده قصيرة، وعمره قصير، وقدرته محدودة وصبره محدود ..⁷

ولكن هذا المخلوق الضعيف العاجز القاصر قد زوده الله بأجهزة، ومواهب فاق بها سائر المخلوقات، وارتقى في القرب من ربه إن أطاعه أعلى الدرجات، فكان ألطف ثمرة العالم، والمعجزة الجامعة للخالق الحكيم لأنه نموذج مصغر للكون كله

يقول رحمه الله: إن الإنسان هو الثمرة النهائية لشجرة الخلق، ومن المعلوم أن الثمرة هي أبعد أجزاء الشجرة وأجمعها وألطفها، لذا فالإنسان ثمرة العالم، وأجمع وأبعد مصنوعات القدرة الإلهية، وأكثرها عجزا وضعفا ولطفا ..⁸

بل إن الإنسان - كما يراه الأستاذ النورسي - هو فهرس للكون العظيم، ونسخة جامعة لما في الوجود من خواص حتى يشعره الحق سبحانه وتعالى بجميع أسمائه الحسنی المتجلية بما أودع في نفس الإنسان من مزايا جامعة ..⁹

وأما عن أجهزته التي أكرمتها بها الرحمة الإلهية، وقد فاق بها سائر المخلوقات، وتميز بها عن سائر الموجودات، وغدا سيد الكائنات، فيقول رحمه الله: الإنسان الذي وهبت له هذه الأجهزة المعنوية واللطائف الإنسانية، التي إذا ما قيست كل واحدة منها بما في الحيوان لظهرت أنها أكثر انبساطا، وأبعد مدى بمائة مرة، فمثلا؛ أين عين الإنسان التي تميز جميع مراتب الحسن والجمال ؟

وأين حاسته الذوقية التي تميز بين مختلف المطاعم بلذائدها ؟

وأين عقله الذي ينفذ إلى قراره الحقائق، وأدق تفصيلها ؟

وأين قلبه المشتاق إلى جميع أنواع الكمال ؟

أين هذه الأجهزة وأمثالها مما في الآلات الحيوانية البسيطة التي قد لا تنكشف إلا لحد مرتين أو ثلاث؟! فما عدا الأعمال الخاصة المناطة بجهاز خاص في حيوان معين!! والذي يؤدي عمله بشكل قد يفضل ما عند الإنسان الذي ليس من مهمته مثل هذه الأعمال والوظائف ... وبسبب فطرته البديعة المهيأة لشتى أنواع العبادة، فقد منح استعدادا جامعا لبذور الكمال ..¹⁰

هذا الإنسان الممنوح الموهوب المفضل يراه الأستاذ النورسي، وفي يده مفتاح يفتح به طلسم الكائنات، ويدخل أبواب الكنوز المخفية لخالق الكون، وهي له دون غيره، فهي

مرتبة لا يدانيها أحد حتى الملائكة المقربون، الذين لا يتخطون مهما تم ولا يتعدون مأموراهم ...

يقول رحمه الله: أعلم أن مفتاح العالم بيد الإنسان، وفي نفسه، فالكائنات مع أمها مفتحة الأبواب ظاهراً، إلا أنها منغلقة حقيقة، فالحق سبحانه وتعالى أودع من جهة الأمانة في الإنسان مفتاحاً يفتح كل أبواب العالم، وطلسمًا، يفتح به الكنوز المخفية لخالق الكون ..¹¹

وهذا الكون قد سخره الله تعالى بكل أرجائه لهذا الإنسان يسبح فيه عابداً، خاشعاً، سيداً مع ضعفه، مشرفاً مكرماً، مع قصوره، وحقارة ماديته. وفي هذا يقول الأستاذ النورسي: نعم أيها الإنسان، إنك من جهة جسمك النباقي ونفسك الحيوانية جزء صغير، وجزئي حقير، ومخلوق فقير، وحيوان ضعيف تخوض في الأمواج الهادرة لهذه الموجودات المتراحمة المدهشة، إلا أنك من حيث إنسانيتك المتكاملة بالتربية الإسلامية المنورة بنور الإيمان، المتضمن لضياء المحبة الإلهية، سلطان في هذه العبدية ... وإنك كلي في جزئيتك، عالم واسع في صغرك ... لك المقام السامي مع حقارتك، فأنت المشرف ذو البصيرة النيرة على هذه الدائرة الفسيحة المنظورة حتى يمكنك القول: إن ربي الرحيم قد جعل لي الدنيا مأوى ومسكناً، وجعل لي الشمس والقمر سراجاً ونوراً، وجعل لي الربيع باقة ورد زاهية، وجعل لي الصيف مائدة نعمة، وجعل لي الحيوان خادماً ذليلاً وأخيراً جعل لي النبات زينة وأثاثاً، وهجة لداري ومسكني¹².

بل إن هذا الكون عند الأستاذ النورسي سفرة عظيمة تتلذذ بها أنواع المعدات الإنسانية المادية والمعنوية، وله بإنسانيته السيطرة على جهات شتى من الأرض وما حولها لأنه ثمرة الخلق، ومعرض الصنائع البديعة للخالق الحكيم، مما جعل هذا الإنسان مشار إعجاب لأهل السماوات، يقول رحمه الله: وما دام ابن آدم يحكم في شتى جهات هذه الأرض، ويتصرف في أغلب مخلوقاتها، مسخراً أكثر الأحياء له، جاعلاً أكثر المصنوعات تحوم حوله، وفق مقاييسه وهواه وحسب حاجاته الفطرية، ينظمها ويعرضها ويزينها، وينسق الأنواع العجيبة منها في كل مكان، بحيث لا يلفت نظر الإنس والجن وحدهم، بل يلفت أيضاً نظر أهل السماوات والأرض قاطبة، بل حتى نظر مالك الكون، فنال الإعجاب والتقدير والاستحسان، وأصبحت له من هذه الجهة أهمية عظمى، وقيمة عالية، فأظهر بما أوتي من علم ومهارة أنه هو المقصود من حكمة خلق الكائنات، وأنه هو النتيجة العظمى، وثمرتها النفيسة، ولا غرو فهو خليفة الله ..¹³

هذا الإنسان يراه الأستاذ النورسي أروع معجزات القدرة الإلهية، بمثابة كون مصغر، وكأن الحياة وسيلة لانطواء الكائنات في ذلك الكائن الحي الصغير بما تظهر فيه ما يشبه فهرس الكون العظيم، كما تجعله في رباط وثيق مع معظم الموجودات¹⁴. ولقد بين الأستاذ النورسي في تفسير دقيق يعد من مبتكراته، وعميق نظراته، أن الأرض كانت في القرآن الكريم تقرر دائما بالسموات، فالأرض واحدة توازي السماوات السبع جميعا، فلماذا يا ترى؟ يقول رحمه الله: ومن هنا فإن مهد هذا الإنسان ومسكنه وهو الأرض كفاء للسموات معنى وصفة، ومع صغر الأرض وحقارتها بالنسبة إلى السماء فهي قلب الكون ومركزه، ومشهد جميع معجزات الصنعة الربانية ومظهر جميع تجليات الأسماء الحسنى وبؤرتها...

وهي مزرعة ضيقة مؤقتة لاستنبات بذور البساتين الدائمة الخالدة، أي الإنسان ومن هذه العظمة المعنوية للأرض وأهميتها من حيث الصنعة جعلها القرآن كفوًا للسموات وعدلا لها مع أنها بالنسبة للسموات كالثمرة الصغيرة بشجرتها الضخمة... فيكرر الآية الكريمة: [رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ]¹⁵. ويقول: كأنها قلب صغير لجسد ضخم¹⁶.

أليس هذا هو الإنسان، وهذا هو موقعه من الكون حقا كما صورته ببلاغة وبراعة هذا الإمام؟! ولا يزيد تقدم العلم والمعرفة، واكتشاف مجاهيل الأرض وأفطار السماء، وتقارب البعيد، وتيسير العسير، لما قاله هذا الإمام إلا تأكيدا وتعصيда، وما ذلك إلا لأنه اغترفه من معين جواهر القرآن.

3- هذا الإنسان الذي خلق في أحسن تقويم، وبلغ من التشريف والاحترام المبلغ العظيم أليست له مهمة وغاية في رحلته وسياحته الدنيوية هذه؟ أم أنه وجد عبثا، وسيذهب سدى؟! [أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ] [المؤمنون:115].

يفصل الأستاذ النورسي رحمه الله مهمة هذا الإنسان فيقول: إن الإنسان أرسل إلى الدنيا ضيفا وموظفا، ووهبت له مواهب واستعدادات مهمة جدا، وعلى هذا أسندت إليه وظائف جليلة...

ولكي يقوم الإنسان بأعماله، وليكد ويسعى لتلك الغايات والوظائف العظيمة فقد رغب ورهب لإنجاز عمله.¹⁷

لقد خلق الإنسان لعبودية الله، بعد معرفته، ومعرفة الله أهم قضية في حياة الإنسان، ولذلك نذر الإمام النورسي نفسه لتبصير الغواة الضالين بهذه الحقيقة، ودفعهم في

طريقها، وأقام الحجج والبيانات من الوجود المادي على قطعيتها، بما لا يدع مجالاً للشك عند العقلاء، يقول رحمه الله: إن أعظم إحسان أعده في هذا الزمان، وأجل وظيفة هو إنقاذ الإيمان والسعي لإمداد إيمان الآخرين بالقوة¹⁸.

إن خدمة رسائل النور هي إنقاذ الإيمان، وأما الطريقة والمشيخة فهي تكسب المرء مراتب الولاية، وإن إنقاذ إيمان شخص واحد من الضلال أهم بكثير، وأجزل ثواباً من رفع عشرة من المؤمنين إلى مرتبة الولاية¹⁹.

إن رسائل النور لا تعمر تخريبات جزئية، ولا ترمم بيتاً صغيراً مهتماً، بل تعمر أيضاً تخريبات كلية... نعم إنها تسعى لمداواة تلك الجروح الغائرة بأدوية إعجاز القرآن والإيمان²⁰.

وإن ما أقامه الأستاذ النورسي على قضية الإيمان ومعرفة الله من أدلة وبراهين ساطعة يصعب حصره، ولكنه كان ينبه الغافلين إلى هذا الكون ليصل بذلك إلى معرفة من كونه، وقد كانوا في تلك الفترة - وما زالوا - ينكرون الغيب، ولا يؤمنون إلا بالمادي المحسوس، فانظر على سبيل المثال النافذة العشرين من الكلمة الثالثة والثلاثين في تفسير قوله تعالى: [فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ] [يس: 83]، وقوله تعالى: [وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ] [الحجر: 21-22] حيث يقول: ... وانظر الآن إلى الرياح ترأها تجري لإنجاز وظائف وخدمات جليلة...

وانظر الآن إلى الينابيع والحدول والأثمار، وتأمل في تفجرها من الأرض والجبال، تجد أنها لا مصادفة فيها ولا عبث قط...

انظر إلى الأزهار والأثمار تجد أن بشر وجوهها، وحلاوة مطعوماتها، وجمالها الأخاذ ونقوشها البديعة، وشذى عطرها الطيب، بمثابة دعاء وأدلاء إلى ضيافة الرب الكريم والمنعم الرحيم.

وانظر إلى الطيور...

وانظر إلى السحب الثقال...

وانظر الآن إلى السماء وتمعن في القمر وحده من بين أجرام لا حصر لها...

وهكذا يفتح كل ما ذكرنا من العناصر الكلية، ابتداء بالضوء، وانتهاء بالقمر، نافذة واسعة تبين وجود الله سبحانه، وتظهر وحدانيته، وتعلن عن كمال قدرته وعظمته سلطنته بمقياس أعظم وأكبر، وبألوان شتى، وأنواع مختلفة...²¹

ويقول رحمه الله: أيها الغافل، تأمل في وجه الكائنات تجد أن صحيفة الموجودات ما هي إلا بمثابة رسائل متداخلة، بعضها إلى البعض الآخر، مبعوثة من قبل الأحد الصمد،

وأن كل رسالة منها قد ختمت بما لا يعد من أختام التوحيد، ترى من يجروء على تكذيب هذه الأختام غير المتناهية..²²

وإن الأمر الباهر المدهش عند الأستاذ التورسي في سوقه الأدلة المادية الملموسة هو أنه يربطها بحكمة وجودها، وآثار هذا الوجود، وبموضعها الدقيق المحكم من الكون، وهي في خدمة الإنسان وتيسير الحياة، إذ لو تخلفت لاختل النظام، وانعدم الأنام، وكلهم غير قادرين على التصرف فيها أو تغييرها، فما عليهم إلا الإذعان والاستسلام.

وبين رحمه الله تعالى أن هبوط آدم إلى الأرض، وحلول هذا المكرم ضيفا فيها له حكم جليلة، ومرام بانية سامية، يقول رحمه الله :

حكيمته التوظيف، فقد بعث إلى الأرض موظفا موكولا إليه مهمة جليلة، بحيث إن نتائج تلك الوظيفة هي جميع أنواع الرقي المعنوي البشري، وانكشاف جميع استعدادات البشر ونمائها، وصيرورة الماهية الإنسانية فيه مرآة جامعة للأسماء الحسنى..²³

هذه الوظيفة الإنسانية التي أوكلت يفصلها في موضع آخر ويجعلها ثلاثا أساسية أنيطت بهذا الإنسان :

الأولى : تنظيم جميع أنواع النعم المبتوثة في الكائنات، وربطها بأواصر المنافع التي تخص الإنسان، فيربط رأس خيوط النعم بمصالح الإنسان ومنافعه، ويغدو الإنسان عندئذ أشبه ما يكون بفهرس لأنواع ما في خزائن الرحمة الإلهية، ونموذجا لمحتوياتها، ويكون بذلك : المحور، والمظهر، أي محور هذه النعم، ومحل ظهورها.

والثانية : بأهليته وخصائصه يصبح قابلا لتلقي الخطاب الإلهي، ومعرفته ببدايع الصنعة التي تدور حوله، وبمسك خيوطها، وبذلك يتوجب عليه تقديم آلاء الشكر والشناء، والحمد الشعوري التام على ذلك، يقول رحمه الله : إن الصبغة الربانية التي هي فطرة الإنسان قد فطحت زهرة الخطاب الإلهي..²⁴

والثالثة : بأهليته المحدودة، وقدراته الدقيقة، يقوم بمهمة عاكسة في هذه الحياة لتجليات الأسماء الحسنى، وخاصة (الحي القيوم)، فيدرك القدرة المطلقة من خلال عجزه، والرحمة الواسعة من ضعفه وفقره، وهو بهذا مرآة قياس للصفات الإلهية ويدرك من خلال محدود علمه، وإرادته وقدرته، الصفات الإلهية التي تتجلى في الخلق والعظمة والحكمة، وبما أودع فيه من حب البقاء، وغرز في فطرته من النفور من القبح والفناء. فإنه بذلك يعكس صفات (الحي الباقي الجميل) ..²⁵

فتتفتح في قلب الإنسان المحبة والتعلق بالحي الباقي القيوم، ذي الجلال والكمال، وتكون هذه المحبة سائقا وشائقا للعبودية الحق، وإسلام القياد لمالك الأرض والسماوات، وإن الشكر والمحبة والحمد، هي ثمرة الحياة، وغاية الكائنات.

4- وإذا كان القرآن الكريم قد بين مهمة الإنسان بقوله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

فإن الأستاذ النورسي قد أفاض في بيان هذه العبودية، ومظهرها، وأنواعها ووسائلها، وآثارها، وغاياتها ...

يقول رحمه الله: المقصد الأسمى من خلق هذا الكون هو قيامك أنت بعبودية كلية تجاه مظاهر الربوبية، وإن الغاية القصوى من خلقك أنت هي بلوغ تلك العبودية بالعلوم والكمالات ..²⁶

وهذه العبودية يرى الأستاذ النورسي أن لها ناحيتين:

الأولى: عبودية تفكر بصورة غيائية.

والثانية: عبودية مناجاة بصورة مخاطبة حاضرة.

أما الأولى فهي: التصديق بالطاعة لسلطان الربوبية الظاهر في الكون، والنظر إلى كماله ومحاسنه بإعجاب وتعظيم، ثم استنباط العبرة والدروس من بدائع نقوش أسمائه الحسنى المقدسة، وإعلانها ونشرها وإشاعتها ...

والثانية: هي مقام الحضور والخطاب الذي ينفذ من الأثر إلى المؤثر، فبرى أن صانعا جليلا يريد تعريف نفسه إليه بمعجزات صنعته، فيقابله هو بالإيمان والمعرفة ...

ثم يرى أن له ربا رحيمًا يريد أن يحب نفسه إليه بالآثار الحلوة اللذيذة لرحمته، فيقابله هو بجعل نفسه محبوبا عنده بالمحبة الخالصة، والتعبد الخالص لوجهه ..²⁷

وكان رحمه الله يقول هذا الكلام وينثر هذه الأفكار إبان فورة العلم المادي، والتسارع بتطوره واكتشافاته، فأراد أن يبينه جميع المهتمين إلى أن هذه المكتشفات بكل أنواعها وتخصصاتها، إنما هي دالة على الله الحكيم، شاهدة على وحدانيته وقدرته، فمن استفاد من ذلك واهتدى إلى الصفات الإلهية العليا بهذه العلوم فقد دخل في العبودية الأولى، ومن سلم بالطاعة والانقياد والمحبة والاتباع فقد دخل العبودية في نوعها الثاني، وكملت بذلك عبوديته الفكرية والحسية، وأثرت فيه المعرفة والعلم، وأصبح عبدا كاملا لله، ظاهرا، وباطنا.

وقد وضع رحمه الله ضابطا دقيقا للتفكير الإنساني في غاية الأهمية مأخوذا من القرآن الكريم والسنة النبوية في قوله: التفكر نور يذيب الغفلة الباردة الجامدة، والدقة نار تحرق الأوهام المظلمة اليابسة، فإذا تفكرت في نفسك فدقق وتمهل، وتغلغل وفصله تفصيلا بمقتضى الاسم (الباطن)، وإذا تفكرت في الآفاق فأجمل وأسرع، ولا تغص إلا الحاجة إيضاح القاعدة كما هو مقتضى الاسم (الظاهر)، إذ شعشة الصنعة أجلى، وأبهر، وأجمل ..²⁸

إنه يؤكد في جنبات كتاباته، وثنايا أفكاره أن الإنسان بالمعرفة الإيمانية التي توصله إلى العبادة الحق، يمنح قوة عظمى لا تقهر، يستطيع بها أن يجابه الكائنات كلها، ومن ذلك قوله: كما أن الإيمان نور، هو قوة أيضا، فالإنسان الذي يظفر بالإيمان الحقيقي يستطيع أن يتحدى الكائنات ويتخلص من ضيق الحوادث، مستندا إلى قوة إيمانه فيبحر متفرجا على سفينة الحياة في خضم أمواج الأحداث العاتية بكمال الأمان والسلام.²⁹

وإن عبودية الإنسان التي توصله إلى التسليم والعبادة تثمر في حياته أحسن الأثمار، وتفتح عن أطيب الأزهار في كل وقت وحين، بل في أوقات يكون في أمس الحاجة إليها، يقول رحمه الله: إن العبادات والأذكار والتسبيحات التي تقوم بها الأعضاء عندما تعمل ضمن مرضاته سبحانه تتحول إلى ثمار طيبة لذيدة من ثمار الجنة، وتقدم إليك في وقت أنت في أمس الحاجة إليها.³⁰

وإن هذه العبودية ومقتضياتها هي مستحقة على الإنسان دون أن ينال عليها ثوابا أو أجرا، بل بما بسط له من نعم، وما يتقلب فيه من خيرات وجوده ووجود ما حوله، يقول رحمه الله: إن وظائف العبودية وتكاليفها ليست مقدمة لثواب لاحق، بل هي نتيجة لنعمة سابقة.

نعم نحن قد أخذنا أجرتنا من قبل، وأصبحنا بحسب تلك الأجرة المقدمة لنا مكلفين بالخدمة والعبودية، لأن الخالق جل وعلا الذي ألبسك الوجود، وهو الخير المحض، قد أعطاك باسمه الرزاق معدة تتذوقين، وتتلذبن بجميع ما فرشه أمامك...

وبما وهب لك من الإسلام والإيمان الذي هو الإنسانية الكبرى، والذي يطلب نعمنا لانهائية لها ويتغذى على ثمار الرحمة الإلهية التي لا تنفذ...

فيا نفس لقد قبضت مقدما كل هذه الأجر والأثمان، ثم كلفت بالعبودية، وهي خدمة لذيدة، وطاعة طيبة بل مريحة خفيفة، أبعدها هذا تتكاسلين عن أداء هذه الخدمة العظيمة المشرفة؟!..³¹

إنه يدقق فكرة في غاية الأهمية عند أهل السنة والجماعة ويسطها وهي قولهم: (لو عذب الله الخلائق كان منه عدلا، ولو أدخلهم الجنة كان منه فضلا)، فقد شرحها بأحسن شرح وأحسن الأدلة.

5- أما وسيلة تحقيق هذه العبودية كاملة بعد الاستسلام، فهي عند الأستاذ النورسي الدعاء، الذي طلبه الحق سبحانه وتعالى في كتابه من عبده في آيات كثيرة، ليقوموا به، ويتوجهوا إليه، بل هو مخ العبادة كما جاء في الحديث الشريف، ولهذا كان الدعاء

مظهر العبودية ووسيلتها، وقد أعطى الأستاذ النورسي هذا المظهر والوسيلة ما يستحقان من بيان وتفصيل في دلالتهما وآثارهما، وكشف عن ذلك في عديد من كتاباته ورسائله ومنها قوله: إن الإنسان متعرض لما لا يحصى من أنواع البلاء والمصائب، ومهاجمة الأعداء لما يحمل من عجز مطلق، وله مطالب كثيرة وحاجات عديدة، مع أنه في فقر مدقع لا نهاية له، لذا تكون وظيفته الفطرية الأساس، الدعاء بعد الإيمان، وهو أساس العبادة ومخها ..³²

ويقول رحمه الله: إن الإيمان يقتضي الدعاء، ويتخذ وسيلة قاطعة بين المؤمن وربّه، وكما أن الفطرة الإنسانية تتلهف إليه بشدة وشوق فإن الله سبحانه وتعالى يدعو الإنسان إلى الأمر نفسه بقوله: [قُلْ مَا يَعْْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ]، ويقوله تعالى: [ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ] ..³³

فما على الإنسان إلا أن يعلن أمام عتبة الألوهية العجز والضعف، ويفصح عن فقره وحاجته بلسان التضرع والدعاء وأنه عبد لله.

ويرى رحمه الله أن الدعاء هو نتيجة الإيمان الخالص، لأن الداعي يظهر بدعائه أن الذي يهيمن على العالم كله ويطلع على أخص أموره، يحيط بكل شيء علما، هو القادر على إغاثته، وإسعاف مقاصده.³⁴

وقد كشف بأفكار في غاية الأهمية أن الموجودات كلها داعيات مسبحات بلسان الاستعداد، والقابلية المودعة فيها، فالحبوب، والنوى، تسأل بارئها أن يهيئ لها النمو والاستمرار لتتمكن من إبراز بدائع أسمائه الحسنى وقدرته لتعرضها أمام أنظار المؤمنين، والجاحدين.

وهذه الموجودات لها نوع آخر من الدعاء تسأل الله بلسان حال الفطرة بما تحتاج إليه من النماء والبقاء، وهو خارج عن طوقها وقدرتها، فيمدّها الرحمن الرحيم، ويجعلها بذلك حجة على الجاحدين، وشاهدا قاطعا للموحدين.

وأما دعاء البشر خاصة فقد جعله نوعين، فعلي، وهو الأخذ بالأسباب الميسرة للحياة، وقولي؛ وهو التوجه باللسان والكيان إلى الله تعالى.

وقد فصل القول في آثار الدعاء على الداعي، وجعل أعظمها أثرا أن الداعي يزداد يقينا ويرتفع درجة بعلمه أن هناك من يسمعه ويترحم عليه ويسعفه بدوائه وقدرته التي تصل إلى كل شيء، فيدخل الأنس إلى قلب الداعي، ويشعر بحضوره الدائم في حضرة الله تعالى، فيفرح وينشرح، ويزداد ثناء وإيمانا ودعاء ويرتقي في مدارج الزلفى والقربى.

يقول رحمه الله : تأمل في سعة التوحيد الخالص الذي يهبه الدعاء للمرء، وانظر مدى ما يظهره الدعاء من حلاوة خالصة لنور الإيمان وصفائه، وأفهم من حكمة قوله تعالى: [قُلْ مَا يَعْجَبُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ]..³⁵

وقد بين رحمه الله شروط قبول الدعاء، وأسباب رفعه إلى السماء في عدد من كتاباته³⁶، كما بينه سالكو الطريق من قبل، ولكن بيانه يتميز بالواقعية وسرعة النفاذ إلى القلب والعقل.

6- وإذا كانت العبودية غاية وهدفا، والوصول إلى الله تعالى مقصدا في حياة الإنسان، فإن الإمام الثورسي قد خط طريقا جديدا في وصول العبد إلى ربه، اقتبسه من نور القرآن الكريم على خلاف ما هو معهود عند الطرق الصوفية، والمذاهب الفكرية، مستندا إلى (أستاذه) القرآن الكريم، ومن خلال تجربته وفهمه أكد أنه طريق قصير، مضمون العواقب والنتائج.

يقول رحمه الله : مورد جميع الطرق الحق، ومنهل السبل الصائبة هو القرآن الكريم، إلا أن بعض هذه الطرق أقرب من بعض وأسلم وأعم، وقد استفدت من فيض القرآن الكريم بالرغم من فهمي القاصر طريقا قصيرا، وسبيلا سويا، هو : طريق العجز، والفقر، والشفقة، والتفكير.

ويقارن بين هذه الطريق، وطريق أهل السلوك، ويؤكد أن اختياره هذا حقيقة شرعية، أكثر مما هو طريقة صوفية.

ويقول : ولا يذهبن بك سوء الفهم إلى الخطأ، فالمقصود بالعجز والفقر والتقصير، إنما هو إظهار ذلك أمام الله سبحانه، وليس إظهاره أمام الناس، وأما أوراد هذا الطريق القصير وأذكاره فتنحصر في اتباع السنة والعمل بالفرائض، ولا سيما إقامة الصلوات باعتدال الأركان، والعمل بالأذكار عقبها، وترك الكبائر..³⁷

ثم يبين أن كل خطوة من هذه الخطوات الأربع في طريق الوصول إلى مرضاة الحق سبحانه ترتكز إلى آية كريمة بل آيات، فالعجز: منبعه قوله تعالى [فلا تزكوا أنفسكم] [النجم: 32]، والفقر منبعه قوله تعالى: [وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ] [الحشر: 19]، والشفقة منبعا قوله تعالى: [وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ] [النساء: 79]، والتفكير منبعه قوله تعالى: [كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ] [القصاص: 88].

وكانه أدرك رحمه الله ولا حظ أن الإنسان المسلم وقد طلب إليه القيام بالمهام العظمى، قد غرق في سجن التفكير العقيم، مما أوصل بعضهم إلى وحدة الوجود، التي توهم أصحابها أن الكائنات عدما، فأصبح الإنسان المسلم مشلولاً، عديم الفاعلية،

كسولا عاجزا عن ترقية ما وهب من قابلية، فأراد انتشاره من حالة أصبحت مرضا مزمنًا، ورشه بماء القرآن ليعود نديا مورقا دون أن ينزع هذا الجزء الأصيل في الإنسان، بل وضعه على الفكر الصحيح، بتنبيه وجيز، وتجربة عميقة ومستند لا ينزع، وقال عنه في صدر حديثه: هذا الذيل قصير جدا، له أهمية عظيمة، ومنافع للجميع.

فهو أشبه ما يكون بلطمة تأديب، وصفعة إيقاظ - كما يعبر هو رحمه الله - .

وختمه بقوله: إن هذا الطريق لا ينظر إلى الموجودات بالمعنى الأسمى أي أنه لا ينظر إليها أنها مسخرة لذاتها ونفسها، بل يعزلها من هذا، ويقلدها وظيفة أهما مسخرة لله³⁸.

وهذه الطريق بهذا المعنى حاجة إنسانية عامة، وبها يكون الداعي متضرعا، داعيا بلسان حاله ومقاله على الدوام، ويرتقي بذلك إلى أعلى شرف، ويخاطب أهل الإيمان بقوله: فيا معشر أهل الإيمان إن درعكم المنيع لصد أولئك الأعداء هو التقوى المصنوعة في دوحه القرآن الكريم، وإن خنادقكم الحصينة هي سنة نبيكم عليه أفضل الصلاة والسلام، وأما سلاحكم فهو الاستعاذة والاستغفار والاتجاء إلى الحرز الإلهي³⁹.

7- إن الإمام الثورسي قد تحدث عن الإنسان في حالته الدنيوية والأخروية وربطهما ربطا محكما لا ينفصم، بأدلة كثيرة من العقل والواقع، والشعور والإحساس الإنساني، فإذا ما أراد الإنسان أن يكون سعيدا في حالته منعا في مرحلته فيجب عليه أن يسخر طاقاته وقدراته، وتفكيره ومشاعره، إلى الباقي، إلى الخلود، الذي هو فطرة مغروزة فيه، ويرى أدلتها كل يوم من حوله، يقول رحمه الله: في فطرة الإنسان عشق شديد للبقاء... إن جميع الآهات والحسرات الناشئة من أنواع الفراق، إنما هي تعابير حزينة تنطلق من عشقه للبقاء، ولولا توهم البقاء لما أحب الإنسان شيئا، بل يصح القول: إن سببا من أسباب وجود عالم البقاء، والجنة الخالدة، هو الرغبة الملحة للبقاء المغرور في فطرة الإنسان، والدعاء العام الشامل الذي يسأله بشدة للخلود⁴⁰.

ويؤكد أن هذه الأشياء الموجودة المبتوثة، لم تخلق للفناء، بل للبقاء وإن فناءها الظاهري ليس إلا تسريحا لها من خدمة ومهمة قد أدتها، والشيء قد يفني من جهة، ويبقى من جهات عديدة.

يقول رحمه الله: تأمل هذه الزهرة وهي كلمة من كلمات القدرة الإلهية إنها تنظر إلينا متمسمة لفترة قصيرة ثم تختفي وراء ستار الفناء، فهي كالكلمة التي نتفوه بها تودع آفا من مثيلاتها في الآذان، وتبقى معانيها بعدد العقول المنصتة لها، وتمضي بعد أن أدت وظيفتها، وهي إفادة المعنى، فالزهرة التي ترحل بعد أن تودع في ذاكرة كل من شاهد صورتها الجميلة الظاهرة، وبعد أن تودع في بذيراتها ماهيتها المعنوية فكأن كل ذاكرة وكل بذرة بمثابة صورة فوتوغرافية لحفظ جمالها وصورتها وزينتها ومحل إدامة بقائها...

وستفهم أن الإنسان لم يترك حبله على غاربه، ولم يترك حرا طليقا ليرتع أينما يريد، بل تسجل جميع أعماله وتلتقط صورها وتدون جميع أفعاله ليحاسب عليها. وستفهم أن الموت والاندثار الذي يصيب في الخريف مخلوقات الربيع والصيف الجميلة ليس فناء نهائيا أو إعداما أبديا، وإنما هو إعفاء من وظائفها بعد إكمالها وإيفائها، وهو تنبيه رباني لذوي المشاعر الذين أنستهم الغفلة مهامهم ومنعهم السكر من الشكر... وستفهم أن الصانع الدائم لهذا العالم الغاني له عالم غير هذا، وهو عالم باق خالد يشوق عباده إليه، ويسوقهم إليه⁴¹.

وهذا المعنى الدقيق وأثره الواسع يتوجه الأستاذ النورسي بالخطاب إلى الإنسان ليستفيد من لحظات عمره القصيرة بتحويلها إلى عمر مديد طويل لا ينقطع بناء على استعداده في حياته القلبية والروحية اللتين تحييان بالمعرفة الإلهية والمحبة الربانية، ولبلبوس العبودية الحق، فيصير هذا العمر القصير الغاني عمرا أبديا في دار الخلود والبقاء⁴². وتكون كل لحظة يقطعها الإنسان في سبيل الله تعالى، ومعرفته ومحبته، وابتغاء مرضاته، قدرا لا يجد من البقاء الذي لا يعتريه الفناء، بينما هذا العمر المحدود بعيدا عن الله، وفي غفلة عنه كله لا يساوي لحظة عابرة أو ثانية عابرة.

فما على الإنسان إلا أن يولي وجهه شطر الملة الإبراهيمية، ويقول على غرار إبراهيم عليه السلام: [لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ] ويتوجه إلى الحبوب الباقي⁴³. فسعادة الإنسان ووظيفته الأساس إنما هي التوجه إلى الباقي بكامل جهوده وجوارحه، وبجميع استعداداته الفطرية سائرا قدما في سبيل مرضاته، متمسكا بأسمائه الحسنى، مرددا بجميع لطائفه من قلب وروح وعقل، ما يردده لسانه: يا باقي أنت الباقي⁴⁴.

وينصح تلامذته وإخوانه والسائرين في هذا السبيل بأن الوسيلة لتحصيل هذه المنافع والمغانم في نعيم البقاء هي: اعملوا لله، التقوا لوجه الله، اسعوا لأجل الله، ولتكن حركاتكم كلها لمرضاة الله - لله، لوجه الله، لأجل الله - وعندها تتحول دقائق العمر القصير إلى سنين طويلة⁴⁵.

إن الأستاذ النورسي حين تحدث إلى الإنسان رابطا عالميه الدنيوي والأخروي معا، قد كشف له عن معاني آيات القرآن السمعية من القيامة وحشرها، والميزان ومعناه، والجنة ولذائدها، والنار وأهوالها وما تخفيه للمعاندين الجاحدين، كل ذلك بلسان القرآن والسنة الشريفة، وبتقريب من عالم الواقع الإنساني في نفسه وفكره وحافظته وما يحيط به حتى إنه يؤكد بعد ذكر الأدلة على قطيعتها وأنها ترقى إلى درجة الشهود، ويؤكد أن طريق

البقاء والخلود في النعيم هو العبودية الحق، واتباع القرآن الكريم والسنة الشريفة، والتوجه من خلاهما إلى الحي الباقي.

يقول رحمه الله مخاطبا النفس الإنسانية : يا نفس إن كنت تريدين أن تنالي عملا أخرويا خالدا في عمر قصير، وإن كنت حقا تريدين أن تري فائدة كل دقيقة من دقائق عمرك كالعمر الطويل، وإن كنت حقا تريدين أن تحولي العادة إلى العبادة وتبدلي غفلتك إلى طمأنينة وسكينة، فاتبعي السنة الشريفة، لأن تطبيق السنة والشرع في معاملة ما يورث الطمأنينة والسكينة، يصبح نوعا من العبادة بما يثمر من ثمرات أخروية كثيرة⁴⁶.

8- وفي الحتام فإن الأستاذ النورسي جعل كتاباته كلها للإنسان لهدايته وتثبيت الإيمان في قلبه وفتح بصيرته على حقائق الكون من حوله، وقرب له عالم الغيب بعالم الشهادة، وأقام الدلائل والبيانات والحجج والعلامات ليكون هذا الإنسان ربانيا عابدا لله يعرف موقعه الصحيح من هذا الكون شاكرا لأنعم ربه، عاملا بمهديه، محققا لمراده، خالدا بجواره في جنانه ورضوانه.

يقول رحمه الله : وكما أنه - أي ذو الجلال - قد أنشأ هذا العالم الأكبر ملكا له، كذلك خلق الإنسان مملوكا له، ومنحه من الأجهزة والجوارح والحواس والمشاعر... ويكون سيذا على ذلك المملوك سوى ذلك المالك للملك الذي جعل الموجودات كلها بدءا من عالم الذرات ذلك العالم الواسع جدا إلى جناح الذباب ملكا ومزارع، وجعل الإنسان الصغير ناظرا على ذلك الملك الواسع العظيم ومفتشا فيه، ومزارعا وتاجرا ودلالا وعابدا ومملوكا، واتخذة ضيفا عزيزا عليه، ومخاطبا ومحبوبا⁴⁷.

لقد كان الأستاذ النورسي في تفكيره ورسائله يعترف من معين القرآن، ويطابقه مع حياة وواقع الإنسان بكل تقلباته وأحواله.

وكان حديثه عن الإنسان حديث الناطق بالقرآن، الداعي إلى هداية الرحمن، المنادي في سوق الحياة وعطاءاتها العلمية وتقدمها المادي إلى سعادة الإنسان الأبدية في لحظاته القصيرة الدنيوية الفانية، وفي دار الخلود والدوام.

ومما يلاحظ أنه لم يكن يكثر الاستشهاد بالقرآن ولا يكثر من ذكر الآيات التي تتعلق بموضوعه، واعتقادي أن ذلك كان عن قصد لأنه يريد دفع الملحد الجاحدين، والغافلين الجاهلين بالحجج المادية الملموسة وهم لا يؤمنون بالقرآن، فيجابههم بمفاهيمهم وبما يؤمنون به.

إن هناك قضايا إنسانية كثيرة قد عاجلها هذا الإمام تستحق العناية والدراية كالغرائز الذميمة في الإنسان، وآثارها وكيفية التخلص منها، وصفة أهل الإيمان، وأهل العناد

والطغيان كما يراها الإمام النورسي والشبهات التي تجر الإنسان وتكبّط به ... وغير ذلك كثير مما يستحق الوقوف أمامه بتفصيل.

إن أفكار هذا الإمام منيرة أخاذة حية ناضرة ما أحوج الإنسانية اليوم إليها لتتقذ الإيمان من التفسيح والاجتثاث، والأخلاق من الانهيار الذي أناخ بكلّكله على البشرية. إنه بأفكاره رحمه الله حاضر بيننا يداوي علل المسلمين وغيرهم، فيقدم علاجات قرآنية جاهزة فعالة، فما أحرى الباحثين والمفكرين والدعاة أن يستفيدوا من هديه وفكره وسلوكه، ويقتبسوا من مکتوباته ورسائله !!؟

الهوامش

- 1 انظر المکتوبات ص 411.
- 2 انظر المکتوبات ص 456.
- 3 انظر المرشد لأهل القرآن ص 79.
- 4 انظر المرشد لأهل القرآن ص 40.
- 5 انظر الكلمات ص 812.
- 6 انظر الكلمات ص 24.
- 7 انظر الكلمات ص 41-355.
- 8 انظر الكلمات ص 204.
- 9 انظر الكلمات ص 828.
- 10 الكلمات ص 366-376.
- 11 الكلمات ص 366-376.
- 12 انظر الكلمات ص 371.
- 13 انظر الكلمات ص 111.
- 14 انظر الاسم الأعظم ص 77.
- 15 انظر الكلمات ص 204.
- 16 انظر الكلمات ص 111-402.
- 17 انظر الكلمات ص 371.
- 18 انظر مرشد أهل القرآن ص 44.
- 19 انظر مرشد أهل القرآن ص 73.
- 20 انظر مرشد أهل القرآن ص 87.
- 21 انظر الكلمات ص 806.
- 22 انظر الكلمات ص 823.
- 23 انظر المکتوبات ص 50.
- 24 انظر المکتوبات ص 303.
- 25 انظر اللمعات ص 595.

-
- 26 انظر مرشد أهل القرآن ص 59.
27 انظر الكلمات ص 27.
28 انظر مرشد القرآن ص 19.
29 انظر الكلمات ص 352.
30 انظر الكلمات ص 352.
31 انظر الكلمات ص 413، والسنة منهاج ومراقبة ص 40.
32 انظر الكلمات ص 355.
33 انظر الكلمات ص 356.
34 انظر المكتوبات ص 390.
35 انظر المكتوبات ص 386، والسنة مراقبة ومنهاج ص 52.
36 انظر منها : المكتوبات ص 360.
37 انظر المكتوبات ص 594.
38 انظر المكتوبات ص 595.
39 انظر اللغات ص 111.
40 انظر السنة النبوية منهاج ومراقبة ص 72، وانظر تفصيلا كبيرا في الكلمات ص 223.
41 انظر الكلمات ص 80.
42 انظر مرشد أهل القرآن ص 76 والسنة النبوية 72،77.
43 انظر الكلمات ص 418.
44 انظر اللغات ص 26.
45 انظر مرشد أهل القرآن ص 76.
46 انظر الكلمات ص 416.
47 انظر المكتوبات ص 302.

الإنسان كعالم صغير في رسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسي

د. جورج غريغوري^٢

إن مسألة الذات أو الأنا (هذا هو المصطلح الذي يستخدمه النورسي في كتاباته) تقع في صدارة المسائل التي يتطرق إليها العلماء المسلمون في معظم أعمالهم، منطلقين في تحليلهم من الآية الثانية والسبعين من سورة الأحزاب "إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا".

إذن، في الكون كله، ليس إلاّ الإنسان الذي قبل بأن يخزن الحقيقة أو بأن يتحمل المسؤولية، وهذا التحمل يعينه جعل الإنسان متميزاً عن باقي المخلوقات، كما جعله مسؤولاً عن أعماله معطياً له "إنسانيته".

بهذا الصدد، هذا البحث ليس إلا محاولة لعرض هذه المسألة بتسليط الضوء على النتائج التي حصلنا عليها بهذا الخصوص من خلال مطالعتنا للعمل العظيم لبديع الزمان سعيد النورسي وهو "رسائل النور" وبالأحرى الكلمة الثلاثين من مجلد "الكلمات" تحديداً.

ويعتبر النورسي أن أحد ظواهر الأمانة أو المسؤولية المحمولة على عاتق الإنسان هو من خلال الأنا - وهو عبارة عن فردية كل إنسان - الذي ينطوي على إشارات ونماذج يستدل بها على حقائق أوصاف الربوبية الجليلة وشؤونها المقدسة..

يلخص الكون العظيم في نفس الإنسان، فالإنسان في ذاته عالم صغير. هذا الإنسان يستطيع أن يفهم الله بصفاته المطلقة من خلال حدود الأنا الوهمية. هذا وغيرها من جوانب الأنا حسب وجهة نظر النورسي سوف تُحلل في بحثي هذا.

^٢ أستاذ اللغة العربية في جامعة بوخارست - رومانيا. من أهم أعماله: ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الرومانية (طبعت عام 2000 في بوخارست).

مقدمة

أولاً: لقد اخترنا أن نبدأ هذا البحث بالآية من سورة الأحزاب من القرآن الكريم محاولاً حل لغز طلسم الخلق.

ثانياً: إن الله جل جلاله وضع بيد الانسان امانةً هي: " انا ". الأنا هو المفتاح إلى أسماء الله الحسنى، وعلى هذا الأساس يصبح المفتاح إلى طلسم الخلق المقفل. وأعطى هذا المفتاح بيد الإنسان، ومتعلق بنفسه من خلال مشيئة وقدره الله وهذا جانب آخر للأمانة.

وبهذه الأمانة أي الأنا الذي هو مجرد وحدة قياس، تسمح للإنسان أن يدرك بها أوصاف الربوبية وشؤون الألوهية. وبالرغم من أنه مجرد افتراض ليس له وجود حقيقي وليست هناك حاجة لإثبات وجوده بالعلم المحسوس والأدلة، وليس له شكل ولا صورة. وليس له معنى في ذاته.. بالرغم من ذلك فإن له دلالة بمعنى أنه يبين معنى الأشياء أكثر مما يبين نفسه للغير. لذلك بمائل الأنا حرف الألف في كتاب الخصائص البشرية.

وكما سنرى فيما بعد فإن الأنا يظهر بوجهين:

وجه متوجه إلى الخير والوجود؛ فهو في هذا الوجه يتلقى الفيض ويقبله فحسب، أي يقبل الإفاضة عليه فقط؛ إذ هو عاجز عن إيجاد شئ في هذا الوجه، أي: ليس فاعلاً فيه، لأن يده قصيرة لا تملك قدرة الإيجاد.

والوجه الآخر متوجه إلى الشر، ويُفضي إلى العدم؛ فهو في هذا الوجه فاعل، وصاحب فعل.

والأنا هو العدسة التي ندرك من خلالها الكون ونصبح واعين بأنفسنا ومعرفتنا بالكون. وعند ذلك نعبد الله العباداة الحقيقية. أما عناصر الطبيعة فهي، خشية من الشرك بالله، رفضت الأمانة التي عُرضت عليها. وفي برهنة النورسي التالية، سنرى فيها أن لهذا الخوف أساس من الصحة، إذ يقول: " إن إشفاق السموات والارض والجبال من حمل الأمانة، ورهبتهم من شرك موهوم مفترض، انما هو من هذا الوجه من "الانانية" التي تُؤلّد جميع انواع الشرك والشرور والضلالات".

ويوجد في عالم الإنسان خطي التفكير - قديمان مثل قدم العالم - وهما لا يتغيران لأنهما محفوظان إلى أيامنا هذه كما كانا في أيام آدم. أحدهما خط النبوة والدين والآخر خط الفلسفة. "فمتى كانت هاتان السلسلتان متحدتين ومتمزجتين، أي في أي وقت أو عصر إستجارت الفلسفة بالدين وانقادت اليه واصبحت في طاعته، انتعشت الانسانية بالسعادة وعاشت حياة اجتماعية هنيئة. ومتى ما انفرجت الشقة بينهما وانفترقتا، احتشد

النور والخير كله حول سلسلة النبوة والدين، وتجمعت الشرور والضلالات كلها حول سلسلة الفلسفة".

هاتان الطريقتان للفهم والنظر إلى العالم يمكن مقارنتهما بشجرتين ينتشر تأثيرهما أي فروعهما وظلّهما في كل الاتجاهات مسيطرة على كل شيء.

وفي الواقع يمكننا تشبيه خط الفلسفة السيئة والمضلة بصورة شجرة زقوم حيث فرع العقل يحمل أثمار الزندقة والمادية والطبيعية، بينما فرع العواطف يحمل نماذج الطغيان في العالم مثل نمروود وفرعون وشداد وأخيراً فرع ضعف الإنسان وشهوته الحيوانية مثقل بالآلهة وبالأصنام وغيرها من الأشياء التي منح لها الإنسان صفة الألوهية. وهذا هو أسوأ الكبائر: الشرك بالله.

"وبجانب هذه الشجرة الخبيثة، شجرة زقوم، نشأت شجرة طوبى العبودية لله، تلك هي سلسلة النبوة، فثمرت ثمرات يانعة طيبة في بستان الكرة الأرضية، ومدّها إلى البشرية، فتدلّت قطوفاً دانية من غصن القوة العقلية: انبياء ومرسلون وصديقون وأولياء صالحون.. كما اثمرت في غصن القوة الدافعة: حكاماً عادلين وملوكاً طاهرين طهر الملائكة.. وثمرت في غصن القوة الجاذبة: كرماء واسخياء ذوي مروءة وشهامة في حسن سيرة وجمال صورة ذات عفة وبراءة.. حتى اظهرت تلك الشجرة المباركة: ان الانسان هو حقاً اكرم ثمرة لشجرة الكون".

هاتان الشجرتان تمثلان في رأى النورسى وجهين للأنا وسوف نحللها لنرى ما يسبب فراقهما واضعين كأمثلة لهذه الحقائق بعض الأدلة كالتالي.

الوجه الأول: الذي يتطلع الى حقائق النبوة: هذا الوجه منشأ العبودية الخالصة لله. أي أن "أنا" يعرف أنه عبدٌ لله، ومطيع لمعبوده.. ويفهم انه دال على معنى في غيره.. ويعتقد ان وجوده قائم بوجود غيره وبايجاده.. ويعلم ان مالكية موقته ظاهرية باذن مالكة الحقيقي.. وحقيقته ظلية - ليست اصيلة - أي انه ممكنٌ مخلوق هزيل، وظلٌ ضعيف يعكس تجلياً لحقيقة واجبة حقة.. أما وظيفته فهي القيام بطاعة مولاه، طاعة شعوريةً كاملة، لكونه ميزاناً لمعرفة صفات خالقه، ومقياساً للتعرف على شؤونه سبحانه.

هكذا نظر الانبياء والمرسلون عليهم السلام، ومن تبعهم من الاصفياء والاولياء، الى "انا" بهذا الوجه. وشاهدوه على حقيقته هكذا. فادركوا الحقيقة الصائبة، وفوضوا الملك كله الى مالك الملك ذي الجلال، واقرّوا جميعاً، ان ذلك المالك جل وعلا لا شريك له ولا نظير، لا في ملكه ولا في ربوبيته ولا في لوهيته، وهو المتعال الذي لا يحتاج الى شيء،

فلا معين له ولا وزير، بيده مقاليد كل شيء وهو على كل شيء قدير. وما "الاسباب" إلا أستار وحُجب ظاهرية تدل على قدرته وعظمته.. وما "الطبيعة" إلا شريعته الفطرية، ومجموعة قوانينه الجارية في الكون، اظهارةً لقدرته وعظمته جل جلاله".
وهكذا وبالعكس ما يؤكد الفلاسفة فإن الماضي ليس مملكة عدم الوجود، بل هو حديقة منيرة تسكنها الأرواح التي غادرت هذا العالم والتي هي الآن حرة وسعيدة، ينتظرها هناء خالد.

الوجه الثاني: أن للفلسفة منظور معاكس تماماً في إدراك الأنا، فهو لا يحمل أي معنى آخر إلا معناه الخاص به. وهذا يعني أنه يوجد بنفسه، ووجوده ضروري وجوهري. وهناك صفات خاطئة منسوبة إلى الأنا كما تراها الفلسفة: فهو يملك حياته الخاصة به وكونه سيد نفسه وباعتباره حقيقة ثابتة. وكل هذه الدلائل توضح أن الفلسفة قائمة أصلاً على أسس زائفة فمن الخطأ أن يُعتبر أن في جوهر الأنا يكمن الحب لذاته..
معظم الفلاسفة المشهورين مثل أفلاطون وأرسطو وابن سينا والفارابي اعترفوا بأن الهدف النهائي للبشرية هو تحقيق مطابقتها للخالق العظيم. كما فعل فرعون بالضبط، "وذلك بتهييجهم" الانانية لتجري طليقة في اودية الشرك والضلالة، فسَدُوا سبيل العبودية الى الله، وغَلَقُوا ابواب العجز والضعف والفقر والحاجة والقصور والنعقصور المندرجة في فطرة الانسان، فضلوا في أحوال الطبيعة ولا نجوا من حماة الشرك كلياً ولا اهدتوا الى باب الشكر الواسع".

أما الثمرات التي قدمتها تلك الشجرة الخبيثة، شجرة زقوم، الى انظار البشر فهي الاصنام والآلهة في غصن القوة البهيمية الشهوية؛ اذ الفلسفة تحبذ أصلاً القوة، وتتخذها اساساً وقاعدة مقررة لنهاجها، حتى ان مبدأ "الحكم للغالب" دستور من دساتيرها، وتأخذ بمبدأ "الحق في القوة"¹ فاعجبت ضمناً بالظلم والعدوان، وحشت الطغاة والظلمة والجبابة العتاة حتى ساقتهم الى دعوى الالوهية.

ثم انما ملكت الجمال في المخلوقات، والحسن في صورها، الى المخلوق نفسه، والى الصورة نفسها، متناسية نسبة ذلك الجمال الى تجلي الجمال المقدس للخالق الجميل والحسن المنزه للمصور البديع..

فالذين هم في مسار النبوة حكموا حكماً ملؤه العبودية الخالصة لله وحده، وقضوا: ان الغاية القصوى للانسانية والوظيفة الاساسية للبشرية هي التخلق بالاخلاق الالهية، أي التحلي بالسجايا السامية والحصول الحميدة - التي يأمر بها الله سبحانه - وان يعلم الانسان عجزه فيلتنحيء الى قدرته تعالى، ويرى ضعفه فيحتمي بقوته تعالى، ويشاهد

فقره فيلوذ برحمته تعالى، وينظر الى حاجته فيستمد من غناه تعالى، ويعرف قصوره فيستغفر ربه تعالى، ويلمس نقصه فيسبح ويقدّس كماله تعالى".
ولكن بعد سلوك طريق يختلف عن طريق الدين الحنيف، فالأنا أصبح يضل في يد الفلاسفة الذين يشركون بالله أصناماً وألهة كأسياد للبشرية. وأثبت التاريخ البشري مدى الخطأ الذي هم عليه: وهو أن قوة الله وكماله يمكن أن يشترك معه فيهما الآخرون بطرق مختلفة. فقالوا أن القوي على الصواب وكل السلطة للأقوى والفائز يأخذ كل شيء ووجهة النظر هذه للقوة، أبرزت الحكام الظالمين والطغاة في الدنيا كلها.
وإشارةً إلى مجال الفن والمهارة في خلق الجمال، يتبين خطأ الفلاسفة عندما يعتقدون بأن خلق مثل هذا الجمال والكمال يمكن نسبه إلى البشر، دون الاعتراف بنزعه المقدس وأكثر من ذلك هم يعبدون ويقدمون مثل هذا الجمال الزائف الوهمي خاضعين أنفسهم لأصنام مزورين.
وسنذكر الأمثلة التي ضربها النورسي لكي نعبر الخط بين الطريقتين الموصلين إلى إدراك العالم.

المثال الأول. هو هدف البشرية إلى بلوغ الكمال - أو حسب المصطلحات الفلسفية - محاولة تقليد الله، في حين أن النبوة والدين يعلمان الإنسان أن يكون متواضعاً أمام قدرة الواجب الوجود مع الوعي بضعفه وعجزه. آخذاً بعين الاعتبار بأن الإنسان ضعيف جداً وعاجز، لا يمكن مقارنته بصفات الله القدير المطلق.
والمثال الثاني. أحد المبادئ المرسل مع النبوة هو أن الحياة الاجتماعية تُبنى على أساس التعاون المتبادل وتتمتع بها بمعنى أن كل الكائنات الموجودة يجب أن تساعده وتُدعم. وعلى الجانب الآخر، الفكرة التي ترسخ الفلسفة أسسها عليها - وهي أن الحياة ليست إلا مجرد صراع - تفتح الباب على مصراعيه لدخول الطغاة الغشماء.
المثال الثالث. تؤكد النبوة على مبدأ الوحدة. بمعنى أن كل فرد له وحدة وكل الموجودات لها وحدة متجمعة تنطلق كلها من واحد فقط لأنها مخلوقة من قبل واحد وهو الخالق المجيد. وعلى عكس ذلك، تقول الفلسفة إن من أي شيء لا يمكن إلا اشتقاق شيء واحد من خلال الوسطاء. وهذه فكرة مضلة لأن الله لا يمكن أن يكون له شريك أو وسيط.

المثال الرابع. "انه من الدساتير الحكيمة للنبوة، ان لكل شيء حكماً كثيرة ومنافع شتى حتى ان للثمرة من الحكم ما يُعدّ بعدد ثمرات الشجرة.. فان كانت هناك نتيجة واحدة - لخلق ذي حياة - متوجهة الى المخلوق نفسه، وحكمة واحدة من وجوده تعود اليه، فان آلافاً من النتائج تعود الى خالقه الحكيم وآلافاً من الحكم تتوجه الى فطره الجليل.

أما دستور الفلسفة فهو "ان حكمة خلق كل كائن حي وفائدته متوجهة الى نفسه، أو تعود الى منافع الانسان ومصالحه!" هذه القاعدة تسلب من الموجودات حكماً كثيرة انيطت بها، وتعطي ثمرة جزئية كحبة من خردل الى شجرة ضخمة هائلة، فتحول الموجودات الى عبث لا طائل من ورائه".

ومن نتائج هذه الفلسفة: أنه بسبب الألفة والتوغل في الماديات والشهوات كأن "أنا" يتصلب، ثم تعتريه الغفلة والإنكار فتتجمد تلك "الانانية". ثم بالعصيان لاوامر الله يتكدر ويفقد شفافته ويصبح قائماً. ثم يستغلظ شيئاً فشيئاً حتى يتلع صاحبه. بل لا يقف "انا" عند هذا الحد.. بل يأخذ طور الخصم للاوامر الإلهية.

هذا وينكر الفلاسفة فكرة البعث والآخرة وينسبون الأنا الى الأزلية وهذا يحسب من أخطائهم وضلالهم. برأيهم الطبيعة صنم على مستوى العالم الكبير كما أن الأنا على مستوى العالم الصغير. أما جواب الدين لهذه المسألة فهو في القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية 256 منها:

“فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ”.

الخاتمة:

نعتمد أن أفضل طريقة نهي بها النقاش هي ذكر الآية السابعة من سورة الفاتحة بالتأكيد على الطرق الثلاثة المشار إليها كالتالي :

"صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ".

فالطريق الأول (المشار إليه بـ "الضالين") هو للذين يتبعون فلسفة الطبيعة. والطريق الثاني (المشار إليه بـ "المغضوب عليهم") هو للفلاسفة المشائين الذين ينسبون الخلق إلى وسطاء. وبهذين الطريقين يحاول الإنسان إلقاء الضوء على الحقيقة المطلقة ومعرفة الله من خلال العقل والفكر.

و أخيراً، الطريق الثالث (المشار إليه بـ "الذين أنعمت عليهم") هو الطريق المستقيم لأهل القرآن وهو أسهل وأمن طريق ، مفتوح أمام الكل كما يقول النورسي.

المراجع:

بديع الزمان سعيد النورسي ، الكلمات ، ترجمة: إحسان قاسم الصالحى، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، 1992.

www.alkottob.com

الإنسان ومفهوم (الانتساب الإيماني) عند الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي

د. فريد الأنصاري^Ψ

تمهيد:

يعتبر مصطلح (الانتساب الإيماني) عند بديع الزمان النورسي رحمه الله، من أرفع (الأواني) التعبيرية، التي قدم فيها مفهوم الإيمان بمعناه الوجداني، ومقاصده الإصلاحية التجديدية. فكان أن فتح بذلك (للإنسان) آفاقاً أرحب، تصل نسبيته بالمطلق؛ عبر مسلك (العبدية). بمفهومه الذوقي الخاص عنده؛ ليكون له بذلك شأن آخر، ومعنى جديداً!

إن المسلم عند النورسي لم يعد - باعتباره عبداً لله - مجرد اسمٍ ينادى، أي: (عبد الله) أو (عبد الرحمان)، وإنما صاحب وظيفة مستنبطة من التفكير الخفي، والتدبير الملمى؛ لطبيعة العلاقة بين المضاف والمضاف إليه، في اسم (عبد الله) الذي هو اسم وظيفي - لا علمي - لكل مسلم حق. إن الإضافة النحوية لها دلالة عظيمة، على مستوى المعاني بالقصد البلاغي والإيماني معاً. أعني من حيث إنها تفيد اختصاص المضاف إليه بالمضاف، وتفرد به، على سبيل (الامتلاك). وكذا اختصاص المضاف بالمضاف إليه، على سبيل (الاستناد) والالتناء.

وهنا تكمن خطورة المصطلح: (الانتساب)؛ لأنه تصوير لعلاقة المطلق بالنسبي وما يكتسبه هذا من ذلك! فعلاوة على دقة العلاقة بين مفهومين لا يجمعهما في المنطق إلا معنى التضاد؛ بينما هما هنا يلتقيان في المعنى الإسلامي؛ في التناسب الجميل المستفاد من علاقة العبادة، وما تحمله من ظلال روحية هادئة. قلت: علاوة على ذلك كله فإن

^Ψ من مواليد سنة 1960 في الرشيدية - المغرب . حالياً رئيس قسم الدراسات الإسلامية في كلية الآداب بجامعة مولاي يوسف بمكناس المغرب. له مؤلفات عدة ودواوين شعر .

المصطلح المدروس يصور بأدق ما يكون التصوير الرقي الإنساني، في مدارج الإيمان، حتى يكون أهلاً لمقام العطف الرباني والتضييف الرحماني. ومن خلال ذلك كله يقدم الأستاذ النورسي معنى الإيمان بحس إصلاحه تجديدي، يغري المسلم بتصحيح إسلامه، وتجديد الصلة بربه على أساس مفهوم (الانتساب) الذي كان له أعظم الأثر في تشكيل (مدرسة النور) في الفكر الإسلامي المعاصر. وإني لأحسب أن تجديد التدين في المجتمع الإسلامي، لو أنه سعى هذا المسعى القائم على تحقيق معنى (العبودية)، حيث كانت الإضافة فيها إلى الرحمان نقطة استناد؛ لكان له اليوم شأن آخر، إذ يمنح العبد معنى القوة والمنعة والحياة، كما في قوله تعالى: (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا) [الاسراء 65]. فإيا الضمير: (المضاف إليه) الدال على الذات الإلهية، يخص المضاف (عباد) بخصوص (الانتساب) الذي يكتسب منه (العبد) شرف النسبة إلى الملك العظيم رب السموات والأرض. فذلك ما عبر عنه الأستاذ النورسي (بالانتساب) حيناً و(الانتساب الإيماني) حيناً آخر، كما في قوله رحمه الله: "إن نور الإيمان الذي بسط ذلك (الانتساب) والعبدية هو الذي يجعل النمل يغلب فرعوناً بقوة ذلك (الانتساب)"¹. وقوله: "إنك تنتسب بهوية (الانتساب الإيماني) إلى سلطان عظيم ذي قدرة مطلقة"².

وهنا يفتح باب آخر لتدفق التجليات والواردات، مما لا يدرك له كنهه إلا أن يذاق! وبيان ذلك على مستوى الدراسة المصطلحية هو كما يلي:

الفصل الأول: في مفهوم (الانتساب الإيماني) عند النورسي:

يرجع استعمال مادة (نسب) في اللغة إلى معنى (الاتصال). وكل ما اشتق من (النون) والسين والباء) فهو راجع إلى ذلك بصورة ما. ومن هنا كان هذا الجذر اللغوي (أصلاً) واحداً غير متعدد من حيث الوضع اللغوي الأصلي. فكانت لذلك كل معانيه الاشتقاقية، الجزئية، الحقيقية والمجازية؛ إنما تُعبرُ إلى دلالتها الخاصة في الحقيقة أو المجاز؛ عبر المسلك الدلالي الأول، أعني: الاتصال. وما أدق تعبير إمام اللغويين والمعجميين، في التأصيل والتأثيل أحمد بن فارس إذ قال في مقاييسه: "النون، والسين، والباء: كلمة واحدة قياسها: اتصال شيء بشيء. منه النسب: سمي لاتصاله، وللاتصال به. نقول: نَسَبْتُ أَنَسْبُ وهو نسب فلان، ومنه النسب في الشعر إلى المرأة: كأنه ذكر "يتصل بها، ولا يكون إلا في النساء (...). والنسب: الطريق المستقيم، لاتصال بعضه من بعض"³ وقال الراغب الأصفهاني: "وتستعمل النسبة في مقدارين متجانسين بعض التجانس، يختص كل واحد منهما بالآخر"⁴ ولذلك قال ابن منظور: "النسب يكون

بالآباء، ويكون إلى البلاد، ويكون في الصناعة (...). وانتسب واستنسب: ذكر نسيه⁵، ومن هنا كان الانتساب ضرباً من التعريف بالمنتسب، سواء انتسب إلى أب أو جهة، أو مكان، أو صناعة؛ لأنه بانتسابه يعرف بعض ماهيته، قال ابن منظور: "يقال للرجل إذا سئل عن نسيه: استنسب لنا أي: انتسب لنا حتى نعرفك"⁶.
ومن هنا كان (الانتساب) في اللغة: بيان علاقة الشخص بجهة ما؛ قصد التعريف به. وأما في اصطلاح بديع الزمان النورسي:

فالانتساب: هو الانخراط الوجداني في سلك العبودية لله إيماناً وعملاً.

فأما كونه (انخراطاً) فلأنه نوع من الدخول في (الخدمة). بمعناها الوظيفي حيث يكتسب العبد الصفة الإيمانية الانتسابية، بما يشغل من وظيفة لدى الملك العظيم. ولذلك كان الإمام بديع الزمان حريصاً على التمثيل لهذا المعنى في كثير من المواطن من (الكليات) بالخدمة السلطانية، لما تجلبه هذه من صفات العزة والمنعة للخدام المخدم، يقول رحمه الله: "إن الذي يتحرك ويسكن، ويصبح ويمشي بهذه الكلمة: (بسم الله) كمن انخرط في الجندية، يتصرف باسم الدولة، ولا يخاف أحداً، حيث انه يتكلم باسم القانون، وباسم الدولة، فينجز الأعمال ويثبت أمام كل شيء"⁷. ويقول في بيان أوضح: "إذا انتسب أحد إلى السلطان بالجندية أو بالوظيفة الحكومية، فإنه يتمكن أن ينجز من الأمور، والأعمال أضعاف أضعاف، ما يمكنه إنجازه بقدرته الشخصية، وذلك بقوة ذلك الانتساب السلطاني"⁸. فهذا التشبيه البليغ مقصود للدلالة على الطبيعة الوظيفية، للخدمة التعبدية التي بها فقط ينال المسلم شرف الانتساب الإيماني، ذلك أنه - كما يقول النورسي: - "يرقى إلى مقام الضيف الكريم في هذا الكون، وإلى مقام الموظف المرموق فيه، رغم أنه ضئيل وصغير بل هو معدوم، وذلك بسموه إلى مرتبة خطاب (إياك نعبد): أي انتسابه لمالك يوم الدين، ولسلطان الأزل والأبد"⁹.

ومن هنا كان الإيمان المبلغ إلى مقام الانتساب، انخراطاً وظيفياً كما قلنا، حيث عمل النورسي رحمه الله على تحسيس طلابه بالذوق الانتمائي للإسلام، وتحديد مفهوم الصفة الإسلامية التي أبلتها العادات الاجتماعية، وطمستها الظلمات العلمانية الزاحفة، فكان الأستاذ لذلك يثير مكامن الوجدان في النفوس بتجديد المفاهيم، وسك المصطلحات، ومن هنا كان لزاماً أن نعيد عبارة الانخراط في التعريف بصفة (الوجداني)؛ للدلالة على مقصود النورسي من تجليات الإيمان، وما يجده المؤمن فيها من أذواق ومواجيد، هي حقيقة مقام (الانتساب). فالمسألة إذن ليست مجرد انخراط شكلي بحمل الشارات والعلامات، من أسماء إسلامية وتعايير دينية، ولكنها أعمق من ذلك بكثير، إنها شعور

ومواجيد وأذواق يجدها العبد من صدق توجهه، وأصالة انتسابه، مما يرقيه إلى ما يسميه المربون الأوائل (بمقام الأنس) حيث تنساب غدران الطمأنينة والسكينة على مشاعر العبد في سلوكه إلى الله. قال رحمه الله مخاطباً نفسه: "فما دمت قد ظفرت بنقطة استناد مثل هذه، بهوية الانتساب الإيماني؛ فيمكنك الاستناد والاطمئنان إذا إلى قوة عظيمة، وقدرة مطلقة. وحقاً لقد كنت أحس بقوة معنوية عظيمة كلما كنت أتلقى ذلك الدرس من تلك الآية الكريمة (...): (حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)"¹⁰. ويقول في موطن آخر لكن في السياق ذاته: "ما أن جاءت (حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) حتى رفعت الستار، فأحسست، وشاهدت، وتذوقت بحق اليقين أن لذة البقاء وسعادته موجودة بنفسها، (...). في إيماني وإذعاني، وإيقاني ببقاء الباقي ذي الكمال، وبأنه ربي وإلهي"¹¹.

وأما كون الانخراط الوجداني في سلك العبودية إنما يكون (إيمانا وعملاً): فهو للدلالة على أن الأذواق والمواجيد التعبدية، التي يكتسبها العبد بانتسابه، إنما يكتسبها من اجتماع الأمرين معاً: الإيمان والعمل، فيجني من الأول مواجيد التفكير، ويجني من الثاني مواجيد الخدمة، فيتم له بذلك جمال الانتساب صدقاً لا كذباً، ويكون حينئذ أهلاً لورود التجليات.

هذا في مفهوم (الانتساب الإيماني) على الإجمال، وأما على التفصيل فنعرضه كما يلي:

الفصل الثاني: في الانتساب الإيماني والتوحيد:

يرجع مفهوم (الانتساب) عند بديع الزمان - من حيث التصور - إلى معنى (التوحيد)، كما فصلناه في معناه الرئيس عنده¹². وذلك من خلال مفهوم اصطلاحياً يستعمل عنده مقرونًا بمصطلح (الانتساب)، ألا وهو (الاستناد)، على جهة الترادف، لكن للدلالة أساساً على معنى الارتكاز على (الواحد الأحد)، وتوحيده بالانتساب إليه سبحانه، واستدراجه ثمار التوحيد والوحدانية، من معاني التأييد والتسديد والنصرة، قال رحمه الله: "إن قوة الاستناد والانتساب التي في الفردية والوحدانية تجعل النملة الصغيرة تقدم على إهلاك فرعون عنيد (...). باسم ذلك الانتساب، وبسر ذلك الاستناد"¹³.

ذلك هو توحيد الواحد الذي يمنح العبد الموحد قوة بسبب انتسابه إلى الواحد الأحد، ولذلك كان الشرك بهذا المعنى - من حيث المناقضة - دالاً على التفرقة، وكل معاني الضعف والتجزئ، ذلك "أن في الوحدة يقوم الانتساب مقام قدرة غير محدودة، ولا يضطر السبب لحمل منابع قوته، ويتعاضم الأثر بالنسبة إلى المسند إليه، وفي الشركة يضطر كل سبب لحمل منابع قوته، فيتصاغر الأثر بنسبة جرمه"¹⁴.

إن (الانتساب الإيماني) بهذا المعنى يقوم أساسا من حيث المنطلق على مفهوم (التوحيد) لدى بديع الزمان. فكل منتسب موحد بالضرورة، وكل من لا انتساب إيماني له؛ مشرك تصورا أو وجدانا أو هما معا.

وهذا واضح في تدبر الاعتبار التصوري، الذي بنى عليه النورسي مفهوم الانتساب، إذ كان الكون كله من حيث هو مخلوقات شتى، جلائلها ودقائقها باطلاق، قائما بقيومية (القيوم) سبحانه، فهو إذن انتساب كوني، ينطلق منه العبد على مستوى التصور لتحرير التوحيد في قلبه، وتخليصه من كل الشوائب الشركية؛ حتى يتسنى له إخلاص الانتساب الإيماني لله الواحد القهار على مستوى الوجدان، قال رحمه الله: "إن خالق هذا الكون - ذا الجلال - (قيوم) أي: أنه قائم بذاته، دائم بذاته، باق بذاته. وجميع الأشياء والموجودات قائمة به، تدوم به، وتبقى في الوجود به، وتجد البقاء به، فلو انقطع هذا الانتساب للقيومية من الكون بأقل من طرفة عين يحى الكون كله!"¹⁵.

هذا التصور - كما قلت - هو الفراش الذي يمهده به العبد لإخلاص التوحيد، وإسناد كل شيء لله وحده دون سواه، ثم يكون هو بعد ذلك عبدا (منتسبا) أي مستندا في كل أمره إلى الواحد الأحد، وذلك هو قول بديع الزمان: "إذا ما انقطع الانتساب إلى الله سبحانه وتعالى، ينبغي قبول وجود آلهة بعدد ذرات التراب! وهذه خرافة مستحيلة في ألف محال ومحال، بينما الأمر يكون مستساغا عقلا، وسهلا ومقبولا؛ عندما تصبح كل ذرة مأمورة، إذ كما أن جنديا اعتياديا لدى سلطان عظيم يستطيع - باسم السلطان، واستنادا إلى قوته - أن يقوم بتهجير مدينة عامرة من أهلها (...). كذلك تستطيع بعوضة صغيرة أن تطرح نمودا على الأرض (...). وتستطيع بذرة تين صغيرة جدا أن تحمل شجرة التين الضخمة على ظهرها، كل ذلك باسم سلطان الأزل والأبد، وبفضل ذلك الانتساب"¹⁶.

إنه ضرب من تحرير التصور - أولا - من الشرك والخرافة والتناقضات المستحيلة؛ لأنه بغير ذلك لا يستقيم انتساب إيماني لعبد، ثم إنه ضرب أيضا من التفسير العقدي التوحيدي (لفاعلية) الانتساب الإيماني لدى الإنسان، وكيف يتم التحول من الضعف إلى القوة، ومن الاستمداد الجزئي إلى الاستمداد الكلي، رغم ضآلة الحرم المنتسب وحقارته. ذلك جوهر (التوحيد) عند بديع الزمان كما بيناه¹⁷ وإنما (الانتساب الإيماني) وجه من وجوهه، وصورة من مرآته.

الفصل الثالث: في الانتساب الإيماني و(العبدية):

سبق البيان في التعريف أن الانتساب الإيماني انخراط وجداني في سلك العبودية لله. وإنما ذلك لما حققناه لدى بديع الزمان من ثمار تفكيرية، لمفهوم (العبدية)، في سياق شرح معاني الانتساب، حتى إنه يمكن القول: إن معنى (الانتساب) مرادف تمام المرادفة لمعنى (العبدية)، من حيث إن المنتسب لا يعدو أن يكون بانتسابه ذاك محققا لمعنى عبوديته لله الواحد القهار. وتلك هي غاية الغايات من وظيفته الخلقية، المذكورة في قوله تعالى: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" [الذاريات: 56] وللعبدية في معنى الانتساب ذوق آخر، وجمال جديد، إنها الشعور الدائم بالصلة الإيمانية، القائمة على أساس الخدمة، التي تربط العبد بربه بالغدا والعشي. فالإحساس (بالوصل الذوقي) بقلب العبد، ليس متاحا لكل الناس، بل هو موحدة جمالية لا تكون إلا بتحقيق معنى الانتساب الإيماني، لدى (عبد الله) خاصة. ومعنى (عبد الله) هنا تحقيق المعنى الإسنادي لا مجرد الاسم. ولا يكون تحقيقه إلا بالاستدعاء الدائم للصفة الوجودية للإنسان، مما ذكر في قوله تعالى: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" أي باستحضار ذلك استحضارا فعليا، على مستوى الباطن والظاهر، والدوران معه بدوران الفلك.

فما أجمل قول بديع الزمان الجامع المانع مخاطبا (عبد الله) بالمعنى المفهومي: "إنك منتسب إلى مالك كريم بعبوديتك وبمملوكيتك"¹⁸. إنه نداء اليقظة، الذي يجعل المرء يدرك حقيقة ماهيته الغائبة بسبب الغفلة والظلمة الغاشية، إدراكا ييسط مواجده بعد قبض، وإنما هو "نور الإيمان الذي بسط ذلك الانتساب والعبدية"¹⁹. (فالعبدية) إذن شعور وجداني يجده العبد بمجرد اكتساب (وعيه) بانتسابه. وهو المقصود بقوله السابق معللا: "وذلك بسموه إلى مرتبة خطاب (إياك نعبد) أي انتسابه لمالك يوم الدين"²⁰. ذلك بعض ما يستفاد من حكمة التشريع الرباني، في فرض قراءة سورة الفاتحة في الصلاة، ركنا لا تنجبر الصلاة إلا به، تكرارا لا يقل عن سبع عشرة مرة في اليوم! والمدار الدائم إنما هو (إياك نعبد). ولعل ذلك ما تظن إليه الإمام ابن القيم رحمه الله عند توشيح كتابه العظيم باسم: (مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين)²¹.

فتكرار (إياك نعبد) - الذي لا تكرار فيه على الحقيقة، وإنما هو تأسيس وابتداء عند كل ذكر وتلاوة - هو طرق متوال على قلب العبد الغافل أن أفق! وع ما أنت عليه من عبودية لله! أو طرق متوال أيضا على قلب العبد الذاكر أن حذار من العودة إلى النوم والغفلة! فتخسر لذة التجدد في كؤوس التعبد، المقدمة هدية من الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، إلى عبده، كلما ذكر أو تلا: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ".

إن هذا الدوران المتجدد، المبتدأ، والمؤسس، عبر فلك التعبد؛ هو الذي يكسب العبد وعيه المستمر بجمال (العبدية)، هذه الصفة الشريفة التي وشحه الرحمن بما مذ أعلن (انتسابه) إليه وحده دون سواه، وتلك لعمري شفافية الجمال، ولكن أكثر الناس لا يعلمون!

وهنا يجتمع التصور والتطبيق في قلب العبد، ويكون انتسابه شعورا وحركة، وذلك هو جماع خُلُقِه، تماما كما إذ سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق النبي (صلى الله عليه وسلم) فقالت: "كان خلقه القرآن" ²² أي العبودية الحقة بترجمة القرآن وجمال آبه إلى سلوك وجداني واجتماعي، طاعة لله عز وجل، ملؤها الرضى والمحبة، وذلك هو الوجه التعبدية، أو العبدية لمصطلح الانتساب لدى بديع الزمان. قال رحمه الله: "إن إدراك تلك الرحمة والظفر بها، إنما يكون بالانتساب إلى ذلك (الرحمن) بالإيمان، وبالطاعة له سبحانه، بأداء الفرائض والواجبات" ²³.

وإنما المرء "يجد بانتسابه إلى السلطان ذي الجلال؛ بالإيمان والعبودية؛ مستندا قويا، ومرتكزا عظيما" ²⁴.

إن (إدراك) ذلك كما عبر بديع الزمان، هو المشكلة الأساس في ابتداء ذوق معنى (الانتساب) لدى الإنسان. فكثير من الناس (يعبدون) الله، لكن شكلا لا (معنى)، وظاهرا لا باطنا، ومجازا لا حقيقة، تماما كما هي أسماء كثير من المسلمين (عبد الله) و(عبد الرحمن)، و(عبد الملك) و(عبد القدوس) ونحوها من الأسماء الحسنى، بيد أن القليل منهم من يدرك حقيقة اسمه ذوقا ووجدانا، بل ربما كانت أحوالهم وأفعالهم مناقضة على التمام لأسمائهم وما تقتضيه.

إن تحقيق (العبدية) إذن؛ (إدراك) لواقع الحال الوظيفي والغائي، من وجود الذات المدركة، وتلك هي العتبة الأولى لمقام الانتساب، أنت (عبد) إذن أنت مملوك! ومن كان مملوكا لم يكن له من الأمر شيء. وإنما أمره كله لله الواحد القهار، المالك لكل شيء على الحقيقة. (فصلة) العبدية هي العلاقة الجميلة التي تربط المنتسب بالمنتسب إليه. و(للصلة) معنى جوهرية في تحقيق الانتساب كما حققناه في جذره اللغوي، وكذا استعماله الاصطلاحي لدى بديع الزمان. وما (صلة العبدية) إلا السلوك إلى الله جل جلاله عبر مدارج الطاعة الشاملة والخضوع المطلق، أمرا ونهيا. وما حال (العبد) بين يدي (سيده) إلا (الترقب) للأمر والنهي؛ ليمارس ما خلق لأجله من عبودية، وإذن يكون (منتسبا).

الفصل الرابع: في الانتساب الإيماني والتجلي الرباني:

أما التجلي الرباني: فمعناه أن الإنسان الذي ينتسب إلى ربه عبدا موحدا مسندا كل شيء إليه تعالى؛ تصفو سريرته بنور الإيمان المتدفق على قلبه، وتصفو مرآة وجهه، فتعكس أنوار الأسماء الحسنى، ونقوش الصنعة الربانية، فيشهد بذلك وحدانية الواحد، ويرى جمال إحسانه بقلبه ووجدانه. إن صفاء التوحيد الحاصل بالانتساب الإيماني الحق، يرقى العبد إلى مرتبة (الولاية). بمعناها القرآني ومشهدها القدسي، كما ورد في حديث النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي رواه عن ربه: "من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب. وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه"²⁵ ذلك إذن هو التجلي النوراني الذي يملأ قلب العبد بالتسديد والتأييد، ويرفعه إلى خصوص الولاية الرحمانية، التي هي إخلاص الانتساب بالإيماني للواحد الأحد، تعبدا وتوحيدا.

ذلك ما نثره الأستاذ النورسي ذوقا، بعد تفكير وتدبر، إذ قال رحمه الله: "إذا أسندت المخلوقات غير المحدودة والأشياء غير المعدودة إلى الواحد الأحد؛ فكل شيء عندئذ يكون بذلك الارتباط قد نال مظهرا من ذلك الانتساب، ويكون موضوع تجل من ذلك النور الأزلي، فتمد علاقات ارتباطه بقوانين حكمته، وبدساتير علمه، وبنواميس قدرته جل وعلا، وعندها يرى كل شيء بحول الله وقوته، ويجظى بتجل رباني، يكون بمثابة بصره الناظر إلى كل شيء، ووجهه المتوجه إلى كل شيء، وكلامه النافذ في كل شيء! وإذا انقطع ذلك الانتساب، ينقطع أيضا كل شيء من الأشياء عن ذلك الشيء، وينكمش الشيء بقدر جرمه"²⁶.

فهذا النص بيان لما يفعله الانتساب في وجدان المؤمن من تخلية وتحلية، ومن تهذيب وتشذيب، وتصفية وتركية، ترقيه إلى منزلة الصفاء والإخلاص، حيث مرآة التجلي تعكس ما تعكس من أنوار وأسرار - ذلك "أن الإنسان يسمو بنور الإيمان إلى أعلى عليين، فيكتسب بذلك قيمة تجعله لائقا بالجنة (...). لأن الإيمان يربط الإنسان بصانعه الجليل، ويربطه بوفاق شديد، ونسبة إليه. فالإيمان إنما هو انتساب، لذا يكتسب الإنسان بالإيمان قيمة سامية من حيث تجلي الصنعة الإلهية فيه، وظهور آيات نقوش الأسماء الربانية على صفحة وجوده"²⁷.

إن ظهور الصنعة الإلهية على صفحة الإنسان، وعكس مرآته لجمال أسمائه الحسنی، ونقوشها العليا، لا يكون إلا بعد صفاء المرآة. ولا صفاء إلا بخدمة، وإخلاص، وتفان في السير إلى الله. إن الانتساب معناه (الانخراط) في الخدمة كما قدمنا. أي الدخول في الأعمال، والمراقبة لكل ما يتعلق بذلك ورعايته، لتحقيق العبودية الحقة (بالرعاية لحقوق الله) كما عبر الحارث بن أسد المحاسبي رحمه الله²⁸.

إن الإيمان الكفيل بإظهار آثار التجليات، وروائع الجماليات، إنما هو الإيمان الخالص الانتساب إلى الله، المحقق للعبودية الحقة، حيث تصفو السريرة، وتنجلي مرآة البصيرة، فإذا العبد عند ذلك يرى بنور الله.. وتكون التجليات: واردات (الولاية) الرحمانية. يقول بديع الزمان: "الإيمان - الذي هو عبارة عن الانتساب إلى الصانع الجليل - يقوم بإظهار جميع آثار الصنعة الكامنة في الإنسان، فتتبعين بذلك قيمة الإنسان على مدى بروز تلك الصنعة الربانية، ولمعان تلك المرآة الصمدانية، فيتحول هذا الإنسان - الذي لا أهمية له - إلى مرتبة أسمى المخلوقات قاطبة، حيث يصبح أهلاً للخطاب الإلهي، وينال شرفاً يؤهله للضيافة الربانية في الجنة .

أما إذا تسلل الكفر - الذي هو عبارة عن قطع الانتساب إلى الله - في الإنسان، فعندئذ تسقط جميع معاني نقوش الأسماء الحسنی الإلهية الحكيمة في الظلام، وتمحى نهائياً"²⁹.

إن (الانتساب الإيماني) إذن؛ هو صيقل القلب وملع مرآته؛ كي يستقبل التجليات الربانية والجماليات النورانية، حتى إذا رأى؛ رأى بنور الله، وإذا سمع؛ سمع به! وتلك لعمرى منزلة الولاية، وأكرم بها مقاما للمحب في سلوك طريق المحبة.

الفصل الخامس: الانتساب الإيماني، واستمداد القوة الحارقة:

إن العبد إذ يترقى ويصفو ليكون محل تجليات ربانية - كما تبين قبل - تعكس مرآته أنوار الأسماء الحسنی، ليكون حينئذ على صلة بواردات المدد الإلهي العظيم، حيث يستمد من قوته عز وجل ما يجعله محفوظاً بحفظ الله، آمناً من كل مكروه، قادراً بإذنه تعالى على إنجاز ما تحيل العادة الجارية على مثله إنجاز، إن عبودية الانتساب تفيض على العبد، من بركات المنتسب إليه؛ ظللاً من أسماء الله الحسنی وصفاته العلا، فلا يتحرك إلا في شعاعها، ولا يتصرف إلا بهديها، وباسمها، فتظهر عليه آتخذ تصرفات لا يشك الناظر إليه أنها من التأييد والتسديد الإلهي، وأنها من الإمداد والتقدير الرباني.

إن التحلي باب عظيم إلى ولوج العبد مخازن القوة الإلهية، يستمد من سلطانه العظيم ما يأذن به سبحانه لإجراء مسلك الانتساب إليه تعالى، في وظيفة العبودية الجارية بين

خلقه، وإذن يكون العبد متصرفا باسم سيده، معتمدا على قوته المطلقة، وذلك هو جوهر مقام التوكل وسر جماله. يقول بديع الزمان: "وانتسابه هذا يجعله ينال تجليا منه. وبهذه الخطوة والانتساب يستند إلى علم مطلق وقدرة مطلقة، "فينجز من الأعمال، ويؤدي من الوظائف ما يفوق قوته بملايين المرات؛ وذلك بقوة خالقه، وبسر ذلك الاستناد والانتساب" ³⁰.

إن سر الانتساب يجعل الفعل من العبد المنتسب، لا يقع منه بذاته وباسمه، وإنما يقع باسم سيده المنتسب إليه، ولذا فإنه يحمل من خصائص القوة والعظمة والهيبة والجلال؛ بقدر ما يعكس صفاء قلبه من أنوار الملك العظيم. وتلك صورة أخرى من صور الولاية الواردة في الحديث القدسي المذكور: "إذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها" ³¹. قال بديع الزمان: "لذا تظهر منه أعمال خارقة كأنها أعمال سلطان عظيم، وتبدو له آثار فوق ما تبدو منه عادة، وكأنها آثار جيش كبير، رغم أنه فرد. فالنملة - من حيث تلك الوظيفة - تتمكن من تدمير قصر فرعون طاغ، والبعوضة تستطيع أن تهلك نمودا جبارا، بقوة ذلك الانتساب، والبذرة الصغيرة للصنوبر الشبيهة بحبة الحنطة تنشئ بذلك الانتساب جميع أجهزة الصنوبر الضخمة" ³².

واستدعاء القوة الربانية يكون بأي مفتاح من مفاتيح الكنوز الملكية العليا، من تفكر، أو تدبير، أو ذكر، أو دعاء.. إلخ، مما يحقق في الوجدان (حال) التذوق للعبدية الرفيعة، المستندة إلى الرب العظيم جل جلاله. وللنورسي حكاية عن نفسه عند غربته، معتقلا ببعض ابتلاءاته العديدة التي تعرض لها في حياته رحمه الله. حيث نزل به غم مما ألم به من تسلط الأعداء وتربصهم به، وقد أمهكه المرض، فقال رحمه الله: "إن جيوشا كثيفة تهاجم شخصا واحدا ضعيفا مريضا مكبل اليدين. أوليس له - أي لي - من نقطة استناد؟ فراجعت آية (حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) فأعلمتني أنك تنتسب بهوية الانتساب الإيماني إلى سلطان عظيم ذي قدرة مطلقة (...). وحقا لقد كنت أحس بقوة معنوية عظيمة، كلما كنت أتلقى ذلك الدرس من تلك الآية الكريمة، فكنت أشعر أنني أملك قوة تمكيني أن أتحدى بها جميع أعدائي في العالم، وليس المائتين أمامي وحدهم، لذا رددت من أعماق روحي: (حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)" ³³.

إن استدعاء القوة الربانية بالانتساب الإيماني، إنما يتم عند النورسي بتحقيق اليقين في (توحيد الربوبية). ذلك أنك إذ تعتقد وتشعر - كأنك ترى - أن الله رب العالمين قد قهر كل خلقه - وكل الكون خلقه سبحانه - فخضعت له ذرات كل شيء، بل

(تشاهد) جلال الربوبية الساري في الكون كله، مشاهدة العبد المنبهر بجلال مولاه وجماله، وتتجول بخشوع، سائحا في ملكوته، مستفتحا الأبواب بأسمائه الحسنى، وترى (القيومية) في اسمه (القيوم) قائمة بذاته تعالى على الكمال والجلال، وترى (كل شيء) من الكون قائما بما انتسابا واستنادا، كما سبق قول النورسي، فلو انقطعت صلة الانتساب هذه لذابت كلها في العدم والفناء؛ لأن وجودها وبقائها إنما هو بحجاز، إذ لم تكتسبه بذاتها، ولكن بالاستناد إلى الرب العظيم رب العالمين، ذي الوجود الحقيقي المطلق؛ فإذا كل قوة لم تستند إليه تعالى هي قوة كاذبة، وهنا يكمن جوهر المسألة.

ذلك أن استدعاء هذا المعنى حتى يتحول لدى العبد من مجرد تصور نظري ذهني، إلى حال ذوقني وجداني، وتفكر قلبي اكتسابي، أي تكتسب به منازل جديدة في مدارج الانتساب الإيماني؛ يكون له أثر على القلب عبر الواردات والتجليات، فإذا بالطاقة (العبدية) تستمد - من خلال عبوديتها - جلال (الإذن)، وجمال السلطان من الملك الرحمن! والخصوص الكامن في (العبدية) أن الرب العظيم قد أسر فيها أسرار (الإضافة) إلى ذاته تعالى، على سبيل الولاء المطلق، فقال عز وجل: "إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ" [الحجر: 42 والاسراء: 65]؛ لأن سلطان الملك الديان قد أظلمهم بظلال الهيبة والمنعة، فلا يصل إليهم عدو من الجن والإنس، مهما كانت قوته، وكيف يصل إليهم وكل قوة ضادت الرب العظيم محكوم عليها بالهزيمة الأبدية؟

إن لبديع الزمان النورسي قصة تمثيلية في هذا الشأن، ذات دلالة بليغة على ما نحن فيه، كررها في رسائل النور مرات عديدة لما لها من فائدة عظيمة، ولكن تكراره لها كان بأذواق مختلفة، ومواجيد متجددة، قال رحمه الله يخاطب نفسه، وكل نفس راغبة في الذكرى: "فإن كنت راغبة في إدراك مدى ما في (بسم الله) من قوة هائلة لا تنفذ، ومدى ما فيها من بركة واسعة لا تنضب، فاستمعي إلى هذه الحكاية التمثيلية القصيرة: إن البدوي الذي ينتقل في الصحراء، ويسبح فيها لا بد له أن ينتمي إلى رئيس قبيلة، ويدخل تحت حمايته كي ينجو من شر الأتقياء، وينجز أشغاله (...). وهكذا فقد توافق أن قام اثنان يمثل هذه السياحة، كان أحدهما متواضعا، والآخر مغرورا، فالتواضع انتسب إلى رئيس. بينما المغرور رفض الانتساب، فتجولا في هذه الصحراء. فما كان المنتسب يحل في خيمة إلا ويقابل بالاحترام والتقدير؛ بفضل ذلك الاسم، وإن لقيه قاطع طريق يقول له: إنني أبحول باسم ذلك الرئيس، فيتخلى عنه الشقي. أما المغرور فقد لاقى من المصائب والويلات مالا يكاد يوصف (...). نعم إن هذه الكلمة الطيبة (بسم الله) كنز عظيم لا يفنى أبدا! إذ بها يرتبط (عجزك) برحمة واسعة مطلقة أوسع من

الكائنات، ويتعلق فقرك بقدرة عظيمة مطلقة، تمسك زمام الوجود من الذرات إلى الحجرات!"³⁴.

الفصل السادس: في الانتساب الإيماني ومفهوم الزمن:

من اللطائف الخاصة، والأسرار الرفيعة، والأذواق الجمالية الراقية، التي يمنحها (الانتساب) للعبد المنتسب، في سلوكه إلى ربه، ما يجده من نظرات قلبية عجيبة لمفهوم الزمن، حيث تتأثر المشاعر والأحاسيس بمواجيد الانتساب، فتفيض التجليات على مرآة القلب الصقيلة الصافية بآلاف المعاني، ليس أقلها شأنًا (معنى) الزمن، أي ما يجده العبد من لذائذ الحياة المتدفقة بالخلود، من تجليات أسماء الله الحسنى، الدالة على البقاء السرمدي، من مثل أسمائه تعالى: الحي، والقيوم، والباقي، والأول، والآخر، والوارث، جل جلاله.

إن (الاتصال) الذي يعقده الانتساب الإيماني، بين العبد الفاني، وربّه الباقي، يوصل إلى قلب المنتسب واردات من نور البقاء، وذلك بانتسابه العبد، حيث يضاف النسبي إلى المطلق، فيكتسب من تلك الإضافة معنى لطيفًا، بل رفيع اللطف، دقيق الخفاء، حيث يعيش اللحظة الدنيوية بنفسٍ أخروي أبدي، ويمتد بذلك عمره في وجدانه المشاهد لجمال البقاء في الأسماء الحسنى، فإذا الموت بالنسبة إليه جمال آخر، ينتقل فيه من مشاهدة الخلود إلى حياة الخلود، ومن حق اليقين إلى عين اليقين! ألا ما أغنى مقام الانتساب لو كان الناس يتذوقون! قال بديع الزمان: "نعم، بسر الانتساب الإيماني تقوم دقيقة من الوجود مقام ألوف سنة بلا انتساب إيماني، بل تلك الدقيقة أتم، وأوسع بمراتب من تلك الآلاف سنة"³⁵.

وما ذلك إلا بتحقيق مفهوم العبدية للحي الباقي انتساباً أبدياً، إذ "أن لذة البقاء وسعادته موجودة بنفسها، بل أفضل منها، في إيماني وإذعاني، وإيقاني ببقاء الباقي ذي الكمال، وبأنه ربي وإلهي؛ لأنه ببقائه سبحانه يتحقق لي حقيقة باقية لا تموت، إذ يتقرر بشعور إيماني: أن ماهيتي تكون ظلاً لاسم باق، لاسم سرمدي، فلا تموت (...).

وكذا يتولد بذلك الشعور الإيماني انتساب إلى ذلك الباقي السرمدي، وتتولد وشائج مع ملكة عامة بالإيمان بذلك الانتساب، فينظر المرء بنور الإيمان إلى ملك غير محدود كنظره إلى ملكه، فيستفيد معنى"³⁶.

إن ذلك المعنى إنما هو (بقاؤه بالله) كما عبر الأوائل، إن خرق العبد لحجب الزمن الأرضي بتكبيرة الإحرام مثلاً، يجعله يتصل بالرحمن مناجياً "وإن أحدكم إذا صلى يناجي ربه"³⁷ فيعيش لحظة أخرى خارج مدار الزمن، في ضيافة الباقي. هناك فقط تكون

(اللحظة) ومضة من ومضات الخلود، ولمعة من لمعات اسمه الباقي، يعيش العبد في ظلها، ويزوق من فاكهتها ما يملأ قلبه شوقاً إلى النعيم السرمدى، وإذ لا يفصل بينه وبين ذاك إلا الموت، يصير الموت ذاته بالنسبة إليه تذكرة لطيفة إلى العالم الباقي. هكذا يعيش العبد المنتسب حياته الدنيا كأنها مقدمة موصولة بحياته الأخرى، فإذا العمر ممتد بلا نهاية، وإذا اللحظة ذات عرض لا تفتى مشاهدته أبداً.. ويُكَبِّكُ الغافلون والضالون في فناء رهيب، بين عد أيام الدنيا الفانية، وترقب شبح الموت القادم بمنجل حصاده، ليلقي بالرؤوس في ظلمات الشك القاتل، وغياهب الشرك الغائصة في الجهول! فإذا المرء يعيش حياته ضنكاً، وهو يرى ما برصيده من أيام يتناثر تترى! ويبقى المنتسبون وحدهم في حصن (الباقي) آمنين مطمئنين، يشهدون ويتذوقون لذة البقاء مرتين. قال بديع الزمان: "فإن انتساب الإنسان بالإيمان إلى القدير الذي لا نهاية لقدرة، وإلى السلطان الرحيم ذي الرحمة الواسعة، ودخوله في عبوديته بالطاعة والشكران، يبدل الأجل والموت من الإعدام الأبدي، إلى تذكرة مرور، ورخصة إلى العالم الباقي!"³⁸.

الفصل السابع: في الانتساب الإيماني والأخوة الوجودية:

غير بعيد عن مفهوم (الزمن الانتسابي) كما بيناه في الفصل السابق لدى النورسي يكشف هذا الرجل الرباني عن مفهوم جديد: هو (الأخوة الوجودية). إن كتابا آخرين، ومفكرين إسلاميين عديدين قد تكلموا عن شيء من مثل هذا المعنى، متحدّين عن روابط الأخوة بين سائر الموجودات، من حيث هي جميعاً تعبد الله الواحد وتسبح بحمده، انطلاقاً من قوله تعالى: "وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ" [الإسراء : 44]، وقول النبي صلى الله عليه وسلم عن جبل أحد: "هذا جبل يحبنا ونحبه"³⁹ فلم يعد تدبرهم لهذه النصوص وأشباهاها القول بأخوة العبادة للواحد المعبود، تماماً كما هي أخوة الإيمان والإسلام بالنسبة للمسلمين كافة في توحيد الله⁴⁰.

بيد أن بديع الزمان يتميز في تدبره لهذه النصوص ذاتها، وما كان في معناها، بكشف أطف، وذوق ألد، فقد وجد رحمه الله بإحساسه الصافي أن هذه الأخوة موصولة - بالإضافة إلى ما ذكر قبل - بمفهوم الزمن الانتسابي، إذ يشعر العبد المنتسب أنه لا يشارك الموجودات في أخوة العبادة لله وحسب، بل يتعدى ذلك إلى مشاركتها في (أخوة الوجود). والمقصود بهذه: هو تواصل الأعمار بين سائر الموجودات المنتسبة إلى الباقي، حيث يشعر العبد المنتسب من خلال مؤاخاة سائر الموجودات، أنه مستمر في الوجود التعبدية بوجودها. ولو زال وجوده الشخصي الفاني. فأخوة العبادة ورابطة المحبة القائمة على أساس أن الجميع هو خلق الله الواحد الأحد، تزرع في القلب إحساساً

بالاتصال وعدم الانقطاع عن الحياة، مادام بعض الموجودات موجودا. وهو شعور معنوي ذوقي، يملأ القلب سكينه وطمأنينة، تماما كما يشعر الأب بامتداد عمره لما يرى ولده ينشأ بين يديه، وإن أحس أن أجله الشخصي قريب. فاستمرار الولد يعطي للأب معنى من الاستمرار على المستوى الوجداني، فيغمر قلبه سكينه وطمأنينة. وما ذلك إلا لما بين الوالد والولد من روابط الدم والوراثة والمحبة.

والمؤمن المنتسب إذ يجد في قلبه أن هذه الموجودات جميعا، تشاركه العبودية لله، والانتساب إلى أسمائه الحسنى، والاحتماء بظلال بقائه تعالى، يشعر أنه موصول بها، باق في عبادته لربه ببقائها بعده مستمرة في عبادته تعالى. وهذا معنى في غاية اللطف، قال رحمه الله: "إن وجودي الذي هو ذرة صغيرة جدا - كوجود كل مؤمن - مرآة لوجود غير محدود، ووسيلة للظفر بأنواع من وجود غير محدود بانسباط غير متناه (...). حتى إن لحظة عيش له من حيث انتسابه الإيماني ثمين جدا! (...). لأن معرفتي بالشعور الإيماني بأن وجودي هذا أثر من آثار واجب الوجود (...). دفعتهني لأمد روابط أخوة وثيقة إلى جميع الموجودات (...). وعلمت أن هناك وصلا دائما بهذه الروابط مع جميع ما أحبه من الموجودات من خلال فراق مؤقت. وهكذا فإن وجودي - كوجود كل مؤمن - قد ظفر بالإيمان، والانتساب الذي فيه؛ بأنوار أنواع وجود غير محدودة لا افتراق فيها، فحتى لو ذهب وجودي فإن بقاء تلك الأنواع من الوجود من بعده يطمئن وجودي، وكأنه قد بقي بنفسه كاملا، والخلاصة: أن الموت ليس فراقا، بل هو وصال، وتبديل مكان، وإثمار لثمرة باقية"⁴¹.

إن هذا الاتصال الوجودي المذكور وامتداده بعد الموت، ليس بمعنى ما عند بعض الكفار من (تناسخ الأرواح) كلا! ولكنه معنى رفيع في تدبير توحيد الله الواحد الأحد، من خلال شمول الانتساب إليه لدى سائر الموجودات. فوظيفة (العبدية) لدى المسلم تجعله يحب معبوده كما يحب عبادته، ولهذا يجد لذة في وجود العابدين، من حيث إن المتحقق في النهاية هو ما يحبه: العبادة لله الواحد القهار، من هنا كانت الطمأنينة تسري في وجدان العبد؛ إذ يشعر أن هناك من سيستمر في أداء الوظيفة المحبوبة بعد موته.

ولذا يجد من فرط المحبة لعبادة المعبود؛ أن عمره ممتد في أعمار سائر الموجودات، ما دامت قائمة بوظيفتها الوجودية: عبادة الله، ثم إن الموت في نهاية المطاف بالنسبة إليه انتقال للمؤمن من منزلة (العبدية) إلى منزلة (العبدية) ذاتها، وإن كانت الأولى في عالم الشهادة والثانية في عالم الغيب. أو بعبارة أخرى: الأولى بدار الوظيفة والثانية بدار الضيافة! وإذن فإن الأخوة الوجودية باقية مستمرة مادامت (العبدية) قائمة هنا وهناك

بين العالمين، ولدى سائر الموجودات. وإنما ذلك كله إمعان في تحقيق الخضوع المطلق لله الواحد القهار رب العالمين جميعاً. وتفريده سبحانه في ملكه بالألوهية السرمدية. فالعبودية الكونية عند المسلم إذن هي وجوده الحقيقي الذي يعبد الله به، قبل اعتبار وجوده الشخصي الفاني، قال بديع الزمان: "وكذا يتكون بذلك الشعور الإيماني انتساب إلى ذلك الباقي السرمدي، وتتولد وشائج مع ملكه عامة بالإيمان بذلك الانتساب (...). وكذا يتكون بذلك الشعور الإيماني، وبذلك الانتساب والعلاقة، ما يشبه الاتصال والارتباط بجميع الموجودات، وفي هذه الحالة يتولد وجود غير محدود، غير وجوده الشخصي الذي يأتي بالدرجة الثانية." ⁴² والوجود غير المحدود هذا - على مستوى الإحساس بأخوة سائر الموجودات، إنما هو وجود معنوي يتدفق جماله بالقلب؛ فيعطي أنسا رحمانياً، يجدو روح العبد المنتسب، في سلوكه إلى ربه.

خاتمة:

وإنما خاتمة الكلام في مثل هذا المقام (فاتحة)، نستفتح بها مدخل بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله إلى مقام (الانتساب). وأي مدخل يكون لرجل رباني مثل بديع الزمان غير مدخل الفقر، والعجز، وإظهار الحاجة إلى السيد الكريم؟ كيف لا وقد سبق القول: إن (العبودية) عنده هي جوهر الانتساب؟

قال رحمه الله يخاطب نفسه: "أبها المريض الوحيد الغريب العاجز! إن كانت غربتك، وعدم وجود من يعيلك، فضلاً عن مرضك؛ سببا في لفت القلوب القاسية نحوك، وامتلائها بالركة عليك؛ فكيف بنظر رحمة خالقك الرحيم ذي التجليات؟ (...). فانتسابك إليه بالإيمان، والاتجاه إليه بلسان العجز المنبعث من مرضك، ورجاؤك منه، وتضرعك إليه يجعل من مرضك في وحدتك وغربتك؛ هدفاً ووسيلة تجلب إليك نظر الرحمة منه سبحانه، تلك النظرة التي تساوي كل شيء! فما دام هو موجوداً ينظر إليك فكل شيء موجود لك!

والغريب حقاً، والوحيد أصلاً، هو ذلك الذي لا ينتسب إليه بالإيمان والتسليم، أو لا يرغب في ذلك الانتساب" ⁴³.

ذلك رداً من مشاهدات بديع الزمان النورسي في مملكة (الانتساب الإيماني)، قدمها لطلاب النور كؤوساً طافحة بالمحبة.. يستحيل على هذه الوريقات أن تنقلها إليك! وإنما إذا شئت (المشاهدة) فذق!

لائحة المصادر والمراجع

- 1 - القرآن الكريم
- 2 - كليات رسائل النور تأليف بديع الزمان سعيد النورسي ترجمة إحسان قاسم الصالحي، نشر دار (سوزلر) للنشر، فرع القاهرة ط 2. بمصر 1412 هـ / الموافق 1992 م.
- الجزء الأول : الكلمات
- " الثاني : المكتوبات
- " الثالث : اللمعات .
- " الرابع : الشعاعات
- " الخامس : إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز.
- " السادس : المتنوي العربي النوري .
- " السابع : الملاحق .
- " الثامن : صيقل الإسلام .
- " التاسع : سيرة ذاتية .
- 3 - لسان العرب لجمال الدين محمد بن منظور - دار صادر بيروت بلا تاريخ.
- 4 - معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، ط. الأولى: 1411 هـ / 1991 م.
- 5 - المفردات في غريب القرآن. تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني. تحقيق محمد سيد كيلاني. طبع شركة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر: 1381 هـ / 1961 م.

الهوامش:

- 1 الشعاعات : 4 / 13 .
- 2 اللمعات : 3 / 388 .
- 3 المقاييس : (نسب) .
- 4 المفردات : (نسب)
- 5 اللسان : (نسب)
- 6 اللسان : (نسب) .
- 7 الكلمات : 1 / 6 - 7 .
- 8 اللمعات : 3 / 278 .
- 9 الكلمات : 1 / 45 .
- 10 اللمعات : 3 / 389 .
- 11 الشعاعات : 4 / 70 .
- 12 انظر بحثنا في ذلك (مفهوم التوحيد عند بديع الزمان النورسي) .
- 13 اللمعات : 3 / 545 .

- 14 المثنوي العربي : 6 / 143 .
- 15 اللمعات : 3 / 575 .
- 16 الكلمات : 1 / 332 – 333 .
- 17 بحثنا في مصطلح التوحيد المشار إليه قبل .
- 18 الشعاعات : 4 / 75 .
- 19 الشعاعات : 4 / 13 .
- 20 الكلمات : 1 / 45 .
- 21 طبع في ثلاثة أجزاء بتحقيق محمد حامد الفقي توزيع دار الرشاد الحديثة المغرب .
- 22 رواه مسلم .
- 23 اللمعات : 3 / 343 .
- 24 الكلمات : 1 / 179 .
- 25 رواه البخاري .
- 26 المكتوبات : 2 / 333 .
- 27 الكلمات : 1 / 348 .
- 28 عنوان كتابه المطبوع بتحقيق عبد القادر أحمد عطا ، نشر دار الكتب العلمية
- 29 الكلمات : 1 / 349 .
- 30 المكتوبات : 2 / 331 .
- 31 رواه البخاري .
- 32 اللمعات : 3 / 278 .
- 33 اللمعات : 3 / 388 – 389 .
- 34 الكلمات : 1 / 6 – 7 .
- 35 اللمعات : 3 / 505 .
- 36 الشعاعات : 4 / 70 .
- 37 رواه البخاري .
- 38 الكلمات : 1 / 179 .
- 39 متفق عليه .
- 40 انظر مثلا محمد قطب في (منهج الفن الإسلامي)
- 41 اللمعات : 3 / 391 .
- 42 الشعاعات : 4 / 70 .
- 43 اللمعات : 3 / 337 .

التوازن بين العقل و القلب في القرآن الكريم

من منظور رسائل النور

محمد رضوان خليل مجدلاوي^١

يقول بديع الزمان: "إن القرآن قوتٌ وغذاء للقلوب، وقوة وغناء للعقول، وماء وضياء للأرواح، ودواء وشفاء للنفوس، لذا لا يُملّ. مثاله الخبز الذي نأكله يومياً دون أن نملّ، بينما لو تناولنا أطيب فاكهة يومياً لشعرنا بالملل"¹.

من هنا أقول: التوازن بين العقل والقلب في الشرع حتمي، دليله ابتداء التنزيل من أول سور القرآن نزولاً بل من أول كلمة نزلت من القرآن وهي "اقرأ" [قرأ: 1-5]، وهذا ليس عبثاً إنما دلالة على أن هذا الدين الجديد مبنيٌّ على أسس عقلية ودعوة علمية لرفع شأنهما ووضعهما في الموضوع الصحيح، فالتأكيد على دعوة التفكير مرتبط بتوفيق الله عزّ وجلّ مع خالص النية له، وهذا عمل القلب المقترن بعمل العقل، إذ الحركة متكاملة ومنسجمة بينهما لذا بدأ النزول بـ "اقرأ باسم ربك" وقوله "الذي خلق" تأكيد على الربوبية والعبودية في الآن ذاته مع وجوب النظر فيما خلق ثم الإذعان له بعد القناعة المثبتة في العقل، هذا الوجوب أكدّ في آيات كثيرة بين دفتي القرآن الكريم. ثم خصص ذكر الخلق بالإنسان عندما كشف مقدار ضعف هذا المخلوق المتجبر المتكبر، مبيناً له بداية تكوّن خلقه حينما كان منياً يمخ، مروراً بالمضغّة حتى أصبح علقة، فقال: "خلق الإنسان من علق"، بعدها نرى رب العزة الحكيم العليم يعيد التركيز على العلم ووجوب التعلّم بقوله: "اقرأ" مرة أخرى تأكيداً على أن الله الأكرم كرم الإنسان بأن وهبه العقل الذي يتمتع بالإرادة والاختيار، مع منح العقل آلية العمل الذاتي من خلال عملية التفكير للوصول لنتيجة أرادها هذا العقل؛ كي يصب ما اقتنع به إلى القلب ليشكلاً اتحاداً متجانساً متوازناً يسمى اللب، بعد ذلك يرشدنا الله العلي إلى أفضل سبيل لطريقة التعلّم والتعليم وهي التعليم المنهجي ضمن أصول وأسس عملية صحيحة، قال الله عزّ وجلّ: "الذي علم بالقلم" وهذا يعني وجوب محو الأمية، ليس فقط أمية القراءة

^١ فلسطيني من مواليد دمشق سنة 1963، ماجستير في علم مقاصد الشريعة الإسلامية، درس في موضوع اختصاصه في معاهد مختلفة ويعمل حالياً في مجال الإعلام الإسلامي عبر الأنترنت.

والكتابة إنما أُمية المعرفة اللبّية والعلمية التطبيقية، أي أُمية البناء العقلي والقلبي السليم للفرد والأمة. ثم أتبع الذكر بقوله تعالى: “عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم” أي كل العلوم التي يحتاجها الإنسان في سبيل تحقيق معنى الخلافة وتحمل الأمانة على هذه الأرض والاستفادة من كل المقدرات المادية والمعنوية التي سُخِّرَتْ للإنسان في سبيل ذلك، وللفت نظر الإنسان عموماً ورجال الدين خصوصاً، لم يبدأ الله الذكر الحكيم بالدعوة لتعلم علوم الشرع، إنما بدأ الذكر الحكيم بالدعوة لتعلم العلوم البحتة التي توصله لسلامة الاعتقاد بطرق عقلية، مع الحرص على سلامة الجسد والاستحواذ على السبل المادية، حتى تكتمل سلامة الإنسان بسلامة روحه ونفسه عند اتباعه نهج القرآن، وسلامة اللب عند تغذيته التغذية الصحيحة على أسس سليمة، مع سلامة الجسد ليصبح الإنسان المؤمن قوياً في البناء العقلي والقلبي، مع وجود الصحة النفسية والجسدية.

ثم يحدثنا الله سبحانه وتعالى عن تتلمذ ودرَج في مسالك العلم حتى غدا رائداً فيه، عندما أورد الحكيم العليم في محكم التنزيل قوله العزيز: “ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ” [القلم: 1]، مبيناً عجز العلماء ومؤكداً على التعليم.

يترسخ الإعجاز للعلماء بافتتاح السورة التي أسماها عزّ وجل سورة القلم، عندما أخفى مقصده السامي من افتتاح مثل هذه السور بأحرف ستر معناها، فتفسير العلماء لهذه الأحرف لا يبتعد عن الخطأ مع احتمال القليل من الصواب دون تيقن منه، وهذا ليس إنقاصاً لعلمهم أو شخصهم إنما لم يؤت الإنسان من العلم إلا القليل، لكن البعض يغتر أحياناً بما تعلمه وامتلك ناصيته فيحيده عُجْبُهُ عن جادة الصواب.

أما تأكيد الخالق في الحض على التعليم فيتجلى بقَسَمِهِ براية العلم وهي القلم، والخالق لا يقسم بمخلوق إلا إن كان ذو شأن عنده؛ كي يلفت نظر من يعقل إلى خطر ما أقسم به، وهنا يتجلى دور المعدة الهاضمة للمادة العلمية السليمة من الآفات، بفرز خلاصة الغذاء لعقل الإنسانية وبناء حضارتها، عن طريق تسطير وكتابة ما اجتهد به اللب المنور بنور العلم الكسبي الممزوج بنور العلم اللدني المرتكز على ضياء العلم المقاصدي، لذا نجد حال العالم يلهج بذكر وحمد الله سبحانه وتعالى، كما يقول عزّ وجل: “مَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ” [القلم: 2].

لذا أرى أن اللبّ المدبّر في الشريعة للوصول لمرامها هو علم مقاصد الشريعة الإسلامية، والمقاصد قسمان:

الأول: هو قصد الشارع مما خلق، وهو تحقيق السعادة لخليفة الله على أرضه في الدارين، إن أتبع تعاليم الله عزّ وجل ونبيه صلى الله عليه وسلم، يقول بديع الزمان: “إن

ما في هوية قلب الإنسان من لطائف، وما في دفتر عقله من حواس، وما في فطرته من أجهزة وعتاد متوجهة جميعاً ومعاً إلى السعادة الأبدية، بل ما مُنحت له إلا لأجل تلك السعادة الأبدية².

الثاني : هو قصد الشارع من وضع شرائعه للبشرية. فعندما أراد الإنسان واختار بحرية أن يحمل الأمانة بعدما أعمل ما وهبه الله عزّ وجل من عقل، مستنداً إلى مداركه الحسية، قرر أن يحمل أمانة تبليغ كلمة التوحيد، عند ذلك جعل الله تعالى الإنسان خليفته في الأرض، ومكّنه من كل اللوازم التي تحقق الخلافة، المادية: لإعمار الكون، والمعنوية: بإرسال الرسل لِيُبَيِّنُوا طريق الهداية للإنسان، كي يسلك أحد السبيلين، الهداية أو الضلال. يقول بديع الزمان: "اعلم ! أنه كما أنه محال أن لا يكون لهذا الملك المعتنى به مالك، كذلك محال أن لا يتعرف ذلك المالك إلى الإنسان الذي يدرك درجات محاسن الملك الدالة على كمالات المالك، مع أن ذلك الإنسان كالخليفة في مهده الممهّد له يتصرف فيه كيف يشاء؛ بل في السقف المحفوظ السماوي أيضاً بعقله. ومع ذلك إن الإنسان أشرف المخلوقات بشهادة تصرفاته العجيبة الخارقة مع صغره و ضعفه، وأنه أوسع الأسباب اختياراً بالبداهة. فبالضرورة يرسل المالك من يعرف المالك إلى ممالئكه الغافلين عنه ويخبرهم ما يرضى به ويطلبه منهم ذلك المالك جلّ جلاله .."³.

واليوم نقف بين يدي ذكرى رجل أدرك أبعاد المقاصد، سخر حياته وقلمه في سبيل تحقيق مقاصد الشارع مما خلق خصوصاً ومن الشريعة عموماً، وإن لم يتعرض لعناوينها وأبوابها وفصولها، لكنه فهم مقاصد النصوص الشرعية التي تسمو بإنسانية الإنسان وتحقيق سعادته في الدارين، دون أن يلتفت إلى من قرّم علم المقاصد وحصره في الأحكام الفقهية وحسب، بل خطا خطوة واسعة باتجاه الفهم الأعمق لأسرار العلاقة السليمة بين الله عزّ وجل وبين الإنسان، وعى أن السعادة تنطلق مع بذرة اليقين الأولى التي غرسها العقل المقتنع بوحدانية الخالق في القلب، فتوجه إلى تعميق العلاقة من خلال فهم الخطاب المقاصدي للعبادات⁴، التي تتجلى ثباتيتها من تجليات بعض أسماء الله الحسنى على من امتثل أوامر الله تعالى التعبدية، كي ترعرع هذه البذرة في تربة صالحة فتنمو وتنمو لتصبح شجرة مثمرة تظل بفيئها حواس الجسد وأعضائه، هذه الشجرة تدعى اللب وثمارها مما لذّ وطاب من صالح الأعمال.

وما نراه اليوم من انحطاط المسلمين نتيجة اغتيالهم لألبابهم، الذي أستدل عليه بما يؤدونه من عبادات وأعمال مفصولة العرى ومنفصمة عن مقاصدها، لا تهذب نفساً ولا تنهى عن فحشاء أو منكر. يقول بديع الزمان: "اعلم ! أن من الدليل على أن القلب ما

خُلِقَ للاشتغال بأمور الدنيا قصداً؛ إنه: إذا تعلق بشيءٍ تعلّق بشدة، واهتمّ به اهتماماً عظيماً، ويتطلب فيه أبديةً ودواماً.. و يفنى فيه فناً تاماً. وإذا مدّ يده يمدّ يداً تطيق أن تقبضَ على الصخور العظيمة وترفعها، مع أن ما يأخذه بتلك اليد من الدنيا، إنما هو تينةٌ أو تينةٌ أو ريشةٌ أو شعرةٌ أو هباءٌ أو هواءٌ.. نعم القلب مرآة الصمد، فلا يقبل حجرَ الصنم بل ينكسرُ به. والعاشق المجازي يرى ظلمَ معشوقه في الأكثر، بسرّ: إن المعشوق بفطرته - بلا شعور - يردّ ولا يرضى ما ليس له بحق، وهو ليس بلائقٍ إسكانه في باطن قلب العاشق..⁵

ويقول بديع الزمان: "لا لذة للقلب حقيقةً فيما لا دوام فيه؛ تزول أنت، وتزول دنياك، وتزول دنيا الناس"⁶.

لذا لا بد إن أردنا النهوض بالأمة من رقادها والسير بها إلى مكائنها السليمة، من أن نربطها بالعروة الوثقى من خلال الفهم الصحيح لعلم المقاصد الشرعية، كل على قدر إدراك عقله لما يستطيع استيعابه، فما حققه الصحابة والتابعين من نبوغ وشموخ بالأمة هو الدليل على فهم المقاصد القرآنية والسنن الإلهية والنبوية.

وقبل المضي في البحث أجد لزاماً عليّ أن أكشف اللثام عن علم المقاصد حتى نتبين مدى شدة الترابط والتوازن بين العقل والقلب والذي يوضحه العمل.

فأعرف علم مقاصد الشريعة الإسلامية كما أرى، بأنه:
"التيقن من أهداف الشارع ومن حكمه بكل جزئيات الشريعة".

شرح التعريف:

التيقن: "هو العلم الحاصل عن نظر واستدلال"⁷، ويتشبت هذا ببحث منهجي يفيد القطع فيما نصل إليه من مقاصد سواء أكانت للشارع أم لشريعته، بعد أن كنا نجلها غير شاكين بها أو باحثين عنها.

أهداف: جمع هدف و "المهدف، محرّكة... الفرض"⁸، وأرمي بالأهداف هنا: لكل ما يريد الله عزّ وجل أن يُحقق من تكوينه الخلق، بعدما تصدر الإنسان وحمل الأمانة ابتداءً ثم في الحال والمآل، بشكل قطعي لا لبس فيه ضمن أدوات البحث الصحيحة بطرق معرفة المقاصد.

الشارع: هو الله عزّ وجل، وما ألهم بنبيه محمد صلّى الله عليه وسلم - المبلغ لما أمر بتبليغه - من أفعال وأقوال وتقريرات.

حكم: جمع حكمة، و"الحكمة بالكسر في الأصل هي إتقان العمل والقول وإحكامها، وفي اصطلاح العلماء تطلق على معانٍ... منها الحجّة القطعية المفيدة

للاعتقاد دون الظن والإقناع الكامل" ⁹. وهي عند علماء المنطق: "الحكمة قسمان: قسم هو تبصر القلب وتفكيره ويسمى العلم، وقسم هو حركة القلب وقوته ويسمى العمل" ¹⁰. وعند علماء الكلام: "تطلق على معنيين: أحدهما الإحاطة المجردة بنظم الأمور ومعانيها الدقيقة، والجليلة. والحكم عليها بأنها كيف ينبغي أن تكون حتى تتم منها الغاية المطلوبة بها. والثاني أن تنضاف إليه القدرة على إيجاد الترتيب، والنظام، وإتقانه، وإحكامه" ¹¹. وأقصد بالحكم معرفة حكم أحكام الشريعة، البينة منها والمخفية، بتوفيق عميق النظر المنهجي بتبصر وتفكر، من خلال طرق معرفة المقاصد في مسألة ما للتوصل إلى المراد ثم الإحكام والقطع والافتناع التام به.

كل: يقول علماء الكلام: "كل مركب من أجزاء متناهية ذات أوائل فليس هو شيئاً غير أجزائه، إذ الكل ليس هو شيئاً غير الأجزاء التي ينحل إليها وأجزائه متناهية كما بينا ذات أوائل" ¹². وأعني بكل أي جميع دقائق الشريعة الإسلامية وعظماؤها، جزئياتها وكليتها.

جزئيات: أي كل ما جاءت به الشريعة الإسلامية وحوته من أحكام تكليفية ووضعية ومن أخبار عن الغيبات أو قصص لأمم سابقة، ومن أمثال ضربت للإفهام والإدراك والمقارنة، ومن جمل إنشائية لتثبيت اليقين أو للقسم، ومن سنن إلهية ¹³ وغير ذلك.

الشريعة: شريعة الإسلام التي نزلت من عند الله عزّ وجلّ سواء أتت عن طريق جبريل عليه السلام للنبي محمد صلى الله عليه وسلم أو الموحية إلى قلبه. ولنتقل الآن إلى أمور لا بد منها متعلقة بهذا العلم وتعريفه:

- **موضوعه:** مقاصد الشريعة العامة والخاصة في أحكامها التكليفية والوضعية وما حوته من أخبار وأمثال وجمل إنشائية وسنن إلهية.

- **غايته:** البحث عن مقاصد الشارع والشريعة.

- **منهجه:** لمنهج مقاصد الشريعة نقطتا ارتكاز تتمثل الأولى بالاستقراء وهو: "تتبع الجزئيات كلها أو بعضها للوصول إلى حكم عام يشملها جميعاً" ¹⁴، "ونريد بالاستقراء: كل استدلال تجيء النتيجة فيه أكبر من المقدمات التي ساهمت في تكوين ذلك الاستدلال" ¹⁵، ومن التعريف نجد أن للاستقراء قسمين: أحدهما تام والآخر ناقص، فتتبع كل الجزئيات هو استقراء تام يفيد القطع لليقين فيه، أما تتبع بعض الجزئيات فهو استقراء ناقص دون درجة اليقين والقطع قوة وضعفاً باطراد، إذن الاستقراء التام هو الخطوة الرئيسة والأولى لمعرفة المقصد - إذ إن نتيجة الاستقراء أكبر

من مقدماته لذا نجد الدليل الاستقرائي يسير من الخاص إلى العام - وبتحقيق المقصد بالواقع عند مراقبة التنفيذ نكون قد وضعنا يدنا على المرتكز الثاني، فعند المتابعة والمراقبة لآثار تنفيذ الأحكام الشرعية أو عدمها في الواقع، نقوم هذه الآثار ونحدد بدقة أثر المقصد من تشريع هذا الحكم أساساً، وأعتقد بأن قرون التطبيق السابقة كفيلاً بذلك، فالمنهج المقاصدي منهج عقلي برهاني ميداني تجريبي، وبذلك يستحق أن يوصف بالمنهج العلمي دون أدنى لبس.

ثمرة: إذا تم لنا استكمال المنهج، حينئذ يتمكن العالم المقاصدي أن يقرر نتيجة قطعية، وبذلك يساهم هذا العلم المبني على مجموع هذه القطعيات في حسم الخلافات والانشقاقات الفكرية العلمية لعلمائنا خصوصاً، وفي الفكر الإسلامي عموماً، وبذلك يكون لهذا العلم دوراً توحيدياً أساسياً في حياتنا العملية والعلمية الفقهية منها أو غير الفقهية .

أعود الآن للمضي في البحث، فأقول:

وهب الله العقل منزلة خطيرة يتجلى ذلك في الإسلام آخر الرسالات الإبراهيمية، إذ يفيض القرآن الكريم بالدعوة للنظر والبحث في السماء وفي الأرض، بل في كل خلق الله تفكيراً يتماشى أولاً مع الفطرة السليمة، وثانياً مع الفطرة التي شوهت بمفاهيم خاطئة. هذا التفكير يوصل المرء إلى عين الحقيقة إن نوى معرفتها بالبحث، ثم أذعن للحق بعد ذلك. هنا مدح الله صاحب العقل وأثنى عليه، أما إن أراد ابتداءً تشويه الحقائق أو عدم الانصياع لصوت الحق والعقل السليم فهو مذموم مدحور، يردي نفسه وإطاره لمهلكة حقيقية.

والإسلام دين العلم، والعلم مبتدأه العقل وموضع استقراره اللب، لذلك سخرت الحواس له، وأخضعت الجوارح لأوامره، فإن هُذبت النفس وأصبح الهوى تبعاً للعقل السليم ولتعاليم السماء، أفلح صاحب هذا العقل في دنياه وبناء نفسه وأسرته ومجتمعه وأمته، وفاز في أخراه، أما إن غدا العقل تابعاً ومرؤوساً بعد أن نُحِّي عن وظيفة الريادة والرياسة وكان مساقاً بهوى النفس وتجاذب الشهوات ضل صاحبه وأضل من شاكله.

ولأن الله وضع العقل السليم موضع الميزان والمقياس لكل صالح وفاسد، فقد جعل مناط التكليف ببلوغ المرء المبلغ المطلوب منه من هذا التمييز، وحتى لا يكون ذلك تبعاً لأهواء الناس، جعل الله هذا المعيار عند استطاعة الإنسان على الإنجاب، وأن يكون أسرته، فعند بلوغ الإنسان الحلم يصبح مطالباً شرعاً بالتزام أوامر الله والانتهاج عن نواهيه.

وقبل المضيّ قدماً في البحث، أرى أن نتبيّن معاً تعريفي للعقل ومن ثم للقلب من رؤية مقاصدية فأقول :

السؤال الآن هل المقصود بالعقل هو الدماغ¹⁶ المحاط بجمجمة الرأس؟ وهل المقصود بالقلب العضلة الصنوبرية النابضة والقابضة المتواجدة في الجهة اليسرى من صدر الإنسان؟ الحق إنني لا أقصد هذا إنما أريد غيره أُوّيه بما هو آت:

يحتوي الجسد بداخله على مصدر للطاقة يجعل أجهزة الجسم وحواسه وأعضائه تعمل وفق نظام دقيق، وهذا المصدر هو الروح التي نفخها الله جلّ جلاله في أجسادنا. لكننا ندعوها بالنفس عند استقرارها في الجسد، لاستطاعة الإنسان الذي بُثت فيه الروح وباختياره هو، إما أن يسمو بالنفس عندما يتبع ما أوحى الله تعالى به ويجعل هوى الشهوات تابعة لا متبوعة، أو أنه ينزلق بنفسه لاهتا خلف هوى الشهوات يُلبّي مآربها، لذا صنّف الخالق جلّ جلاله النفس بأصناف ثلاثة هي:

النفس الأمارة: قال عزّ وجل: [إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي] [يوسف: 53]، هذه النفس طبعها الهوى بطابعه وشوّه فطرتها، فتغلبت على العقل وجعلته أداة تفكير مسخرة لتحقيق الشهوات كيفما كان السبيل لذلك.

النفس اللوامة: قال عزّ وجل: [وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ] [القيامة: 2]، النفس هنا تعيش حالة صراع بين إيمان يقيني وغفلة عارضة، ضعفت معها الإنسان فنهش الشر من ثوب إيمانه قضمه، يشعر بألمها المؤمن فيصحو من غفوته العارضة، حينها يسارع بالندم والتوبة النصح ليرقع حرق ثوب إيمانه.

النفس المطمئنة: قال الله عزّ وجل: [يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنِّةُ. ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً] [الفجر: 27-28]، هذه النفس ذات لبّ يقيني إيماني متصل بالله سبحانه وتعالى الواحد الأحد، زكّى نفسه بتزكية القرآن وصدّق في ارتقاء درجة النفس اللوامة كي يستقر في منزلة النفس المطمئنة، فصدّقه الله جلّ جلاله وعده وجعله من عباده المُخلّصين، فحفظه مما يُشغل اللبّ عن الاتصال.

ونلاحظ وجود درجتين للنفس المطمئنة، نتبينهما مؤكدتين بقوله عزّ وجل: [رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمُ وَرَضُوا عَنْهُ] [التوبة: 100]، وهما:

أ - النفس الراضية: وهي من رضيت بما وهبها الله تعالى.
ب - النفس المرضية: وهي نفس طلب الله رضاها، كنفس الصديق أبي بكر رضي الله عنه.

والنفس ندعوها بالروح بإحدى حالتين:

1- إن كانت خارج الجسد، سواء قبل دخولها فيه أو بعد خروجها منه، فعالمها عالم الأرواح، وذلك لعدم منازعة الهوى لها، وحدوث مدّ وجذر لاختيار أحد السبيلين، الهدى أم الضلال، لأنها إما ما زالت على الفطرة قبل أن تُنفخ في الجسد ولم تُصَبَّغ بعد بما يؤثر على ما سيختاره صاحبها، أو أنها صُبِّغَت من قِبَل من نُفِخَ في الجسد ولم تُصَبَّغ بعد بما يؤثر على ما سيختاره صاحبها، وليس بإمكانه بعد موته أن يُبدِّل ما أَرَادَهُ لِنَفْسِهِ من خَيْرٍ أو شَرٍّ عِنْدَمَا كَانَ يستطيع ذلك في حياته الأولى. والروح قادرة في عالم البرزخ - أي بعد الموت وقبل البعث - ، على القيام بما أُذِنَ لها من أعمال.

2- إن كانت في الجسد لكنها سميت واتصلت بالله عزّ وجل واستقبلت نور ضيائه، وضياء تعاليمه ونفحاته، فهي نفس مطمئنة أبقاها صاحبها بعد تفكّر وتدبّر على الفطرة السليمة، بعد منازعة الهوى لها وإنزاله الغرائز في الموضع المأمور به شرعاً، فأسمى مُسَعِّداً بما وهبه الله تعالى إِيَّاه من نعم وفضل. وللنفس بالإجمال نقطتا ارتكاز:

الأولى: مركز العمليات الفكرية وإصدار الأوامر ويدعى هذا المركز العقل، قال تعالى: **[وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ]** [البقرة: 235]، أي ما تفكرون به وتدبرون وتكتمون، وهذا المركز متوضّع على الدماغ الذي يرسل بدوره الإشارات الكهربائية بوسائل كيميائية إلى كل نواحي الجسد.

الثانية: مركز استقبال القناعات الفكرية التي تتحوّل إلى يقين يُطَبِّعُ الشعور والإحساس الوجداني الداخلي بما اقتنع، وبالتالي إما أن يكون صافياً مصقولاً كوجه المرآة المستقبلية للأنوار الإلهية، أو أن يكون كخلفها قائماً لا يمكن أن يستقبل نوراً أو ضياءً. ويدعى هذا المركز القلب، يقول تعالى: **[مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ]** [النحل: 106]، وهذا المركز توضع على عضلة القلب.

ثمّ إنّنا نجد لكل من العقل والقلب منبع نور يتوسط هذين المركزين ويطلق عليه اللبّ، لبّ العقل ولبّ القلب، ولا يمكن أن ينكشف الحجاب عنهما إلا عن طريق التدرج اليقيني والإيماني؛ كي يُزال الرّان عن القلوب **[كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ]** [المطففين: 14]، ثم اتصاهما بالله الواحد الأحد اتصالاً يليق بمقام الله جلّ جلاله كخالق ومعبود، ويتماشى مع منزلة الإنسان الذي فضله على كثير ممّن خلقه، ويتساير مع ما يسره الله لإطاعة بنان الإنسان. في هذا الاتصال الحقيقي مع الله جلّ جلاله يتوجه كل من اللبّين للاتحاد والانصهار؛ ليتولد بعد ذلك لبّ واحد يستقبل

ويرسل العلم الكسبي، والبحثي الاجتهادي، واللدني، وهذا تصديقاً لقوله تعالى: [وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا] [الكهف: 65]، وورد في موضع آخر من آيات الذكر الحكيم قوله تعالى: [وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا] [طه: 99]، والذكر هنا هو القرآن الكريم. هذا الرابط بين اللب المتحد، والله جلّ جلاله يُؤكّد حباً صافياً لله تعالى لا يشاركه به بنفس الموقع إلا صفحي الخلق صاحب آخر الرسالات محمد صلى الله عليه وسلم، لبّ خال من الأعيار، فارغ من حب غير الله تعالى أو من اصطفاهم من الخُصّيين الصادقين العاملين.

يقول بديع الزمان: "اعلم أن المتكلم كما يفيد المعنى ثم يُفنع العقل بواسطة الدليل؛ كذلك يلقي إلى الوجدان حسيّات بواسطة صور التمثيل فيحرك في القلب الميل أو النفرة ويهيئه للقبول. فالكلام البليغ ما استفاد منه العقل والوجدان معاً، فكما يتداخل إلى العقل يتقطر إلى الوجدان أيضاً"¹⁷.

هنا نسمع البخاري يروي عن عبد الله بن هشام حيث قال: "كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو أخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي. فقال صلى الله عليه وسلم: لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك. فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: الآن يا عمر"¹⁸. هذا الحديث فيه من الرمزية الشيء الكثير، لغة يفهمها من تعلمها أو تعلم الكثير منها. فإن قلت لكم إن المعادن كالنحاس أو الحديد تنقل التيار الكهربائي أو الحرارة، لبادرتم سراعاً تقولون أصبت إذ التجارب العلمية المتخصصة أو التجارب الفردية تثبت ما قلت، إذن عكس النتيجة المحرّبة مرفوض، في هذه نسلم ونستسلم للحواس. أما في ما حصل مع عمر رضي الله عنه فنقف ولا ندرك غور الحديث، لأن الكثيرين يفتقدون ما يكتسبه المتيقن بعد تفكّر.

إذ ما شهدناه بين المعلم المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم وعمر بن الخطاب رضي الله عنه، هو ذات الصّراع الذي يحدث لنا في مرحلة النفس اللوامة، فسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ينقل العلوم لعمر رضي الله عنه عن طريق الحقن الجسدي، من خلال تشابك الأيدي بحوار مستطير بين نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم المطمئنة، وبين نفس عمر رضي الله عنه اللوامة، قبل أن يتحد لبّ العقل ولبّ القلب في ذات الاتجاه عنده، أحس كيانه بالحوار الداخلي فأفصح هواه عن مراده ناطقاً باللسان، لعدم قدرة الهوى على خوض مثل هذا الحوار والتلقي، جاء الكلام خليطاً من حُبّين حبّ الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، مع حبّ الأنا والهوى، أتى الجواب:

أحبك يا رسول الله، وأحب ما تُبُثُّ فيّ، ولك جسدي ومالي، ولكن الأنا وهوى النفس يقفان حاجزاً أمام مدّ عطائك، يجذبني الهوى إلى هواها. هنا زاد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجرعة التي تذيب حاجز الأنا في وعاء الحب، مع بلسم شاف من الكلمات التي لا تُبقي أثراً لخدش في منهج العلاقة الخالصة لله، وقال له بما معناه: سعادتك في الدنيا والآخرة هي بإعادة وضع اللبّ في موقع القيادة، وجعل الهوى تابعاً لما هو أسمى، هذه الجرعة الزائدة مع البلسم الشافي من الكلمات، أذابت حاجز النفس الشاهق عند ابن الخطاب، فاستوى مع طريق المنهج الممهّد ليتابع السير بعدها عمر رضي الله عنه، بل وكل من أراد أن يسلك سلوكه من بعده ليصل إلى سعادة حقيقية، سعادة الدنيا والآخرة، هنا نطق الحال والمقال عما جرى من ذوبان للأنا وتقهقر للهوى مفصلاً عن حب خالص لله ورسوله لا يواز يهما حب الذات أو الأنا، عند ذلك دوت كلمة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (الآن يا عمر) مُقَرَّراً له ما فعل وشاهداً له بالخلود، فوج عمر بأكاديمية المريدين يتتلمذ فيها ويرتقي في درجات سلمها ليصبح يوماً هو قائدها، دوت كلمة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى يوم يبعثون، يسمعونها من وعيها وأدرك سبلها ومسلكها.

هذا الاتحاد اللبّي، والانصهار الحبيبي في الاتجاه، هو من يعيننا على فهم قصد الشارع والشريعة كتاباً كريماً وسنةً مطهرة، هو الذي ينهض بالفرد والأسرة والمجتمع، لذا علينا معرفة أبواب الولوج والوقوف عندها نقرعها بقوة لنلج فيها. والسر يكمن في معرفة نقطة الانطلاق عند الوقوف مع الذات وسؤالها إلى أين المسير؟ وما هو المبتغي؟ أيمان وراثي قد لا يُثمر، أم إيمان اعتقاديّ بناء؟

لننطلق من حيث انطلق عمر رضي الله عنه حيث أخذ يد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلنأخذ بيد من ورث علمه واستقبل العلم اللدني، فلا خير في أمة يقودها الهوى ودافع الأنا ويفقد فيها صانع النفوس المطمئنة، لذا علينا أن نحبي سنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما سلك طريقها عمر رضي الله عنه، عندئذ نفوز بحب الله ووصفيه. لنسير بنورها ننقل الأمانة التي حملناها كي يصبح الفرد فينا أمة وحده كأبينا إبراهيم عليه السلام.

وفي هذا الصدد أقول: إن إعمال العقل ينبغي أن يرافقه التعليم، وأن تُسأل النفس هل هي أهل لتلقيه، فإن كان الجواب نعم فنعمًا، وإن كان العكس فعلى المرء أن يؤهل نفسه لتستقبل المعلومة وتعالج إيجاباً أو سلباً؛ ليصل المرء للقناعة الثابتة بعدما كُشف عما غمض عليه وغمض، وإلا كان الاعتقاد للأنا والذات الذي يولد الغرور والرياء ونفق

الإخلاص لله جلّ جلاله، وقتئذ يُنتج بناء هش، يسقط عند الهزّة الأولى، لذا علينا أن نمي بداخلنا نفساً مطمئنة لبيبة، كي نصل إلى السّلام الحقيقي بكلّ ما أمّنا عليه في أجسادنا أو بمن نحن مسؤولون عنهم، سلام مع الله عزّ وجل والنفس والإطار المحيط بنا سواء أكان الأسرة أم المجتمع . يقول بديع الزمان : "إن إصابة الأمة في قلبها إنما هو من ضعف الدين ولن تنعم بالصحة إلا بتقوية الدين"¹⁹ .

والآن أبين تعريفي للعقل بقولي:

العقل: هو التّهيّة لما تنقله الحواس، يتوصّل بحركته الذاتيّة إلى المقصود.

التّهيّة: جاء في القاموس أن النهية: "غاية الشيء وآخره كالنهاية والنهائ مكسورتين، وانتهى الشيء وتناهى ونهى تنهية: أي بلغ غايته"²⁰. وقلت النهية لأن ما تراه العين، أو تسمعه الأذن، أو يشمه الأنف، أو يتذوقه اللسان، أو تلمسه اليد، يدرك بالعقل وحده، إذ المنتهى إليه. فهذه الحواس منافذ للعقل على العالم الخارجي، فيها يكتسب العلم ويزداد معرفة بالإطار المحيط بنا.

وعلى هذا فهو الآلة العاملة وما يعقل به لتتكون مجموعة من المبادئ العقلية عند المرء عن طريق الاكتساب المعرفي والعلمي من خلال منافذه، وبهذا يشترك الإنسان والحيوان في إدراك العالم الخارجي عن طريق الحواس كلّ على قدره.

يتوصل: ورد في القاموس المحيط: "وَصَلَ الشيء بالشيء وَصَلًا وَصَلَةً بالكسر والضم، ووصله: لأمه، ووصلك الله، بالكسر لَعَةً، والشيء وإليه وُصُولًا وَوُصَلَةً وَوَصِلَةً: بَلَعُهُ وانتهى إليه"²¹.

بحركته: ذكر (الفيروزآبادي) في قاموسه: "حَرَكَ، كَكَرَمَ، حَرَكَاً بالفتح، حركةً ضد سَكَنَ"²².

الذاتية: ذكر الأصفهاني عن الذات ما يلي: استعار أصحاب المعاني الذات، فجعلوها عبارة عن عين الشيء جوهرًا كان أو عَرَضًا، واستعملوها مفردة ومضافة إلى المضم بالألّف واللام، وأجروها مجرى النفس والخاصة، فقالوا: ذاته، ونفسه، وخاصته"²³. والقصد من عبارة "يتوصل بحركته الذاتية": أي أن العقل - عضوٌ كان أو جهاز - فهو مستقل بذاته كالقلب ودورته الدموية، وكجهاز التنفس، وظيفّة العقل إدراك المعلومة وتخزينها وتصوير معناها وتخيل أبعادها لتصبح عنده ملكة تكون له نوراً يهتدي به عند احتياجها.

وعلى هذا فهو الجوهر ذو القوة المحركة الذاتية صاحب الملكة الخاصة التي يعملها بالتفكر والتدبر والتصور والتخيل والتذكر والبحث بعد الإدراك، ليعطي حكمه فيما يعرض له، وبهذا يفترق الإنسان عن الحيوان.

إلى المقصود: ذكر الأصفهاني أن: "القصد استقامة الطريق، يقال: قصدتُ قصده، أي نحوْتُ نحوه... وأقصدُ السهم: أصاب وقتل مكانه، كأنه وجد قصده، قال: فأصاب قلبك غير أن لم تُقصد"²⁴.

وأتمت عبارة: "يتوصل بحركته الذاتية" بقولي: "إلى المقصود" ذاهباً إلى أننا بعد إعمال العقل لابد من ظهور نتيجة لهذا التفكير، وهذه النتيجة أتت بعد مخاض عقلي يبدأ بإدراك المعلومة، ثم التفكير بها للتوصل لفكرة تكون النتيجة لعملية التفكير، وهذه النتيجة هي المقصودة من الاكتساب العلمي والمعرفي والمعالجة ضمن العقل؛ حتى يتوصل الإنسان لما يعتبره محموداً لديه، ومقصداً له.

ولنتقل الآن إلى أمور لابد منها متعلقة بهذا التعريف:

نلاحظ أن للمولود الحديث الذي لم يتجاوز من العمر ساعة من الزمن، له إرادة واختيار، نابعة من عقله الفطري، فنراه يطلب بشكل غريزي ما يسد جوعه أو يرفض بشكل تلقائي شيئاً مرّ المذاق، أو أنه يتقبل الماصة (اللهاية) أو يرفضها، فإن تقبلها وأردنا نزعها منه فنجده يمسك بها بلثته معبراً عن رفضه لنزعها، وإن أجبرناه عليها نراه يقذفها بلسانه رافضاً إياها. فلو تأملنا هذه الحادثة لأدركنا بأن الله عزّ وجل شأنه، وهب الإنسان منذ ولادته عقلاً فطرياً له إرادة واختيار على قدره. بل إن هذا العقل يدرك حتى قبل الولادة فيتأثر بحزن أمه أو فرحها. ويكون هذا أيضاً إن أسمعناه مثلاً لغة مغايرة للغة. بل يكون أسرع من غيره في تعلّم هذه اللغة، فيسهل عليه تعلمها بعد ولادته عند وعيه. كل ذلك أثبتته العلم الحديث.

وعليه:

فوظيفة العقل الفطري والكسبي زيادة علمه ومعرفته عن طريق الإدراك والفهم وتخزين المعلومة وتخيله للمحسوسات وتصوره للمعاني والبحث والتفكير. وغاية العقل بنوعيه للوصول إلى النتيجة التي يريدتها ويختارها.

ومنهج في العمل التلقّي والإلقاء: تلقي المعلومة ضرورية مسلّمة كانت أو مركّبة بعد نظر، ثم يلقي ما تلقاه من المعاني للقلب فيتأثر بها أولاً، ثم يرسل أوامره لأعضائه أو معها للغير كي يمتثلوا لما صدر من العقل من أوامر حتى يقوموا بما أملى العقل عليهم، عن طريق الإلقاء كل بإشارة ولغة يفهمها.

ثمرة ذلك: الثباتية ونيل الرضى إما لذاته عن طريق تحقيق خياراته وإرادته، أو للغير سواءً كان هذا الغير خالقاً أم مخلوقاً.
بين القلب و العقل:

لا أقصد هنا بلفظة القلب العضلة المسؤولة عن حركة القبض والبسط من أجل الدورة الدموية. إذ أن علماء الطب توصلوا إلى إجراء عمليات جراحية للقلب وتبديله. وعند تبديل هذا القلب لا نلمس من الإنسان الذي حمل قلب إنسان آخر حبه لما أحبَّ صاحب القلب الأصلي أو كرهه لما كرهه، لذا أتحدث عن القلب الذي يعلو القلب العضوي ويؤثر عليه.

يقول بديع الزمان: “وأما [قلوبهم] قدّمه على السمع والبصر لأنه هو محل الإيمان.. و لأن أول دلائل الصانع يتجلى من مشاورة القلب مع نفسه، ومراجعة الوجدان إلى فطرته، لأنه إذا راجع نفسه يحس بعجز شديد يلجئه إلى نقطة استناد، ويرى احتياجاً شديداً لتنمية آماله فيضطر إلى نقطة استمداد، ولا استناد ولا استمداد إلا بالإيمان.. ثم أن المراد بالقلب اللطيفة الربانية التي مظهر حسياتها الوجدان، ومعكس أفكارها الدماغ، لا الجسم الصنوبري. فإذا في التعبير بالقلب رمز إلى أن اللطيفة الربانية لمعنويات الإنسان كالجسم الصنوبري لجسده. فكما أن ذلك الجسم ماكنة حياتية تنشر ماء الحياة لأقطار البدن، وإذا انسدّ وسكن جمد الجسم؛ كذلك تلك اللطيفة تنشر نور الحياة الحقيقية لأقطار الهيئة المحسمة من معنوياته وأحواله وآماله. وإذا زال نور الإيمان - العياذ بالله - صارت ماهيته التي يصارع بها الكائنات كشيخ لا حراك به وأظلم عليه”²⁵. ويقول بديع الزمان: “أعني جملة [في قلوبهم مرض] هو: أن سوقها يفيد أنهم لما لم يعملوا بمقتضى المحاكمة العقلية والشعور الحسيّ ظهر أن في روحهم مرضاً فلا أقل من أن يعرفوا أنه مرض ليجتنبوا عن القضايا ولا يحكموا عليها؛ إذ من شأن المرض تغيير الحقيقة وتشويه المزين وتحلية المرّ كما مر...”²⁶.

قال تعالى: [لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا] [الأعراف: 179]. كما قال عزّ وجل: [أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ] [الحج: 46]. حتى نفهم هذه الآيات لا بد من تعريف القلب، ومعرفة العلاقة بين القلب والعقل، وإني أعرف القلب من ضوء مقاصدي بقولي:

هو الذي تَنْطَبِعُ عليه المؤثرات الخارجية : سواء كانت عقلية أو لدنية.

وأقصد بقولي تنطبع عليه المؤثرات الخارجية: أي ما يعتري الإنسان من المشاعر الوجدانية والنفسية المتفاوتة، كالحب والبغض، والرحمة والجبروت، والخوف والأمان، والرغبة والرجاء، والحسد والغبطة، إلى غير ذلك.. كل هذه المعاني وغيرها يتأثر القلب بها، عن طريق مؤثر خارجي منفذه للقلب العقل الذي هو الحاسة الجامعة لكل منافذ الحواس، فهو - أي العقل - عين القلب، يأخذ خلاصة النتيجة التي يتوصل إليها العقل بإدراكه.

وأذهب بقولي: "سواء كانت عقلية أو لدنيّة" إلى أن المؤثرات العقلية الفطرية أو الكسبية تنطبع على القلب عبر وسائل نقل هذه المؤثرات بعد إدراك العقل لها. أما قولي: "لدنيّة" فهي إلهام مباشر للقلب إما عن طريق وحي من الله عزّ وجل، أو بإيحاء منه تعالى للقلب، أو برؤيا صادقة، ولا يكون ذلك إلاّ لقلب صاف لا ران عليه. ثم بعد ذلك ينعكس هذا الإلهام الربّاني من القلب إلى العقل ليدركه ويعمل وفقه.

علاقة القلب بالعقل:

يقول بديع الزمان: "... فالعقل والقلب هما بحكم نواة الإنسان ولّبه وبفضلهما استطاع أن يصبح ثمرة الكون، ويملك من القدرة على الانبساط والاتساع ما يمكنهما أن يطويا العالم كله رغم صغرهما، فرأى السائح: إن القلوب والعقول برازخ إنسانية بين عالمي الغيب والشهادة، فالعلاقات والعلامات بين ذينك العالمين - بالنسبة للإنسان - تجري في تلك النقاط؛ لذا خاطب عقله وقلبه معاً قائلاً: "أقبلا، فإن أقصر الطرق الموصلة إلى الحقيقة هي من بابكما فهيا لنستفد بمطالعتنا العقول والقلوب المتصفة بالإيمان ودراستنا كيفياتها وألوانها، فهذا درس لا يؤخذ من الألسنة كما هو الحال في الطرق الأخرى"²⁷، كما يقول بديع الزمان: "اعلم! أن عقلي قد يرافق قلبي في سيره فيعطي القلب مشهوده الذوقي ليد العقل؛ فيبرزه العقل على عادته في صورة المبرهن التمثيلي. ومن تلك الحقائق أن الفاطر الحكيم كما أنه بعيد بلا نهاية، كذلك قريب بلا غاية. وكما أنه في أبطن البطن، كذلك فوق الفوق. وكما أنه ليس داخلاً، كذلك ليس خارجاً"²⁸.

عندما يتوصل الإنسان بعد بحث ونظر بعقله إلى وحدانية الخالق تنصب هذه القناعة من العقل الذي يستقبل شرع الله، إلى القلب لتزرع بذرة اليقين وترعى الرعاية السليمة حتى يصبح القلب موقناً بالله مستقبلاً لتعاليمه ونوره، هذا العقل يرقى إلى الحكمة والحلم من خلال ما اكتسبه من علم، عن طريق التلقي والبحث وإعمال العقل بالتفكير، ومن انعكاس المعرفة الإلهامية من القلب إلى العقل الذي يستقبل - أي القلب - أنوار الله عزّ

وجل بعد زوال الرّان الذي يغلف القلب من المعاصي فتعكس هذه الأنوار أول ما تنعكس على العقل المفكر؛ ليصبح نوراً هو الآخر يضيء بشكل أشدّ وهجاً مما كان عليه، بسبب اكتسابه الحكمة والحلم، فما يصدر بعد ذلك من الإنسان من قول أو فعل نجده مستمداً من أخلاقيات وتعاليم القرآن الكريم والسنة المطهّرة، مستمداً من الله عزّ وجل ونبه محمد صلّى الله عليه وسلم.

هنا نرى عملية دمج واتحاد بين العقل المقتنع والقلب الموقن ليطلق عليهما معاً لفظة اللب. بهذا الشكل يكون القلب صاحب بصيرة وهذه البصيرة مصدرها العقل الحكيم. يكون العقل صاحب نور، وهذا النور منعكس من القلب السليم، الذي تلقى أنوار الله عزّ وجل، هكذا نرى أداة التفكير التي وهبها الله للإنسان "وهي العقل" الذي يعمل وفق الشريعة يبدأ بالترقي درجة فدرجة؛ حتى يصبح صاحب هذا العقل من أصحاب أولي الأبواب أي أصحاب العقول الذين بلغوا ذروة التفكير السليم المنور من الله عزّ وجل، فحصلت هذه العقول على درجة الحكمة وامتازت بالحلم بتأي أصحابها وتبصرهم في أمورهم، وسلوكهم طريق الله وتعاليمه. بهذا يكون الشرع هو حاكم العقل وموجهه الأوحد. لذا نرى هؤلاء الناس منتهين بطبعهم عما لا ينبغي، ممتنعين عمّا يُرديهم ويزلق أقدامهم في مهاوي ومطبات يقع فيها العوام أو المكابرون عن الحق أو المنافقون، نلفاهم أصحاب قلوب عاقلة مفكرة ترقى في درجات المعرفة الحقة. إذ اليقين تجذّر وتأسّص في قلوبهم فيصبح للقلب بصيرة هي العقل المنور بنور الله عزّ وجل، بعد أن كان للعقل فقط أداة بصر، كما يتمتع القلب بأذن رحمانية بعدما كان للعقل أذن اعتادت سماع اللغو والغيبة والنميمة واللغظ من الحديث. ونرى القلب ينطق بحكمة سديدة من لسان صدق بعدما كان هذا اللسان يودي بصاحبه إلى ما لا يرضاه العقل السليم.

إذن العقل غريزة واكتساب، بالنور الإلهي تفتح له نافذة قوة البصيرة، فمنافذ الإدراك للعقل هي الحواس الخمس، ومنافذ إدراك القلب هي البصيرة. والبصيرة هنا هي العقل عن الله حكمة وحلماً من لدنه لتمام اللب الذي هو اجتماع تمام العقل الذي وهبه الله نوراً من نوره، مع القلب المنور المزال عنه المتعلقات الغيرية ورواسب الرّان مما اقترفت يد الإنسان، قال تعالى: [كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ] [المطففين: 14]. ولأن لكل مذنب عقوبة تقدر بقدر الذنب المقترف ليتحقق العدل، ولأن من اختار طريق الضلال بدلاً من طريق الهدى والصلاح، لذلك كله نرى عقوبته هي ختم الله على

قلوب الضالين المضلين في الدنيا، وسوء المصير في الآخرة، وذلك لعلم الله السابق بأنهم لن يختاروا طريق الهداية والحق؛ أعمى الله بصيرتهم، لأنهم: أولاً: أغلقوا أعينهم عن الصواب، وصمّوا آذانهم عن كلمة الحق فلم يعملوا عقولهم لما خلقوا بل جعلوا الهوى هو قائدهم ومحركهم.

ثانياً: غلقوا بالران قلوبهم بما اكتسبوه من الأثام، فختم الله جلّ شأنه على قلوبهم، لذلك قال تعالى: [لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا] [الأعراف: 179]. أي لا يعقلون بها. لذا يجب على الإنسان أن يحقق معنى لا إله إلا الله بداخله. فإما أن يمتلكها أو أن تملكه، فإن ملكها يستشعر بمراقبة الله عزّ وجلّ له، وإن تملكته يقوم بأعماله وكأنه يرى الله عزّ وجلّ، وهنا يحقق معنى العمل الإيماني للقلب واللسان والبدن، فعلى الإنسان أن يبدأ بمتابعة الحركة الداخلية الإيمانية لبذرة الإيمان القلبي فيه، ويسقيها من نور الله عزّ وجلّ حتى يفيض على عقله وقلبه ولسانه وجوارحه بل كلّ بدنه، وبالتالي يصبح مؤثراً بإطاره المحيط به بناءً لأسرته ومجتمعه معيناً للدولة لا هداماً فيها في هذا الصدد أذكر حديثين لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه، الأول: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "قال رسول الله: إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ولئن سألتني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذه"²⁹. والثاني: حديث طويل وهو حوار تعليمي بطريقة السؤال والجواب عندما أتى جبريل عليه السلام يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتعلم الصحابة - رضي الله عنهم - ومن بعدهم وهو مروى عن عمر بتخريج مسلم، جاء فيه: قال: فأخبرني عن الإحسان؟، قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"³⁰.

العقل عند علماء الفلسفة، والكلام، و المنطق³¹:

كل ما قاله هؤلاء السادة العلماء يدلنا على أن العقل هو المسؤول في الجسد عن التلقي والإلقاء يرقى إلقائه لداخله أو للغير من قول أو فعل، يرقى بقدر رقي ما يتلقاه من مكتسبات معرفية وعلمية فإن استطاع العقل أن يسمو حتى يرقى لمرتبة الحكمة والحلم، يستطيع وقتها أن يضبط ما يصدر عنه قولاً وعملاً بشكل يتناسب تماماً مع إنسانية الإنسان في التعامل مع نفسه أولاً ومع الغير ثانياً سواء كان هذا الغير إنساناً أم حيواناً أم جماداً.

إذن العقل هو العين المتتبعه للحركة الداخلية للإنسان من زيادة في المعرفة أو التفاعلات أو التأثيرات الداخلية، كما أنه العين المراقبة للحركة الخارجية سواء صدرت من الإنسان نفسه أو من غيره عن طريق منافذ الحواس السليمة.

مفهوم العقل عند علماء الشريعة:

تعددت أقوال العلماء في حدّه حتى يظن أن لكل واحد منهم مفهومه الخاص به، لهذا يضيق البحث بسردها لذا سأختير منها ما يثري البحث.

يقول الشيخ التهانوي: "اعلم أن العقل الذي هو مناط التكليف الشرعية، يختلف أهل الشرع في تفسيره، فقال الأشعري: هو العلم ببعض الضروريات الذي سميناه بالعقل بالملكة. وما قال القاضي هو العلم بوجوب الواجبات العقلية واستحالة المستحيلات وجواز الجائزات ومجاري العائدات أي الضروريات التي يحكم بها بجران العادة من أن الجبل لا ينقلب ذهباً، فلا يبعد أن يكون تفسيراً لما قال الأشعري، واحتج عليه بأن العقل ليس غير العلم وإلا يجاز تصور انفكاكهما وهو محال، إذ يمتنع أن يقال عاقل لا علم له أصلاً وعالم لا عقل له أصلاً، وليس العقل العلم بالنظريات لأنه مشروط بالنظر والنظر مشروط بكمال العقل، فيكون العلم بالنظريات متأخراً عن العقل بمرتين، فلا يكون نفسه، فيكون العقل هو العلم بالضروريات وليس علماً بكلها فإن العاقل قد يفقد بعضها لفقد شرطه كما مر، فهو العلم ببعضها وهو المطلوب. وجوابه أننا لا نسلم أنه لو كان غير العقل جاز الانفكاك بينهما لجواز تلازمهما. وقال الإمام الرازي: والظاهر أن العقل صفة غريزية يلزمها العلم بالضروريات عند سلامة الآلات وهي الحواس الظاهرة والباطنة، وإنما اعتبر قيد سلامة الآلات لأن النائم لم يزل عقله عنه وإن لم يكن عالماً حالة النوم لاختلال وقع في الآلات، وكذا الحال في اليقظان الذي لا يستحضر شيئاً من العلوم الضرورية لدهش ورد عليه، فظهر أن العقل ليس العلم بالضروريات. لا شك أن العاقل إذا كان سالماً عن الآفات المتعلقة كان مدركاً لبعض الضروريات قطعاً. فالعقل صفة غريزية يتبعها تلك العلوم، وهذا معنى ما قيل: قوة للنفس بما تتمكن من إدراك الحقائق. ومحل تلك القوة قيل الرأس، وقيل القلب، وما قيل هو الأثر الفائض على النفس من العقل الفعال "... وفي خلاصة السلوك قال أهل العلم: "العقل جوهر مضيء خلقه الله في الدماغ وجعل نوره في القلب، وقال أهل اللسان: العقل ما ينجي صاحبه من ملامة الدنيا وندامة العقبي، وقال حكيم: العقل حياة الروح والروح حياة الجسد. وقال حكيم: ركّب الله في الملائكة العقل بلا شهوة وركّب في البهائم الشهوة بلا عقل، وفي ابن آدم

كليهما. فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلب شهوته عقله فهو شر من البهائم، وقال أهل المعرفة: العاقل من اتقى ربه وحاسب نفسه، وقيل مَنْ يَبْصُرُ مواضعَ خطواته قبل أن يَضَعَهَا وقيل الذي ذهب دنياه لآخرته. وقيل الذي يتواضع لمن فوقه ولا يحتقر لمن دونه ويمسك الفضل من منطقته ويخالط الناس باختلافهم. وقيل الذي يترك الدنيا قبل أن تتركه ويعمر القبر قبل أن يدخله وأرضى الله قبل أن يلقاه، وقيل إذا اجتمع للرجل العلم والعمل والأدب يسمى عاقلاً. وإذا علم ولم يعمل أو عمل بغير أدب أو عمل بأدب ولم يعلم لم يكن عاقلاً³².

يقول السرخسي في أصوله: "العقل نور في الصدر به يبصر القلب عند النظر في الحجج بمنزلة السراج، فإنه نور تبصر العين به عند النظر فترى ما يدرك في الحواس، لا أن السراج يوجب رؤية ذلك ولكنه يدل العين عند النظر عليه، فكذلك نور الصدر الذي هو العقل يدل القلب على معرفة ما هو غائب عن الحواس من غير أن يكون موجباً لذلك، بل القلب يدرك بالعقل"³³.

ويقول الغزالي في المنحول: "العقل هو صفة يتهبأ للمتصف بها درك العلوم والنظر في المعقولات"³⁴. ونسمعه في مستصفاه يقول: "دليل العقل لا يقبل النسخ والبطالان"³⁵. ويقول الزركشي في البحر المحيط: "العقل ضربان ثم هو ضربان غريزي وهو أصل، ومكتسب وهو فرع. فأما الغريزي: فهو الذي يتعلق به التكليف. وأما المكتسب: فهو الذي يؤدي إلى صحة الاجتهاد وقوة النظر، ويمتنع أن يتجرد المكتسب عن الغريزي، ولا يمتنع أن يتجرد الغريزي عن المكتسب، لأن الغريزي أصل يصح قيامه بذاته؛ والمكتسب فرع لا يصح قيامه إلا بأصله"³⁶.

ويقول المحاسبي: "فالعقل غريزة جعلها الله عز وجل في الممتحنين من عباده أقام به على البالغين للحلم الحجة. وأتاهم خاطب من قبل عقولهم، ووعد وتوعد، وأمر ونهى وحضّ وندب"³⁷.

وأعود لإحياء الغزالي عندما قال تحت عنوان بيان حقيقة العقل وأقسامه ما نصه: "اعلم أن الناس اختلفوا في حد العقل وحقيقته، وذهل الأكثرون عن كون هذا الاسم مطلقاً على معان مختلفة، فصار ذلك سبب اختلافه. والحق الكاشف للغطاء فيه: أن العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان، كما يطلق اسم العين مثلاً على معان عدة، وما يجري هذا المجرى، فلا ينبغي أن يطلب لجميع أقسامه حد واحد، بل يفرد كل قسم بالكشف عنه.

فالأول : الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم، وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية، وتدبير الصناعات الخفية الفكرية، وهو الذي أرادته الحارث بن أسد المحاسبي حيث قال في حد العقل: إنه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية، وكأنه نور يقذف في القلب، به يستعد لإدراك الأشياء. ولم ينصف من أنكر هذا ورد العقل إلى مجرد العلوم الضرورية. فإن الغافل عن العلوم والنائم يسميًا عاقلين باعتبار وجود هذه الغريزة فيهما مع فقد العلوم. وكما أن الحياة غريزة يتهيأ الجسم للحركات الاختيارية والادراكات الحسية فكذلك العقل غريزة يتهيأ بها تنهياً بعض الحيوانات للعلوم النظرية، ولو جاز أن يسوى بين الإنسان والحمار في الغريزة والادراكات الحسية، فيقال: لا فرق بينهما إلا أن الله تعالى بحكم إجراء العادة يخلق في الإنسان علوماً وليس يخلقها في الحمار والبهائم، لجاز أن يسوي بين الحمار والجماد في الحياة، ويقال: لا فرق إلا أن الله عز وجل يخلق في الحمار حركات مخصوصة بحكم إجراء العادة، فإنه لو قدر الحمار جماداً ميتاً لوجب القول بأن كل حركة تشاهد منه فالله سبحانه وتعالى قادر على خلقها فيه على الترتيب المشاهد، وكما وجب أن يقال: لم يكن مفارقتة للجماد في الحركات إلا بغريزة اختصت به عبر عنها بالحياة فكذا مفارقة الإنسان البهيمية في إدراك العلوم النظرية بغريزة يعبر عنها بالعقل، وهو كالمرأة التي تفارق غيرها من الأجسام في حكاية الصور والألوان بصفة اختصت بها وهي الصقالة وكذلك العين تفارق الجبهة في صفات وهيئات بما استعدت للرؤية. فنسبة هذه الغريزة إلى العلوم كنسبة العين إلى الرؤية، ونسبة القرآن والشرع إلى هذه الغريزة في سياقها إلى انكشاف العلوم لها كنسبة نور الشمس إلى البصر، فهكذا ينبغي أن تفهم هذه الغريزة.

الثاني: هي العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات: كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد، وإن الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد، وهو الذي عناه بعض المتكلمين حيث قال في حد العقل: إنه بعض العلوم الضرورية كالعلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات. وهو أيضاً صحيح في نفسه، لأن هذه العلوم موجودة، وتسميتها عقلاً ظاهراً، وإنما الفاسد أن تنكر تلك الغريزة ويقال: لا موجود إلا هذه العلوم.

الثالث: علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال، فإن من حنكته التجارب وهذبته المذاهب يقال إنه عاقل في العادة، ومن لا يتصف بهذه الصفة فيقال إنه غبي غمر جاهل، فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلاً .

الرابع : أن تنتهي قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور، ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها، فإذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها عاقلاً، من حيث إن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة، وهذه أيضاً من خواص الإنسان التي بها يتميز عن سائر الحيوان. فالأول هو الأس والسنخ والمنبع والثاني هو الفرع الأقرب إليه، والثالث فرع الأول والثاني، إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تستفاد علوم التجارب، والرابع هو الثمرة الأخيرة وهي الغاية القصوى فالأولان بالطبع، والآخيران بالاكتساب، ولذلك قال عليّ كرم الله وجهه:

رأيت العقل عقليين فمطبوغٌ ومسموعٌ
ولا ينفع مسموعٌ إذ لم يكُ مطبوغٌ
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوعٌ³⁸.

وعرفه الدكتور يوسف العالم بقوله: “العقل قوة في نفس الإنسان يستطيع عن طريقها إدراك العلوم، وتحصيل المعارف، وله عدة إطلاقات. ومعاني مختلفة عند العلماء والحكماء والعامّة، والذي نقصده هو القوة الإدراكية التي تلي قوة الحواس وفي مجال يفوق مجال الحواس، ودون مجال الوحي الإلهي الذي يأتي عن طريق الرسل لهداية العقل الإنساني إلى سواء السبيل، ويجنبه الزلل والضلال ويخرجه من الظلمات إلى النور”³⁹.

يقول **التفتازاني :** “أطلق الحكماء وغيرهم لفظ العقل على معان كثيرة، منها: الجوهر المجرد في ذاته وفعله بمعنى أنه لا يكون جسماً ولا جسمانياً ولا تتوقف أفعاله على تعلقه بجسم، وهذا معنى الجوهر المجرد الغير متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف، ولو قال: غير المتعلق بالجسم، لكان أنسب ليخرج النفوس الفلكية إذ البدن إنما يطلق على بنية الحيوان. وادعى الحكماء أن العقل بهذا المعنى أول ما صدر عن الواجب سبحانه، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم: “أول ما خلق الله تعالى العقل”، وإنما قال أدعوا لأهم استدلووا على ذلك بدلائل واهية مبنية على مقدمات فاسدة، مثل: أن الواحد لا يصدر عنه إلا الواحد ونحو ذلك. ومنها: قوة للنفس الإنسانية بما يتمكن من إدراك الحقائق وهذا معنى الأثر الفاضل عليها من العقل بالمعنى الأول. ومنها: مراتب قوى النفس على ما سنبينها. ومنها: الغريزة التي يلزمها العلم بالضروريات، أو نفس العلم بذلك، وهذا معنى العلم بوجوب الواجبات واستحالة المستحيلات وجواز الجائزات. ومنها: ملكة حاصلة بالتجارب يستنبط بها المصالح والأغراض وهذا معنى ما يحصل به الوقوف على العواقب. ومنها: قوة مميزة تبين الأمور الحسنة والقبیحة. ومنها: هيئة محمودة للإنسان في حركاته وسكناته وكلامه، إلى غير ذلك من المعاني المتفاوتة والمقاربة،

فاحتج في هذا المقام إلى تفسير العقل، فقالوا: هو نورٌ يضيءُ به طريق، يبتدئ به حيث ينتهي إليه درك الحواس فتبدي المطلوب للقلب فيدركه القلب بتأمله ويتوفيق الله تعالى، ومعنى ذلك أنها قوة للنفس بما ينتقل من الضروريات إلى النظريات... (قوله: وقد يطلق العقل على قوى للنفس بما تكسب العلوم) إشارة إلى معنى آخر للعقل باعتباره يحصل للنفس مراتبها الأربع⁴⁰. فعلى ما سبق كان حاصل معناه: حصول شرائط الوصول إلى المطلوب وانكشاف الحجب عنه بينه وبين المطالب، والتهدي إلى طريق التوصل إلى المقاصد⁴¹.

ويقول الدكتور الجوزو: "العقل هو أداة المعرفة أداة الفهم والإدراك واستنباط الحقائق الكونية"⁴².

ويقول الدكتور فضل الله: "وكل ما حكم به العقل، حكم بما الشرع. فالعقل رسولٌ في الباطن"، والشرع "عقل في الظاهر". فإذا أدرك العقل أن العدل حسنٌ والظلم قبيحٌ، حكم الشرع بأن العدل محبوبٌ لله والظلم مكروهٌ له... يقول الغزالي: "فالشرع عقلٌ من خارج، والعقل شرع من داخل، وهما متعاضان، بل متحدان ولكون الشرع عقل من خارج، سلب الله تعالى اسم "العقل" عن الكافر في غير موضع من القرآن، نحو قوله: "صمٌ بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلون" ولكون العقل شرعاً من داخل، قال تعالى في صفة العقل: "فَطَرَهُ اللهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ" فسمى العقل ديناً ولكونهما متحدان، قال: "نورٌ على نور" أي نور العقل ونور الشرع. إن العقل لن يهتدي إلا بالشرع، والشرع لن يتبين إلا بالعقل. فالعقل كالأس والشرع كالبناء، ولن يغني أسٌ ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أسٌ. وأيضاً فالعقل البصر والشرع كالشعاع ولن يغني البصر ما لم يكن شعاعٌ من خارج، ولن يغني الشعاع ما لم يكن البصر"⁴³.

وها نحن نسمع ابن رشد يتحدث عن العلم الذي يستقبله العقل بالفعل وعن العقل المستفاد الذي يطبق به الإنسان ما تعلم، بقوله: "وينبغي أن تعلم أن مقصود الشرع إنما هو تعليم العلم الحق والعمل والشقاء الأخروي"، والعمل الحق هو امتثال الأفعال التي تفيد السعادة، وتجنب الأفعال التي تفيد الشقاء والمعرفة بهذه الأفعال هي التي تسمى العلم العملي، وهذه تنقسم قسمين: أحدهما أفعالٌ ظاهرةٌ بدنية، والعلم بهذه هو الذي يسمى الفقه، والقسم الثاني أفعالٌ نفسانية مثل الشكر والصبر، وغير ذلك من الأخلاق التي دعا إليها الشرع أو نهى عنها. والعلم بهذه هو الذي يسمى (الزهد) وعلوم الآخرة وإلى هذا نحا أبو حامد في كتابه⁴⁴.

لذلك نرى الغزالي يتحدث عن اكتساب العقل بالفعل ودوره في تلقي أدوية العبادة بحدودها ومقاديرها ولا يمكن أن تكون إلا عن طريق الأنبياء، وأن دور العقل ابتداءً يكون بفهم أوامرهم فيقول: "الأنبياء - عليهم السلام - أطباء أمراض القلوب وإنما فائدة العقل وتصرفه، إن عرفنا ذلك، وشهد للنبوّة بالتصديق ولنفسه بالعمى عن درك ما يدرك بعين النبوّة، أخذ بأيدينا وسلمنا إليها تسليم العميان إلى القائدين، وتسليم المرضى المتحيرين إلى الأطباء المشفقين. فإلى هاهنا مجرى العقل ومخطاه وهو معزول عما بعد ذلك، إلا عن تفهم ما يلقيه الطبيب إليه"⁴⁵.

بعض آراء العلماء والمفكرين والكتاب حول التوازن الفكري للأمة :
يقول الدكتور سالم يفوت: "إن "ضرب مثلاً" هو أساس النشاط الذهني لدى الإنسان؛ كما أن الوقوف على التماثل والاختلاف، أعظم صفات العقل"⁴⁶.
من هذا المنطلق سأذكر بعض أقوال رجال الدين الإسلامي ومفكره، مع أقوال لغيرهم ذات صلة بالموضوع، أسردها بدون تعليق يذكر، إذ من خلال هذه النصوص المتوفرة بين يدي فقط، نرى عظمة آلية العمل الفكري والإبداعي للمسلم التي يستوحياها من القرآن والسنة، من هنا نخلص إلى وجوب توحيد الاتجاه الصحيح بين العقل والقلب ليصبح بناء الفرد والأمة أرسخ وأشخ.

1- الإمام الغزالي:

يقول الإمام الغزالي تحت عنوان : مراتب العقل من الكتاب الإلهي ما نصه: "أعلم أن الله تعالى ذكر هذه المراتب في آية واحدة ، فقال: [الله نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ] [النور: 25]. فالمشكاة مثل للعقل الهولاني، فكما أن المشكاة مستعدة لأن يوضع فيها النور فكذلك النفس بالفطرة مستعدة لأن يفيض عليها نور العقل، ثم إذا قويت أدنى قوة وحصلت لها مبادئ المعقولات فهي زجاجة، فإن بلغت درجة تتمكن من تحصيل المعقولات بالفكرة الصائبة فهي الشجرة لأن الشجرة ذات أفنان فكذلك الفكرة ذات فنون، فإذا كانت أقوى وبلغت درجة الملكة فإن حصل لها المعقولات بالحس فهي الزيت فإن كانت أقوى من ذلك فيكاد زيتها يضيء، فإن حصل له المعقولات كأنه يشاهدها ويطلعها فهو المصباح. ثم إن حصلت له المعقولات فهو نور على نور؛ نور العقل المستفاد على نور العقل الفطري، ثم هذه الأنوار مستفادة من سبب هذه الأنوار

بالنسبة إليه، كالسراج بالمسبة إلى نار عظيمة طبقت الأرض. فتلك النار هي العقل العقلا المفيد لأنوار المعقولات على الأنفس البشرية وإن جعلت الآية مثلاً للعقل النبوي فيجوز، لأنه مصباح يوقد من شجرة أمرية مباركة بنبوية، زيتونة أمية لا شرقية طبيعية ولا غربية بشرية، يكاد زيتها يضيء ضوء الفطرة وإن لم تمسه نار الفكرة. نور من الأمر الربوبي على نور من العقل النبوي. (يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ)⁴⁷.

2- المفكر مالك بن نبي:

“إن كان لا يليق بنا أن نعد القرآن كتاب علم فإننا نلاحظ فيه مع ذلك آيات تحتوي الاهتمامين كليهما: لمسها حقيقة علمية، وإلقاؤها بهذا اللمس مزيداً من الوضوح على علاقة الذات الحمديّة بالظاهرة القرآنية⁴⁸.”

“حينما أحاول التخطيط لحضارة فليس عليّ أن أفكر في منتجاتها، وإنما في أشياء ثلاثة، في الإنسان والتراب والوقت، فحينما أحل هذه المشاكل الثلاثة حلاً علمياً، بأن ابني الإنسان بناء متكاملًا، واعتني بالتراب والزمن فإنني حينئذ قد كونت المجتمع الأفضل، كونت الحضارة التي هي الإطار الذي فيه تتم للفرد سعادته، لأنه يقدم له الضمانات الكافية الاجتماعية⁴⁹. لذلك نسمعه يقول: “فإنسان لا تسعفه خصائصه، وإمكانياته الشخصية في تحقيق سعادته. وليس يعني هذا أنني أغض من قيمة هذه الخصائص.. فقد سبق أن قلت إن ارتباط الفرد بالمجتمع هو الذي يحقق السعادة⁵⁰.”

“لم يكن عمل النهضة الإسلامية طوال السنوات الخمسين الأخيرة، يمثل تشييداً، ولكن تكديساً للعتاد⁵¹.”

“فالتوجيه هو تجنب هذا الإسراف في الجهد وفي الوقت. فهناك ملايين السواعد العاملة والعقول المفكرة في البلاد الإسلامية، صالحة لأن تُستخدم في كل وقت؛ والمهم هو أن نذير هذا الجهاز الهائل المكون من ملايين السواعد والعقول، في أحسن ظروفه الزمنية والإنتاجية المناسبة لكل عضو من أعضائها. وهذا الجهاز حين يتحرك يحدد مجرى التاريخ نحو الهدف المنشود، وفي هذا تكمن أساساً فكرة توجيه الإنسان الذي تحركه دفعه دينية⁵².”

“كل ما سلب العقل ميزاته، وفقد المقاييس التي تهديه السبيل، كانت الكوارث السياسية على الأبواب، واستطاع الاستعمار أن يحقق أهدافه ضد الأوطان والأديان، تحت شعارات مقدسة "إسلام" و "وطن"⁵³.

"على المرين في البلاد العربية والإسلامية أن يُعلّموا الشبيبة كيف تستطيع أن تكتشف طريقاً تتصدر فيه موكب الإنسانية، لا أن يعلموها كيف تواكب الروس أو الأمريكيين في طرائقهم، أو كيف تتبعهم؟"⁵⁴.

ثم نراه يتكلم عن حالة المجتمع القلبية والعقلية انطلاقاً من الرؤية القرآنية للسنن الإلهية، بقوله: "الأدوار الثلاثة التي يمر بها المجتمع: الحالة الكاملة، فيها تكون جميع الخصائص والملكات تحت سيطرة "الروح" ومتصلة بالاعتبارات ذات الطابع الميتافيزيقي. والمرحلة التالية هي المرحلة التي تكون فيها جميع الخصائص والملكات تحت سيطرة "العقل" خاصة، ويتجه نحو المشكلات المادية، أما المرحلة الثالثة فتصور نهاية تحللها تحت سلطان "الغرائز" المتحررة من وصاية الروح والعقل، وفيها يصبح النشاط المشترك، ضارباً بأطنابه في أعوار الفوضى والاضطراب"⁵⁵.

و الآن نسمعه يقول: "القرآن يحث على أن يكون الكلام مع الخصم، موجهاً إلى ضميره حتى يصبح كأنه "ولي حميم"⁵⁶.

"إن الحوار هو أبسط صورة لتبادل الأفكار، وهو بذلك المرحلة التمهيدية البسيطة لكل عمل مشترك"⁵⁷.

"أوروبا التي اعتقدت أن العناية قد اختارتها لتسودها مصائر الإنسانية، قد أخذت منذ عصر "بوكاشيو" - حين كانت حضارتها ترتضع في مهدها لبان حضارة العرب - تنتكر للحضارة الإسلامية تنكراً خالصاً سهلاً، وهاك ما قاله أحد الأوربيين في هذا الصدد وهو الدكتور "غوستاف لوبن"، فإنه حين أراد أن يبحث دراسته عن "الحضارة العربية" اختتمها بهذا التأمل الحزين: (لعل القارئ يتساءل: لماذا ينكر العلماء في هذه الظروف تأثير العرب، وقد كان أولى بهم أن يتنزهوا عن اعتبارات التفرقة الدينية؟ الحق أن استقلال آراءنا وتجردها ظاهر أكثر من أن يكون واقعياً، وأنا لا نكون البتة أحراراً في تفكيرنا - كما ينبغي - حيال بعض الموضوعات، فلقد تجمعت العقد الموروثة، عقد التعصب التي يدين بها ضد الإسلام ورجاله، وتراكمت خلال قرون صحيحة حتى أصبحت ضمن تركيبنا العضوي)... هذا النص يوضح بصورة غير مباشرة، لكنها صريحة، موقف الحضارة الأوربية في وجه العالم الإسلامي منذ بداية التاريخ الاستعماري"⁵⁸.

"إن سبل التاريخ تمر بفكر البشر، وسيمر "التعايش" ضرورة بهذه السبل كيما يصير واقعاً تاريخياً. ومن اللازم ضرورة أن يمر بجميع المناطق، حيث الذكاء الإنساني على قدم

الاستعداد ليصوغ الإجابة على تحدي القوة، وسيساعده على ذلك، ربح التاريخ المواثية⁵⁹.

“التحول لا يؤثر في عالم الأشياء، ولا في المعقولات التي تتضمنها عالم الأفكار بوصفه أنماطاً تطبيقية... ما لم يؤثر في محتوى النفوس ذاتها، طبقاً للآية الكريمة [إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ] [الرعد: 11]⁶⁰.
هكذا بدا لي فكر هذا المفكر من خلال هذه النقولات، ولأتابع الآن ما عزمت عليه منذ البدء.

3- المفكر محمد الغزالي :

في كتابه "كيف تتعامل مع القرآن" يقول: "إن الخلل العقلي في فهم القرآن، فهماً عملياً كما توحى به الطبيعة السهلة التي لا تكلف فيها بين الناس، فقدناه من مدة طويلة! ويجب على المعاهد التي تكون الدعاة والتي تكون العلماء أن تستفيد الأمة من الورطة التي وقعت فيها... أما نحن فنكتفي من قوله تعالى: [وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ] [النحل: 16] بأن الله لفتنا إلى أن هناك علامات في الأرض والسماء! ولكن، ما هي؟ وماذا صنعنا مع هذه العلامات؟ وما هي الوسائل والمبتكرات التي طورناها في هذا الموضوع؟ إن غيرنا الآن يغزو الفضاء ويتخذ من غزو الفضاء منارات وعلامات لكي يسخر الحضارة له... أما نحن فوقوف! لا بد من إحسان التعامل من القرآن"⁶¹.

4- الدكتور يوسف القرضاوي:

يقول في كتابه "العقل والعلم في القرآن الكريم" ما نصه: "غطى العقل كل الجوانب: الكون علوية وسفلية، الإنسان مجازره وماضيه، آيات الله الكونية والتنزيلية، فمن لم يستخدم عقله في هذه النواحي كلها، كان خليقاً ألا يهتدي إلى الحق، وأن يسير في ركاب أهل الضلال والاضلال، وأن يقول مع أهل الشقاء في النار يوم القيامة ما حاكاه الله عنهم: (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ. فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ)⁶².

"ليس بين العلم والإيمان - أو بين العلم والدين - صراع، كالذي عرفته أوروباً فيما سمي عندهم "القرون الوسطى"، وإنما هنا إحاء بينهما، فالعلم يؤيد الإيمان، والإيمان يبارك العلم، فإن الحق لا يناقض الحق. وكما أقول أبداً: إن العلم عندنا دين، والدين عندنا علم"⁶³.

5- الأستاذ جودت سعيد:

سأسرد بعضاً من ومضات أفكاره في عدد من مؤلفاته، يقول: " في شباب العالم الإسلامي من عندهم استعداد لبذل أنفسهم وأمواهم في سبيل الإسلام ولكن قلّ من تجد فيهم من يتقدم لبذل سنين من عمره ليقضيها في دراسة جادة، لِيُنْضَجَ موضوعاً، أو يصل به إلى تجلية حقيقة"⁶⁴.

"الآفة التي نتحدث عنها الآن، وهي: عدم رؤية علاقة الطاقة الفكرية في الإنسان، بسنن الكون، وظن الفوضى، وعدم الخضوع للسنن، في أحداث الكون، وما دامت هذه العلاقة غير ثابتة، وغير موجودة، وغير معترف بها، فلا جدوى من إعمال العقل والفكر"⁶⁵.

"ينبغي البحث عن أبوي القدرات أي عن الزوجين اللذين يردان القدرات وهما العقل وسنن الكون"⁶⁶.

"والاختلال الذي يصيب الثقافة يصيب عضواً معيناً ذا وظيفة خاصة، ويمكن أن نجد هذا العضو في الثقافة بوظيفة العلماء المجتهدين، اللذين يتمتعون بأداء وظيفة الاجتهاد في التخلص من الضار وقبول النافع، فإذا لم يوجد علماء أو لم يعد العلماء يقدرّون على الاجتهاد المزوج الوظيفة في القبول والرفض، فإن الأمة التي تفتقد مثل هذا الجهاز تصاب بالتمزق والهوان نتيجة احتفاظها بالأفكار الضارة وعدم قدرتها على تقبل الأفكار الضرورية لسلامة الحياة"⁶⁷.

"إن وظيفة العقل، هي ملاحظة ارتباط الأسباب بالنتائج وأما ليست عقلية إنما مشاهدية وتسليمية اضطرارية، لا دخل للعقل فيها إلا التسليم والإقرار، وإن عدم التسليم بها بعد المشاهدة نقياً للعقل"⁶⁸.

"لا شك في أن الاجتياز عقبة المجتمع العالمي يحتاج إلى إحاطة بأرقى ما وصل إليه نحو الضمير العالمي وذكائه، أي: في أخلاقه وعلمه، وليس المراد معرفة ما وصل إليه فقط، لأن هذا لا يكفي زاداً من أجل التمكين من اختيار العقبة بل لا بد من تحصيل أعلى وتطلع أسمى، يمكن معه كشف النقص والاستدراك الذي يبين بوضوح حاجة العالم إلى هذا الفهم الجديد"⁶⁹.

"كل لحظة يبذل فيها الفرد المسلم واجبه فإنه يسهم في بناء الحياة الإسلامية. كما أن الذل الذي يعيشه العالم الإسلامي متكون من أجزاء الهوان الذي يحمله كل شخص من المسلمين ومن الجهد اليومي والآني الذي يتخلف فيه المسلم عن أداء واجبه"⁷⁰.

6- الدكتور محمد عمارة :

يقول في كتابه "أزمة الفكر الإسلامي الحديث" : "إن تحرير العقل المسلم - كقضية من قضايا أزمة الفكر الإسلامي الحديث - يجب أن تفهم على أن تحرير من الجمود والتقليد الأعمى .. وتحريره من الغرور .. وتحريره من الهوى .. تحريره من الجمود والتقليد الأعمى للسلف، سواء أكان هذا السلف سلفنا نحن، أم سلف الحضارة الغربية .. فالجمود النصوصي آفة، سواء أكانت هذه النصوص من موروثنا نحن أم مستوردة عن "الآخر الحضاري"! .. والغرور العقلائي الذي يزعم أهله قدرة العقل على الاستقلال بإدراك أي شيء، إلى حد الذي يحكمون فيه "بالاستحالة" على كل ما لا تدركه عقولهم.. هو موقف أشبه ما يكون بعبث الطفولة - مع افتقاره إلى براءة الأطفال!...؟! "⁷¹.

7- الدكتور مصطفى محمود:

يقول تحت عنوان هل الدين أفيون الشعوب، ما نصه: "ليس أبعد من الخطأ القائل بأن الدين أفيون.. فالدين في حقيقته أعباء وتكاليف وتبعات وليس تحفظاً وتحلاً وبالنتالي ليس مهرباً من المسؤوليات وليس أفيوناً. وديننا عمل وليس كسلاً. [وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ] [التوبة: 105] ونحن نقول بالتوكل وليس بالتواكل"⁷².

"ارتفع صوت العقل حتى صار لاجحة وغروراً واعتداداً .. والعقل معذور في إسرافه إذ يرى نفسه واقفاً على هرم هائل من المنجزات وإذ يرى نفسه مانحاً للحضارة بما فيها من صناعة وكهرباء وصواريخ وطائرات وغواصات وإذ يرى نفسه قد اقتحم البر والجو والماء وما تحت الماء.. فتصور نفسه القادر على كل شيء وزج بنفسه في كل شيء وأقام نفسه حكماً على ما يعلم وما لا يعلم"⁷³.

8 - الأستاذ عبد الفتاح أبو زائدة :

يقول تحت عنوان التوجيه والأهداف: "النهضة بالفكر الإسلامي ليست عملية مستحيلة، حيث أن منهج التفكير واضح وضوحاً شديداً في القرآن الكريم، ويبقى الأمر رهيناً بالتمسك بكتاب الله والعمل على هديه والاستفادة العملية من حياة النبي صلى الله عليه وسلم وإحياء الماضي الحبي العزيز الإسلامي، وأعتقد أننا إذا قمنا بهذه الأشياء مجتمعة نستطيع بها أن نبرهن على حيوية الفكر الإسلامي وعلى إيجابية العقل العربي عندما يتخذ المناهج العلمية وسائل في البحث والدراسة"⁷⁴.

9- الأستاذ عبد الرزاق نوفل :

عندما تحدث عن القرآن أشار إلى أنه: "نبه العقل لكي يبحث ويفكر في نفسه وفيما حوله، ويؤمن بالاستدلال من الأثر على المؤثر ومن الخلق على الخالق، ومن القدرة على القادر ومن الإبداع على المبدع"⁷⁵.

10- الشيخ الركابي:

يقول في كتابه "نقد العقل الإسلامي": "إن الإسلام حركة من أجل الحياة لا يعرف الانغلاق ويستوعب التطوير المعرفي والأيدولوجي ولا يجد حرجاً في التعامل مع الأشياء بروح الانفتاح الروح التي تساهم في دعم المشروع الحضاري الإنساني... الإسلام لم ولن يؤمن بالطائفية والمذهبية الضيقة والأثنية العنصرية بل يؤمن بالإنسان كوحدة واحدة..."⁷⁶.

11- الدكتور برهان غليون :

يتحدث عن أساس النظرة العقلانية بقوله: "إن أساس النظرة العقلانية الحقة هو الكشف عن منطق الأمور وتربطها الداخلي، أي عقلها الذاتي، لا من منطلق منطق قياسي مجرد واحد يسوي بين مطالب المعرفة، ولكن من وجهة تربط منهج كل معرفة مع مطلبها"⁷⁷.

12- الأستاذ محمد حمزة :

يتحدث عن انطلاقة المعتزلة العقلية في دفاعهم عن عقائد الإسلام مما يبين أصالة وجذور إعمال العقل في الإسلام، فيقول: "دخلت طوائف كثيرة إلى الإسلام من مجوس وصائبة ويهود ونصارى وكان منهم من يظهر الإسلام تقي ويطئن غيره. لذلك كانوا ينشرون بين المسلمين ما يفسد دينهم. ويشكك في عقائدهم. فتصدت المعتزلة للرد على هؤلاء بقوة وفلسفة لا تجارى. وكان لهم الفضل الأول في الدفاع عن عقائد الإسلام بالحجة والبرهان القاطع وكانوا يعتمدون في الاستدلال على العقل. وكانوا يحكمون العقل في كل شيء. ولا يجد ثقتهم بالعقل إلا احترام أوامر الشرع. من هنا نجحوا في إفحام الملحدون الذين لا يؤمنون بالدليل النقلي من كتاب أو سنة"⁷⁸.

13- الدكتور عبد المجيد النجار:

يقول تحت عنوان دور العقل في تنزيل الوحي "النص"، بشكل يربط بين النقل ولزام إعمال العقل للوصول إلى المقاصد: "وإذا كانت الأحكام الإلهية التي جاء بها النص

شرعت لتحقيق مقاصد الله في إجراء أفعال الإنسان على ما يؤدي إلى مصلحته وهو جماع المقاصد، فإنه يتبين مدى ما أنيط بعهدة العقل من أهمية ودقة في تحقيق أفعال الإنسان تقديراً لأسبابها ومآلاتها، وتمييزاً للاختلاف والتشابه فيها، حتى يرجع كلاً منها وهي الكثيرة التي لا ينالها حصر إلا ما يناسبها من الحكم الكلي المجرد بما يحقق قصد الشارع في إسعاد الإنسان⁷⁹.

14- الدكتور عبد المجيد مزيان :

ورد في مقاله حول: "مسؤولية المثقف المسلم" ما نصه: "إن مسؤولية المثقف المسلم اليوم تستوجب الشجاعة الفكرية وإيجاد الخطاب المقنع لتقديم الإسلام على حقيقته لا على الصور التي تأتي بها أحداث العنف والإرهاب وتلتقطها وسائل الإعلام لإشعال نيران الكراهة والتهويل بالخطر الإسلامي على الحضارة وعلى الإنسانية"⁸⁰.

أما الآن لتلمس الخطى الثابتة لمنهج الإمام بديع الزمان سعيد النورسي في رسائله حيث يقول :

"ومن الغرائب أن العقل الذي يتناول إلى الإحاطة بالعالم والنفوذ إلى الخارج والخروج من دائرة الإمكان، يغرق في قطرة، ويفنى في ذرة، ويغيب في شعرة وينحصر الوجود عنده فيما فني فيه ويريد أن يدخل معه كل ما أحاط به في النقطة التي بلغته"⁸¹.
"العقل عضو وآلة، إن لم تبعه - يا أخي - لله ولم تستعمله في سبيله، بل جعلته في سبيل الهوى والنفوس فإنه يتحول إلى عضو مشؤوم مزعج وعاجز إذ يحملك آلام الماضي الحزينة وأهوال المستقبل المخيفة، فيحذر عند إذ إلى درك آلة ضارة مشؤومة، ألا ترى كيف يهرب الفاسق من واقع حياته وينغمس في اللهو أو السكر إنقاذاً لنفسه من ازعاجات عقله؟ ولكن إذا بيع العقل إلى الله واستعمل في سبيله ولأجله، فإنه يكون مفتاحاً رائعاً بحيث يفتح ما لم يعد من خزائن الرحمة الإلهية وكنوز الحكمة الربانية فأينما ينظر صاحبه وكيفما يفكر يرى الحكمة الإلهية في كل شيء وكل موجود وكل حادثة. ويشاهد الرحمة الإلهية متجلية على الوجود كله، فيرقى العقل بهذا إلى مرتبة مرشد رباني يهتدي صاحبه للسعادة الخالدة"⁸².

وعند حديثه عن الإسلام يقول: "إنه يستشهد العقل وينبهه بإحالة كثير من الأمور - في القرآن الكريم - إلى العقل، ويحثه على التدبر والملاحظة. بقوله تعالى: (أفلا يتفكرون... أفلا يتدبرون... أفلا يعقلون) فيمنح لأهل العلم وأرباب الفكر والعقل

بهذا مقاماً رفيعاً باسم الدين ويوليهم أهمية خاصة، فلا يعزل العقل، ولا يحجر على عقول أهل الفكر ويكتم أفواههم، ولا يطلب التقليد الأعمى⁸³.

“إن الحياة هي خلاصة مترشحة من هذا الكون، والشعور والحس مترشحان من الحياة، فهما خلاصتها، والعقل مترشح من الشعور والحس، فهو خلاصة الشعور، والروح هي الجوهر الخالص الصافي للحياة، فهي ذاتها الثابتة المستقلة⁸⁴، ويقول: “عندما تميج أحاسيس الإنسان لا ترضخ لموازين العقل، بل الهوى هو الذي يتحكم⁸⁵”.

“القلب الإنساني إذا انتزع منه الرأفة والرحمة والاحترام فإن العقل والذكاء يسيطران - عندئذ - على زمام الإنسان ويجعلان أولئك الناس كالوحوش الضارية والكلاب المسعورة⁸⁶”.

“فاعلم! إن كلمة [يا أيها] في جملة " يا أيها الناس اعبدوا " قد أكثر التنزيل من ذكرها لنكت دقيقة ولطائف رقيقة، إذ هذا الخطاب مؤكد بوجوه ثلاثة: بما في "يا" من الإيقاظ، وما في " أيُّ " من التوسم، وما في "ها" من التنبيه - يا أيها - فالخطاب هنا رمز إلى فوائد ثلاث: مقابلة مشقة التكليف بلذة الخطاب.. وإن ترقى الإنسان من حضيض العبيّة إلى مقام الحضور إنما هو بواسطة العبادة، وأيضاً إشارة إلى أن المخاطب مكلف بجهدات ثلاث: باعتبار قلبه بالتسليم والانقياد، ومن جهة عقله بالإيمان والتوحيد، وبالنظر إلى قلبه بالعمل والعبادة⁸⁷”.

وعندما يتحدث عن منهجية وحدة العقل والقلب، يقول: " ثم أن الرسائل ليست كبقية مصنفات العلماء تسير على وفق خطى العقل وأدلته ونظراته، ولا تتحرك كما هو الشأن لدى الأولياء المتصوفين بمجرد أذواق القلب وكشوفاته.. إنما تتحرك بخطى اتحاد العقل والقلب معاً وامتزاجهما، وتعاون الروح واللطائف الأخرى، فتحلق إلى أوج العلا وتصل إلى مراد لا يصل إليها نظر الفلسفة المهاجمة فضلاً عن إقدامها وخطواتها، فتبين أنوار الحقائق الإيمانية وتوصلها إلى عيونها المطموسة⁸⁸”.

" أقسم بالقرآن العظيم ذي الأسلوب الحكيم، أنه ما ألقى النصارى وأمثالهم في وديان الضلالة نافخاً فيهم الهوى إلاّ عزل العقل وطرد البرهان وتقليد الرهبان.. وما جعل الإسلام يتجلى دوماً، و تنكشف حقائقه وتنسبط بنسبة انبساط أفكار البشر إلاّ تأسسه على الحقيقة وتقلده البرهان ومشاورته العقل واعتلاؤه عرش الحقيقة ومطابقتة دساتير الحكمة المتسلسلة من الأزل إلى الأبد ومحركاتها لها⁸⁹”.

" إن قلب الإنسان مثلما ينشر الحياة إلى أرجاء الجسد، فالعقدة الحياتية في الوجدان - وهي معرفة الله - تنشر الحياة إلى آمال الإنسان وميوله المتشعبة في مواهبه واستعداداته

غير المحدودة ... إذن فالوجدان يطل على الحقائق بذاتها من هاتين النافذتين، فيرى هيمنة النظام على العالم كله، والخالق الكريم ينشر نور معرفته ويثبها في وجدان كل إنسان من هاتين النافذتين .. فمهما أطبق العقل جفنه، ومهما أغمض عينيه، فالفطرة تراه وعيون الوجدان مفتحة دائماً، والقلب نافذة مفتوحة⁹⁰.

كما يقول بديع الزمان مشيراً إلى اتفاق العقل والقلب في منع المرء من ارتكاب حد من الحدود، ضارباً المثل بالسرقعة عندما يتذكر المقدم عليها القرآن الكريم، ما نصه: "وهكذا بتوالي التذكير هذا يزول ذلك الميل إلى السرقعة، إذ الذي يهاجم ذلك الميل ليس الوهم والفكر وحدهما وإنما قوى معنوية من عقل وقلب ووجدان، كلها تهاجم دفعة واحدة ذلك الميل والهوى فيتذكر الحد الشرعي يقف تجاه ذلك الميل زجرٌ سماوي وراذع وجداني فيسكتانه"⁹¹.

"على الوعاظ والمرشدين المحترمين أن يكونوا محققين ليتمكنوا من الإثبات والإقناع. وأن يكونوا أيضاً مدققين لئلا يفسدوا توازن الشريعة وأن يكونوا بلغاء مقنعين كي يوافق كلامهم حاجات العصر وما عليهم أيضاً أن يرنوا الأمور بموازين الشريعة"⁹².

إذاً إن المترتب على الفرد بقدر تجليات أسماء الله الحسنى على لبه وسعة علمه أن يقوم بنشر كلمة التوحيد، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، والإنسان تيقن بلبه أن الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له، ثم شهدت نفسه على هذا واختار بإرادة حرّة حمل الأمانة ليلبغ الرسالة ويعمر الكون، والدين الإسلامي دين عالمي لا يُحدّد بزمان أو مكان، لهذا كان الواجب على المسلم العاقل في سبيل تحقيق مفهوم الأمانة، واجباً حتمياً عليه تحقيقه، من أجل أن يسعد الإنسان، ولأن الله سبحانه وتعالى خالق الإنسان، يعلم ما وهب لمخلوقه من فطرة وعقل وهوى نفس وإرادة واختيار لما يبغيه بحرية مطلقة، يعلم الله عزّ وجل أيضاً أنه قد يتغلب هواه على فطرته بعد أن تتشوّه بمشوهات تحيط به؛ لهذا أرسل الرسل ليبيّنوا له الحقّ من الباطل، ويساعدوه بتنقيّة فطرته المشوهة ليقيم انقلاب على الهوى؛ كي يغدو عقله سليماً وقلبه متصلاً بالله، يصبح اللبّ هو المتحكّم بقيادة مسيرة الإنسان، هذا الانقلاب يقوم به الإنسان على نفسه دون أن تُراق قطرة دم واحدة أو يُسمع أزيز رصاص، يُحكّم على موت الهوى ويبعث الإيمان من جديد داخل كيان الإنسان، وهنا يمثل المؤمن لتعاليم الله عزّ وجل ويتمثّل بها، يسعى لتحقيق السعادة الحقيقية. ولأن الديانة ترفض الأنا والاستئثار لما هو خير للذات فقط، علّمته الشريعة سبيل إسعاد الغير بطرق عدّة، مثل إرشاد الآخرين إلى مكامن الخير والسعادة، وتحذيرهم

من مكامن الشّر والشّقاء، وإعانتهم على تحقيق ذلك، ونرى هذه الصّورة نقيّة واضحة تحت شعار تبليغ كلمة التوحيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والسّعي لتحقيق ذلك وتذليل العقبات التي تواجه السّير في هذا الطريق كلّ على قدره. وحتى تتبين التوازن الثابت بين العقل والقلب من منطلق رسائل النور، لا بد أن نتلمس مكانة العقل وعلاقته بالنقل في ضوء علم مقاصد الشريعة الإسلامية، والآن أتابع السّير بهذا الطريق منطلقاً من منظور الشاطبي مرسخ أسس المقاصد.

التبعية بين النقل والعقل:

لم يلتفت الإمام الشاطبي إلى تعريف العقل بل ينشط قلمه في بيان القضايا المتعلقة به، وتنبع خصوصية هذا الموقف من الواقع المحيط به والذي عاشه لحظة بلحظة، والوظيفة التي اتخذها لنفسه من محاربة البدع والمبتدعين والشطط في تغليب العقل على النقل، ووضع العقل بموضع يسيء لذات العقل، كما يسيء للنقل، إذ حاول أن ينصف كلاً منهما ويضعهما في موضعهما الصحيح، إذ يقول عندما تحدث في تمهيد المقدمات المحتاج إليها قبل النظر في مسائل الكتاب في المقدمة العاشرة: "إذا تعاضد النقل والعقل على المسائل الشرعية فعلى شرط أن يتقدم النقل فيكون متبوعاً ويتأخر العقل فيكون تابعاً، فلا يسرح العقل في مجال النظر إلاّ بقدر ما يسرحه النقل"⁹³.

من تصريحه هذا نراه يجعل الشرع محيطاً بالعقل غير مقيد له، يتحرك ضمن إطاره على ألا يخرج دائرته، وهذا أمرٌ أكيد فلا سبيل للعقل في الوصول للمعطيات إلا عن طريق الاستقراء التام للنقل، فما يتعلق بالثواب والقطعيّات كمقادير العبادات وعلاماتها فهذا مما لا سبيل للعقل فيه، إنما يتلقاه العقل ليفهم لا ليجهد ويتقول، وبذلك وضع الميزان الدقيق لما يجب أن تقدمه على الآخر النقل أم العقل. وما يتعلق بالظنيّات كأصول المعاملات وغيرها، مما تركه الشارع دون تحديد لحدوده حتى يتوافق مع مرور السنين مع كل عصرٍ. لذا مجال حركة العقل فيه رحبة يجوز البحث ضمن الحدود التي أباحها الشرع.

يقول الإمام الشاطبي: "الأدلة العقلية إذا استعملت في هذا العلم فإنما تستعمل مركبة على الأدلة السمعية، أو معينة في طريقها، أو محقّقة لمناطها، أو ما أشبه ذلك، لا مستقلة بالدلالة، لأن النظر فيها نظرة في أمر شرعي، والعقل ليس بشارع"⁹⁴.

هنا نجد يضع الميزان الدقيق لما يجب أن تقدمه على الآخر النقل أم العقل بشكلٍ يجمع بين المفاهيم المتغايرة من متعصي كل طرفٍ بهذا الصدد، فلا تطلق العنان للعقل في

كل ما جاء به الشرع، ولا تضيق على العقل، كل ذلك بعد الإيمان بوحى السماء. أما قبل ذلك فدور العقل في التعرف على وحدانية الخالق الدور الرئيس، وبعد الوحي أو الإيمان فدور العقل الفهم والإدراك، كل على قدره واستطاعته، لذلك نرى لكل منهج علمي خواصه سواء أكان ذلك في العلوم الشرعية أم الإنسانية أم كان ذلك في العلوم الحسائية أم الطبيعية. لذا على الإنسان المؤمن أن يعمل عقله ليفهم أولاً النصوص الشرعية وفق منهج علمي دقيق، وهذا ما يقرره الشاطبي في كتاب الأدلة الشرعية على الجملة⁹⁵.

والآن سأذكر قولاً لبديع الزمان ثم أتابع البحث، يقول: "من الأصول المقررة: إذا تعارض النقل والعقل، يعد العقل أصلاً ويؤول النقل، ولكن ينبغي لذلك العقل أن يكون عقلاً حقاً"⁹⁶.

قد يعتقد القارئ لقول العالمين أنهما متضارين، ولكنه إن أمعن النظر يدرك أنه لا تضاد بينهما، إذ العقل الحق لن يخرق دائرة الشرع بل يسرح فيما سمح به النقل من الكتاب الكريم والسنة المطهرة، وإنما أصابا الهدف بأسلوبين متغايرين لطبيعة عصر الرجلين الجليلين، إذ لا يعقل أن يقصد الإمام بديع الزمان أن يجعل العقل مهيمناً متسلطاً على الشرع، تنطلق أحكامه تبعاً لما يريده العقل، كما لا يعقل أن يقصد الإمام الشاطبي تهميش العقل وإسقاطه من الحسبان، وهو الداعي لإعماله وتسريحه، فالعقل الحق هو الذي استمد نوره ابتداءً من النص الشرعي وإطاره، وهذه دعوة الشاطبي. مما سبق أخلص للقول:

إن دور العقل بعد الإذعان لتعاليم الرسالة الحنيفة دور الفهم والإدراك فإن حصل ذلك يتبين أمران:

1 - يوجد نصوص يتلقاها العقل بالتسليم المطلق وهي النصوص القطعية ثبوتاً ودلالة، وظيفية العقل فيها بعد الفهم.. الوصول لسبل تحقيق مقاصدها؛ لنعمل بها ونعلمها وفق ذلك.

2 - نصوص يتلقاها العقل ليُعمل أدوات البحث فيها من خلال طرق معرفة المقاصد، هذه النصوص ذات الطابع الظني، ليجتهد العقل السليم المتخصص في الوصول لقطعية هذه النصوص حتى تدور الأحكام تبعاً لدوران مقاصدها فأحر الرسائل السماوية أتت للناس كافة على اختلاف أماكنهم وعاداتهم وتوالي أيامهم إلى يوم يبعثون. وعلى هذا نرى أن النقل و العقل متعاضان لا ينفك أحدهما عن الآخر، فإن تخلف هذا عن صاحبه فنقع إما بالتفريط أو الإفراط. لذا عند الفصل بينهما نجد إنساناً تنطبق عليه شروط التكليف إلا أنه هائم على وجهه لا يلتزم شرع الله، أو أننا سنرى مكلفاً

يَنْفُضُ الناس من حوله لتشدد لا مسوغ له يحسب نفسه قطاراً على سكة حديد، لذلك نسمع صوت الإسلام يعلو بالوسطية والسماحة.

مكانة العقل في الفكر الإسلامي⁹⁷ :

ليس من العيب أن يُعلّق الشرع شرط التكليف على العقل ويضع معياره سن البلوغ الشرعي، إنما العيب أن لا نضع العقل في مكانته الصحيحة، فإن وضعناه فوق ما يستحق بحثنا حقه وظللناه وحملناه مالا يطيق، وإن وضعناه بأقل مما يجب جرّنا عليه وبحثنا حقه أيضاً، والله عزّ وجل يقول: [ويل للمطففين] [المطففين: 1]، والتطفيف يكون بالزيادة أو النقصان، ليس للماديات فحسب بل للمعنويات أيضاً على السواء.

يقول بديع الزمان: "... ثم أن ظهور أكثر الأنبياء في آسيا، وظهور أغلب الحكماء والفلاسفة في أوروبا، رمزٌ للقدر الإلهي وإشارة منه إلى أن الذي يوقظ أقوام آسيا ويدفعهم إلى الرقي ويحقق إدامة إدارتهم هو الدين والقلب. أما الفلسفة والحكمة فينبغي أن تعاونوا الدين والقلب لا أن تحلّا محلّهما"⁹⁸. وهذا ابن حزم يقول: "من ادعى في العقل ما ليس فيه كمن أخرج منه ما فيه، ولا فرق"⁹⁹.

ولا أدلّ من اهتمام الشرع باللب من أن الله عزّ وجل ذكره في مواضع من القرآن بلغت الكثرة الكثيرة، إذ وجه العباد لاستعماله، وذم المسيئين له لأنهم وضعوا الأهواء مكان الرياسة والعقل مكان التبعية، كما أنه ذم أهل القلوب المتعلقة بالترهات المغلفة بالشهوات، إلا أن المدح أتى لأولي الألباب وهم الذين استخدموا عقولهم لبناء أنفسهم وأسراهم ومجتمعهم، كما نقّوا قلوبهم من المتعلقة بغير الله حتى أصبحت قلوبهم وأهواؤهم تبعاً للشريعة الحقّة فاتحدت العقول والقلوب في الاتجاه فغدت تبذل الخالص منها لكل صلاح وفلاح.

كما أنه ليس من المعقول أن يكون القرآن حاتّاً على بناء وإعمال العقول وسلامة القلوب، والسنة المطهرة غافلة عن ذلك أو مجافية له، إنما شكك بأحاديث العقل لظروف تاريخية وأيديولوجيات فكرية وسياسية، فنشأت عبر التاريخ جماعة سمّوا بالمعتزلة قيل أنهم غالوا في العقل حتى أنهم قدموه على الشرع، ووجدت جماعة أخرى وهم الأشاعرة قيل بأنهم وصّموا العقل بعدم الإدراك إلا من خلال الشرع، وظهر جماعة وقفت موقف التوسط بينهما هم الماتريدية ذكروا بأن العقل يدرك قبل الشرع وبعده، ولكن ليس على الله عزّ وجل أن يوجب ما حسّنه العقل أو ينهى عمّا قبّحه العقل.

وعند حديثنا عن مكانة اللب في الفكر الإسلامي من المنظور القرآني المائل في رسائل النور، فإننا نشير بأيدينا إلى مصنع إنتاج أسس البناء الراسخ للأفراد والأسر والمجتمعات،

بل ننظر نحو أركان قيام حضارة فذة بكيفية بنائها لبنة لبنة حتى آخر لمسة جمالية فيها. فإن أردنا حصر الكلام في إشكالية انبثقت تبعاً لظروف تاريخية، فإننا بهذا نقرّم الحركة الفكرية الإسلامية النابعة من دعوة الشريعة لبعث عقل نفاذ بناء يصنع الرجال، يتجه العقل مع النص كاتجاه السهم إلى مقصده.

ولأننا جميعاً نعلم أنه عند الحديث عن اللب يجب علينا ألا نغفل النص كما لا ينبغي علينا أن نغفل العقل عند تناولنا النص، أو نتناسى أحدهما ولأننا نعلم أن مصدر الفعل الماضي أو المضارع أو المستقبل لا يدل على حدوث الفعل إنما يدل على وقوعه عند اقترانه بالزمن، فيجب علينا أن نخلص إلى أن الله عزّ وجل عندما خاطب الإنسان توجه بخطابه بادئ ذي بدء إلى موضع التصور والحكم، وهو العقل، ولا يتم ذلك إلا بقيام فعل مرتبط بزمان، وهذا الفعل هو إعمال العقل - أي التفكير - وهذا دليل على أن التوصل إلى حكم وقرار لأمر ما يحتاج لزمن يقوم العقل خلاله بعملية التفكير بعد حدوث الفهم والإدراك، فهم وإدراك للنص وتصور لمعناه وتفكير بمدلوله ومقصوده؛ ليتولد بعد ذلك فكر إسلامي بناءً مستخلص من اندماج النص مع العقل، أي نور النص ونور إعمال العقل بالتفكير، يكون هذا الفكر نوراً لمن أراد الهداية وطريقاً ممهداً لمن أراد السعادة، في دنياه وفي أخراه، قال تعالى: [نورٌ على نور يهدي الله لنوره من يشاء] [النور: 35].

لذلك لا نجاح للمسلمين اليوم إلا بالعقل المنور بالهداية القرآنية بفهم صحيح، وإدراك تام لأبعاد النص، وإعمال العقل من المنطلق القرآني والنبوي ولّد لدينا عبر تاريخ الإسلام علومًا إسلاميةً مخترعة، وهذب علوم السابقين مقومًا إياها وفق المنهج السماوي الصحيح، فاستطعنا بذلك النهوض والرقى والسمو، وجعلنا إنسان الصحراء الجلف الذي عاش قبل بزوغ نور الهداية القرآنية إنساناً متحضراً يصل بعد تربية له وتهذيب نفسه بأقل من ربع قرن إلى الصين شرقاً، والبرتغال وإسبانيا غرباً، وبلاد القوقاز شمالاً، وإفريقيا جنوباً، بَهَر العالم بإنسانية هذا الإنسان وبكيفية الحفاظ على الحقوق رجلاً كان أم امرأة، طفلاً وليداً كان أم يافعاً، بَهَر العالم بحفاظه على البيئة ورعايته للحيوان ومحافظة حتى على الجماد فحرم هدم معابد الديانات الأخرى وممتلكاتها، وأعطى الحربة لأي إنسان، حرية الاعتقاد والمواطنة والتنقل بين البلدان والعمل فيها، مشجعاً كل أنواع الصناعات الخفيفة منها والثقيلة، كل ذلك مستمد من منبع وحي السماء الذي رقى بالعقل وسما بالقلب معاً، وجعل من إلزامية التعلّم والتعليم لأفراد مجتمعه أساساً لأي خطوة انطلاق تقدمية.

كما أننا نرى أن العلماء العرب والمسلمين بحثوا في شتى العلوم، لكن ضمن إطار شرعي بتعبير آخر متمسكين بالنص للدلالة على ما وصلوا إليه أو اتبعوه أو أثبتوه، معتمدين حرية أعمال العقل والتفكير لأبعد مدى يسمح به الشرع. كان هذا السبيل هو المتبني لدى السادة العلماء، لكننا قد نجد من بعضهم جانباً يطغى على جانب، حتى يخال للمرء في بعض الأحيان غياب الجناح الآخر لجسم البحث، مما أدى لوصم البعض بالجمود أو التحرر، كمن شدَّ الثوابت والمفاصل والمحاور حتى كاد لا يستطيع الحراك، أو سبب الثوابت والمفاصل فبدت محاوره تسير بغير هدى.

نعم لقد شدَّ بعض من ينتسبون للعلم عن أصول البحث المنهجي وقواعد النظر العلمي المفيد للنبئية العقلية السليمة، فكانوا هدامين لوحدة البناء الفكري والاجتماعي، فادعاء أن كل العلوم موجودة في النص القرآني بجزئياتها، أو أن القرآن نص شرعي ينظم علاقة الفرد مع ربه وحسب، كلام يفتقد للكثير من النقل والعقل للجانبين، صحيح أن النص الشرعي حدثنا عن العلوم الكونية والأرضية، لكنه تحدث عنها بالعموميات لافتاً نظرنا إلى ضرورة البحث فيها لاستفيد منها كما يجب. يقول بديع الزمان: "على المفكرين الذين غشيتهم ظلام أن يدركوا الكلام الآتي: لا يتنور الفكر من دون ضياء القلب. فإن لم يمتزج ذلك النور وهذا الضياء، فالفكر ظلامٌ دامس يتفجر منه الظلم والجهل. فهو ظلام قد لبس لبوس النور (نور الفكر) زوراً و بهتاناً. ففي عينيك نهار لكنه بياض مظلم، وفيها سواد لكنه منور. فإن لم يكن فيها ذلك السواد المنور، فلا تكون تلك الشحمة عيناً، ولا تقدر على الرؤية. وهكذا، لا قيمة لبصر بلا بصيرة. فإن لم تكن سويداء القلب في فكرة بيضاء ناصعة، فحصىلة الدماغ لا تكون علماً ولا بصيرة. فلا عقل بدون قلب"¹⁰⁰.

عندما يقسم الخالق بخلقه يدل هذا على حثنا للبحث فيه بشكل يجعلنا نصل إلى أكبر فائدة لاستفيد منه، فعندما قال البارئ المصور: [وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا] [الشمس:1]، أراد منا أن نعي هذه الآية بوجهها العملي؛ لنبحث في كيفية الاستفادة من الطاقة الشمسية من قرون وقرون، لكننا فهمناها الفهم اللغوي ووقفنا عنده، كما لم يدرك المقصد المراد إدراكه كما يجب من قوله تعالى: [قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى. وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى] [الأعلى: 14-15]، لأننا لو أدركنا لعملنا من منطلق الآية بما يجعل الإنسان آمناً من شرور نفسه ومن غدر أخيه الإنسان على مدى العصور، لكننا نقرؤها تبركاً لا تصويماً للهوى المردي أو تطهيراً للنفس الأمارة، لتصبح نفساً مطمئنة والهوى تابعاً للتعاليم السماوية.

هذه مكانة اللب في الفكر الإسلامي مكانة مستمدة من قوله تعالى [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا كِتَابَ بَقْوَةٍ] [مریم:12]، لنحصل على قوة في اليقين هذه القوة مرتبطة بقوة العقل والقلب، بقوة الإيمان، بقوة الجسد، بقوة الاقتصاد، وبتعبير آخر بقوة الألباب والماديات. لكن السواد الأعظم من المعلمين قصروا في تربية المتعلم بقصد أو بغيره، مما جعل نهوض عقله وإزالة الران عن قلبه ثم التوازن بينهما، ينحدر لهاوية أوصلت الأمة للضياع والتفكك والافتراق بالفكر والتوجه. فغدا المجتمع المسلم ولو في رقعة ضيقة صاحب توجهات عدة وهيكلية متشعبة، تنمو على زرعه طفيليات وعوالق لكثرتها بدت للمرء أنها الأصل.

وهكذا سار الحال إلى وقتنا الحاضر، لكننا اليوم نسمع بعض الأصوات وكأنها آتية من الغياهب، أصوات خافتة باهتة تدعو للنهوض وإعمال العقل وبناء لب الإنسان، تحتاج هذه الأصوات لمن يصغي إليها ويمثل للحق فيها، تحتاج هذه الأصوات والأقلام لقراءة متأنية ولغة خطاب مفهومة، لتنهض بالعقول التي مورس عليها تجهيل قهري من المعلم أولاً ومن المنهج ثانياً ومن الإطار المحيط ثالثاً، تحتاج هذه العقول والقلوب لخطوات مدروسة تقتلع جذور تخلف العقل وتكسر الران المتكلس على القلب؛ ليسمو جيل بعد جيل حتى تشمخ الأمة وترسخ العلوم كل العلوم في النفوس فسنعلم بانصهار كل الاختصاصات العلمية المحضنة مع الفكر السماوي بمفهومه الصحيح.

وهنا تتبلور الرؤية المقاصدية في الحوار إذ أن من مقاصد الشارع ابتداءً، تأسيس الفرد على عقيدة سليمة دالة على الخالق، سبيلها الأدلة القطعية العقلية، التي وعها من أرسل بالرسالات وآمن من الأتباع، ليثبوا لمُرجِح أو مُزلزل أو مُهدم، محاورين ذائدين عن الحق، وفي هذا المنحى يقول الشاطبي: "قيض الله ناساً يناضلون عن دينه ويدفعون الشبه ببراهينه فنظروا في ملكوت السموات والأرض، واستعملوا الأفكار، وأذهبوا عن أنفسهم ما يشغلهم عن ذلك ليلاً ونهاراً، واتخذوا الخلوّة أنيساً وفازوا برهم جليساً، حتى نظروا إلى عجائب صنع الله في سماواته وأرضه، وهم العارفون من خلقهم والواقفون من أداء حقه، فإن عارض الدين الإسلام مُعارض أو جادل فيه خصم مناقض، غُبروا في وجهه شبهاته بالأدلة القاطعة. فهم جند الإسلام وحماة الدين"¹⁰¹.

لذا نرى موقف الشريعة عموماً مما يذهب العقل ويُغيّب أو يطلي القلب بالران ويغلفه، نراه موقفاً رافضاً محرماً لكل مخامر، والمقاصد خصوصاً تحارب كل ما يجرجر الفرد ويزحزحه من الفضيلة إلى الرذيلة، إذ أن المقاصد الشرعية لا ترفض المرض أو الوقوع فيه فقط، بل ترفض كل ما يؤدي إليه وتأخذ دور المعالج وتقديم العلاج،

فالمقاصد تطلب بناء الفرد البناء السليم وتدل على طريقة ذلك، وتبين المسلك الواضح المُمهّد الذي يبيّن الفرد والأسرة والمجتمع، تبدأ من الإنسان ببعث الإنسانية فيه، حتى يبيّن العلاقة المتينة مع خالقه، مطوّعاً غرائزه الهائجة مروضاً لها محققاً إياها بطريق شرعي سليم، ثم تنتقل المقاصد لتنشئ خلية جديدة في المجتمع ينتج أبناء يتمتعون بالصحة النفسية والقلبية والعقلية، بعد ذلك نجد هذا الفرد المرئي تربية مقاصدية، نجده لبنة ذات أسس في مجتمعه يقيّم المعوج ويرقي على أساس متين.

إذن المقاصد الشرعية ترفض كل ما يهدم اللب المفكر، تحارب سبب المرض وتقضي عليه مهما حَقُر أو عَظُم مسبب المرض، لتعالج المرضى بعد ذلك، فتنقلهم من سقم لفترة نقاهة ثم لعافاة في اللب والنفس والجسد، تبدل الوهن والضعف بقوة راسخة شامخة.

يقول بديع الزمان: "إن النفس الإنسانية تُفضّل درهماً من اللذة الحاضرة المعجّلة على رطل من اللذة الغائبة المؤجّلة، وهي تتحاشى صفة حاضرة أكثر من تحاشيها سنة من عذاب في المستقبل. وعندما تهيج أحاسيس الإنسان لا ترضخ لموازين العقل، بل الهوى هو الذي يتحكّم، فيرجح عندئذ لذة حاضرة ضئيلة جداً على ثواب عظيم في العقبى، ويتجنب ضيقاً جزئياً حاضراً أكثر من تجنبه عذاباً أليماً مؤجّلاً. ولما كانت الدوافع النفسية لا ترى المستقبل بل قد تنكره، وإن كان هناك حثاً لها من النفس وعوناً، فإن القلب والعقل اللذين هما محل الإيمان، يسكتان، فيغلبان على أمرهما. فلا يكون عندئذ ارتكاب الكبائر ناتجاً من عدم الإيمان، بل غلبة الهوى وسيطرة الوهم والحسّ المادي، وهزّام العقل والقلب وغلبة كل أولئك عليهما"¹⁰².

وقد يعتقد المرء أن الوسائل المادية هي فقط الخمر والمخدرات التي تدم اللب، ولكن في الحقيقة هناك وسائل مادية أخرى لا تقل خطورة عن الوسائل المحسوسة باليد مباشرة، وسأستدل ببعض من أي الذكر الحكيم:

1 - قال تعالى: [أرأيت من اتخذ إلهه هواه، فأنت تكون عليه وكَيْلاً] أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون] إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً [الفرقان: 43-44].

2 - قال عزّ وجل: [وهو الذي أنشأ جنّات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابهة كلوا من ثمره إذا أثمر] وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنّه لا يُحبّ المسرفين [الأنعام: 141].

3 - وقوله عزّ وجل: [يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنّه لا يُحبّ المسرفين] [الأعراف: 31].

آيات بينات محكمات تدل على المراد دلالة قطعية، [أرأيت من اتخذ إلهه هواه] هذا الذي هو أضل من الأنعام سبيلاً، غيَّب العقل تغيّباً كاملاً بدون مخدر يتناوله أو مسكر يشربه، إنما أجرى عملية انقلاب داخلي أدت لدمار إنسانيته، الله عزّ وجل وضع العقل موضع القيادة والرئاسة حتى يصل المرء به إلى الهداية، يهتدي بهذا العقل أولاً إلى موجد الوجود، ثم ينقاد هذا العقل بعد الإيمان لما أوحى به السماء عن طريق الأنبياء، مدركاً للنص فاهماً لأبعاده متفكراً فيه، مستنبطاً من مقاصده أحكاماً استجدت لحوادث حصلت، عوضاً عن هذا أقدم على تغييب العقل وترك زمام الأمور لرغباته، يشير عليه موسوسٌ من الإنس أو الجن يقوده قود النعاج، مُغلِقاً لأذن الرحمن مُقبلاً لما وهبه الله عندما حمل الأمانة - العقل - وكأنه منح أداة التفكير السليم استقالة مفتوحة، أو وضعه في غياهب سجن دامس، نرى هذا المتعدي على إنسانية الإنسان يرتكب الآثام ويقترف الذنوب، يقوم بما هو محرم من الأعمال من زني وأكل الأموال بغير حق عن طريق كسب غير مشروع، ويغني ويقتل، يُعمل لسانه فيما حُرِّم من القول كاللغو والغيبة والنميمة والكذب، وحلفُ الأيمان الكاذبة وشهادة الزور وكنتم شهادة الحق، والهمز واللمز والسخرية والليِّ والنجوى بالإثم، يحلل ويحرم كيفما يشاء، يطلي قلبه بران ثخين سميك حاجباً إياه عن كل مصدر نور رباني. أهذا الإنسان يعقل صالحه في دنياه أو في أخراه؟ كيف يعقل وقد اغتال العقل السليم فيه؟.

إنسان كهذا أضلّ من الأنعام ومن مستحقرات الحشرات، إذ هذه المخلوقات وإن منحت إلهاماً تسعى به لإملاء بطنها وتكاثرها ورعاية صغارها، إلا أنها تذكر ربها وتعرف سبل عبادتها، قال عز من قائل: [تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا] [الإسراء:44]، وهذا الإنسان همه طعامه وشرابه ولباسه وفرجه ناسياً أو متناسياً خالقه وشرعه، أليس أضلّ من الحيوان وحتى من الجماد؟ نعم هو أقل شأنًا منها، ولكن الله عزّ وجل يقول عن نفسه إنه حلِيمٌ وغفورٌ، يمد للمخطئ يد المغفرة عله يتوب. قوله تعالى: [ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين].

نزل الشرع لحفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، دالاً على تحقيق ذلك بكل السبل الممكنة مذكراً إيانا بقوله عزّ وجل: [رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ] [البقرة:201]، حسنة الدنيا هي لبناء الروح والجسد، العقل والقلب، النفس والهوى، المال والولد، لإعمار الأرض كل ذلك بما يوافق الشرع، وحسنة الآخرة الفوز بالمغفرة ورؤية وجهه تعالى أيًا كانت هذه الرؤية على اختلاف

أقوال المفسرين فيها، [وَجُوءٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ] [القيامة: 22-23]، ثم الدخول لجنّة عرضها السماوات والأرض.

أما عندما يتوجه الإنسان كما قال عزّ وجل: [فَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ] [البقرة: 200]. أي ليس لهم خير في الآخرة، هؤلاء الناس توجهوا لدنياهم بكلّيتهم همهم غرائزهم وطعامهم وشرايمهم وملبسهم، مبذرين مسرفين، يضعون أموالهم في غير موضعها، وينزلون عقولهم في غير منازلها، ومن يفعل ذلك ألا يُعَدُّ مَنْ غَيَّبُوا عقولهم وخامروها عن موائد العلم، أين عقل من فقد حب الله له؟ أين عقل من سعى لبغض الله له؟ هؤلاء الناس يقولون بلسانهم ربنا وفي قلوبهم دُنيانا، مَلَكُ حُبِّ الدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا العقول منهم والقلوب، نسوا الله فأَنَسَاهُمْ اللهُ أَنفُسَهُمْ، يتكالبون ويتناطحون على دنيا فانية.

نعم يعتبر هذا التوجه شبيهاً للخمر والمخدر في إذهاب العقل، لذا علينا أن نتيقظ من غفوتنا وأن نصحوّ على أنفسنا لنضع موازين الحق وننزل العقول منازلها، وإلا القهقرة مصيرنا، دنيا وآخرة.

إن ذرياتنا أمانة في أعناقنا إن أسأنا اختيار السكّن من الزوج ضيّعناهم منذ ولادتهم حتى كهولتهم، فما هم بارون لنا حين يكبرون، لأننا عققناهم قبل أن يهلوا، عققناهم في اختيار أب أو أم، ثم عققناهم بسوء تربية ومعشر وتنشئة، شوّهنا عقولهم ونفوسهم وفطرتهم، فأنحرفت أفكارهم وسلوكياتهم يوالون من حاد الله ورسوله، يتبعون خطا الشيطان، بعد ذلك نقول نريد جيلاً حامياً للدين والوطن، مرابطاً على حدود الدولة، مدافعاً عن مصالح الأمة، غيوراً على المال والعرض والدين، هيهات هيهات أن ينتج الشوك ورداً وينجب القرد بشراً، فإذا أردنا جيلاً صالحاً فلنرب آباءهم وأمهاهم، لنربي الجيل الناشئ على الأسس الصحيحة والتعاليم السامية المرسلّة من السماء، فشاباب اليوم آباء الغد وبناء الوطن، فبقدر رعايتنا له وحرصنا على بثّه الفكر القويم والسلوك السليم من خلال تربية إيمانية صحيحة، بقدر ما نربح جيلاً بناءً غيوراً على مصالح الأمة والوطن والدولة، فصناعة الرجال من أصعب وأعقد الصناعات على مر العصور.

سؤال يطرح نفسه : ما هو ميزان الانحراف للعقل والقلب وفقدان التوازن

بينهما؟

يقول بديع الزمان : " نعم إن السموّ والرقي الحقيقي إنما هو بتوجيه القلب، والسر، والروح، والعقل، وحتى الخيال وسائر القوى الممنوحة للإنسان، إلى الحياة الأبدية الباقية، واشتغال كل منها بما يخصّها ويناسبها من وظائف العبودية. أما ما بتوهمه أهل الضلالة

من الانغماس في تفاهات الحياة والتلذذ بملذاتها الهابطة والانكباب على جزئيات لذاتها الفانية دون الالتفات إلى جمال الكليات ولذا ائذها الباقية الخالدة مسخرين القلب والعقل وسائر اللطائف الإنسانية تحت إمرة النفس الأمارة بالسوء وتسييرها جميعاً لخدمتها، فإن هذا لا يعني رقياً قط، بل هو سقوط وهبوط وانحطاط”¹⁰³. ويقول أيضاً: ”ثلثي لمة الشيطان - التي هي على القلب - كلاماً لا يليق بجلال الله سبحانه وتعالى. فيظن صاحبه أن قلبه هو الذي فسَد فصدر عنه هذا الكلام، فيضطرب ويتألم. والحال أن اضطرابه وخوفه وعدم رضاه دليل على أن تلك الكلمات لم تكن صادرة من قلبه، وإنما هي من اللمة الشيطانية، أو أن الشيطان يخيلها إليه ويذكره بها”¹⁰⁴.

أقول: إن الميزان لأي انحراف مقياسه التعاليم الشرعية المستمدة من القرآن والسنة بمفهومهما الصحيح. مثلاً: أركان الإيمان والإسلام معروفة لا خلاف عليها من حيث هي ثوابت، فالذي يقول بلسانه أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وهذه الكلمة لم تمس قلبه فهو انحراف عن المقصد الحقيقي لكلمة الحق هذه، إذ أننا نجد قلبه يقول مالا ينطق به لسانه، يتبين لنا هذا عندما نرى أن تصرفاته تقول بأن الهوى هو موجهه الأول، إذاً كيف يقول المرء لا إله إلا الله، ويقترح محارمه ولا يؤدي أوامره، ولا يريد أحد أن يقول إن هذا ليس انحرافاً عن تعاليم الشرع، نشاهد المرء يصلي وصلاته هذه يجب أن تحقق النتيجة المرجوة منها وهي الانتهاء عن الفحشاء والمنكر، وبسبب أنه لم يحقق المقصد من الصلاة أثناء تأديتها وهي صلته بالله وذكره إياه خلالها؛ لا ينتهي عما نُهي عنه. أليس هذا انحرافاً عن المقصد من الصلاة؟ وهكذا باقي العبادات وفي العادات والمعاملات سواء كانت مادية أو غيرها، لا يحقق العدل وهو أدنى درجات التعامل فيما بين الناس، أليس هذا انحرافاً؟ ينتفي فيه العدل مع نفسه، إذ يظلمها إن لم يُقم حدود الله عندها، وتكون نتيجة ما اقترفت يده أن يُكبَّ على وجهه في عذاب الحريق. يُسقط العدل مع الغير بسوء استقباله، وببخله على ضيفه، وبالغيبة والنميمة، وبالكذب واللغو، بالهمز واللمز وغير ذلك كثير، فإن كان المرء يبني فكره على أساس الأنا، ويطلع سلوكه على ركيزة الهوى، ألا يعدّ هذا انحرافاً؟ فأى سلوك ينافي الأخلاق القويمة هو انحراف، وأي فكر يزحزح صاحبه عن الحق والصواب هو انحراف. غياب الفهم الصحيح للنصوص وفقدان المرء المعلم الوارث لعلوم النبوة والرسالة، سبب قوي من أسباب الانحطاط الفكري والسلوكي. وفي هذا الصدد أودّ أن أعزو انحراف الشباب إلى النقاط التالية:

- 1 - فقدان المعلم المربي وندرة المربي المعلم، مما أدى إلى ضعف التشبث بوحى السماء وانعدامه عند الكثيرين، وبالتالي فقدان أسس بناء الأسرة التربوية تربية إيمانية، مما أوجد طفلاً ضائعاً مُتَشَرِّدَ العقل والهوية والمبدأ حتى أصبح شاباً، وهنا يصدق قول الله عز وجل عليه: [وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ] [النافقون: 4].
- 2 - سهولة تناول اليد لكل هدام من كتب وأفلام بأسعار زهيدة أو مجانية، وفي المقابل ارتفاع ثمن الكتب القيّمة بشكل يُثقل كاهل الفرد المحدود الدخل، فلا يقدر أن ينمي فكراً بناءً وعقلاً حكيماً وقلباً سليماً.
- 3 - تفشي اللامبالاة في تربية الأفراد عند ذويهم والمسؤولين عنهم في الأسر والمؤسسات، إلا ضمن حدود ضيقة، بالإضافة إلى شيوع الأفلام المتحركة للأطفال ذات الطابع الغرائزي أو الإجرامي أو الخيالي المفرط، مما يؤدي تشويه ميولهم واهتماماتهم وتعلقهم بمحقرات الأمور.
- 4 - التفنن في اغتيال الوقت وإضاعته بالترهات بأسماء متعددة كتنمية المواهب، أو جذب المشاهد للشاشة الصغيرة التي تعرض ما هبّ ودبّ، مما ينتج أفكاراً هدامة موجهة من كل هادم في الخارج أو الداخل سواء كان هذا عن طريق الكلمة المسموعة أو المقروءة، أو المشاهدة.
- 5 - سهولة الحصول على ما يذهب العقل من كل ما هو مادي كالمسكر والمخدر، أو معنوي كشيوع الأغاني المسفة بالأخلاق والمحرقة لكوامن المشاعر والغرائز، وجعل ذويها مضرب المثل الأعلى للشبان والفتيات عن طريق قوة الدعاية والانتشار السريع، مما يسهل الانحلال الأخلاقي والجنسي، بل تفشي تجارة الدعارة ودواعي التفسخ بجميع أنواعه واتجاهاته.
- 6 - المتاجرة باسم الحرية لدفع الإنسان إلى الفردية والانسلاخ عن مضمون الأسرة الجامعة، ففوق المراء في شباك الأنا والهوى، والشعور بالانتماء الحقيقي للدين والوطن والدولة والملة، بسبب افتقاد النهج الصحيح، مما يُنتج رفضاً لتحمل المسؤولية، والانفلات والتسيّب وعدم ضبط السلوك.
- 7 - عدم واقعية الآمال والأهداف، مع وجود عوائق وصعوبات في تحقيق المراد من الحد المطلوب للعيش بكرامة وشرف، مع الشعور بأن هذا من المستحيلات، مما أدى إلى ارتباط الآمال بالسفر والمهجرة لتحقيق الذات، لضعف نيل الفرص على أساس الكفاءات،

وعند سفرهم ييهرهم تقدم الآلة ويسحقهم تخلف القيم الإنسانية، مما يفقدتهم التوازن بين الموروث والدخيل، فيغدون إما متعصبين أو متسيبين منحلين.

وخلاصة ما سبق ذكره أقول: إن المقاصد الشرعية حثت على بناء العقل بناءً متراصاً سليماً عن طريق التعلم والحوار للوصول إلى قناعة، يسير المرء من خلالها يبني نفسه ومجتمعه، بل يبني للإنسانية جمعاء، وحرمت المقاصد الشرعية السعي لهدم أو بث كل ما يُحرف الإنسان عن جادة الصواب، بل دعت لتقويم الانحراف أيّاً كان نوعه من أجل صحة الإنسان من الداخل والخارج، صحة النفس والجسد، صحة القلب والعقل، صحة الفرد والأسرة والمجتمع، قال تعالى: {وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [التوبة: 105]. فمن سلك سبيل إعمال العقل ليصل إلى بناء لب سليم وجسم قوي وروح متصلة بالله، بمعنى أنه يبني بداخله إنسان يحقق إنسانية الإنسان وسعادته الحقيقية العاجلة والآجلة؛ نعم إنسان هذا حاله سيرفع أي أذى مما استصغر عن نفسه وعن غيره مخلصاً لله في ذلك، ورفع الأذى هذا يدل على إعمال العقل والتمييز بما هو ضرر عما هو نافع، فإن لم يسلك الإنسان سبيل ربه فسيجلب الأذى لنفسه أولاً ثم لغيره ثانياً، على أقل تقدير سيؤذي من هم مسؤول عنهم بعدم إرشادهم للحق، أو أنه سيؤذي إطاره بجهله وعدم نصحه وكف عونه للآخرين وإسماعهم ما لا يجب أن يسمعه. يقول بديع الزمان: “فالقلب المظلم الخالي من الرحمة يرى الكائنات باكية قبيحة تتمزق بين مخالب الظلم وتقلب في خضم الظلمات. بينما لو أبصرها ببصر الإيمان يجدها على صورة إنسان كبير متسربل بسبعين ألف حلة قشبية مخيطة بالرحمات والخيرات والحكم، بعضها فوق بعض كأنها حورية من الجنة لبست سبعين حلة من حللها. ويجدها باسمه دوماً بالرحمة ضاحكة مستبشرة. ويشاهد نوع الإنسان الذي فيه كوناً مصغراً، وكل إنسان عالماً أصغر، فيقول من أعماق قلبه وروحه: [الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ]”¹⁰⁵.

يوجد آيات وأحاديث تبلغ الكثرة الكثيرة، تدل على وجوب بناء اللب والحفاظ عليه دون أن تتلف بذلك، لكن يجب علينا أن نعمل عقولنا لفهم شرعنا، لفهمهم ونفهمهم أن آخر الرسائل السماوية حثت على بناء الفرد وحضارته وعلومه بشتى ميادينها، تُعرف المسلم وغير المسلم أن تعاليم الإسلام صالحة لكل زمان ومكان، نبين له أنها أقوم طريق يسلكه إنسان يهدف إلى أن يحيى بسلام مع نفسه وربه ومجتمعه.

الطرق السليمة لتربية اللب في الإسلام :

تمهيد :

كتب الفقه وأصوله تتحدث عن العقل كموقع لأهلية التكليف، وبقية كتب علوم الشريعة التخصصية تتناول موضوع العقل عرضاً على الغالب في كلامها، ومن يتطرق لموضوع التربية يتوجه إما إلى التربية الإيمانية أو النفسية أو الجسدية، أما تربية العقل فالحديث عنها وصفي في الكثير الغالب، وما أريد بحثه الآن المنهجية العلمية الواجب إتباعها- كما أرى - لبناء عقل مربي ومزكى إيماناً نربي العقل قبل تكوينه وأثناءه وبعده، نعه لأن يكون تربة صالحة لبذرة الإيمان؛ كي تزرع هذه البذرة وترعى الرعاية اللازمة؛ لينتج هذا العقل المؤمن المتحد مع القلب المستقبل لنور الله تعالى؛ كي ينتج هذا اللب بصائر الفكر الإسلامي الوضاعة المستنيرة بنور تعاليم الله تعالى وسنة رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم .

لكن إن أهمل بناء الإنسان عموماً وبناء اللب خصوصاً، عندها نجد قلباً مغلفاً بالران وعقلاً خبيثاً ماكرًا، سنواجه حينها حيواناً مفترساً بقلب آدمي، يقوده هوى شيطانيّ وعقل تابع ذليل للغرائز، القلب أقسى من الحجر يتناغم ويتوافق مع هوى ذي عقل دوني، قال تعالى: "ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ" [البقرة: 74] .

لهذا إن أردنا أن نرى الإنسانية في الإنسان ونزحزح حيوانيته ونغنيها ونحقق سعادته التامة، علينا تربية عقله من منبع مقاصدي على يد عارف بالله عالم بمقاصده ومقاصد شرعه، عند ذلك ينقاد هذا العقل المربي إيمانياً ومقاصدياً للحق والحقيقة، يُدع بالفهم والإدراك والاستنباط والاجتهاد.

الطرق السليمة لتربية اللب وفق مقاصد الشريعة :

يقول الله عزّ وجل: "الم. ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ. أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" [البقرة: 1-5] .

المتبصر بالآيات يجد أربع ارتكازات لها وهي:

أولاً: أن القرآن الكريم حق لا لبس ولا شك ولا تعارض ولا اضطراب فيه، بل تدبر وإعمال للعقل يوصل إلى البُغية والمقصد.

ثانياً: البحث وإعمال العقل والنظر فيما غاب عنا من أنباء السماء وأخبار الأولين والتعرف على السنن الإلهية، يؤدي كل ذلك إلى الوصول إلى قناعة تامة بالله الأحد.

ثالثاً: ترسيخ القناعة العقلية التامة في الخالق، يؤدي إلى اليقين وإتباع شرع الله سبحانه وتعالى الذي أوحى به إلى نبيه المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم ، أي إلى الهداية التامة، يمتثل المؤمن بما أمر به وينتهي عما نُهي عنه.

رابعاً: هؤلاء الذين آمنوا عقلاً بعد تفكير وتدبر وأصبح إيمانهم يقينياً، تغدو تعاليم الله عزّ وجل مصابيح هدى لهم تهديهم سبل الطريق القويم، هؤلاء سيفلحون دنيا وآخرة إن شاء الله.

من الارتكازات السالفة للآيات السابقة أنطلق لما أريد قوله :

بين الله جلّ جلاله الطريق السليم لتربية العقل وفق مقاصد الشرع، بأن يقف الإنسان العاقل المدرك يتفكر في خلق السماوات والأرض، يتدبر الآيات الكونية، يتبصر في مخلوقات الله جلّ جلاله وفي نفسه - كل حسب قدرته - ليصل إلى قناعة تامة إلى أن ما يتفكر به ويتدبره ويتبصر فيه، إنما من خلق خالق واحد أحد، يسترشد بالسّنن الإلهية، كونية كانت أو إنسانية، ليتحول هذا المزيج البحثي، العيني والغبي إلى يقين قلبي يتوحد بعده مركز التفكير وهو العقل، ومنبت اليقين وهو القلب ليصبحا عند الإنسان لباً موحد الاتجاه؛ لبناء سعادة الدارين، دار الفناء في دنياه ودار الآخرة في أخرها.

إذن من وظائف الإنسان أن يصل للإيمان اليقيني ثم يزرع بذرة اليقين هذه التي سقطت من العقل، يغرستها بالمنبت المهيأ لها في تربة صالحة لنموها، وهنا عليه أن يتوجه إلى معلم مربّي ومزكّي، إلى وارث محمدي حتى يرعى هذه البذرة وينميها، يفهمه ما استعصي على لّبّه و يُشربه ما عَسُر عليه. يقول بديع الزمان: "نعم ، إذا ما راجع مريض مهندساً بدلاً من طبيب، ظناً منه أن الطب كالمهندسة. وأخذ بوصفة المهندس، فقد أخذ لنفسه تقريراً بنقله إلى مستشفى مقبرة الفناء، وعزّى أقرباءه. وكذلك مراجعة أحكام الماديين في المعنويات التي هي الحقائق المحضة والمجردات الصرفة واستشارة آرائهم وأفكارهم، تعني الإعلان عن سكتة القلب الذي هو اللطيفة الربانية، وعن سكرات العقل الذي هو الجوهر النوراني"¹⁰⁶.

الخطوات الإجرائية المقترحة لتربية اللب وفق الرؤية الإسلامية المقاصدية من قبل الولادة حتى الوفاة :

ابتداءً يجب أن نفرق في التربية بين تربية اللب لمن هو أهل للتكليف حمل مسؤولية نفسه، أو نفسه وغيره، وبين من هم ليسوا أهلاً للتكليف وذلك قبل الولادة أو بعدها:

أولاً : تربية اللب لمن ليس أهلاً للتكليف وفق المقاصد الشرعية :

الوصول لما نهدف إليه يحتم علينا البدء بتربية الوالدين قبل ولدهما، وذلك بتعليمهما من خلال منهجية الخالق وتركيتهما التركيبية القرآنية، ولا مانع هنا من إنشاء دورات تُعلم الشاب والفتاة آلية نجاح الزواج وتربية الأطفال وسبل التغلب على المصاعب والمشكلات وكيفية التعامل معها، فالمدارس أو الدورات التأهيلية الإجبارية الموجودة في كثير من البلدان لقيادة الآليات كالسيارات مثلاً، أقل أهمية من الدورات التي أقترحها ولا حاجة للمقارنة بينهما.

آ - من قبل الحمل حتى الولادة:

يجب أن يكون أساس اختيار الشريك لشريكه أساساً دينياً إيمانياً، ويُعرف عمق الأساس من السلوك الظاهر مع سبر الأغوار الداخلية، للوقوف على المفاهيم والأفكار التي يحملها كل منهما بطياته ومدى التزامه بها، فالبيئة والعامل الوراثي لهما الأثر البالغ على الأبناء، لذا علينا توفير المسكن الملائم ما استطعنا.

بعد الزواج يُبدأ كل لقاء جسدي بين الزوجين بالتعوذ من الشيطان والبسملة، كما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

نحقق الصحة النفسية والجسدية للجنين، بسلامة صحة الأم النفسية، وذلك بتجنبها المؤثرات والانفعالات المفاجئة، مع تغذيتها الغذاء الصحي اللازم ومتابعة الرعاية الصحية لكليهما.

نُسمع الجنين ما أمرنا الشرع أن نسمعه أو نتحدث به، ونجنبه سماع ما نُهينا عنه.

ب - من الولادة حتى سن التكليف:

1 - عند ولادة الجنين نقوم بما يلزم له، كما نصّت عليه شريعتنا السمحة، من آذان بأذنه اليمنى وإقامة بأذنه اليسرى، واختيار اسم لائق وحسن له، وحلق شعره وذبح العقيقة، وأثر هذا مشترك بين الوليد وأهله والمجتمع.

يجب أن يعطى الطفل حقه من الرعاية الغذائية والصحية من نظافة وطبابة.

يمنح الطفل حقه من اللعب المشروع بحرية مطلقة، مع المراقبة لما يقوم به التدخل في اللحظة المناسبة، وهذا الأمر يساعد على بناء شخصيته المستقلة .

نحرص على إسماع الطفل من قبل أن يدرك معاني الكلمات، ذكر الله جلّ جلاله عند الطعام والشراب، مع ترغيبه عند قدرة السير على القيام بعبادة الصلاة تقليداً لنا بالشكل الذي يجذبه، لترسخ بذهنه شيئاً فشيئاً عادات يعتادها من صغره حتى يعقل.

نبدأ معه عملية الإرشاد والتأديب عند قدرته على الإدراك، نستمع إليه ونحاوِرُه ونمنحهُ فرصة محاكاة الأمور وفق ما يراها، لنبني له شخصيته المستقلة القادرة على القيادة والانقياد بتعقل وحكمة، على قدر إمكانية استيعابه، وبذلك نشرع مع الطفل بعملية التلقين لما يجب أن نغرسه بنفسه، ونعلمه إياه من أسس الدين القويم والتربية العقلية والقلبية والنفسية والجسدية، ليزكوا عقله وتربوا مداركه مصهوراً بفضائل الأخلاق، مع تجنب القسوة التي تؤدي إلى ضعف الشخصية.

نحب للطفل التعلم ونوجهه له مع تشجيعه على السؤال وعدم الحياء منه، ونتبع لذلك السرد القصصي والتكرار، ثم الاستماع له ليروي أو يعيد ما بقي بذاكرته، حتى يتدرب على طلاقة اللسان والحوار، ولتعميق هذا الاتجاه عنده نتبع معه وسيلة الثواب والعقاب.

نختار له مدرسة فيها تلقيح بين العلوم الدينية والدنيوية، إذ لا بد من هذا التطعيم في العلوم حتى تهذب نفسه وتنمو مداركه العقلية، كي نراعي ميوله وتركيزه، وهذا يتطلب اختياراً دقيقاً لمناهج التعليم، فقد بيدع في العلوم البحتة أو المهن الحرة، نشجعه على ذلك مع تربيته تربية إيمانية قوية، فالجتمتع بحاجة لكل الاختصاصات، من أجل شموخ حضارته.

الاعتناء باختيار المعلم المربي، لأن الطفل كالعجينة بين يديه يستطيع أن يُطَبَّعَ كيفما يشاء، بالإضافة لأخذ الطفل كلام معلمه وكأنه مُنزل مُقَدَّس، وخصوصاً بمراحل التعليم الأولى، لذا علينا أن نربي المعلم تربية تليق بمن يصنع رجال المستقبل وقواده. تشجيع الطفل على إطلاق العنان لعملية إعمال العقل والتفكير ضمن دائرة الشرع، كي يرفض التقليد الأعمى والتبعية من غير دليل فيما بعد.

تشجيع الطفل المميز على القراءة، مع مراقبة ما يقرأه الطفل مراقبة جيدة، وإرشاده إلى قصص إسلامية من وحي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وتاريخ الصحابة. معرفة الأهالي لأصحاب ورفقاء أبنائهم عن كثب، والتدخل وقت اللزوم مع ترشيدهم لعملية الاختيار، وبهذا نحجب السيئ بكل ما فيه من تضليل لعقولهم ونربطهم بالجد عقلًا ودينًا وخلقًا من الأصحاب.

حجب ما يفسد العقل والقلب والنفس والجسد عنهم، سواء كان المفسد معنويًا أو ماديًا، ويدخل في هذا وسائل الإعلام الإذاعية والمرئية، فالغالب فيها اليوم هادم يدس السم في الدسم، وهذا لا يعني لفظ لغة العصر بل يعني حسن الاختيار.

نوجههم لتعلم لغة أجنبية وإتقانها ثم الانتقال لغيرها، مع تعليمهم لغة العصر كلغة معالجة الحاسب - الكمبيوتر و الإنترنت - حتى يمتلكوا بالإضافة للعلم والعقل الحكيم لغة تعينهم في عملهم الدعوي من مواقعهم.

عند وصول الطفل المميز لسن تقارب الحلم وانتقاله من مرحلة الطفولة إلى مرحلة جديدة من بداية الشباب، يجب على الوالد أو الوالدة إعلام أبنائهم طبيعة ما سيطرأ لهم من تغييرات فيزيولوجية عند البلوغ، مع إبلاغهم حقيقة العلاقة الجسدية بين الرجل والمرأة بمنهجية شرعية تضمن سلامة توجه عقولهم نحو الغرائز الإنسانية، مع تعليمهم كل الأحكام المتعلقة بهذه القضايا؛ كي لا يكتسبوا علمهم عن العلاقة بين الذكر والأنثى ممن ليس أهلاً للتعليم، فيوجه غرائزهم بشكل حيواني مما يسيء حتماً إلى طبيعة تفكيرهم، وفي هذه المرحلة لا بد من اختيار اللباس الشرعي الكامل.

إن عرضت لهم مشكلة عارضة يجب الاستماع إليها، لتحديد أسباب ودوافع المشكلة؛ كي نختار الحلول المناسبة بناء على الأسباب والدوافع، مع إظهار العقبات المتوقعة التي ستعيق الوصول للحلول المفترضة، ومن ثم يترتب علينا تعيين الطرق المثلى لتذليل هذه العقبات حتى نصل للحل الإسلامي الأفضل، كل ذلك يتم من خلال أعمال عقولهم وإشراكهم باستنباط الحلول وإظهار العقبات وكيفية تذليلها وبهذا ندرهم صغاراً على المحاكاة العقلية، وعلى مناقشة الأمور وفق منهج الشريعة السمحة؛ ليتمسوا على هذا النهج كباراً ويكونوا قادرين على مواجهة ما يقف في طريقهم من أزمات. إعطائهم من المال ما يلزمهم ضمن الطاقة والقدرة، مع تعميق مبدأ القناعة بما في اليد، مع ضرورة تعليمهم حجب العين عما بيد غيرهم، إذ المال يُفسد من لا يعرف كيفية التصرف فيه بوجهه شرعية.

ثانياً : الطرق السليمة لتربية لب المكلف وفق المقاصد الشرعية :

يقترب المرء معاصي من كل الألوان والمراتب، يغيب عامل الوازع الداخلي عنده، ويجعل الهوى سيد الموقف، والأنا متحكمة تبعاً للمصلحة الشخصية، يصل لغاياته بشتى الوسائل المبررة، وقد نلقاه مصلياً لبعض الأوقات أو كلها مجافياً مقاصدها، يُعمل عقله فيما يريد من شهوات الدنيا، متناسياً أنه إنسان حَمَل الأمانة وهو ماثل بين يدي خالقه، متغافلاً أن إنسانية الإنسان فيه يجب أن تُرى وتُلمس وتُمارس، لهذا نرى كثيراً من الصور الآدمية تُخفي خلفها الحقيقة الوحشية لصاحبها.

إذن كيف السبيل إلى بناء مثل هذا الخراب الداخلي لأشياء الإنسان؟ كيف السبيل إلى ترميم إنسان تائب؟ ما هي الطرق السليمة لتربية هذه العقول انطلاقاً من مقاصد الشريعة؟.

لا بد من مقدمة لهذه التساؤلات، ثم التقاف الجواب من الخطوات المقترحة: سمة العلم الراسخ أوضحها قوله تعالى: [حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ] [المذثر: 47]، ولتحصيله طرق ثلاثة على الترتيب:

البحث والنظر والتدبر والتفكير، وهذا ما ندعوه بعلم اليقين، كما قال الله تعالى في ذكره الكريم: [كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ] [التكاثر: 5]، وعند الانتهاء من هذه الخطوة نرى المرء يقف عند أول طريق الصلة بالله تبارك وتعالى، إن اهتدى للصواب، وإلا ضل على علم.

الرؤية من خلال البصيرة، وهذا حق اليقين، وبمثل هذه الخطوة قوله العزيز: [إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ] [الواقعة: 95]، [وَإِنَّهُ لِحَقُّ الْيَقِينِ] [الحاقة: 51]، وهذه الخطوة تضع المرء المهتدي في طريق الصلة بالله عز وجل، وتقدر قوة هذه الصلة بمقدار التقرب من الله تعالى، للمؤمن في حياته قبل وفاته، ولغير المؤمن إثر موته، إذك يعلم أن ما لم يصدقه أثناء حياته إنما هو حق قطعي الثبوت. يقول بديع الزمان: "إن القلب مستقر الإيمان، بينما الدماغ مرآة لنوره، وقد يكون مجاهداً وقد يزاول كنس الشبهات وأدران الأوهام. فإن لم تدخل الشبهات التي في الدماغ - كما هو ظن البعض - فالاحتمالات الكثيرة والشكوك تصبح أعداء ألداء لروح الإيمان الذي هو حق اليقين. إن القلب والوجدان محل الإيمان. والحدس والإلهام دليل الإيمان. وحس سادس طريق الإيمان. والفكر والدماغ حارس الإيمان"¹⁰⁷.

المشاهدة العينية التي لا يدخلها أدنى شك، وهذا عين اليقين، وشاهد ذلك قوله تعالى: [ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ] [التكاثر: 7]، وهذه الدرجة سيشارك بها جميع الناس في الآخرة، مع فرق شاسع بين مكانة المؤمن الحقيقي المتصل بالخالق سبحانه وتعالى وبين غيره، ففي يوم الحساب سيشهد كل الناس بعثهم من جديد وحساب المبدع لهم، أما في حياة الفناء فسيرقى وارث علم رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذه الدرجة. ويقول بديع الزمان مصدقاً لكلام الله تعالى: "إن القرآن الكريم... يمينه: تسليم القلب والوجدان بالتجربة.. يساره: تسخير العقل والإذعان بعين اليقين..."¹⁰⁸.

لذا أقول:

الإنسان مطالب باتباع هذا السبيل للوصول إلى السلامة في الدارين، كل على قدر إمكانياته العقلية والذهنية، فإن قصر مقصر فيما يتوجب فعله، سيلاقي حسابه مندرجاً في قانون إلهي منصوص عليه بقوله تعالى: [لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ] [البقرة: 286]، ومعلوم أن الوسع هو ما يطيقه الإنسان ويستطيعه بالضبط، بغير زيادة أو نقصان لقدراته الذهنية؛ كي ينجو من مؤاخذه الله العالم لما أبدع وخلق، فمثلاً من يتمكن من حمل عشرة أرتال يتوجب عليه حملها، لأنها في وسعه، أما إن طُفّف وأنقص فالحساب عليه واقع، وشدّته بقدر ما طُفّف.

لذا عندما يحاسبنا من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور على قدر الإمكانية العقلية الباحثة والمفكرة التي وهبها لنا، يُقسط وما ظلمنا في شيء.

ولأن القلم جرى على المكلف، ولأن الحكيم العليم بيّن لنا مسلك بناء اللبّ السليم الذي نرقى به إلى اليقين، أوجب علينا إعمال العقل بالنظر العيني والفكري للتوصل إلى الإيمان تبعاً للمقاصد، أو الانزلاق للإلحاد - والعياذ بالله - مع تبيين الدليل القاطع لمن يدعيه، تماشياً مع المنهجية العلمية القرآنية القائلة: [أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلِهَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] [النمل: 64]، وقد يكون هذا الإله هو النفس كما ذكر الله تعالى: [أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ] [الفرقان: 43]، لذا مَنْ دَرَبَ دَرَبَ الْكَافِرِينَ سِيرَى بِعَقْلِهِ وَعَيْنِهِ مَا كَفَرَ بِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ وَبَعَثَهُ يَوْمَ النَّشُورِ، حينها يوقن بالحق الواحد الأحد ويقول لو أن الذي كان ما كان، وجميعنا عبيد لله عزّ وجل طوعاً أو كرهاً، والعامل من اتعظ بغيره، وتوقّف عند قوله تعالى: [وَلِلَّهِ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه ففنا عذاب النار] [آل عمران: 189-191]، آية جامعة توضّح في سياقها انصهار إيمان الإنسان بالغيبيات مقروناً بالحسيّات، المعتمد على تشغيل أداة التّفكّر عند من أراد أن يتعقّل؛ حتى يهتدي حقّ الهداية وينتقل إلى اليقين الذي يجعل صاحبه متصلاً بالله عن طريق لبّ دائم الذكر له في كلّ حال، يتدرّج بين علم اليقين وحق اليقين وعين اليقين، في دنياه قبل أخرها، يتبصّر في منهج ذي وضع إلهي مرصّع بلائى مقاصديّة، يخلب الأبواب قبل الأبصار، لكل باحث جاد عن سلامة البناء للفرد والأمة؛ كي يسعد الإنسان ويحيى بسلام، بينه وبين نفسه وخالقه وإطاره سواءً أكان الإطار الأسرة أم المجتمع.

الخطوات المقاصدية المقترحة لتربية و بناء لب المكلف :

1 - يجب على المرء أن يقف مع نفسه ويسألها إلى أين المبتغى؟ ما هو المراد من الحياة؟ ولكي تكون الإجابة صادقة لا بد من شرارة قادحة من ناصح أهل للنصيحة، وهنا الدور يشترك به الفرد مع المذكر أو المعلم الناصح، فالحوار البنّاء له اليد الطولى في ترسيخ أسس بناء متراس، خاصة إن كان مستنداً لب متعلم وحكيم، مُربي ومُزكى قرآنياً، واسع الخبرة في جلب أذن المستمع إليه بتنظيم دقيق، يُحدثه فيما يُرغبه للاستماع إليه، وعمل المتلقي لا يقل أهمية عما يقوم به المعلم، إذ عليه معالجة ما تلقاه والتفكير به بعقلانية المحاكمة المنصفة للأصلح، يوازن بين ما سمع وبين ما هو عليه، حتى يأتي قراره من منبع مصلحة شخصية بعيدة المدى، ينال معها لذة دائمة، في حاله ومآله، كي لا يكون كمن يبي على الماء.

2- الزرع لا يُسقى بالتلفظ، لذا علينا انتقاء المُربِّ المعلم، يبي العقل ويُزكي النفس، وهو أمر ليس باليسير. و لأنَّ الرُسوخ ثباتٌ والقصد يُسعى إليه، على المتعلم ملازمة معلمه ومربيّه ما استطاع لذلك سبيلاً؛ كي ينتفع منه قدر الإمكان، مثلما فعل الصحابة الكرام والتابعين رضي الله عنهم أجمعين.

معلوم أن مصاحبة الأخيار غنيمة، والأصحاب ميزان للمرء ومرآته، لذا عليه اختيارهم على أسس المنهج الشرعي؛ ليشدوا من أزره ويقوموا اعوجاج حاله ويُسدوا النَّصح عند احتياجه، ينطلق من مبدأ أساسه أن الفرد للجماعة كي يرى ويلبس تفاني الجماعة للفرد.

أن يُقلع عما يؤدي إلى الشذوذ والانحراف والاضطراب والأسقام النفسية، لأن افتقاد العوامل التي توصل إلى السلامة الداخلية للإنسان، تؤدي إلى حركة وتفاعل داخلي مرضي يُشتت المرء ويمزقه، وهنا نرى أثر نظرية المجتمع للممنوعات الشرعية، لأنها تساهم في زيادة الأمراض النفسية والاجتماعية أو تخفيفها، إذ العوامل البيئية والنفسية والروحية والعقلية المتخلخلة والمتنافرة، تحتم حركة مدّ وجذر داخلي مع فقدان للتوازن والآثران.

6 - الاستفادة من الوقت، إذ الفراغ قاتل والزمن لمن يتمكن منه، يغتنم كل ثانية لحظة من ساعات يومه، فما يضيع فائت لن يعود، ومن سبل ذلك استخدامه الوسائل العلمية الحديثة والمتطورة كالحاسب والإنترنت، أو الإذاعة المرئية والمسموعة، مما يُسمح به شرعاً بما ينمي به العلم النَّافع والمعرفة المفيدة، أو أن المرء يشرع بالدراسة والمطالعة

الجادة، مبتدئاً بالكتب التي ترسخ العقيدة، ثم الكتب التي توضح سيرة نبي الأمة عليه الصلاة والسلام، مع حفظ ما تيسر من كتاب الله تعالى وأحاديث رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم، ثم يتناول نخبة من كتب الفكر الإسلامي التي تعرض إشكاليات عصرية واقعية وتسعفها بحلول مناسبة، تكون هذه الكتب لمؤلفين مرموقين اللب اشتهروا بتميزهم.

عدم الحياء من بدء التعلّم والسؤال عما يجهل، وإن بلغ من العمر عتياً، فالعيب بالجهل والرضا به لا يجلوس متعلم بين يديّ العلم والصبر عليه، وتتمّ الفائدة المرجوة بركاة العلم وإنفاقه عن طريق تعليم ما يتعلّمه المتعلم، مما يعطيه ملكة الحوار مع الآخرين، ويساعد هذه الخصلة الحميدة طرح قضية أو إشكالية جادة ثم معالجتها، بوضع سبل حلّها بمنهجية مقاصدية سليمة.

التشمير عن السواعد وشحذ الإرادة للهمم العالية والترفع عن الصغائر، فالإرادة والتصميم تحرقان الفولاذ، واليأس يهدم شوامخ الأعمال وعظائمها، لهذا يجب وضع الآية الكريمة التالية نصب الأعين: [ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون] [يوسف: 87]، ينطلق الفرد من مقاصدها فيما يودّ بناءه، كي يتم المراد. هذا ما أقترحه من خطوات عملية لإعادة هيكلة العقل المسلم، بشكل منهجيّ مقاصديّ، علّها تُسهّم في بعث الروح في جسد الأمة، وإيقاظها من سباتها الدماغيّ، وإعادة التنبّض لقلبها الصّدئ، واختراق القنوات السّميّة الموقّرة، وتكسير حواجز الأعين المطمسة، فتتحرك الأعضاء وتنشط الحواس جميعاً بما فيها الحاسة السادسة الحاملة، لذا تراني أضمّ قلمي وصوتي بل وكلّي إلى كل صادق يجتهد في البناء والنهوض، يقول تعالى: [فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو ربّ العرش العظيم] [التوبة: 129].

ختاماً أقول :

إن القرآن الكريم كتاب إلهي خاطب به الخالق الخلق، يحاكي عقولهم ويفند خواطنهم، يصف آفات عقولهم وأمراض قلوبهم وسقم نفوسهم وعلل ألسنتهم، ثم يضع لهم العلاج الشافي لجميع نقائصهم وتناقضاتهم، فمن أبي هلك وأهلك، هدم نفسه ومحيطه، وكان عوناً لأعداء الإنسانية علم أم لم يعلم، أما من امتثل لخطط العلاج وأقبل على الدواء استفاد وأفاد، يبني لبه المتحد من عقل حكيم وقلب مستنير بتوازن تام، وخير معين له بذلك اليوم، في ظل ندرة المعلم المربي أو غيابه، ما خطه بديع الزمان الإمام سعيد، كي يسعد بكلامه ويستلهم من نور رسائله نوراً لطريقه، فالقاصي والداني، العدو

والصديق، شاهد التوازن التام بين النقل واللب المتنور بنور أسماء الله الحسنى، جزاه الله عنا خير جزاء وأعانا على بذر بذوره، فالمتتبع لضياء قلمه وإشراقه فكره يرى الآتي :

أولاً : الفهم الدقيق لمساحة العقل وسعة القلب، وإعطاء كل منهما مكانته الصحيحة دون جور أو إجحاف لأحدهما على الآخر.

ثانياً : تأكيده على التوازن التام بين وظيفة العقل ودور القلب وامتلاك القوة المادية في بناء الفرد والأمة، منطلقاً من الفهم السليم للنصّ الشرعي في القرآن الكريم والسنة النبوية.

ثالثاً : وضع العقل الحق - وأقصد به اللب - في موقع الريادة لمسيرة الإنسان، محارباً في كثير من المواضع الهوى في فهم المنقول، مؤكداً على ضرورة الوعي المقاصدي للنصّ القرآني المتوافق مع الكليات والجزئيات الشرعية بتوازن تام.

رابعاً : انطلق بخطابه المقاصدي من النقطة المقاصدية الأولى من خلق الخالق الخلق، وهي تحقيق السعادة للإنسان في الدارين، أدرك بُعد ذلك فكرس حياته لتحقيق معنى الخلافة وحمل أمانة تبليغ كلمة التوحيد ونزع الأغيار من مستقبل الأنوار الإلهية؛ ليرقى بالعقل والقلب معا من الدونية المردية إلى سمو الصلة الحقيقية بالله عز وجل، مفيداً بذلك كل من وفقه الله تعالى لفهم القرآن الكريم من خلال رسائل النور.

خامساً : بديع الزمان رجل مقاصدي رمزي علامة نابغة، وازن بين النقل والعقل من منبع المقاصد الشرعية، ألف مؤلفاته التي عجنت بعلم المقاصد. هُضم حقه في العالم الإسلامي لعدم فهم لغته، فهي تحتاج لغوآص في المبنى والمعنى، مما أتعب الأستاذة المترجمين بنقل النص من لغته القومية لغيرها، فأثر ذلك في بعض الأحيان على سياق النص، كما أتعب بذات الوقت الدارس والباحث في مؤلفاته. وما ورد في كتاب "نثر الدر" يصدق عليه فقد ذكر فيه ما نصه: "قال بعضهم لأي تمام: لم لا تقول ما يفهم؟ فقال: لم لا تفهمون ما يقال" ¹⁰⁹.

حاول النهوض بالأمة الإسلامية من منبع مقاصدي رمزي، فأتى بالجديد بما خطه لمفهوم معالجة الآفات والأمراض البشرية الداخلية، يعتمد النص للاستقراء والاستدلال، مع ضرب المثال الذي يوحى بالفكرة، ثم يُنصبُّ العقل المجتهد كي يفهم ويستنتج ويستنبط من استقراء الأدلة بمنهجية مقاصدية رمزية.

وأختتم بحثي بشكر واقتراح:

جزى الله عز وجل خير جزاء القائمين على إحياء فكر بديع زمانه الإمام سعيد النورسي، على ما بذلوه ويذبلونه، من أجل تحريض بعث العلم في المعلم والمتعلم بمنهج

إلهي ونبوي، علم منقى من شوائب وترهات وأفكار تلطخت بها المسيرة الحضارية الإسلامية.

وحتى تتم الفائدة أرى أن نتعاقد جميعاً من أجل إخراج فكر عالم دَرَبَ درب الأول، أثبت بالدليل القاطع أنه الفكر الحق من عند الحق تبارك وتعالى، إخراج فكره من الدائرة الإقليمية الضيقة إلى الساحة العالمية الرحبة، من خلال نهج هادئ وحوار رائد بناءً وثورة بيضاء على كل ما يشوه الفطرة النقية، يُقام انقلاب على قيادة الأنا والهوى من خلال تقوية المحاكاة العقلية للحركة التفاعلية الداخلية للفرد والمجتمع؛ ليغدو اللب المنور بنور التعاليم السماوية مرشداً للمسيرة الإنسانية، فتذوب الذات في مرجل وحدة الصف الإسلامي، وهذا يحتاج لخطة مدروسة طويلة المدى ذات أفق واسع مدعومة بقوة علمية ومادية مع تضافر الجهود المخلصة التي تتمتع بنفس طويل وصبر لا يعرف الحدود.

لذا أقترح أن تبتثق من المؤتمر لجنة تُختار بعناية من السادة العلماء الحكماء من بلدان إسلامية متعددة، تكون في حالة انعقاد دائم مفتوح، تتابع ما قرّر وتُعلم المؤتمرين بآخر ما استجد، وتواكب أحدث الوسائل العلمية المتطورة في الاتصالات لسهولة التواصل مع العامة والخاصة بكل اللغات الحية، وحبذا أن يكون المقر الرئيسي في تركيا، وإن وجد بعد الدراسة ضرورة إنشاء فروع له في الأماكن الحيوية من العالم فلا بأس من القيام بذلك، مع الحرص الشديد على عدم التدخل في الشؤون السياسية الداخلية أو الخارجية لأي بلد كان، فوظيفتنا محددة ببعث الإسلام الصحيح في النفوس والعقول والقلوب كما نزل على قلب الأمين صلّى الله عليه وسلم؛ لإحياء روح الإنسانية في الإنسان وإرشاده سبل حمل أمانة تبليغ كلمة التوحيد وتحقيق خلافته الرشيدة في نفسه وأسرته ومجتمعه وأمتة والإنسانية جمعاء.

هكذا بدا لي التوازن بين العقل والقلب من منظور نور رسائل النور، فإن أصبت فمن الله سبحانه وتعالى وإن أخطأت فمن نفسي، وحسبي أن الله عزّ وجل وحده من وراء القصد، شكراً لكل من ساهم بإنجاح مؤتمرننا، بجهد أو مشاركة أو بكلمة بناءة.

وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

دليل المصادر و المراجع

أبو زائدة، عبد الفتاح أحمد، الوعي الفكري في الحضارة الإسلامية، صحيفة الدعوة الإسلامية (1990).

أبو يحيى، محمد حسن، أهداف التشريع الإسلامي، دار الفرقان، عمان، ط1 (1985).

- الآبي، أبو سعد منصور بن الحسين، من نثر الدر — السفر الأول، اختار النصوص وقدم لها وعلق عليها مظهر الحجي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط1 (1997).
- أرسطو، منطق أرسطو: الجزء الثاني "كتاب البرهان"، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1952.
- الأشعري، أبي الحسن، مقالات الإسلاميين في اختلاف المصلين، دار النشر فرانز شتايز، فيسبادن، 1980.
- الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، دار القلم والدار الشامية، الطبعة الأولى (1992).
- الأنباري، كمال الدين أبي البركات عبد الرحمن بن محمد، الداعي إلى الإسلام، دراسة وتحقيق سيد حسين باغجوان، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط1 (1988).
- ابن حزم، محمد علي (الأندلسي الظاهري)، الإحكام في أصول الأحكام، دار الحديث، ط1 (1984).
- ابن حزم، محمد علي (الأندلسي الظاهري)، الفصل في الملل والأهواء والنحل، دار منشورات عويدات، الطبعة الأولى (1982).
- ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ترجمة د. جميل صليبا، 1982.
- ابن داوود، عون المعبود "شرح سنن أبي داود" للعلامة أبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي مع شرح الحافظ ابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 (1990).
- ابن رشد، أبي الوليد محمد بن أحمد، كتاب فصل المقال ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، دار الشروق، بيروت، ط4.
- ابن رشد، أبي الوليد محمد بن أحمد، تلخيص منطق أرسطو، تحقيق جبرار جهامي، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1992.
- ابن زرعة، البرهان، تحقيق د. جبرار جهامي و د. رفيق العجم، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1994.
- ابن سينا، الإشارات والتنبيهات، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف بمصر، 1960.
- البخاري، فتح الباري "شرح صحيح البخاري" للإمام ابن حجر العسقلاني، تحقيق عبد العزيز بن باز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 (1990).
- البردوي، علاء الدين بن عبد العزيز بن أحمد البخاري، كشف الأسرار، دار الكتاب العربي، ط1 (1991).
- البردوي، محمد تقي مصباح، محاضرات في الأيديولوجيا المقارنة، الناشر منظمة الإعلام الإسلامي، مطبعة سلمان فارسي ط2.
- بن نبي، مالك، الظاهرة القرآنية، ت د. عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط4 (1987).
- بن نبي، مالك، القضايا الكبرى، دار الفكر، دمشق، ط1 (1991).
- بن نبي، مالك، المسلم في عالم الاقتصاد، دار الفكر، دمشق، ط3 (1987).
- بن نبي، مالك، بين الرشاد والتهيه، دار الفكر، دمشق، ط1 (1981).
- بن نبي، مالك، تأملات، دار الفكر، دمشق، ط5 (1991).
- بن نبي، مالك، شروط النهضة، ت أ. عمر كامل مسقاوي و د. عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط4 (1987).
- بن نبي، مالك، فكرة الأفريقية الأسيوية في ضوء مؤتمر باندونج، ت د. عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، (1981).
- بن نبي، مالك، في مهب المعركة، دار الفكر، دمشق، (1981).

300 • المؤتمر العالمي الخامس لبديع الزمان سعيد النورسي

- بن نبي، مالك، مشكلة الثقافة، ت. د. عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط4 (1984).
- بن نبي، مالك، ميلاد مجتمع "شبكة العلاقات الاجتماعية"، ت. د. عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط3 (1986).
- بن نبي، مالك، وجهة العالم الإسلامي، ت. د. عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط5 (1986).
- الترمذي، تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي للإمام المباركفوري، طبعة جديدة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 (1990).
- التفتازاني، شرح التلويح على التوضيح، دار الكتب العلمية، بدون.
- التهانوي، محمد علي الفاروقي، موسوعة كشاف مصطلحات الفنون والعلوم، مكتبة لبنان ناشرون، ط1 (1996).
- الجابري، محمد عابد، ابن رشد سيرة وفكر دراسة ونصوص، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت (1998).
- الجابري، محمد عابد، بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط4، بيروت (1992).
- الجابري، محمد عابد، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط5، بيروت (1991).
- جير، فريد، وغيره، موسوعة مصطلحات علم المنطق عند العرب، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1 (1996).
- جدعان، فهمي، أسس التقدم عند مفكري الإسلام، دار الشروق، عمان، ط3 جديدة ومعدلة (1988).
- الجرجاني، التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت (1985)، طبعة جديدة.
- الجوزو، محمد علي، مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة، دار العلم للملايين، بيروت، ط1 (1980).
- حينكة الميداني، عبد الرحمن، ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة (1988).
- جمرة، محمد، التآلف بين الفرق الإسلامية، دار قتيبة، الطبعة الأولى (1985).
- خالد، حسن، موقف الإسلام من الوثنية واليهودية والنصرانية، معهد الإنماء العربي، ط1 (1986).
- خياط، محمد جميل، المبادئ والقيم في التربية الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1996.
- الدباغ، فخر، غسل الدماغ، دار الطليعة، بيروت، طبعة منقحة ومزودة، آذار (1982).
- دُغيم، سميح، موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلامي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1 (1998).
- الدهينة، عبد الكريم، صراع بين النفس والعقل، المكتب الثقافي، القاهرة، ط1 (1989).
- ديكار، مقالة الطريقة، ترجمة د. جميل صليبا.
- الرازي، فخر الدين، محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين، تقديم وتعليق سميح دغيم، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1992.
- الركابي، الشيخ، نقد العقل الإسلامي، الحلقة الأولى، قراءة مفتوحة.
- زادة، طاش كبرى، موسوعة مصطلحات مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، تحقيق د. علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1 (1998).
- الزركشي، بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الشافعي، البحر المحيط في أصول الفقه، وزارة الأوقاف الإسلامية بالكويت ودار الصفوة بالگردقة، 1992.
- السرخسي، أصول السرخسي، دار المعرفة، بيروت، ط1 (1997).

- سعید، جودت، اقرأ وربك الأكرم، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط2(1993).
- سعید، جودت، الإنسان كلاً وعدلاً، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1(1993).
- سعید، جودت، العمل قدرة وإرادة، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط2(1993).
- سعید، جودت، حتى يغيروا ما بأنفسهم، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط7(1993).
- سعید، جودت، فقدان التوازن الاجتماعي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1(1993).
- جودت، مذهب ابن آدم الأول "مشكلة العنف في العمل الإسلامي"، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط5(1993).
- الشاطبي، الموافقات، دار المعرفة، توزيع عباس أحمد الباز، مكة المكرمة.
- الصباغ، محمد، قيمة العقل في الإسلام، مكتبة الزهراء، القاهرة، 1988.
- صبري، مصطفى، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2(1981).
- الصدر، محمد باقر، الأسس المنطقية للاستقراء، دار التعارف للمطبوعات، ط4 بيروت.
- صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982.
- طهناز، عبد الحميد محمود، أسباب حياة الأمم وسقوط الحضارات، السدار الشامية، بيروت، ودار القلم، دمشق، ط1(1992).
- العالم، يوسف حامد، المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، دار الحديث، القاهرة، والدار السودانية، الخرطوم، بدون .
- عبد الجبار، القاضي، المغني، الجزء11، تحقيق أ. محمد علي النجار و د. عبد الحليم النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- عبد الغني، عبد المقصود، أضواء على الفكر الفلسفي، مكتبة الزهراء، القاهرة.
- عفيفي، محمد الصادق، الفكر الإسلامي، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- عمارة، محمد، أزمة الفكر الإسلامي الحديث، دار الفكر، دمشق، ودار الفكر المعاصر، بيروت، ط1(1998).
- الغزالي، أبي حامد محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، دار الخيزر، بيروت، ط2(1993).
- الغزالي، أبي حامد محمد بن محمد، المستصفي، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية.
- الغزالي، أبي حامد محمد بن محمد، المنحول من تعليقات الأصول، حققه وخرّج نصه وعلّق عليه محمد حسن هيتو، دمشق، 1970.
- الغزالي، أبي حامد محمد بن محمد، المنقذ من الضلال، مطبعة الصباح، دمشق، 1990.
- الغزالي، أبي حامد محمد بن محمد، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2(1975).
- الغزالي، أبي حامد محمد بن محمد، معيار العلم، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف بمصر (1961).
- الغزالي، محمد، كيف تتعامل مع القرآن، دار الوفاء، ط1(1992).
- غليون، برهان، اغتيال العقل محنة الثقافة العربية بين السلفية والتبعية، دار التنوير، بيروت، ط2(1987).
- الفارابي، مبادئ الفلسفة القديمة : عيون المسائل في المنطق ومبادئ الفلسفة، مطبعة المؤيد، 1910.

302 • المؤتمر العالمي الخامس لبديع الزمان سعيد النورسي

- فضل الله، مهدي، العقل والشريعة مباحث في الايستمولوجيا العربية والإسلامية، دار الطليعة، بيروت، ط1(1995).
- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2(1987).
- القرضاوي، يوسف، العقل والعلم في القرآن الكريم، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1(1996).
- كانت، عمانوئيل، نقد العقل العملي، ت.أ. أحمد الشيباني، دار البقطة العربية، بيروت، 1966.
- الكندي، رسالة في حدود الأشياء ورسومها، بدون.
- الحاسي، الحارث بن أسد، العقل وفهم القرآن، تحقيق د. حسين القوتلي، دار الكندي ودار الفكر، دمشق، ط3(1982).
- محمد، علي جمعة، علم أصول الفقه وعلاقته بالفلسفة الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط1(1996).
- محمود، مصطفى، حوار مع صديقي الملحد، بدون.
- محمود، مصطفى، رحلتي بين الشك والإيمان، دار العودة، بيروت، 1988.
- محمود الديب، عبد العظيم، العقل عند الأصوليين، دار الوفاء، المنصورة، ط1(1995).
- مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، طبعة جديدة، مع مجلد خاص بالفهارس العلمية الكاملة، دار الكتب العلمية، بيروت.
- مجلة المجلس الإسلامي الأعلى: دورية في الثقافة الإسلامية، الجزائر، العدد الأول.
- المنائي، محمد عبد الرؤوف، التوفيق على مهمات التعريف، تحقيق د. محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، ودار الفكر المعاصر، بيروت، ط1(1990).
- موريس، كريسي، العلم يدعو للإيمان، ت.أ. محمود الفلكي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط5(1965).
- النجاري، عبد الحميد، خلافة الإنسان بين الوعي والعقل، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط2 منقحة ومزودة، USA.
- النسائي، سنن النسائي بشرح الحافظ السيوطي وحاشية الإمام السندي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- نكري، عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد، مصطلحات جامع العلوم "الملقب بدستور العلماء"، تحقيق د. علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1(1997).
- النورسي، "بديع الزمان" سعيد، إشارات الإعجاز في مظان الإنجاز، تحقيق إحسان الصالح، سوزلر للنشر، اسطنبول، ط3(1999).
- النورسي، "بديع الزمان" سعيد، الشعاعات، ترجمة إحسان الصالح، سوزلر للنشر، اسطنبول، ط1(1993)، مطبعة النسل.
- النورسي، "بديع الزمان" سعيد، الكلمات، ترجمة إحسان الصالح، سوزلر للنشر، اسطنبول، ط3(1998).
- النورسي، "بديع الزمان" سعيد، اللمعات، ترجمة إحسان الصالح، سوزلر للنشر، اسطنبول، ط2(1993)، مطبعة المدني.
- مصدر.
- النورسي، "بديع الزمان" سعيد، المتنوي العربي النوري، تحقيق إحسان الصالح، سوزلر للنشر، اسطنبول، ط2(1994)، مطبعة النسل.
- النورسي، "بديع الزمان" سعيد، المكتوبات، ترجمة إحسان الصالح، سوزلر للنشر، اسطنبول، ط2(1992)، مطبعة المدني.
- مصدر.

- النورسي، "بديع الزمان" سعيد، الملاحق، ترجمة إحسان الصالحي، سوزلر للنشر، اسطنبول، ط1 (1995)، مطبعة النسل.
- النورسي، "بديع الزمان" سعيد، سيرة ذاتية، إعداد وترجمة إحسان الصالحي، سوزلر للنشر، اسطنبول، ط1 (1998).
- النورسي، "بديع الزمان" سعيد، صيقل الإسلام، ترجمة إحسان الصالحي، سوزلر للنشر، اسطنبول، ط1 (1995)، مطبعة النسل.
- نوفل، عبد الرزاق، المسلمون والعلم الحديث، مكتبة صايغ، الطبعة الثانية.
- الوائلي، عبد الجبار، العقل والنفس والروح، منشورات عويدات، بيروت، ط1 (1982).
- يفوت، سالم، حفريات المعرفة العربية الإسلامية: التعليل الفقهي، دار الطليعة، بيروت، ط1 (1990).
- اليماني، أحمد بن يحيى بن المرتضى، كتاب المنية والأمل في شرح الملل والنحل، تحقيق د. محمد حواد مشكور، مؤسسة الكتاب الثقافية، 1988.

الهوامش:

- 1 الكلمات لبديع الزمان النورسي 437 .
- 2 الكلمات لبديع الزمان سعيد النورسي 95 .
- 3 المثني العربي النوري لبديع الزمان سعيد النورسي 244 .
- 4 كمثل على ما أقول : انظر المصدر السابق 12 حتى 17 ، و 219 - 220 ، و 297 و ما بعدها ، والكلمة الرابعة والعشرون 375 و ما بعدها .
- 5 المثني العربي النوري لبديع الزمان سعيد النورسي 223 .
- 6 المثني العربي النوري لبديع الزمان سعيد النورسي 232 .
- 7 التوقيف على مهمات التعاريف معجم لغوي مصطلحي لمحمد عبد الرؤوف المناوي 218
- 8 القاموس المحيط للفيروز آبادي 1114 .
- 9 كشاف مصطلحات الفنون لمحمد علي الفاروقي النهانوي 132/2 .
- 10 موسوعة مصطلحات علم المنطق عند العرب د. فريد جبر وغيره 342 .
- 11 موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلامي د. سمح دُعيم 500/1 .
- 12 المصدر السابق 1075/2 .
- 13 السنن الإلهية هي: قوانين الله عز وجل التي أقام عليها بمشيئته النافذة، نظام الكون والإنسان والمجتمع والحضارة، وهذه القوانين تنصف بالعموم، والثبات، والإطراد، وإمكانية التنبؤ بها، وتسخيرها". "هذا التعريف يتناول ماهية السنن الإلهية باعتبارها قوانين نافذة ويحدد مصدرها وهو مشيئة الله عز وجل وحكمته البالغة، ويحدد ميادين عملها وهي: الكون والإنسان والمجتمع والحضارة وأخيراً يوضح خصائصها الرئيسية وهي العموم والإطراد والثبات وإمكانية التنبؤ بها وتسخيرها" مخطوط رسالة ماجستير للأستاذ حازم محي الدين، وسيطع إن شاء الله.
- 14 ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني 188 .
- 15 الأسس المنطقية للاستقراء لمحمد باقر الصدر 6 .
- 16 انظر لما ورد تحت لفظة الدماغ، في شبكة الإنترنت بالموسوعة العربية العالمية، تحت عنوان:

- <http://gae.naseej.com.sa/p8-10.html>
- 17 إشارات الإعجاز لبديع الزمان سعيد النورسي 117 .
 - 18 خ : 641/11 كتاب الأيمان و النذور رقم 6632.
 - 19 صيقل الإسلام لبديع الزمان سعيد النورسي 532 .
 - 20 القاموس المحيط للفيروز آبادي 1728.
 - 21 القاموس المحيط للفيروز آبادي . 138 .
 - 22 المصدر السابق 1208.
 - 23 مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني 333 .
 - 24 مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني 672 . والبيت للنايعة الذبياني ، و صدر البيت : في إثر غانية رمتك بسهما .
 - 25 إشارات الإعجاز لبديع الزمان سعيد النورسي 84 .
 - 26 المصدر السابق 95 .
 - 27 الشعاعات لبديع الزمان سعيد النورسي 160 .
 - 28 المثنوي العربي النوري لبديع الزمان سعيد النورسي 413 .
 - 29 خ : في الرقاق باب التواضع رقم 6137 ، و وردت زيادة عنده : « ما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت و أنا أكره مساءته » .
 - 30 م : سكتاب الإيمان رقم 8 ، ت : كتاب الإيمان رقم 2738 ، د : كتاب السنة باب القدر رقم 4695 ، ن : كتاب الإيمان باب نعت الإسلام 97/8 .
 - 31 انظر : التعريفات للرجاني 157 ، رسالة في حدود الأثنياء ورسومها . للكندي، الإشارات. لابن سينا 178 ، عيون المسائل. للفارابي 64.ديكارت، مقالة الطريقة، القسم الأول: 1 من ترجمة د. جميل صليبا، مقدمة ابن خلدون 797 من طبعة دار الكتاب اللبناني، المعجم الفلسفي د. جميل صليبا 84/2 وما بعدها، مقالات الإسلاميين في اختلاف المصلين. للإمام أبي الحسن الأشعري 480 ، المغني للقاضي عبد الجبار 375/11 ، الفصل في الملل والأهواء والنحل. لابن حزم 71/5 - 72 ، محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين. لفخر الدين الرازي 81 ، البرهان لابن زرة 227 ، معيار العلم للغزالي 286 ، البرهان لابن رشد 450 ، البرهان التحليلي الثاني لأرسطو 465.
 - 32 موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم للتهانوي 1200/2 - 1201.
 - 33 أصول السرخسي 1 / 346 ، وانظر كشف الأسرار شرح البزدوي 732/2 .
 - 34 المنحول للغزالي ، ص 45.
 - 35 المستصفي للغزالي 137/2 .
 - 36 البحر المحيط للزركشي 1 / 88 .
 - 37 العقل وفهم القرآن للمحاسبي . تحقيق د. حسين القوتلي ص 203.
 - 38 إحيار علوم الدين للغزالي 111/1 - 112.
 - 39 المقاصد العامة للشريعة الإسلامية د. يوسف حامد العالم ص 328.
 - 40 مراتب قوة النفس لإشراق العقل هي : 1- العقل الهيولاني 2- العقل بالملكة 3- العقل بالفعل 4- العقل المستفاد. وتطبيق ذلك إن الإنسان إن كان خالي الذهن من قضية ما فعقله هنا هولاني واستعداداه لتعلم هذه القضية يسمى العقل بالملكة فإن تعلمها ينتقل للعقل بالفعل إذ يستطيع أن يسقط ما تعلمه على أرض الواقع فإذا طبق ما تعلم انتقل للعقل المستفاد ، انظر شرح التلويح على التوضيح 158/2.

- 41 شرح التلويح على التوضيح 157/2.
- 42 مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة د. محمد علي الجوزو ص 99.
- 43 العقل والشريعة مباحث في الاستمولوجيا العربية والإسلامية د. مهدي فضل الله 16 - 17، ونقل كلام الغزالي من كتابه معارج القدس في مدارج معرفة النفس 57-58 .
- 44 كتاب فصل المقال ما بين الحكمة والشريعة من اتصال - لابن رشد 49 - 50.
- 45 المنفذ من الضلال للغزالي ص 77.
- 46 حفريات المعرفة العربية الإسلامية : التعليل الفقهي د. سالم يفوت 228.
- 47 معارج القدس في مدارج معرفة النفس لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي 55 - 56، وانظر كتاب الداعي إلى الإسلام لكamal الدين أبي البركات الأنباري دراسة وتحقيق سيد حسين باعجوان 293، وانظر كتاب: نقد العقل العملي للفيلسوف عمانوئيل كنت ترجمة الأستاذة أحمد الشيباني 8 ، وانظر: علم أصول الفقه وعلاقته بالفلسفة الإسلامية د. علي جمعة محمد 23 وما بعدها
- 48 الظاهرة القرآنية أ. مالك بن نبي ترجمة د. عبد الصبور شاهين 282 . وانظر محاضرات في الأيدولوجيا المقارنة أ - محمد تقي مصباح اليزدي 18 - 19 .
- 49 تأملات الأستاذ مالك بن نبي 172.
- 50 المصدر السابق 161.
- 51 القضايا الكبرى الأستاذ مالك بن نبي 50.
- 52 شروط النهضة الأستاذ مالك بن نبي ترجمة أ. عمر كامل مقادي و د. عبد الصبور شاهين 84.
- 53 الصراع الفكري في البلاد المستعمرة الأستاذ مالك بن نبي 107.
- 54 مشكلة الثقافة الأستاذ مالك بن نبي ترجمة د. عبد الصبور شاهين 118، وانظر أهداف التشريع الإسلامي د. محمد حسن أبو يحيى 560 وما بعدها ، غسل الدماغ د. فخر الدباغ 88.
- 55 ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية الأستاذ مالك بن نبي. ترجمة د. عبد الصبور شاهين: 40 - 41.
- 56 في مهب المعركة الأستاذ مالك بن نبي 151.
- 57 بين الرشد والنية الأستاذ مالك بن نبي 95.
- 58 وجهة العالم الإسلامي الأستاذ مالك بن نبي ، ترجمة د. عبد الصبور شاهين 42-43 وانظر : الوعي الفكري في الحضارة الإسلامية أ . عبد الفتاح أبو زايد 129. وانظر: قيمة العقل في الإسلام أ. محمد الصايم 59.
- 59 فكرة الأفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندوج الأستاذ مالك بن نبي ترجمة د. عبد الصبور شاهين 181.
- 60 المسلم في عالم الاقتصاد الأستاذ مالك بن نبي 59.
- 61 كيف نتعامل مع القرآن للإمام محمد الغزالي 58.
- 62 العقل والعلم في القرآن الكريم د. يوسف القرضاوي 21.
- 63 المصدر السابق رقم 96.
- 64 حتى يغيروا ما بأنفسهم الأستاذ جودت سعيد 27.
- 65 المصدر السابق 203، وانظر أسباب حياة الأمم وسقوط الحضارات أ . عبد الحميد محمود ظهمران 43 - 44.
- 66 العمل قدرة وإرادة الأستاذ جودت سعيد 196.

- 67 مذهب ابن آدم الأول مشكلة العنف في العمل الإسلامي الأستاذ جودت سعيد 55 - 56.
- 68 اقرأ وربك الأكرم الأستاذ جودت سعيد 118.
- 69 فقدان التوازن الاجتماعي الأستاذ جودت سعيد 54.
- 70 الإنسان كلاً وعدلاً : الأستاذ جودت سعيد 59.
- 71 أزمة الفكر الإسلامي الحديث د. محمد عمارة 22 - 23 ، وانظر المبادئ والقيم في التربية الإسلامية د. محمد جميل خياط 331.
- 72 حوار مع صديقي الملحد د. مصطفى محمود. 35.
- 73 رحلتي من الشك إلى اليقين د. مصطفى محمود 6 ، وانظر أضواء على الفكر الفلسفي د. عبدالمقصود عبد الغني 251.
- 74 الوعي الفكري في الحضارة الإسلامية الأستاذ عبد الفتاح أبو زائدة 45 - 46 .
- 75 المسلمون والعلم الحديث الأستاذ عبد الرزاق نوفل 30 ، وأنظر : موقف الإسلام من الوثنية واليهودية والنصرانية الشيخ حسن خالد 75.
- 76 نقد العقل العربي الشيخ الركابي 9 .
- 77 اغتيال العقل محنة الثقافة العربية بين السلفية والتبعية 250.
- 78 التآلف بين الفرق الإسلامية الأستاذ محمد حمزة 137.
- 79 خلافة الإنسان بين الوحي والعقل. د. عبد المجيد النجار 116.
- 80 مجلة المجلس الإسلامي الأعلى ، دورية في الثقافة الإسلامية الجزائر 6
- 81 المثنوي العربي النوري : بديع الزمان سعيد النورس ترجمة إحسان قاسم الصالحي 6 / 225، وانظر صراع بين النفس والعقل د. عبد الكريم الدهينة 11، الفكر الإسلامي د . محمد الصادق عفيفي 66-
- 67 العلم يدعو للإيمان أ. كريس موريس ترجمة أ. محمود الفلكي 189.
- 82 الكلمات: بديع الزمان سعيد النورسي ترجمة إحسان قاسم الصالحي 23/1.
- 83 المكتوبات بديع الزمان سعيد النورسي ترجمة إحسان قاسم الصالحي 562/2.
- 84 للمعات :بديع الزمان سعيد النورسي ترجمة إحسان قاسم الصالحي 3 / 567.
- 85 المصدر السابق 3/118.
- 86 الشعاعات: بديع الزمان سعيد النورسي ترجمة إحسان قاسم الصالحي 4/117.
- 87 إشارات الإعجاز: بديع الزمان سعيد النورسي ترجمة إحسان قاسم الصالحي 5/158.
- 88 الملاحق في فقه دعوة النور: بديع الزمان سعيد النورسي ترجمة إحسان قاسم الصالحي 7/105.
- 89 صيقل الإسلام : بديع الزمان سعيد النورسي ترجمة إحسان قاسم الصالحي 8 / 52.
- 90 صيقل الإسلام : بديع الزمان سعيد النورسي ترجمة إحسان قاسم الصالحي 8 / 122 .
- 91 صيقل الإسلام : بديع الزمان سعيد النورسي ترجمة إحسان قاسم الصالحي 8/ 522 .
- 92 سيرة ذاتية: بديع الزمان سعيد النورسي ترجمة إحسان قاسم الصالحي 9/73.
- 93 الموافقات للشاطبي 87/1.
- 94 الموافقات للشاطبي 35/1.
- 95 انظر : الموافقات للشاطبي 87/1 ، 35/1 ، 27/3 ، 43/3 ، 41/3 ، 46 /3 ، 52/3 - 53.
- 96 المصدر السابق 29/8.
- 97 انظر تكوين العقل العربي 96 وما بعدها وبنية العقل العربي 513 وما بعدها د. محمد عابد الجابري ، الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم وفي هامشه الملل والنحل للشهرستاني الهامش 1 / 51 وما بعدها وفي المتن 91/2 وما بعدها . كتاب المنية والأمل في شرح الملل والنحل لأحمد بن يحيى

البيانيّ تحقيق د . محمد جواد مشكور 18 وما بعدها 39 وما بعدها . مقالات الإسلاميين في اختلاف المصلين للأشعري 155 وما بعدها . مقدمة ابن خلدون 429 وما بعدها . العقل عند الأصوليين د. عبد العظيم محمود الدين 49 وما بعدها . ابن رشد سيرة وفكر دراسة ونصوص د. محمد عابد الجابري 103 وما بعدها. خلافة الإنسان د. عبد المجيد النجار 89 وما بعدها . العقل والنفوس والروح لعبد الجبار الوائلي 7 وما بعدها . موسوعة مصطلحات مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم لطاش كبرى زاده تحقيق د. علي دحروج 207 وما بعدها و 328 وما بعدها . أسس التقدم عند مفكري الإسلام د. فهمي جدعان 25 وما بعدها . مصطلحات جامع العلوم «الملقب بدستور العلماء» لأحمد نكري تحقيق د. علي دحروج 743 وما بعدها. موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين لمصطفى صبري 241/1 وما بعدها .

- 98 المكتوبات: بديع الزمان سعيد النورسي ترجمة إحسان قاسم الصالحاني 2 / 417 .
 99 الأحكام في أصول الأحكام لابن حزم 28/1.
 100 الكلمات: بديع الزمان سعيد النورسي ترجمة إحسان قاسم الصالحاني 1 / 848 .
 101 الموافقات للشاطبي 2 / 60.
 102 اللغات: بديع الزمان سعيد النورسي ترجمة إحسان قاسم الصالحاني 3 / 118 .
 103 الكلمات : بديع الزمان سعيد النورسي ترجمة إحسان قاسم الصالحاني 1/ 363 .
 104 اللغات : بديع الزمان سعيد النورسي ترجمة إحسان قاسم الصالحاني 3/ 116 .
 105 الشعاعات: بديع الزمان سعيد النورسي ترجمة إحسان قاسم الصالحاني 4 / 645 .
 106 صيقل الإسلام لبديع الزمان سعيد النورسي 33 .
 107 الكلمات لبديع الزمان النورسي 879 .
 108 الكلمات لبديع الزمان النورسي 423 .
 109 من نثر الدر للوزير الكاتب أبي سعد منصور بن الحسين الآبي، السفر الأول 312.

الخطبة الشامية لسعيد النورسي وصفة طيبة روحية لأمراض العصر

أ. د. توماس ميشيل^١

سأحاول من خلال هذه الورقة أن أبرز أفكار سعيد النورسي الأساسية كما هي بادية في خطبته الشامية الشهيرة. وسأعلق فيما بعد على بُعد الرؤية الدينية التي تحتويها تلك الخطبة.

إن ما أنا بصدد التعليق عنه، قد أُلقيت كخطبة الجمعة في المسجد الأموي بدمشق بداية سنة 1911 أمام جم غفير من المصلين يزيدون على عشرة آلاف شخص حسب بعض الروايات. وبعد مرور تسعون سنة تقريبا ما زالت هذه الخطبة تُطبع وتقرأ وتدرّس إلى يومنا هذا. مما يدل على أن تحليل سعيد النورسي للمجتمعات الإسلامية لا زال يتجاوب مع حاجات المسلمين في هذا القرن، وأن مكانته العلمية ما زالت مرموقة بينهم.

إن أفكارني في هذا الموضوع الذي سوف أتناوله هي أفكار رجلٍ غربي نصراني، وعليه فلتكن هذه الورقة بمثابة تجربة تدخل ضمن الحوار بين الأديان.

^١ ولد سنة 1941 في مدينة سانت لويز الواقعة في ولاية ميسوري في الولايات المتحدة الأمريكية. بعد دراسة الفلسفة وعلم اللاهوت تعيين عام 1967 راهباً كاثوليكياً. درس اللغة العربية والدين الإسلامي في لبنان ومصر. أكمل دراسة الدكتوراه حول كتابات ابن تيمية تحت إشراف البروفسور فضل الرحمن وحصل في شيكاغو عام 1978 على درجة الدكتوراه في الفكر الإسلامي. وكان عنوان رسالته (ابن تيمية "الجواب الصحيح": جواب عالم إسلامي على النصرانية). درّس في جامعة (ساناتا دارما) في مدينة (يوكيا كارتا) في إندونيسيا خلال اعوام 1978 - 1981 وتعين عام 1981 في المجلس البابوي للفتيان للحوار بين الأديان - قسم آسيا وفي عام 1988 أصبح رئيساً في شعبة الدين الإسلامي في القسم نفسه في الفتانكان. وفي سنوات 1994 - 1996 عمل كسكرتير عام في الدائرة المسكونية وشؤون الأديان لاتحاد المنظمات الأسقفية الآسيوية لاتحاد الكنائس (FABC-OEIA) في بانكوك عاصمة تايلند. وهو الآن أمين سر في السكرتارية اليسوعية للحوار بين الأديان في روما في إيطاليا والسكرتير المسكوني لاتحاد المنظمات في الأسقفية الآسيوية لاتحاد الكنائس.

سؤالان تمهيديان:

سؤالان تمهيديان قد يكونا ذا أهمية بالنسبة للباحثين، يجدر بنا تناولهما قبل الخوض في تحليل محتوى الخطبة.

السؤال الأول قد يطرحه المؤرخون وهو يدور حول تاريخ النص: إن هذه الخطبة أول ما أُلقيت بالغة العربية وطُبعت بعد ذلك مرتين بذلك اللسان ونشرت من جديد في 1911، إلا أن في عام 1950 بادر سعيد النورسي في ترجمة هذه الخطبة إلى التركية منتهزا الفرصة لإدخال بعض التعديلات عليها كي يجعلها تتكيف مع أوضاع العالم آنذاك مضيفاً لها لاحقة تحتوي في جملتها على أجوبة لأسئلة طرحها عليه طلابه. إن النص الذي اعتمدت عليه في هذه الورقة هو الترجمة الإنكليزية لهذا النص التركي.

إن هذه الخطبة التي أُلقيت في بداية القرن العشرين، في الفترة التي شهدت غروب شمس الدولة العثمانية، تنظر إلى المسائل الدينية التي كانت على وشك أن تشغل بال المسلمين في غضون تلك الانقلابات الصاخبة التي تلت تلك الفترة. ومن هنا يمكننا اعتبار النص التركي للمؤلف بمثابة شرح قام به النورسي بعد مضي أربعين سنة على الخطبة الأصلية. وعلى ضوء التغيرات الهائلة التي جرت حينذاك في العالم نذكر منها ظهور الجمهورية التركية، الحربان العالميتان، بروز الشيوعية في روسيا، الخطر النازي والفاشي على الإنسانية. هذا وفي الوقت الذي كان فيه سعيد النورسي يترجم الخطبة، كانت الشيوعية مستولية على أوروبا الشرقية والثورة الماوية نافذة في الصين، كما شهدت تلك الفترة تخلص بعض البلدان العربية والإفريقية والآسيوية من الاستعمار.

وها نحن في بداية هذا القرن الجديد وبعد مضي أكثر من أربعين سنة على النصّ التركي للخطبة، نشاهد فيه تقلبات في الأوضاع السياسية لا تقل هولاً عن التي عرفها التاريخ السابق. فقد شاهدنا فعلاً نهاية التجربة السوفياتية وانقسام الإتحاد السوفياتي، كما نشاهد انجذاب الصين إلى فكرة السوق الحرة، ونسمع عن محاولة تركيا وبلدان أوروبا الشرقية في الانضمام إلى الوحدة الأوروبية، كما نسمع عن صراعات البلدان الآسيوية والإفريقية وهي تصارع المشاكل الناجمة عن الاستعمار الجديد وعوالة اقتصاد السوق. وعليه، فإنه من حق القارئ اليوم أن يتساءل ويقول:

"ما أهمية الخطبة الشامية اليوم بالنسبة للمتدّين وأهل الإيمان خاصة بعد مضي ما يقرب من قرن لم يخلو من التقلبات الهائلة والتغيرات في الأوضاع؟".

هذا بالنسبة للسؤال الأول.

بيد أن الباحثين المهتمين بالقضايا الدينية يسألون سؤالاً آخرًا، إذ قد ألقى الخطبة الشامية واعظٌ مُسلم على معشر من المسلمين العباد في إطار صلاة جماعة تعني المسلمين.

لكنني الآن بصدد أن أقدم انطباعات رجل نصراني. علماً أنني أرى بأن دين الإسلام والنصرانية وكذا اليهودية كلها ترجع أساساً إلى دين النبي إبراهيم باعتباره "الجد المشترك".

فالنصارى والمسلمون يصرون على عبادة الله وحده ويجهدون على امتثال الأوامر الدينية في كل الأحوال، غير أنه، لم تتعامل هاتان الجماعتان بمقتضى المحبة والاحترام اللذان يطلبهما الله من عباده. فارتكبت الأخطاء من كلا الطرفين، وقامت الجماعتان كلتاهما بأعمال لا يمكن إلا أن نصفها بالجرائم. فما دام الوضع هكذا بين النصارى والمسلمين، يخاطر بالبال السؤال التالي:

"هل يريد سعيد النورسي أن يقول شيئاً ما للنصارى في الخطبة الشامية؟ وهل تتوجه خطبته للمسلمين فقط، أم هل يمكن يا ترى أن نجد بأن خطبته هذه تتوجه إلى كل من يدينون فعلاً بدين الله الواحد؟".

خطة الخطبة الشامية:

بعد أن وضعنا هذين السؤالين في أذهاننا، فلنركز الآن على الخطبة مباشرة. إن خطبتها فعلاً بسيطة، فبعد الحمد والثناء على الله وطلب الرحمة منه، يشرع النورسي في معالجة القضية التي حيرت أكثر المؤمنين، حسب رأيه، وهي: لماذا تقدم الكفار الذين خرجوا عن طاعة الله في الشؤون المادية بسرعة بينما تأخرت تلك المناطق التي يتمسك فيها الناس بالدين حتى وصلت بعض منها إلى درجة خطيرة من التخلف والفقير؟

إنّ مبحث النورسي هذا في بداية القرن العشرين يعكس لنا موقف الرجل المتدين إزاء تلك التنقيدات التي كان يقوم بها ضد الدين بعض الفلاسفة أمثال فورباخ وكونت وماركس ونيتشه التي تجسدت في سياسات "الرييسور جيماننتو" الإيطالية، والثورة المكسيكية والروسية وسياسات شتى للأحزاب الليبرالية الأوروبية.

كان هؤلاء يرون بأنّ الدين ميزة من مزايا الإنسان البدائي، وأنه قد أصبح كالأفيون في الوقت الحاضر وعائقاً في طريق التقدم البشري وعملية بناء الأمم. إنّ النورسي لا يقلق من هذه الآراء ولا يتهور في الاعتراض عليها. بالعكس، نراه يشاطر بعض التشخيصات فيوافق على بعض التحليلات التي يجري عليها أصحاب تلك الآراء، هذا لأنّ للمجتمعات الدينية حصة من المسؤولية على الورطات التي وقعت فيها. فيؤكد النورسي على أنّ هناك ستة أمراض خطيرة يجب معالجتها إذا كان المتدينون يريدون القيام بدور إيجابي نحو التقدم الإنساني في المستقبل.

فبينما هو يعترف بإخفاقات المتدينين، تراه يردّ ويرفض الحلول الإلحادية المادية التي كان يقترحها المنتقدون، لأنه كان يرى بأنها سوف تؤدي إلى الكارثة، وتاريخنا اليوم يشهد بأنه لم يخطئ في تنبئه هذا.

فبقية الخطبة تعبر عن مجهود النورسي في معالجة هذه المعضلة، وهذه الأمراض الست التي كان يعاني منها جمهور المسلمين. وكان منهج النورسي لأداء هذا المجهود يتميز بتقديم ست كلمات مقابل واحد من الأمراض المعنوية التي أصيبت بها المجتمعات الدينية، شأنه في هذا شأن الحكيم الذي:

1- يدرس العلامات الظاهرة كي يعرف الداء

2- يسمي الداء في التشخيص

3- يقدم استقراء إيجابي بملأ المريض تفاؤلاً وسلواناً بحيث يؤكد له أن العلاج

موجود.

4- يكتب له وصفة طبية يعتمدها لتسهيل عملية الشفاء.

هيا بنا الآن ندقق في تلك الكلمات الست لنرى كيف يتعامل النورسي، وهو في

منصب الحكيم الروحاني، مع تلك الأمراض التي أصابت هذا الزمان.

الداء الأول: اليأس - شفاؤه: الأمل

إن أول وأخطر مرض يواجهه المجتمع الديني هو مرض اليأس.

نعم، إن أفراد المجتمعات الدينية على خطر الوقوع في مرض اليأس وهم يشاهدون التقدم المادي لدى المجتمعات الأخرى، في الوقت الذي تغرق هي في التخلف والفقر المدقع. قد يصل هذا اليأس إلى درجة أن يحسب البعض بأن الرب (عز وجل) قد تخلّى عنهم ونسيهم وأن المستقبل للأعداء الملحدّين الماديين أصحاب القوة والطاقة اللازمة للسيطرة على العالم.

إن النورسي يتصدى لهذا اليأس المعنوي بدواء الأمل.

وهناك - حسب رأيه - أمارات كثيرة تستدعي هذا الأمل. فيغض النظر عن أن الله وعد "بأن المستقبل للإسلام وحده" و"أن الحكم لن يكون إلا لحقائق القرآن والإيمان"¹، هنالك أمارات قوية تستدعي الأمل نجدها في التاريخ، وحين نحلل الأوضاع الراهنة. فلو راجع المسلمون تاريخهم، لوجدوا أنهم كلما ازدادوا تقرباً وتمسكاً بالحقائق الإسلامية ازدادوا تقدماً ورقياً. كما أنهم كلما ابتعدوا عن هذه الحقائق كلما أُصيبوا بالتخلف والتوحش والإضمحلال.

إنّ الأمانة الأخرى الباعثة على الأمل كما يراها النورسي مغروسة في النفس الإنسانية، ذلك أنه لا يمكن للأفراد ولا للمجتمعات أن تعرف السعادة إلا بالدين، حتى أن أبعد الناس عن الدين تراه يفرُّ إلى أحضانه في وقت الشدّة والحاجة. فان تمكنت المجتمعات أن ترقى ماديا بدون الدين تبقى مقيدة بالسقوط في مستنقع المنافسة والشح والحرب التي ستدمر كل ما أنجزوه لا محالة. فمهما ظهر الدين ضعيفا في القرن العشرين فإنه من المنتظر أن حاجات الإنسان الدينية كحاجته إلى ربٍّ يحميه سوف تتغلّب على طرق الفكر والسلوك المادّية.

أما الأمانة الأخرى الباعثة على الأمل فهي التي تتمثل في انتشار التربية، لأنّها تسمح للناس بأن يكشفوا على حقائق الدين وقيمتها بصورة أفضل بدون الرّضوخ إلى التقليد الأعمى.

علاوة على الأمارات المشيرة إلى استعداد الإسلام إلى الرقى المعنوي، يرى النورسي بأن هناك أمارات على استعداده للرقى المادي. فهناك قوى مغروسة في الإيمان لا يمكن لأية أيديولوجية بشرية أن تعوضها أو تقوم مقامها. فالكمالات التي تنجم عن الإيمان بالله، كتقدير الكرامة الإنسانية، وقوة الإصرار على امتثال الأوامر الدينية والمنافسة في العمل الصالح، والشهامة والشفقة، والنظرة التي تتجاوز النتائج السريعة، القصيرة المدى، كلها قوى تبشرنا حقا بأنّ المستقبل سوف يكون أكثر إنسانية، وأعدل، وأكثر تمدّناً وأرقى ممّا هو عليه اليوم.

فإن كان اليأس يؤدي إلى اللامبالاة، والكسل والشعور بالعجز والانحطاط فإن الأمل يدفع الناس إلى العروج إلى الكمالات التي أودعها الله في قابلياتهم واستعداداتهم لأنهم هم الذين خلّقوا في أحسن تقويم.

ثم إنّ الصراع القائم بين قوى الخير وقوى الشر ليس بصراع قائم بين قوى متكافئة، ذلك أن الشر والقبح أمور ثانوية وجزئية بالنسبة إلى الأصل في الخلقة الإلهية، فهي غير مالكة للقوى الكامنة في الحق والجمال والخير. وما دامت الغاية في الخلقة هي الخير والجمال والكمال فإنّه يصحّ للمؤمنين إذاً أن يبشروا ويأملوا بأن الله سوف يهدي الإنسانية إلى هاته الغايات.

إنّ الشيء الذي ساقني إلى هذه الإطالة هو أن مؤلف الخطبة الشامية نفسه خصّص الحصة الأطول لبحث اليأس والأمل وكأنّه يومئ بهذا بأنّ هذا الداء، داء اليأس هو أسوأ داء يُصيب مسلمي هذا العصر وأنّ الأمل هو العلاج العاجل لهم.

قلنا سابقا بأنّ النورسي يتكلم هنا عن قضايا الإسلام وأنّ خطبته موجهة إلى معشر المسلمين، لكنني كنصراني، أجدني متفقا مع تحليله، وتشخيصاته للإشكاليات

ومستحسنًا الوصفات الطبية التي يقدمها إزاء الأمراض الروحية التي نواجهها اليوم. فنحن النصرارى أيضا نصرّ بأنّ أكبر عائق وأغلظ ستار أمام الفيض الإلهي ولطفه ورحمته إنما هو اليأس. من المؤكد أن اليأس ضرب من الكفران، ذلك أن دأب اليأس التشكيك في قوة الله وفي رحمته وفي قدرته على جعلنا أفراداً كما يجب أن نكون ومجتمعات كما يريدنا هو أن تكون.

إنّ النصرارى يرون بأنّ هدايا الله لا تحصى ولكن الأهم منها في أعينهم ثلاثة هدايا: وهي الإيمان، الأمل والحب. الأمل هو تلك الهدية الهادئة التي تشعنا بوجود الله وحضوره ونحن في أحلك الظروف وعلى باب الهزيمة. إنّ الأمل هو الذي يدفعنا إلى أحضان رحمة الله، واستغفار الله عندما تحيط بنا بلية السيئات، وهو الذي يبعث فينا روح التجنّد المعنوي وجميع طاقاتنا للقيام بالأعمال الكبيرة في سبيل الله وإن بدت تلك الأعمال فوق وسعنا وبدت الطريق إليها مملوءة بالعوائق والصّعوبات.

وقبل أن أنهي هذه الفقرة أودّ أن أشارك النورسي في ندائه هذا فأقول: بأنّ أروع ثمرة للدين والإيمان وأعلى هدية يمكن أن يقدمها المسلمون والنصارى للعالم المعاصر هي الأمل المغروس والرأسخ في العادة والمشيئة الإلهية، ذلك الأمل الذي أصبحت تلح وتؤكد عليه حقائق الحياة في الوقت الرّاهن كلما تدبّرنا فيها.

الدّاء الثاني: الكذب - الدّواء: الصّدق.

إنّ الدّاء أو الآفة التالية التي يتعرض إليها النورسي في الخطبة هي موت الصّدق في الحياة الاجتماعية وكذا السياسية.

رغم أن الصّدق هو أس أساس الإسلام وحجر زاوية الحياة الاجتماعية الإسلامية، فإنّ نقائص الصّدق كالكذب والرياء والنفاق هي التي شاعت في المجتمعات الإسلامية في زمن النورسي.

فالنفاق موت للصّدق لأن النفاق هو أن تبدي للناس غير الذي تخفيه في نفسك. أما الرّياء فهو ضرب من الجبانة والتصنّع الذي يؤدي إلى تزييف الحقيقة والإتيان بالإفتراءات.

أما المداينة فهي ضربك هذا إلى الرجل بذاك ثم زعمك أنك صديق الكل. إنّ ترويح الإفتراءات وكذا القذف كلاهما موت للصّدق، إذ لا يتضرر أولئك الذين كُذّب في حقهم بل تقطع روابط التساند في المجتمع، وقد يصل هذا الدّاء، موت الصّدق، إلى مس علماء الدين الذين يصدرّون الفتاوى لإشباع حاجات شخصية. ناهيك عما يقوم به

السياسيون من أعمال بعيدة عن الصدق خلال الحملات السياسية، خاصة عندما يحاولون تبرير سلوكهم وتحركاتهم بإشغال المناصب في سبيل أهدافهم الشخصية. فدواء هذا المرض عند النورسي ما هو إلا الصدق والشفافية. غير ممكن أن يقدم المسلمون بديلاً وحلاً لمشكلتي الكذب والرّشوة اللتان فاشتا في عالمنا المعاصر إذا لم يكونوا هم أول من يقيم الصدق ويعمل بمبدأ المحاسبة. لقد أكد النورسي في ترجمته التركية بأن هذه القضية لم تفقد أهميتها منذ أن تكلم فيها لأول مرة.... يقول: "أيها الأخوة في هذا الجامع الأموي ويا אחوي الأربع مائة مليوناً من المؤمنين بعد أربعين عاماً في جامع الإسلام الكبير، لا نجاة إلا بالصدق، هو العروة الوثقى".²

الداء الثالث: العداوة - الدّواء: الحبة.

إنّ السبب الثالث الذي أدى إلى ضعف العالم الإسلامي هو حب العداوة والخصومة. فالحربان العالميتان في هذا القرن، والحروب الحلية والأهلية في شتى أطراف العالم "قد أظهرت مدى ما في روح العداوة من ظلم فضيع ودمار مريع".³ إنّ روح العداوة الناجمة من غرور الإنسان وحب نفسه قد تؤدي بصاحبه إلى عداوة الآخرين ظلماً من دون أن يشعر. فعلاً، قد تتسرب روح العداوة حتى فيما بين المؤمنين، إذ تراهم يبذون حُباً وقبولاً في الظاهر وهم يكتُمون العداوة بحقيقتها في قلوبهم. فهذه ليست هي الحبة لأنها هنا تنقلب إلى المداراة والمماشاة والتملق.⁴ وتجدر الإشارة أنه في الوقت الذي يرى أغلب الناس بأن قبح الآخرين يُمثل مبرراً على خصومتهم، كان النورسي يؤمن بأن لا مبرر للخصومة ما دام لا يوجد هناك عدوان فاضح من الطرف الآخر، هذا لأنه "لا ينبغي أن يجلب سيئات أعدائنا عداوتنا، فحسبهم العذاب الإلهي ونار جهنم".⁵ فدواء لهذا الميل الفاسد للعداوة، يصف النورسي دواء الحبة: "إنّ أجدر شيء بالحبة هو الحبة نفسها، وأجدر صفة بالخصومة هي الخصومة نفسها".⁶ إنّ الحبة ومحبة الآخرين هما اللتان تضمنان للفرد حياة إجتماعية آمنة وتحققان له السعادة. فالنورسي يرى بأنّ "الحبة، والأخوة، والود من طباع الإسلام وروابطه".⁷

الداء الرابع: التفرقة - الدّواء: الإتحاد

إنّ الداء الرابع الذي يشخصه النورسي في أوساط المجتمعات الإسلامية هو داء التفرقة. يرى النورسي بأن النزاعات والإشتباكات العرقية والألسنية عاملان أساسيان في تشتيت شمل الأمة الإسلامية، لا على النطاق العالمي فحسب، بل وحتى على المستوى

الوطني. لقد أثار صاحب الخطبة هذه المسألة لا كمسألة نظرية، لأنه عندما أثارها كان يعيش في وسط أحداث وأوضاع حقيقية. فخطبته الشامية هذه، ألقاها في سنة 1911، أي في تلك الفترة التي مرت بها علاقات دمشق والدولة العثمانية. بمرحلة توتر لا مثيل لها. وفعلاً لم تمض عشر سنوات على إلقاء تلك الخطبة فإذا بسوريا كلها تصبح تحت الحماية الفرنسية. ثم عاد النورسي بعد أربعين سنة يترجم تلك الخطبة إلى التركيبة في الوقت الذي كانت فيه سوريا والبلدان العربية المجاورة لها على وشك الاستقلال من قيود الاستعمار، راجياً فيها من المسلمين أن لا يدعوا للاختلافات العرقية والألسنية مجالاً لأنها تمون من قوة إتحادهم وأن لا يجعلوا علاقات الدول الإسلامية قائمة على مثل هذه الأساسات القومية. إن إتحاد الأمة على أساس الإسلام هو الدواء الذي يصفه النورسي لداء التفرقة. يقول صاحب الخطبة الشامية لمستمعيه في الجامع الأموي: "لقد آن أوان الإتحاد الإسلامي وهو على وشك أن يتحقق، وعليه ينبغي أن تصرفوا النظر عن تقصيراتكم الشخصية، ولتجاوز كل عن الآخر".⁸

لذا ترى النورسي لا يقبل عذر من ادعى بأن ليس هناك عمل يمكن القيام به في سبيل توطيد الوحدة والأخوة الإسلامية، والتماس مثل هذه الأعذار الواهية لا يدل - في نظر النورسي - إلا على تكاسل وتقاعس صاحبها. وفي عدد من المواقع كان النورسي يناشد القادة المسلمين والوعاظ على العمل معاً، من أجل إعادة بناء روابط الأخوة بين المسلمين، كما كان يدعو الأمم العربية المستقلة حديثاً، أن تقتدي بمثال الولايات المتحدة الأمريكية كي تصبح جهودها بمثل ذلك الإتحاد مكلفة بالنجاح، فيتسنى لها بدورها أن تعيد إلى شعوبها مكانتها المرموقة في وقت قصير.

الداء الخامس: الاستبداد - الدواء: الكرامة الإسلامية

لا شك أن سعيد النورسي كان يدرك جيداً مدى الخسارة والإفلاس التي تعرضت إليه الأوطان الإسلامية نتيجة الاستعمار. وفعلاً لقد تمكن الأجانب من خلال عمليات نهب وسلب منسقة من أن يسيطروا على معظم ثروات البلدان الإسلامية، "بشمن بخس دراهم معدودة مزورة".⁹ بيد أن هذا الضرب من النهب والسلب هو في رأيه من أخف الأضرار التي خلفها الاستعمار. ذلك أن الكارثة والأمر المؤسف حقاً هو أن قسماً من الأجانب "كما سلبوا أموالنا... سلبوا منا قسماً من أخلاقنا الرفيعة وسجايانا الحميدة، والتي بها يترابط مجتمعنا".¹⁰

يريد النورسي بهذا الكلام أن يجلب انتباهنا إلى الضرر المعنوي الذي ألحقه الاستعمار بالمجتمعات الإسلامية. فلا غرو أن فساد الأخلاق غالباً ما ينشأ ويبدو في الأوضاع التي يسودها الإضطهاد والاستبداد، كما أن سجايانا المجتمعية الحميدة كثيراً ما تنهار من جراء

الشعور بالذل ونتيجة فقدان العزة والكرامة. لذا جاء في كلامه "أن قسما من المستعمرين جعلوا (.....) الخصال الحميدة محورا لرفيهم وتقدمهم، ودفَعوا إلينا الطبايع الرذيلة والأخلاق السّفِيهة".¹¹

إنّه يجب على المسلمين اليوم أن يعترفوا بوجود هذا الدّاء وأن يذلّوا كل ما هو في وسعهم من أجل تعديل هذا الاعوجاج، وإلا فإنهم لن يصلوا إلى التخلص من آثار الاستعمار كلياً. فيبقى بالتالي يعانون من تلك الآفات التي حط من شأنهم. ولمعالجة هذا الدّاء لا بد على المسلمين أن يرجعوا إلى التعاليم الإسلامية الصحيحة، لأنّها هي الكفيلة باسترجاع الكرامة التي تفضل بها الله عليهم، كاملة غير منقوصة. يؤكد النورسي في كتاباته العديدة كما يؤكد في هذه الخطبة أنه بهذا الكلام لا يريد أن يشوّق أحداً على الخوض في عالم السياسة، لأن العمل السياسي بحد ذاته لا يؤدي إلى إحياء أسس الأخلاق ولا إلى إعادة بناء سجايا المجتمع. ويحذر في أماكن عديدة أن يستخدم الإسلام كوسيلة للوصول إلى أغراض سياسية. ومما جاء في خطبة النورسي الفقرة التالية:

"أرجو أن لا يذهب بكم الظنّ بأنني بكلامي هذا استنهض.... للاشتغال بالسياسة - حاش لله - فإن حقيقة الإسلام أسس من كل سياسة، بل جميع أصناف السياسة وأشكالها يمكن أن تسير في ركاب الإسلام وتخدمه وتعمل له، وليس لأي سياسة كانت أن تستغلّ الإسلام لتحقيق أغراضها".¹²

الدّاء السادس: الأنانية - الدّواء: الشورى.

لا يقبل النورسي أن يلوم المسلمون الاستعمار على كل ما يحدث لهم من تأخر وضعف. فالدّاء الأخير الذي يشخصه النورسي في أوساط المجتمعات الإسلامية، هو حصر الناس نظرهم في منافعهم الشخصية وحدها.¹³ وكما أنه ليس من الإيمان أن يُذلل المسلم أخاه، كذلك ليس من الإيمان أن يتذلل المسلم أمام الطغاة، لأنه من الشرك أن يكون العبد عبداً لغير الله.¹⁴

ثم إنّ الانشغال بالمصالح الشخصية فقط، وعدم المبالاة بمصلحة الأمة سوف يؤدي حتماً إلى تعطيل حركة الانكشاف الحضاري وتأخيرها إلى أجل غير مسمى.

ليس هناك وسيلة أخرى غير وسيلة الشورى للخروج من هذه الأزمة. فالشورى عند النورسي هي التي تمثل الحل الإسلامي لمشكلة الاستبداد والأنانية وهي الأساس الذي يبنى عليه الحرية الشرعية والانكشاف الحضاري. ذلك أن الشورى هي "تلك الحرية النابعة من الشريعة ومن الشهامة الإسلامية والشفقة الإيمانية" وهي الجديرة بأن تفك المسلمين

من قيود الاستبداد بشي أنواعه".¹⁵ فلو كفّ الناس عن حصر نظرهم في مصالحهم ومشاريعهم الشخصية، وأخذوا يتشاورون فيما بينهم في جوّ يسوده الإخلاص والتساند "لتمكنّ عشرة أشخاص من أنجاز ما يقوم به ألف شخص".¹⁶ إن احتياجات البشرية ومشاكلها لا تحدّ ولا تحصى. وما دام الأمر هكذا فالنورسي على قناعة بأنّ الناس مدعوّون أن يتعاونوا فيما بينهم وأن يتعارفوا ويتبادلوا خبراتهم إن كانوا يريدون الوصول إلى منافع حقيقية. يقول النورسي في هذا الصدد: "لا بدّ أن يكون أمام أولئك الأعداء غير المحدودين والحاجات التي لا تحصر، نقطة استناد تنبع من الإيمان، فكما تستند الحياة الشخصية إلى تلك النقطة فإنّ الحياة الاجتماعية أيضاً إنما تستطيع أن تدوم وتقام بالشورى الشرعية النابعة من حقائق الإيمان، فتقف أولئك الأعداء الشرسين عند حدهم وتبلى تلك الحاجات".¹⁷

حاصل الكلام

لا شك أن الخطبة الشامية موجهة بالدرجة الأولى إلى المجتمعات الإسلامية. والنورسي بتحليلاته وتشخيصاته التي أتى بها في هذه الخطبة، إنّما كان يحاول أن يبين للمسلمين طريقاً تساعدهم على التخلص من العيوب والآفات الاجتماعية، وتسمح لهم بإعادة بناء مجتمع منسجم ومؤهل للازدهار والانكشاف الحضاري. بيد أنّه يتوجب على كرجل نصراني أن أشير إلى النقطة الآتية. إنني لا أجد أية أمانة في هذه الخطبة تشعري بأنّ النورسي كان يريد تحريض المسلمين على النصارى. بالعكس يجدر بنا الذكر أن كل ما نقرؤه في ثنايا رسائل النورس يرينا بوضوح بأنّ النورسي لا يؤدّ محاصمة النصارى الحقيقيين باعتبار أنّ هؤلاء يعبدون الله مثله ويتمسكون بالقيم الدينية مثله. إن عالمنا اليوم في وجهة نظر النورسي بحاجة إلى مسلمين حقيقيين ونصارى حقيقيين يسهرون معاً على صيانة القيم النابعة عن الإيمان بالله. وإنني لأجد في الخطبة الشامية التي عالج فيها النورسي مشاكل المجتمعات الإسلامية، وصفة طيبة لكثير من الأمراض في العالم النصراني: ذلك أنّه يمكن للمجتمعات النصرانية أن تستفيد من عديد من المسائل التي أثارها النورسي في تلك الخطبة.

إنّ المجتمعات النصرانية في أمريكا اللاتينية وأفريقيا على سبيل المثال قد أصيبت بمضار الاستعمار على الرغم من قوة تدينها. فهي أيضاً معرضة لأمراض اليأس، والخيانة، والعداوة، والتفرقة والاستبداد والأناية، وهي أيضاً محتاجة إلى دواء الأمل والصدق، والحبة، والاتحاد، والكرامة الإنسانية والشورى كما تحتاج إليها المجتمعات الإسلامية إن

لم تكن تحتاج له أكثر. أما المجتمعات النصرانية المتقدمة فيمكنها هي الأخرى أن تستفيد من تلك الإنذارات التي وجهها النورسي إلى المجتمعات التي تتبنى المنافسة كمنط للحياة والاقتصاد العدائي كمنط تعايشن متناسية مكانة الله وحاجات الناس الدينية.

يمكنني أخيراً أن أردّ على تلك الأسئلة التي طرحتها في بداية هذا البحث بالإيجاب. أجل إن الخطبة الشامية لا زالت ذات صلة بالقرن الواحد والعشرين ولا زالت مناسبة لتحدياته. أجل، إنا لنجد في تحليلات النورسي كما هي بادية في هذه الخطبة ما يستحق أن يكون مدار انتباه نصارى العصر الحديث. لا يراودني شك بأن الكلمة السادسة من الخطبة التي تدور حول مسألة الشورى تتناول مسائل لا تهم المسلمين فحسب، بل تهم كل من يؤمن بالله ويعمل على تنفيذ مشيئته في الأرض. وأنا إنما قدمت هذه الأفكار حول الخطبة الشامية لسعيد النورسي من باب الشورى التي يُدعى المسلمون والنصارى إليها اليوم.

ترجمة : رضا عامر

الهوامش

- 1 صيقل الإسلام، ص 492
- 2 صيقل الإسلام، ص 508
- 3 نفس المصدر
- 4 نفس المصدر
- 5 نفس المصدر
- 6 نفس المصدر
- 7 صيقل الإسلام، ص 510
- 8 صيقل الإسلام، ص 512
- 9 صيقل الإسلام، ص 513
- 10 نفسه
- 11 نفسه
- 12 صيقل الإسلام، ص 512
- 13 صيقل الإسلام، ص 514
- 14 صيقل الإسلام، ص 514
- 15 صيقل الإسلام، ص 514 بتصرف
- 16 صيقل الإسلام، ص 514
- 17 صيقل الإسلام، ص 515

الرؤية النُورُسية لبعض القضايا الحضارية الشائكة

أ.د. عبد الحليم عويس^٥

توطئة:

عند الحديث عن بعض الجوانب الحضارية في فكر النُورُسي تتراحم قضايا كثيرة يشد بعضها بعضاً...
ذلك أن النُورُسي عاش هموم أمته، محلاً لأسباب تخلفها، باحثاً عن وسائل نهضتها، يقرأ - بعمق - كتاب الله المسطور (القرآن) ويتأمل - كذلك - كتابه المنظور (الكون) ليجد ما يقوده إلى علاج الحاضر وبناء المستقبل.
وقد كان صعباً أن نلم بكل الجوانب، ولهذا انتقينا ثلاث قضايا دالة على منهجه، يقود الوعي بها إلى خير كثير في فقه التاريخ والحضارة من منظور قرآني كوني متناغم متكامل...
وهذه القضايا هي:
الإنسان بين وظيفة المرأة العاكسة والفاعلية الحضارية.
مدرسة قرآنية تواجه حضارة الغرب المادية.
سائلين الله التوفيق والقبول...

^٥ من مواليد المحلة الكبرى بمصر سنة 1943. نال الشهادات العليا (الماجستير والدكتوراه) من جامعة القاهرة. أصبح استاذاً في جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض_السعودية_ وتولى منصب نائب رئيس الجامعة لسنتين في الجامعة نفسها. نشر له أكثر من خمسين مؤلفاً في التاريخ الإسلامي وثقافته . اشرف على مايقرب من ثلاثين رسالة ماجستير والدكتوراه. وهو الآن نائب رئيس جامعة روتردام الإسلامية بهولندا.

الإنسان بين وظيفة المرآة العاكسة والفاعلية الحضارية

لم يقدم لنا (بدیع الزمان سعید النورسي) - في كلام مباشر - نظرية فلسفية يفسر من خلالها حركة التاريخ.

إنه أصلاً لم يحاول أن ينطلق من قواعد الانطلاق الفلسفية؛ لأن قاعدة انطلاقه كانت قرآنية خالصة، وكان يحافظ عليها من عوامل التأثير - أو التشويه الفلسفية؛ لا لأن قواعد الانطلاق القرآنية كافية فحسب، بل لأن إقحام فكر فلسفي مكون من أخلاط مشوبة بالتأثيرات المادية أو السوفسطائية من شأنه إفساد الرؤية أو قاعدة الانطلاق القرآنية!!

ومع ذلك فعندما أمعنت النظر في الرؤية (النورسية) التي لاشك في أنها جديدة ورائعة حول كليات أسماء الله الحسنى وانعكاساتها في الإنسان الذي جعله الله (مرآة) تنعكس عليها اسماءه الحسنى، فتظهر قدرة الله المطلقة من خلال قدرة الإنسان النسبية ويظهر علم الله المطلق في مرآة علم الإنسان النسبي...

وهكذا تظهر آثار سمع الله (السميع) وبصر الله (البصير) وحكمة الله (الحكيم)... أقول: عندما أمعنت النظر في هذه الرؤية التي يكاد (النورسي) ينفرد بها على هذا النحو التفصيلي والتطبيقي والتمثيلي الرائع، أيقنت أن النورسي كان يقدم رؤيته لأسماء الله الحسنى رؤية تركيبية ذات إطار معرفي قرآني يفسر به حركة الإنسان... الإنسان كفرد... الإنسان كمجموع (تاريخ وحضارة)... الإنسان وحركة الكون... وأما الآثار أو ما يسميه المنظرون لفلسفة التاريخ بالعامل الاقتصادي أو العامل الاجتماعي، أو الروحي أو النفسى... أو الفردى (الصفوة - النخبة) أو (الجماعى - الاشتراكي)... أما كل هذه العوامل فليست إلا بعض مظاهر لفاعلية الأسماء الحسنى في حركة الإنسان والكون، فاعلية رحمة من (الرحيم الرحمن) فتنتهي إلى سعادة وصعود.. أو فاعلية نقمة من (المنتقم الجبار) فتنتهي إلى شقاء وسقوط!!

إن الله هو الفاعل في التاريخ، وإليه يجب أن تعزى حركة الإنسان والحضارة والكون.. و(الإنسان) هو المرآة العاكسة لتجليات الأسماء الحسنى... وهو بالتالى - الأمور بنقل صورة هذه الأسماء إلى الحياة، إبداعاً وإرادة وقوة وعدلاً وقدرة ورحمة... إنه المستخلف، وليست حقيقته الكبرى الأنية (أنا) إلا في القيام بوظيفة نقل أسماء الله

الحسنى إلى عالم الأرض والكون... لأنه الوحيد من بين كل الكائنات - حتى الملائكة - الذى يملك الإرادة والحرية وعصيان الله وأيضاً - طاعة الله - بطريقة اختيارية!!
 إن (أنا) مفتاح، يفتح الكنوز المخفية للأسماء الإلهية الحسنى، كما يفتح مغاليق الكون. فهو فى حد ذاته طلسم عجيب، ومعنى غريب، ولكن بمعرفة ماهية (أنا) يحل ذلك الطلسم العجيب وينكشف ذلك المعنى الغريب (أنا) ويفتح بدوره لغز الكون، وكنوز عالم الوجود.

ويقول: "اعلم أن مفتاح العالم بيد الإنسان، وفى نفسه، فالكائنات مع أنها مفتحة الأبواب - ظاهراً - إلا أنها منغلقة - حقيقة - فالحق سبحانه وتعالى أودع من جهة الأمانة فى الإنسان مفتاحاً يفتح كل أبواب العالم، وطلسماً يفتح به الكنوز المخفية لخلاق الكون، والمفتاح - هو ما فىك من (أنا) إلا أن (أنا) أيضاً معنى ومغلق وطلسم منغلق فإذا فتحت أنا بمعرفة ماهيته الموهومة - وسر خلقته - انفتح لك طلسم الكائنات كالاتى:

إن الله جل جلاله وضع بيد الإنسان أمانة هى: (أنا) الذى ينطوى على إشارات ونماذج يستدل بها على حقائق أوصاف ربوبيته الجليلة وشؤونها المقدسة أى يكون (أنا) وحدة قياسية تعرف بها أوصاف الربوبية وشؤون الألوهية¹.
 ويقدم لنا النورسى - من خلال الكلمة العاشرة فى مبحث الحشر - بعض الحقائق التى تومئ إلى تجليات الأسماء الحسنى فى التاريخ والكون:

الحقيقة الأولى: باب الربوبية والسلطنة، وهو تجلى اسم (الرب)².
 الحقيقة الثانية: باب الكرم والرحمة، وهو تجلى اسم (الكریم والرحيم)³.
 الحقيقة الثالثة: باب الحكمة والعدالة، وهو تجلى اسم (الحكيم والعدل)⁴.
 الحقيقة الرابعة: باب الجود والجمال، وهو تجلى اسم (الجواد والجميل)⁵.
 الحقيقة الخامسة: باب الشفقة وعبودية محمد صلى الله عليه وسلم، وهو تجلى اسم (المجيب والرحيم)⁶.

الحقيقة السادسة: باب العظمة والسرمدية وهو تجلى اسم (الجليل والباقي)⁷.
 الحقيقة السابعة: باب الحفظ والحفيظة، وهو تجلى اسم (الحفيظ والرقيب)⁸.
 الحقيقة الثامنة: باب الوعد والوعيد، وهو تجلى اسم (الجميل والجليل)⁹.
 الحقيقة التاسعة: باب الإحياء والإماتة، وهو تجلى اسم (الحى القيوم والمحيى والمميت)¹⁰.

الحقيقة العاشرة: باب الحكمة والعناية والرحمة والعدالة، وهو تجلى اسم (الحكيم والكریم والعدل والرحيم)¹¹.

الحقيقة الحادية عشرة: باب الإنسانية، وهو تجلى اسم "الحق" ¹²
الحقيقة الثانية عشرة: باب الرسالة والتنزيل وهو تجلى "بسم الله الرحمن الرحيم" ¹³
فنحن بإزاء فاعلية وظيفية محددة تتجلى فيها الأسماء الحسنی فترعى حركة الإنسان
والحياة والكون، بحكمة وقدرة وعلم وعدل.
وفي الوقت نفسه قد تكون الرحمة أو الرأفة - مع الحكمة والعلم والقدرة والعدل
متألقة في صورة من الصور، وقد تكون الجبارية أو الانتقامية متألقة في صورة أخرى
تستوجب حالتها العقوبة والتأديب.

إن المساحة الفسيحة للكون والحياة وتقلبات الأمور عبر هذه المساحة بين انسجام
وصدام وعدل وظلم ورعاية الله العليم الخبير لهذه المساحة كلها، من خلال "مفاتيح
الغيب" التي لا يعلمها إلا هو... هذه الرعاية تشرق عبر مساحة الحياة والكون بتجليات
إلهية تناسب كل حالة على حدة، وتحقق عدل الله ورحمته.

ولا يمكن القول بأن (الأسباب) الإنسانية أو الكونية الظاهرة أو غير الظاهرة، أو
العوامل التي يبصرها الناس ويسمونها العوامل المادية أو الاقتصادية أو النفسية المحركة
للتاريخ هي (الفاعلة) فليست إلا الشكل الذي يستطيع الناس أن يفهموه أو يبصروه أو
يتعاملوا معه... أما الفعل الحقيقي فليس هو الظل الذي انعكس في المرآة وإنما هو الأصل
أو هو الحقيقة المؤثرة نفسها، والتي قد يبصر الإنسان انعكاساتها في مرآة نفسه وقد لا
يبصرها...

إنني أعتقد أن النورسي من خلال معالجته الرائدة لأسماء الله الحسنی قد اقترب بنا على
نحو غير مسبوق من محورين خطيرين:

أولهما: لقد أصبح بإمكاننا إلى حد ما أن نفهم بعض ملامح تدبير الله للكون. لقد
تطور فقهاء العبادى أو الدعاوى السكونى بأسماء الله الحسنی... إننا نكاد نستشعر بقوة
معنى كلمات الله التي لا تنتهى، وهي تقود حركة التاريخ والكون انطلاقاً من الأضواء
التي ألقاها النورسي على تجليات أسماء الله الحسنی، ولعل هذه الأضواء النورسية تعيننا
على فهم أعمق لقوله تعالى في القرآن الكريم: "قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي
لَنَفَدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا" [الكهف: 109].
يقول النورسي:

"إن القرآن الكريم يمنح تلاميذه سماءاً سامياً للروح وانبساطاً واسعاً لها، إذ يسلم إلى
أيديهم بدلاً من تسع وتسعين حبة من حبات المسيحة، سلسلة مركبة من ذرات تسع
وتسعين عالماً من عوالم الكون التي يتجلى فيها تسع وتسعون اسماً من الأسماء الحسنی،

ویخاطبهم: هاؤم اقرأوا أورادكم بمذه السلسله، وهم بدورهم یقرأون أورادهم بتلك المسیحة العجیبة، ویزكرون رهم الكریم بأعدادها غیر المحددة".¹⁴

وفی خطابه للإنسان لیعرف حقیقة دوره (المرآة) یقول النورسی أيضاً:
"أیها الإنسان إن ما تملكه من نفس ومال لیس ملكاً لك، بل هو أمانة لیدك فمالك تلك الأمانة قدير علی كل شیء علیم بكل شیء، رحیم کریم یشترى منك ملكه الذی عندك لیحفظه لك لئلا یضیع فی یدك، وسیكافئك به ثمناً عظیماً، فأنت لست إلا جندياً مكلفاً بوظیفة فاعمل لأجله واسع باسمه فهو الذی یرسل إليك رزقك الذی تحتاجه ویحفظك مما لا تقدر علیه.

إن غاية حیاتك هذه ونتیجتها هی ان تكون مظهرًا لتجلیات أسماء ذلك المالك، ومعكساً لشؤونه الحکیمة.¹⁵

إن اسم الله (القدوس) تتألق تجلیاته فی حملات تطهیر الكون الصباحیة بالندی الذی یغمر الكون، وتصل قطراته إلى البراعم والثمار، فتزیدها خصوبة وروعة، وتهیئها لمواجهة یوم جدید لا یخلو من أتربة أو شمس حارة.

وأما أثر رحمته فتكاد تلمسها فی كل فصل من فصول السنة ... إنها عملیة بعث داخلیة وخارجیة عامة تتجدد بها الحیاة كلها: "فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" [الروم: 50]. إنها أثواب تلمسها الطبیعة فی كل فصل من فصول السنة بحيث تتكیف مع طبیعة كل فصل!!

وهكذا... وعلى هذا النحو... تتجلی بقية أسماء الله الحسنی علی الإنسان والكون... تجلیات تظهر من خلالها الرعاية الربانیة الكاملة.

وثانیهما: إن دور الإنسان فی التاريخ الإنسانی- بل والکونی - قد أصبح أكثر وضوحاً وألقاً وروعة... إن الإنسان هو (أنا) التي حملت الأمانة الواردة فی قوله تعالی: "إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا" [الأحزاب: 72].

ولیست الأمانة فی المنظور النورسی هی (الإرادة أو التکالیف) كما كان (التفسیر الشائع) وإنما الأمانة هنا أعظم من ذلك كله... إنها إظهار بعض تجلیات الأسماء الحسنی المطلقة فی عالم الإنسان النسبی، حتی یبصر الأحياء إبصار معاینة وتعقل بعض ومضات الفاعلیة المطلقة لأسماء الله الحسنی فی مرآة هذا الإنسان المحدود النسبی... فقدره الله

المطلقة تُرى بعض ومضاتها في قدرة الإنسان النسبية المحدودة، وعلم الله المطلق تُرى بعض آثاره في علم الإنسان النسبي المحدود. وهكذا الرحمة والعدل والحلم والكرم إلى آخره. وهكذا فإن صفات الله سبحانه وتعالى - كالعلم والقدرة- وأسماءه الحسنى - كالحكيم والرحيم - لأنها مطلقة ولا حدود لها ومحيطه بكل شيء، لا شريك لها ولا ند، لا يمكن الإحاطة بها أو تقييدها بشيء، فلا تُعرف ماهيتها، ولا يُشعر بها، لذا لا بد من وضع حدّ فرضي وخيالي لتلك الصفات والأسماء المطلقة، ليكون وسيلة لفهمها - حيث لا حدود ولا نهاية حقيقية لها - وهذا ما فعله (الأنانية) أى ما يقوم به (أنا) إذ يتصور في نفسه ربوبية موهومة، ومالكية مفترضة، وقدرة وعلماً¹⁶. وهكذا ...

ويقول النورسي أيضاً: " فقد اندرجت في (أنا) آلاف الأحوال والصفات والمشاعر المنطوية على آلاف الأسرار المغلقة التي تستطيع أن تدل وتبين - إلى حد ما - الصفات الإلهية وشئونها الحكيمة كلها.

أى أن (أنا) لا يحمل في ذاته معنى، بل يدل على معنى في غيره، كالمراة العاكسة والوحدة القياسية، وآلة الانكشاف¹⁷.

لقد عمّق الفقه النورسي دور الإنسان في صناعة الحضارة وأبرز حقيقة الصلة بين الله والإنسان، وقد أصبح هناك معنى أكثر ألقاً لمعنى الاستخلاف، وكذلك لمعنى الإنسان الرباني الموصول بالله، ولمعنى تفضيل الله لآدم على الملائكة. بل إننا نكاد - بالمنظور النورسي - نفهم إضافات جديدة لمعنى تعليم الله آدم الأسماء كلها، فليست هذه الأسماء مجرد مفردات تتصل بعالم الأشياء أو عالم القيم والعنويات. إنها قد تتصل ببعض القدرات والمواهب الفطرية التي تدفع الإنسان لفتح مغاليق السنن الكونية والاجتماعية وفقهاها، واستخدامها لتحقيق وظيفة الاستخلاف، ولإظهار بعض آثار تجليات الأسماء الحسنى، التي لا تطلق - في حدودها النسبية - على أحد إلا على هذا الإنسان... الإنسان المستخلف... الإنسان المراة... الإنسان الذي يسمح الله له وحده بأن يحمل بعض أسمائه - مع محدوديته ونسبته، فيكون أحياناً... الإنسان اللطيف الخبير الحكيم الكريم الرحيم... ويكون - في أحيان أخرى - الإنسان الجبار المتكبر العظيم... إنها مكرمة كبيرة... وإنها لأمانة عظيمة... لكن هل يؤدي الإنسان (المراة) حقها... أم يخون الأمانة... إنه كان ظلوماً جهولاً.

مدرسة قرآنية تواجه حضارة الغرب المادية

عندما تصفو المشارب، ويستقيم المنهج، وتتحد الغايات يلتقى الفكر حتى ولو وقع خلاف في بعض الاجتهادات الجزئية...

والتقارب الفكري الكبير الذي نلحظه بين العلامة محمد إقبال (1877 - 1938م) والعلامة بديع الزمان سعيد النورسي (1876 - 1960م) هو تقارب من هذا القبيل...

لقد كان الرجلان ينتميان إلى مدرسة القرآن، ويتلمذان عليهما بصفاء وإيمان وطلب صادق للحق، كما أنهما كانا يعيشان قلقاً واحداً هو تخلف المسلمين العملي في مواجهة تقدم الحضارة الأوربية القوي.

كما كانا يسعيان إلى غاية واحدة هي بعث المسلمين بعثاً قرآنياً يستوعب حضارة العصر، لكنه لا يحمل أوزارها وأوساخها وجراثيمها وتضحيتها بالدين والأخلاق. إن العلامة (سعيد النورسي) يكاد يعلن في كل صفحة من صفحات (رسائل النور) أنه (تلميذ للقرآن) وأن (أستاذية القرآن) هي التي ألهمته كل رسائل النور، وجعلته يبصر الكون والتاريخ والحياة بعين تستوعب الأشياء، لكنها تنفذ إلى ما وراء الأشياء وتفسر (حركة التاريخ) تفسيراً جامعاً للعوامل المنظورة المادية والعوامل المعنوية غير المنظورة. يقول النورسي: "القرآن الكريم مرشدنا وأستاذنا وإمامنا ودليلنا في كل أعمالنا".¹⁸ ويقول: "إن القرآن الكريم" المقروء" هو أعظم تفسير وأسماء وأبلغ ترجمان وأعلاه لهذا الكون البديع الذي هو قرآن آخر عظيم (منظور).

نعم إن ذلك الفرقان العظيم الحكيم هو الذي يرشد الجن والإنس إلى الآيات الكونية التي سطرها قلم القدرة الإلهية على صحائف الكون الواسع ودبجها على أوراق الأزمنة والعصور وهو الذي ينظر إلى الموجودات التي كل منها حرف ذو مغزى بالمعنى الحرفي... أي ينظر إليها من حيث دلالتها على الصانع الجليل"¹⁹

ولئن كانت كلمات النورسي التي اقتبسناها سابقاً تؤكد لنا أن النورسي (إنسان قرآني) فتح الله عليه ببصيرة قرآنية سامية وأنه نموذج للمسلم العصري الذي رباه القرآن فأصبح من الصفوة الذين اقتدوا برسول الله (عليه الصلاة والسلام) الذي كان قرآناً يمشى على الأرض...

ومع ذلك - بل لأجل ذلك - فهموا طبيعة العصر ومدنيته العوراء المادية فهماً موضوعياً... فاعترفوا بحسناتها... لكنهم حذروا الإنسانية - ولا سيما المسلمين - من بنيتها الإلحادية ومنهجها الدنيوي العنصري اللاأخلاقي.

ولئن كان النورسي هو هذا الرجل القرآني - فإن العلامة محمد إقبال كان - كذلك - ينتمي إلى هذه المدرسة القرآنية نفسها ويبصر - كذلك - بالبصيرة القرآنية كل

حقائق الحياة والكون ولا تخدعه (المادية الأوربية العوراء)، مع أنه كان يعرف حسنات أوربا... وقد عاش في أعماقها ونال شهادته وشطراً كبيراً من ثقافته من جامعاتها... يقول الشيخ أبو الحسن الندوى - (رحمه الله رحمة واسعة) - في حديثه عن أساتذة محمد إقبال:

أما الأستاذ الثاني الذي يرجع إليه الفضل في تكوين شخصيته وعقليته فهو أستاذ كريم لا يخلو منه بيت من بيوت المسلمين، إنه القرآن الكريم الذي أثر في عقلية إقبال وفي نفسه ما لم يؤثر فيه كتاب ولا شخصية، لقد أقبل على قراءة هذا الكتاب إقبال رجل حديث العهد بالإسلام فيه من الاستطلاع والتشوق ما ليس عند المسلمين الذين ورثوا هذا الكتاب العجيب فيما ورثوه من مال ومتاع ودار وعقار، وقد وصل هذا المهتم إلى إليه بشق النفس وعلى جسر من الجهاد والتعب، وكان سرور محمد إقبال باكتشاف هذا العالم الجديد من المعاني والحقائق أعظم من سرور (كولبس) لما اكتشف العالم الجديد ونزل على شاطئه... أما الذين ولدوا ونشأوا في هذا العالم الجديد فكانوا ينظرون إلى كولبس وأصحابه باستغراب ودهشة ولا يفهمون معنى لما كان يخامرهم من سرور وفرح، فإنهم لا يجدون في هذا العالم شيئاً جديداً.

لقد كانت قراءة محمد إقبال للقرآن تختلف عن قراءة الناس... ولهذا القراءة الخاصة فضل كبير في تذوقه للقرآن، واستطاعه إياه.

ولم يزل (محمد إقبال) إلى آخر عهده بالدنيا يغوص في بحر القرآن، ويطير في أجوائه يجوب في آفاقه فيخرج بعلم جديد، وإيمان جديد، وإشراق جديد، وقوة جديدة، وكلما تقدمت دراسته واتسعت آفاق فكره ازداد إيماناً بأن القرآن هو الكتاب الخالد، والعلم الأبدى وأساس السعادة ومفتاح الأفعال المعقدة وجواب الأسئلة المحيرة وإنه دستور الحياة ونبراس الظلمات ولم يزل يدعو المسلمين وغير المسلمين إلى التدبر في هذا القرآن العجيب وفهمه ودراسته والاهتداء به في مشكلات العصر واستفتائه في أزمات المدينة وتحكيمه في الحياة والحكم، ويعتب على المسلمين إعراضهم عن هذا الكتاب الذي يرفع الله به أقواماً ويضع به آخرين... يقول في مقطوعة شعرية له:

إنك أيها المسلم لا تزال أسيراً للمتزعمين للدين، والمحتكرين للعلم، ولا تستمد حياتك من حكمة القرآن رأساً، إن الكتاب الذي هو مصدر حياتك ومنبع قوتك، لا اتصال لك به إلا إذا حضرتك الوفاة، فتقرأ عليك سورة (يس) لتموت بسهولة، فواعجبا قد أصبح الكتاب الذي أنزل ليمنحك الحياة والقوة يتلى الآن لتموت براحة وسهولة.²⁰

وكما نرى فإننا - من خلال هذه النصوص - نشعر أننا أمام نصوص تختلف في الألفاظ لكن مضامينها واحدة ورؤيتها واحدة، ذلك لأن إقبال والنورسي معاً قد صفت مشاربهما، واستقام منهجهما، واتحدت غايتهما الربانية والإنسانية القائمة على التكامل بين الوحي والعقل والآخرة والدينا... لا على التصادم والرؤية الإلحادية المادية العوراء... وهما من خلال هذا المنهج الذي لن تسعد البشرية إلا به ولن يستأنف المسلمون قيادتهم للحضارة إلا عندما ينطلقون من قواعده - قد استطاعا تقديم أصول وكميات لتحقيق النهضة الإسلامية التي تستفيد من كل ما أفرزته الحضارة الأوربية من إيجابيات علمية... لكنها تضم إلى ذلك المنهجية الإنسانية الموصولة بالله وبرسالة الأنبياء وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم، لتحقيق إنسانية الإنسان التي ترتفع فوق مستوى الذوبان في المادية والشبيئية والغرائزية.

وانطلاقاً من هذا المنظور القرآني لم تخدعها المدنية الأوروبية، ولم ينسحقاً أمام مقولاتها وفلسفاتها، ولم يفقدا موازين العدل وموضوعية الرؤية أمام أضوائها الخادعة التي سقطت تحت إغراءاتها الأبخسرون أعمالاً: "الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُخْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا" [الكهف: 104].

كان إقبال - بعد أن عاش في أوروبا وسبر- عن كتب - غور مدنيتها - يسميها بالمدنية الفاجرة الناعمة الملمس التي تقتل الناس وهي تظهر هيامها بهم... وكان يحذر المسلمين من أن يقعوا في حياثل المدنية الأوروبية منبهرين بتقدمها العلمي والتكنولوجي، ناسين مخططها الجهنمي (العالمى) لإبادة غيرها بطريقة عنصرية.

لقد أبصر "إقبال" عن خبرة عميقة ومعايشة دقيقة جوانب الضعف الأساسية في مركب الحضارة الأوروبية، والفساد الذي عجت به طينتها، لاتبهاها المادى، وثورة أصحابها على الديانات والقيم الخلقية والروحية في عصر النهضة، وقد عزا فساد القلب والفكر الذي اتسمت به هذه الحضارة إلى أن روح هذه المدنية ملوثة غير عفيفة، وقد جردتها تلوث الروح من الضمير الطاهر ومن الفكر السامى والذوق السليم، وقد تسلط عليها - رغم المدنية الباذخة، والحكومات القوية، والتجارة الراجحة - القلق الدائم.

كما نوه بأساس حضارتها اللاديني، وبأنها عجت مع الثورة على الدين، فهى في خصومة دائمة مع الدين والأخلاق، وبالتالي فهى عاكفة على عبادة آلهة المادة، وتؤسس في كل يوم لها معبداً جديداً²¹.

إن شعار هذه الحضارة الغارة على الإنسانية، والفتك بأفراد النوع البشرى، وإن شغلها الدائم التجارة... إن العالم لا يسعد بالسلام والهدوء، وبالحب البريء النزيه، والإخلاص لله إلا حين تنهار هذه الحضارة الجديدة.²²

ويقول إقبال في شعره: "إن شعار الحضارة الحديثة الفتك بالإنسان الذى تقوم عليه تجارتها، وتنفق سلعتها..، ليست هذه المصارف العظيمة إلا وليدة دهاء اليهود الاذكياء، ذلك الدهاء الذى انتزع نور الحق من صدور بنى آدم... إن العقل والحضارة والدين حلم من الأحلام، ما لم ينقلب هذا النظام رأساً على عقب".²³

وفي مواجهة مشروعات هذه الحضارة الإبادية العولمية كان (إقبال) يحث المسلمين على أن يتمسكوا بذاتيتهم الإسلامية، وقد أدار كثيراً من شعره وفلسفته حول (الذات المسلمة). وإذا كان واجبا على المسلمين - كما يرى إقبال - أن يدرسوا العلوم الحديثة، فمن الأوجب عليهم - أيضا - أن يقرءوا القرآن كأنه أنزل عليهم (كما كان والد إقبال ينصحه) وأن يمارسوا التعاليم الاسلامية فى حياتهم.

وبينما رفض إقبال منصب نائب الملك فى إحدى مستعمرات بريطانيا حتى لا يعرض امرأته للسفور والاختلاط، فكذلك كان إقبال - باستعلاء المؤمن - يأسف لأنه أضاع بعض سنوات عمره فى الغرب (الغرب الذى يعبده بعض المسلمين).. وكان - بثقة المسلم - يقول: إن أوروبا تنتحر، والروح تموت عطشا فى سراها الخادع... إنها حضارة شابة- مجدائة سنهها، والحيوية الكامنة فيها- ولكنها تعاني من سكرات الموت، وإن لم تمت حتف أنفها فستنتحر وتقتل نفسها بخنجرها، ولا غرابة فى ذلك، فإن كل وكر يقوم على غصن ضعيف ليس له استقرار، ولا يستغرب أن يرث تراثها الدينى ويدير كنائسها اليهود، إن أساس هذه الحضارة ضعيف منهار.

إن الفكر المارد الذى أزاح الستار عن قوى الطبيعة أصبح بمجموعه يهدد وكر الغربيين ومهدهم، إن العصر يتمخض عن عالم جديد، وإن العالم القديم الذى حوله الغربيون مكاناً للقمار (يقامر فيه بأمن العالم وكرامة الامم) يلفظ أنفاسه الأخيرة.²⁴

إن عقلها الجريء يغير على ثروة الحب وينمو على حساب العاطفة... إن عماليقها وثوارها قد طغى عليهم التقليد فلا يخرجون - حتى فى ابتكاراتهم وثوراتهم - عن الطريق المرسوم والدائرة المحدودة.

إن تجارتها قمار، يربح فيه واحد، ويخسر ملايين، إن هذا العلم والحكمة والسياسة والحكومات التى تنجح بها أوروبا مظاهر جوفاء، ليس وراءها حقيقة، إن قادتها يمتصون

دماء الشعوب وهم يلقون دروس المساواة الإنسانية والعدالة الاجتماعية... إن البطالة والعرى وشرب الخمر والفقير هي فتوح المدنية الإفريقية.²⁵ إننا نشعر ونحن نقرأ كلمات إقبال والتورسي وكأنهما يتحدثان عن العولمة- الأوروبية - أو الأمريكية - المعاصرة التي يمدعون بها الشعوب، بينما يعترف عقلاؤها ومفكروها بأنها تخطط جهنمي لإبادة أربعة أخماس العالم... ونحن قد نشعر أكثر بحقيقة هذه الحضارة عندما نقرأ أفكارهما بوعي... ثم نقرأ - في الوقت نفسه - بنود (اتفاقية الجات) المفروضة قهرا على العالم ليزداد الغني غنى ويزداد الفقير (وهم معظم الإنسانية) فقراً... فيتأكد لدينا صدق التورسي وإقبال، وأن (شعر) إقبال كان شعرا إسلاميا يستشرف المستقبل، ويصير - من خلال المعاشة والرؤية القرآنية - أعماق هذه الحضارة، وحقيقة مخططاتها تجاه الإنسانية!!.. وكذلك كان فكر التورسي ممثلاً في موسوعته رسائل النور!!.

وليس عجيباً - مع استقامة المنهج وصفو المشرب، أن نجد اتفاقاً شبه كامل بين رؤيتي محمد إقبال وسعيد التورسي.. حتى في أسلوب النقمة والكراهية لفلسفة أوروبا ومخططاتها الجهورية التي لا تريد مدينة أوروبا أن تحيد عنها، مع كل ما عانت من حروب عالمية وأمراض اجتماعية وأخلاقية مستعصية!!.

بيد أننا - مع هذا القاسم المشترك بين إقبال والتورسي - نجد التورسي أكثر وضوحاً في إنصاف الجوانب الإيجابية للحضارة الأوروبية... وإشادة بالجوانب العلمية والروحية القديمة التي كانت قد وفدت إلى أوروبا مع مسيحية (عيسى عليه السلام)...!! إن التورسي لا ينكر إيجابياتها الواضحة... لكنه - كذلك - لا يعترف لها بأنها وحدها - صاحبة الحضارة، وأن الآخرين لم يقدموا شيئاً..، كما أنه لا يتجاهل مخازيها وماديتها وديويتها المهلكة... بالوضوح نفسه.

ولهذا نجد (التورسي) يزن الحضارة الأوروبية بموازين موضوعية عادلة، فيقدر لها إبداعها العقلي، وصناعاتها ووسائل اتصالها التي قربت المسافات، وجعلت الكرة الأرضية قرية واحدة. لكنه في الوقت نفسه يرفض أوروبا المتعنتة بالفلسفة المادية والثنية الغارقة في الانحلال والحيوانية...

يقول التورسي: "إن أوروبا اثنتان":

إحدهما: هي أوروبا النافعة للبشرية، بما استفاضت من النصرانية الحقة، وأدت خدمات حياة الإنسان الاجتماعية، بما توصلت إليه من صناعات وعلوم تخدم العدل والإنصاف، فلا أحاطب - في هذه المحاور - هذا القسم من أوروبا، وإنما أحاطب أوروبا الثانية، تلك التي تعفنت بظلمات الفلسفة الطبيعية، وفسدت بالمادية الجاشية،

وحسبت سيئات الحضارة حسنات لها، وتوهمت مساوئها فضائل، فسأقت البشرية إلى السفاهة وأردتها الضلالة والتعاسة".²⁶

وبالوضوح نفسه، والنقمة نفسها، والتحذير نفسه... راح النورسي يخاطب الحضارة الأوروبية - ممثلة في هذا الشق اللاديني للأخلاقى - قائلاً لها وللمفتونين بها: يا أوروبا الثانية (!!) اعلمي جيداً أنك قد أخذت بيمينك الفلسفة المضلة السقيمة، وبشمالك المدنية المضرة السفهية ثم تدعين أن سعادة الإنسان بهما. ألا شئت يداك، وبست الهدية هديتك، ولتكن وبالأعلى عليك، وستكون.

أيتها الروح الخبيثة التي تنشر الكفر وتبث الجحود!! ترى هل يمكن أن يسعد إنسان بمجرد تملكه ثروة طائلة، وترفله في زينة ظاهرة خادعة، وهو المصاب في روحه وفي وجدانه، وفي عقله وفي قلبه بمصائب هائلة؟ وهل يمكن أن نطلق عليه أنه سعيد²⁷؟! لقد طغت أوروبا الثانية - أو كادت - على أوروبا الأولى، وأساء ما في الأمر أن العالم الاسلامي يقتبس أكثر ما يقتبس من أوروبا الثانية، وتدفعه أوروبا نفسها بعيداً عن طريق أوروبا الأولى، فتمنع عنه علمها الإبداعي الدقيق، وتغدق على أبنائه أوراقاً تسمى الشهادات الجامعية!!

أما إذا وجدت من أحدهم إصراراً على العلم الحقيقي، وقدرة على الإبداع، فإنها تسعى إلى أن تحرم منه حضارته فتغريه بالمال والنساء حتى يقبل جنسيتها ويخدم حضارتها...!!

إنها تمنع خيرها الذي لا شك فيه، وتنشر - بكل الوسائل - شرها الذي لا خير فيه...!!

إن النورسي يعترف بهذا الجانب الإيجابي - أوروبا الأولى - فيقول: إن البشرية التي أخذت تصحو وتستيقظ بنتائج العلوم والفنون الحديثة، أدركت كنه الإنسانية وماهيتها، وتيقنت أنه لا يمكنها أن تعيش هملاً بغير دين.

لقد تيقظ الإنسان في عصرنا هذا، بفضل العلوم والفنون ونذر الحروب والأحداث المذهلة، وشعر بقيمة جوهر الإنسانية واستعدادها الجامع.²⁸

وعندما يتكلم النورسي - بإطلاق - عن المدنية فإنه يقصد المدنية بمعناها الصحيح (أوروبا الأولى)... أى أوروبا بحاسنها وجوانبها النافعة للبشرية وليس ذنوبها وسيئاتها، كما ظن الحمقى من الناس أن تلك السيئات محاسن فقلدوها وخربوا الديار، وقدموا الدين رشوة للحصول على الدنيا فما حصلوا عليها ولا حصلوا على شيء²⁹!!

إن أوروبا الثانية التي تكاد تقضى على أوروبا الأولى تحمل في أحشائها جرائم الظلم... وجرائم الدمار والفناء لنفسها وللبشرية... إنها تأسست على خمسة أسس سلبية مدمرة:

فنقطة استنادها: القوة بدل الحق، وشأن القوة الاعتداء والتجاوز والتعرض، ومن هذا تنشأ الخيانة.

وهدفها وقصدتها: منفعة خسيصة بدل الفضيلة، وشأن المنفعة: التراحم والتخاصم، ومن هذا تنشأ الجناية.

ودستورها في الحياة: الجدل والخصام بدل التعاون، وشأن الخصام: النزاع والتدافع، ومن هذا تنشأ السفالة.

ورابطتها الأساسية بين الناس: العنصرية التي تنمو على حساب غيرها، وتتقوى بابتلاع الآخرين، وشأن القومية السلبية والعنصرية: التصادم المريع، وهو المشاهد، ومن هذا ينشأ الدمار والمهلاك.

وخامستها: هي أن خدمتها الجذابة، تشجع الأهواء والنوازع، وتذليل العقبات أمامها، وإشباع الشهوات والرغبات، وشأن الأهواء والنوازع دائماً: مسخ الإنسان، وتغيير سيرته، فتتغير بدورها الإنسانية وتُمسَخ مسخاً معنوياً.³⁰

ومن خلال هذه الأسس الخمسة المدمرة السلبية التي تقوم عليها المدينة الأوروبية ينتهي النُورسي إلى كشف نتائج المشروع الحضاري (العولمي) الغربي تجاه الإنسانية، فيصل إلى النتائج نفسها التي انتهى إليها (إقبال)، وهي إبادة أربعة أحماس البشرية، ومن عجب أنها النتائج التي ينتهي إليها الفكر الاجتماعي والاقتصادي الحديث... يقول النُورسي:

إن معظم هؤلاء المدنيين، لو قلبت باطنهم على ظاهرهم، لرأيت في صورتهم سيرة القرد والتعلب والثعبان والذئب والخنزير.³¹

"ولأجل هذا فقد دفعت هذه المدينة الحاضرة ثمانين في المائة من البشرية إلى أحضان الشقاء وأخرجت عشرة بالمائة منها إلى سعادة مموهة زائفة. وظلت العشرة الباقية حيارى بين هؤلاء وأولئك، علماً بأن السعادة تكون سعادة عندما تصبح عامة لكل أو للأكثرية، بيد أن سعادة هذه المدينة هي لأقل القليل من الناس".³²

وإذا قارنا هذا الكلام بما انتهى إليه الباحثان الألمانيان (مؤلفا كتاب فح العولمة) اللذان ينتهيان إلى النتيجة نفسها، مع أنهما مفكران اقتصاديان معاصران ينطلقان من رؤية ليبرالية (اقتصادية بحتة) لكنها موضوعية إنسانية!!.. إذا قارنا كلام إقبال والنُورسي السابق، بما

انتهى إليه هذان الباحثان (مارتين وشومان)، أدركنا كيف أن المفكرين المسلمين الكبارين ينطلقان من رؤية قرآنية موضوعية تلتقى مع رؤية العقل السليم العلمية الموضوعية، وأدركنا أيضا كيف أن الله يمنح المفكرين المسلمين المخلصين إلهاما يستشرف الغيب، ويستقري المستقبل، حتى ولو لم تتوافر لديهم وسائل البحث العلمي وأدواته الكاملة، ما دامت رؤيتهم قرآنية واعية..

لننظر، ولنقارن ما يقوله (مارتين وشومان) بما انتهى إليه النورسي وإقبال.. يقول مؤلفا كتاب (فخ العولمة) المترجم إلى العربية في أكتوبر 1998م (جمادى الآخرة 1419هـ):³³

"لم يعد (أى فى ظل العولمة الحديثة) مجتمع الثلثين (الأثرياء - والثلث الفقير) الذى كان الأوروبيون يخافون منه فى الثمانينات هو الذى يقرر توزيع الثروة والمكانة الاجتماعية بل سيحددها فى المستقبل نموذج العولمة الجديد القائم على صيغة 20% (يعملون) و80% (عاطلون عن العمل). لقد لاح فى الأفق مجتمع الخمس، هذا المجتمع الذى سيتعين فى ظله تهدئة حواطر العاطلين فيه عن العمل بما يسمونه (Tittytainment) (الصدقة أو المعونة الاجتماعية).

ويقول المؤلفان - أيضا - : "إن 20% (عشرين بالمائة) من السكان العاملين ستكفى فى القرن القادم للحفاظ على نشاط الاقتصاد الدولي (...). ولكن ماذا عن الآخرين؟ ماذا عن الثمانين بالمائة العاطلين وإن كانوا يرغبون بالعمل؟ إن الثمانين بالمائة من الطبقة السفلى ستواجه بالتأكيد - كما يرى الكاتب الأمريكى جريمى ريفكن (Jeremy Refkin) مؤلف كتاب (نهاية العالم) - مشاكل عظيمة، ويعزز رئيس مؤسسة "سان" هذا الرأي مستشهدا بمدير شركته سكوت مك نيلى (Scoot Mc Nealy) إذ يقول: إن المسألة ستكون فى المستقبل هى: "أما أن تأكل أو تؤكل (To have lunch or be lunch)".³⁴

ولهذه النتيجة المؤسفة كل الأسف يرى (مارتين وشومان) أن نموذج الحضارة الذى ابتكره الغرب لم يعد صالحا لبناء المستقبل³⁵. (وكأنهما كما نرى يتكلمان بلغة إقبال والنورسي نفسها!!) وهما يعتقدان أن الدعاية المفرطة لهذا النموذج كانت جزءا من الحرب الباردة، ولهذا فإن هذا النموذج الأوروبي الحضاري يجب أن يوضع - بتعبيرهما - فى متحف الأسلحة القديمة!! وتسود الآن- حسب اعتقاد المؤلفين - عملية تحول تاريخى بأبعاد عالمية واضحة ينعدم فيها- تحت ضغط النموذج الغربى - التقدم والرخاء، ويسود التدهور الاقتصادى والتدمير البيئى والانحطاط الثقافى، فى ضوء حضارة التنميط³⁶... حضارة أوروبا وأمريكا!!..

وأعتقد انه من حقنا - بعد هذه النصوص التي أوردناها للمفكرين الألمانين الاقتصاديين (مارتين وشومان) والتي عرفها العالم العربي والاسلامى (وعرف كثيرا من أمثاله من الدراسات الجادة حول تأثير الهيمنة العولمية)..

من حقنا عندما نجد تطابقها الكبير - في مجمل الرؤى والحقائق والنتائج - مع ما ذكره وانتهى إليه إقبال والنورسي المفكران المسلمان... منذ نصف قرن... أى مع تفاوت الزمان، وتفاوت الثقافة والمنطلقات والمكان.. من حقنا أن نستنتج عددا من الحقائق الأساسية، على رأسها المصادقية الكاملة والأحقية المطلقة للمنظور القرآنى الذى انطلق منه إقبال والنورسي... فهو منظور (علم اليقين) وهو منظور (دراسة الإيمان الصحيح)..

ومن هذه الحقائق - أيضا - أصالة المفكرين المسلمين الكبارين وسلامة منهجهم وموضوعيتهم وتجردهما للحق.. فليس كل من يتعامل مع (الحق) قادراً على فهم دلالاته واستخلاص دروسه، وعلى التعبير عنه بطريقة علمية، وتوضيح الطرق الموصلة إليه والآليات المحققة له..

لكن إقبال والنورسي نجحا في تقديم الكثير في هذا الطريق!! وأخيراً فإن من الحقائق المستخلصة: التطابق - كما نرى في الآراء السابقة - بين معطيات الوحي الصحيح، واستنتاجات العقل الصحيح.. عندما تصفو المشارب ويستقيم المنهج وتتحل الغايات!!.

المستقبل للإسلام وحضارته الإيمانية:

ومع ذلك فإن الصراع بين المدنية الغربية المادية ذات البنية الملحدة، وبين حضارة الإسلام ذات البنية الإيمانية، لابد أن ينتهى بالنصر للإيمان والحق. إذا كان مقدراً في علم الله أن يبقى للبشرية بعض الوجود.. فلا وجود إلا بالروح والضمير والعقل والمادة معا.. ولا إنسانية إلا بالوحي والعقل... والنبوة والعلم.. وبما أن المدنية الأوروبية (والأمريكية) قد مزقت هذا النسيج المتكامل... واكتفت بالعقل والمادة.. فإنها لم تعد قادرة على الاستمرار في القيادة مهما كانت كثافة السحب التي تحجب الحقائق والقيادة بالتالى لابد أن تعود للإسلام وحضارته... ولابد أن يتقدم المسلمون الصادقون الصالحون لإنقاذ سفينة الإنسانية...

وفي رأى (إقبال) أن الحضارة الغربية قد أدت دورها، وشاقت وهرمت، وأبغدت كالفأكة، وحان قطافها، وأن العالم القديم الذى حوله مقامرو الغرب إلى حانة للفساد سينتهى قريباً، وأن الإنسانية سوف تتمخض عن عالم جديد. ويعتقد (محمد إقبال) أن

هذا العالم الجديد لا يحسن تصميمه إلا من بنى للإنسانية البيت الحرام بالأمس في مكة مركز الأرض، وورث إبراهيم ومحمدا صلى الله عليه وسلم في قيادة العالم وإرشاده. ولذلك يهيب (محمد إقبال) بهذا المسلم النائم، أن يقوم ويمسح النوم عن عينيه، فقد ظهر الفساد في البر والبحر، وعات الأوروبيون في الأرض، وأفسدوا فيها بعد إصلاحها، وخربوا العالم وملئوه ظلماً وظلمات، وشروراً وويلات، وليست هذه الأرض إلا بيتاً من بيوت الله جعلها مسجداً وطهوراً، وأذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه، ولكن الأوروبيين حولوها إلى خمارة، وبيت فسق ودعارة، ومكان نهب وإغارة، وقد آن لباني البيت الحرام وحامل رسالة الإسلام أن يقوم ويصلح ما أفسده الأوروبيون، ويعيد هذه البيت إلى قواعد إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم، ويبني العالم من جديد.³⁷

أما النورسي فيحدثنا الحديث نفسه تقريباً.. ويقول: "إنه بطغيان ذنوب المدنية على محاسنها، ورجحان كفة سيئاتها على حسناتها، تلقت البشرية صفتين قويتين بحريين عالميتين، فأتتا على تلك المدنية الآئمة، وقاءت دماءً لطححت وجه الأرض برمتها، وسوف تغلب بإذن الله محاسن المدنية بفضل قوة الإسلام التي ستسود في المستقبل وتطهر وجه الأرض من الأذناس وتحقق أيضاً سلاماً عاماً للبشرية قاطبة..

نعم لما كانت مدينة أوروبا لم تتأسس على الفضيلة والهدى، بل على الهوس والهوى، وعلى الحسد والتحكم، تغلبت سيئات هذه المدنية على حسناتها إلى الآن. وأصبحت كشجرة منحورة بديدان المنظمات الثورية الإرهابية، وهذا دليل قوى ومؤثر على قرب انهيارها، وسبب مهم لحاجة العالم إلى مدينة آسيا (الإسلامية) التي ستكون الغلبة لها عن قريب³⁸!!

إنه استشراف ورؤية مستقبلية أخرى.. يلتقى فيها إقبال والنورسي، مع ما يقوله مؤلفا كتاب (فخ العولمة)!!..

وقد ظهرت الصحوة الإسلامية في العالم بعد عديد من النكبات والهزائم والاختبارات، وقد كادت الصحوة تمضي إلى غايتها.. لكن الأشواك توضع في طريقها، ويدفع إلى الوقوف ضدها كثير من المنافقين المسلمين... وبدلاً من أن يرشدوها للصواب. يدفعها بعضهم إلى الخطأ... وبينون على الخطأ الفردي والتطرف الشخصي سياسة مواجهة عامة للظاهرة.. ومع ذلك فإنهم - كما أشار النورسي - لم يكسبوا الدنيا حين باعوا الآخرة، ولم يرض عنهم الأعداء حين باعوا الإخوان والأصدقاء.

وفي كل يوم يصفعهم الأعداء - بأمر الله - صفعات قوية من الذلة والخيانة ونكث العهود... تحقيقاً لقوانين القرآن التي لا تتخلف، قال تعالى "ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم"³⁹.
 وقال تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَخْلَفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ. أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" [المجادلة:14-15].

لكنها مرحلة من مراحل الهوان سوف تنتهي بإذن الله، وسوف تعقبها إفاقة إنسانية عامة تبحث عن الحق، وتسعى إليه بعد أن يصل الأمر إلى مداه...!!
 وإن لدى الإسلام مؤهلات النصر والتفوق والسيادة... لديه الحقيقة الإسلامية أستاذ جميع الكمالات... ولديه حاجة البشرية الملحة إلى هذا الأستاذ الحقيقي والقائد الحقيقي للمدنية الصحيحة اللاتئة بالإنسان.
 ولديه الحرية الممزوجة بالشرعية، التي تمزق الاستبداد، وتقضى على الفوضى اللإنسانية. ولديه الشهامة الإيمانية الممزوجة بالرحمة والصرافة. ولديه العزة الإسلامية التي تعلن إعلان كلمة الله.. بالوسائل المادية والمعنوية معاً.
 وكما صدقت توقعات النورسي في الماضي القريب فسوف تصدق - بإذن الله - توقعاته بانتصار الإسلام في المستقبل القريب... والبعيد أيضاً...!! والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

الهوامش:

- 1 بديع الزمان سعيد النورسي - كليات رسائل النور (الكلمات) ص 635، 636.
- 2 النورسي: الكلمات: طبع سوزلر للنشر ط2 - مصر - 1412هـ - ص 65.
- 3 السابق ص 65
- 4 السابق ص 68
- 5 السابق ص 70
- 6 السابق ص 72
- 7 السابق 76
- 8 السابق 81
- 9 السابق 84
- 10 التاسعة 85
- 11 السابق 88
- 12 السابق 94
- 13 السابق 96

- 14 للمعات 182
15 للمعات 183
16 بيدع الزمان النورسي - الكلمات ص 636
17 المرجع السابق ص 637
18 انظر المكتوبات ص 476 في المسألة السابعة من المكتوب الثامن والعشرين نشر سوزلر ط 1413/2هـ، القاهرة.
19 بيدع الزمان سعيد النورسي - الكلمات (كليات رسائل النور) ج 1 ص 143 نشر سوزلر ط 1412/2 القاهرة
20 روائع إقبال - أبو الحسن على الندوى - المجمع الإسلامي العلمي - ندوة العلماء لكنؤ - الهند - ص 51 - 53 ط 4 / 1401هـ
21 روائع إقبال - أبو الحسن الندوى ص 82.
22 المرجع السابق ص 83
23 المكان السابق.
24 روائع إقبال - أبو الحسن الندوى ص 83-84
25 المكان السابق ص 84.
26 النورسي: للمعات: ترجمة أ / إحسان قاسم الصالحى 176، 177 ط 2 / 1413هـ. القاهرة.
27 للمعات 177.
28 النورسي: صيقل الإسلام - كليات رسائل النور ص 494 - نشر سوزلر ط 3 / 1999 مصر.
29 صيقل الإسلام 501.
30 النورسي: الكلمات 855 طبع مصر سوزلر ط 2 / 1412هـ وانظر: النورسي: صيقل الإسلام 357 ط 3 / 1999 مصر "سوزلر".
31 بيدع الزمان النورسي - الكلمات ص 855 - كليات رسائل النور - 1.
32 صيقل الإسلام ص 357 والكلمات 856 ويقول النورسي وكأنه عالم اقتصادى يعاصر عولمة أمريكا الكذوب: "وتتجمع الأرباح التجارية بأيدي أقلية ظالمة" الكلمات ص 856.
33 ضمن سلسلة عالم المعرفة: فخ العولمة: الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية - عدد 238 ص 28 - نشر المجلس الوطنى للثقافة - الكويت. مراجعة وتقديم د / رامز زكى - ترجمة د / عدنان عباس على.
34 فخ العولمة ص 26.
35 فخ العولمة ص 12 (المقدمة).
36 فخ العولمة: ص 12.
37 أبو الحسن الندوى - روائع إقبال ص 130 - 131 بتصرف. (وهذا لا يعنى الاستغناء عن ابداعات العقل الأوروبى التى أنجزتها أوروبا النافعة - الأولى - مع تسخيرها لخدمة الحق ونشر الإيمان والرحمة والتسامح.
38 صيقل الإسلام - بيدع الزمان النورسي ص 501.
39 النورسي: بتصرف من الخطبة الشامية - صيقل الإسلام 499، 500.

الرجل والمرأة كإنسانين في القرآن بمنظور رسائل النور

إيمان علي لاغا^Ψ

تمهيد:

الإنسان محور الحياة الدنيا.

قال الله تعالى: (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ). [الذاريات : 21]

آية كريمة تختصر بكلمات قليلة معجزة عظيمة هي معجزة النفس الإنسانية مع كل ما تحمل كلمة إنسان من دلالات ترمز إلى تكوينه الجسدي والعقلي والفكري والاجتماعي...

ويعتبر العمل على هذه الأصعدة من أصعب الأمور على الإطلاق، ذلك أن مناط أحوال الدنيا التغير والتطور والتجدد.

وهذه الحركة المستمرة تطال كل سمات الحياة الدنيا من مآكل وملبس ومسكن وطرق كسب الرزق وأساليب الرفاهية والتعبير عن المشاعر وطرق التفكير وغير ذلك مما لا نهاية له من ردادات فعل بشرية، وتفاعل مع البيئة المحيطة ومن محاولات مستمرة يقوم بها الإنسان لتحقيق مبدأ تسخير الكون وبسط سيادته على هذه الأرض الفانية.

وكل هذه الأحداث إنما هي تتمحور حول مركز ثابت لا يتغير وهو حقيقة الإنسان، أي خلقه وغاية وجوده، وهذا الجوهر يجعل النفس الإنسانية تتعامل مع مرادفات خلقها بتناغم يهدف للوصول إلى الغاية الأساسية وهي الخلود والحياة الأبدية.

وبالعودة إلى هذه النفس الإنسانية الثابتة، من حيث الجوهر والخلق نجد أنها ذات نزعات مختلفة تميل بطبعها وفطرتها إلى السكينة، يقول بديع الزمان سعيد النورسي: "إن اعتدال مزاج الإنسان ولطافة طبعه وميله إلى الزينة، أي ميله الفطري إلى العيش

^Ψ ولدت في صافيرا - طرابلس - لبنان سنة 1970 . تملك مؤسسة للترجمة (بحر المحيط) وتتولى كترجمة محلقة لدى المحاكم اللبنانية. تتقن الفرنسية والألمانية والإنكليزية.

اللائق بالإنسانية يدفعه إلى الابتعاد عن عيش الحيوان، فهو محتاج لتحصيل حاجاته في مأكله وملبسه ومسكنه، إلى تلطيفها وإتقانها بصنائع حمة¹.
وبذلك تكونت المجتمعات ونشأت الحياة المدنية وتطورت كل متغيرات الحياة.
ولم يترك الإنسان في هذه الأرض تائهاً تتنازعه أهواؤه وغرائزه وملذاته، وإنما جعل الله تعالى لهذه الحياة نظاماً وإطاراً، متى لزمه الإنسان تحققت الغاية من خلقه، ومتى حاد عنه واتبع هواه شرد وتاه في اللامعقول واللامسموح، لذلك، إن السياق القرآني يشد الإنسان إلى حقيقة خلقه والى الفطرة التي فطر عليها، فهو مخلوق له نزواته وغرائزه وأهواؤه، تلكم هي التي في إطارها الأعم متاع الدنيا، ثم بعد ذلك يشده السياق ليفهمه أن كل هذا المتاع الذي يحسبه ألد وأمتع ما يليب الرغبة والهوى والمزاج هو فقط في الإطار الأرضي، لكن الحقيقة الأكبر أن الله عنده حسن المآب، في الجنة حيث اللذة التي لا يشوبها الخطأ ولا يتهددها الحرمان والزوال، وهذا ما يطمئن ويهدئ الروح عند الإنسان².

وهكذا تصغر الدنيا في عينيه وتهون عليه ملذاتها فما متاع الدنيا في الآخرة إلا القليل، وتنطلق هذه النفس البشرية بشقيها، مدفوعة بنور الإيمان لعمارة هذه الأرض، باعتبارها جسر عبور إلى الأبدية والخلود.

الرجل والمرأة شقا النفس الإنسانية:

قال الله تعالى لملائكته: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) [البقرة: 30]..
وخلق آدم من تراب وبث فيه الروح، فكان أول إنسان كامل يحمل نفساً إنسانية واحدة خلقها الله تعالى لعمارة هذه الأرض بتقوى الله وعبادته وحسن الصلة به. قال الله تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [الذاريات، آية 56].

وقال تعالى أيضاً في معرض حديثه عن الخلق: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً) [النساء: 1]..

في بداية الخلق كانت النفس البشرية واحدة ثم شق الله تعالى منها زوجها، فخرجت حواء من ضلع آدم. وهكذا أضحت المرأة جزءاً من كل، وخسر الرجل جزءاً بنقصه، تنقص إنسانيته وكماله الذي خلقه الله عليه، لذلك يحتاج كل واحد منهما للآخر لإعادة اللحمة والوصول إلى الكمال الإنساني من جديد.

ومن هنا نلاحظ حقيقة مهمة وهي أن القرآن الكريم عندما يريد أن يخاطب النفس الإنسانية إنما هو يخاطب ذلك الأصل الكامل، فلا يميز بين رجل وامرأة إلا عندما يكون الخطاب خاصاً يمس في خصوصيته ميزة كل واحد مهما على حدة. وإن هذا الخطاب القرآني الشامل يظهر عظم اللحمة بين شقي النفس الإنسانية حتى كأن هذا الانسلاخ معدوم فيما يتعلق بعموم الخلق وغاياته وأهدافه. فالمرأة والرجل على حد السواء معنيان بالإيمان والإسلام والإحسان ومطالبان بتنفيذ أصول الشرع وفروعه من فقه وعبادة، وذلك بأساس تكليف النفس البشرية. ولم يخرج سياق الخطاب في رسائل النور عن ذلك الموجه في القرآن الكريم، إذ أن الكاتب لم يميز في عموم خطابه الإيماني بين الرجل والمرأة وإنما هو الإنسان بشقيه وكماله.

وذلك بدليل قوله للنساء: "فلتكن رسالة الحجاب في المقدمة، ومرشد الشباب، والكلمات الصغيرات نائبة عني في إلقاء الدرس عليكم يا أخواتي الطيبات"³. وإن مرشد الشباب والكلمات الصغيرات إنما هي موجهة في عموم خطابها إلى الإنسان دون تفريق بين رجل وامرأة والكاتب دائماً يشبه الإنسان بالجندي الذي: "بذكره لاسم الله تعالى يكون كمن انخرط في الجندي يتصرف باسم الدولة ولا يخاف أحداً حيث أنه يتكلم باسم القانون وباسم الدولة فينجز الأعمال ويثبت أمام كل شيء"⁴. ويقول النورسي مرشداً في هذه الكلمات: "إن كل من يجعل الحياة الفانية مبتغاه فسيكون في جهنم حقيقة ومعنى حتى لو كان يتقلب ظاهراً في مجبوحة النعيم. وإن كل من كان متوجهاً إلى الحياة الباقية ويسعى لها بمجد وإخلاص فهو الفائز بسعادة الدارين"⁵.

وهكذا هو مدار خطابه وحديثه في الرسائل كلها، حتى إذا ما كان الموقف موقف خصوص وتمايز، لزم الرجل مركزه وليست المرأة لبوسها.

اخور الأول:

النساء بطلات العطف والحنان:

يقول النورسي: "إن النساء نوع من المخلوقات الطيبة المباركة خلقها الله تعالى لأجل قضاء حياة أسرية سعيدة ضمن نطاق التربية الإسلامية"⁶. وهي جزء من كل لا تكتمل إلا بالتحاقها بشقها الثاني، وقد جبلت على الرقة والحنان والشفقة والدعة، لذلك هي حسب قول النورسي: "يجدن في أنفسهن حاجة إلى رجل يقوم على حمايتهن وحماية

أولادهم، فهن مسوقات فطرياً نحو تحييب أنفسهن للآخرين وعدم جلب نفرتهن وتجنب جفائهن واستنقاهن⁷.

ولم يزل موضوع المرأة مدار جدل وبحث لدى العديد من المفكرين المعاصرين، فقد شكلت قضية المرأة مادة دسمة لكل دعاة التغريب والتحرر كما يزعمون، إذ أن أول ما قاموا به لزعة المجتمع الإسلامي هو إخراج المرأة من بيتها ودفعها إلى نزع الحجاب، تارة بدعوى الحرية والتمدن، وطوراً بدعوى العلم والتطور.

يقول سيد سابق في معرض حديثه عن التبرج والاختلاط أن الفتاة "لا تفرق بين حرم الجامعة، وصالة عرض الأزياء"⁸.

ويقول أيضاً: وكان من نتائج هذا الانحراف أن كثر الفسق وانتشر الزنا، وإهدم كيان الأسرة وأهملت الواجبات الدينية وتركت العناية بالأطفال، واشتدت أزمة الزواج وأصبح الحرام أيسر حصولاً من الحلال.... وبلغ هذا الانحراف حداً لم يكن يخطر على بال مسلم⁹.

بل وقد بلغ بأحد دعاة التحلل الدعوة إلى تشريع الزنا بحجة أنه يرأف بالفتاة المحرومة من الأمومة فيقول: إن الفتاة التي تجد أن أفضل الطرق للتناسل هي الزواج، وإذا ما تقدمت بالسن وهي عزباء ولم تعد تأمل في الزواج، فأى خطيئة ترتكبها تجاه المجتمع وتجاه الناس إذ هي تمت أن تكون أما [خارج نطاق الزواج] ولا يجوز للشرع والقانون أن يعتبر وليدها ابن سفاح لا حقوق له... [ثم يضيف بوقاحة] فيقول: "ولا تفهمين أيها القارئ من كلامي أي من دعاة الإباحية، أعوذ بالله، فأنا أغار على الفضيلة أكثر بكثير من الذين يدعونها ولكني أواجه حقيقة تبدو ماثلة أمام عيني"¹⁰. إن ما قاله جورج حنا، يظهر إلى أي مدى بلغ التحلل عند أصحاب النفوس الشريرة الساعية إلى هدم هذا النظام الكوني.

وفي إشارة منه إلى هذه الحملة الشعواء، يقول النورسي: "لدى تصدي ضلالة الزندقة للإسلام وحرها معه فإن أرباب فرقة من الفرق المغيرة على الإسلام والتي تسير وفق مخطط النفس الأمارة بالسوء وسلمت قيادتها وإمرتها إلى الشيطان، هي طائفة من النساء الكاسيات العاريات اللاتي يكشفن عن سيقانهن ويجعلنها سلاحاً قاسياً جارحاً ينزل بطعناته على أهل الإيمان! فيغلطن بذلك باب النكاح ويفتحن باب السفاح"¹¹.

وأول ما دعا إليه دعاة التحلل هو خلع الحجاب، يحاولون بذلك التعرض لأهم ثوابت فطرة المرأة، ولعله الأخطر من بين كل المسائل ذات الصلة، لذلك لا بد من دراسة هذه المسألة بتفصيل أكثر.

مسألة الحجاب:

لقد حوت رسائل النور رسالة تكاد تكون أكثر الرسائل خصوصية بالنساء، بل هي تكاد تكون الوحيدة التي ميز فيها النورسي بين الرجل والمرأة وتوجه فيها إلى النساء مباشرة، ومن المفيد قبلولوج في الموضوع أن نذكر ما جرت به رسالة الحجاب على كاتبها واتباعه، إذ يذكر النورسي أنه بعد تحقيق دام ستة أشهر في محكمة "أسكي شهر" تمت تبرئة رسائل النور من تهمة تشكيل أية جمعية وأية طريقة صوفية، هذا ما عدا رسالة الحجاب (التي تعد جزءاً صغيراً فقط من رسائل النور)، حيث جعلوها تكأة وحجة - ليست قانونية بل بقناعة شخصية ووجدانية- مما أدى إلى الحكم بالسجن لمدة ستة أشهر لعشرة من طلاب النور¹².

ومن هذه الحادثة ندرك مدى خطورة هذا الأمر إذ أنه عمليه مساس بثبات أساسي تتمحور حوله عملية تطور الحياة وهو محاولة يائسة لنزع تلك الفطرة السامية التي فطر الله تعالى عليها النساء، ألا وهي الحجاب.

وفي رسالة الحجاب الشهيرة هذه يعرض الكاتب للخطاب القرآني الخاص حيث يتوجه الله سبحانه وتعالى إلى المرأة مشيراً إلى أحد أهم خصائص إنسانيتها. وقال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ) [الأحزاب: 59].

يقول النورسي في مقدمة رسالته: "هذه الآية الكريمة تأمر بالحجاب بينما تذهب المدينة الزائفة إلى خلاف هذا الحكم الرباني، فلا ترى الحجاب أمراً فطرياً للنساء بل تعده أسراً وقيداً لهن"¹³.

ويعرض صاحب الرسائل لأربعة حكم تدل على كون هذا الحكم القرآني يتوافق مع مقتضى فطرة النساء، وخلافه يناقض هذا الأصل، وسنورد باختصار هذه الحكم كما وردت في رسائل الحجاب¹⁴.

الحكمة الأولى:

وهي أن النساء يحملن في فطرتهن تحوفاً من الرجال الأجانب وهذا التخوف يقتضي فطرة التحجب وعدم التكشف، وتنبهها خلقتها الضعيفة تنبيهاً جاداً إلى التحفظ وتدفعها إلى التستر، ليحول دون إثارة شهوة غير المحارم وليمنع التجاوز عليها. [تطبيقاً لقول الله تعالى: (ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّ) (الأحزاب: 59)].

فالمرأة لكونها رقيقة الطبع سريعة التأثر تنفر حتماً ما لم تفسد أخلاقها وتبتذل -من نظرات خبيثة تصوب إليها والتي لها تأثير مادي كالسهم حتى أننا نسمع أن كثيراً من نساء

أوروبا وهي موطن التكشف والتبرج يشكين إلى الشرطة ملاحقتهن بالنظر إليهن،
قائلات: "إن هؤلاء السفلة يزجوننا في سجن نظراهم".

الحكمة الثانية:

وهي تتمحور حول تلك العلاقة الوثيقة والحب العميق بين الرجل والمرأة وهذه
العلاقة ليست وليدة متطلبات الدنيا فحسب، فالمرأة ينبغي لها عدم لفت نظر غير رفيقها
الأبدي وصديقها الخالد إلى مفاتنها وألا تزعجه ولا تحمله على الغضب والغيرة.
وحيث أن زوجها المؤمن بحكم إيمانه لا يحصر محبته لها في حياة دنيوية فقط ولا يوليها
محبة حيوانية قاصرة على وقت جمالها وزمن حسننها، وإنما يكن لها حياً واحتراماً خالصين
يدومان إلى وقت شيخوختها وزوال حسننها، فإزاء هذا على المرأة أيضاً أن تخص زوجها
وحده بجمالها ومفاتنها وتقصر محبتها عليه كما هو مقتضى الإنسانية وإلا ستفقد لكثير
ولا تكسب إلا القليل.

الحكمة الثالثة:

وهنا تبرز مسألة الثقة المتبادلة بين الزوجين والاحترام اللائق والود الصادق. إلا أن
التبرج والتكشف يخلّ بتلك الثقة ويفسد ذلك الاحترام.

الحكمة الرابعة:

إن التبرج أو السفور يحد من الزواج بل ويقلل أيضاً من التكاثر، لأن الشاب مهما
بلغ فسوقه، وتحلله فإنه يرغب في أن تكون صاحبتة في الحياة مصونة عفيفة ولا يريدها
أن تكون مبتذلة متكشفة مثله، لذا نجده يفضل العزوبة على الزواج وربما ينساق إلى
الفساد¹⁵ أ.هـ.

وهكذا، لا فائدة من التبرج ونزع الحجاب إلا إثارة هوى النفس وإطلاق
الشهوات من عقلاها مما سيؤدي حتماً إلى الإفراط وتجاوز الحدود في جميع الأحوال.
وهذه الحكم الأربعة التي أوردها النورسي إنما تعني عن كل ما قد يقال في هذه
المسألة.

الجمال نعمة يجب حفظها:

يقول صاحب الرسائل: "فالجمال نعمة مهداة، والنعمة إذا حمدت زادت، وإذا
قوبلت بالنكران تغيرت، فلا شك أن المرأة المالكة لرشدها سترفض بشدة وبكل ما لديها
من قوة أن تجعل من جمالها وسيلة لكسب الخطايا والذنوب وجذب الآخرين إليها.
وستأبى تماماً أن تجعل جمالها يتحول إلى قبح ودمامة وجمال منحوس مسموم، وهي بلا
شك لن تجعل بالنكران تلك النعمة المهداة مدار عذاب وعقاب"¹⁵.

وهذا يدل على أنه يجب على المرأة للمحافظة على جمالها سلوك الطريق المشروع، ويجب أن تدرك أن جمال شبابها إنما يدوم بضع سنين فقط، ولهذا لا بد لها من تحصيل ذلك الجمال الأبدي الذي إنما هو عبادة وعرافان بنعمة الله عليها عندما منحها ذلك الجمال الفاني.

وإلا فقد أُنذرها صاحب الرسائل بقوله: "وإلا ستتجرع الآلام والعذاب في وقت شيخوختها وستبكي وتندب نفسها يائسة نادمة لشدة ما ترى من استئصال الآخرين لها وإعراضهم عنها"¹⁶.

ويدلها الشيخ الفاضل على طريقة الحصول على ذلك الجمال الخالد فيقول: "أما إذا زين ذلك الجمال بزينة آداب القرآن الكريم وروعي الرعاية اللائقة ضمن نطاق التربية الإسلامية، فسيظل ذلك الجمال الفاني باقياً، وستمنح المرأة جمالاً هو أسمى وأجمل وأحلى من جمال الحور العين"¹⁷.

النساء شقائق الرجال:

إن المرأة ليست فقط كائناً جميلاً ينهمك في خدمة نعمة هذا الجمال ولكنها أيضاً أخت مجاهدة وأم حنون مسؤولة وداعية مضحية تتمتع بكل صفات الكمال الإنساني، بعيداً عن خصوصيتها كأمراة.

ولقد وصى القرآن الكريم الإنسان بوالديه وشدد على الوفاء للأُم وطاعتها. قال الله تعالى: (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ) [لقمان: 14].

وهذا إن دل على شيء إنما يدل على عظم دور تلك اليد التي تصوغ شخصية وليدها وتحدد بكل دقة ملامحها ودقائقها إنما بحق كما يصفها صاحب الرسائل: "أول أستاذ للإنسان وأكثر شخص يؤثر في تعليمه"¹⁸.

وبحكم كونهن بطلات العطف والحنان يتساءل النورسي عن رد فعل الوالدة عندما تعلم أن بمقدورها أن تؤمن لولدها حياة خالدة أبدية رغداء وتنقذه من سجن وعذاب أبدي، وذلك بمجرد إحسان تربيته وصيانتته من فساد المجتمع، وكتقرير لما هو حق يقول النورسي: "ولكن إذا سعت تلك الوالدة إلى إنقاذ ولدها الضعيف من السجن الأبدي الذي هو جهنم ومن الإعدام الأبدي الذي هو الموت في الضلالة بشفتها الحقيقية الموهوبة دون الإساءة في استعمالها، فإن ولدها سيوصل الأنوار دوماً إلى روحها بعد وفاتها"¹⁹.

وهذا الكلام هو إشارة إلى ما ورد في الحديث الشريف: (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له)²⁰.

وللإحاطة بكل جوانب الموضوع لا بد من ذكر تلك الدعوة التي وجهها صاحب الرسائل للمرأة دافعاً إياها إلى العمل والتكسب، فقال: "اعملن على كسب نفقاتكن بعمل أيديكن كما تفعل نساء القرى الطيبات واكتفين بالاقتصاد والقناعة المغروزيين في فطرتكن"²¹.

ويمكن الاستنباط من هذه الدعوة أن الإسلام عندما جعل للمرأة ذمة مالية مستقلة فقد حثها على التكسب وجني المال والعمل، ولا يخفى على أحد في عصرنا الحالي مدى ضرورة عمل المرأة وكيف ينعكس هذا العمل راحة وطمأنينة على جو الأسر في هذه الحالة الاقتصادية المتأزمة.

وكي تتمكن المرأة من العمل لا بد لها من تحصيل العلم وإتقان الصناعات، وهي في هذه الحالة لا تختلف أبداً عن الرجل.

يقول الشيخ خالد عبد الرحمن العك: "ما دامت مهمة العقل في كل من الرجل والمرأة واحدة، فإن ما يلائم الرجل من أنواع الثقافة ملائم كذلك للمرأة، وما يؤدي إلى تقدم الرجل وخصوبة إنتاجه العقلي، يؤدي مثله بالمرأة"²².

وبإشارة لطيفة لضرورة التعلم، يفرق النورسي بين الإنسان والحيوان باستعداد كل منهما ووظائفه في هذه الدنيا فيقول: "إن الوظيفة الأساسية للحيوان ليست التكمّل والاكتمال بالتعلم ولا الترقّي بكسب العلم والمعرفة ولا الاستعانة بالدعاء بإظهار العجز وإنما وظيفته الأصلية العمل حسب استعداده أي العبودية الفعلية"²³.

ويضيف: "إن وظيفة الإنسان الفطرية هي التكمّل بالتعلم أي الترقّي عن طريق كسب العلم والمعرفة والعبودية بالدعاء... ولقد جيئ بهذا الإنسان إلى هذا العالم لأجل أن يتكامل بالمعرفة والدعاء لأن كل شيء فيه موجه إلى العلم ومتعلق بالمعرفة حسب الماهية والاستعداد"²⁴.

فالمرأة إذا هي عالمة داعية أو كلت إليها مهمة نشر رسائل النور وقراءتها ومشاركة طلاب النور في جميع مكاسبهم المعنوية²⁵. ولا يخفى على أحد المصاعب والعقبات التي تعترض طريق طلاب النور ومدى عظم القوة والعلم المطلوبين للوصول إلى تحقيق هدف نشر القرآن الكريم.

ولم يكن الحجاب ولن يكون أبداً عائقاً يمنع المرأة من التعلم والارتقاء إلى أعلى الدرجات العلمية والمعرفية بل على العكس كان أشبه بقلعتها المنيعه وخذقتها الحامي ودرعها الساتر وجواز مرورها وتجوّلها في كل مكان مسلحة بالعفة والطهارة. وأخيراً، إن المرأة نصف المجتمع ولا يمكن لمجتمع أن يتقدم وركيزته الثانية ضعيفة مشلولة.

الخور الثاني:

الرجل صاحب المسؤوليات العظام:

قال الله تعالى لآدم عليه السلام عندما أخبره عن حاله على الأرض بعد خروجه وزوجه من الجنة: (فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى) [طه: 117]. ولم يقل فتشقيان أي آدم وحواء، وهذا دليل على وجوب سعي الرجل وراء رزق عياله وتحمله شقاء الحياة الدنيا. وفي فلك هذه الآية تدور الأحكام الشرعية والفقهية التي تنظم حياة الرجل وعلاقته بمحيطه وسائر أفراد أسرته. إن الرجل هو ذلك الكل الذي يفقدانه لضلعه خسر جزءاً من إنسانيته وهو يسعى جاهداً لإعادته والحفاظة عليه ليعيد لنفسه كمالها، ويظل يبذل كل غالٍ ورخيص ويسعى ويشقى في سبيل ديمومة هذه اللحمة. يصف النورسي بيت الإنسان بديناه الصغيرة بل وجنته المصغرة²⁶، والرجل هو يتعهد بها بالعناية والرعاية. وهذا الشعور عند الإنسان بالمسؤولية وعظم الأمر الملقى وعلى عاتقه، يبعث على النشاط وبذل الوسع في تقوية ملكاته ومواهبه فينتقل إلى العمل من أجل النهوض بأعبائه، والقيام بواجبه، فيكثر الاستغلال وأسباب الاستثمار مما يزيد من تنمية الثروة وكثرة الإنتاج ويدفع إلى استخراج خيرات الله في الكون وما أودع فيه من أشياء ومنافع للناس²⁷.

الغنم بالغرم:

إن للرجال درجة زائدة على النساء وهي قوامتهم عليهن لأن الرجال مطالبون بالإنفاق على الأسرة والعمل بكل وسيلة لإسعادها والتكفل بمطالبها²⁸. ونظراً للمسؤولية الملقاة على عاتقه فقد تحول الرجل إلى جندي يكافح ويناضل دفاعاً عن جنته الصغيرة هذه.

ولقد جاء القرآن الكريم لينظم هذا الكفاح ويدعمه، فكانت آيات الميراث في قوله تعالى: (فَللذَّكَرِ مِثْلُ مِثْلِ الْأُنثِيَّيْنَ) [النساء: 176]. يقول النورسي عن حكمة ذلك: "إن الرجل الذي ينكح امرأة يتكفل بنفقتها، أما المرأة فهي تتزوج الرجل وتذهب إليه وتحمل نفقتها عليه"²⁹، إذاً في هذا الحكم القرآني عدالة بحق الرجل رحمة بحق المرأة.

وفي معرض تبيانه لهذه الحكمة وشرحه للآية الكريمة يقول النورسي: "ثم إن الحكم القرآني رحمة، لأن تلك البنت الضعيفة محتاجة كثيراً إلى شفقة والدها وعطفه عليها والى رحمة أخيها ورأفته بها فهي تجدد حسب -الحكم القرآني- تلك الشفقة

عليها من والدها وعطفه دون أن يكدرها حذر، إذ ينظر إليها والدها نظرة من لا يخشى منها ضرراً ولا يقول بأنها ستكون سبباً في انتقال نصف ثروتها إلى الأجنبي والأغيار. فلا يشوب تلك الشفقة والعطف الأبوي الحذر والقلق. ثم إنها ترى من أحييها رحمة وحماية لا يعكرها حسد ولا منافسة إذ لا ينظر إليها أخواها نظرة من يجد فيها منافساً له يمكن أن تبدد نصف ثروة أبيها بوضعها في يد الأجنبي. فلا يعكس صفو تلك الرحمة والحماية حقد ولا كدر³⁰.

وبذلك تسمو مشاعر الرجل تجاه من هم في رعايته، وتتجلى فيه سمات الرجولة الحقة.

ومن جهة أخرى إن الرجل بطبعه أكثر ميلاً للغواية من المرأة. وفق ما قرره النورسي عندما قال: إن الرجل لا يبلغ شأو المرأة في التضحية والفداء، فإن المرأة لا تدرك الرجل في السفاهة والغبي بأي وجهة من الوجوه، فالرجل إذا غوى لأجل لذة تسع دقائق، لا يتضرر إلا بضع ليرات، بينما المرأة تجازي على هذه الدقائق التسع، تسعة أشهر حملاً وتتحمل مصاريف تربية طفل لا حامى له طوال تسع سنوات أو أكثر³¹. ومن هنا نرى أن عقاب المرأة المباشر في الدنيا، أضعاف عقاب الرجل، لذلك تجد نفسها مضطرة إلى العفة والطهارة.

أما الرجل لا يزعجه عن الحرام إلا قوة تربيته الإيمانية وتحليته بالأخلاق الحميدة وتقوية نزعة الخير لديه، وإمداده بالسلاح الكافي لمحاربة نزوات الشيطان. ويذكر صاحب الرسائل كيف أن الأسرة مهددة بالخراب فيقول: "إن الحياة الأسرية هي قلعة الإنسان الحصينة ولا سيما المسلم فهي كجنته المصغرة وديناه الصغيرة، فنشأت عن السبب الذي أدى إلى فسادها وعلمت أن هناك منظمات سرية تسعى لإضلال الشباب وإفسادهم بتذليل سبل الشهوات أمامهم وسوقهم إلى السفاهة والغواية لإفساد المجتمع الإسلامي والأضرار بالدين الإسلامي"³².

وكتيجة لهذا الفاسد بينه النورسي الأسر فيقول: "إذا ما شاهدت الزوجة فساداً في زوجها وخيانة منه وعدم وفاء فقامت هي كذلك -عناداً له- بترك وظيفتها الأسرية وهي الوفاء والثقة فتفسدهما، يحتل عندئذ نظام تلك الأسرة كلياً ويذهب هباءً منثوراً كالإخلال بالنظام في الجيش. فلا بد للزوجة أن تسعى جادة لإكمال نقص زوجها وإصلاح تقصيره..."³³ بإمسائها بزمام الأسرة.

ومن هنا جاءت دعوته للنساء بالعمل على كسب نفقاتهن بعلم أيديهن وهذا أولى من بحس أنفسهن بسبب هموم العيش بالرضوخ لسيطرة زوج فاسد، سيء الخلق متفرنج

ومن كان حظها وقسمتها زوجاً لا يلائمها فلترضى بقسمتها ولتقنع فعسى الله أن يصلح زوجها برضاها وقناعتها، وإلا تراجع المحاكم لأجل الطلاق، وهذا لا يليق بعزة الإسلام وشرف الأمة³⁴

خصال محمودة في الرجل:

يقول النورسي: "إن الشجاعة والسخاء حصلتان محمودتان لدى الرجال"³⁵. فكون الرجل هو رب الأسرة والمنفق والحامي لها فإن صفتي الشجاعة والكرم مطلوبتان فيه وإلا عانى أهل بيته من شظف العيش والخوف وعدم الأمان مما يجعل الحياة تحت جناحه لا تطاق. ويؤكد النورسي على ذلك فيقول: "وظيفة الزوج تشمل حماية المرأة والرحمة بها والاحترام لها"³⁶. وبذلك ستنعّم هذه اللجنة بالأمن والأمان فتسير بكل ثقة إلى عالم الخلود، إلى الجنة الأبدية.

الخور الثالث:

وسيلة إعادة اللحمة لشقي النفس البشرية:

لا تزال معجزة الجذب الإنساني سراً قليلون أولئك الذين يفهمونها أو ينعمون بوهج نورها، وحدهم الذين اختاروا طريق القرآن الكريم هدى وموعظة لهم يتمتعون بهذه السعادة الممتدة إلى ما بعد الموت. لقد سبق القول بأن شقي النفس الإنسانية يتوقان إلى اللحمة والاتحاد للوصول إلى الكمال الإنساني والسير نحو الأبدية. فالرجل يدأب في البحث عن جزئه المخلوق من ضلعه ليعوض خسارته ويتحد معه، والمرأة تفتش عن أصلها لتبلغ به كمال الإنسانية. إنها حكمة الخالق في خلق كل من الجنسين على نحو يجعله موافقاً للآخر وملياً لحاجاته الفطرية، نفسية، عقلية، وجسدية، بحيث يجد عنده الراحة الطمأنينة والاستقرار ويجدان في اجتماعهما السكن والاكتماء والمودة والرحمة لأن تركيبهما النفسي والعصبي والعضوي ملحوظ في تلبية رغائب كل منهما، وائتلافهما وامتزاجهما في النهاية لإنشاء حياة تتمثل في جيل جديد³⁷.

ففي معرض تفسيره لقوله تعالى: (وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ) [البقرة: 25] قال صاحب الرسائل: "فاعلم كما رأيت في السلك أن الإنسان محتاج لرفيقة وقرينة يسكن إليها وينظر في عينيها وتنظر في عينيه، ويستفيد من الحبة التي هي ألفت لمعات الرحمة. ألا ترى أن الإنسانية التامة "لا تكمل إلاّ بهن"³⁸.

قال الله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً) [الروم: 21] والسكن هو أسمى علامات الراحة والطمأنينة والسعادة الإنسانية، ويظل الرجل في حيرة واضطراب حتى يمن الله عليه بالزواج فيسكن إلى بيته وزوجه وولده.

والإنسان بحاجة ماسة إلى قلب مقابل لقلبه يؤنس وحدته ويبادل له الحب والعشق ويشاركه في السراء والضراء ويعينه في حالات الحيرة والتفكير، ويشاطره الرأي في كل مسألة معقدة. يقول النورسي: "إن أطف القلوب وأشفقها وأحرها قلب القسم الثاني. ثم إن متم الامتزاج الروحي ومكمل الاستيناس القلبي ومصفي الاختلاط الصوري كون القسم الثاني مبرأة ومطهرة من الأخلاق السيئة والعوارض المنفرة"³⁹.

وأول ما قد يتبادر إلى ذهن أي قارئ يطالع على رسائل النور هو لماذا بقي بديع الزمان سعيد النورسي الرجل الذي استخلص عمق المشاعر الإنسانية المتأتية من سكن الزواج، عازباً طوال حياته مع إدراكه العقلي والعاطفي لضرورة الزواج وعلمه بأنه سنة نبوية شريفة؟

ولقد أجاب هو بنفسه على ذلك رداً على سؤال نشر في بعض الصحف الخارجية "لما بقيت عازباً خلافاً للسنة النبوية؟" قال:

"في الوقت الذي يلزم لصد هجوم زندقة رهيبه تغير منذ أربعين سنة، فدائون يضحون بكل ما لديهم، قررت أن أضحي لحقيقة القرآن الكريم، لا بسعادتي الدنيوية وحدها، بل إذا استدعى الأمر بسعادتي الأخروية كذلك، فلأجل أن أتمكن من القيام بخدمة القرآن على الوجه الصحيح بإخلاص حقيقي، ما كان لي بد من ترك زواج الدنيا الوقي -مع علمي بأنه سنة نبوية- بل لو وهب علي عشر من الحور العين في هذه الدنيا، لو جدت نفسي مضطراً للتخلي عنهن جميعاً، لأجل تلك الحقيقة، حقيقة القرآن... لذا تركت عادة الزواج الذي أعلم أنها سنة نبوية لثلاث أجيال في محرمات كثيرة ولكي أتمكن من القيام بكثير من الواجبات وأداء الفرائض"⁴⁰.

ورداً على من قال أنه طلب من طلاب النور التخلي عن الزواج قال: "لم نقل لطلاب النور "تخلوا عن الزواج، دعوه للآخرين" ولا ينبغي أن يقال لهم هذا الكلام، ولكن الطلاب أنفسهم على مراتب وطبقات، فمنهم من يلزم عليه أن لا يربط نفسه بحاجات الدنيا قدر المستطاع، في هذا الوقت، وفي فترة من عمره، بلوغاً إلى التضحية العظمى والثبات الأعظم والإخلاص الأتم. وإذا ما وجد الزوجة التي تعينه على خدمة القرآن والإيمان فيها ونعمت. إذ لا يضر هذا الزواج بخدمته وعمله للقرآن، والله الحمد

والمنة ففي صفوف طلاب النور كثيرون من أمثال هؤلاء، وزوجاتهم لا يقصرون عنهم في خدمة القرآن والإيمان، بل قد يفقنهم ويسبقنهم لما فطرن عليه من الشفقة التي لا تتطلب عوضاً فيؤدين العمل بهذه البطولة الموهوبة لهن بإخلاص تام"⁴¹.

وهنا نلاحظ أن الشيخ النورسي يتعرض لمسألة هامة في الزواج لا يجب أن يغفل عنها أحد وهي الكفاءة.

لزوم الكفاءة:

جاء في رسالة الحجاب: "إن ما هو مطلوب شرعاً: أن يكون الزوج كفوءاً للمرأة وهذا يعني ملاءمة الواحد للآخر ومماثلتهما، وأهم ما في هذه الكفاءة، كفاءة الدين"⁴².

ولعل هذا ما هو واضح في الأحاديث النبوية الشريفة: (من جاءكم ترضون دينه وخلقه فأنكحوه ألا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير)⁴³ وأيضاً قوله ρ: (تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك)⁴⁴.

هذا تقرير واضح على اعتبار كفاءة الدين في الزواج وإن كانت المرأة كما يقول النورسي لا تتمكن من أن تحدد اختيار زوجها⁴⁵ أو حتى قد تنخدع بمظهره فتجد نفسها أمام خيار صعب لا تملك إزاءه إلا الصبر. وقد دللها صاحب الرسائل على طرق مقاومة هذا البلاء بالسعي بجد لإكمال نقص زوجها وإصلاح تقصيره وكسب نفقتها بعمل يدها [كما جاء في رسالة الحجاب] حتى لا تضطر للخضوع له ومجاراته عل طول صبرها وقوة إيمانها وصلاتها يؤثران في زوجها فيعود إلى رشده ويصلح الله من حاله، وإلا فالطلاق هو ملجأها⁴⁶.

أما الرجل فيقول النورسي عنه إنه مهما بلغ فسقه وتحلله، فإنه يرغب في أن تكون صاحبتة في الحياة مصونة عفيفة ولا يريد أن تكون مبتدلة متكشفة مثله. ذلك أن المرأة من حيث كونها مدبرة لشؤون البيت الداخلية ومأمورة بالحفاظ على أولاد زوجها ماله وكل ما يخصه فإن أعظم خصالها هي: الوفاء والثقة.⁴⁷ وهما لا يوجدان إلا في المرأة المؤمنة وبما أن النتيجة الحتمية لسنة الزواج هو إنشاء أسرة وإنجاب أطفال فقد قال عنها النورسي: "إن الحياة العائلية هي مركز تجمع الحياة ولولبها وهي جنة سعادتها وقلعتها الحصينة وملجأها الأمين وإن بيت كل فرد هو عالمه ودينه الخاصة، فلا سعادة لروح الحياة العائلية إلا بالاحترام المتبادل الجاد والوفاء الخالص بين الجميع والرأفة الصادقة والرحمة التي تصل إلى حد التضحية والإيثار."⁴⁸

ومن هنا نستخلص حقيقة محتومة وهي ضرورة توفر الإيمان والإسلام للوصول إلى هذه الغاية.

وقد يكون من المفيد ذكر وصية الشيخ النورسي إلى طلاب النور المتزوجين طبقاً للسنة الشريفة. فلقد قال لهم: "اجعلوا بيتوتكم مدرسة نورية صغيرة وموضوع تلقى العلم والعرفان، كي يتربى الأولاد الذين هم ثمار تطبيق هذه السنة، على الإيمان، فيكونون لكم شفعاء يوم القيامة، وأبناء بررة في هذه الدنيا وعندها تنقرر هذه السنة الشريفة فيكم حقاً. وبخلافه لو تربى الأولاد على التربية الأوروبية وحدها، فإن أولئك الأولاد يكونون غير نافعين لكم في الدنيا ومدعين عليكم يوم القيامة، إذ يقولون لكم: "لم لم تنقذوا إيماننا؟" فتندمون وتخزون من قولهم هذا، يوم لا ينفع الندم، وما هذا إلا مخالفة لحكمة السنة النبوية الشريفة"⁴⁹.

وكذلك خطابه للآنسات في طالبات النور: "يجب ألا يعين أنفسهن رخصات سافرات كاشفات عندما لا يجدن الزوج المؤمن الصالح ذا الأخلاق الحسنة الملائم لهن تماماً، بل عليهن البقاء في حياة العزوبة إن لم يجدن ذلك الزوج الكفء، كما هو حال بعض طلاب النور الأبطال، حتى يتقدم لطلبها من يلائمها ممن تربى تربية الإسلام وله وجدان حي، ليكون رفيق حياة أبدية يليق بها وذلك لئلا تفسد سعادتها الأخروية لأجل لذة دنيوية طارئة فتغرق في سيئات المدنية"⁵⁰.

معاً إلى الجنة:

لقد سلم المجتمع الإنساني بضرورة المحافظة على مؤسسة الزواج لاستمرار النوع وحاول الكثيرون فهم سر هذا الإعجاز الرباني الذي تقوم عليه عملية الجذب بين الجنسين وكذلك سر تلك القوة التي تبقى هذه الصلة مستمرة في الشباب وتزداد عمقاً في الشيخوخة، وحاول الكثيرون استنباط الأمر من قوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا) [الروم: 21]. فردوا استمرار هذه العلاقة إلى المودة والرحمة المنبثقة من الحب العميق الذي يربط هذين الزوجين. وقد عرف الشيخ خالد عبد الرحمن العك هذا الحب بقوله: "والحب هو ذلك التعبير الودود الحاني المشرق المنير الذي يشرق على البيت والجو اللطيف الوضيء ومن الحب تشيع في البيت السماحة والبشر والطلاقة، فإذا هي أسرة متضامنة والله سبحانه يصور هذه العلاقة الزوجية بقوله (هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ) [البقرة: 187]"⁵¹.

رغم كل ما في هذه التحليلات من صحة وصدق وواقعية، فإنه حسب ما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لزوجة ابن أبي عذرة في حديث طويل: "إذا كانت إحداكن لا تحب أحداً فلا تحدثه بذلك، إن أقل البيوت الذي يبني على الحب ولكن الناس يتعاشرون بالإسلام والاحساب"⁵².

ومما يزيد من قوة كلام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قول الله تعالى (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) [النساء: 19] وبذلك فإن القرآن الكريم يقرر أن الإنسان قد يكره زوجته إما لدمامة أو سوء خلق، فهذا يندب فيه إلى الإحتمال⁵³.

إذا، ما الذي يدفع الإنسان إلى هذا الاحتمال؟ لا بد أن هناك ما هو أعظم من تلك الشرارة التي تنطلق في القلوب. لا بد من وجود قوة فوق قوة البشر تدفعهم إلى الاستمرار: وهذه القوة هي الإسلام والإيمان.

يقول صاحب الرسائل: "إن الزوج الرشيد لا يبني محبته لزوجته على جمال ظاهري زائل لا يدوم عشر سنوات بل عليه أن يبني مودته على شفقتها [طيبة نفسها وقوة عاطفتها] التي هي أجمل محاسن النساء وأدومها ويوثقها بحسن سيرتها الخاصة بأنوثتها كي تدوم محبته لها كلما شابت تلك الزوجة الضعيفة إذ هي ليس صاحبتها ورفيقته في حياة دنيوية مؤقتة، وإنما هي رفيقته المحبوبة في حياة أبدية خالدة فيلزم أن يتحبا باحترام زائد ورحمة أوسع كلما تقدم بهما العمر"⁵⁴.

إن الإيمان باليوم الآخر وبالحياة الأبدية الخالدة يدفع هذين الزوجين إلى الترفع عن كل صغائر الأمور والى التخلي عن بهاء ذلك الجمال الفاني ليبلغا معاً ذروة الخلود والأبدية.

ويقول النورسي أيضاً: يحدث الرجل نفسه: إن زوجتي هذه رفيقة حياتي وصاحبتني في عالم الأبد والحياة الخالدة، فلا ضير إن أصبحت الآن دميمة أو عجوزاً إذ أن لها جمالاً أبدياً سيأتي، لذا فأنا مستعد لتقديم أقصى ما يستوجب الوفاء والرافة وأضحى بكل ما تتطلبه تلك الصداقة الدائمة... وهكذا يمكن أن يكن هذا الرجل حياً ورحمة لزوجته العجوز كما يكنه للحوار العين⁵⁵. وأمام هذا الشعور النبيل وهذا التطبيق العملي لقوله تعالى: (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) [النساء: 19]، لا تجد الزوجة نفسها إلا مدفوعة إلى زيادة عبادتها والترقي في درجات التقوى والصالح لتصل إلى رتبة زوجها الرشيد الصالح لتفوز بصحبته الأبدية الخالدة في جنات الخلد، وتحاول هذه الزوجة بذل كل ما تملك من قوة وحيلة لكسب رضى زوجها وتوفير الراحة له فتغض الطرف عن كل ما يزعجها وترى في كل ما ينكدها سخافات، أمام إصرارها على إرضاء زوجها وصاحبها الأبدي، فتعم الرحمة أرجاء المنزل ويشع منه نور الحب والتقوى.

وهكذا يبدأ الإسلام بناء الأسرة في ضمائر الأفراد ووجدانهم فهناك، في أعماق الروح، يغرس بذرة الحب وينسم نسمة الرحمة... الحب الإنساني الخالص⁵⁶.

ولو عرف علماء الدنيا وأدعياء المعرفة منهم ما في هذا الإيمان من شفاء وحلول لكل مشاكل الأسر لأفرغوا ما في كتبهم من تُرَّهات الغرب وفلسفات علم النفس لاتخذوا القرآن وسيلتهم لعلاج لكل الأمراض النفسية والمشاكل الزوجية. إن ما يقره النورسي عند قوله: "إن زوجها المؤمن بحكم إيمانه لا يحصر محبته لها في حياة دنيوية فقط ولا يوليها محبة حيوانية قاصرة على وقت جمالها وزمن حسننها وإنما يكن لها حبا واحتراما خالصين دائمين إلى وقت شيخوختها وزوال حسننها"⁵⁷ إن كل ذلك من شأنه أن يبعث الطمأنينة في نفس كل امرأة ويعطيها الأمان لتنتلق في سمو وفضيلة لتؤسس إلى جانب زوجها الأسرة المؤمنة محققان معاً غاية الخلق وجوهر الإنسانية.

وفي الختام هي دعوة يطلقها النورسي إلى كل أزواج العالم، فيقول: ما أسعد ذلك الزوج الذي يلاحظ تدين زوجته ويقوم بتقليدها، ويصبح ذا دين لثلا يفقد صاحبه الوفيه في حياة أبدية خالدة. وكم هي محظوظة تلك المرأة التي تلاحظ تدين زوجها وتحشى أن تفرط برفيق حياتها الأمين في حياة خالدة فتتمسك بالإيمان والتقوى. والويل ثم الويل لذلك الرجل الذي ينغمس في سفاهة تفقده زوجته الطيبة الصالحة. ويا لتعاسة تلك المرأة التي لا تقلد زوجها التقى الورع فتخسر رفيقها الكريم الأبدى السعيد.

والويل واليبور لذينك الزوجين الشقيين اللذين يقلدان بعضهما البعض الآخر في الفسوق والفحشاء فيتسابقان في دفع أحدهما إلى النار⁵⁸.

المراجع

القرآن الكريم.

بديع الزمان سعيد النورسي، رسائل النور، ترجمة إحسان قاسم الصالحي.

جورج حنا، المرأة جسد وروح، دار الثقافة، بيروت، 1966.

خالد عبد الرحمن العك، آداب الحياة الزوجية، دار المعرفة، بيروت 1999.

خالد عبد الرحمن العك، شخصية المرأة المسلمة، دار المعرفة، بيروت 1999.

سيد سابق، فقه السنة، دار الكتاب العربي، بيروت 1987.

علي لاغا، تشكيل الشخصية الإسلامية المعاصرة من خلال القرآن الكريم، مؤسسة الرسالة، بيروت

1988.

الهوامش:

- 1 - سعيد النورسي، رسائل النور، صيقل الإسلام، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ص 138، سوزلر للنشر.
- 2 - علي لاغا، تشكيل الشخصية الإسلامية المعاصرة من خلال القرآن الكريم، ص 50، ط1، مؤسسة الرسالة بيروت، 1988م، 1408هـ.
- 3 - رسائل النور، للمعات، ص 313.
- 4 - رسائل النور، الكلمات، ص 7.
- 5 - المرجع نفسه، ص 37.
- 6 - رسائل النور، للمعات، ص 312.
- 7 - المرجع نفسه، ص 300.
- 8 - سيد سابق، فقه السنة، ص 194، ج 2، ط 8، دار الكتاب العربي، بيروت، 1407هـ، 1987م.
- 9 - سيد سابق، فقه السنة، ص 193، ج 2، ط 8.
- 10 جورج حنا، المرأة جسد وروح، ص 71، دار الثقافة، بيروت، 1966.
- 11 - رسائل النور، للمعات، ص 305.
- 12 - رسائل النور، الشعاعات، ص 438.
- 13 - رسائل النور، للمعات، ص 299.
- 14 - المرجع نفسه، ص 300-304، بتصرف.
- 15 - رسائل النور، للمعات، ص 306.
- 16 - المرجع نفسه.
- 17 - المرجع السابق.
- 18 - رسائل النور، للمعات، ص 308.
- 19 - المرجع نفسه.
- 20 - رواه مسلم
- 21 - رسائل النور، للمعات، ص 308.
- 22 - خالد عبد الرحمن العك، شخصية المرأة المسلمة، ص 165، ط2، دار المعرفة، بيروت، 1999.
- 23 - رسائل النور، الكلمات ص 354.
- 24 - المرجع نفسه، ص 355.
- 25 - رسائل النور، للمعات، ص 314.
- 26 - رسائل النور، الشعاعات، ص 282.
- 27 - سيد سابق، فقه السنة، ص 13.
- 28 - خالد عبد الرحمن العك، آداب الحياة الزوجية، ص 39، ط6، دار المعرفة، بيروت، 1999.
- 29 - رسائل النور، المكتوبات، ص 48.
- 30 - المرجع نفسه.
- 31 - رسائل النور، للمعات، ص 312 بتصرف.
- 32 - المرجع نفسه، ص 310.
- 33 - رسائل النور، للمعات، ص 311.
- 34 - المرجع نفسه، ص 312-313.

- 35 - المرجع نفسه، ص 303.
36 - المرجع نفسه، ص 304.
37 - عبد الرحمن العك، آداب الحياة الزوجية، ص 35-36.
38 - كليات رسائل النور، إشارات الإعجاز، ص 197.
39 - رسائل النور، إشارات الإعجاز، ص 195.
40 - رسائل النور، الملاحق، ص 401.
41 - المرجع السابق، ص 402-403.
42 - رسائل النور، اللمعات، ص 301.
43 - صحيح مسند الترمذي، رقم 866 [تحقيق ناصر الدين الألباني].
44 - مختصر صحيح مسلم، رقم 798.
45 - رسائل النور، اللمعات، ص 303.
46 - رسائل النور، اللمعات، بتصرف ص 313.
47 - رسائل النور، اللمعات، ص 303.
48 - رسائل النور، الشعاعات، ص 229_230.
49 - رسائل النور، الملاحق، ص 403.
50 - الرسائل، الملاحق، ص 342.
51 - العك، آداب الحياة الزوجية، ص 37.
52 - سيد سابق، فقه السنة، ص 185.
53 - خالد عبد الرحمن العك، آداب الحياة الزوجية، ص 33.
54 - رسائل النور، اللمعات، ص 311.
55 - رسائل النور، الشعاعات، ص 230.
56 - خالد عبد الرحمن العك، آداب الحياة الزوجية، ص 32.
57 - رسائل النور، اللمعات، ص 301.
58 - رسائل النور، اللمعات، ص 302.

الشفقة والرحمة في القرآن الكريم بمنظور "رسائل النور"

الدكتور عبد القادر محمد احمد^١

مقدمة

لعل التخصص الذي قدره الله تعالى لي في اللغة العربية والتفسير من بعد، علاوة على الرغبة في البحث العلمي كان الدافع القوي لمحاولة المساهمة في كل لقاء علمي، لاسيما إن كان محور ذلك اللقاء يدور حول القرآن الكريم وتفسيره. ومن هذا المنطلق تحمست لكتابة بحث في هذا المؤتمر الذي يقام بمشيئة الله تحت شعار "النظرة القرآنية للإنسان من خلال رسائل النور". ولكن كانت المشكلة هي كيفية الحصول على "مجموعة رسائل النور". فطلت أسأل عنها حتى اهتديت إلى اخوة أترك بالسودان أمدوني مشكورين بعدد منها. وعلمت بعد ذلك أن كل مجموعة رسائل النور موجودة بالدار السودانية للكتب - أضخم مكتبة بالخرطوم - فخففت إليها، ووجدت فيها تقريباً كل رسائل النور بالإضافة إلى عدد من الكتيبات الصغيرة التي ألفها بديع الزمان النورسي . بعد حمد الله تعالى والثناء عليه أود أن أتقدم بجزيل الشكر للجنة المنظمة للمؤتمر وللأخ البروفسير فارس قايا الذي ظل يرأسني ويحثني على اقتناء رسائل النور والمشاركة في المؤتمر .

لقد وقع اختياري على محور "الشفقة والرحمة في القرآن الكريم بمنظور رسائل النور"، فحاولت جمع جل إن لم يكن كل ما كتبه النورسي حول هذا الموضوع. لذا يأتي هذا البحث معتمداً في مصادره اعتماداً كلياً على رسائل النور مع بعض المقارنات مع كتب التفسير مثل، القرطبي، ابن كثير وسيد قطب عند التعرض لتفسير بعض الآيات. إن موضوع "الشفقة والرحمة في القرآن الكريم بمنظور "رسائل النور" هو غيض من فيض وقطرة من بحر العلوم التي تناولها النورسي في مؤلفاته. وأتوقع أن استمع واستفيد

^١ ولد في الخرطوم - السودان سنة 1957. نال شهادة الدكتوراه من جامعة أديس أبابا. وحالياً رئيس قسم الدراسات الإسلامية بكلية الآداب لجامعة الخرطوم .

من البحوث التي ستعالج جوانب أخرى عديدة سيتطرق إليها العلماء والمفكرون الأفاضل المشاركون في هذا المؤتمر.

نبذة مختصرة عن حياة النورسي :-

عاش سعید النورسي في الفترة من 1876 - 1960 م . انكب منذ الصغر على دراسة العلوم الإسلامية والنحو والصرف ، وأظهر فيها ذكاء وقوة ذاكرة ، كما درس كتب الرياضيات والفلک والكيمياء والفيزياء والفلسفة والتاريخ حتى تعمق فيها إلى درجة التأليف في بعضها ، لذا لقب بـ "بدیع الزمان" اعترافاً بفضله وعلمه. كذلك اهتم بقضايا الأمة الإسلامية وقاسى في سبيل ذلك أنواعاً من الجهاد والتضحية والسجن.

منهج التفسير في رسائل النور :-

جمع النورسي رسائل النور تحت عنوان "كليات رسائل النور" التي تضم أربع مجموعات أساسية هي : "الكلمات - المكتوبات - اللغات - الشعاعات". حقيقة لقد لفت نظري وشد انتباهي اختيار المؤلف لهذه التعابير العميقة والدقيقة "الكلمات، المكتوبات ، اللغات ، الشعاعات ، فهي تعابير أدبية ترمى لمعاني كبيرة .

يمكن تقسيم المواضيع التي عرض فيها النورسي لتفسير القرآن الكريم إلى قسمين :

الأول :- المواضيع التي تشتمل على تفسير خالص، رمى فيها النورسي إلى تفسير آية أو جملة آيات أو سورة ، ولم يخالط كلامه في التفسير في هذه المواضيع اية موضوعات أخرى ، وهذه المواضيع هي: كتاب إشارات الإعجاز ، وتفسير سورة الفاتحة .

الثاني : المواضيع التي تشتمل على التفسير وغيره. وقد يكون هدفه الأول في هذه المواضيع البحث في التفسير ، إلا أنه يستطرد بذكر أمور أخرى تجعل التفسير جزء منها، وقد يكون التفسير في هذه المواضيع عارضاً بان تذكر آية فيتم توضيحها، أو أن يستشهد بمعنى الآية على فكرة.¹

إن الخواص المذكورة لرسائل النور تنبع من كونها تقسيمياً حقيقياً ومعنوياً للقرآن الكريم وبشكل يناسب عقلية العصر وإدراكه.²

يبدأ موضوع البحث "الشفقة والرحمة في القرآن الكريم بمنظور رسائل النور" بتعريف لغوي لكلمتي "شفقة" و "رحمة" .

المعنى اللغوي لكلمة "شفقة":

جاء في لسان العرب لابن منظور عن المعنى اللغوي لكلمة شفقة :- الشفق والشفقة: اسم من الإشفاق. والشفق: الخيفة. شفق شفقاً، فهو شفيقٌ، والجمع شفقون. قال الشاعر إسحاق بن خلف، وقيل هو لابن المعلّى :-
تهوى حياتي، وأهوى موتها شفقاً
والموت أكرم نزال على الحرم
وأشفقت عليه وأنا مشفق وشفيق وشفيق، وإذا قلت: أشفقت منه فإنما تعني حذرته، ولا يقال شفقت.

قال ابن دريد: شفقت وأشفقت بمعنى، وأنكره أهل اللغة.
الليث: الشفق: الخوف. تقول أنا مشفق عليك أي أخاف.³

المعنى اللغوي لكلمة "رحمة":

أورد ابن منظور:- الرحمة: الرقة والتعطف، والمرحمة مثله، وقد رحمته وترحمت عليه. وتراحم القوم: رحم بعضهم بعضاً.. والرحمة المغفرة، وقوله تعالى في وصف القران { هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [سورة الأعراف: 203]. أي فصلناه هادياً وذا رحمة، وقوله تعالى: { وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ... } [سورة التوبة: 61]، أي هو رحمة لأنه كان سبب إيمانهم. رحمه رحماً ورحماً ورحمة ورحمة، حكى الأخيرة عن سيبويه، ومرحمة. قال الله عز وجل { ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ } [سورة البلد: 17]. أي أوصى بعضهم بعضاً برحمة الضعيف والتعطف عليه. وترحمت عليه أي قلت رحمة الله عليه. وقوله تعالى: { ...إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } [سورة الأعراف: 56]، فإنما ذكر على النسب وكأنه أكتفى بذكر الرحمة عن الهاء، وقيل إنما ذلك لأنه تأنيث غير حقيقي، الاسم الرحمي.⁴

قال الأزهرى: التاء في قوله "إن رحمت" أصلها هاء. وإن كتبت تاء. الأزهرى: قال عكرمة في قوله: { وَإِنَّمَا تَعْرِضْنَ عَنْهُمْ بِتَعَاذِ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا... } [سورة الإسراء: 28]، أي رزق. وقوله تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } [سورة الأنبياء: 107]، أي عطفاً وصنعاً، وقوله تعالى: { وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَاءٍ... } [يونس: 21] أي حياً وخصباً بعد مجاعة، وأراد بالناس الكافرين.

الرحمن: إسم من أسماء الله عز وجل. الأزهرى: ولا يجوز أن يقال رحمن إلا لله عز وجل. فالرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء، فلا يجوز أن يقال رحمن لغير الله، وحكى الأزهرى عن أبي العباس في قوله { الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } [الفاتحة: 2] جمع بينهما لأن

الرحمن عِبْرَانِي والرحيم عَرَبِي. قال ابن عَبَّاس: هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر، فالرحمن الرقيق والرحيم العاطف على خلقه بالرَّزْق.⁵
والرُّحْمُ، بالضَّم: الرَّحْمَةُ. وما أقربُ رُحْمِ فلان إذا كان ذا مَرَحْمَةٍ وبرٍّ أي ما أَرَحَمَهُ وأبرّه. وفي التنزيل {فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاءً وَأَقْرَبَ رُحْمًا...} [الكهف: 81]، وقرئت رحماً، الأزهرِي يقول: أبرُّ بالوالدين من القتل الذي قتله الحُضْر، وكان الأبوان مُسلمين والإبن كافراً فولد لهما بعدُ بنت فولدت نبياً، وأنشد الليث:-

أَحْنَى وَأَرْحَمُ مِنْ أُمِّ بواحدها

رُحْمًا، وَأَشَجُّ مِنْ ذِي لَبْدَةٍ ضَارِي

وَأُمُّ رُحْمٍ وَأُمُّ الرَّحْمِ: مَكَّةُ. وفي حديث مكة: هي أمُّ رُحْمٍ أي أصل الرَّحْمَةِ. والمرحومة: من أسماء مدينة سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم، يذهبون بذلك إلى مؤمني أهلها. وسمى الله الغيث رَحْمَةً لأنه برحمته ينزل من السّماء. وقوله تعالى حكاية عن ذي القرنين: { قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي... } [الكهف: 98]. أراد هذا التمكين الذي آتاني الله حتى أحكمتُ السّد رحمة من ربي.⁶

رحمة الله بجميع مخلوقاته :-

وقف النورسي طويلاً عند البسملة "بسم الله الرحمن الرحيم" التي تحوى رحمة الله، وذكر انه استشف منها أشياء كثيرة، يقول في ذلك: (لقد ظهر عن بعد لعقلي الجامد نور "ساطع" اشرق من أفق رحمة الله في البسملة. فأردت تسجيله في صورة ملاحظات ومذكرات خاصة بي، وقلت بمحاولة اقتناص ذلك النور الباهر بإحاطته بسور من أسراره البليغة نحو ثلاثين سراً، كي يسهل حصره ويتيسر تدوينه، إلا أنني مع الأسف لم أوفق تماماً الآن في مسعاي، فانحسرت الأسرار في ستة فقط).⁷

ومن المعلوم أن البسملة قد افتتحت بها كل سور القرآن - عدا براءة، وكررت في سورة النمل: {قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَإِنَّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ. إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [النمل: 29،30]. ويقف النورسي عند السّر الاول في البسملة "بسم الله الرحمن الرحيم"، ومنها إلى أنه وجد فيها ثلاث علامات نيرة للربوبية على سيماء الكائنات، وعلى قسما وجه الأرض، وعلى ملامح وجه الإنسان.

فالعلامة الأولى هي علامة الألوهية، تلك العلامة الكبرى، التي يتوجه "بسم الله" إليها ويدل عليها. والعلامة الثانية هي علامة الرحمانية، الزاهرة من التشابه والتناسب والانسجام واللفظ والرحمة السارى في تربية النباتات والحيوانات، بحيث يتوجه "بسم الله الرحمن" إليها ويدل عليها. واخيراً العلامة الثالثة وهي علامة الرحيمية، تلك العلامة

السامية، الظاهرة من لطائف الرأفة الإلهية وأشعتها رحمتها المنطبعة علي سيماء الماهية الجامعة للإنسان، بحيث يتوجه اسم "الرحيم" الذي في "بسم الله الرحمن الرحيم" إليها ويدل عليها.⁸

لقد تحدث النورسي عن الرحمانية والرحيمية في كتابه الشعاعات، الجزء الرابع، عندما أورد قوله تعالى { قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَاتُ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا } [الكهف: 109]. وأشار إلى ان ماهية الإلهام وحمكته ونتيجته تتركب من أربعة أنوار. النوران الأول والثاني يتعلقان بالرحمانية والرحيمية. يقول في ذلك :-

النور الاول : أنه مثلما يتودد الله سبحانه إلى مخلوقاته عن طريق أفعاله فيهم الذى يُعْرِفُ (بالتودد الإلهي) فإن من مقتضيات الودودية والرحمانية (أى كونه ودوداً ورحمان) أن يتحجب إليهم ويتودد قولاً وحضوراً وصحبة أيضاً .
النور الثاني : أنه مثلما يستجيب سبحانه دعاء عباده بأفعاله. فإن من شأن الرحيمية إجابته لهم قولاً من وراء الحجب.⁹

ويستطرد النورسي عند تناوله للسر الثالث وهو الرحمة الإلهية، بل انه يكرر كلمة "الرحمة" عند بداية كل جملة ليؤكد على أهميتها. ولنحتزئ هنا بعضاً مما قال: "انه بديهي، بل مشاهد أن الرحمة الإلهية هي التي أجهت الكائنات التي لا يحدها حدود .. وأن الرحمة نفسها هي التي أنارت هذه الموجودات المغشية بالظلمات وأن الرحمة أيضاً هي التي ربت في أحضانها هذه المخلوقات المتقلبة في حاجاتٍ لا حد لها ..

وأن الرحمة أيضاً هي التي وجهت الكائنات من كل صوب وحب وساققتها نحو الإنسان وسخرتها له ، بل جعلتها تتطلع إلى معاونته وتسعى لإمداده، كما تتوجه الجزاء الشجرة إلى ثمرتها.

وأن الرحمة أيضاً هي التي عمرت هذا الفضاء الواسع وزينت هذا العالم الخالى.¹⁰
وأن الرحمة نفسها هي التي جعلت هذا الإنسان الفاني مرشحاً للخلود والبقاء، وأهله ليلقى خطاب رب العاملين ومنحته فضل ولايته سبحانه .

وفي السر السادس والأخير يؤكد النورس أن رحمة الله هي أعظم وسيلة وأرجى شفيع.¹¹

بعد أن أفاض النورسي في الحديث عن رحمة الله تعالى على جميع مخلوقاته، وقف أيضاً عند نقطة هامة وهي وجود "جهنم" قاصداً إزالة بعض الشبهات التي قد يثيرها البعض زعماً أن وجود جهنم يناقض الرحمة. وأورد ذلك في نكتتين في كتابه "الشعاعات". يقول

في النكتة الأولى أن التفكير في جهنم والخوف منها لا يزيل لذائد ثمرات الإيمان المذكورة ولا يفوتها ، لان الرحمة الربانية الواسعة تهتف بذلك الخائف "تعالى إلى فدونك باب التوبة ادخل منه" فإن وجود جهنم ليس للتخويف، بل ليعرفك لذائد الجنة معرفة كاملة، وليذيقك إياها تذوقاً كاملاً، وليأخذ لك ولمخلوقات غير محدودة الثأر والانتقام ممن انتهك حقوق الجميع واعتدى عليها ليفرحهم جميعاً بهذا ويدخل السرور إليهم. وبمضى النورسي للنكتة الثانية في هذا الصدد مؤكداً ان وجود جهنم لا ينافي الرحمة والعدالة. يقول في ذلك: "إن وجود جهنم وعذابها الشديد لا ينافي قطعاً الرحمة غير المحدودة، ولا العدالة الحقيقية، ولا الحكمة الموزونة التي لا إسراف فيها، بل إن الرحمة والعدالة والحكمة تتطلب وجود جهنم وتقتضيه، لان قتل حيوان افترس مائة من الحيوانات أو إنزال عقاب بظالم هتك حرمت ألف من الأبرياء ، هو رحمة بألاف الأضعاف للمظلومين من خلال العدالة. وإن إعفاء ذلك الظالم من العقاب أو التجاوز عنه، وترك ذلك الحيوان الوحشي طليقاً، فيه ظلم شنيع وعدم رحمة لمئات المساكين بمئات الأضعاف إزاء رحمة في غير موضعها.¹²

كذلك نجد أن النورسي أشار في كتابه "المثنوى العربي النورى" ¹³ إلى ان الإسلامية رحمة عامة تشمل حتى الكفار. يقول في ذلك " اعلم أن الإسلامية رحمة عامة، حتى أن الكفار سعادة حياتهم الدنيوية وعدم انقلاب لذائذهم إلى الآلام الأليمة سببها الإسلامية!.. إذ الإسلامية قلبت الجحود والكفر المطلق، والإنكار المحض المتضمنين للباس الأليم ، والألم الشديد إلى الشك والتردد. فالكافر بسبب تولد احتمال الحياة الأبدية في ذهنه بصيحة القران، يستريح من الألم المنغص، وبعدم اليقين يستريح من الكلفة اللازمة للديانة. فهو كالنعامة (ابل الطير) إذا قيل له طر، يقول أنا ابل.. إذا قيل له.. احمّل الحمل، يقول أنا طير! فهذه الدسيسة الشيطانية هي التي صيرت الكافر والفاسق مسعودين ظاهراً في الحياة الدنيوية بالنسبة إلى الكافر المطلق والمؤمن الخالص.¹⁴

الرسول صلى الله عليه وسلم الرحمة :-

بعد أن أكد النورسي أن رحمة الله هي أعظم وسيلة ، أردف أن أسطع مثال للرحمة بين بني البشر وفضل من يمثلها وأبلغ لسان ناطق بما وأكرم داع إليها، هو الذى سمي في القران الكريم (... رحمة للعالمين) [سورة الأنبياء: 107] وهو رسولنا الحبيب صلى الله عليه وسلم، فالطريق الأمثل لبلوغ تلك الحزينة الأبدية هو اتباع سنته المطهرة. وبشيت النورسي أن الوسيلة للوصول للرسول صلى الله عليه وسلم هي الصلاة عليه. والصلاة

تعني الرحمة، فالصلاة عليه دعاء بالرحمة لتلك الرحمة المجسمة الحسية، وهم وسيلة للوصول إلى من هو رحمة للعالمين.¹⁵

رحمة الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى أمته :-

أفرد النورسي في كتابه اللمعات حديثاً مفصلاً عن رحمة الرسول صلى الله عليه وسلم ورأفته على أمته وذلك عند تفسيره لقوله تعالى :- { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } [التوبة: 128، 129] .
لقد قسم النورسي شرحه لهاتين الآيتين الكريمتين إلى نكتتين .

النكتة الأولى: "وهو تعبير عن كمال رأفة الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم وغاية رحمته على أمته. نعم لقد وردت روايات صحيحة تبين مدى رأفته الكاملة وشفقته التامة على أمته بأنه صلى الله يدعو يوم الحشر الأعظم بـ (أمي أمي)¹⁶ في الوقت الذي يدعو فيه كل أحد، بل حتى الأنبياء عليهم السلام بـ (نفسى نفسى) من هول ذلك اليوم ورهيبته. فكما تبين هذه الروايات عظيم شفقته على أمته، فقد سمعت والدته منه عند ولادته انه يناجى: " أمي أمي " ويمضى النورسي مؤكداً اعظم رأفته على أمته بإظهار حاجته التي لا تجد إلى صلوات أمته عليه .¹⁷

بعد ذلك يقف النورسي عند النكتة الثانية المستخلصة من الآية السالفة الذكر (...)
رؤوف رحيم) ويخصص هذه النكتة لتبيان رأفته صلى الله عليه وسلم على حفيديه الحسن والحسين ، والتي يرى النورسي أنها ليست مجرد رأفة فطرية بل هي جزء من مهمته "عليه السلام" النبوية الشاملة. يورد النورسي في ذلك : "إن إظهار الرسول صلى الله عليه وسلم شفقة فائقة وأهمية بالغة للحسن والحسين رضى الله عنهما في صباهما، ليست هي شفقة فطرية ومحبة نابعة من الإحساس بصلة القرابي وحدها ، بل نابعة أيضاً من أهما بداية سلسلة نورانية تتولى مهمة من مهمات النبوة العظيمة، وأن كلا منهما منشأ جماعة عظيمة من وارثي النبوة ، وممثل عنها وقدوة لها. ويمضى النورسي مشيراً إلى حمل الرسول صلى الله عليه وسلم للحسن في حضنه وعطفه الجرم على الحسين ، فيقول في ذلك:- " إن حمل الرسول صلى الله عليه وسلم الحسن رضى الله عنه في حضنه وتقيله رأسه بكمال الشفقة والرحمة هو لأجل الكثيرين من ورثه النبوة الشبيهين بالمهدى الحاملين الشريعة الغراء المتسلسلة من سلالة الحسن المنحدرين من نسله النوراني المبارك أمثال الشيخ الكيلاني¹⁸ . فلقد شاهد الرسول ببصيرة النبوة ما يضطلع به هؤلاء الأكارم في المستقبل من مهام مقدسة جليلة ، فاستحسن خدماتهم وقدر أعمالهم . فقبل رأس

الحسن رضى الله عنه علامة على التقدير والحث. ثم أن الاهتمام العظيم الذي أولاه الرسول الكريم بالحسن وعطفه الشديد نحوه إنما هو للذين يتسلسلون من نسله النوراني من أئمة عظام وارثي النبوة الحقيقيين الشبيهين بالمهدى أمثال زين العابدين وجعفر الصادق. نعم فقد قبل صلى الله عليه وسلم عنق الحسين رضى الله عنه واطهر له بالغ شفقتة وكمال اهتمامه لأجل أولئك الذين سيرفعون شأن الإسلام ويؤدون وظيفة الرسالة بعده".¹⁹

إن الكتب الإسلامية التي تناولت سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم لا بد ان تفرد حيزاً للحديث عن رأفته وشفقتة، ولا بد كذلك من أن تشير إلى الآية التي ذكرها النورسي "... رؤوف رحيم". فمثلاً نجد أن القاضي عياض في كتابه "الشفاء بتعريف حقوق المصطفى" قد خصص فصلاً لرحمة الرسول صلى الله لجميع خلقه. يقول القاضي عياض في ذلك: "واما الشفقة والرأفة والرحمة لجميع الخلق فقد قال الله تعالى فيه: "عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم" وقال تعالى: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين". قال بعضهم من فضله صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى أعطاه اسمين من أسمائه فقال (بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)²⁰ وعدد القاضي عياض في هذا المقام أمثلة من شفقتة صلى الله عليه وسلم. من ذلك تخفيفه وتسهيله على أمته وكراهيته أشياء مخافة أن تفرض عليهم كقوله عليه الصلاة والسلام: لولا أن اشق على أمي لأمرتهم بالسواك مع كل وضوء. ومن عظيم شفقتة على أمته انه لما كذبه قومه أتاه جبريل عليه السلام فقال له: بان الله تعالى قد سمع قول قومك لك وما تردوا عليك وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداه ملك الجبال وسلم عليه وقال: مربي بما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الاخشيين. قال النبي صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً²¹. ومن أمثلة رحمته صلى الله عليه وسلم ان السيدة عائشة رضى الله عنه ركبت بعيراً وفيه صعوبة فجعلت تردده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عليك بالرفق.²²

كذلك نجد أن الزمخشري في كتابه (الكشاف) عند تفسيره لآية سورة التوبة "... رؤوف رحيم"، يورد قائلاً: قيل لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله "رؤوف رحيم".²³

ايضاً نجد انه لا تذكر رحمة الرسول صلى الله عليه وسلم إلا ويشار لقوله تعالى :-
{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَكَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

الْمُتَوَكِّلِينَ { [آل عمران: 159] . يقول القرطبي في كتابه "الجامع لأحكام القرآن" عند تفسيره لهذه الآية انه عليه السلام لما رفع بمن تولى يوم أحد ولم يعنفهم بين الرب تعالى أنه إنما فعل ذلك بتوفيق الله تعالى إياه "لنت" من لان يلين لناً ولياناً بالفتح. الفظ الغليظ الجافي. ففظت تفظ فظاظة وفضاظاً فأنت فظ والأنثى فظة والجمع افظاظ. وفي صفة النبي عليه السلام ليس بفظ ولا غليظ ولا صحاب في الأسواق .

وغلظ القلب عبارة عن تجهم الوجه، وقلة الانفعال في الرغائب، وقلة الإشفاق والرحمة، ومن ذلك قول الشاعر :-

يبكى علينا ولا نبكى على أحد
لنحنا أغلظ أكباداً من الإبل

ومعنى " لانفضوا " لتفرقوا ، والمعنى: يا محمد لولا رفقك لمنعهم الاحتشام والهيبة من القرب منك بعد ما كان من توليهم .²⁴

وابن كثير في تفسيره يربط بين رحمة الرسول صلى الله في سورة آل عمران وسورة التوبة. يقول في تفسير الآية 159 من سورة آل عمران ، قوله تعالى :- (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ) أي برحمة من الله ، قال الحسن البصري : هذا خلق محمد صلى الله عليه وسلم بعثه الله²⁵ به ، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } [التوبة: 128].

الرحمة بالوالدين :-

تحدث النورسي عن الرحمة الواجبة تجاه الوالدين لا سيما عند كبيرهما. وقد ظهر في ذلك إلى قوله تعالى: { إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا. وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلْمِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا } . [الإسراء: 23-24] يقول في ذلك: "وهكذا فما دام الضعف والعجز اللذان في الشيخوخة يصححان محورين لجلب الرحمة الإلهية الواسعة، وإن القرآن الكريم يدعو الأولاد إلى الاحترام والرأفة بالوالدين في خمس مرات، وبأسلوب غاية في الأعجاز في هاتين الآيتين المتقدمتين، ومادام الإسلام يأمر بتوفير الشيوخ والرحمة بهم، والفطرة الإنسانية تقضى الاحترام. والرحمة تجاه الشيوخ فلا بد لنا نحن الشيوخ (يقول متحدثاً عن نفسه) - ألا نستبدل شيخوختنا هذه بمائة عهد من عهود الصبا، ذلك لأن فيها أذواقاً معنوية دائمة بدلاً من الذوق المادي الناشئ من نزوة الشباب ، حيث نأخذ أذواقاً روحية نابعة من الرحمة الصادرة من العناية الإلهية ومن الاحترام النابع من فطرة الإنسانية.²⁶

عند تفسيره للآية السابقة يورد القرطبي قائلاً "واخفض لها جناح الذل من الرحمة" هذه استعارة في الشفقة والرحمة بهما والتدلّل لهما تدلّل الرعية للأمير والعبيد للسلادة " كما أشار إليه سعيد بن المسيّب. وضرب خفض الجناح ونصبه مثلاً للجناح الطائر حين ينتصب بجناحه لولده. والذل هو اللين . ويمضى القرطبي شارحاً هذه الآية فيقول: والخطاب في هذه الآية للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته إذ لم يكن له عليه السلام في ذلك الوقت أبوان²⁷. ولم يذكر "الذل" في قوله تعالى: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الشعراء: 215] وذكره هنا بحسب عظم الحق وتأكيدده . "ومن" في قوله "من الرّحمة" لبيان الجنس، أي أن هذا الخفض يكون من الرحمة المستكنة في النفس ، لا بأن يكون ذلك استعمالاً. ويصح أن يكون لانتهاء الغاية ، ثم أمر تعالى عباده بالترحم على آبائهم والدعاء لهم ، وان ترجمها كما رحماك وترفق بهما كما رفقاً بك ؛ إذ وليك صغيراً جاهلاً محتاجاً فأثراك على أنفسهما، وأسهر ليلهما وجاعاً وأشبعاك وتعرياً وكسواك، فلا تجزيهما إلا أن يبلغا من الكبر الحد الذي كنت فيه من الصغر ، فتلى منهما ما وليا منك ، ويكون لهما حينئذ فضل التقدم.²⁸

أما سيد قطب في تفسيره "في ظلال القرآن" فانه يشير إلى ظلال وإيحاءات هذه الآية قائلاً: "واخفض لهما جناح الذل من الرحمة"، هنا يشف التعبير ويلطف ويبلغ شغاف القلب وحنايا الوجدان، فهي الرحمة ترق وتلطف حتى لكأهما الذل الذي لا يرفع عيناً، ولا يرفض أمراً . وكأتما الذل جناح تخفضه إيداناً بالسلام والاستسلام.²⁹

النساء رائدات الشفقة وبطلات الحنان :-

ربط النورسي الشفقة بالنساء وان شفقة المرأة تقودها للتضحية والفداء من اجل أبنائها. يقول في ذلك : لما كان أهم أساس من أسس رسائل النور هو "الشفقة" وان النساء هن رائدات الشفقة وبطلات الحنان فقد أصبحن أكثر ارتباطاً برسائل النور فطرة. فهذه العلاقة الفطرية يحس بها في كثير من الأماكن والله الحمد والمنة. ويمضى النورسي قائلاً، ولقد قدت التضحية التي تنطوي عليها الشفقة والحنان ذات أهمية عظيمة في زماننا هذا ، إذ أنها تعبر عن إخلاص حقيقي وفداء دون عوض ومقابل.³⁰

خاتمة

تناول هذا البحث المعنى اللغوي لكلمتي شفقة ورحمة. وفي ضوء رسائل النور استعرضت الدراسة أنواعاً مختلفة من الرحمة، شملت رحمة الله تعالى على خلقه بل حتى

على الكافر منهم . ثم رحمة الرسول صلى الله عليه وسلم على أمته في حياتهم ويوم الحشر ، ثم الرحمة بالوالدين لا سيما عند الكبر واخيراً الشفقة والحنان عند النساء . لقد جاء ذكر كلمة " الرحمة " ومشتقاتها في آيات كثر. كما أشارت السنة النبوية إلى أهمية الرحمة. وربما قصد النورسي بالتركيز على هذه الخصلة باعتبارها نقود للمحبة والتضحية ومن ثم إقامة مجتمع إنساني فاضل.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- بديع الزمان النورسي : فكره ودعوته ، مجموعة بحوث في مؤتمر تحرير ابراهيم علي العوضي عمان ، جمادى الثانية 1418هـ تشرين اول 1998م
- بديع الزمان سعيد النورسي : مجموعة بحوث في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي استانبول ، 1992م
- الجامع لأحكام القرآن: القرطبي ، 20 مجلد ، الطبعة الثالثة ، القاهرة 1967م
- تفسير القرآن العظيم : ابن كثير ، 4 مجلدات ، الطبعة الرابعة ، لبنان سنة 1983م
- في ظلال القرآن : سيد قطب ، 8 مجلدات ، الطبعة السابعة عشر القاهرة/ بيروت ، 1992م
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: الزمخشري ، 4 مجلدات ، بيروت ، الطبعة الاولى ، 1983م .
- اللمعات ، من كليات رسائل النور: بديع الزمان سعيد النورسي ، ترجمة إحسان قاسم الصالحى ، استانبول ، الطبعة الأولى ، 1993م
- الشعاعات ، من كليات رسائل النور : بديع الزمان سعيد النورسي ، ترجمة احسان قاسم الصالحى ، مصر ، الطبعة الثانية ، سنة 1993م
- الشفاء بتعريف حقوق المصطفى جزاء: القاضي أبو الفضل ، عياض اليحصبي ، بيروت ، بدون تاريخ وبدون رقم طبعه
- مرشد اهل القرآن إلى حقائق الإيمان ، من كتاب رسائل النور ، بديع الزمان سعيد النورسي / ترجمة احسان قاسم الصالحى ، الطبعة الأولى 1998م بدون ذكر الطبعة
- مرشد الشباب للنجاح في يوم الحساب من كليات رسائل النور بديع الزمان سعيد النورسي ، ترجمة - احسان قاسم الصالحى ، الطبعة الأولى ، سنة 1997م القاهرة .

الهوامش:

- 1 د. احمد شكرى شابوسغ، مقال بعنوان "علوم القرآن والتفسير في رسائل النورسي"، من كتاب بيدع الزمان النورسي فكرته ودعوته، ص 82
- 2 د. احمد آق كوندوز ، مقال بعنوان "رسائل النور " مدرسة إيمانية جديدة " من كتاب بيدع الزمان سعيد النورسي : في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي ص 190
- 3 ابن منظور ، لسان العرب ، ج 10 ، ص 179 – 180.
- 4 ابن منظور لسان العرب ، ج 12 ، ص 230
- 5 ابن منظور، لسان العرب، ج 12، ص 231.
- 6 ابن منظور، لسان العرب، ج 12، ص 232.
- 7 النورسي ، مرشد الشباب في يوم الحساب ، ترجمة ، إحسان قاسم ، ص 191
- 8 النورسي ، مرشد الشباب ، ص 192 – 193
- 9 النورسي ، الشعاعات ، ج 4 ، ص 164
- 10 النورسي ، مرشد الشباب ، ص 195 – 96
- 11 النورسي ، المصدر نفسه ، ص 196
- 12 النورسي ، الشعاعات ، ج 4 ص 287
- 13 النورسي ، المثنوى العربي النورى ، تحقيق إحسان قاسم ص 169
- 14 النورسي ، المثنوى العربي النورى ، ص 169
- 15 النورسي ، مرشد الشباب ، ص 208
- 16 جزء من حديث الشفاعة الطويل – وانظر البخارى ، الصحيح .
- 17 النورسي ، اللمعات ، ج 3 ، ص 29
- 18 الشيخ عبد القادر ابن أبو صالح أبو حمد الحنبلي. ولد سنة 470هـ ودخل بغداد فسمع الحديث وتفقه على أبي سعيد المخزومي الحنبلي، كان من سادات المشائخ. من مصنفاته: الغنية وفتوح الغيب والفتح الرباني، توفي وله تسعون سنة، ودفن بالمدرسة التي كانت له سنة 561هـ . ابن كثير، البداية والنهاية ج 12، ص 252 حاجي خليفة، كشف الظنون، ص 1211، 1240 ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 1 ص 126. الزركلي، الا اعلام ج 4، ص 47
- 19 النورسي ، اللمعات ج 3 ، ص 30
- 20 القاضي عياض ، الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، ص 122
- 21 المصدر نفسه ص 125
- 22 المصدر نفسه ص 126
- 23 الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج 2، ص 223
- 24 القرطبي ، تفسير ، ج 3 ، ص 248- 49
- 25 ابن كثير ، تفسير ج 2 ، 139- 40
- 26 النورسي ، اللمعات ، ج 3 ، ص 362
- 27 القرطبي ، تفسير ، ج 10 ص 243 ، 44
- 28 القرطبي ، ج 10 ص 243- 44.
- 29 سيد قطب ، ظلال القرآن ، ج 2 ، ص 2221- 22
- 30 النورسي ، اللمعات ، ج 3 ، ص 307

النبوة عند النورسي والغزالي

ووليّ الله الدهلوي

أ.د يوسف دادو^Ψ

المقدمة

تتضمّن أفكار بديع الزمان سعيد النورسي في النبوة المبنية على القرآن الكريم جوهر هذا البحث. بالإضافة إلى هذا، أقدم المعلومات المحصولة عليها من الأحاديث والسير النبوية التي استخدمها سعيد النورسي لهذا الهدف. أودّ أن أناقشها كذلك، علاوة على أفكار العالمين الآخرين التي إما ستتمّ أفكار النورسي وإما تتعارض معها. قبلة أنظار البحث الوجوديّ يتّوى على الأمور التالية: منزلة النبوة عامّاً، والمعجزات، والعصمة، تعليمات الأنبياء عليهم الصلاة والتسليم وسيرهم، والشفاعة. وتشمل الكلام في الأمور المعرفية مجال علم الأنبياء الفريد، واختلافه عن الفلسفة، وموقف النبوة من اعلم وتفوقه على علم التصوّف. نلتفت أولاً إلى علمي وجوديّ النبوة.

(1) منزلة النبوة

نجد استدلالين عند النورسي: هو يؤكد "أن الألوهية لا تكون بلا رسالة"¹. ينعكس كما الألوهية بإرسالها الأنبياء والرسل الذين يقومون بمهمّاتهم في الاتجاهين العموديين كليهما.

فأولاً، إنهم مرسلون من الله إلى الناس. إذن، يبيّنون لهم معنى الحياة وغايتها بالإرشاد والتعليم.

ثانياً، إنهم ممثلو الناس عند الحضرة الربانية². في نفس الوقت "... النبوة في البشرية فذلك الخير وخلاصة الكمال وأساسه.. فالبداية يكون الحق والحقيقة في جانب النبوة، وفي يد الأنبياء عليهم السلام"³.

وعند الإمام الغزالي "الأنبياء أطباء أمراض القلوب"⁴.

Ψ أستاذ في جامعة بريتوريا جنوب أفريقيا

إن النبوة تجلّ مباشرة لله سبحانه في أفضل البشر. أما أولياء الله فإنما يكون هذا التحلي غير مباشر في قلوبهم. بوسع الناس أن يطمحوا إلى الولاية لكن الله يصطفي رسلا من الناس. فالنبوة هدية إلهية⁵. وأضف إلى هذا الأمر، الفرق الجلي بينهما بشأن الوقت الذي يحتاج إليه شخص لبلوغ مرامه.

يوضح النورسي كما يلي: "فالولاية سلوك في مراتب القرب إلى الله، وهي بحاجة إلى زمان وإلى طيِّ مراتب كثيرة. أما الرسالة التي هي أعظم نور فهي متوجهة إلى انكشاف سرّ الأقربية الإلهية، الذي تكفيه لحظة خاطفة وأن سيّال. ولهذا ورد في الحديث الشريف ما يفيد أنه رجوع في الحال"⁶.

يعرّف وليّ الله الدهلوي نبيا ويوضح منزلته بأسلوبه الوحيد على الوجه التالي: "وإذا اقتضت الحكمة الإلهية أن تبعث إلى الخلق واحدا من المفهمين، فتجعله سببا لخروج الناس من الظلمات إلى النور، وفرض الله على عباده أن يسلموا وجوههم وقلوبهم له، وتؤكد في الملام الأعلی الرضا عن انقاد له وانضم إليه، واللعن على من خالفه وناوأه، فأخبر الناس بذلك، وألزمهم طاعته فهو النبيّ. وأعظم الأنبياء شأنًا من له نوع آخر من البعثة أيضا، وذلك أن يكون مراد الله تعالى فيه أن يكون سببا لخروج الناس من الظلمات إلى النور وأن يكون قومه خير أمة أخرجت للناس، فيكون بعثه يتناول بعثا آخر"⁷ فهو الرسول.

إن النبيّ "معتدل المزاج سوى الخلق والخلق.. ويكون ألزم الناس بالسنة الراشدة ذا سمّت حسن في عبادته، ذا عدالة في معاملته مع الناس، محبا للتدبير الكلّي، راغبا في النفع العام، لا يزال مائلا إلى عالم الغيب، يحس أثر ميله في كلامه ووجهه وشأنه كله، يرى أنه مؤيد من الغيب، يفتح له بأدنى رياضة ما لا يفتح لغيره من القرب والسكينة"⁸. النورسي يمثل لنا مثلا واحدا لتأثير هذا السلوك في الناس. نقبس قوله: "إن الصحة النبوية أكسير عظيم. لها من التأثير الخارق ما يجعل الذين يتشرفون بها لدقيقة واحدة ينالون من أنوار الحقيقة ما لا يناله من صرف سنين من عمره في السير والسلوك"⁹.

(2) المعجزات

يشرح النورسي مكانة المعجزات ومهمتها كما يلي: "إن المعجزة تأتي لإثبات دعوة النبوة عن طريق إقناع المنكرين، وليس إرغامهم على الإيمان. لذا يلزم إظهارها للذين سمعوا دعوى النبوة، بما يوصلهم إلى القناعة والاطمئنان إلى صدق النبوة. أما إظهارها.. بحيث يضطر الناس إلى القبول والرضوخ فهو مناف لحكمة الله الحكيم ذي الجلال، ومخالف أيضا لسر التكليف الإلهي. ذلك لأن سر التكليف الإلهي يقتضي فتح المجال أمام العقل دون سلب الاختيار منه"¹⁰.

ولو أضاف إلى هذا أن الأنبياء (صلوات الله عليهم أجمعين) لم يظهروا معجزاتهم إلا قبيل تدمير الله العصاة الطغاة لأكمل بيانه في هذا الباب. إنما المعجزات حلّ آخر لتثبيت دعوى النبوة.

يبين ولي الله الدهلوي أن المعجزات خارجة عن مهمّة النبوة وتحدث لثلاثة وجوه: أولاً، انكشاف بعض الحوادث على الأنبياء وكونهم سبباً لاستجابة الدعوات وظهور البركات فيما يبرك عليهم. وتحسّ البركة إما بزيادة نفع الشيء وإما بتحويل طبيعة الغذاء إلى نوع أحسن تغذية وإما بزيادة عين الشيء. ثانياً، يستعد المملأ الأعلى لتنفيذ أمره، فيوجب ذلك إلهامات وإحالات وتقريبات لم تكن تعهد من قبل. يوحى إلى الأنبياء أن يعدوا الصالحين عن أماكن توشك أن تصيبها كارثات بينما يجذب الأثمن إليها. فتسبب نصر الأولياء وحذلان الأعداء. ثالثاً، تحدث حوادث لأسبابها الخارجية من مجازاة العصاة وحدوث الأمور العظام في الجو¹¹.

لكن رأي ولي الله الدهلوي يختلف عن معتقدات تقليدية حين يقول إن المعجزات عند تحقيق عمليتها ظواهر طبيعية. في حكمه على العالم، يُحدث الله خرقاً في سير الطبيعة داخل إطار السلسلة العادية للحوادث الطبيعية مهما غير مستقرة تكون¹².

(3) العصمة

عند الحدّث الدهلوي تقع عصمة الأنبياء على ثلاث درجات. وهي:
أ- خلقهم أنقياء عن الشهوات الرذيلة لا سيما فيما تؤدّي إلى محافظة الحدود الشرعية.

ب- توحى إليهم صفات الحسن والقبح.

ج- يحول الله بينهم وبين شهواتهم الرذيلة¹³.

(4) إرشادات الأنبياء وسيرهم

التفاصيل التالية هامة عند الدهلوي:

أ- ينبغي أن يوافق إرشاد كل نبي على فطرة الناس. ثم يشرع في تعيين العقائد والعادات التي يسلكها الناس، متخذاً ومرخصاً بما يطابق تهذيب نفوسهم ورافضاً أخرى¹⁴.

ب- لا ينهمك الأنبياء في مسائل خارج فهم الناس. فلذلك، لا يأمرن بالتفكر في ذات الله عز وجل وصفاته.

ج- يكلمون الناس على قدر عقولهم.

د- يهمل الأنبياء مشاكل لا تتصل بتهذيب النفوس وتوجيه الناس، مثلاً الاهتمام بمناقشة أمور الجو. مع هذا، إن تلفت الأنظار إلى آلاء الله تعالى يمكن البحث في هذه المواضيع بكلام إجمالي¹⁵.

(5) الشفاعة

وفق فكر وليّ الله الدهلوي، إن هذا الأمر مهم إلى الحدّ الأقصى. غايته تجلية صفات الحيّ القيوم على التعاقب، تقصد محو السيئات المكتوبة في كتاب أعمال شخص. يستحق كل نبي الشفاعة حسب نوعية كماله وتقربه من الله الكريم. يتوقف فوز الناس في نيل الشفاعة النبوية على قربهم من الأنبياء. ويفصل الدهلوي: "واستشعر نبينا صلى الله عليه وسلم أن أعظم مقاصد بعثته أن يكون شفيعاً للناس، واسطة لنزول رحمة خاصة يوم الحشر، فاختبأ دعوته العظمى المنبجس من أصل نبوته لذلك اليوم"¹⁶.
الآن، نمنع النظر في أمور معرفية تتعلق بالنبوة.

نظرية المعرفة النبوية

1- مجاها الفوطيحية

يؤكد سعيد النورسي أن العلميو جودي ونظرية المعرفة المربوط إلى النبوة يتجاوز حدود التجريبية والتفكر بكثير. يصف القرآن الكريم خير النبي الكريم صلى الله عليه وسلم الرائعة في المعراج كما يلي: (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى) [النجم: 17] يستطيع عامة الناس أن يقدّروا لا إدراكية هذا المقام من قوله صلى الله عليه وسلم التالي: "نام عيناى ولا ينام قبلى"¹⁷. هنا يسوغ لنا أن نقتبس الآية التالية من القرآن الكريم التي تصف النزعة الدائمة إلى الشك من قبل الناس بسبب علمهم المتناهي: (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) [يونس: 39]

ويذكر الإمام الغزالي أن "وراء العقل طور آخر تفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل وأمورا آخر العقل معزول عنها"¹⁸. إن هذا هو حقل النبوة. والشك في النبوة يقع إما في إمكانيتها وإما في وقوعها وإما بالحصول عليها من جانب شخص معين. إن وجود عديد المعارف الدنيوية مثل علم الطب والنجوم يشير إلى دور الإلهام الإلهي في تشكيلها وهذه العملية وراء العقل الإنساني. إن هذا هو معنى النبوة. نسر غور هذه الحقيقة من أحلام الناس التي تُروى فيها حوادث المستقبل صريحا أو رمزيا. ولا يلعب العقل الإنساني دورا في فهمها. إنما يقدر

حقيقة النبوة الإيمان المبني على الفهم الصحيح المنبثق من علم التصوف. ثلاث خطط المذكورة أدناه حاسمة. وهي:

أ- التعمق في علوم القرآن الكريم والسنة النبوية

ب- المواظبة على العبادات

ج- تصفية القلب

ولا يغني فتيلها طلبها في المعجزات التي ربما يعتبرها الشكوكيون سحرا. فمن حصافة العقل أن يعترف بهذه الحقائق ويثبت صدق النبوة وعجزه عن إدراك إمكاناتها¹⁹.

2- اختلاف علم النبوة عن الفلسفة

تثبت النبوة التوحيد الرباني وتشاهد الحقيقة بوساطة هذا العدس. لكن الفلسفة والعلوم الطبيعية تشاهدها بوساطة وجهة متعاكسة تماما. ملاحظات سعيد النورسي قاطعة، حاسمة وفضيحة هنا:

"إن نظر النبوة والتوحيد والإيمان يرى الحقائق في نور الألوهية والآخرة ووحدة الكون لأنه متوجه إليها. أما العلم التجريبي والفلسفة الحديثة فإنه يرى الأمور من زاوية الأسباب المادية الكثيرة والطبيعة لأنه متوجه إليها. فالمسافة إذن بين زاويتي النظر بعيدة جدا. فربّ غاية عظيمة جليلة لدى أهل الفلسفة تافهة وصغيرة لا تكاد ترى بين مقاصد علماء الدين وعلم الكلام. ولهذا فقد تقدم أهل العلم التجريبي كثيرا في معرفة خواص الموجودات وتفصيلها وأوصافها الدقيقة في حين تخلفوا كثيرا حتى عن أبسط المؤمنين وأقلهم علما في مجال العلم الحقيقي وهو العلوم الإلهية السامية والمعارف الأخروية" استقصاء مشكلة من هاتين الزاويتين المتضادتين يرتب على "ظهور حقيقتين متباينتين، وقد تكون كلتاهما حقيقة"²⁰. ومع أن صحة عضوا من النظام الشمسي ونقطة بالقياس إلى المجرة. في حين أن يقرّ شخص ذو بصيرة نبوية بهذه الحقائق ينسب الأرض إلى محور الكائنات، و"قلب الكون ومركزه من حيث المعنى.. ومعرض جميع المصنوعات المعجزة.. وموضع تجلّي الأسماء الحسنى كلها.. ونموذج مصغر لمصنوعات عالم الآخرة الواسع الفسيح" أي إلى الإنسان نفسه.

إن أسلوب النورسي في التمييز بين سلسلة النبوة والفلسفة سلس، واضح واستثنائي. إليكم من النص المناسب:

"إن في تأريخ البشرية تيارين عظيمين وسلسلتين للأفكار، كأنهما شجرتان ضخمتان أرسلتا أغصانهما وفروعهما في كل صوب، وفي كل طبقة من طبقات الإنسانية.

أحدهما: سلسلة النبوة والدين

والأخرى: سلسلة الفلسفة والحكمة

فمتى كانت هاتان السلسلتان متحدتين وممتزجتين، أي في أي وقت أو عصر استجارت الفلسفة بالدين وانقادت له وأصبحت في طاعته، انتعشت الإنسانية بالسعادة وعاشت حياة اجتماعية هنيئة. ومتى ما انفجرت الشقة بينهما وافترقتا، احتشد النور والخير كله حول سلسلة النبوة والدين، وتجمعت الشرور والضلالات كلها حول سلسلة الفلسفة. فإن سلسلة الفلسفة التي عصت الدين، اتخذت صورة شجرة زقوم خبيثة تنشر ظلمات الشرك وتنثر الضلالة حولها. حتى إنها سلّمت إلى يد عقول البشر، في غصن القوة العقلية، ثمرات الدهريين والماديين والطبيعيين.. وألقت على رأس البشرية، في غصن القوة الغضبية، ثمرات النمازيد والفراعنة والشدادين. وربّت، في غصن القوة الشهوية البهيمية، ثمرات الآلهة والأصنام ومدّعي الألوهية وبجانب هذه الشجرة الخبيثة، شجرة زقوم نشأت شجرة طوبى العبودية لله، تلك هي سلسلة النبوة، فأثمرت ثمرات يانعة طيبة في بستان الكرة الأرضية، ومدّتها إلى البشرية، فتدلّت قطوفا دانية من غصن القوة العقلية: أنبياء ومرسلون وصديقون وأولياء صالحون.. كما أثمرت في غصن القوة الدافعة: حكاما عادلين وملوكا طاهرين طهر الملائكة. وأثمرت في غصن القوة الجاذبة: كرماء وأسخياء ذوي مروءة وشهامة في حسن سيرة وجمال صورة ذات عفة وبراءة..²¹. بما أن هذا الخطاب يركز على خاصية النبوة، يمكن استدلال أفكار النورسي في الفلسفة بكونها مضادة لأفكاره في النبوة.

3- موقف النبوة من العلم

يتأسس هذا الموقف على إذعان الذات الشخصية وجميع السلطة إلى أوامر ذات أعلى مكانة. فيحرز الذات الأدنى مجدها وكيونتها عن طريق الكينونة الأبدية لهذه الذات الأعلى. لذلك، يعتبر المذكور أولا ملكيته الأشياء مؤقتا ووهيميا. ويبين النورسي بهذا الشأن: "وحيقته ظلية - ليست أصلية - أي أنه ممكن مخلوق هزيل، وظل ضعيف يعكس تجليا لحقيقة واجبة حقه.."²². فنستدل من الكلام المذكور الأمور الأربعة التالية:

أولا، يصرّح الذين ينصبغون بعقائد النبوة أن المثل الحكمي "تخلّقوا بأخلاق الله" يلمّح إلى طبع سمة التواضع في أذهان الناس، معترفين بعجزهم وقصورهم وفقرهم بالمقارنة مع الله. لكن أصحاب الفلسفة يفسرونه نحو "تشبّهو بالله بلغة حكمه المطلق وقوته الغير مقيدة" فسدّوا سبيل العبودية إلى الله، متكبرين، مفتخرين، مستبدّين وأنانيين.

ثانيا، تبدع النبوة شعورا مشتركا يلعب فيه التراحم والتعاون والسماحة دورا مهما.

ثالثا، حسب قواعد النبوة في التوحيد "الواحد لا يصدر إلا عن الواحد"، أي ما دامت في كل شئ ينتمي إلى الجنس الخاص وحدة ظاهرة فلا بد من أن يكون لها مُوجدا

واحدا. وعلى عكس هذا، يقصر الفلاسفة الواحدَ الجنسيَ على الواحد العيني أو الذاتي. فالأشياء الأخرى تصدر بتوسط الوسائط. إن هذه العقيدة تفضي إلى نوع من الشرك بالله لأن الوسائط اقدر منه صدورا!²³.

رابعا، عند الفكر النبوي لكل شئ منافع كثيرة. فعلى هذا النمط، إن الحكم لا تعدّ ولا تحصى تتوجه إلى فاطره الجليل. ثم يقول النورسي: "أما دستور الفلسفة فهو إن حكمة خلق كل كائن حي وفائدته متوجهة إلى نفسه، أو تعود إلى منافع الإنسان ومصالحه هذه القاعدة تسلب من الموجودات حكما كثيرة أنيطت بها.. فتحول الموجودات إلى عبث لا طائل من ورائه"²⁴.

4- تفوق علم النبوة على علم التصوف

إن علم التصوف ناقص بالقياس إلى علم النبوة لأن المذكور ثانيا من القرآن المجيد مباشرة. يثبت الحصول على الحضور القلبي الدائم بين يدي الله سبحانه وتعالى في حين لا ينكر وجود الكائنات. "بل تنقذها من الإهمال والعبث وتستخدمها في سبيل الله سبحانه"²⁵.

الخاتمة

يكفي المذكور آنفا بيانا في مجال علمي وجودي ونظرية المعرفة للنبوة عند ثلاثة علماء السنيين، أي بديع الزمان سعيد النورسي والإمام الغزالي والحديث ولي الله الدهلوي. ننتهي البيان بتقدير وجيز عام لأفكارهم.

كميّا، قد تحرّت مؤلّفات الإمام الغزالي هذا الموضوع إلى حد أصغر من مؤلفات الآخرين. مع ذلك، وفر لمعلومات نافعة لأجل مناقشة مجال النبوة الفوطبيعي. وطريقة الحديث الدهلوي حافلة بتيار الفلسفة والتصوف لتقدير منزلة النبوة والمعجزات. قد فات سعيد النورسي الانتباه إلى عصمة الأنبياء. عامّا، يقدر الإمام الغزالي وولي الله الدهلوي النبوة بأسلوب أكثر فيلسوفا من النورسي للسبب أدناه:

كان الإمام الغزالي مفكرا درّس بجامعة النظامية في بغداد بين 1091 و 1096، وفي 1106 أدام ردّه على تحديات العقائد الباطنية والفلسفية. لأجل إنجاز أهدافه مقنعا لزمه نقد العقائد الفاسدة بأسلوب علمي. يعكس التعريف التالي لعلم التصوف هذا الأمر أيضا: أي، هو مبني عقلي به يتمكن العالم من ذوق غبطة الوجد بغير التخلّي عن اقتناع استفسار باطني²⁶.

ألّف الدهلوي (1703-1762) كتبه خلال الاضطراب السياسي والاجتماعي العظيم في الهند لما تلاشت سلطة المسلمين المركزية. تنافست للسيطرة الأحكام الذاتية والهندوسيون والسيخيون والأوروبيون. انحط وضع المسلمين الاقتصادي نتيجة التعطل

والفساد شاهدوا معارك داخلية، لا سيما بين أهل السنة وأهل الشيعة، كما شاهدوها بين أتباع بعض المذاهب السنية، وبين المقلدين والشعبيين المبتدعين. ساعد هذا العالم على الإصلاح في التربية والمجتمع والدين لاتحاد الأمة المسلمة وتقويتها. وبرّر هذا المشروع فلسفياً، مدللاً على القواعد الواضحة للحكومة الفاضلة والحياة الأخلاقية في كتبه المتعددة. وأيضاً، ترجم القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية ليتمكن وصوله إلى السواد الأعظم من الناس²⁷.

عاش سعيد النورسي في عصر الاضطراب الاجتماعي السياسي العظيم في تركيا. أثناء العشر السنوات الأولى من القرن العشرين، لما لم يزل كان سعيداً القديماً، درس أهل الأناضول الشرقي غايات الدستورية والحرية وبغى أن يثير الإحساس بالقومية الإسلامية بينهم. بعد ظهور سعيد الجديد إثر الحرب العالمية الأولى حتى 1950، بذل جهوده في تنبيه إحساس الشعب الديني بوقايتهم من سم الكفر. وفي نفس الوقت، أراد أن يمنع العلماء المقلدون عن التعصب. استبدلت نظرية معرفة إسلامية فعّالته السياسية البدائية. اعتزل عن الحياة العامة. وزّعت شبكة سرّية مؤلفاته كثيرة الإنتاج. وهذه الشبكة أصبحت الحالة البدائية للمجمع المدني في تركيا بعد تنفيذ النظام السياسي للأحزاب المتعددة، عاد النورسي إلى هذا الميدان. إن هذا يخصّ سعيداً الثالث. يتضح أنه كان قائد حركة جماعية في كل مرحلة، كما يتبين من رغبته في اشتهاار تعليماته عن طريق طلابه. وأيضاً، التمس من أتباعه استخدام الاتصال التكنولوجي في علمه نحو صناعة الطباعة والراديو في خدمة الإسلام. لأجل تمكين الناس المنتسبين إلى قطاعات المجتمع المختلفة من قراءة رسائله وتبليغها، صاغ العبارات أو المصطلحات المشتركة بين المسلمين واستخدم الحكايات لنشر الخطاب الديني مع ذلك، نلاحظ الاتجاهات الفلسفية أحياناً، مثلاً في مقابلته بين عالم النبوة وعالم الفلسفة المذكورة أعلاه. يجدر بالفحص الدقيق في "الكلمة الثلاثين" المذكورة آنفاً لتقرير قوة أفكاره ونطقها. الجمع بين الأدوات التقليدية الملائمة والأدوات الممتازة من الحدائث أمر جليّ فيها. مثل الحكماء السابقين، يستخدم القصة الرمزية لإبراز معنى شجرة زقوم وشجرة طوبى ليضع النبرة على ميول الفلسفة والدين على التعاقب. تنعشنا عباراته المعاصرة، مثل الإشارة إلى الارتفاعات في رؤيا. وكذلك، يوظف أداة الحلم "الرؤيا" التي يختارها الأولياء حين يصف تحوّل من الشخص الفلسفي إلى الشخص الروحاني. إن رمزية المذهب الطبيعي والفلسفة المشائية والهدى القرآني حالي جداً.

الملاحظات التالية التي وصف بها محمد لطفي جمعة عبقرية الإمام الغزالي ينطبق على بديع الزمان سعيد النورسي على حد سواء:

"وظاهر من هذا أنه لم يكن فيلسوفا عقليا، إنما كان حكيما دينيا بالفطرة، وإنه اتخذ العلم والعقل والشرع ذاته وسيلة للوصول إلى الحال التي هيأتها لها الطبيعة، على أن هذا لا يمنعنا من القول بأن عقله النادر المثال لدى مروره بالفلسفة... أفادها واستفاد منها"²⁸.

المراجع الإنكليزية

- Baljon, J M S 1986 .Religion and Thought of Shah Wali Allah Dihlawi .Leiden : Brill .
- Campanini, M 1996 " .Al-Ghazali .” In History of Islamic Philosophy (Part 1) (eds .S H Nasr and O Leaman) .London & New York :Routledge .
- Kemal, R & Kemal, S 1996 " .Shah Waliullah .” In History of Islamic Philosophy (Part 1 (eds .S H Nasr and O Leaman) .London & New York: Routledge .
- Vahide, 1999 " .The Life and Times of Bediuzzaman Said Nursi .” In The Muslim World, (eds . I M Abu Rabi' and J I Smith), vol .lxxxix, no .3-4, Hartford :Duncan Black Macdonald Center .
- Yavuz, M H 1999 " .Towards an Islamic Liberalism? :The Nursi Movement and Fethullah Gülen .In The Middle East Journal, (ed .M C Dunn), vol .53, no .4, Washington, DC :The Middle East Journal.

المراجع العربية

- ابن هشام، 1964. السيرة النبوية (المجلد الثاني). القاهرة: عيسى الباي الحلبي. الدهلوي، المحدث أحمد بن عبد الرحيم شاه ولي الله. لا ت. تأويل الأحاديث. بيروت: دار المعرفة. لا ت. حجة الله البالغة (المجلد الأول والثاني). بيروت: دار المعرفة. الغزالي، الإمام أبو حامد محمد، 1976. المنقذ من الضلال. إستانبول: حسين حلمي. النورسي، بديع الزمان سعيد، 1998. الكلمات (الطبعة الثالثة) ترجمة إحسان قاسم الصالح. إستانبول: دار سوزلر. النورسي، بديع الزمان سعيد. اللمعات (ترجمة إحسان قاسم الصالح). النورسي، بديع الزمان سعيد. المكتوبات. 1992 (ترجمة إحسان قاسم الصالح). إستانبول: دار سوزلر. جمعة، محمد لطفي، 1345هـ. تأريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب. جدة: دار البار.

الهوامش

- 1- سعيد النورسي 1998 "الكلمة العاشرة: الإشارة الثانية" في الكلمات (الطبعة الثالثة ترجمة إحسان قاسم الصالح). إستانبول: سوزلر، ص 63
- 2- سعيد النورسي، نفس المرجع، ص 62

402 • المؤتمر العالمي الخامس لبيدع الزمان سعيد النورسي

- 3- سعيد النورسي 1993 "اللمعة السابعة عشر: المذكرة التاسعة" في اللمعات ترجمة إحسان قاسم الصالحي. إستانبول: سوزلر، ص 194
- 4- الغزالي 1976 المنقذ من الضلال. إستانبول: حسين حلمي، ص 39
- 5- سعيد النورسي "الكلمة الحادية والثلاثون" في الكلمات، ص 670 حول النقطة الأخيرة، لاحظ أيضا، القرآن الكريم، سورة الحج، آية 75
- 6- سعيد النورسي، نفس المرجع، ص 671 حول النقطة الأخيرة، لاحظ أيضا، ابن هشام 1964 السيرة النبوية (المجلد الثاني) القاهرة: عيسى البابي الحلبي، ص 102
- 7- المحدث الدهلوي، لا ت، حجة الله البالغة، بيروت: دار المعرفة، المجلد الأول، ص 84 لتفاصيل إضافية، لاحظ هذا العالم يذكر عشر سجايا للأنبياء. ويذكرها النورسي أيضا لكن بعبارة ومصطلحات أقل فلسفيا
- 8- المحدث الدهلوي، نفس المرجع، ص 84
- 9- سعيد النورسي "ذيل الكلمة السابعة والعشرين" في الكلمات، ص 573
- 10- سعيد النورسي 1992 "المعجزات الأحمديّة: معجزة انشقاق القمر، النقطة الثالثة" في المكتوبات (ترجمة إحسان قاسم الصالحي) إستانبول: سوزلر، ص 272
- 11- المحدث الدهلوي، حجة الله البالغة، ص 85
- 12- المحدث الدهلوي، لا ت، تأويل الأحاديث، بيروت: دار المعرفة، ص 8
- 13- المحدث الدهلوي، حجة الله البالغة، ص 85
- 14- المحدث الدهلوي، نفس المرجع، ص 85
- 15- المحدث الدهلوي، نفس المرجع، ص 86
- 16- المحدث الدهلوي، نفس المرجع، ص 86
- 17- سعيد النورسي "الكلمة الرابعة والعشرون" في الكلمات، ص 401 اقرأ أيضا، ملاحظات المترجم على الهامش.
- 18- الغزالي، نفس المرجع، ص 35
- 19- الغزالي، نفس المرجع، ص 36-37
- 20- سعيد النورسي "الكلمة الرابعة والعشرون" في الكلمات، ص 401
- 21- سعيد النورسي، نفس المرجع، ص 401
- 22- سعيد النورسي "الكلمة الثلاثون" ص 639-640
- 23- سعيد النورسي، نفس المرجع، ص 643-644
- 24- سعيد النورسي، نفس المرجع، ص 641
- 25- سعيد النورسي، "المكتوب السادس والعشرون: المبحث الرابع" في المكتوبات، ص 425
- 26-Campanini 1996. "Al-Ghazali". In History of Islamic Philosophy (Part 1) (eds. S H Nasr and O Leaman). London & New York: Routledge, p. 266.
- 27-Kemal & Kemal 1996. "Shah Waliullah". In History of Islamic Philosophy (Part 1) (eds. S H Nasr and O Leaman). London & New York: Routledge, pp. 663-664.
- 28- محمد لطفي جمعة 1345 . تأريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب. جدة: دار الباز، ص 78

www.alkottob.com

التُّورُسي وجذور رؤيته الإنسانية

أ. د. عشراقي سليمان^٧

استوعب التُّورُسي معنى الإنسانية ضمن وعي ديني كوني مفتوح على العالمية.. إذ الإسلام هو دين الله الذي لا يقيم الحواجز بين البشر وإن ألدوا، وإن تباينت عقائدهم. فالمسلم يؤاخي في التوحيد اليهودي والمسيحي والكتابي عامة، ولا يرى فيهم أعداء أو خصوما ما كان الاحترام والقسطاس مرعيا بينهم، بل ويؤاخي كذلك الملحد والوثني بحكم الرابطة الإنسانية، ويشفق عليهما ولا يهينهما أو يزدريهما ما بقيما في حدود قناعتهما، ولا يسعه عندئذ إلا أن يتمنى لهما الهداية.

ذلك لأن التُّورُسي يرى في مخلوقية الإنسان ذروة الإعجاز الذي شاء الله أن يجسد من خلاله قدرته ومطلقته، إذ الإنسان هو تاج الوجود ، وكل ما أبدعه الله من أكوان ونعم وأفضال ، إنما هي لفائده وتكريميته:

"كذلك الإنسان الذي هو ثمرة شجرة الكائنات، إذ المقصود من إيجادها إنما هو الإنسان وغاية إيجادها إنما هو الإنسان، وغاية إيجاد الموجودات هي الإنسان، وبذرة تلك الثمرة قلب الإنسان ، وهو أنو مرآة للصانع الجليل وأجمعها.¹

كما نشأ إدراك التُّورُسي لمعنى الإنسانية من خلال صلة روحية وعضوية جمعته برائع النماذج القطبية التي تواصل معها بواسطة ثقافة بيته الصوفية، حيث كان - وسيبقى - الضمير الجماعي لتلك البيئة يكبر ويمجد تلك النخب الصالحة من الأقطاب، والتي كانت سيرتها كما تواترت وتلقنتها الأجيال، مجالاً للعظمة والكمال والقدسية.. من حيث طفق الوجدان الفردي والجمعي يستلهم شواهد التضحية والصبر والتجرد والسماحة والبذل.

^٧ من مواليد الجزائر سنة 1946 إكتوراه دولة في أدبية الخطاب القرآني وأستاذ كرسي الدراسات القرآنية والمقارنة بين الديانات في جامعة وهران ورئيس جمعية الدراسات القرآنية وإحياء التراث ومدير عام مجلة الحدائق بمعهد الآداب بوهان ومؤسس مجلة الدراسات المغاربية ومدير تحريرها ومدير تحرير حوليات جامعة وهران ونائب رئيس جمعية المغاربة لإدماج العلم والتكنولوجيا في التنمية وله ثلاثة كتب مطبوعة ومقالات كثيرة.

لقد أنبأتنا سيرة النورسي واعترافاته أنه ظل منقادا إلى تأثير الأفذاذ من رجال التصوف وأهل السلوك، وأنه انحاز إليهم بمواجهه وأن خميرة قيمه الإنسانية تأتت من نفاذ ذلك الوهج المعنوي الذي كان يتلقاه من سيرتهم. لقد تسامى هؤلاء القديسون الأطهار ونظروا إلى الكون والوجود من منظور رباني، فأضفوا محبتهم وسماحتهم وكرمهم على كل شيء، لاسيما على الإنسان، فلا غرابة أن تغدو البشرية جملة قريبة إلى قلوبهم يعطفون عليها ويرأفون بها وينظرون إليها بعين الإشفاق..

على ذلك النهج سار النورسي، وفي ظله تشكلت رؤيته للكون والإنسان، وعلى خطا الأطهار بلور عقيدته ونظرته إلى الكون وعلاقته بالمخلوقات وفي مقدمتها الإنسان.. فلا عجب أن تتفتح دعوته على الإنسانية قاطبة، وأن تتميز رؤاه ببعدها الشمولي الذي لم يغفل أي بعد من الأبعاد المحققة لفردية الكائن البشري، باعتباره المخلوق المكرم في هذا الكون.

لقد ارتكزت روحية النورسي على دعامة الإيمان بالله، فتواصلت أعماقه مع الله وتواشجت مع مخلوقاته وفي طليعتها الإنسان. لقد ورث عن بيئته الأولى حسا توحيدا حيا، فالانغلاق الذي عاشته بيئاتنا التقليدية كان له فضل كبير على حفظ القيم وصون الإيمان، حيث أن جو الانقطاع الاجتماعي الذي تعيشه القرى والمداشر يعزز قابلية التوكل على الله، ويقرب عالم الغيب إلى النفوس، فثقافة العزلة نفسها تشحذ روح السبالة والتوكل على الخالق فهي من ثمة سبيل معزز للإيمان .

ذلك لأن النفوس في رتابتها المعتادة تعيش التفرغ، ولما كان التفرغ في البيئة الإسلامية يعني التوجه إلى الله والاشتغال بما يعطي للحضور الإلهي كثافته ومحسوسية على صعيد الروح والنفوس، فقد تكيفت روح النورسي منذ نشأتها على هذا الحضور الإلهي الذي يلازمها أينما توجهت، الأمر الذي ولد في النفس هذه القوامة التي تترتب في كنفها النزعات والمطالب. ثم إن العقيدة الإسلامية بما تحمل من منظومة قيم ومبادئ إنما هي عقيدة إنسانية بلا منازع.

إذ الطبقات العليا من رجالها، ممن يعدون مناط القدوة والأسوة بدءا بالرسول (صلى الله عليه وسلم) وصحابته الكرام ومن تبعهم بإحسان، يعتبرون جميعا مصدرا شحنا وشحذ للهمة والرحمة والسمو. كما أن أحداث التاريخ الإسلامي تعد صعيدا حافلا بوقائع السماحة التي تشمخ بها معاني الإنسانية. وكلها تعاليم وقيم تخرس عليها النورسي، وتشبع بها، وحملها شعارات، واتخذها سلوكا ورسالة عمل على تحقيقها بكل استماتة .

لكن النورسي عاش في مرحلة تأجج فيها الصراع الحضاري بين الغرب والشرق على أشرس ما يكون التأجج ، فقد استأنف الغرب حملاته الصليبية واستهدف بها العالمين، يستأصل الأمم ويهجرها بالملايين من قارة لأخرى، ويمسح الشعوب تدجيناً لها لتتقبل وجوده وسيادته عليها ، وكان صراع الصليبية مع الإسلام ذروة المخاض العراقي الذي شهده القرنان التاسع عشر والعشرون، الحقبة التي عاشها النورسي، واصطلى بلهبها. تلك هي تقريبا الأسس التي ارتكزت عليها إنسانية النورسي ، هذه الإنسانية التي سنها وتتخصب وتغتني في تالي مراحل حياته.. حيث سنجد الرؤية تتكيف مرتين، الأولى يوم دخل استانبول نكرة لا يعرفه أحد تقريبا، فقد كان طبيعياً في ذلك اللقاء الأولى بالمدينة أن يتوسع إطار الوعي لديه وتمتد ظلال الفهم وتتخصب الرؤية بأبعاد أخرى يتعزز في ضوئها وازع إنسانيته.

كما أن عودته إلى نفس الصعيد المدني، من خلال ملابسة الأوساط المدنية ومرجعيات المجتمع الحضري ، أثناء الحرب الكونية الأولى، قد عمق ذلك التكيف الذي رأيناه يتعهد به مثله وقناعاته الإنسانية .. وهو ما أسفر عن تحول في المسيرة ، تحول جعله يختار موقعا أكثر استراتيجية في تفعيل الأحداث والتاريخ، وفي تكريس رؤيته الإنسانية المستمدة من القرآن..

لقد نضجت رؤيته الإنسانية في كنف الحياد والتسامي والتأمل .

حقا إنه نافح عن الإسلام والمسلمين ، وصالوا عن انتماء وحضارة ، لكن العقل يثبت أن دفاعه عن تلك القيم والمقومات إنما كان دفاعاً عن الإنسانية، إذ لم يكن الإسلام يوماً - ولن يكون - إلا حضارة مشرعة للعالمين، ومثابة تمحي فيها العصبية والانتماوات ، إذ الانخراط في سلك الإسلام انخراط في الكونية بأسس حددها الله ، وأثبتت القرون من الازدهار الحضاري الإسلامي أهما - حقاً - أسس تستجيب بأصالة لمفهوم العالمية والتآخي والانتماء القدسي الذي تزول معه كل الاعتبارات الشكلية والوضعية المميزة بين الأدميين.

لم يكن تمجيد النورسي للترك والعرب - كما سنرى في غير هذا المقام - عصبية وانحيازاً يتنافى مع المثل الإنسانية التي حملها ، ولكنه كان تمجيداً للكونية الإسلامية التي جسدت على أرض الواقع مبدأ المساواة ، وبينت كيف تتعاور الأم والشعوب على صعيد الإسلام حق وشرف حمل الرسالة المحمدية ، وكيف لا يقف دون حيازة شارتما القدسية - الخلافة - الاعتبار القومي أو الروحي..

إن روح النورسي - بكل تأكيد - سوف تبادر من عالمها الأخرى إلى التنويه وتعظيم كل قبيل من أهل الأرض يكتب له أن يشمخ براية الإسلام ويتناول بعزة القرآن ويدفع بها إلى العالمين، كيفما كان لون هذا القبيل أو موطنه أو ماضيه.. ذلك لأن المنظور الذي قوّم به النورسي البشرية منظور رباني لا تمايز بين الناس فيه إلا بالعمل الصالح.. وأي عمل صالح أسنى من رفع راية الإسلام وإشهارها بين العالمين، فبذلك العمل الصالح مجد النورسي كلا من أممي الترك والعرب، وكان تمجيده لهما يندرج ضمن سياق إنساني لا شائبة فيه من عرقية أو شوفينية أو تعصب.

شهد النورسي عن كثر عالما متفجرا تتعارض فيه الرؤى السياسية والايديولوجية حيال الإنسان والحضارة والكون والوجود، ورأى كيف أن الغرب الطاغى يعنت الأمم والشعوب المستضعفة ويرغمها على الرضوخ إليه بالقوة والسلاح أو بالفسد والاستغواء..

عائنا النورسي من موقعه الاعتكافي ذلك التعارض الحدي الذي كان يميز أوضاع كل من الإنسان المسلم المقهور والإنسان الغربي القاهر، وتفجع بعدم تكافؤ الشروط الصراعية بين الجانبين، وزاده أسى أن يرى توفيقات الغرب العلمية والتقنية والحضارية لا تلتطف من غلواء طغيانه ضد الشعوب والإنسانية، ولكنها تسعّر منها قدما. لقد كان يدرك أن الحلبة تجمع بين انتماءين وبين نموذجين حضاريين لكن أوضاعهما الراهنة تباين بينهما قيمة ودينامية وتوجها وفاعلية.. لقد كان الإنسان الأول يرسف في قيود الماضي الشائه، ضحية للانحطاط ولحال متفاقمة من الابتلاءات والصدمات.. وكان إلى ذلك مدعوا للانتفاض وإنجاز الانبعاث في إطار كوني تبليغي تؤهله له رسالته القرآنية لو وجد إلى الرشيد سبيلا.

فيما كان الآخر منتصبا بخيلاء، مشهرا سيفه بجوع الى الفتك، يدوس بقدميه كرامة الإنسانية ويضرب مقدساتها.. لقد كان هو الآخر ضحية لأحوال مدنية راهنة تكرست فيها اختلالات متوارثة وجهت العقل في وجهة الظهور العلمي المتوحش غير المقيد بالضوابط الإنسانية. لكنه مع ذلك كان يتوفر على خمائر جوهرية من الفطرة والتوفيق ما أيسر عليها أن تترشد وترقى إلى علياء المثل لو التفتت إلى الدين الحق، وهو ما كان يجعل النورسي يتوقع للإنسانية الخير، ذلك أنه كان يرى أوروبا حبلى بالإسلام، وهي مرشحة إما للإسلام وإما لترشيد مسيحتها بما يقربها من القرآن ويدرجها ضمن نهجه، وعندئذ ترتقي البشرية الارتقاء الحق وتهتدي إلى سواء السبيل وتتعرز إنسانية الإنسان.

لقد كانت مقاصد الدعوة النورية هي استنقاذ ما تبقى من إنسانية الإنسان في كلاً المعسكرين ، فتجديد هممة المسلم هي عودة به إلى فطرته الخلاقة وإلى استنارته التي لا تزيغ بها أوهام بشريتها ، كما أن تدثير الإنسان ببردة الإسلام هو قمة تكريمه ، لما يترتب عن ذلك من تغيير كلي يمضي به على طريق الصلاح .. لقد توهمت المدينة المسلمة أنها بتقمص أوضاع المدينة الغربية ستتخلص من أوحالها ، ولم يعتم الإنسان المسلم أن وعى إفلاسه ، لكنه عجز عن الخلاص ولم يستطع فكاًكا عن مأساته، بعد أن أضاع ليس المثل فقط ، ولكن إلى ذلك القابلية والفطرة والاستعداد للخير ، وكل ذلك جراء انغماسه.. فالضرر الذي لحق المسلم ضرر مزدوج ، فهو من جهة محبط بأعباء الانحطاط، وهو من جهة أخرى منسحق بما طرأ عليه من تبعات التمدن السطحي، فعاش الفاجعة. ضمن هذه الجدلية الحضارية الحادة نهض النورسي وفي يده كتاب الله ، يدعو إلى سبيله بالموعظة والحسنى ، غايته تعميق الروح الإنسانية في الإنسان من خلال بث تعاليم القرآن.

الإنسانية المعاصرة.. على حلبة الصراع الحضاري: جدلية التعايش ضمن الاختلاف:

لا ينكر النورسي أن احتلال مسطرة التوازن الاقتصادي قد انعكس بآثاره السلبية على مسطرة المعايير والأخلاق البشرية، فاختلت من ثمة العلاقة بين الفئات والمجموعات، بل وبين الشعوب والأمم ، وهو ما حول الكرة الأرضية إلى مسرح للعراك المستدم. يقول النورسي :

"إن من أساس جميع الاضطرابات والثورات في المجتمع الإنساني إنما هو كلمة واحدة: إن شبعت فلا علي أن يموت غيري من الجوع"²

فأنانية الإنسان ، وأنانية الشعوب والمدنيات ، القائمة على ابتزاز الآخرين وهضمهم وسلبهم أسباب العيش والحياة هو ما يفاقم من أسباب التناحر والحروب، فشعار :

" اكسب أنت لاأكل أنا واتعب أنت لأستريح أنا." لا يترك مجالاً لتعايش أو مسالمة أو تفاهم .

" فالعيش لا يكون إلا بالمحافظة على التوازن القائم بين الخواص والعوام."³

وشعار القرآن الذي جاء ليستأصل كل أسباب النعمة والحقد والعدوان هو:

أوصدوا أبواب الربا لتسد أمامكم أبواب الحروب.⁴

لقد سجل النورسي رحمه الله - وبوعي ألمعي - أن قوى الصراع الحضاري في عالم اليوم إنما تقوم على تصادم بين منظورين ورؤيتين وفهمين للإنسانية: رؤية كافرة تمجد القوة وتعتمد التخضع، وأخرى مؤمنة تقوم على مثل المحبة والسماحة وعدم الإكراه. ولما كانت شروط الجانبين غير متوازنة من حيث القوة المادية، فقد أسفر الصدام عن ظهور غالب ومغلوب، وهو ما جسده الظاهرة الاستعمارية كما عرفها العالم في القرنين الماضي والحالي. تلك الظاهرة الجائرة التي هشتت بقرنها الغاشم قيم الكمال والإنسانية، حيث انحرفت القوى الاستعمارية بالمبادئ والمثل الإنسانية وتجاوزت بها نطاق الفطرة ووظفها في طريق استثنائي، ابتزازي، لم يوجب الصراع على سعيد الحضارات والأديان فقط، ولكنه انتهى بتفجير المعسكر الغربي الاستعماري ذاته من خلال حربين عالميتين.

وجاءت الديمقراطية - التي روج لها الغرب - بمبدأ تنوع الاختيارات، لكنها عملت باستماتة على تكريس النموذج اللاتكني الغربي، قضاء على الآخر. كما أن المدنية الغربية التي فرضت نفسها كنموذج من خلال التطور الكبير والمطرود الذي حققته على مستوى التجهيز المادي، قد تقهقرت بالبشرية على سعيد القيم والأخلاق، إذ خلقت نزوعات شريرة أخرى في الإنسان استطار بها شر المدنية المعاصرة وبات يهدد البيئة والكون والوجود كله..

لقد سجل النورسي أنه على قدر ما تحقق للمدنية الغربية المعاصرة من قفزات علمية ومنجزات مادية وارتفاقية، بقدر ما انتكست في مضمار الروح وقيم الخير والفضيلة وفي سائر المثل الإنسانية.

لقد تركز الجهد والاجتهاد الذي طفق يبذله الإنسان المعاصر على تحقيق الربح بلا ضوابط، والمكائنة الكسبية بلا قيود، والامتلاك الأعمى من غير حدود.. الأمر الذي ضرب في العمق مسطرة الشرف والعدل، وأصاب في الصميم مفاهيم الأخوة والإنسانية..

لقد أفرزت المدنية الغربية مورثات خلقية مناقضة للفطرة، وبني العالم الغربي - مُصدراً المدنية الحديثة - نسيج القيم التي يتداولها على غير الحكمة، إذ ضبط سُلمه المعياري على منطلق أخلاقي معارض كلية لتشريعات الله وتعليماته..

ولعل أهم مخالفة خطيرة تتسجل على الضمير الإنساني في زمننا الراهن - كما لاحظ النورسي - تعامله في المجال الاقتصادي بالربا. فالمؤسسات المدنية بإقرارها لأخلاق التعامل الربوي قد اختارت مشاقاة الله من جهة، وسدت - عمليا - باب التكافل والتعاون والتساند الذي هو من طبيعة البشر ما اطردت سلامة فطرتهم..

ومعلوم أن اعتماد الربا هو مبدأ محوري في منظومة التعاليم الصهيونية، فقد قرر كتابهم - اللاسماوي - مبدأ الافتراض بالربا لغير اليهودي ، ذلك لأن هذا الكتاب قد اختار لهم أن يقيموا علاقة عداء مع الغير على مختلف الأصعدة ، فلا عجب أن تعم روح العداء تلك ، أقطار العالمين جراء تعامل الأمم والمجتمعات بالربا..

فالاختلال الذي أصاب المثل الإنسانية في الصميم نشأ عن هذه الروح الابتزازية التي كرستها مدينة الغرب اليهود-مسيحية ، فلا غرابة والحال تلك أن تتضعض أسس هذه المدينة لأدنى رجة.. بل لا عجب أن يتداعوا ، وخلال قرن واحد فقط، إلى حريين كونيتين لحق البشرية جراءهما أهوال وأهوال..

لقد رأى الثورسي أن المدينة الغربية قد آذنت العالمين بنظم مادية غاياتها الحقيقية لا تكفل للإنسان إلا الضرر والشر والفناء.. فأيادي التدمير المادي تمضي بلا هوادة في تمشيم الفطرة وتقويض البراءة وتهديم القابليات..

من هنا استنفر الثورسي المسلمين ، بل وحتى أهل الفضيلة من الكتائبين، كي يقفوا سدا في وجه الخطر المادي الداهم .. فالمدينة الحديثة جهزت الإنسان بما يسر عليه كثيرا أسباب الحياة وجعلها رخيصة، لكنها إلى ذلك شحنته بتعاليم الكفر والجحود والضلال.. بحيث سعت إلى قطع أواصر الإيمان بينه وبين الخالق.

لكأن تلاحق التوفيقات والمنجزات والكشوف المادية التي تحققت للإنسان المعاصر عمقت فيه نزوع الغفلة والسهو والجحود. بل لقد تهادى الإنسان المعاصر من خلال تيارات الزندقة والإلحاد ، في النكران ، إذ راح يستظهر بفلسفات إلحادية قديمة ومستحدثة في إفشاء الكفر وتوطيد روح الجحود.. بل لقد تفنن الماديون في تحويل النجاحات الإنسانية على صعيد العلم والتكنولوجيا إلى شواهد وبراهين إلحادية ، تصفي الرب - تعالى الله عما يصفون - وتؤله الإنسان..

ولقد كانت خسارة الأمة الإسلامية فادحة بما انتهى إليها من أفكار وفلسفات وتمذهبات مادية إنكارية. فالأمة التي فقدت كل أسباب النهوض أريد لها أن تسلم الروح بإعلان تخليها عن الدين. وشاء الله لأمتة أن تسير - وما زالت تسير - وراء حداة ناعقين انعطفوا بالقافلة جهة الغرب وزعموا للأمة أنها ستبلغ غايتها وتحقق أهدافها في الحياة الكريمة والغد الحافل عن ذلك السبيل النكوصي.

ولقد بات جليا لكل ذي عينين أن ما جنيناه من اعتناقنا لسنن الغرب ومثل حضارته المادية لم يزد أحوالنا التقهقرية إلا تفاقمًا، إذ بتنا نعقد توكلنا في أخص خصوصياتنا على الغرب، بعد أن خسرنا ونحن نتشبه به، ما كان لنا من بقايا همة ودأب وحمية ومعاندة..

من هنا شخص النورسي للأمة علاج الدين مخرجا لها مما ابتليت به سواء بفعل قرون الانحطاط أو بما أصابها جراء أحوال التفسخ والتحلل التي هي عليها بفعل التغرب والاستيلاء.

لقد رأى النورسي أن على أمة القرآن أن تحتمي بالقرآن في هذه الظروف العاصفة بالبلاء ، فمن شأن ذلك أن يهيئ لها الإطار الذي يعصمها من الفناء ، لأنه سيكفل لها تخريج الفرد القرآني الذي يستطيع بجدارة الإيمان أن يواجه الكفر ويحقق النهضة و يحتل الريادة..

فمما سجله النورسي في هذا الصدد تناظر القيم التي باتت مجتمعاتنا الإسلامية تتداولها من خلال تناظر شرائح المجتمع نفسها وما تنتحله كل شريحة من أخلاق وأعراف وأصول .. فلا عجب أن تتباين المعايير وتختلف الرؤى وتتمايز التوجهات في المجتمع الواحد عندما تتعدد مصادره الروحية والحضارية والقيمية.. لقد باتت مجتمعاتنا تستجمع تشكيلات من القوى والشرائح تكاد الروابط بينها أن تنعدم. كل ذلك بسبب التأثير السيئ الذي تحدثه المدنية الغربية من خلال آلياتها التغريبية الرهيبة..

لقد لاحظ النورسي أن المجتمع الإسلامي الحديث المتعامل بقيم الغرب وأخلاقيات مدنيته قد بات يتواجه على صعيده نموذجان إنسانيان لكل منهما طبعه وروحته وصفاته: الإنسان القرآني والإنساني الفرعوني . حيث أن التأثير الاستيلاي الغربي قد أوجد قطاعه من المخترقين من أبناء الأمة ، على نحو ما أوجدت التعاليم القرآنية- والحمد لله- قطاعها المحمدي المتوسع ..

فالتغريب هيا الأجرء التي صاغ فيها نفسية الفرد المستلب وحدد أوصافها الغرورية والانتهازية والتهافتية بحيث " صير تلميذه الخاص فرعوناً لكن يعبد أحس الأشياء ويرى كل سبب نافع أنه ربه .. متمرداً لكن يتمسك بنهاية الذلة لذته. ويقبل رجل الشيطان لمنفعة حسيسة . وجباراً لكن لعدم نقطة الاستناد عاجز في ذاته بغاية العجز. وإن غاية همة تلميذك : بطنه وفرجه أو منفعة قومه، لا لقومه بل لأجل منفعة نفسه أو تطمين رقة الجنسية أو تسكين حرصه وغروره، ولا يجب إلا نفسه ويفدي لها كل شيء." ⁵

أما الجهد القرآني ، لا سيما جهد رسائل النور ، فقد تسنى له بفضل الله أن يخرج النموذج الأعلى الذي يسهم في انقاذ أمته وإعادة العزة إليها " وأما خالص تلميذ القرآن فـ "عبد" لكن لا يتنزل للعبودية لأعظم المخلوقات ولا لأعظم المنفعة ولو كانت جنة. ولين هين لكن لا يتدلل لغير فاطره إلا بإذنه.. وفقير لكن يستغني بما ادخر له مالكه

الكريم .. وضعيف لكن يستند بقوة سيده الذي لا نهاية لقدرتيه ولا يرضى تلميذه الحقيقي حتى بالجنة الأبدية مقصدا وغاية ، فضلا عن هذه الدنيا الزائلة.⁶
 ولن تزال الصدمات والنكسات تتوالى على الإنسان ، بسبب ميوعته المكرسة باطراد نتيجة الارتكاس المادي والمدني ، ولن تزال الحقيقة القرآنية تتكشف للعالمين بوجوب رجوعهم إلى الله والاعتصام منه بسند، وفي أثناء ذلك كله، يبقى على الداعين لله أن يظلوا متألقين بعزهم القرآنية، فاشين الخير، باثين السكينة، ضارين المثل في الكمال والاستقامة والتواضع والأريحية..

ديمومة تجديد الإنسان تقتضي ديمومة تجديد الإيمان.

لقد آمن النورسي بأن الإنسان فاعلية متحركة ومتبدلة وغير قارة على حال إلا بضوابط السكينة والتعهد والترشيد ، من هنا ألقيناه يحرص على تسوير النفس بمحسسات تكفل لها الدوام والبقاء على حرارة إيمانها ، كي يستمر دورها التعبدي والمدني على مضائه وحيويته.

يقول النورسي :

" إن الإنسان لكونه يتجدد بشخصه وبعالمه الذي يحيط به فهو بحاجة إلى تجديد إيمانه دائما، لأن الإنسان الفرد ما هو إلا أفراد عديدة ، فهو فرد بعدد سني عمره، بل بعدد أيامه، بل بعدد ساعاته ، حيث أن كل فرد يعد شخصا آخر .

" ذلك لأن الفرد الواحد عندما يجري عليه الزمن يصبح بحكم النموذج، يلبس كل يوم شكل فرد ، ثم إن الإنسان مثلما يتعدد ويتجدد هكذا ، فإن العالم الذي يسكنه سيار أيضا لا يبقى على حال ، فهو يمضي ويأتي غيره مكانه ، فهو في تنوع دائم، فكل يوم يفتح باب عالم جديد. ثم إن الإنسان تتحكم فيه النفس والهوى والوهم والشيطان وتستغل غفلته وتحتال عليه لتضييق الخناق على إيمانه حتى تسد عليه منافذ النور الإيماني بنثر الشبهات والأوهام.. لذا فهناك حاجة إلى تجديد الإيمان في كل وقت، بل في كل ساعة في كل يوم." ⁷

من هنا كانت أهمية المسجد والمراوحة إليه ، بل من هنا كان سر دورية الفرائض وموسمية الشعائر .. ومن هنا أيضا كانت فائدة الجماعة والترابط ، لما توفره الاحتكاكات من تنبيه وتوجيه وتممين للعزائم .. فالاستقامة إلى العادة قتل ذريع لحيوية النفس ، وتوريث سلبى لطباع الإعتياد والآلية التي تنتهي بحجب الوعي وكسر الحس وإخماد الذوق وهدر التوق.

لقد كان النورسي يرى للملتهيات أهميتها في تجديد الهمة واليقظة.. ومن قوة بصيرته وجدناه يتلمح حتى في أحداث اعتقاله المتكررة مع أصحابه فائدة تجديدية، لما كانت ظروف الحبس تنوره في نفوسهم من همة المدارس وشحن الإيمان..
لقد كان النورسي يدرك أن طريق الجهاد يورث العناء، والعناء قد يكون مدعاة للاتكاس وضعف الحمية، من هنا أرشد إلى بيداغوجية التذكير، إذ لا بد للبرامج الجذرية وذات المقاصد الحضارية السامية أن تتحوط لمشاق الطريق بترياق التجدد والتنبيه والتنشيط، حتى لا يسري التواكل والترك والتسيب.

الإنسان.. معجزة خلقية إلهية.

" قد خلق الله هذا الإنسان مرآة جامعة لجميع أسمائه الحسنى، وأبدعه معجزة دالة على قدرته المطلقة.. وخلق على صورة خليفة الأرض الذي يمتلك من الأجهزة الحساسة ما يتمكن بها من قياس أدق دقائق تجليات الأسماء الحسنى.. وما الوسيلة التي تمكن الإنسان من العروج إلى أسمى مقام وهو مقام أحسن تقويم ضمن ما يملكه من الجامعة إلا الشكر.⁸

من هذه الرؤية قدر النورسي منزلة الإنسان وآمن بخلافته، فالإنسان عنوان معجزة الخلق بلا منازع، ذلك لأن القدرة الإلهية وهي تصوغه أودعت فيه من القابليات والاستعدادات ما من شأنه أن يجعله يتفوق على سائر المخلوقات العجماء الأخرى:
" قد خلق سبحانه وتعالى الإنسان أيضا نوعا جامعا لكثير من الأنواع أي أنه قد أراد أن ينجز بنوع الإنسان ما تنجزه الدرجات المختلفة لجميع أنواع الحيوانات، بحيث حدد قوى سائر الحيوانات ورغباته بمحدود وقيود فطرية، بل جعلها حرة طليقة، بينما حدد قوى سائر الحيوانات ورغباتها، أي ألها تحت قيود فطرية، بمعنى أن كل قوة من قوى الإنسان تتحول في ميدان فسيح واسع جدا، لا تتناهى، لأن الإنسان مرآة لتجليات لا نهاية لها، لأسماء رب العالمين، لذا فقد منحت قواه استعدادا لا نهاية لها.⁹

من هنا قدر النورسي أن مسيرة الإنسان في هذا الوجود الأرضي لا ينبغي إلا أن تكون على قوامه تتناسب مع مستوى التكريم والتشريف الذي خصه به الخالق.. فلا مجال حيال هذه المنزلة السامية والسامية لأن ينحرف الإنسان ويخون مسؤوليته إزاء الله والكون المؤمن عليه.

" فلأجل تلك الحكمة العظيمة، خلق سبحانه الإنسان على فطرة جامعة، لها من القدرة ما يثمر ألوف سنابل الأنواع، وما يعطي طبقات كثيرة بعدد أنواع سائر الحيوانات، إذ لم يحدد سبحانه قوى الإنسان ولطائفه ومشاعره كما هو الحال في

الحيوانات ، بل أطلقها واهبا له استعدادا يتمكن به من السياحة والجلولان ضمن مقامات لا تحد فهو في حكم ألوف الأنواع ، وإن كان نوعا واحدا .
 " ومن هنا أصبح الإنسان في حكم خليفة الأرض ونتيجة الكون وسلطان الأحياء .
 وهكذا فإن أجل خميرة لتنو النوع البشري وأهم نابض محرك هو التسابق لإحراز الفضيلة المتسمة بالإيمان الحقيقي ، فلا يمكن رفع الفضيلة إلا بتبديل الماهية البشرية وإخماد العقل وقتل القلب وإفناء الروح .¹⁰

فلا غرابة والحال هذه أن يعتبر النورسي أشنع خيانة عظمى يسجلها الإنسان على نفسه هي المروق والجحود والكفر.. ذلك لأنها خيانة لا ترتكب في حق مقترفها فحسب، بل إنها خيانة في حق البشرية والمخلوقات كافة، لأنها اختراق سافر لما تقدسه تلك المخلوقات ، ولما تؤمن به وتوكل إليه وجودها، فالتجاوز الذي يتسجل في حق تلك القدسية الربانية تجاوز في حق الوجود الإنساني بكليته .

لقد اعتبر النورسي جريرة الجحود والكفر والعصيان اعتداء على الإنسانية وخرق لحقوقها ، إذ كيف يحق للإنسان إن ينتهك مقدسات الآخر؟ وكيف يجوز للأقلية أن تهدر قيم الأكثرية ، بل لقد وجدنا النورسي يقرر أن الكفر هو اعتداء على الكائنات كافة وظلم لها واستخفاف بوجودها : كفر الإنسان إنما هو تجاوز - أي تجاوز - على حقوق الكائنات ، وأغلب المخلوقات ما يثير غضب السماوات والأرض.¹¹

اليوتوبيا¹² الإنسانية.

عالم اليوتوبيا يشترط فكر الماديين لأنهم يريدون تحقيق الجنة الأرضية على صعيد البسيطة، في ما يعتبر النورسي القرآني عالمنا الأرضي أو الحياة الدنيا موئل نقص وقصور، إذ هو عالم جسري فقط يفضي بالإنسانية إلى عالم السرمدية الأخروي.

الإنسان الكامل هو ارتكاز التوازن في هذه الحياة ، والوازع عن التهافت يتم بالمجاهدة الأخلاقية وليس عن طريق التهيام الحالم بالمثل وبالمتع الغائبة.

من هنا كان قوام يوتوبيا الماديين هو تحقيق الوفرة الاستهلاكية وخوض غمار الإشباع بلا وازع ، وذلك في حقيقة الأمر حلم غير واقعي، إذ أن هذه اليوتوبيا لا تتحقق إلا للأقلية، وعلى حساب الأغلبية، ثم إنها يوتوبيا محدودة بالزمان والمكان، فتمتع معشر ما أو قارة ما بالوفرة وبالحرية يغدو مقصورا على أهلها، فإذا ما توارث الخلف حالهم وعاشوا على نفس الوتيرة المتخمة كانت الرتبة وكان التحجر..

إما إذا كانت جدلية الحياة طلبة لا تحكمها هلوسات من هذا الحلم الأرضي السرابي، وسارت منضبطة بالناموس الأخلاقي الذي يقرر أن النقص من طبيعة الأرضيين قياسا

بالكمال الإلهي القدير - وهو ما يتضمن وجوب المكافحة تقويماً للنفس - فإن ذلك سيورث بطبيعة الحال السعادة لأن الأجيال ستجد نفسها باستمرار أمام تحديات الضعف البشري ، تخوض الجهاد المزدوج ضد الذات وضد الآخرين على هدي من الله ورشاده .
الإنسان الكامل ليس المجتمع الكامل - فليس هناك المجتمع الكامل ، المجتمع الكامل مجرد يوتوبيا .

والمجتمع الكامل لا يكتب ناموسه بشريته وإلا دخل في التاريخية، لقد كفلت البعثات الإلهية سوانح زمنية تحقق أثناءها المجتمع الكامل بحضور مادي للأنبياء وتسديد مباشر من السماء.. وقد اطردت للإنسان أسباب الكمال ما اعتصم بحبل الله وسار على توجيهاته لكن الغرور الإنساني ينزع به أبداً إلى الانحدار ، وهو ما يُعَيِّبُ الكمال عن الحياة..
الناموس الذي تستقيم به الحياة ويعم الكمال، ناموس علوي ، والناموس العلوي ثابت الأصول متجدد الفروع ما كرت الأدهار .
ولنا أن نتساءل لماذا هو ثابت ؟

لأن الإنسانية تعيش النطاق الدائري المغلق على صعيد الطبيعة النفسية والنزوعية . فالإنسان يعيش مهما اختلفت المدنيات والعصور بنواة نفسية واحدة ، هذه النفسية تخضع خلال تجربة الحياة للثقيف والتنميط الاجتماعي . فالاطراذية الإنسانية وإن استمرت في الزمان واسترسلت في المكان، فإنها على صعيد النوازع الفردية طورية واحدة، من هنا يتلازم ثبات النفس والفطرة الإنسانية مع ثبات مبدئي هو الكتاب . أما ما يتجدد فهي الثقافات ..

فثقافة الاستنساخ والأنتارنات والعولة وما إليها ، هي ليست ثقافة الحرب الباردة والصراع الايديولوجي . الثقافة الجديدة تستدعي تجديداً اجتهادياً . أما نزوعات النفس فهي آدمية واحدة ، لذا كان الناموس الذي يحكمها ربانياً واحداً . وكانت أصوله القارة مناطة بتهذيب النفس وصيانتها من شراسة الأهواء المتجددة بتجدد المدنيات والثقافات .
فواقعية الإسلام لا تؤمن بيوتوبيا أرضية تنتهي عندها أحلام الإنسان.. فما أتعبت نفس ترى في أعطاف حلم أرضي محدود بزمان ومكان أقصى منهاها . وذلك ما ظل النورسي يردده وينبه إليه .

الإنسان الأرجح .

الإنسان الأرجح هو الذي ما تزال تستبقي فيه التنشئة المدنية جوهره البدوي الريفى ، المشرب بالرحمة والألفة والطهر ، والمتفتح على المكارم والمشدود إلى الفضيلة ..

إن الخطاب المدني المعاصر - وشعورا منه أحيانا أنه فعلا قد غاص في الأوجال المدنية حتى الأذقان - عندما ينوه بالمحلية ويثمن العمق الشعبي، فإنه ينوه بضرب من الإنسان بات - يوما بعد يوم - يعز وجوده ، ألا وهو إنسان الفطرة الذي وصف النورسي بساطته الحياتية وبين قيمتها . تلك البساطة التي كانت لا تقتضي الإنسان من تكاليف العيش والحياة إلا لوازم معدودة ، ذلك لأن نفس هذا الإنسان الفطري والذي عناه النورسي، إنما كانت نفسا متماسكة ومتصلبة، ولم تكن دواعي الميوعة والترهل والتحلل قد تمكنت منها بعد، على نحو ما نرى عليه مجتمعاتنا التي شاءت أن تكون مجتمعات قردية تحذق لعبة التقليد المضحك.

هناك التزام ينيطه النورسي بالإنسان المسلم المعاصر: الجهادية المرشدة التي لا تقدر المكاسب بتهور أو بسوء تقدير للعواقب، الجهادية التي تتحسس موقع قدمها وتبني رهانها على مدى قابل ، بكل ما قد يحتم عليها ذلك من خيارات تنازلية (سواء في المجال المادي أو في المجال الروحي).

فهو التزام تجنّدي يأخذ بمبدأ النظام ولا يومن بالفوضى لأنها ليست إلا إرهابا، ويثق من أن الجهاد المعنوي الشاق هو الذي يفضي بالطلّعة من أبناء الأمة إلى طريق النجاح. لقد هدر الانحطاط عزة الأمة ، وأحالتها عصور الظلمة أكواما بشرية ودهماء رعاعية بئيسة .. واستطاعت النظم المخترقة والمتغربة أن ترسخ فيها أخلاق الخسة والطمع والانتهازية والاستعداد لكل الترديات، لذلك لا يمكن للطلّعة المؤمنة أن تتوقع أن تكون قيادة هذه الأمة بما هي عليه من حال، أمرا ميسرا، وأنه يكفي تحديد جهة العدو لها حتى تتصدى وتهب للدفاع..

لقد غرست عهود الانحطاط في روحية الأمة أخلاقا نسخت كثيرا مما كان لها من قيم وخصال وشمائل، وأجهزت أو كادت مساعي التغريب التي استهدفتها على ما تبقى لها من موروث، واستبدلته بما ساسوه بها وروجوه لها من قيم دنيوية مقيتة، إذ لفتها ساستها المتغربون من خلال سيرتهم معها ومواقفهم حيالها وحيال مقوماتها، روح التفريط والاستخفاف، ففشا فيها نتيجة ذلك: الهوان والوهن والندالة والجبن والمكر، فهي لذلك أمة متقلبة في أهوائها أكثر قابلية للتنازل على الفضيلة ما أن يلوح لها مروضوها بالعظام والفتات..

أجل ، إنما حال عارضة ، مكتسبة ، وقابلة للزوال ما أن تجد من يرود الأمة نحو الأهداف السامية والغايات النبيلة.

لذا توجب على الطليعة القرآنية أن تسلك سبيل الحكمة في سياسة الأمة لإخراجها من ترديها وأن تجهد في توعيتها بما يفتح عيونها على العدو الحقيقي الانحطاط والجهل ومغالطات المتغربين .

فهذه الطليعة مطالبة بأن تتسلح بسلاح الصبر والمصابرة ، وأن تتيقن من أن الصرح الذي أساسه الإسلام ، صرح فخيم عتيد، لا يقام في عجلة من الأمر ، بل يتطلب المتابعة وتلاحق استماتة الأجيال..

الفلسفة الفردية والفلسفة الجماعية .. وحقوق الإنسان.

على أن مما سجله النورسي من جور وظلم تتوحد فيه المدنية المعاصرة ، سببه انسياق السياسات البشرية والإيديولوجيات الوضعية وراء معايير وأحكام غير راشدة في مسألة الحق الإنساني.

فمعادلة حقوق الفرد والجماعة تتراجع بين منطقي الإفراط والتفريط ، حيث تتناقض نظرة المدنية الحديثة في موازنة تلك الحقوق وصورها .

ففيما توجد هناك فلسفة سياسية تجعل من الفرد مناط الحريات ومركز المبادرات والفاعليات، توجد مقابل ذلك فلسفة سياسية معارضة لا تنظر إلى الفرد إلا كرقم ضمن المجموعة، ولا تعبر للفردية أدنى أهمية إلا في سياق الجماعية. فمن أجل إصلاح الأغلبية لا ضير أن يضحى بحقوق الأقلية..

وواضح أن هذا المنطق إنما يعكس روح التغالب ويترجم نوازع الفتك التي هي صفة الضواري ، والتي تتلبس روح الإنسان المعاصر في نظريته إلى الحياة، من حيث هي مضمار للتبارز والسجالية ، حيث القوي يقهر الضعيف .

الواقع أن كلتا الفلسفتين تصدران عن مبدأ البقاء للأقوى. فعلى صعيد مذهب الفردية تناط الديمومة والمجد بمن يثبت جدارته على صعيد المنافسة. بغض النظر عن الأسباب والقيم التي يتوسل بها المتنافسون في تحقيق مجدهم الشخصي ومكاسبهم ورجاحتهم الاجتماعية .

وكذلك الحال بالقياس للمذهب الجماعي ، إذ لا مكان للفرد ، ولا للأقلية حيال الجماعة والأكثرية.. رغم التبريرات التي يرتكز عليها منطق هؤلاء وأولئك.. وهو ما يشير إليه النورسي في ملاحظاته التالية :

" إن القانون الأساس للسياسة البشرية هو أن يضحى بالأفراد من أجل سلامة الأمة، وتفدى بالأشخاص حفاظا على الجماعة، ويرخص كل شيء في سبيل حماية الوطن، فجميع الجرائم البشعة التي ارتكبت في حق البشرية إلى الآن إنما كان يرتكب بالاستعمال

السيء لهذه القاعدة ولهذا القانون الأساس، فلقد تيقنت من هذا يقينا قاطعا، فهذا القانون البشري الأساس ليس له حد ولا ضوابط مخصصة، لذا فقد مهد السبيل للتلاعب باستعماله بكثرة.

ويستطرد النورسي موضحا مزلق هذا القانون المنحرف وما كبده للإنسانية من تضحيات ، فيقول :

" إن الحريين العالميتين قد نشبتا من سوء استعمال هذا القانون البشري الأساس، فأبادت نمائيا ما توصلت إليه البشرية من رقي منذ ألف سنة".¹³

فسواء الفلسفة التي تحصر النظرة في الفرد وحده ، أو تلك التي تركز الإهتمام على الجماعة مطلقا ، كلتاهما تتحجمان في إطار من الوعي آني ، ولا شأن له بأبعاد النفس أو الروح والقلب.. بل إنهما معا تضيقان الحناق على الإنسان إذ تحصران فاتورة الحساب في الشرط المادي والاستهلاكي والإنجازي الملموس..

من هنا انعدم في رؤيتهما معا المعطى الوجودي المتمثل في الآفاق الزمنية المشهودة والمغيبية التي يعيشها الإنسان كحقيقة نفسية لا يتخلى عنها أبدا ، وإلا ما باله يعيش دائما على السعي حتى كأنه لا يموت.

كلتا النظرتين حصرت تقديرها الإنساني في الكمية ، فالجماعية هي من بعض الوجوه فردية، مادامت الجماعية لا تؤمن بالاختلاف، فهي من ثمة واحدة ، وكذلك حال الفردية، إذ هي الأخرى لا تؤمن بغير الواحدة، إذ الأناية تحجب عن العين وجود الآخر، وبالتالي تغدو المصلحة هي مصلحة الذات ولا سواها، والصراع صراعا من أجل تحقيق الذات ولا شيء غيرها .. من هنا كان انغلاق النظرتين في المكان، وانحجارهما في الزمان، إذ لا معالم تلوح للنفس في الأفق إلا ما تفرضه اللحظة من دواعي الحركة والفعل من أجل النجاح المادي..

" إن حياة أرباب الضلالة والغفلة، بل إن وجودهم وعالمهم ما هو إلا يومهم الحاضر، حيث أن الأزمنة الماضية كلها وما فيها من الكائنات معدومة، ميتة، بسبب ضلالتهم ، فتردهم من هناك حوالك الظلمات. أما الأزمنة المقبلة فهي أيضا معدومة بالنسبة إليهم ، وذلك لعدم إيمانهم بالغيب ، فتملأ الفراق الأبدية - التي لا تنقطع - حياتهم بظلمات قائمة، ما داموا يملكون العقل وما داموا جاحدين بالبعث والنشور.¹⁴

فرؤية الإنسان لن تسدد إلا إذا وعى وآمن أن دوره الإنساني في الحياة ليس استمتاعا فقط ولكنه دور منتج للخير مسؤول: إن الإنسان لم يأت إلى هذه الدنيا للتمتع والتلذذ.¹⁵

" فالإنسان إذاً ، لم يأت إلى هذه الدنيا لقضاء عيش ناعم جميل مغمور بنسمات الراحة والصفاء ، بل جاء إلى هنا ليغنم سعادة حياة أبدية دائمة بما يسر له من سبيل التجارة برأس ماله العظيم الذي هو العمر.¹⁶

لقد فتح النورسي باب الفقه الأكبر في وجه الخدمة الإنسانية، ومارس التوجيه من منظور شمولي قائم على مَهْمَة الظواهر والملابسات، وعلى تأسيس معرفة مرحمية من خلال التفاته إلى عالم المرضى والعجزة وإلى الشباب والنساء والأطفال.. فقد عالج أحوال هذه الفئات بروح إنسانية وضعت أسسا لتكريس نظرة جديدة للمرض والعجز وللحيرة واليأس والمكابدة..

بل لقد امتدت رؤية النورسي الإنسانية إلى مسائل الموت ورزايا اليتيم والثكل وفقد الأحبة ، فمَهْمَهَا من منظور إنساني لم يكفكف الدمعة فحسب، ولكنه حري بأن يدفع بالنفس على طريق تبي وعي جديد لظواهر الحياة والموت، وربط علاقة جديدة بالكون وبتواضعات الحضور والغياب وقيود المكان والزمان والعقل والقلب.

ونحن نعتقد أن إسهام النورسي رحمه الله في تأسيس ما يمكن أن نسميه انتولوجيا وجود إسلامي (علم وجود إنساني) إسهام كبير ، ويمكن أن تقوم على صعيده جملة من المباحث تشمل علوما أخرى في مقدمتها علم المستقبلات وعلوم النفس والأخلاق والفلسفة والروحانيات .. لاسيما وأن معارف التراث قد حوت خمائر مشجعة في هذا السبيل..

بواعث السقوط في النفس البشرية ..

تتحكم في الإنسان عناصر ذاتية ومعنوية متداخلة يجملها النورسي في : النفس والهوى والوهم والشيطان..

وإذا أردنا أن نعرف معاني هذه العناصر، نقول : النفس هي جماع القوى النزوعية والشهوية التي يصدر عنها الإنسان في حياته الطبيعية. فلذة الأكل مثلا شهوة، وأما البخل فنزعة .

وأما الهوى فقوامه شهوات الإنسان ورغائبه الفطرية والمكتسبة من ملاذ مادية أو منازع معنوية مثل حب الظهور أو الرئاسة أو ما إلى ذلك.

وأما الوهم، فهو التقديرات غير السديدة والتصورات غير المؤسسة والافتراضات اللاموثقة التي تتأتى للإنسان وتخامرته، ويكون الدافع إليها غالبا التطلع النفسي والتشوق لما ليس في الوسع.. أو ما هو مغيب .. فالآمال تزين للنفس المقاصد وتضفي عليها وشاحا من الجاذبية قد لا يكون له أساس في الواقع.

وأما الشيطان ، فهو تلك القوى الخارجية التي أناط الله بها تبعه أفعال المغالطة والتضليل التي يتعرض لها الإنسان إذا ما غفل عن واجباته الشرعية المحصنة له ضد كل زيغ.. " وما إنسانيه إلا الشيطان".

ويبدو أن الإنسانية قد ظلت تنجح إلى تشخيص الشيطان في ماهيات مادية ملموسة، فالكنيسة إلى وقت قريب ظلت تعتبر المرأة شيطانا ، والإيديولوجية الشيوعية كانت تسقط مفهوم الشيطان على الرأسمالية ، والصهيونية ترى فينا شيطانها الأخطر..

غير أن ماهية الشيطان - كما قررها القرآن العظيم - إنما هي قوة توسوس بالشر وتنحرف بذوي النفوس غير المثبة بجبل اليقين ، لتجرّهم في طريق الغواية كما جرفت أبا البشر آدم عليه السلام وزوجه حواء.. (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ). [البقرة: 36].

على أن النورسي يرى أن للنفس حركة تنقلب بها من حال النفس اللوامة إلى حال النفس الأمانة ، وهو ما يقتضي من الأطهار مزيدا من الجهد تضيقا للخناق عليها حتى لا يندّ عنها ما يفسد الخلوص ويخل بالنية :

قد يحدث أحيانا أن تنقلب النفس الأمانة إلى نفس لوامة أو مطمئنة، إلا أنها تسلم أسلحتها وأعتدتها إلى الأعصاب والعروق فتؤدي الأعصاب والعروق هذه تلك الوظيفة إلى نهاية العمر، ورغم موت النفس الأمانة منذ مدة طويلة، فإن آثارها تظهر أيضا، فهناك كثير من الأولياء والأصفياء العظام شكوا من النفس الأمانة رغم أن نفوسهم مطمئنة، واستغاثوا بالله من أمراض القلب رغم أن قلوبهم سليمة ومنورة جدا ، فهؤلاء الأفاضل لا يشكون من النفس الأمانة ، بل من وظيفتها التي أودعت إلى الأعصاب.¹⁷

فزرغات النفس ما هي إلا صدى لحضور الشيطان ولفعله ووسوسته . هذا الشيطان الذي لا يشك النورسي في وجوده كما يتوهم الماديون .

وحتى يثبت كينونة الشيطان فقد وجدناه يطابق بين عالمي الإنسان والكون، فإذا كان عالم الإنسان مأهولا بقوة النفس الأمانة التي هي بمثابة الشيطان ، فلا يستغرب العاقل إذا ما عمّرت عالم الكون من حولنا قوة غير مدركة هي الشيطان، وهذا تماما على غرار ما تعمر كياننا البشري نحن ، النفس الأمانة..

فعن طريق المطابقة بين عالمي الإنسان والكون استبان النورسي كينونة الشيطان. من خلال تحليله لمكونات الباطن النفسي وأنشطتها ، حدد موقع النشاطات ووسوسته، وما تهيئه النفس الأمانة من شروط تمكن للشيطان من أن يخترقها. يقول النورسي:

" كما أن الإنسان عالم صغير، كذلك العالم إنسان كبير، فهذا الإنسان يمثل خلاصة الإنسان الكبير وفهرسه، فالنماذج المصغرة في الإنسان لا بد أن أصولها الكبيرة المعظمة موجودة في الإنسان الأكبر بالضرورة. فمثلا القوة الحافظة في الإنسان دليل قطعي على وجود اللوح المحفوظ في العالم. وكذلك يشعر كل منا ويحس أن في قرارة نفسه وفي زاوية من زوايا قلبه آلة وعضوا للوسوسة وهي اللمة الشيطانية التي هي لسان شيطان يتكلم بتلقينات القوة الواهمة ،

" هذه القوة قد تحولت بفسادها إلى شيطان مصغر ، لأنها لا تتحرك إلا ضد اختيار الإنسان وإرادته وخلاف رغباته الحقيقية. إن هذا الذي يشعر به كل إنسان حسا وهدسا في نفسه دليل قطعي على وجود الشيطان الكبيرة في العالم الكبير. ثم إن هذه اللمة الشيطانية وتلك القوة الواهمة تشعران بوجود نفس شريرة خارجية تنفث في الأولى وتستنطق الثانية وتستخدمها كالأذن واللسان.¹⁸

لكن الإنسان ليس نقصا محضا، ونفسه ليست زيعا مطلقا، فهي إلى جانب شريرتها، تحوز الخيرية ، بيد أن الاحتفاظ بمستوى تلك الخيرية راجحا ، وعلى مدى متواصل يتطلب دحر النفس الأمارة ، وما أشق دحرها ، كما يقرر النورسي.

النفـس :

النفـس تركيب من النفس المزكاة ومن النفس الأمارة ، لكن التمرس الامتحاني جعل النورسي يكتشف ازدواجية في النفس الأمارة ذاتها ، إذ لها رديف آخر من جنسها لكنه أعتى غواية وأشرس زيعا ، يحول بين المرء وبين الخلوص ..
لكأن للنفس الأمارة ثوبا تغادره وتتركه وراءها حين يُضَيَّقُ المرء عليها بالتعهد التعبدية وبالترويض الإيماني وبالمكافحة التطهيرية،

إن من شأن ذلك الترويض أن يفلح في جعلها تخرج من كينونته الباطنية، لكن خروجها ذلك ليس في الواقع إلا خروجا جزئيا أو شكليا، لأن النفس الأمار لا تغادر الكيان إلا بعد أن تترك فيه ثوبها.

فخروجها يأخذ - على وجه تقريبي - صورة الثعبان وهو ينسلخ من ثوبه، ولذلك هي سرعان ما تنبثق من ثوبها ذلك ، كالحية ينجم السم الناقع حتى من رماد عظامها.

" هناك نفس أماراة معنوية - غير دسائس النفس الأمارة الحقيقية - هي أشد عصيانا من الأولى وأكثر نفورا من الطاعة، وأكثر إدامة للأخلاق الذميمة، هي النفس الثانية، وهي مزيج من الهوس والمشاعر والطباع وهي موغلة في الأعصاب والعروق، وهي

الحصن الأخير الذي تحمي به النفس الأمانة، وهي التي تتولى القيام بوظيفة النفس الأمانة السيئة السابقة - التي تركبت منها - فتجعل المجاهدة تستمر إلى نهاية العمر. " ولما كانت حواس هذه النفس الأمانة الثانية عديمة الشعور .. لا تفهم أقوال العقل ولا تدرك نواحي القلب ، ولا تعبر لها سمعا كي تنصلح وتدرك تقصيراتها، لذا لا ترتد عن السيئات إلا بلطحات التأديب وصفعاته وبالآلام ، أو بالتضحية التمامة بحيث يضحى المرء بمشاعره وحواسه كلها للهدف الذي يصبو إليه فيترك أنانيته كلياً ، بل كل ما يملكه لذلك الهدف ..¹⁹

فالنفس هي جماع النوازع المردية ، وقد أودت بإبليس إذ جعلته يقف أمام الخالق باستكبار وأنانية ، فاتحا الطريق أمام انحرافات الإنسان وتفرغته ، وليس مثل العبادة ملجأ للنفس عن زيغها ، وليس مثل التقوى محرساً لهمزاتها.. فبالتحلي عن العبادة تستفحل النفس وتطغى أنانيته ، وهو ما سجله النورسي بقوله:
إن الأنانية تتقوى بنقصان العبادة ، فيزداد الداعون إلى فرعونية النفس.²⁰
كما أن " الإنسان الحقيقي هو الذي برأ من الغرور ومن الغفلة التي تؤدي به إلى التيه في ظلمات الأوهام.²¹

من هنا راح النورسي يشدد على أهمية العبادة في بناء الكمال النفسي وتطهير البواطن واستكمال اللطائف وتثبيت الإخلاص :
" واما جهة الكمال النفسي فاعلم أن الإنسان مع صغر جرمه وضعفه وعجزه وكونه حيوانا من الحيوانات، ينطوي على روح غال ويحتوي على استعداد كامل، ويتبطن ميولا لا حصر لها، ويشتمل على آمال لا نهاية لها، ويجوز أفكارا غير محصورة، ويتضمن قوى غير محدودة مع أن فطرته عجيبة كأنه فهرست للأشياء والعوالم. فالعبادة هي السبب لانبساط روحه وجلاء قيمته.. وأيضا هي العلة لانكشاف استعداده ونموه ليناسب السعادة الأبدية.. وكذا هي الذريعة لتهديب ميوله ونزاهتها .. وهي وسيلة لتحقيق آماله وجعلها ثمرة ريانة ..

" وكذلك هي الوسيلة لتنظيم أفكاره وربطها.. وأيضا هي السبب لتحديد قواه وإجامها.. وهي الصيقل لرَيْن الطبيعة على أعضائه المادية والمعنوية التي كل منها كأنه منفذ إلى عالم مخصوص ونوع إذا شَفَّ .. وأيضا هي الموصل للبشر إلى شرفه اللائق وكمال المقدر، إذا كانت بالوجدان والعقل والقلب والقالب .. وكذلك هي النسبة اللطيفة العالية ،

والمناسبة الشريفة الغالية بين العبد والمعبود. تلك النسبة هي نهاية مراتب كمال البشر.

" ثم إن الإخلاص في العبادة هو: أن تُفَعَلَ لأنه أمرٌ بها ، وإن اشتمل كل أمر على حكم ، كل منها يكون علة للامتنال، إلا أن الإخلاص يقتضي أن تكون العلة هي الأمر، فإن كانت الحكمة علة فالعبادة باطلة، وإن بقيت مرجحة فجازرة.²²

ذلك هو الامتحان الحاسم الذي أناطه الله بالنفس ، حيث جعل خضوعها التطهري حياله سببا للارتقاء ، بعض النظر عن إدراكها أو عدم إدراكها لكنه الشعائر التي قررها الله عليها وذمها بها..

الهوامش:

- 1 الكلمات.734.
- 2 الكلمات474
- 3 الكلمات 474
- 4 الكلمات 474
- 5 المثنوي 270/270
- 6 المثنوي 270/270
- 7 المكتوبات 428.
- 8 المكتوبات473
- 9 المكتوبات.426
- 10 اللغات. 258.
- 11 الشعاعات.312
- 12 قصدنا بها المدينة الفاضلة كما ترسمتها عقول الفلاسفة وأرباب الإيديولوجيات الدنيوية.
- 13 الملاحق 377.
- 14 الملاحق 175.
- 15 اللغات 317.
- 16 اللغات.317.
- 17 المكتوبات.423.
- 18 اللغات.127.
- 19 الملاحق 210
- 20 الملاحق 392
- 21 المكتوبات 818
- 22 إشارات /149

أنموذج الإنسان المرتكز على

التوحيد في ضوء القرآن

بمنظور رسائل النور

د. موسى البسيط^٥

بين يدي الموضوع

الحمد لله الذي خلق الإنسان، علّمه البيان، جعلنا على الفطرة موحّدين وهدانا لهذا الدين (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم). [الروم: 30]

فإن واقع الإنسان اليوم إما موحّد أو غير موحّد، لكنّه في أصل خلقته التي فطر عليها مؤمن موحّد عالم متعلم، على خلاف ما يردّده أصحاب الثقافات التي لا تقوم على أساس من التوحيد والمعرفة المتلقاة على الوحي، وأقرأ قصة آدم ٧ كيف فطره الله على الإيمان والتوحيد، وعلمه وهذبه ورفع على الكائنات كلها قال تعالى : (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ). [البقرة: 31]

والإنسان مخلوق مكرّم، خلقه ربه في أحسن تقويم، وصوره فأحسن صورته، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته قال تعالى : (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ. فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ). [ص: 71-73]

ولأهمية الإنسان في الكون سخر له ربه ما في الكون قال تعالى : (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً) . [لقمان: 20]

^٥ من مواليد القدس سنة 1955 نال شهادة الدكتوراه في السنة وعلومها وعمل أستاذًا مساعدًا في جامعة الملك سعود بالرياض منذ سنة 1988-1990. ثم استأذًا مشاركًا في جامعة القدس سنة 1991 ثم عميدًا لكلية الدعوة والعلوم الإسلامية في أم الفحم، له 3 مؤلفات وبحوث عدة.

والإنسان في تكوينه ينزح إلى الشبه بالملائكة من جهة وبالحيوان من جهة أخرى، يشبه الملائكة في العبادة والتطلع إلى السمو الروحي وإحاطة المعرفة.....، ويشبه الحيوان في انه يبحث في أعماله عن حظّ نفسه وحصّة ذاته.

لقد أودع الله في الإنسان وسائل المعرفة، وجعل لديه الاستعدادات كلها ليؤدي مهمته التي من أجلها خلّق "فالإنسان من حيث الصنعة الجامعة المتقنة يملك الأجهزة والحوارح، بحيث يعرف أنواع النعم التي لا تعد ولا تحصى".

إن الإنسان لا يجد قيمته الحقيقية إلا بالتوحيد، إنه أصفى لذة وأنقى سعادة لحياة الإنسان أن يؤمن جازماً بأنه عبدٌ خالصُ العبودية لإله واحد متفرد.

ومما يؤهل الإنسان للخطاب الإلهي انتسابه إلى الواحد الأحد فيقوم الإنسان بإظهار جميع آثار الصنعة الكامنة في الإنسان، فتتبعين بذلك قيمة الإنسان على مدى بروز تلك الصنعة الربانية، فينال الإنسان الشرف الذي يؤهله لجنة ربه عز وجل، والإنسان الموحد تصطبغ حياته بسر التوحيد: مشاعره وعقله وجسده وكيانه وواقع حياته، الأمر الذي يجعله مميزاً على كل شيء، فيحتل بذلك مكانته المرموقة، لا بين البشر فحسب، بل بين مخلوقات الكون كلها.

وسوف أتناول في بحثي (نموذج الإنسان المرتكز على التوحيد) النقاط التالية في ضوء ما قدمت ومن خلال رسائل النور :

ماهية الإنسان ومكانته وما فيه من استعدادات فُطر عليها.

غاية حياة الإنسان.

اثر التوحيد في حياة الإنسان وانعكاسه عليها.

تجليات الأسماء الحسنى في حياة الإنسان.

والله أسأل أن يوفقنا لما يحب ويرضى.

ما الإنسان ؟

ماهية الإنسان :

" الإنسان " الاسم الذي تردد في كتاب الله تسعين مرة، مشتق من الأُنس¹ لكون أفراده يأنس بعضهم ببعض، فلا يستغني فردٌ من أفرادهِ عن جماعة الناس، أو هو مشتق من النسيان، فالنسيان خصلة ورثها البشرُ من أبيهم آدم عليه السلام (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَقُولَ لَهُ خُذْهَا) [طه : 115] .

ب - الكائن المميز في الخلق والخلق :

إن للإنسان طبيعة ازدواجية منسجمة، يجمع في تكوينه بين قبضة الطين ونفخة الروح، خلقه الله من طين أولاً ثم جعل بعد ذلك نطفة في قرار مكين، حتى إذا أكتمل بعد التخلق جاء التقدير الإلهي بإنشائه خلقاً آخر فأصبح الكائن المتكامل.

إن خلق الإنسان من طين من مقتضياته الرغائب المتعددة مما يحسّه هذا الكائن وبميل إليه، وكذلك المشاعر المتأججة في النفس البشرية ما بين مشاعر حميدة وأخرى ذميمة. لكن خلق الإنسان، فيه النفخة الروحية وهي القبس المشع واللطفة النورانية المهداة في تكوين هذا الكائن قال تعالى (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي) [الحجر : 29] فما أعظم وأجمل مقتضياتها.

المادة بنوازعها الثقيلة تنجح بصاحبها صوب الأرض، ومن مقتضياتها الغرائز والأهواء وحظوظ النفس من الشهوات التي تنزل بالنفس إلى الأرض. أما الروح فطبيعتها العلوية القدسية حيث الإشراق والسطوع والجمال والترفع عن الشرور والمفاسد - ترقى بالإنسان في عوالم الكمال بما ينعكس على الواقع البشري بكل أوجه الخير والفضيلة.

ويتمخض ذلك عن ولادة الإنسان السليم المميز الحافل بالجمال والحب للناس من غير أثرة ولا تعصب ولا استكبار.²

هذا التميز في الخلق بينة الأستاذ النورسي، وبين انعكاس هذا التميز الذي ميناه على الطبيعة الازدواجية في خلق هذا الكائن.

ويرى النورسي أن الإنسان نوعٌ متميز كل التميز في قصر الكون العظيم.

" هذا الإنسان شبيهه بالملائكة في العبادة الكلية وشمول الإشراق، وإحاطة المعرفة وكونه داعياً إلى الربوبية الجليلة، بل الإنسان هو أكثر جامعية من الملائكة، لأنه يحمل نفساً شريرة شهوية - بخلاف الملائكة - وأمامه نجدان له أن يختار، إما رقيقاً عظيماً أو تديناً مريعاً.

لكن ما وجه شبه الإنسان بالحيوان ؟
يجيب النورسي على ذلك بأن الإنسان يبحث في أعماله عن حظ لنفسه وحصّة لذاته
لذا فالإنسان له مرتبتان :

الأول : جزئي حيواني معجل، والثاني : كلي ملائكي مؤجل³
إن الإنسان أكرم المخلوقات بسرّ النور الذي نُفخ فيه، وبسرّ التمييز الذي حباه الله
به.

ج - الإنسان كائن مفضل :

جعل الله للإنسان منزلةً عظيمةً ومكانةً عاليةً رفيعةً، إذ هو في الذروة بين الخلائق
(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ
عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) [الإسراء : 70]
ومن مظاهر تكريم الإنسان، تسليطه على سائر الخلق الذين جعلهم الله مسخرين له،
ليكون بذلك سيد الكائنات بما يتجلى فيه من المقومات البشرية والكمالات الإنسانية
كخصائص العقل والوعي والشعور....

إن من شواهد تفضيل هذا الكائن استخلافه في الأرض تكريمًا له.
(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) [البقرة : 30]، إنها المشيئة
العليا أسلمت لهذا الكائن زمام الأرض، وأطلقت فيها يديه بما يملك من طاقات كامنة
واستعدادات.

إن الإنسان سيد الكائنات المشهود في هذا الكون، وفي تسخير الكائنات له بما يتيسر
له حسن الاستعمال تحقيق لمقتضيات الاستخلاف في الأرض.
(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ
ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً) [لقمان : 20]

فكأن الإنسان بسرّ خلافته في أرض الله، وبسرّ تسخير الكون كله، وبسرّ حمله
الأمانة، وبسرّ قيامه بأمر الله وعبادته، أكرم مخلوقات الله جميعاً.
إن مكانة الإنسان عاليةً عظيمةً لما أودع فيه من الأسرار العظيمة.
"ولما كان الإنسان أجمع ثمرة من ثمرات هذا الكون، فقد أُدرجت في قلبه الذي هو
نواة تلك الثمرة محبة قادرة على الاستحواذ على الكائنات كلها".⁴

د - الإنسان كائن ذو تكوين جامع متكامل :

ويتكامل الإنسان فهو ذو مقومات ومركبات عضوية ونفسية وعقلية وروحية، هي
مجموعة من الأجهزة تكمل بعضها بعضاً بانسجام لا يطغى إحداها على الآخر.

إن الإنسان تحصيلٌ لجملة متماسكة من المركبات المؤتلفة، يدعم بعضها بعضاً يؤلف بينها التماسك والترابط المحكم الوثيق.
 " إن تكوينه جامعٌ متقنٌ، يملك من الأجهزة والجوارح ما يُعرفه أنواع النعم التي لا تُحصى ولا تُعد".⁵
 لقد خلق الله اللطائف والحواس والمشاعر في وجود الناس، وأدرجها في فطرهم مستنداً إلى أساسين اثنين هما :

استشعارُ الشكر تجاه كل نوع من أنواع النعم التي أسبغها المنعم سبحانه.
 والثاني : معرفة أقسام تجليات الأسماء الحسنى التي نعم الوجود كله معرفتها.
 وعلى هذين الأساسين تنمو الكمالات الإنسانية.⁶
 ويجدر بنا ونحن نتناول بالبحث الإنسان صاحب الصنعة الجامعة والأنموذج المرتكز إلى الإيمان، أن نعرف ماهية الحياة الذاتية له، فليس الإنسان ذلك الكيان المادي الذي يشارك الحيوان في حاجاته الأساسية وتطلعاته الآنية، بل إنه أحسن تقويم للكمالات المبتوثة في الموجودات والمنشورة على الأوقات.
 يقول الأستاذ النورسي :

" ماهية حياتك الذاتية أنها فهرسُ الغرائب التي تخص الأسماء الحسنى.
 ومقياسٌ مصغر لمعرفة الشؤون الإلهية وصفات تجلياتها.
 وميزانٌ للعوالم التي في الكون، ولائحةٌ لمندرجات هذا العالم الكبير.
 وخريطة لهذا الكون الواسع وفذلكةٌ لكتاب الكون الكبير.
 ومجموعةٌ مفاتيح تفتح كنوز القدرة الإلهية الخفية".⁷
 إن الإنسان المؤمن الموحد المدرك لماهية حياته، ليعي الشأن العظيم والأهمية الكبيرة التي يتمتع بها وسط الخلائق في هذا الكون، منطلقاً من الأسماء الحسنى التي علمها آدم، فاختصه الله بها وما علمها غيره، ليقوم بواجب الخلافة والعمارة واستكشاف الكنوز وفتح المغاليق على أتم وجهه وأكمله.

غاية الخلق للإنسان.. وغايات حياته

غاية خلق الإنسان ذكرها الله تعالى بقوله (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)
 غير أن التفصيل في غايات حياة الإنسان، الأنموذج المرتكز على الإيمان، يستلزم تدبراً عميقاً لتنزلات الوحي، وصولاً إلى الوقوف على الغايات الجلييلة البديعة.

والأستاذ النورسي "في كلماته" النفيسة يحدّد لنا هذه الغايات في تسع نقاط، متدرجاً في ذكرها، إبتداءً من الشكر الكلي الذي يجدر بالإنسان توجيهه إلى بارئه، وإنتهاءً بادراك درجات القدرة العظمى.

إن مهمة هذا المخلوق الإنسان، مهمةٌ - لا شك - عظيمة، إنها المعرفة بذات الله وصفاته وأفعاله، وتقديره حق قدره، فتأمل هذه الغايات :

أولاً : القيام بالشكر الكلي ووزن النعم المدخرة في خزائن الرحمة الإلهية بموازين الحواس المغروزة في جسم الإنسان.

ثانياً : فتح الكنوز المخفية للأسماء الإلهية الحسنى بمفاتيح الأجهزة المودعة في فطرة الإنسان ومعرفة الله بتلك الأسماء.

ثالثاً : إعلان ما ركبت فيك أيها الإنسان الأسماء الحسنى من لطائف تجلياتها، وبدائع صنعتها، وإظهار تلك اللطائف البديعة أمام أنظار المخلوقات بعلم وشعور.

رابعاً : إظهار عبودية الإنسان - الأنموذج المرتكز إلى الإيمان - أمام عظمة ربوبية خالقه بلسان الحال والمقال.

خامساً : التجمل بمزايا اللطائف الإنسانية التي وهبتها تجليات الأسماء، وإبرازها أمام نظر الله تعالى.

سادساً : شهود مظاهر الحياة لذوي الحياة شهود علم وبصيرة، إذ هي بجياتها ودلالاتها بجياتها على بارئها - سبحانه - ورؤية تسيحاتها لخالقها رؤية تفكر وعبره، إذ هي رموز حياتها، وعرض عبادتها الى واهب الحياة - سبحانه - والشهادة عليها، إذ هي غاية حياتها ونتيجتها.

سابعاً : معرفة الصفات المطلقة للخالق الجليل وشؤونه الحكيمة، ووزنها بما وهب لحياتك من علم جزئي وقدرة جزئية، وإدارة جزئية أي يجعلها نماذج مصغرة، ووحدة قياسية لمعرفة تلك الصفات المطلقة الجليلة.

ثامناً : فهم الأقوال الصادرة من كل موجود في العالم وإدراك كلماته المعنوية فيما يخص وحدانية خالقه وربوبية مبدعه.

تاسعاً : إدراك درجات القدرة الإلهية والثروة الربانية المطلقة بموازين العجز والضعف والفقير والحاجة المنطوية في نفسك.⁸

إن السعي لبلوغ هذه الغايات واحدة واحدة، وتحقيقها في نور هدي الوحي الإلهي المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، يجعل من الإنسان الأنموذج الفريد لتجليات

الأسماء والصفات، حتى إنه لينعكس نوراً جامعاً وضياءً لامعاً لا مثيل له في الكائنات، فينسكب في قلبه ووجدانه نوراً إلهي ساطع يبدد ظلمة الجهل المتولدة من النسيان أو التغافل عن هذه الغايات جميعاً؛ (الله نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمَشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ...) [النور: 35].

وقرأ أبي بن كعب: (الله نور السماوات والأرض مثل نوره في قلب المؤمن.. الآية).

الله تعالى هو صاحب النور في السماوات والأرض، ومنورهما بما بث فيهما من كمال النظام وحسن التدبير، وهو تعالى نور السماء بالملائكة والأرض بالشرائع، وبث نور هدايته في الفطر السليمة، فجاءت هدايته جلية ساطعة.

أجهزة الهداية في الأنموذج المرتكز على التوحيد

إن تحقيق الغاية التي خلق الله الإنسان لها، مرهونٌ باستخدام ما أُودع فيه من أجهزة استخداماً صحيحاً لائقاً، وتوجيهها الوجهة الصحيحة، لكن إن أهملها أو قصر في استعمالها يهوي في دركات من الانحطاط والضلال، ذلك ما يؤكد النورسي حين يقول مبيناً أهمية الأجهزة وضرورة استثمارها:

" إن الإنسان يشبه البذرة، فلقد وهبت للبذرة أجهزة معنوية من لدن "القدرة" وأدرجت فيها خطة دقيقة ومهمة جداً من لدن "القدرة" لتمكن من العمل داخل التربة، ومن النمو والترعرع والانتقال من ذلك العالم المظلم الضيق إلى عالم الهواء الطليق والدنيا الفسيحة، وأخيراً التوسل والتضرع لخالقها بلسان الاستعداد والقابليات لكي تصير شجرة والوصول إلى الكمال اللائق.

ويخلص الأستاذ النورسي إلى القول: ¹⁰

" فكما أن البذرة هكذا فالإنسان كذلك، أُودعت في ماهيته أجهزة مهمة من لدن القدرة الإلهية، ومُنح برامج دقيقة وثمينة من لدن القدر الإلهي، فإذا أخطأ هذا الإنسان التقدير والاختيار، وصرف أجهزته المعنوية تحت ثرى الحياة الدنيا، وفي عالم الأرض الضيق المحدود إلى هوى النفس، فسوف يتعفن ويتفسخ... لأجل لذة جزئية ضمن عمر قصير، وفي مكان محصور وفي وضع متأزم مؤلم، وستتحمل روحه المسكينة تبعات المسؤولية المعنوية فيرحل من الدنيا خاسراً.

أجل. إنه الخسران العظيم، لكن لو ربّي نفسه بالاستخدام الصحيح للأجهزة المودعة ووفق الخطة المرسومة، ولو أنه سقى البذرة بماء الإسلام، وغذاها بضيء الإيمان وتحت تراب العبودية موجهاً أجهزتها المعنوية نحو غاياتها الحقيقية بامتثال الأوامر القرآنية، فلا بد أنها ستنشق عن أوراق وبراعم وأغصان تمتد فروعها وتتفتح أزاهيرها في عالم البرزخ، وتولد في عالم الآخرة وفي الجنة نعماً... عندها يصبح الإنسان بذرة قيمة حاوية على أجهزة جامعة لحقيقة دائمة ولشجرة باقية..."

ويتابع النورسي قائلاً :

"إن السمو والرقى الحقيقي إنما هو بتوجيه القلب، والسر، والروح، والعقل وحتى الخيال وسائر القوى الممنوحة للإنسان إلى الحياة الأبدية الباقية، واشتغال كل منها بما يخصها ويناسبها من وظائف معنوية"¹¹.

إن الإنسان الأنموذج المرتكز إلى التوحيد، يمكنه أن يحقق الحياة الخالدة وينعم بسعادة الدنيا، إلا أن مشكلة الإنسان في سوء استخدامه لما هو مركز في تكوينه من أجهزة، إنه يقيم نفسه بمنزلة الجماد والنبات والحيوان، بمعنى أنه يريد أن يتهرب من مسؤوليته أمام الله، ويريد أن يهرب من التكليف، يأبى العبودية لله فيسقط في العبودية لغيره، ظنّ أنه تحرر من كل عبودية، والواقع أنه استبدل بالعبودية للخالق العبودية للمخلوق، واستبدل بالإله الواحد آلهة شتى، وأتخذ أرباباً من دون الله.

فأين هذا من المؤمن الأنموذج المرتكز على التوحيد، الذي رفض كل الآلهة الزائفة، وحطّم كل الأصنام في قلبه، ورضي بالله رباً عليه يتوكل، وبه يعتصم، إهتدى بعقله وبنور وحي الله إليه.

إن المؤمن الموحد لا يبذل ما يملكه من قابلية غير محدودة للمحبة إلى نفسه الأمارة بالسوء، إذ لا ينبغي اتخاذها محبوباً ومعشوقاً، إلى درجة العبادة، يقول النورسي محذراً: "ولا تجعل هواها معبودك، بل اجعل محبوبك من هو أهل لمحبة غير متناهية، ذلك القادر على الإحسان إليك إحساناً لا نهاية له، والقادر على إسعادك سعادة لا تنتهي لها، بل يُسعدك كذلك بما يُجزل من إحساناته على جميع من ترتبط معهم بعلاقات"¹².

إن عقيدة التوحيد تجعل الإنسان عبداً لإله واحد فقط، أما عقيدة الشرك بالله فتجعله عبداً لآلهة متعددة متشاكسة تتنازعه فتمزقه أشلاءً.

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) [الزمر: 29].

إن الإنسان الأنموذج المرتكز على التوحيد يوقن بمبدأ توحيد الربوبية لله تعالى، ومبدأ

توحيد الألوهية لله فله تعالى الأمر والنهي والحكم والقضاء، وهو الذي يستحق وحده العبادة، ومن توحيد الألوهية عبادة الله وحده بما أمرنا ان نعبده به، وكل حكم على خلاف حكم الله يمثل استنكافاً عن طاعته في ذلك الحكم، فإذا كان ذلك طاعة لغير الله فهو شرك بالله فيما هو من خصائص الألوهية.¹³

الوظيفة الفطرية

أساس التخبُّط في حياة الإنسان منذ القدم إنما هو "الجهل" بالوظيفة الفطرية، هذا الجهل يفقد الإنسان البوصلة الموصلة إلى الوجهة الصحيحة، فيتيه الإنسان، ولربما أنساه ذاتيته الحقيقية.

إنَّ الوظيفة الأساس للإنسان هي ؛ الإيمان بالله والدعاء إليه. وإذا كان الإيمان يجعل الإنسان مدركاً حقيقة ذاته وكيانه وأنه السيّد المؤمن الخليفة المصلح، فإن الكفر يجعل الإنسان حيواناً مفترساً في غاية العجز يقول الأستاذ التورسي: إن الإيمان يجعل الإنسان إنساناً حقاً - بل يجعله سلطاناً.¹⁴

هذا الإنسان الأمّودج المرتكز على التوحيد، له بعد الإيمان وظيفة فطرية مكتملة هي "الدعاء"، ذلك أن الإنسان متعرضٌ لما لا يحصى من أنواع البلايا والمصائب لما يحمل من عجز، وله في الوقت ذاته مطالب وحاجات عديدة مع أنه في فقر مدقع لا نهاية له. إنه أطف أنواع الأحياء وأعجزها وأفقرها، وهو بمنزلة صبي ضعيف لطيف، فلا بدّ له من أن يأوي إلى كنف الرحمن الرحيم، والانطراح بين يديه إما باكياً معبراً عن ضعفه وعجزه، أو داعياً بفقره واحتياجه، وعندئذ يكون قد أدى شكر تلك الإغاثات والتلييات....

"التعلم"

هذا الأمّودج المرتكز على التوحيد وظيفته الفطرية منصبّة على التعلّم واكتساب العلم والمعرفة.

ويرى الأستاذ التورسي أن الإنسان إنما جيء به إلى هذا العالم لأجل أمر واحد هو؛ أن يتكامل بالمعرفة والدعاء....

وإن أساس كل العلوم الحقيقية ومعدّها ونورها وروحها "معرفة الله"، كما أن أسّ هذا الأساس هو "الإيمان بالله جل وعلا".

ونظرة في كتاب الله تكشف ذلك وتجليه، اقرأ قوله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ). [الذاريات: 56] وقوله (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ

عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ). [البقرة : 31] وقوله (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) [الزمر : 9] وقوله (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ). [فاطر : 28]

الأسماء الحسنى وأثرها على حياة الموحّد

إن حياة الإنسان الأنموذج المرتكز على التوحيد، ليست إلا ترجمة صادقة رائعة للأسماء الحسنى المشهودة والمسموعة، إنّ حياته لتؤدي وظيفة المرأة لخالق الحياة بثلاثة وجوه - كما قال النورسي:

أولها : هي مرآة عاكسة لقدرة خالق الحياة وقوّته وغناه ورحمته.... فعلمت وظيفة العبودية، وتزودت بالسؤال والدعاء والاتّجاه....

ثانيها : قيام معاني العلم والإرادة والسمع والبصر بوظيفة مرآة عاكسة لصفات كلية محيطية.

ثالثها : بنور الإيمان يعرف الإنسان الموحّد لربه، أنّ الذي خلقه ويُديم حياته هو في منتهى الرحمة واللطف، وفي غاية القدرة والإبداع.¹⁵

إن السمو للنفس البشرية وتألّفها وارتقاءها إنّما يكون بالقدر الذي تتعلق به النفس بخالقها وبارئها وبأسماء الله الحسنى، وتبقى النفس متطلّعة الى رها... لا تكون متبدّلة بتشبيها بالموجودات الفانية، وإنّما تتعلق النفس البشرية كي تسمو وترتفع في الارتباط بالله، فانظر إلى اسم الرحمن فحسب كدلالة، لترى أنّ الجنّة إحدى تجليات الله، والسعادة الأبدية إحدى لمعات الله، وجميع الأرزاق والنعم المبتوثة في أرجاء الدنيا كافة، إنّما هي إحدى قطراته.

فأنعم النظر وتدبر في الآيات الكريمة التي تشير إلى هذه الموازنة بين ماهية أهل الضلالة وأهل الإيمان من حيث الحياة ومن حيث الوظيفة.

تجليات الاسماء الحسنى :

اجل الكون كله يحكي تجليات أسماء الله وصفاته، فتفيض عليه هذه الأسماء بأعظم النعم وأجلّ المنن، أسماء وصفات لله تعالى تشرق بأنوارها البهية، وتنور بذلك حياة الإنسان الأنموذج المرتكز على التوحيد بهذه الأسماء.

اسم الله العادل يشرق من برج الحكيم.

واسم الرحمن يشرق من برج الكريم .

واسم الرحيم يشرق من برج الغفور .

واسم الباعث يشرق من برج الوارث .
 واسم المحي يشرق من برج المحسن .
 واسم الرب يشرق من برج المالك .¹⁶
 والأسماء الإلهية تنور عوالم كثيرة ضمن عالم الإنسان الموحد، وتفتح نوافذ من عالم
 الآخرة المنورة، ونثرت أنواراً ساطعة على دنيا الناس.¹⁷
 فما أرقاها وأرفعها حياة الموحد إذا هو تخلّق بانعكاسات الأسماء الحسنى، إذاً لصلح
 وأصلح مَنْ حوله، ولكان لنا أن نقول :
 ان حياة الموحد مرآة لتجلي الأحدية، وجلوة الصمدية، تنعكس عليها تجلي الذات
 تجلياً جامعاً، وكان حياة المؤمن نقطة مركزية لجميع أنواع تلك التجليات الإلهية.
 يقول النورسي : حظي الإنسان بتجليات أسماء الله الحسنى كلها كما تتجلى في
 الكون كله، وكأنه بؤرة - تُظهر جميع الأسماء الحسنى دفعه - واحدة في مرآة ماهيته
 فيعلن بذلك الأحدية الإلهية، أي تفرد الله ووحدانته.¹⁸
 وبعد، فليس بمستغرب ولا بعيد عن الفهم حديثُ رسول الله صلى الله عليه وسلم؛
 (إنَّ لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة)¹⁹، إن إحصاءها هو فهمها وتدبرها
 والعمل بمقتضاها وتطبيقها في النفس والمجتمع.

لوحة الأسماء الحسنى

لقد وردت أسماء الله الحسنى فيما رواه أبو هريرة قال :
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن لله تسعة وتسعين اسماً - مائة إلا واحداً -
 من أحصاها دخل الجنة وفي رواية " لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة وهو وتر يجب
 الوتر).²⁰

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن لله
 تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة : هو الله الذي لا إله إلا هو، الرحمن،
 الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق،
 البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط،
 الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكيم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم،
 العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم،
 الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل،
 القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم،
 الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الصمد، القادر، المقدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر،

الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور).²¹

إن الأسماء الحسنى التسعة والتسعين السابقة هي الأسماء الحسنى المشهورة لكن أسماء الله لا تنحصر بها، ودليل ذلك؛ ما رواه أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

(ما أصاب أحداً قط همٌّ ولا حزنٌ فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وأسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وزهَاب حزني، وجلاء همي وغمي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحاً. فقيل يا رسول الله: ألا نتعلمها؟ فقال: بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها).²²

وقوله تعالى: (وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ) [الأعراف: 180]. فهذه الآية مطلقة لم تخصص أسماء الله بعدد.

نماذج من تأثير الأسماء الحسنى في حياة المؤمن:

فالإنسان الموحد الذي عرف أن الله هو القوي، المتين، القادر، المقتدر، الواحد، العزيز، المقيت، مالك الملك، الوارث، من شأنه أن يرجع في كل شيء إلى قدرته تعالى متوكلاً على الله سبحانه، يهون في نفسه كل أمر جلل، لأنه ينظر إلى قدرة قادر عظيم يستمد منه العون، ويعتمد على قدرة الله، في تحقيق ما يرجو من خير وقوة وسعادة. وإن من يلاحظ صفة العلم لله وأسماءه الحسنى التابعة لها وهي الخبير، الشهيد، الحسيب، المحصي، الواحد، السميع، البصير، الرقيب، المهيمن، الواسع، المؤمن، من يحفظ هذه الأسماء حفظ يقين يتحقق لديه أن الله تعالى محيط بكل شيء علماً وإن علمه محيط بالبوطن والدقائق يعلم الأسباب والمسببات، ويعلم العلل والمعلولات، ويعلم السر وأخفى، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها الله، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب، بل ويعلم خلجات القلوب، وخطرات الأنفس، وما هو كائن وما سيكون.

إن الإنسان الموحد المتصل بهذه الأسماء، الموقن بما المتدبر لها، يستطيع أن يحدد منهج سلوكه في حياته:

إنه يعلم أنه مراقب من العليم اللطيف الخبير الشهيد الحسيب... وعليه فهو موقن أن الله لا يضيع عليه ثواب مثقال ذرة من خير، ولا بد أن الله موفيه أجره، لذا فإن الموحد

بربه المراقب له، لا يألو جهداً في عمل الخير والسعي إليه، كذلك لا يستهين الإنسان الموصول بهذه الأسماء بأي عمل من أعمال الشر مهما صغر، لأنه يعلم أن الله به عليم، وله حسيب ورقيب.²³

ثم إن العبد الموقن الموحد تنعكس هذه الأسماء عليه تواضعاً، حين يتضح له البون الشاسع بين علم الله تعالى، العلم المحيط الواسع، وبين علم المخلوقات، فيتصاغر ويتضاءل ويتجلى له معنى قوله تعالى: (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً).

إن المتدبر لأسمائه الحسنی، الخافض، الرافع، المعز، المذل، المقدم، المؤخر، الجامع، المانع، النافع، الضار، يقف في مقام العبودية التامة لله تعالى، ويخشع أمام قهر الله القاهر فوق عباده (وهو القاهر فوق عباده).

ويلتمس منه جلب كل خير، ودفع كل ضرر، ويرضى بقضائه وقدره، ويعلم أنه الفعّال الحقيقي في كل أمر يحدث، من رفع وخفض، وعز وذل ونفع وضر.... وأن جميع الأفعال التي تباشرها كل المخلوقات إنما هي وسائل وأسباب صورية لا تأثير لها في الحقيقة²⁴ هي أسباب جعلية أعطاه الله صورة الفاعلية، بينما الفاعل الحقيقي الله عز وجل إذ هو الخالق إلا وجد للأسباب والمسببات²⁵ والمؤمن الموحد يؤمن بالقدر ويعمل بالأسباب، ويعلم أن الأسباب إنما هي من القدر فلا يتكاسل أو يتخاذل، ولا يحتج بالقدر على تقصير أو معصية.

إن المؤمن الموصول بأسماء الله التي هي: الحكيم، الرشيد، الخالق، البارئ، البديع، المصور، الهادي، المبدئ، المعيد، الباعث، المحي، المميت، الجبار، القهار، القيوم، الحفيظ، المؤمن، المهيمن، تبعث فيه هذه الأسماء التبصّر والإمعان في جميع المخلوقات من حوله، مسترشداً بإشارات هذه الأسماء. فدلالة الحكيم، الرشيد تؤخذ من خلال ما في المخلوقات من دقائق الحكمة والرشاد، ودلالة الخالق، البارئ، المصور، البديع، الهادي، تؤخذ من النظر في خلق الكائنات، وتأمل الإبداع والتقدير، والتسوية والتصوير والهداية فيها، يقرأ المؤمن الموحد ذلك في كتاب الكون قراءة تأمل وتفكر وبحث علمي دقيق. إن حفظ هذه الأسماء واليقين بها وفهما ليدفع بالإنسان الأنموذج الفريد لأن يمثل كل معاني الإبداع والتقدير، من دقة وإتقان، وعملٍ دؤوبٍ خلّاقٍ لاستكشاف الكون بما فيه من أسرار وخفايا ليَعمر بها الأرض.

إن المؤمن الموحد المتأمل في قانون الهداية من الهادي عز وجل يعمد في كل شأن من شؤون حياته دقّ أو عظم، إلى وضع النظام الذي يكفل به إنفاذ الأمر على أحسن وجه وأتمّه.

والمؤمن كذلك يأخذ بهدى أسماء الله؛ الرازق، المقيت، المغني، القابض، الباسط، فيرضى ويسلم ويطمئن على رزقه المكتوب له، ويقنع بما يؤتيه الله من الدنيا فلا يلجأ إلا إليه في طلب الرزق، ولا يسعى إلى جلبه إلا من حيث أمره الله. كما يأخذ المؤمن بهدى أسماء الرحمن، الرحيم، الفتاح، اللطيف، الرؤوف، الودود، ويرى أن من واجبه التخلّق بما تدل عليه هذه الأسماء فهو رحيم بخلق الله، ناصر للحق قاصع للظلم، لطيف في معاملاته لخلق الله، رقيق بهم محب لكل من يحب الله، ولكل ما يحبه الله.²⁶

مذاق التوحيد

حياة الإنسان الأتمودج الموحد لله، الذي اعتقد في قرارة نفسه أن ربه واحد في ذاته متفرد في صفاته لا يستحق العبادة إلا هو.

حياة هذا الإنسان تنعم بالأمن والاطمئنان والسكينة والسلام والوثام، وما أعذب كلمات ابن القيم في الدلالة على ذلك حين يقول :

في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله .

وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله.

وفيه حزن لا يذهب به إلا السرور بمعرفته، وصدق معاملته.

وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار إليه .

وفيه نيران حشرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه.

وفيه فاقة لا يسيرها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له.

ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تُسد تلك الفاقة أبداً.²⁷

نعم، ما أعظم لذة الإيمان، هي اللذة الباقية الصافية النقية، حين يوقن المسلم المؤمن الموحد بأنه مخلوق الله، ربّه بالنعم وأوجده من العدم وحاجته إليه لا تنقطع، وهو الرب الإله الرحيم الرؤوف، هنا يشعر باللذة.

"إن أصفى لذة وأنقى سعادة لحياتي هذه، إنما هو في الإيمان، أي الإيمان الجازم بأي مخلوق من خلقي ورباني، فإني مصنوعه وعبده وتحت رعايته وعنايته ومحتاج إليه، وهو ربي والهي وهو الرحيم والرؤوف بي، فإيماني هذا لذة ما بعدها لذة، لذة كافية وافية دائمة وسعادة خالصة نقية لا يعكرها ألم".²⁸

إن القلب الذي يوحد الله تعالى يتذوق الألم والبلاء حلاوة ولذة، يفسر البلاء اختباراً لا بد من النجاح فيه أو هو عقوبة تكفر عنه ذنباً أو تحط خطيئة. يرضى بقدر الله فلا يجزع إن مسه الشر، ولا يمنع إن مسه الخير، ولا يندم على ما فات لأنه يعلم أن ما أصابه

لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له).²⁹

الطمأنينة وسلام النفس

المؤمن يعيش موصولاً بالوجود كله، يحيا في أنس به، وشعور عميق بالتناسق معه والإرتباط به....

إنّ الكون الكبير كله يخضع لنواميس الله كما يخضع المؤمن، ويسبح بحمد الله كما يسبح المؤمن.

ان الإنسان المؤمن الموحد يعيش في سعة من نفسه وقلبه، فطبيعة الإيمان توسع النفس والقلب والحياة لأنه يصل صاحبه بالوجود كله، فيتسع القلب، وينفسح وينشرح بنور الإيمان واليقين، (فمن يُرد الله أن يهديه يشرح صدره للإيمان، ومن يُرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً).

وبالتوحيد يسلم المؤمن من الشك والاضطراب، ويحل الغاز الوجود الكبيرة: المبدأ والمصير، الغاية والمهمة، ويعرف أن له رباً، خلقه وصوره وسواه وكرمه وجعله خليفة في الأرض وكفل له رزقه وسخر له كونه، ويعرف أنه لم يخلق في هذه الحياة عبثاً ولم يترك سدى....

وبالإيمان يرتفع الإنسان في تصوره، ويملك القيمة العالية، وبالتفسير الصحيح للكون المنبعث من الإيمان يسلم الإنسان من النوازع التي تتنازع، ويحفظ ماهيته الإنسانية، وما أجمل كلمات الأستاذ النورسي في بيانه الأثر الذي يحدثه الإيمان في الإنسان فتجعل منه الكائن الأهل للخطاب الرباني، فتأمل كلماته: -

يقول " إن الإنسان يسمو بنور الإيمان إلى أعلى عليين فيكتسب بذلك قيمة تجعله لائقاً بالجنة، بينما يتردى بظلمة الكفر أسفل سافلين، فيكون في وضع يؤهله لنار جهنم ذلك لأن الإيمان يربط الإنسان بصانعه الجليل، ويربطه بوثاق شديد ونسبة إليه، فالإيمان إنما هو انتساب، لذا يكتسب الإنسان بالإيمان قيمة سامية من حيث تجلّي الصنعة الإلهية فيه، وظهور آيات نقوش الأسماء الربانية على صفحة وجوده.

أما الكفر فيقطع تلك النسبة وذلك الانتساب، وتغشى ظلمته الصنعة الربانية وتطمس على معالمها، فتتنقص قيمة الإنسان حين ينحصر في مادته فحسب وقيمة المادة لا يعتد بها، فهي في حكم المعدوم لكونها فانية زائلة، وحياتها حياة حيوانية مؤقتة ..

ويسترسل الأستاذ النورسي مبيناً أن الإنسان بإيمانه يظهر جميع تجليات الأسماء الحسنى فيقول :

" وهكذا الإنسان فهو الصنعة الخارقة للخالق الصانع سبحانه، وهو أرقى معجزة من معجزات قدرته وألطفها، حيث خلّقه الباري مظهراً لجميع تجليات أسمائه الحسنى، وجعله مداراً لجميع نقوشه البديعة جلت عظمته، وصيره مثلاً مصغراً ونموذجاً للكائنات بأسرها.

فإذا استقر نور الإيمان في هذا الإنسان ليّن - ذلك النور - جميع ما على الإنسان من نقوش حكيمة، بل يستقرئها للآخرين، فيقرأها المؤمن بتفكير ويشعر بها في نفسه شعوراً كاملاً، ويجعل الآخرين يطالعونها ويتملّونها أي، كأنه يقول:

ها أنا ذا مصنوع الصانع الجليل ومخلوقه، أنظر كيف تتجلى في رحمته وكرمه "وبما شاهاها من المعاني الواسعة تتجلى الصنعة الربانية في الإنسان".

ثم إن الإنسان أهل للخطاب الإلهي يقول :

" إذن الإيمان الذي هو عبارة عن الانتساب إلى الصانع سبحانه - يقوم بإظهار جميع آثار الصنعة الكامنة في الإنسان، فتتبعين بذلك قيمة الإنسان على مدى بروز تلك الصنعة الربانية، فيتحول هذا الإنسان إلى مرتبة أسمى المخلوقات قاطبة حيث يصبح أهلاً للخطاب الإلهي، وينال شرفاً يؤهله للضيافة الربانية في الجنة"³⁰

أما الكفر فإن انعكاسه خطير مدمر للإنسان، مدمر لهذه الصنعة العظيمة، يقول النورسي:

" أما إذا تسلل الكفر الذي هو عبارة عن قطع الانتساب إلى الله - في الإنسان، فعندئذ تسقط جميع معاني نقوش الأسماء الحسنى الإلهية الحكيمة في الظلام، وتُمحى هوائياً، ويتعذر مطالعتها وقراءتها، ذلك لأنه لا يمكن أن تفهم الجهات المعنوية المتوجهة فيه إلى الصانع الجليل بنسيان الصانع سبحانه، بل تنقلب على عقبيها ".

وفلسفة ذلك يبينها لنا الأستاذ النورسي قائلاً :

" غاية المادة وثمرتها هي قضاء حياة قصيرة جزئية يعيشها صاحبها وهو أعجز المخلوقات وأحوجها وأشقاها، ومن ثم يتفسخ في النهاية ويزول.. وهكذا يهدم الكفر الماهية الإنسانية ويحيلها من جوهره نفسية إلى فحمة خسيصة"³¹ ، ويبين الأستاذ في النهاية أن الهداية نور يبدد كل ظلمة فيقول :

" فالإنسان الذي يعتمد على أنانيته وغروره ويقع في شرك ظلمات الغفلة ويتلى بأغلال الضلالة القاتلة، حيث يرى الزمن الماضي بنور المصباح الناقص الذي هو معرف

ناقصة منحرفة للضلالة، كمقبرة عظيمة في ظلمات العدم، ويصور الزمن من المستقبل موحشاً تعبت فيه الدواهي والخطوب محيلاً إياه إلى الصدفه العمياء، (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) [البقرة: 257] أما إذا أغاثت الإنسان الهداية الالهية، ووجد الايمان إلى قلبه سبيلاً، وانكسرت فرعونية النفس وتحطمت، وأصغى إلى كتاب الله... حينها تمتلئ الكائنات بالنور الإلهي وينطق العالم برّمته (الله نور السماوات والأرض... الآية).

ثم يقول :

... " الحوادث التي تبدو حزينة سَمجة ما هي في الحقيقة والمعنى إلا مدار الحَكَم اللطيفة حتى يرى الموت مقدمة لحياة أبدية، ويرى القبرُ باب سعادة خالدة وقس على هذا المنوال سائر الجهات بتطبيق الحقيقة على المثال".³²

ثمرة التوكل من أعظم ثمار التوحيد

القلب الذي يوحد الله يدرك القرابة بينه وبين كل ما أبدعت يدُ الله في هذا الكون من أشياء وأحياء، ويجيا في كون صديق يتجاوب معه، ويحس يد الله في كل ما حوله، فيعيش في أنس الله وبدائعه التي تلمسه يداه وتقع عليها عيناه.

وتبدو آثار التوحيد في التصورات والمشاعر كما تبدو في السلوك والتصرفات وترسم للحياة كلها منهاجاً كاملاً واضحاً مميزاً.

ومن أعظم آثار التوحيد "التوكل" وما يحدثه في حياة هذا الإنسان الأُمُودج من أثر ويبين الأستاذ النورسي هذا الأثر العظيم فيقول.

" الإنسان الذي يظفر بالإيمان الحقيقي "التوحيد" يستطيع أن يتحدى الكائنات، ويتخلص من صنف الحوادث، مستنداً إلى قوة إيمانه، فيبحر متفرجاً على سفينة الحياة في خضم أمواج الأحداث العاتية، بكمال الأمانة والسلام قائلاً : توكلت على الله، ويُسلم أعباءه الثقيلة أمانةً إلى يد القدرة للتقدير المطلق، ويقطع بذلك سبيل الدنيا، مطمئن البال في سهولة وراحة، حتى يصل الى البرزخ ويستريح، ومن ثم يستطيع أن يرتفع طائراً إلى الجنة للدخول إلى السعادة الأبدية.

أما إذا ترك الإنسان التوكل فلا يستطيع التحليق والطيران الى الجنة فحسب بل ستجذبه تلك الأتقال إلى أسفل سافلين.

فالإيمان إذن يقتضي التوحيد، والتوحيد يقود إلى التسليم، والتسليم يحقق التوكل، والتوكل يسهل الطريق إلى سعادة الدارين.

ولا تظنن أن التوكل هو رفض الأسباب وردّها كلياً، وإنما هو عبارة عن العلم بأن الأسباب هي حُجُب بيد القدرة الإلهية ينبغي رعايتها ومداراتها، أما التشبث بها أو الأخذ بها فهو نوع من الدعاء الفعلي فطلب المسببات أذن وترقب النتائج لا يكون إلا من الحق سبحانه.

إن مثل التوكل على الله وغير التوكل كمثّل رجلين قاما بحمل أعباء ثقيلة حُمّلت على رأسهما وعاتقهما فقطعا التذاكر وصعدا سفينة عظيمة فوضع أحدهما ما على كاهله حالماً دخل السفينة أما الآخر فلم يفعل مثله لحماقته وغروره... ".
أجل. ذلك الرجل الذي وضع أمتعته وثق بالسفينة واطمأن وأمن ربانها أما هذا الرجل فما وثق ولا اطمأن ولا أحسن الظن بل لعل من يراه يظن به مساً من الجنون. فيا أيها الإنسان البعيد عن التوكل.

ارجع إلى صوابك وعد إلى رشدك كهذا الرجل، وتوكل على الله لتتخلص من الحاجة والتسوّل من الكائنات، ولتنجو من الارتعاد والهلع أمام الحادثات، ولتنقذ نفسك من الرياء والاستهزاء ومن الشقاء الأبدي ومن أغلال مضايقات الدنيا".³³.

إن الإيمان يداوي ضعف الإنسان وعجزه وفقره واحتياجه بالتوكل على القدير الرحيم، مسلماً أثقال الحياة وأعباء الوجود إلى قدرته سبحانه، والى رحمته الواسعة دون أن يحملها على كاهل الإنسان، بل يجعله مالكاً لزمّام نفسه وحياته، واجداً له بذلك مقاماً مريحاً، ويعرّفه أنه ليس بجيوان ناطق، بل هو إنسان بحق وضيف عزيز عند الملك الرحمن.³⁴ وها هو النورسي يوجه نداء للإنسان :

أيها الإنسان :

أنت لست مالكاً لنفسك بل أنت مملوك للقادر المطلق القدرة والرحيم المطلق الرحمة، فلا ترهق نفسك بتحميلها مشقة حياتك، فان الذي وهب الحياة هو الذي يديرها.
ثم إن الدنيا ليست سائبة دون مالك، كي تقلق عليها وتكلف نفسك حمل أعبائها وترهق فكرك في أحوالها، ذلك لأن مالكها حكيم ومولاها عليم، وأنت لست إلا ضيفاً لديه، فلا تتدخل بفضول في الأمور ولا تخلطها من غير فهم.

ثم إن زمان أولئك الذين اتخذوا طور العداء معك ابتداءً من الكروبوات إلى الطاعون والطوفان والقحط والزلازل، بل زمام كل شيء بيد ذلك الرحيم الكريم سبحانه فهو الحكيم لا يصدر منه عبث، وهو رحيم واسع الرحمة، فكل ما يعمله فيه أثر من لطف ورأفة.³⁵

إن الإيمان يستدعي التوكل، وأن يفوض العبد أمره كله لله تعالى، مُسْتَيْقِنًا قدرة الله على قضاء الأمور مع بذل الأسباب والتخلي عن التعلق بها، وإنما التعلق برب الأسباب وموحدها.

إن التوكل فرض وهو شرط في الإيمان (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) [إبراهيم: 11]
وقال الله تعالى على لسان موسى (يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مؤمنين). [يونس: 84].

قوة الموحّد:

إن القلب الذي يوحد الله، يدين لله وحده، ولا يحني هامته لأحد سواه، ولا يطلب شيئاً من غيره، ولا يعتمد على أحد من خلقه، فالله وحده هو القوي عنده، والعباد كلهم ضعاف مهازيل، لا يملكون نفعاً ولا ضراً... والله وحده هو المانع المانع فلا حاجة به إلى أن يتوجه لأحد غيره وهو الغني والخلق كلهم فقراء.³⁶

أهمية التوحيد وأثره

التوحيد في الإسلام هو كل الإسلام، والقرآن كله يدور حول التوحيد، فأيات القرآن إما إخبار عن الله وصفاته وخلقته وأفعاله وتدييره، وإما أمر ونهي وهي من لوازم ربوبيته وقيوميته على خلقه، وإما بيان للثواب بأنواعه وهو جزاء من أطاعه واتبع رسله الذين أرسلهم بشريعته القائمة على توحيدهِ في الألوهية والربوبية، وأما بيان للعقاب بأنواعه وأما إخبار عن أحوال المكذبين الماضين، وهو بيان لمن خرج عن مقتضى توحيدهِ.

فالتوحيد هو لب الإسلام، وأساسه ومنه تثبت سائر نظمه وأحكامه وأوامره ومناهجه وكل ما فيه عبادات وأحكام يرسخه ويقويه ويثبته في قلوب المؤمنين.³⁷

وكم للتوحيد من أثر في مسيرة المؤمن إنه مجموع الطاقة، ثابت القدم، واثق الخطى.
إن القلب المؤمن بحقيقة التوحيد هو القلب الذي يقطع الرحلة على هذه الأرض على هدى، لأن بصره أبداً معلق بنجم واحد على الأفق، فلا يلتوي به الطريق ولأنه يعرف مصدراً واحداً للحياة والقوة والرزق، ومصدراً واحداً للنفع والضرر ومصدراً واحداً للمنع والمنع، فتستقيم خطاه إلى هذا المصدر الواحد يستمد منه وحده، ويعلق يديه بجبل واحد يشد عروته، ويطمئن اتجاهه إلى هدف واحد لا يزوغ عنه بصره، ويخدم سيدياً واحداً يعرف ماذا يرضيه فيفعله وماذا يغضبه فيتقيه. وبذلك تتجمع طاقته كذلك وتتوحد، فينتج بكل طاقته وجهده وهو ثابت القدمين على الأرض متطلع إلى اله واحد في السماء.³⁸

استغراق التوحيد للحياة كلها

إن توحيد الله وإخلاص الدين له يعدّ منهج حياة متكامل، يبدأ من تصور وإعتقاد في الضمير، وينتهي إلى نظام يشمل حياة الفرد والجماعة، بل يجسّد كل علاقة مع كائنات الله تعالى.

إن التوحيد في هذه الصورة عقيدة للضمير وتفسير للوجود ومنهج للحياة، وليس كلمة تقال باللسان أو حتى صورة تستقر في الضمير، إنما هو الأمر كله والدين كله، وما بعده من تفصيلات إنما هو ثمرة طبيعية لإستقرار هذه الحقيقة في القلوب.³⁹

إن عبودية الإنسان لله تعالى تتكون من جانبين : واقع حتمي يخضع له وينطبع به الناس جميعاً، وسلوك اختياري يمتاز به الذين عرفوا الله فأمنوا به وخضعوا لسلطانه وتعاليمه، والمطلوب من الإنسان ان يجعل سلوكه الاختياري منسجماً مع واقعه الاضطراري، يسير في حياته سيرة العبيد لا سيرة الجبابرة⁴⁰ ، إنه سلوك المؤمن الموحد الأنموذج المرتكز على التوحيد.

التحرر الكامل :

العبودية لله وحده والإيمان به وحده تعني التحرر من التبعية لكل من سواه وما سواه، فلا خضوع لمخلوق في الأرض أو في السماء .

والعبودية لله وحده تعني الانقياد لحكمه سبحانه مع رضا النفس وتسليم القلب دون أدنى حرج أو ارتياب... لثقتة بتدبير الله وبرحمته. والموحد هو الذي عرف للعبودية حقها... لم يرض غير الله رباً ولم يتبع غير الله حكماً...⁴¹

(قل إنني هدايني ربي الى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين، قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، قل أغير الله ابغي ربا وهو رب كل شيء) [الأنعام : 162]

وبسر التوحيد تبدى جملة من الحقائق الخافية في حياة الإنسان الأنموذج.

إن الأستاذ النورسي يظهر لنا بدقة ما يُحدثه التوحيد في الإنسان حتى يشكل محوراً للكاملات الإنسانية بحق.

ويظهر سرّ التوحيد في تميّز الإنسان حين يُكسبه كمالاً لا يجاريه فيه أحد من الكائنات.

كما يظهر بتحقيق رغبة الإنسان في خلود لا نهاية له في الآخرة. ومن خلال استثماره العقل في كشف الكنوز وحل الرموز....

نعم. سر التوحيد يبدو في كل ناحية من نواحي حياة المؤمن، في فكره وشعوره.. حتى في نظرته إلى الموت.
وها أنا أورد فصلاً نفيساً حرره التورسي :

أثر سر التوحيد على حياة الإنسان وحركته سر التوحيد والكمال العظيم :

" إن الإنسان بسرّ التوحيد صاحب كمال عظيم بين جميع المخلوقات وهو أئمن ثمرات الكون، وألطف المخلوقات وأكملها، وأسعد ذوي الحياة، ومخاطبُ رب العالمين، وأهل ليكون خليله ومحبوبه حتى إن جميع المزايا الإنسانية وجميع مقاصد الإنسان العليا مرتبطة بالتوحيد وتتحقق بسر التوحيد.

فلولا التوحيد لأصبح الإنسان أشقى المخلوقات وأدنى الموجودات وأضعف الحيوانات وأشدّ ذوي المشاعر حزناً وأكثرهم عذاباً وألماً، ذلك لأن الإنسان يحمل عجزاً غير متناه، وله أعداء لا نهاية لهم، وينطوي على فقر دائم لا حدود له وحاجات لا حدود لها، ومع هذا فإن ماهيته مجهزة بالآات ومشاعر متنوعة وكثيرة الى درجة يستطيع أن يستشعر بها مائة ألف نوع من الآلام وينشد مئات الآلاف من أنواع اللذائذ، فضلاً عن أن له من المقاصد والرغبات ما لا يمكن تليبيتها إلا من قبل من ينفذ حكمه في الكون بأسره.⁴²

سر التوحيد ورغبة البقاء :

فمثلاً في الإنسان رغبة ملحة شديدة للبقاء، فلا يحقق له هذه الرغبة إلا من يتصرف في الكون كله بسهولة مطلقة يفتح باب دار الآخرة بعد أن يسد باب دار الدنيا كفتح باب منزل وغلق آخر.. وكذا فإن جميع أجهزة الإنسان ومشاعره تأخذ مكانة رفيعة بسر التوحيد في حين تسقط الى هاوية سحيقة بالكفر والشرك.

العقل وسر التوحيد :

العقل الذي هو أفضل أجهزة الإنسان وأرقاها إن أستعمل بسر التوحيد فإنه يصبح مفتاحاً ثميناً بحيث يفتح الكنوز الإلهية السامية، وألوفاً من خزائن الكون بينما، إذا تحبط ذلك العقل في وحل الضلالة والكفر فإنه آلة تعذيب ووسيلة إزعاج بما يجمع من آلام الماضي الحزينة ومخاوف المستقبل الرهيبة.

الشفقة وسر التوحيد :

الشفقة والحنان وهي ألطف سجية من سجايا الإنسان وأحلاها إن لم يسعفها سر التوحيد تتحول إلى ألم الحرقه وعذاب الفراق وجرح العطف، فتتحول إلى مصيبة كبرى تُدوي بالإنسان إلى درك الشقاء، نعم، إن الوالدة الغافلة عن الله والفاقة لوحيدها إلى الأبد تستشعر هذه الحرقه شعوراً كاملاً.⁴³

سر التوحيد والحبة :

ومثلاً : الحبة التي هي ألد شعور في الإنسان وأطيبه وأسماه، إذا ما أعانها سر التوحيد يجعل الإنسان الصغير واسعاً سعة الكون وعظيماً وكبيراً كبره حتى يجعله سلطاناً محبوباً على المخلوقات كافة.

بينما الحبة نفسها إذا ما تردت إلى الشرك والكفر والعياذ بالله، فإنها تنقلب إلى مصيبة عظيمة بحيث تمزق قلب الإنسان الضعيف كل حين وأن بفراق أحبته غير المعدودين فراقاً أبدياً يحوهم الزوال والفناء دائماً..

فإذا ما قسمت مئات أجهزة الإنسان ومشاعره على هذه الأمثلة الثلاثة تدرك عندئذ إلى أي مدى يكون التوحيد محوراً للكلمات الإنسانية.⁴⁴

سر التوحيد والموت :

حتى نظرة الإنسان - النموذج القائم على التوحيد والإيمان - للموت تأخذ طابع التجديد واستكمال المسيرة.. نحو نهاية خالدة، يقول النورسي :

" فرأيت كأن الأشياء المضرة التي لا تحد تنقض عليّ إنقضاضاً فأغاثتني سر التوحيد من حالتي التي كنت فيها، ورفع الستار من أمام بصيرتي وأراني حقيقة هذه الجهات، فنظرت إلى وجه الموت المخيف، ورأيت أن الموت لأهل الإيمان تسريح من الوظيفة والأجل هو بطاقته.

فالموت إذن تبديل مكان، ومقدمة لحياة باقية، وباب إليها، وهو إنطلاق من سجن الدنيا إلى بساتين الآخرة، وهو إنتظار زمن طويل إلى ديوان الرحمن لإستلام أجره العمل، وهو دعوة إلى دار السعادة، ولما فهمت حقيقة الموت أحببته.

ثم نظرت إلى الزوال والفناء ورأيت أن زوال الأشياء إنما هو تجديد لها ولأمثالها فهو تجديد ممتع ملذ.

لذا علمت يقيناً أن زوال الأشياء وفناءها إنما هو تجديد للتجليات الجميلة للأسماء الحسنی وهو مظاهر حكيمة مجال الربوبية "

نعم. الموت إنتقال من حياة الى حياة، إنطلاق من قفص الجسد، إن الله لا يسلب نعمة إلا وهو يعطي نعمة أكبر منها. قال يحيى بن معاذ : لا يكره الموت إلا مريب، فهو الذي يقرب الحبيب من الحبيب.

إذن بسر التوحيد تتحقق النورانية لكل الجهات يقول الثورسي :
" ثم نظرت إلى الجهات الست ورأيت أنها نورانية بسر التوحيد، بل نورانية إلي حد يكاد سنا نورها يخطف بالأبصار... " ⁴⁵.

التجدد الدائم

الإنسان الأتمودج المرتكز على التوحيد لا يصيبه سأم ولا ملل هو بحاجة الى التجدد والتجديد، عالمه متجدد دائماً ومن ثم فلا بد له من تجديد إيمانه :
إن الإنسان مثلما يتعدّد ويتجدّد فإن العالم الذي يسكنه سيّار لا يبقى على حال فهو في تنوع.

الإيمان نور لحياة كل فرد من أفراد ذلك الشخص من جهة، كما أنه ضياء للعوالم التي يدخلها، وما لا اله إلا الله إلا مفتاح يفتح ذلك النور، ثم إن الإنسان تتحكم فيه النفس والهوى والوهم والشياطين..

لذا فهناك حاجة الى تجديد الإيمان في كل وقت. ⁴⁶

إن مثل الإنسان الأتمودج هذا مثل من تعلق بجسده أدران وأوساخ فيعتاد غسلها والتنظف منها، بالانغماس مراراً كل يوم في نهر عذب جار، أو كمثل من يتحتم عليه المضي دوماً في نفق مظلم فهو بحاجة الى النور الدائم الذي يغذي دائماً ويزداد سطوعاً كلما شحنه بشحنات كهربائية عالية كيما يبدد ما في النفق من ظلمات.

وثمة فرق شاسع بين ظلمات الضلال ونور الإيمان، بين الأعمى المتخبط بعماه في الظلمة، والبصير المهتدي الى هدفه وما يصبوا إليه القلب المؤمن بحقيقة التوحيد.

الموحد راض وقوي

إن المؤمن الموحد راض عن نفسه وعن وجوده، فله أهميته ومكانته، وراض عن ربه لأنه آمن بكماله وجماله، وعدله ورحمته....

فما به من نعمة فمن الله، وما أصابه من حسنة فمن الله، وما أصابه من سيئة فمن نفسه يردد دائماً الثناء على الله تعالى.

(الذي خلقني فهو يهدين، والذي هو يطعمني ويسقين، وإذا مرضت فهو يشفين، والذي يميتني ثم يحيين، والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) [الشعراء: 78-82].

ويوقن أن تدبير الله أفضل من تدبيره لنفسه، ورحمته تعالى به أعظم من رحمة أبيه به.⁴⁷

إن الموحد صحيح القلب قوي يستمد قوته باتصاله بمصدر القوة والرحمة والاعتدال، وتأمل كلمات النورسي في ذلك حين يقول للمؤمن :
" إن كانت إرادتك وإختيارك جزئية، ففوض أمرك لإرادة مولاك الكلية، وإن كان إقتدارك ضعيفاً فاعتمد قدرة القادر المطلق، وإن كانت حياتك فانية وقصيرة ففكر بالحياة الباقية الأبدية...."

وإن كان فكرك خافتاً فادخل تحت نور شمس القرآن وانظر بنور الإيمان كي تمنحك كل آية من الآيات القرآنية نوراً كالنجوم المتألقة الساطعة بدلاً من ضوء فكرك الباهت، وإن كانت آمال وألام غير محدودة فإن ثواباً لا نهاية له ورحمة لا حد لها ينتظرانك، وإن كانت لك غايات ومقاصد لا تحد فلا تقلق متفكراً بما فهي لا تُحصر في هذه الدنيا، بل مواضعها ديار أخرى ومانحها جواد كريم".⁴⁸

معية الله والأمن للموحد

المؤمن لا يعتره مرض الشعور بالوحدة المقلقة، هذا المرض الذي يقول الأطباء إنه من أهم العوامل الأساسية للاضطرابات العقلية، إن اعتقاد الموحد بمعية الله تعالى له يقضي على هذا المرض حين يقرأ الحديث القدسي :
(أنا عند ظن عبدي وأنا معه إذا ذكرني).

وقوله تعالى : (فلا تمنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم). [محمد: 35]

إن شعور الموحد بمعية الله وصحبته دائماً، تجعله في أنس دائم بربه ونعيم موصول بقربه.⁴⁹

إن الموحد يتحرر من سيطرة الآخرين لعلمه أن الله تعالى معه، ومن كان الله معه فلا يهون ولا يجزن ولا يضعف، هذه العقيدة تغرس قناعات أكيدة في أن النافع والضار والحى والمميت هو الله تعالى، وبهذا يتحرر الإنسان من الخرافات والأوهام، وتمنعه عن كل ما فيه استعانة بغير الله ولجوء إلى سواه، وتدبر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس :

"إحفظ الله يحفظك، إحفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله وإذا إستعنت فاستعن بالله...".

والمؤمن الموحد لا يعرف الخوف هو آمن بكل معاني الأمن بمقتضى وعد الله تعالى له حين قال (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) [الإنعام : 82].

آمنٌ في الآخرة من المصير المظلم، وآمنٌ في الدنيا من الضلال فهو على هدى من ربه، وآمنٌ من الموت لأنه يعلم حقيقة الموت وأنه النقلة إلى دار الخلود، وآمنٌ على رزقه فالأرزاق في ضمان الله الذي لا يُخلف وعده ولا يضيع عبده (إن الله هو الرازق ذو القوة المتين) [الذاريات : 58] (وفي السماء رزقكم وما توعدون) ... [الذاريات : 22] والموحد آمن على أجله لأن خالقه ضرب له أجلاً لا يتقدم ولا يتأخر، ولا تملك قوة في الأرض أن تُنقص منه دقيقة. (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون). [الأعراف : 34]. إن هذا الأمن على الرزق والأجل منح المؤمن السكينة والطمأنينة كما منحه القوة في مواجهة الحياة بما فيها من طغيان وجبروت.⁵⁰

الارتفاع لا السقوط

إن الموحد يخلق في أفق الإيمان، يرتفع به إيمانه وعمله الصالح الى أعلا عليين ويبين له الدلائل القاطعة ويسط أمامه البراهين الدامغة، ويردم الأغوار العميقة بمراتب رقي معنوي وبأجهزة تكامل روحي.⁵¹

انه بذلك يملك القاعدة الإيمانية الراسخة، قاعدة التوحيد، ويملك المستقر الآمن يشوب إليه، ويمسك بالعروة الوثقى التي تنجيه من المهالك والفتن، وهذا عكس المشرك الذي لا يملك شيئاً من ذلك، وما أعظم وأصدق دلالة القرآن على ذلك، حين يقول الله تعالى في حق المشرك (ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق). [الحج : 31].

أنه مشهد الهوى من شاهر، هي صورة صادقة لحال من يشرك بالله فيهوي من أفق الإيمان السامق، إلى حيث الفناء والانطواء، فيفقد كل ما من شأنه أن يؤمنه فتخطفه الأهواء تخطف الجوارح وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرياح.⁵²

الإنسان الأمّودج

والرؤية للعقل والوحي

إن الإيمان بوجود إله واحد متفرد قوي مبدع صانع للكون كله متصف بصفات الجلال والجمال والكمال قرار منطقي ينسجم مع قواعد العقل الثابتة الصحيحة، ليس مطلوباً من المؤمن الموحد أن يتجاهل عقله أو فطرته، فالعقل يدفع باتجاه الاعتقاد بالوحدانية، ونداء الفطرة يصرخ عالياً "يا الله".

لكن هذه القناعة العقلية والاستجابة الفطرية تبقى بحاجة إلى العون، لأن الإنسان عقله وتصوره يوصف بالمحدودية فأنى له التجاوز؟ إنه ضعيف في حاجة إلى العون، ولا بدّ للعقل من أن يستعين بطاقة إضافية، بنور آخر يتمثل في "الوحي" الخبر الوارد عن الله تعالى الذي يجيب عن كثير من التساؤلات، ويفتح المغاليق، وينظم للإنسان جوانب الحياة العملية.

إن القضايا الغيبية تحتاج في معرفتها وفهمها إلى سند آخر مع العقل والحس، هذا السند أو المصدر هو الخبر الصادق، وليس إختيار هذا المصدر بمعزل عن العقل بل العقل هو الذي يختار ذلك ويؤكد عليه .

إن الذي يتساءل عن البلدة التي سيتوجه إليها القطار الذي يركبه، وعن المحطة الأخيرة التي تنتهي عندها رحلته لا بد أن يتوجه بتساؤله إلى القائد الذي يسوق القطار. والمؤمن الموحد يوقن أن قطار هذه الحياة، لا ينطلق بشكل عشوائي، وإنما هو رهن بقياده فاطر عليم حكيم.⁵³

فما دام العقل أوصل الإنسان إلى اليقين بصدق الخبر، فإن مقتضى ذلك، التسليم بالهدي الذي حمله الخبر الصادق.

وهذا المنهج والنظام الذي حمله الوحي للإنسان، إنما هو النظام الصالح المصلح الشامل الكامل هو نور هاد للإنسان، بعد أن يصل به العقل إلى حدّ معين

(قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من أتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم). [المائدة : 15-16]

(فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى). [طه : 123]

إن الإنسان الأنموذج المرتكز على التوحيد، المهتدي بنور الوحي، يولي العقل أعلا درجات العناية في الفهم والدراية لنصوص الوحي، هذا العقل الذي شهد من قبل بأهمية برهان الوحي وحكم بصدقه.

إن العقل الإنساني هو مرآة وجود الله⁵⁴ ووحدايته، ولا بد لهذه المرآة أن تبقى صافية، ليشرق عليها باستمرار هذا الوجود الرباني، وينعم بسر الوحداية بما لها من آثار ونعم تغمر الإنسان الموكل إليه أداء مهمة جليلة عظيمة هي العبودية لخالق الكون كله، (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون).

البديل

ما أجدر البشرية اليوم وهي تعاني الشقاء والويلات على الرغم مما حققته من مكاسب مادية وقفزات حضارية - ما أجدرها وهي تبحث عن السعادة المفقودة لدى الإنسان المتحضّر المرفّه - أن تنظر في النموذج الفريد في الإنسان المؤمن الموحد. الإنسان الذي بإيمانه يستجلب السعادة الأبدية يحقق سلام النفس، يغنم ويسلم، ينجح وينجو ويفلح .

" إن الإيمان هو أعظم رأس مال الإنسان، إذ لا يملكه مزرعةً فانيةً... بل يملكه الكون العظيم، ويجعله لائقاً ليظفر بملك واسع باق أوسع من الدنيا ". " إن مفعول الإيمان لا يقتصر على عمارة الدنيا بأحسن ما تكون العمارة، بل يتخطى ذلك حين يوجد للإنسان حياةً أبديةً خالدةً، فينقذه من النهاية المرعبة، والإعدام الأبدى فاتحاً له خزائن السعادة السرمدية".⁵⁵

ومتى أستقر هذا التصور في القلب ومَلَك عليه الوجدان، فإنه يسعى في تنفيذ الأوامر الربانية المتمثلة في "الهدى النوراني" في كافة جوانب الحياة العملية، عندها فقط يكون النموذج المرتكز على التوحيد هو مصدر السعادة وهو القمين بالقيادة وتولي مهام الخلافة بحق.

الخاتمة

وبعد،

فإن الإنسان الذي ينطلق من الإقرار بكلمة التوحيد، والالتزام بمقتضاها حتى تغدو "لا إله إلا الله محمد رسول الله" منهجاً لحياته وسلوكه، وهذا الإنسان هو النموذج الفريد لحياته صورة فريدة، وحقيقة فريدة، وسعادة كاملة فريدة؛ صورة حياته كلمة حكيمة مكتوبة بقلم القدرة الإلهية، يوقن بسرّ النفخة الروحية فيه، ويعمل جاهداً للعمل بمتطلبات هذه النفخة من ارتفاع وعلو وتخليق وسمو.

لقد حدّد التورسي غايات حياة الإنسان المؤمن تحديداً جلياً وبيّن أن السعي لبلوغ هذه الغايات يجعل الإنسان النموذج الفريد لتجليات أسماء الله وصفاته، بل يجعله مجمع النور الرباني.

إن الإنسان المؤمن بانطلاقه من التوحيد الحق يحقق الحياة الخالدة، وينعم بسعادة الدنيا إذا أحسن استخدام ما سلّحه الله به من أجهزة المعرفة وسبل الهداية. إن وظيفة الإنسان المؤمن، إنما هي المعرفة بالله واللجوء إليه واللوازم به، والاستزادة من العلم بأسمائه وصفاته.

إن حياة الإنسان الأمّوذج الموحد هي ترجمة صادقة رائعة للأسماء الحسنى المشهودة والمسموعة، وإن سعادة المؤمن تتحقق بتمامها وكما لها حين يُحسن فهم الأسماء الحسنى ويدركها وقيم سلوكه وفقها.

إن القلب المؤمن الموحد ليشعر بمذاق خاص للأمر لا يتذوقه غير المؤمن. المؤمن الموصول بالله يسلم من الاضطراب والتنازع وهو أهل للخطاب الإلهي. أعطى النورسي مفهوماً واضحاً للتوكل وبين تأثيره على سلوك الموحد من حيث تحديه للكائنات كلها بإسناده إلى التوكل.

أظهر النورسي "سرّ التوحيد"، وبرهن على أن التوحيد محوراً للكاملات الإنسانية. إن الإنسان المؤمن راضٍ كل الرضى، لأنه يفوض أمره إلى الله تعالى قوي لأنه يستمد قوته من التوحيد، يأنس بمعية الله ويوقن بنصره وتأيدته.

إن تحقيق "السلام" بمفهومه الحقيقي في النفوس والواقع والمجتمعات، مرهون بهذا الإنسان الأمّوذج المرتكز على التوحيد المؤمن على أمن البشرية كلها.

الهوامش:

- 1 المصباح المنير (30/1-31) القاموس المحيط (205/2) ، لسان العرب (6/12).
- 2 عبد العزيز ، أمير ، حقوق الإنسان في الإسلام (17) .
- 3 النورسي ، بدیع الزمان ، الكلمات (1/410).
- 4 النورسي ، بدیع الزمان ، الكلمات ، (1/410 - 411).
- 5 النورسي ، بدیع الزمان ، المكتوبات (2/304 - 305).
- 6 النورسي ، الكلمات (1/137).
- 7 النورسي ، بدیع الزمان ، الكلمات ، (1/139)
- 8 النورسي ، الكلمات ، (1/138) .
- 9 ابن القيم ، التفسير القيم - 389 - .
- 10 النورسي ، الكلمات ، (1/362-363) .
- 11 النورسي ، الكلمات (1/363) .
- 12 النورسي ، الكلمات (1/761-762) .
- 13 الميداني ، عبد الرحمن ، العقيدة الإسلامية وأسسها - 181 - .
- 14 النورسي ، الكلمات ، (1/354) .
- 15 النورسي ، الكلمات ، (1/139) .
- 16 النورسي ، الكلمات (1/762) .
- 17 النورسي ، المكتوبات (2/530) .
- 18 النورسي ، المكتوبات (2/305).
- 19 اخرج البخاري (2736) ومسلم (2677) .

- 20 البخاري , دعوات , رقم الحديث (6410) , مسلم , الذكر والدعاء حديث رقم (6809) .
- 21 الترمذي , دعوات , رقم (3507) .
- 22 مسند أحمد (391/1) .
- 23 الميداني , عبد الرحمن , العقيدة الإسلامية وأسسها (173-174) .
- 24 الميداني , عبد الرحمن , العقيدة الإسلامية - 236 - .
- 25 البوطي , محمد سعيد , مدخل إلى فهم الجذور - 89 - .
- 26 الميداني , عبد الرحمن , العقيدة الإسلامية وأسسها (220) .
- 27 ابن القيم , مدارج السالكين .
- 28 النورسي , الكلمات , (184/4) .
- 29 أخرجه مسلم (ج5/ص229) .
- 30 النورسي , الكلمات , (348-349/1) .
- 31 النورسي , الكلمات , (350/1) .
- 32 النورسي , الكلمات , (350 / 1) .
- 33 النورسي , الكلمات , (354-352/1) .
- 34 النورسي , الكلمات (759/1) .
- 35 النورسي , الكلمات , (760/1) .
- 36 سيد , في ظلال القرآن (119/7) .
- 37 زيدان , عبد الكريم , أصول الدعوة (23) .
- 38 سيد , في ظلال القرآن , (138/7) .
- 39 سيد , في ظلال القرآن (704/8) .
- 40 البوطي , مدخل إلى فهم الجذور (88) .
- 41 القرضاوي , يوسف , الإيمان والحياة (112-11) .
- 42 النورسي , الشعاعات (18/4) .
- 43 المصدر السابق (19/4) .
- 44 النورسي , الشعاعات (20/4) .
- 45 النورسي , الشعاعات , (21-20/4) .
- 46 النورسي , الكلمات (428/2) .
- 47 القرضاوي , يوسف , الإيمان والحياة (128) .
- 48 النورسي , الكلمات (761/1) .
- 49 القرضاوي , يوسف , الإيمان والحياة (117) .
- 50 الإيمان والحياة للقرضاوي (151) .
- 51 النورسي , الكلمات (762/1) .
- 52 سيد , في ظلال القرآن (598-597/5) .
- 53 البوطي , مدخل إلى فهم الجذور (50) .
- 54 البوطي , مدخل لفهم الجذور (88) .
- 55 النورسي , الشعاعات (181/4) .

ضرب الأمثال والمجاز في كتابات سعيد النورسي

أ. د. جين سمث^١

يتميز النورسي باستخدامه كلا من القلب والعقل والخيال والفكر في كتاباته. وتعد هذه الميزة، أي قدرته على التعبير بكلمات صريحة ولكن ثرية من حيث قوتها الرمزية والدلالية، من العوامل التي أدامت أثره طوال القرن العشرين إلى يومنا هذا، بحيث مازال يعتبر من كبار دعاة الإسلام ومفسري القرآن. فالذي يقرأ رسائل النور يحس بنار الشوق التي تحرق في قلب النورسي، ويفهم تعليماته، ويتذوق الحقيقة مثله من خلال تصويرات وعبارات حية بل ودهاشة أحيانا. ولما كان النورسي مفسرا للقرآن فهو بطبيعة الحال يريد أن يبين أغمض المسائل القرآنية إلى أبسط الناس، فأصبحت الرسائل تزخر بشتى أنواع التمثيل و المجاز والحكايات التمثيلية.

تقول مترجمة حياة النورسي، السيدة شكران واحدة " إن هذه التمثيلات تجلب وتشد أنظار القراء، كما أنها في الوقت نفسه تيسر لهم فهم أمور لم تكن لتستسغيها عقولهم. وهذه الميزة سبب هام في انتشار رسائل النور وانتصارها المتتالية في حقل الدعوة "

تعتبر التمثيلات والصور التي يرسمها النورسي وهو يصف الحياة والموت والقبر وما بعده في نظرنا من أقوى وجوه التمثيل والتشبيه التي يمكن للقارئ أن يعثر عليها في الرسائل. بيد أن كلمة " يصف " في هذا المقام لا تعكس تعاليم النورسي حول هذه القضايا المصيرية كما ينبغي. ذلك أن همّ النورسي ليس هو وصف الموت أو البرزخ أو القيامة على الطراز الذي نجده في الكتب الإسلامية التي تناولت هذه المواضيع سواء كانت القديمة منها أم الحديثة. ولا هو يكثر بأن يصف لنا أحوال الحشر والقيامة، تلك الأحداث الهائلة التي يكرر ذكرها القرآن، كما هي موصوفة في كتاب الله، رغم أن ذلك الكتاب كان سلوانه الوحيد، لم يتخذ أستاذا غيره ولم يعتمد في برهانه على شيء

^١ استاذة في جامعة هارفورد بأمریکا.

ما عدا آياته. كان دأبه في الوصف دأب كتاب العصر الحديث الذين ركزوا على الأخلاق والإيمان، ولم يبالوا بتفاصيل وجزئيات أطوار الحياة والموت. لكن اعتماد النورسي في هذا الصدد على تمثيلات تشير إلى حالات روحية ونفسية، عوض أن تشير إلى حقائق خارجية جعله ينفرد بأسلوب يميزه عن معظم معاصريه. كانت ومازالت التشبيهات والتعابير المجازية إلى يومنا من الإجراءات المتبعة في الوعظ منذ قديم الزمان، والعهد القديم من الكتاب المقدس بما يحتوي عليه من ضرب الأمثال أحسن دليل على ذلك. فإذا كنا نريد أن نكشف عن سر قوة التمثيلات عند النورسي يجب علينا أن ندرك بأن النورسي إنما يتبين هذا الأسلوب لأغراض تعليمية، تهدف إلى الوعظ لا الوصف. وأكثر ما يهدف إليه هذا الوعظ هو: مقابلة الكفر بالإيمان ثم إظهار الفرق والتغاير بين تجربة الكافر وتجربة المؤمن في هذا الوجود.

قد يجد القارئ أن بعض هذه التشبيهات والتمثيلات تتكرر في مواقع كثيرة بينما يتكرر لا البعض الآخر إلا قليلا. والنورسي يعترف بأن تأليفاته كتبت بسرعة بحيث كانت ترد إلى قلبه " كاللمعات " لكننا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن حجم كليات رسائل النور ليس بضئيل وأن النورسي كان يكتب لمخاطبين شتى وفقا لاختلاف طبقاتهم ومستوياتهم، يتيسر لنا فهم سبب تكرار مباحث الموت والقبر في كتاباته.

ولم يكن للنورسي أن يختار الأسلوب ولا الظروف التي يكتب فيها، وهو يعترف بأن تأليفاته كتبت بسرعة، وأنها كانت ترد على قلبه كاللمعات الخاطفة. فلو أخذنا مثالا السرعة التي كتبت فيها رسالة المرضى، والظروف المزعجة التي كتبت فيها رسالة الشيوخ لما عاتب الواحد منا النورسي على هذه التكرارات. سبق أن قلنا بأن ما تميز به النورسي هو تمكنه من المقايسة الصائبة بين تجربة الكافر وتجربة المؤمن بحيث لا يصعب علينا أن نرى بوضوح الفرق والتباين في فكر النورسي بين الإنسان المؤمن والإنسان الذي لا يؤمن إلا قليلا، أو الذي يكاد سلوكه ينافي مقتضيات الإيمان والدين تماما. لذا قليلا جدا ما تراه يدع حظا لوجه التشابه بين الناس حين يصف الموت والقبر لأنه كان يؤمن إيمانا جازما بأن مفهومنا لتلك الحالتين يتفاوت ويتغاير حسب درجة اعتقادنا وإيماننا بالله وإخلاصنا له. ويجدر بنا أن نشير هنا بأن النورسي كان على وعي بمعضلات الحياة الدينية كما كان يدرك أسرارها، فهو بهذه المقايسات بين الإيمان وضده لا يصبر بأنه يسعنا أن نقسم المشاعر والنوايا الإنسانية إلى قبيح وحسن كما تقسم الغرفة بفواصل. إن النورسي يعترف بأن الأمر ليس بهذه البساطة إذ يعلمنا بأنه هو نفسه قد فشل في إقامة بعض تعاليم القرآن على الوجه المطلوب في مناسبات عديدة. بل وحتى وصل به

الأمر إلى أن يصف نفسه بالمذنب، المكفّن داخل قبره راجيا رحمة ربه. إن ما يجعلنا ننجذب إلى كتابات النورسي ليس هو التزامه وتعهده برسالاته فقط، بل محاورته نفسه فيها كأن إلحاحاتها تخصه هو بالدرجة الأولى. وفعلا أن الواحد منا وهو يقرأ للنورسي حين يتكلم عن تقدم سنه وعن الموت الذي ينتظره ليحسّ بأنه ينصت للنورسي وهو يخاطب نفسه. نعم، لقد كان النورسي يدرك بأن الموت بطبيعته شيء مرعب يذعر البشرية بأكملها، لذا لم يتقزز من أن يرشّح نفسه مع الذين يحتاجون إلى السلوان أمام وجه الموت المخيف و مع من هم في حاجة ماسة أن يقنعوا بوجهه الحسن الباعث على الأمل.

يزخر التراث الإسلامي بالكتب التي تبحث في أمور الآخرة والحشر. وكثير منها تلك التي تصف تفاصيل وجزئيات أطوار الموت وما بعد الموت إلى يوم الحشر، تبين فيها كيف أن كلا من تلك الأطوار يعكس نتائج ما قدمه شخصا ما وهو في الحياة من جهة، وتنبئ عما سيكون عليه ذلك الشخص يوم الحساب من جهة أخرى. يختلف النورسي عن هؤلاء في تصويره لهذه المسائل لأنه كان يؤمن بأن أطوار وأحوال الموت والقبر كما سبقنا وأن قلنا، تتعلق مباشرة بعقيدة الناس ودرجة قوة إيمانهم. فبينما هي تبدو مناظر مخيفة وموحشة، فإنها تبدو لصاحب الإيمان وكأنها جنان ترحب.

الحيوانات في تمثيلات النورسي:

قد يتعسر علينا أن نفرز التشبيهات والتعبيرات المجازية التي تدور حول مبحث الموت والحياة إلى أقسام وأصناف متباينة في كتابات النورسي، إلا أنه يمكن لقارئ رسائل النور أن يلاحظ فيما بينها بعض النقاط والمباحث المشتركة. من بين هؤلاء نذكر تلك التمثيلات التي تستخدم الحيوانات والوحوش والتي كثر استعمالها في كتاب "الكلمات". فعند حديثه حول طلسم الإيمان بالله وطلسم الإيمان بالآخرة في حكاية تمثيلية، يستخدم النورسي صورة الفرس: " نعم، إن الموت بهذا الطلسم القدسي يلبس صورة فرس مسخر... يخرج الإنسان المؤمن من سجن الدنيا إلى روضة الجنان، إلى روضة الرحمن ذي الجلال". وفي أماكن أخرى يشبه الموت بالأسد الذي ينقلب إلى حصان مسخر وإلى خادم مؤنس يتنقل به أهل الهداية. فرمز الفرس، تلك المطية الطيبة، صورة إيجابية بينما الأسد عكس ذلك. وهكذا يجد قارئ رسائل النور أن الحيوانات التي يستعملها النورسي لتصوير الموت والقبر تكون سلبية بادئ ذي بدء ثم تتحول حسب قلوب الأشخاص. فالكتب القديمة التي تناولت مبحث الموت واليوم الآخر وما إلى ذلك من أمور تراها في

أغلبيتها تصف القبر كمكان مظلم، موحش ، تملؤه الثعابين والعقارب أعد هكذا لمن لا إيمان له. والنورسي مع أنه يصّر بأن هذه المناظر المخيفة لن تبدو بهذا الشكل المرعب إلا في أعين الذي لا إيمان له، لا يغفل عن حقيقة الموت التي شغلت الفكر الديني طوال التاريخ ولا يحس بنفسه محميا من أهوالها، وهذه الميزة سمحت له بأن يتكلم فيها بصفة جد مؤثرة.

وكنموذج على الأسلوب التي اتسمت به كتب التراث التي تبحث في الموت وأطوارها اخترنا أن ندرج هنا فقرة من "كتاب الروح" الذي مازال موثوقا به في أوساط أهل السنة والجماعة، خاصة في المسائل التي تبحث في حياة الروح بعد موت الجسد. يقول ابن القيم الجوزية : "لما خلق الله الموت، أمر الملائكة الآخرين أن يقفوا جانبا وينظروا إليه... ومن شدة الدهشة التي أصابتهم لما رأوا ملك الموت باسطا جناحيه وهو يطير أغمي عليهم لمدة سنة". يرمز النورسي إلى الموت لا كمخلوق ذات أجنحة، ولكن كفاه غول أو مأوى وحوش، ذا مخالب وبرائن. ورمز النورسي إلى الموت بهذه الصورة السلبية، لا ينفي أنه كان يعتبرها فعلا كالولي الحميم، هذا لأن القرآن يحدد هذه المخاوف ويبين بكل وضوح "بأن هذه الرحلة البرزخية التي تبدو شاققة، ومرعبة في ظاهرها، هي في الحقيقة من أحمل وأروع وأشيق الرحلات". فصورة الثعبان الذي يستعملها النورسي ليرمز إلى الموت وإلى قبر، تنقلب إلى "باب مفتوح على مصراعيه من سجن الدنيا إلى بساتين الرحمة وبساتين البقاء". أما بالنسبة لأؤلئك الذين يعصون أوامر الله يصبح القبر وكأنه "سجن انفرادي، ضيقا، ضيق معدة الثعبان".

إن كلمة البرزخ التي نلاحظ استعمالها في رسائل النورهي في الحقيقة مفردة قرآنية. ومن المعاني التي تفيدها سورة 100: 23 من القرآن هو عدم إمكانية الموتى من الرجوع إلى الأرض لوجود حاجز برزخ بين عالمهم والأرض إلى يوم الحشر والحساب.

ومفهوم الحاجز لم يصبح يقصد به الحاجز المكاني فقط بل الزماني أيضا. فالكتب الحديثة بما فيها القديمة التي انصبت على هذا الموضوع تصرّ بأن البرزخ يدل على الزمان الذي يقضيه الأشخاص منذ دخولهم القبر إلى يوم الحشر والمكان الذين يقضون فيه ذلك الزمان. وللنورسي تفاصيل قليلة حول البرزخ، بيد أنه يؤكد أن البرزخ فرحة بالنسبة للمؤمن، ومعاناة بالنسبة لفاقد الإيمان.

وفي الحقيقة ليست التفاصيل التي نجدها حول البرزخ في كتب التراث بكثيرة، إذا ما قارناها بالحجم الذي تعطيه حول أحوال القبر وعذابه، معتمدة في ذلك على سور عديدة

من القرآن ، كان يتبناها علماء الكلام من باب الترغيب والترهيب ومن أجل إشعار الإنسان بأن لا سبيل له في التأثير على مستقبله وعقباه إلا من نافذة هذه الحياة. ولا شك أن النورسي لا ينكر هذا البعد بل يتوافق معه.

نجد في رسائل النور استخدام حيوانات أخرى للتمثيل عن أطوار الحياة والموت، لكنها لا ترمز مباشرة إلى الموت والقبر، وليست سلبية الصورة مثل ما هو الحال بالنسبة للوحوش أو الثعابين. كمثال نموذجي على هذا الصنف الأخير نشير إلى ما يلي . يقول النورسي في حق الذين يموتون وهم يؤدّون أوامر الله، أو الذين يموتون في ظروف مفاجئة بأن هؤلاء يشبهون الشاة التي تذبح يوم العيد، أو إلى البراق الذي تمطاه محمد (صلى الله عليه وسلم). فالشاة ترزق وجوداً جسدياً جزاء وفائها، وأما البراق فيروى أنه يصبح مطية المؤمن، يمتطيه ليعبر به على جسر الصراط يوم القيامة. بهذا التمثيل يفيد النورسي بأن الذي يموت وهو مراعى حقوق الله، سوف يجزى من خزينة الرحمن كما تجزى الحيوانات المأمورة والذبايح. وللنورسي في هذا السياق تصويرات وموازنات لطيفة بين الحشرات أيضاً. يقول النورسي عند مقارنته البراعة بالنحلة. "فهذه تعول على ضوءها الضئيل وهي تطير في ظلام ليل لا حد له والأخرى توكلت على ضوء الشمس في النهار فتري كل رفيقاً...". ومفاد هذا التمثيل أن الإنسان الذي يتوكل على نفسه المشؤومة متناسياً الله، يشبه حاله حال البراعة، وأن الذين يبذلون وجودهم الفاني في سبيل الله الذي خلق كل شيء فهؤلاء سوف يهتدون إلى النور الذي لا نهاية له.

التمثيلات بالسجن وحالات الإعدام:

من جملة التمثيلات التي ترمز إلى الموت والقبر ولو بطريقة غير مباشرة هي تلك التي ترمز إلى هذه الحقائق من خلال أحوال السجن التي يعيشها المرء المحكوم عليه بالإعدام. ومما لا شك فيه أن النورسي نظراً لدخوله السجن عدة مرات كان على دراية وإلمام بهذه الأحوال. إن جهاد النورسي من أجل تنوير تركيا بنور الإسلام، جعله يتصدى إلى الحكومة لأنه كان يرى بأن معارضة دين الإسلام والتخلي عنه معاملة قاسية لا تستحقها الأمة التركية. لقد عمل النورسي كل ما في وسعه لإقناع أصحاب الحكم بأنه لا سبيل لإنقاذ الشعب وتخليصه ما عدا سبيل القرآن وهديه، محتجاً أن تعلق الأمة التركية بالدين قديم وقوي لا يصح قطعه. وكان يدعوهم أن يحترموا على الأقل العلمانية التي تبناها، لأن العلمانية لا تتدخل في علاقات الفرد بربه إذ ليس هذا من شأنها أصلاً، فكيف إذا جعل العمل بالدين أمراً محظوراً؟ رغم هذه الإلتماسات، والدعوات للرجوع إلى الرشيد

والإنصاف فإن الحكومة آنذاك لم تستبعد أن يكون لتعاليم النورسي ونشاطاته، أبعاد سياسية تهدف إلى تحطيم النظام العلماني التركي. ومن جراء هذه الريب والشكوك، سجن كثيرا ووقف أمام المحاكم متهما بتلك التهم في مناسبات عديدة. كانت ظروف السجن التي عاشها النورسي في بعض الأحيان سيئة للغاية، فمرات حكم عليه بالسجن الإنفرادي في الوقت الذي كان يحتاج إلى من يعينه ومرات حكم عليه بالإعدام وهو ينتظر تنفيذ ذلك الحكم في زنزانته فريدا.

ونظرا لتجربة النورسي الطويلة في السجون وإلمامه بمشقاتها، تمكّن بقوة مخيلته أن يصور لنا بصفة جلية أحوال فاقد الإيمان في أخريات حياتهم. ويجدر بنا أن نشير هنا، بأن النورسي يستخدم بعض هذه الصور أو الرموز من أجل إظهار أوجه التباين بين هذا العالم الذي نحن فيه وعالم الآخرة. وهذا يحدث بالخصوص عند وصفه للعالم بالسجن في صورة ما إذا قارناها برحاب العالم الأخروي الواسع.

يقول النورسي أن المؤمن بنور إيمانه لا يرى الموت إعداما، بل يراه كمعبر إلى عالم الأنوار. وأما هذا العالم فبينما تراه براقا جذابا مشعشعا، ما هو في الحقيقة إلا سجننا عندما تقيسه بالعالم الذي ينتظرنا في الآخرة. وهذا التفريق ينبثق تماما من تعاليم القرآن، الذي يبلغ صراحة بأن الدنيا والآخرة شتان لا يستويان عند الله، فليس من إيمان المرء أن يستحب الدنيا عن الآخرة وإلا سوف يذوق وبال أمره لا شك.

يشبه النورسي الموت في مجلد المكتوبات "بالتسريح من ضيق سجن الدنيا المكدر والمضطرب". إن السجن في تأليفات النورسي يرمز إلى الدنيا الخلابة وإلى القبر أيضا. فالقبر ليس معبرا من سجن الدنيا الفانية إلى رحاب بساتين البقاء فحسب، بل هو كذلك سجن لأهل الضلالة. لذا تراه يقول "إن القبر سجن انفرادي أبدي (لأهل الضلالة) يعزلون فيه عن كل أحبائهم". ثم إنا نلاحظ في مواقع عديدة كيف أن النورسي يتكلم عن الموت والقبر مستعملا رمز المشانق. يؤكد النورسي لقراءه بأن أجل الموت مخفي لا يعلمه إلا الله مصداقا للآية 6:2، 7:34، 16:61 و20:129 من القرآن مضيفا بأن في خفاء هذا الأجل حكمة ورحمة، فلو اطلع الإنسان أو المجتمعات على ساعة الأجل لقضوا نصف حياتهم الأول في اللهو واللعب والنصف الثاني في خوف شديد، إذ يرون حينئذ أن كل لحظة تمر عليهم في هذه الدنيا، هي بمثابة خطوة نحو المشانق المنصوبة أمامهم، الشيء الذي يزيد من دون شك في حدة ألم الموت مئات الأضعاف. يصف النورسي الموت، والقبر في الشعاعات "بالمشانق المنصوبة لشنق الإنسان، وكل رفقاته وأقاربه". وفي اللمعات يوجه إنذارا شديدا لأولئك الذين يسميهم

بالفوضيين بأنهم سوف "يصعدون مشانق الموت والإعدام الأبدي" وسوف يرون كيف ستقلب ملذاتهم السريعة الزوال إلى آلام في دار الخلود. فبديهي إذا أن هذه التمثيلات السلبية تخص الذين لا إيمان لهم ونحن كنا قد رأينا كيف أن هذه الرموز نفسها تحمل معاني أخرى بالنسبة للمؤمنين. يقول النورسي للذين يشكون في الآخرة من أهل الضلالة (الشعاعات) "لقد أصبح المستقبل بسبب كفركم عدما مظلما مهجورا كالأرض القاحلة، فترون أنفسكم كالذين أتوا إلى هذا العالم ليقطع رأسهم بسيف الأجل ثم يقذفون أخيرا في حكم العدم".

لندرج الآن في هذا الصنف الذي تناول مباحث السجن والموت والعدم هذه الفقرة من "المكتوبات" يرمز فيها النورسي إلى موته بهذه العبارات القوية:

"يا أيها الأشقياء الذين يبيعون دينهم وحياتهم في سوق هذه الدنيا! إذا كنتم تريدون هذا فافعلوا لكن تخلّو عني، وإلا فإني سأسأل الله أن يجعل مماتي يخدم الدين أكثر من حياتي وأن يجعل موتي ينفجر على رؤوسكم كالقنبلة تشتتكم تشتيتا".

التصورات المكانية:

بينما يغلب على الرمز بالسجن والحيوانات الطابع السلبي، فإننا نجد بأن التمثيلات التي تستخدم المكان إيجابية لأنها تستعمل لإخطار أصحاب الإيمان بالمكان الذي ينتهي إليه سفرهم بعد مغادرة هذه الأرض وهذه الدنيا. فكثيرا ما يشبه الموت والقبور إلى تغيير عنوان أو تغيير سكن. ويشبه النورسي الموت في بعض الأحيان بالباب الذي يسمح للمؤمنين بالعبور من هذا الوجود إلى وجود آخر. وليؤكد النورسي على إيجابية الموت بالنسبة للمؤمنين تراه يصر في مختلف المواقع بأن الموت ليس إتلاف، أو عدم، أو لا وجود، أو زوال أو انقراض، أو فراق أبدي، ولا هو عمل الصدفة أو محو من دون إذن "الكاتب". بالعكس فما الموت إلا باب يفتح على عالم آخر، يسمح للمتوفي أن يلتقي مع تسع وتسعين بالمئة من أحبائه الموجودين هناك! فنور الإيمان الذي يجول وينفذ في كل أطراف الكون يجعل المؤمن يفتح أبواب الآخرة ويغلق باب الدنيا بنفس السهولة التي يفتح ويغلق بها أبواب بيته. فالموت إذا باب إلى عالم أحسن من هذه الدنيا "يطل على بساتين منورة".

ومما يكثر استخدامه في كتاب الكلمات هو صورة الجسر التي يستعملها النورسي ليرمز إلى الحياة وكذلك الموت. يذكّرنا تصويره للجسر بالصراط كما هو موصوف في الكتب التي بحثت في الموضوع، إذ يشبه الحياة بالجسر "إما ضيقا ومثيرا للمخاوف، وإما عريضا عرض الطريق". ومن هذين المنظورين المختلفين يصف لنا النورسي الموت والحياة

بتصويرات جد حية وجد مؤثرة.

من نعم الله التي لا تحصى هي تلك البشرية التي يزفها القرآن للمؤمنين في حق الموت، إذ يبين ذلك الكتاب الكريم أن الموت والأجل ما هما إلا جسر يمهّد السبيل إلى العالم الآخر، يعبر منه المؤمنون كي يجتمعوا مرة أخرى مع الأحباب. وإصرار النورسي على هذه النعمة، أي نعمة الاجتماع مع الأحباب والأقارب مشهورة في التراث وهي لا شك دليل على قوة هذه العلاقات بالنسبة للإنسان.

فكثيرا ما تجد في كتب التراث والكتب الحديثة التي بحثت هذه الأمور ما يفيد بأن الأموات عندما ينتقلون إلى العالم الآخر، سيلتقون هناك بأرواح الذين ماتوا من قبلهم، وأن هؤلاء سوف يسألونهم عن أخبار أفراد عائلاتهم الذين بقوا في الأرض.

يمكننا أن نعثر في الرسائل على مجموعة أخرى من الرموز المكانية، تتعلق بالأرض أو هذه الدنيا، يستخدمها النورسي ليعظ الذين بدأوا يخلدون إلى الأرض و نسوا بأن دار الدنيا عابرة ومعرضة للزوال في كل لحظة. يشبه النورسي حال الدنيا العابر والزائل إلى حركة الفصول: "وكأن هذا العالم، منزل مسافرين تسكنه الكائنات لبرهة من الزمن، يفرغونه بسرعة لكي يدعوا المجال لقافلة أخرى تنزل في محلهم، وهكذا دواليك الكل يأتي لأداء وظائفه ثم ينتقل إلى مكان آخر بمجرد انتهائها". ويشير النورسي إلى حقيقة الدنيا في مكان آخر، لما كان يشرح لنا تجربته في السجن: "هذه الدنيا كمثّل دار ضيافة مؤقتة أعدت للمسافرين، تملأ وتفرغ في كل حين"، فما وجه الأرض إذا "إلا كمنزل تتوقف فيه قوافل المسافرين لتبيت فيه ليلة قبل أن تستأنف سفرها الطويل".

وفي هذه المجموعة التي سميناها بالرموز المكانية، ندرج تصويرا عجبيا، حاول النورسي من خلاله وصف الإنسان في نظر سكان السموات (الملائكة). يقول النورسي أن الإنسان من هذا المنظور "كمسجد نقال، ودولاب غزل لخيوط الزمان، وكذا هو منزل عال. نعم! إن كل فرد من أفراد بني آدم ضوء منير، وسفينة عظيمة، ذلك أن كل واحد منهم معجزة من معجزات قدرة القدير ذو الجلال والكمال".

التمثيل بالوظيفة، والأجرة والمعاملات التجارية:

كثيرا ما يرمز النورسي إلى الموت بورقة تسريح أو إعفاء من خدمات الدنيا أو من جوانب الموت السلبية، ذلك أن الموت بالنسبة للمؤمنين، ومصدقا لما أتى به القرآن، تسريح من الخدمة وإعفاء من العدم الأبدي. يقول النورسي: "فما الموت إلا رخصة تسريح تسمح (للمؤمن) أن ينتقل من هذا العالم إلى قصور الرحمة في عالم الأبد". فكما أن الموت إعفاء من مسؤولية العبادة، كذلك هي تمثّل الآونة التي يحصل فيها المؤمنون

والمؤمنات على الأجرة والمكافأة جزاء العمل الصالح في دار الدنيا. والله هو الذي يجزي على هذه الأعمال لأنه صاحب "سفينة وجود كل شخص". يقول النورسي بأن السفينة ملك الله وأن وظيفة ومسؤولية الإنسان فيها تنحصر في توجيه دفة تلك السفينة فإن كان الإنسان قد أدى هذه الخدمة على وجه حسن، فسوف يمنح مقابل خدمته أجرة عالية وهدايا نفيسة من خزينة صاحب السفينة المعروف بكرمه وجوده.

وفي سياق التمثيل بالأجرة والمكافأة، يقول النورسي في المكتوبات "بأن القدير ذو الجلال يحفظ من الحبّ والتّوى صحائفها التي تسجل فيها أعمال هذا الربيع وصنيدقاتها التي تودع فيها خدماتها ريثما يأتي الربيع الآتي، فإذا جاء هذا ينشرها كرهة أخرى بصورة خارقة".

جاء هذا الطرز من التمثيل أيضا في اللمعات، وفي رسالة المرضى بوجه خاص. كان هدف النورسي في تلك الرسالة التخفيف من القلق والضجر الذي يصيب المرضى، ومساعدة هؤلاء على التحلّي بالصبر الجميل. فلكي يعرض عليهم الداء في صورة دواء وبشرى، شبه النورسي الحياة برأس المال الذي يمكن هدره بسرعة إن لم يستثمر. ثم أشار أن المرض في الحقيقة ما هو إلا وسيلة لحفظ هذا المال بل هو وسيلة ربح على رأس المال لما يعود بالحسنات على صاحبه الصابر.

ومن التمثيلات المالية البارزة، هي تلك التي يستخدم فيها النورسي لعبة قمار اليانصيب ليرمز أن ساعة الموت بالنسبة للمؤمن تشابه يوم تحصيل الربح وسحبه. يقول النورسي أن كل من اختار طريقا مستقيما في هذه الحياة، فكأنما سحب "تذكرة تساوي كنزا أبديا لا يفنى". ولو تمعنا كتاب الكلمات، خاصة الصغيرة منها لوجدنا أمثلة جد لطيفة لهذا الإستخدام، نورد منها على سبيل المثال الفقرة الآتية. يقول النورسي:

"إن باب القبر في أعين المؤمنين باب يفتح على كنوز وسعادة لا تفنى. وكيف لا وفي أيديهم قسيمة الإيمان، تلك التذكرة المسحوبة من قدر "يا نصيب" الأزلية، قيمتها قناطر من الذهب والماس. لذا ترى المؤمنون يتشوقون إلى سماع صوت المنادي: "تعالوا إسحبوا تذكرتكم" لأن في ذلك النداء إخطار بلذائذ غير هذه اللذات وانسراح للروح لا مثيل له. يجدر أن نشير هنا بأن النورسي رغم أنه لم يأت بمجاز اليانصيب من القرآن إلا أنه لم يخرج في استخدامه لهذا المجاز عن نطاق الكتاب العزيز وصلبه لدلالة هذا الرمز (اليانصيب) في كتابه على النعم الكثيرة التي أعدها الله للمؤمنين.

هناك تمثيلات أخرى عند النورسي يمكن تسميتها بالتمثيلات العسكرية. يقول النورسي في الشعاعات وهو يصف أحوال الحشر: "فمثلما ترى الجنود المحجوزين في

الثكنات يسرعون لأخذ أسلحتهم ومواقعهم حين يكلفهم القائد بالحضور الفوري كذلك بمجرد سماعهم البوق يحضر الأموات من ثكنات السموات والأرض كالعسكر طائعين، فيرتدون أزياء أجسادهم ثم يقفون صفا صفا أمام نظر ملك الأزل والأبد".

تمثيلات متنوعة:

ليس هناك أي مؤشّر أن النورسي اقترح يوماً أن تصنّف تمثيلاته وتعبيراته المجازية على الوجه الذي نحن نقوم به هنا، لكن لا يراودنا شك بأن هذه التمثيلات والتعبيرات المجازية توحي إلى تلك التجارب المختلفة التي مرّ بها النورسي في حياته الخاصة، سواء تعلق الأمر بالمرض، أو الموت، أو السجن أو الإهداء إلى الطريق المستقيم والفوز بالثمرات الخالدة. فليس كل أوجه التمثيل عند النورسي تدخل في التصنيفات التي أقمناها في هذه الورقة، لكنها كلها تجمل اللوحات الفنية التي يرسمها وتساعد القارئ على فهم براهيته. وعليه تجد في تمثيلات النورسي ما يتعلق بالحياة اليومية والأشياء أو الأدوات التي يستعملها الإنسان كل يوم. فمثلاً يرمز إلى بعض الحقائق بالمرأة.

خلق الإنسان، حسب قول النورسي، ليكون مرآة جامعة لتأدية عبودية كلية، ومادام هو موضع هذا الانعكاس فهو يتغير مئات آلاف المرات كما تتغير الصور المنعكسة في المرآة. وهذا الإنسان المرآتي لن يموت بإذن الله القيوم بل سيبقى بإذن الباقي الذي لا يرضى بزوال من كان موضوع انعكاس جماله طوال حياته. وعلى هذا عندما يرجع النورسي إلى موضوع الأقارب والأحباب الذين غادروا هذا العالم، يؤكد لقرائه بأنه لا فراق في الحقيقة بينهم وبين هؤلاء، لأن موتى المؤمنين رغم أنهم غادروا هذا العالم لا يفقدون مرآتهم تماماً، ولا يسلبهم الموت من قابليتهم انعكاس ذلك الجمال. ومن الأدوات اليومية الأخرى التي يستخدمها النورسي في تمثيلاته، الساعة الكبيرة أو ساعة اليد. فكما أن الساعة التي حول معصم اليد تبدو مستقرة، رغم أنها متحركة باعتبار عملية دواليبها وأجزائها المختلفة، كذلك العالم (الذي يسميه النورسي بساعة القدرة الربانية) في تحرك دائم "معرض للانقلاب، والتغير والزوال السريع في كل حين".

فعقارب الليل والنهار تعدان ثوابي تلك الساعة الكبرى، كما تعد عقارب السنوات دقائقها والعصور ساعاتها. بينما نجد أيضاً تمثيلات تستخدم أدوات ميكانيكية مألوفة بالنسبة لقراء النورسي ومعاصريه بالأخص.

يقول النورسي بأن لأموات المؤمنين بصيرة تسمح لهم بأن يتطلعوا على الجنان وهم في قبورهم كأنهم في حوزة منظار فلكي، وفي مكان آخر يضيف بأنه يمكن للمؤمنين أن

يشاهدوا هذه الجنان كالمترج على شاشة السينما، كل حسب استعداده وقابليته. وعندما أراد النورسي أن يكشف لنا عن تخوفاته من الموت، قال بأنه يرى المقبرة في بعض الأحيان وكأنها شاشة سينما يتحرك فيها أشباح الموتى. كانت حالة النورسي الصحية، بالإضافة إلى سنه المتقدم أمران يشغلان باله دوماً في أخريات عمره. يقول النورسي وهو يتأمل في حالة شيخوخته: "مثلما انقلب اليوم إلى هذا المزار المظلم، وارتدى العالم هذا اللباس الأسود، كذلك سوف ينقلب نهار دنياك ليلاً وسوف ينقلب نهار الدنيا إلى عالم الآخرة وينقلب صيف الحياة إلى شتاء الموت". يغلب على النورسي حينما يعبر عن سرعة زوال الدنيا استخدام الصور التي توحى إلى سرعة جريان الأنهار وفوران المياه ومن ثمة استعمال رمز الحباب، ذلك أن من خاصية هذا الأخير للمعان والعاكسية لنور الشمس وهو يجري على سطح النهر، ثم الزوال والإنطفاء الواحد تلو الآخر من أجل الإلتحاق بمن سبقه من جنسه وإفراغ المكان لمن يحل محله. فكما أن هذه الحالة تدل على شمس عالية دائمة، كذلك تعاقب الليل والنهار وسيلان الكائنات الدائم يدل على أزلية وسرمدية الباقي، الحي الذي لا يموت.

النوم والموت:

تكلم النورسي عن الموت مستخدماً حالة النوم كمجاز. شأنه في هذا شأن المفكرين المسلمين الذين انصبوا على هذا الموضوع لما رأوا من تجانس وتناسب بين تلك الحالتين. ولا شك أن السورة 42:39 والسورة 60:6 من القرآن كانتا الأساس الذي بنيت عليه هذه النظرة وهذا الإهتمام. وآراء المتكلمين والمفسرين لم تقتصر على القول بالتشابه والمماثلة بين حالة الموت والنوم بل ذهب بعضهم ليصر بعلاقة التطابق بينهما. ويجب أن ننبه هنا بأنه في الوقت الذي كان المفسرون الأولون يهتمون بهذه الآيات من أجل التدبير في الفروق وأوجه المماثلة بين النفس والروح التي تمثل الجانب غير المادي في بنية الإنسان، فإن المفسرين الأواخر اهتموا بالعلاقة بين الموت والنوم لما رأوا فيها من برهان على مجيء الحشر: لأن استيقاظنا من النوم (الموت الصغرى) يشير حسب هؤلاء إلى حقيقة استيقاظنا من سبات القبر يوم الحشر. علاوة على هذه الإهتمامات، فإننا نجد كتابات شعبية كثيرة تبحث في إمكانية المكاملة والمقابلة بين الأحياء والأموات. يمكن لقارئ رسائل النور أن يعثر على ما يشابه كل هذه التأملات حول الموت والنوم. يقول النورسي في "الكلمات" بأن وقت الدخول في النوم يشابه سكرات الموت الأخيرة وهو يمثل فرصة للإطلاع على نشاط النهار من زاوية أخرى، كما أنه يمثل فرصة لارتقاء

القيود التي تربطنا بالدنيا. "...إن الإنسان عند أدائه لصلاة العشاء... يلتجئ إلى باب من هو المعبود الذي لم يزل ومن هو المحبوب الذي لا يزال، مناجيا ذلك الباقي السرمدي في هذه الدنيا الفانية، وفي هذا العالم الفاني، وفي هذه الحياة المظلمة والمستقبل المظلم، لينشر على أرجاء دنياه النور من خلال صحبة خاطفة ومناجاة موقته، ولينور مستقبله ويضمّد جراح الزوال والفراق عما يجبه من أشياء وموجودات ومن أشخاص وأصدقاء وأحباب، بمشاهدة توجه رحمة الرحمن الرحيم، وطلب نور هدايته، فينسى -بدوره- تلك الدنيا التي أنسته، والتي اختفت وراء العشاء، فيسكب عبرات قلبه، ولوعة صدره، على عتبة باب تلك الرحمة، ليقوم بوظيفة عبوديته النهائية قبل الدخول فيما هو مجهول العاقبة، ولا يعرف ما يفعل به بعده، من نوم شبيه بالموت، وليختم دفتر أعماله اليومية بحسن الخاتمة".

وفي باب الحديث عن أوجه التأخي والتجانس بين الموت والنوم يقول النورسي في المكتوبات بأنه مثلما أن النوم راحة ورحمة كذلك الموت، الذي هو أخ النوم الكبير، رحمة وعناية خاصة لاؤلئك المصابين بالأمراض والبلايا الشديدة.

يلحق النورسي بالمتكلمين والمفسرين الذين رأوا في أوجه العلاقة بين الموت والنوم حجة على الحشر، إذ يقول بأنه يستحيل على الله الذي تفضّل على بني آدم بكل هذه الهدايا، أن يترك الإنسان سدى، نائما في قبره من دون أن يوقظه مرة أخرى.

"إنك لو تدبرت في الأشياء، في الليل والنهار، وفي الشتاء والصيف، والتقلبات والتغيرات في السماوات وحتى في تلك التي تحدث في شخصية الإنسان وفي جسده الذي يلبسه جديدا عدة مرات، ولو تأملت في النوم الذي يوحى إلى الموت، والإستيقاظ منه الذي يوحى إلى الحشر، لتيقنت أن كلا من هذه الأحوال يشير إلى حقيقة القيامة الكبرى". (بتصرف)

الخاتمة:

هكذا نكون قد عرضنا بعض التمثيلات وبعض أوجه المجاز التي استخدمها النورسي لينذر قرائه ويحذرهم من عدم التقاعس للإستيجاب إلى نداء الحق ونداء الإيمان ويأخذ بساعد الذين مشوا في الطريق المستقيم خاصة منهم المرضى أو الذين هم على باب الموت. وعليه فإن تمثيلات النورسي كما أشرنا إليه في بداية الورقة ليست "وصفا" بمعنى الكلمة بل وعظا ناجما من تجارب حدسية حول حقيقة الموت وما بعدها ونحن في الدنيا. لاحظنا أن هذه التمثيلات وهذه التعابير المجازية تستخدم كلا من الكائنات الحية، مثل الفرس، والأسد، والبراعة والنحل، والجمادات التي نجدها في كل بيت من البيوت، مثل

المرأة والباب والساعة. ووجدنا أن بعض هذه التمثيلات تعكس حياة النورسي الشخصية والحن التي مرت عليه. تأكد لنا هذا عندما بحثنا استخدامه لرمز المشنقة، والزنزانة، وسيف المنفذ لحكم الإعدام. كما عثرنا على تمثيلات من الحياة اليومية يسهل فهمها على الكل وهذه تتمثل في عبارة: سجل الأعمال، أوراق الإعفاء، منزل المسافرين، والجسر. ورغم أن جل هذه التمثيلات لا يطرأ عليها تأثير الزمان والمكان، إلا أن البعض منها وخاصة تلك التي تستخدم المنظار الفلكي، أو السينما، أو اليانصيب فإنها تعكس هذا العصر بشكل خاص.

ونخلص إلى أن هذه التمثيلات باختلاف أنواعها وأساليبها تجعلنا نشعر بقوة القضية التي اتخذها النورسي محورا لوعظه. نعم، إن الإنسان مسؤول عن اختياراته وبالتالي عن مصيره، فليس له في هذه الحياة وقت يضيعه بل يجب عليه أن يحول كل دقائق وساعات يومه للتحضير إلى يوم الرحيل من هذه الدنيا إلى عالم الآخرة ومن هذا المكان المؤقت إلى ذلك العالم الأبدى. لقد كان النورسي يجد الشفاء لكل العلل والسلوان لكل المهموم خاصة الموت في القرآن ورحابه، فكتب كثيرا من الرسائل من أجل أن يبلغ أصحاب الإيمان وأهل القرآن بالبشرى إذ كان يشاهد بنور إيمانه بأن الموت فوز للذين آمنوا وعملوا الصالحات.

ترجمة: رضا عامر

فصل المقال فيما بين فلسفة البشر وحكمة القرآن من الانفصال

عند الحكيم بديع الزمان

أ.د. طه عبد الرحمن

كلية الآداب - جامعة محمد الخامس - المغرب

نستهل هذا البحث باتخاذ إجراء اصطلاحي أساسي، وهو أن نخصص (من الآن فصاعداً) لفظ "الفلسفة" بالدلالة على المعرفة التي وضعها الإنسان من عنده، فنقول: "الفلسفة الإنسانية"، ولا نقول: "الفلسفة القرآنية"، كما نخصص لفظ "الحكمة" بالدلالة على المعرفة التي جاء بها الوحي من عند الله، فنقول: "الحكمة الإلهية"، ولا نقول: "الحكمة الفلسفية" أو "حكمة الفلاسفة"، ولا بالأولى نطلق اسم "علم الحكمة" على الفلسفة، ولا اسم "الحكماء" على الفلاسفة¹.

ولا يخفى أن هذا الإجراء الاصطلاحي يضاد كلياً نظيره الذي قام به ابن رشد، فقد خص كلمة "الحكمة" بإفادة معنى "الفلسفة" في مقابل "الشريعة" كما جاء ذلك في عنوان كتابه المعروف: **فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال**؛ ومن شأن تخصيص الفلسفة بالحكمة ومقابلتها بالشريعة أن يوهم بأن الحكمة اجتمعت كلها في الفلسفة وأن الشريعة ليس شيء فيها حكمة، بحيث ترد على هذا الإجراء شبهة التخليط أو التخليط؛ ولا دفع لهذه الشبهة إلا بتغيير عنوان هذا الكتاب بأحد الطريقتين: إما الاستبدال أو التقييد؛ والطريق الأول منهما يقوم في أن

¹ الشاهد على أن بديع الزمان يميل إلى مثل هذا التخصيص تقييده في أكثر من موضع اسم "الفلسفة" بوصف "البشرية" كما في قوله: "إن سعيداً القديم والمفكرين قد ارتضوا بقسم من دساتير الفلسفة البشرية"، **المكتوبات**، ص. 569؛ وأيضاً حرصه على الإشارة إلى أن إطلاق لفظ "الحكمة" على الفلسفة هو من عمل غيره - أي الفلاسفة - كما جاء ذلك في قوله: "أما ما يسمونه بعلم الحكمة، وهي الفلسفة، فقد غرقت في تزيينات حروف الموجودات وظلت مبهوتة أمام علاقات بعضها ببعض، حتى ضلت عن الحقيقة"، **الكلمات**، ص. 143؛ مما يشعر بأن ورود هذا الإطلاق في نصوصه هو من باب التساهل في الاستعمال ومجازة الغير، لا من باب صحة هذا الاستعمال أو الاقتناع به؛ (نشير هنا إلى أن تسويد الكلمات في النصوص المنقولة هو من فعلنا).

نضع لفظ "الفلسفة" مكان لفظ "الحكمة"، فنقول: **فصل المقال فيما بين الفلسفة والشريعة من الاتصال**، ولا سيما أن المصطلح الذي اختار ابن رشد أن يستعمله في أول كلامه في كتابه هذا هو لفظ "الفلسفة"، وليس لفظ "الحكمة"؛ والطريق الثاني يقوم في أن نخصص طرف الحكمة من طرفي هذه المقابلة بواسطة الإضافة، فنقول: **فصل المقال فيما بين حكمة الفلسفة وحكمة الشريعة من الاتصال** أو نخصصه بواسطة الإسناد، فنقول: **فصل المقال فيما بين الحكمة الفلسفية والحكمة الشرعية من الاتصال**.

وبعد هذا التوضيح الاصطلاحي الضروري، نتبع في عرض موقف بديع الزمان من العلاقة بين "الفلسفة" و"الحكمة" الطريق الذي يُؤثر هو نفسه اتباعه في بسط أفكاره وآرائه، لأننا نكون بذلك أقرب إلى فهم هذا الموقف مما لو نحن نتبع في ذلك طريقاً غيره من طرق العرض والإيضاح والتحليل المعلومة؛ وليس هذا الطريق المفضل لدى بديع الزمان إلا طريق التمثيل والتشبيه؛ فلنوضح إذن موقفه من هذه العلاقة بتشبيه تمثيلي مخصوص نتأوله ونتعرف من خلاله على الصفات التي يتميز بها هذا الموقف؛ وليكن هذا التشبيه كالتالي:

فكما أن "كوبيرنيك" أحدث انقلاباً في تصور العلاقة بين الأرض والشمس²، فكذلك بديع الزمان أحدث انقلاباً في تصور العلاقة بين الفلسفة والحكمة أو قل، على جهة التشبيه، بين أرض الفلسفة وشمس الحكمة؛ غير أن هذا الانقلاب الجديد أخذ مساراً معاكساً لانقلاب فكري آخر نُعت هو أيضاً بكونه "كوبيرنيكياً"، وهو بالذات الانقلاب الذي أحدثه "كانط" في تصور العلاقة بين الذات العارفة والموضوع المعروف³؛ فيتعين إذن أن نحدد خصوصية انقلاب بديع الزمان – هذه الخصوصية التي تثبت له معها الصفة "الكوبيرنيكية" وتتقني عنه الصفة "الكانطية" – كما يتعين تحديد نوع الإنسان الذي يتولد من هذا الانقلاب الفكري الجديد.

ومعلوم أن مفهوم "الانقلاب" أخص من مفهوم "التغيير"، إذ هو تغيير الشيء إلى ضده أو نقيضه، بحيث يكون الموقف من العلاقة بين الفلسفة والحكمة الذي

² "تيقولاوس كوبيرنيك" فلكي بولوني (1473-1543)، اشتهر ببرهنته على دوران الأرض على نفسها وحول الشمس، مبطلاً بذلك الرأي القديم الذي يجعل الأرض ثابتة والشمس دائبة الدوران حولها.

³ "إيمانويل كانط" فيلسوف ألماني (1724-1804)، أثبت دور الذات الفاعل في تشكيل المعرفة الإنسانية، مفنداً بذلك النظرية القديمة التي تجعل للموضوع الدور الفاعل في تشكيل هذه المعرفة.

انقلب إليه بديع الزمان مضادا للموقف الذي انقلب منه؛ فلننظر الآن في هذا الموقف المنقلب منه، حتى نتبين قدر التحول الذي سوف يطراً على فكر صاحبه.

1. بديع الزمان الفيلسوف والوصل بين الفلسفة والحكمة

يقر بديع الزمان بأنه اشتغل بالفلسفة مدة وتعلق بها تعلقه بالعلوم العقلية كما اشتغل وتعلق بها غيره من المفكرين⁴، بحيث يصح أن نعد هذه الفترة من حياته الفكرية فترة **تفلسف** صريح جعله يتخذ من العلاقة بين الفلسفة والحكمة نفس الموقف الذي اتخذه فلاسفة الإسلام من أمثال الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد⁵، وهو، على التعيين، موقف **الجمع** أو **الوصل** بينهما، بمعنى أن الفلسفة لا تخالف الحكمة، وإنما توافقها.

والواقع أننا إذا دققنا النظر في هذا الجمع – أو الوصل – وجدنا أنه يتخذ صورتين اثنتين: إحداهما، الصورة التي اشتهر بها الكندي والفارابي وابن سينا؛ والثانية، الصورة التي اشتهر بها أبو سليمان السجستاني وابن رشد؛ فلنبسط الكلام في هاتين الصورتين للوصل بين الفلسفة والحكمة.

1.1. جمع التداخل بين الفلسفة والحكمة: إن الصورة الأولى التي اتخذها الجمع بين الفلسفة والحكمة هو أنه عبارة عن **تداخل**، بمعنى أن الفلسفة والحكمة تدخل إحداهما في الأخرى، فما تقرره الحكمة تثبته الفلسفة وما تدعيه الفلسفة تؤيده الحكمة، بحيث تنزلان منزلة **الأختين الشقيقتين**؛ ويقوم هذا الوصل التداخلي، حسب ما جاء في نصوص بديع الزمان، على مبدئين أساسيين:

أحدهما، مبدأ تأسيس النقل على العقل: ومقتضاه أن النقل يُؤوّل على مقتضى العقل متى ظهر تعارضه معه.

والثاني، مبدأ التوسل بالعقل في النقل: ومقتضاه أن المفاهيم العقلية تكون وسائط في بيان الحقائق النقلية.

وقد عمل بديع الزمان بهذين المبدئين في فترة تفلسفه، إذ يخبرنا أنه كان يقيم الحقائق الإسلامية على أدلة عقلية كما هي طريقة الفلاسفة، داخلاً في مناظرة

⁴ يقول: "كان سعيد القديم – قبل حوالي خمسين سنة – لزيادة اشتغاله بالعلوم العقلية والفلسفية يتحرى مسلماً ومدخلاً للوصول إلى حقيقة الحقائق، داخلاً في عداد الجامعين بين الطريقة والحقيقة"، ص. **المتنوي العربي النوري**، 29؛ انظر أيضاً **المكتوبات**، ص. 569-570.

⁵ الملاحظ أن بديع الزمان لا يذكر الكندي كما يبدو أنه لم يذكر فيلسوف المغرب ابن رشد إلا قليلاً جداً، قد لا يتعدى ذلك المرتين: **المكتوبات**، ص. 249؛ وأيضاً **الشعاعات**، ص. 663.

خصومه وخصوم الإسلام⁶؛ كما نجد أنه كان يلجأ في توضيح المعاني الإسلامية إلى المفاهيم الفلسفية كشأنه مع معنى "العدل"، إذ لجأ في بيانه إلى نظرية "أفلاطون" في الفضائل الأربع – أي العفة والشجاعة والحكمة والعدل – وأيضاً إلى نظرية "أرسطو" في مفهوم "الفضيلة" باعتبارها وسطاً بين الإفراط والتقريط⁷.

2.1. جمع التصاحب بين الفلسفة والحكمة: أما الصورة الثانية التي اتخذها الجمع بين الفلسفة والحكمة، فهي أنه عبارة عن **تصاحب**، بمعنى أن الفلسفة والحكمة، ولو أنهما تعبران عن حقيقة واحدة، تبقيان مستقلتين إحداهما عن الأخرى، إذ تكون لكل واحدة منهما لغتها وجمهورها ومنهجيتها ومقصديتها الخاصة، فتكون العلاقة بينهما علاقة تساوق وترافق أشبه بترافق **الصديقتين**؛ والأصل في القول بهذا **الوصل التصاحبي** هو الاعتقاد بأن الفلسفة تأخذ بمبادئ ثلاثة لا تأخذ بها الحكمة:

أحدها، **مبدأ الاندهاش**: ومقتضاه أن فعل التفلسف يتولد من الشعور بالدهشة – أو العجب – إزاء الآثار في النفس أو إزاء الأشياء في الأفق.

والثاني، **مبدأ الاستشكال**: ومقتضاه أن الفيلسوف لا يفتأ يضع الأسئلة تلو الأخرى، باحثاً عن الأجوبة عنها.

والثالث، **مبدأ الاستدلال**: ومقتضاه أن الفلسفة تستند في إثبات حقائقها إلى الأدلة العقلية التي قد تبلغ أعلى مراتب اليقين.

وقد عمل بديع الزمان بهذه المبادئ الثلاثة، هي الأخرى، في فترة تفلسفه، إذ كان يتمتع بقدرة اندهاشية قل نظيرها، فلا يرى شيئاً في نفسه أو في أفقه إلا ويرى فيه سرا عجيبياً ينبغي استكناه أمره؛ وأيضاً كانت الأسئلة المصيرية تملك عليه مشاعره وتستحوذ على مداركه، فيشغله طلب الأجوبة عنها طويلاً، معاوداً النظر فيها، إن تصحيحاً أو تعميقاً؛ ولم يكن بديع الزمان يجد من طريق أسلم في استكناه الأمور التي يندش لها ولا في الجواب عن الأسئلة التي تهجم عليه إلا طريق البرهان العقلي، لكي تطمئن نفسه التي بين جنبيه ويقنع خصمه الذي بين يديه.

⁶ يقول: "لما كان اشتعال سعيد القديم بعلمي الحكمة [أي الفلسفة] والحقيقة [أي التصوف] ويناطر عظماء العلماء ويناقشهم في أدق المسائل وأعمقها [...]، قد لا يُدرك قسم منها [أي من ترقياته الفكرية وفيوضاته القلبية] – بعد جهد جهيد – إلا الراسخون في العلم"، **المثنوي العربي النوري**، ص. 32.

⁷ إشارات الإعجاز، ص. 23-33.

وعلى الجملة، كان بديع الزمان الفيلسوف كغيره من فلاسفة الإسلام يسلم بمبدأ الجمع بين الفلسفة والحكمة، سواء اتخذ هذا الجمع شكل التداخل كما عند الفارابي وابن سينا أو شكل التصاحب كما عند ابن رشد.

2. بديع الزمان الحكيم والفصل بين الفلسفة والحكمة

هاهنا يجب التنبيه على حقيقة أساسية، وهي أن هذا الجمع بين الفلسفة والحكمة، إذا كان النظر العقلي المجرد يجوز ولا يحيله، فإن الواقع الحي يكذبه ولا يؤيده؛ ذلك أنه حدث على مرأى ومسمع من بديع الزمان انقلاب سياسي اجتماعي تصدّع له التاريخ واهتز له المجتمع وصعق له الإنسان؛ ولم يكن هذا الانقلاب السياسي الاجتماعي إلا أثرا من الآثار التي انعكس بها على المجتمعات الغربية الانقلاب الفكري الذي قامت به الفلسفة الحديثة ضد الحكمة الدينية والذي يمثله خير تمثيل فكر الفيلسوف الألماني "كانط".

وكان لا بد لهذا التعارض الغريب بين تجويز العقل للجمع بين الفلسفة والحكمة وتكذيب الواقع المعيش له من أن يشغل بال بديع الزمان طويلا ويدعوه إلى مراجعة موقفه الفلسفي وبالتالي إلى تجديد النظر فيما تقرر بين فلاسفة الإسلام من أن الفلسفة والحكمة متصلتان اتصال تداخل كالشقيقتين أو اتصال تصاحب كالصديقتين.

من هنا يبدأ العهد الجديد لبديع الزمان، إذ يتجرد من لباسه الفلسفي القديم ليلبس لباسا جديدا، ألا وهو لباس الحكمة! أو قل هاهنا نشهد موت بديع الزمان الفيلسوف وولادة بديع الزمان الحكيم⁸، ونسوق في هذا المقام نصا بهذا الشأن لا غبار عليه، وهو التالي:

⁸ يعتبر بديع الزمان هذه الولادة الجديدة بمثابة تجل لاسم "الحكيم" من أسماء الله عليه، إذ يقول: "كذلك أحوكم هذا الذي لا يُعد شيئا لا يذكر، وهو لا شيء، قد وهب له وضع يجعله يحظى باسم الله 'الرحيم' واسم الله 'الحكيم' من الأسماء الحسنى [...]؛ فجميع 'الكلمات' إنما هي جلوات تلك الحظوة؛ نرجو من الله تعالى أن تكون نائلة لمضمون الآية الكريمة (ومن يؤتي الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا)، المكتوبات، ص. 23-24؛ كما أنه يؤرخ لهذه الولادة برؤيا صادقة رآها قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، قائلا: "رأيت نفسي تحت جبل آرات، وإذا بالجبل ينفلق انفلاقا هائلا فيقذف صخورا عظيمة كالجبال إلى أنحاء الأرض كافة، وأنا في هذه الرهبة التي غشيتني رأيت والدتي - رحمة الله عليها - بقربي، قلت لها: 'لا تخافي يا أمه! إنه أمر الله، إنه رحيم، إنه حكيم'، نفس المصدر، ص. 475؛ وفي كلامه عن "التجلي" و"الجبل" إشارة خفية إلى قصة موسى عليه السلام، إذ سأل ربّه الرؤية القدسية، فتجلى ربه للجبل وجعله دكا وخر موسى صعقا، القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية 143.

"راجعت أول ما راجعت تلك العلوم التي اكتسبتها سابقاً أبحث فيها السلوة والرجاء؛ ولكن كنت - ويا للأسف! - إلى ذلك الوقت مغترفاً من العلوم الإسلامية مع العلوم الفلسفية ظناً مني - ظناً خطأً جداً - أن تلك العلوم الفلسفية هي مصدر الرقي والتكامل ومحور الثقافة وتنور القلب، بينما تلك المسائل الفلسفية هي التي لوثت روعي كثيراً، بل أصبحت عائقاً أمام سموي المعنوي.

"نعم، بينما كنت في هذه الحالة، إذا بحكمة القرآن المقدسة تسعفني، رحمة من العلي القدير، وفضلاً وكرماً من عنده سبحانه، فغسلت أدران تلك المسائل الفلسفية، وطهرت روعي منها - كما هو مبين في كثير من الرسائل - إذ كان الظلام الروحي المنبثق من العلوم الفلسفية يغرق روعي ويطمسها في الكائنات، فأينما كنت أتوجه بنظري في تلك المسائل فلا أرى نوراً ولا أجد قبساً، ولم أتمكن من التنفس والانشراح حتى جاء نور التوحيد الساطع النابع من القرآن الكريم الذي يلقي "لا إله إلا الله"، فمزق الظلام وبدده، فانشرح صدري وتنفس بكل راحة واطمئنان"⁹.

ويتخذ هذا التحول الجذري في حياة بديع الزمان مظهرين اثنين: أحدهما مظهر نقدي والثاني مظهر بنائي.

1.2. انقلاب بديع الزمان ونقد الوصل بين الفلسفة والحكمة؛ يتجلى المظهر النقدي لهذا التحول في كون بديع الزمان اشتغل بنقد الجمع بين الفلسفة والحكمة في صورتيه الاثنتين: التداخل والتصاحب نقداً مثلثاً: نقداً منطقياً ونقداً أخلاقياً ونقداً إشارياً؛ ولا عجب في ذلك، فالحكيم أصلاً لا يكتفي بالنقد المنطقي لآراء كما يكتفي به الفيلسوف، بل يتعداه إلى النقد الأخلاقي لها، لأنه لا ينظر إليها مجردة، وإنما مقترنة بالعمل، فيقومها بحسب أثرها العملي، ثم يرتقي بها درجة، فينظر إليها من جهة قيمتها الجمالية، فيأتي بنقده الإشاري لها.

فلنبدأ بتوضيح كيف مارس بديع الزمان هذا النقد المثلث على الضرب الأول من الوصل بين الفلسفة والحكمة، وهو الضرب التداخلي الذي ينبني، كما تقدم،

⁹ اللغات، ص. 367-368؛ ويقول أيضاً في موضع سابق: "فما كان من 'سعيد الجديد' إلا القيام بتمخيض فكره والعمل على نفضه من أدران الفلسفة المزخرفة ولوثات الحضارة السفهية"، نفس المصدر، ص. 176.

على مبدئين اثنين هما: "مبدأ تأسيس النقل على العقل" و"مبدأ التوسل بالعقل في النقل".

1.1.2. نقد التداخل بين الفلسفة والحكمة

أ. **النقد المنطقي:** يرى بديع الزمان أن مبدأ تأسيس النقل على العقل الذي يبنني عليه جمع التداخل هو عبارة عن ترجيح بغير مرجح، ذلك لأن العقل ليس أقل من النقل حاجة إلى التأسيس، ولا يمكن أن يكون هذا التأسيس بطريق العقل نفسه متى كان هذا العقل هو "العقل الدائر بين الناس"¹⁰ ولم يكن عقلا من نوع جديد لا عهد للفلسفة به¹¹؛ كما أن هذا المبدأ يحمل على تأويل النقل بما يفضي إلى تحريفه، لأن العقل المعلوم ليس له من السعة والتجرد ولا من القدرة على الانطلاق ما يستوجبه فهم هذا النقل¹².

ويرى بديع الزمان كذلك أن مبدأ التوسل بمفاهيم العقل في بيان معاني النقل الذي يقوم عليه هذا الضرب الأول من الوصل لا يرفع من شأن النقل، وإنما ينزل به، لأن فيه إيهاما بأن الأسس العقلية أعمق وأرسخ من الأسس النقلية؛ كما أنه لا يفيد في الظهور على الخصم، لأنه يبقى منحصرًا في دفع الاعتراضات بالطريق العقلي المجرد الذي يأخذ به هذا الخصم، ولا يرقى إلى عرض حقائق النقل

¹⁰ جاء هذا الوصف في قوله: "وشاهدت السُنن كالجبال المتدلية من السماء، من استمسك ولو بجزئي استصعد واستسعد، ورأيت من خالفها واعتمد على العقل الدائر بين الناس كمن يريد أن يبلغ أسباب السماوات بالوسائل الأرضية فيتحمق كما تحمق فرعون بـ(ياهامان ابن لي صرحا)"، المثنوي العربي النوري، ص. 165.

¹¹ إذ يقول: "من الأصول المقررة أنه إذا تعارض العقل والنقل، يُعد العقل أصلا ويؤول النقل، ولكن ينبغي لذلك أن يكون عقلا حقا"، صيقل الإسلام، ص. 29؛ ويقول أيضا في موضع آخر: "إذا تعارض العقل والنقل، يكون الاعتبار للعقل والتأويل للفكر، لكن يجب أن يكون هذا العقل عقلا".

¹² يقول: "اعلم أيها المتفلسف المرجح للعقل على النقل، فتؤول النقل، بل تحرف؛ إذ لم يسعه عقلك المتفسخ بالغرور والتغلغل في الفلسفيات" [...]; فعقلك عقالك وبالنقل نقلتك، المثنوي العربي النوري، ص. 190.

بالطريق الذي يمتزج فيه العقل بالقلب والذي تختص به هذه الحقائق¹³، هذا إن لم يؤد إلى تزييفها تزييفا كاملا¹⁴.

ب. **النقد الأخلاقي:** يؤكد بديع الزمان أن تعاطي المتفلسف لتأسيس النقل على العقل يصيبه بأمراض قلبية، في مقدمتها مرض الغرور، ذلك لأنه يجعل من عقله الناقص والمحدود معيارا للوحي الذي هو كلام لا حد لكماله¹⁵؛ كما يؤكد أن التوسل بالمفاهيم الفلسفية — ولا سيما الطبيعية و"الميتافيزيقية" — في مباحث القرآن يفضي بصاحبه إلى تقديس الطبيعة وترك تقديس خالقها.

ج. **النقد الإشاري:** إن مثل الفيلسوف القائل بالتداخل بين الفلسفة والحكمة عند بديع الزمان كمثل من يسلك طريقا في جوف الأرض — أي نفقا — أو من يأوي إلى كهف¹⁶، فيكون عبارة عن شبح لا يرى شخصه وإن عرفت عينه وشهد أثره، وينتهي بالهلاك في هذا النفق اختناقاً ولماً يكمل سيره، وتكون منزلته في القرآن — الذي هو معدن الحكمة — منزلة الضال¹⁷.

¹³ يقول: "ولهذا، لا يتمكنون من إعطاء الصورة الحقيقية للإسلام على تلك الصورة من العمل، إذ يطعمون شجرة الإسلام بأغصان الحكمة التي يظنونها عميقة الجذور، وكأنهم بهذا يقوون الإسلام؛ ولكن لما كان الظهور على الأعداء بهذا النمط من العمل قليل، ولأن فيه شيئا من التهوين لشأن الإسلام، فقد تركت ذلك المسلك وأظهرت فعلا أن أسس الإسلام عريقة وغائرة إلى درجة لا تبلغها أبداً أعمق أسس الفلسفة، بل تظل سطحية تجاهها...". **المكتوبات**، ص. 569-570؛ ويقول أيضا: "فلا تجعل مقاييس العلوم الإنسانية محكا لحقائقها [أي القرآن والمنزل عليه القرآن]، ولا تزنها بميزاتها [...]؛ ولا تطلب تركبتهما بها بجعل دساتيرها الأرضية مصداقا على تلك النواميس السماوية". **المتنوي العربي النوري**، ص. 348.

¹⁴ **صيقل الإسلام**، ص. 35-36.

¹⁵ يقول: "فما أجهل من اعتر بالفنون الفلسفية وصيرها محكا لمباحث القرآن القدسية!"، **المتنوي العربي النوري**، ص. 77؛ ويقول في موضع آخر: "قد شاهدت ازدياد العلم الفلسفي في ازدياد المرض، كما رأيت ازدياد المرض في ازدياد العلم العقلي؛ فالأمراض المعنوية توصل إلى علوم عقلية، كما أن العلوم العقلية تولد أمراضا قلبية"، نفس المصدر، ص. 158.

¹⁶ انظر كيف أن لرمز "الكهف" عند بديع الزمان الحكيم مدلولاً هو عكس مدلول "المغارة" عند "أفلاطون" ومدلول "القبو" عند "ديكارت"؛ فالنازل في المغارة عند "أفلاطون" هو الإنسان الجاهل الذي لا يعرف من الأشياء إلا ظلالها في مقابل الفيلسوف الذي يعرف أعيان الأشياء ذاتها (محاورة **الجمهورية**، الكتاب السابع)، وهو عند "ديكارت" الإنسان الأعمى الذي يعيش في الظلام الدامس في مقابل الفيلسوف الذي يعيش في النور الساطع (**مقال في المنهج**، الجزء السادس)، بينما هو عند بديع الزمان الإنسان الفيلسوف نفسه، هذا الذي يعده "أفلاطون" العارف بحق ويعده "ديكارت" البصير بحق.

¹⁷ يقول: "وهكذا، فالطريق الأول هو طريق الضالين المشار إليه بـ(الضالين)، وهو مسلك الذين زلوا إلى مفهوم "الطبيعة" وتبنوا أفكار الطبيعيين...". **الكلمات**، ص. 650.

من ثم، يصبح الفيلسوفان اللذان ذكرهما بديع الزمان بالاسم مرات عديدة، وهما: الفارابي وابن سينا معدودين عنده في زمرة الضالين¹⁸، إذ كانا يقولان بالتداخل بين الفلسفة والحكمة، وهو قول أشبه بسفسطة النصارى؛ وقد ذهب ابن سينا في العمل بهذا القول إلى أبعد مما ذهب إليه الفارابي¹⁹؛ ولما كان بديع الزمان قد انخدع بدهائهما واعتقد الصحة في رأيهما، فقد كاد هو نفسه أن يضل كما ضلَّ لولا أن الله تجلى عليه باسمه "الحكيم"، فأضحي أهدى سبيلا وأقوم قبلا. وعلى هذا، فإن العمل بمبدأ تداخل الفلسفة والحكمة يُنتج إنسانا رقيق الإيمان وضعيف الحجة متعلقا بالظاهر مغترا بنفسه وتائها عن طريقه.

ولننعطف الآن على الضرب الثاني من الوصل بين الفلسفة والحكمة، وهو الضرب التصاحبي، فنبين كيف مارس عليه بديع الزمان هذا النقد المثلث، مع العلم بأن هذا الضرب يقوم على مبادئ ثلاثة هي: "مبدأ الاندهاش" و"مبدأ الاستشكال" و"مبدأ الاستدلال".

2.1.2. نقد التصاحب بين الفلسفة والحكمة

أ. **النقد المنطقي:** فبالنسبة لمبدأ الاندهاش الفلسفي، الصواب أن الفلسفة لا تصدر عن الشعور بالعجيب الخارق، وإنما عن الشعور بالغريب الشاذ²⁰؛ وشتان بين الشعورين، فالأول مداره على كمال الخلفة الذي في الأشياء، بينما مدار الثاني على نقص الخلفة الذي فيها؛ والدليل على ذلك أن الفلسفة لا تتأمل المؤلفات، بل تحسب كل مألوف معلوما، بل إن أكثر معلوماتها مبنية على المؤلف والعادي، وليس على المعجز والخارق²¹.

¹⁸ يقول: "إن تلك الأرض هي "الطبيعة" و"الفلسفة الطبيعية". أما النفق فهو المسلك الذي شقه أهل الفلسفة بأفكارهم لبلوغ الحقيقة؛ أما آثار الأقدام التي رأيتهما فهي لمشاهير الفلاسفة كأفلاطون وأرسطو؛ وما سمعته من أصوات هو أصوات الدهاة كابن سينا والفارابي... نعم كنت أجد أقوال لابن سينا وقوانين له في عدد من الأماكن، ولكن كانت الأصوات تنقطع كليا، بمعنى أنه لم يستطع أن يتقدم، أي أنه اختنق"، الكلمات، ص. 648.

¹⁹ إشارات الإعجاز، ص. 36.

²⁰ يقول: "إن الفلسفة التي توصل إليها الإنسان تحجب معجزات القدرة الإلهية وخوارق رحمته تعالى بشتار العادات، فلا ترى دلائل الوجدانية المضمرة تحت تلك العادات وتلك النعم الجليسة، ولا تبينها ولا تدل عليها، بينما إذا ما رأيت ما هو خارج عن العادة من جزئيات خاصة، تتوجه إليه وتهتم به"، الملاحق، ص. 358.

²¹ يقول: "أما حكمة الفلسفة، فهي تخفي جميع معجزات القدرة الإلهية وتستترها تحت غطاء الألفة والعادة"، الكلمات، ص. 150.

وأما عن مبدأ الاستشكال الفلسفي، فالصواب أنه غير مضبوط في مقاصده المتعلقة بالكائنات، فيقع في الخطب والانتشار في كل اتجاه؛ كما أنه غير مشفوع بالجواب المطلوب، فيقع صاحبه في الحيرة البالغة، بل في العذاب الشديد²².

وأما عن مبدأ الاستدلال الفلسفي، فالصواب أنه سلسلة من القضايا التي يتهدها الوهم على الدوام؛ فلو فرضنا أننا نريد أن ندفع عنها هذا التهديد، فحينئذ يلزم أن نستدل على كل قضية من هذه القضايا بسلسلة أخرى من القضايا يتهدها بدورها الوهم، وهكذا دواليك؛ فلا نكاد ندفع الوهم عن سلسلة حتى نجلبه إلى سلاسل من دونها بلا انقطاع²³.

ب. **النقد الأخلاقي:** لما كان الاندهاش الفلسفي في أصله استغراباً، ولم يكن أبداً استعجاباً، أوقع المتفلسف في محذورين:

أحدهما، **سد طريق الاعتبار:** إذا كانت الفلسفة لا تتعجب من العاديات والمألوفات، فإنها لا تمكن صاحبها من استخراج العبر والعظات منها.

والثاني، **فتح طريق النكران:** إذا كانت الفلسفة تلقي بغطاء الألفة على الأشياء، فإنها تحول دون معرفة القدرة الإلهية والإقرار بأفضالها غير المتناهية.

ولما كان الاستشكال الفلسفي تساؤلاً غير منضبط، أفضى إلى أمرين كلاهما حرمان هالك:

أحدهما، **فقدان سر التوحيد:** إن كثرة الأسئلة بدون مقاصد موجّهة (يكسر الجيم المشددة) ولا أجوبة مرضية تدل على أن صاحبها محروم من سر التوحيد، إذ أنه لو كان متحققاً بهذا السر، لدارت أسئلته على مقاصد محددة، وظفر بالأجوبة عليها ضمن هذه المقاصد التوحيدية²⁴.

²² يقول: "إذا تخبط ذلك العقل في وحل الضلالة والكفر، فإنه يصبح آلة تعذيب ووسيلة إزعاج، بما يجمع من آلام الماضي الحزينة ومخاوف المستقبل الرهيبة"، **الشعاعات**، ص. 19.

²³ يقول: "إن الفرق بين طريقي في "قطرة" المستفادة من القرآن وطريق أهل النظر والفلسفة هو أنني أحفر أينما كنت، فيخرج الماء وهو تشبثوا بوضع ميازيب وأنابيب لمجيء الماء من طرف العالم ويسلسلون سلاسل وسلاسل إلى ما فوق العرش لجلب ماء الحياة، فيلزم عليهم بسبب قبول السبب وضع ملايين من حفظة البراهين في تلك الطريق الطويلة لحفظها من تخريب شياطين الأوهام"، **المتنوي العربي النوري**، ص. 170.

²⁴ يقول: "وبسر التوحيد [...]، ينكشف السر المغلق للأسئلة المحيرة: من أين يأتي سيل الموجودات وقافلة المخلوقات؟ وإلى أين المصير؟ ولم جاء؟ وماذا يعمل؟..."، **الشعاعات**، ص. 14.

والثاني، **فقدان الشعور بالسعادة**: إذا لم يجد المتفلسف أجوبة على أسئلته المنفرقة ولا استجابة لمطالبه المتباينة، فلا بد من أن يشقى شقاء عظيمًا²⁵.
ثم لما كان الاستدلال الفلسفي سلسلة مهددة بالوهم، أفضى إلى أمرين كلاهما شر بالغ:

أحدهما، **التعلق بالأسباب دون المسبب**: تقتصر الفلسفة في استدلالاتها على الكائنات دون المكوّن سبحانه، أي باصطلاح بديع الزمان تأخذ بالنظر الاسمي، لا الحرفي²⁶؛ يلزم على ذلك أنها تُوقّع المشتغل بها في عبادة الأسباب²⁷.
والثاني، **التعلق بالذات دون غيرها**: كما ينظر المتفلسف من الكائنات إلى أسبابها الطبيعية، فكذا ينظر إلى نفسه نفس النظر الاسمي²⁸؛ يلزم من ذلك أنه يقع في عبادة النفس²⁹.

ج. **النقد الإشاري**: إن مثّل الفيلسوف القائل بالتصاحب بين الفلسفة والحكمة عند بديع الزمان كمثل من يسلك طريقا على وجه الأرض في صحراء شاسعة، فتأتيه الأهوال من كل جانب بين غضب البحر وتهديد العاصفة وظلمة السماء، فتصيرُه أشلاء مبعثرة على حافة الطريق، وتكون منزلته في القرآن الحكيم منزلة المغضوب عليه³⁰.

وإذا قارنا بين هذا النقد الإشاري للتصاحب والنقد الإشاري السابق للتداخل، تبيّن أن القائل بالتصاحب أسوأ حالا من القائل بالتداخل، ذلك أن في سلوك الأول

²⁵ "قلولا التوحيد لأصبح الإنسان أشقى المخلوقات وأدنى الموجودات وأضعف الحيوانات وأشدّ ذوي المشاعر حزنا وأكثرهم عذابا وألما"، **الشعاعات**، ص. 18.

²⁶ يقول: "فالنظرة القرآنية إلى الموجودات تجعل الموجودات حروفا، أي أنها تعبر عن معنى في غيرها، بمعنى أنها تعبر عن تجليات الأسماء الحسنى والصفات الجليّة للخالق العظيم المتجلية في الموجودات؛ أما نظرة الفلسفة - المادية - الميّنة تنظر في الأغلب **بالنظر الاسمي** إلى الموجودات، فتزل قدمها إلى مستنقع الطبيعة". **الملاحق**، ص. 90.

²⁷ "أما الفلسفة، فإنما تنظر من الموجودات إلى وجوها الناظرة إلى أنفسها وأسبابها"، **المتنوي العربي النوري**، ص. 77.

²⁸ **الكلمات**، ص. 646.

²⁹ "إن أهل الضلالة في هذا العصر قد امتطوا 'أنا'، فهو يجوب بهم في وديان الضلالة؛ فأهل الحق لا يستطيعون خدمة الحق إلا بترك 'أنا'، وحتى لو كانوا على حق وصواب في استعمالهم 'أنا'، فعليهم تركه، لئلا يشبهوا أولئك، إذ يكونون موضع ظنهم أنهم مثلهم يعيدون النفس"، **المكتوبات**، ص. 549.

³⁰ "والطريق الثاني المشار إليه بـ(المغضوب عليهم)، فهو مسلك عبدة الأسباب والذين يحيلون الخلق والإيجاد إلى الوسائط ويسندون إليها التأثير، ويريدون بلوغ حقيقة الحقائق ومعرفة الله جل جلاله عن طريق العقل والفكر وحده كالحكماء المشائين"، **الكلمات**، ص. 650.

لطريق فوق الأرض، أي طريق تحت السماء — التي هي رمز الوحي — وتحت الشمس — التي هي رمز النور—، إشارةً إلى أن تحديه لرؤية الحكيم يزيد درجات عن غرور الثاني، فهذا لا يسلك إلا طريقاً تحت الأرض، لا يرى فيه شمساً ولا سماءً؛ كما أن في إلقاء البحر أشلاء الأول على جانب الطريق إشارةً إلى أن عمله أشبه بعمل فرعون، فاستحق أن يلقي نفس المصير موتاً واعتباراً³¹، بينما لا نظفر من الثاني إلا بشبح، فلا يكون عبرة للناس ببدنه، وإنما بأثاره وحدها.

من ثمّ، يصبح الفيلسوف المشائي الكبير الذي لم يرد اسمه على لسان بديع الزمان إلا قليلاً، وهو: ابن رشد، معدوداً عنده في زمرة المغضوب عليهم³²، إذ كان يقول بالتصاحب بين الفلسفة والحكمة ويعمل على مقتضاه، وهو عملٌ فسق به فسوقاً أشبه بتمرد اليهود³³؛ ولما كان بديع الزمان قد انخدع بدهائه هو الآخر واعتقد الصحة في رأيه، كاد أن يتعرض هو نفسه لغضب الله لولا أن الله تجلى عليه باسمه "الرحيم"، فهداه الصراط المستقيم.

وعلى هذا، فإن العمل بمبدأ تصاحب الفلسفة والحكمة يُنتج إنساناً غير بصير ولا معتبرٍ ولا معترفٍ ولا سعيدٍ ولا ناجٍ. وبعد أن أنهينا الكلام عن الجانب النقدي في الموقف الانقلابي الذي اتخذه بديع الزمان من العلاقة بين الفلسفة والحكمة، نمضي إلى بيان عناصر الجانب البنائي في هذا الموقف الجديد.

2.2. انقلاب بديع الزمان والقول بالفصل بين الفلسفة والحكمة؛ يتمثل الجانب البنائي من هذا الانقلاب الفكري في كون بديع الزمان يستبعد كلا الجمعين المذكورين بين الفلسفة والحكمة — أي جمع التداخل وجمع التصاحب — ويأخذ **بضده**، أي يأخذ بفصل أو تفريق مخصوص بينهما، متوسلاً في ذلك بألية خطابية محددة.

³¹ وذلك مصداقاً للآية الكريمة: "فاليوم ننجيك ببذنك لتكون لمن خلفك آية، وإن كثيرا من الناس عن آياتنا غافلون"، سورة يونس، الآية 29.

³² تحاشى بديع الزمان أن يذكر ابن رشد باسمه — على خلاف ما فعل مع الفارابي وابن سينا — ولكنه نبه عليه بالصفة التي اشتهر بها، وهي "المشائي"، إذ هو شارح "أرسطو" الأكبر؛ ولا نريد أن نخوض هنا في الأسباب التي تكون قد دعت إلى هذا التكتّم، وإنما يكفي أن نقول بأنه يجوز أن يفعل ذلك، إشفاقاً عليه ورفقاً بأتباعه المعاصرين.

³³ إشارات الإعجاز، ص. 36.

1.2.2. الفصل الاستتباعي بين الفلسفة والحكمة: يستبعد بديع الزمان جمع التداخل الذي يُنزل الفلسفة والحكمة رتبةً واحدة ما لم تتعارضاً، ويأخذ بتفريق — أو فصل — في الرتبة بينهما ولو لم تتعارضاً، ممارساً آلية القلب على المبدئين اللذين يتقوّم بهما هذا الجمع، أي "مبدأ التأسيس العقلي للنقل" و"مبدأ التوسل بالعقل في النقل"؛ ومقتضى القلب، كما هو معروف، تغيير الرتبة، فإن كان الشيء مقدّمًا، صيّرهُ مؤخرًا، وإن كان مؤخرًا، صيّرهُ مقدّمًا؛ وحينئذ، يصبح المبدآن اللذان ينبنى عليهما هذا الفصل هما بالذات: "مبدأ التأسيس النقلي للعقل" و"مبدأ التوسل بالنقل في العقل"؛ وبيان ذلك كما يلي:

أ. **مبدأ تأسيس العقل على النقل:** يذهب بديع الزمان إلى أن العقل — أي العقل الدائر بين الناس — والنقل — أي النقل في معناه الأعم — كليهما يحتاج إلى التأسيس، ولا يمكن أن يأتي التأسيس من هذا العقل ناقص كما لا يمكن أن يأتي من النقل العام، بل لا بد من طريق ثالث لا يكون فيه نقصان العقل ولا عموم النقل، بل يجمع إلى العقل الأكمل النقل الأخص؛ وليس هذا الطريق الثالث إلا القرآن الحكيم، ففيه من أسباب كمال العقل ما يؤهله لتأسيس العقل الدائر بين الناس، وفيه من أسباب خصوصية النقل ما يؤهله لتأسيس النقل عامة³⁴.

ب. **مبدأ التوسل بالنقل في العقل:** يذهب بديع الزمان إلى أن العقل — وتمثله الفلسفة البشرية خير تمثيل — لا يقدر على أن ينفع الناس وأن يحقق لهم السعادة حتى يتوسط بالنقل — ويمثله الوحي الإلهي أفضل تمثيل —؛ وبدون هذا التوسط، لا يخلو العقل من أسباب النفع والإسعاد فحسب، بل ينقلب بالضرر على الإنسان ويبلغ فيه هذا الضرر أقصاه³⁵، لأنه لا مفر من أن يضل الطريق ويتعرض لغضب الله.

وبهذا، يصير النقل — ممثلًا بحكمة القرآن — هو الأصل والعقل — ممثلًا بفلسفة البشر — هو الفرع متى ثبتت موافقته لما جاء به النقل؛ لذا، جاز أن نسمي التفريق — أو الفصل — في الدرجة بين الحكمة والفلسفة الذي قابل به بديع الزمان الوصل التداخلي بينهما باسم "التفريق — أو الفصل — الاستتباعي"، حيث

³⁴ يقول: "القرآن المبين أسمى وأغنى من أن يفتقر إلى تركية العقل والنقل اللذين ألقيا إليه المقاليد، لأنه إن لم يركهما، فشهادتهما لا تسمع"، صيقل الإسلام، ص. 36.

³⁵ يقول: "قمتى استجارت الفلسفة بالدين وانقادت إليه وأصبحت في طاعته، انتعشت الإنسانية بالسعادة وعاشت حياة اجتماعية هنيئة؛ ومتى انفرجت الشقة بينهما وافترقنا، احتشد النور والخير كله حول سلسلة النبوة والدين وتجمعت الشرور والضلالات كلها حول سلسلة الفلسفة"، الكلمات، ص. 639.

إن الفلسفة تصبح تابعة للحكمة وخادمة لها³⁶؛ وهذا بالذات ما يستفاد من تمييز بديع الزمان بين الفلسفة النافعة والفلسفة الضارة في رسالة موجهة إلى طلاب الفلسفة الحديثة³⁷ الذين أقبلوا على رسائل النور؛ فبصرف النظر عن الاعتبارات الظرفية التي قد تدعوه إلى مثل هذا التمييز كرهبته في استمالة هؤلاء الطلاب المتفلسفة وتشجيعهم على المضي في قراءة هذه الرسائل واتقاء شر الخصوم، فإنه يجعل الفلسفة النافعة خادمة لحكمة القرآن كما لو كانت متفرعة عليها، نظراً لأنها "تخدم الحياة الاجتماعية البشرية، وتعين الأخلاق والمثل الإنسانية، وتمهد السبل للرفي الصناعي"³⁸.

ومن شأن العمل بهذا الفصل الاستتباعي أن يخرج لنا إنساناً راسخ الإيمان قوي الحجة ناكراً لذاته غير متعلق بالظاهر ولا تائها عن الطريق، أو قل بإيجاز إنساناً مهدياً.

2.2.2. الفصل الاستتباعي بين الفلسفة والحكمة: يستبعد بديع الزمان أيضاً جمع التصاحب بين الفلسفة والحكمة، ويأخذ بتفريق – أو فصل – في النوع (أو الطبيعة) بينهما، ممارساً لآلية الاستبدال عليهما؛ ومقتضى الاستبدال هنا هو جعل الشيء بدلاً من غيره، بحيث يصير البديل قائماً بوظائف المبدل منه على أحسن وجه؛ وحينئذ، تصبح الحكمة عند بديع الزمان بديلاً عن الفلسفة، ناهضة على أفضل وجه بالمبادئ الثلاثة التي تدعي الفلسفة الاختصاص بها، أي "مبدأ الاندهاش" و"مبدأ الاستشكال" و"مبدأ الاستدلال"؛ وتوضيح ذلك كما يلي:

أ. مبدأ الاندهاش: يرى بديع الزمان أن الصورة الأبلغ والأكمل لمبدأ الاندهاش تتحقق في حكمة القرآن المبين، وذلك من وجهين:

³⁶ لتلاحظ أن الفصل الاستتباعي بين الحكمة والفلسفة، لما كان فصلاً في الدرجة فحسب، جاز أن تجتمع فيه الحكمة والفلسفة اجتماع التابع مع المتبوع، بحيث يكون وضعه المنطقي أشبه بوضع ما يُسمى بـ"رابط الفصل الجامع"، وهو الفصل الذي يمكن أن يصدق فيه الطرفان المفصولان معاً؛ ولا ينفع الاعتراض بأنه نوع من الوصل التداخلي، ذلك لأنه لا يشارك هذا الوصل إلا في هذه الحال من حالات الصدق، ويختلف عنه في إمكان أن يصدق بصدق أحد المفصولين دون الآخر، أو قل بإيجاز إن الجمع الذي يكون مع تخيير ليس كالجمع الذي لا تخيير معه.

³⁷ يرى بديع الزمان أن الفلسفة الحديثة أقل ضرراً من الفلسفة القديمة، لأنها أكثر منها أخذاً بأسباب العقل والنقد والعلم؛ انظر صيقل الإسلام، ص. 41 وأيضاً ص. 35-36.

³⁸ الملاحق، ص. 286-287.

◆ أن القرآن يخرق ستار العادة المسدول على الأشياء في أنفسنا وفي الآفاق من حولنا، فيجعلنا نتعجب من الأسرار المودعة فيها ونكتشف ما تتطوي عليه من خوارق القدرة الإلهية وعجائبها العظيمة.

◆ أن القرآن كلام معجز، ومعلوم أنه لا صفة أبلغ من "الإعجاز" في إثارة الاندهاش، فما بالك إذا كان إعجازاً من قبيل الإعجاز القرآني! فعندئذ، لا بد أن يبلغ اندهاش المرء نهايته.

وعلى هذا، فإذا كان التفلسف، كما قيل، يبدأ بالاندهاش، فإن الاندهاش الذي هو بداية الحكمة ليس فوقه اندهاش، حيث إنها تحظى به في تأمل إعجاز القرآن الداعي إلى منتهى الاندهاش، بما أنه هو مجلى اسم الحكيم من أسماء الله الحسنى؛ ومن هنا، ندرك لم بدأ بديع الزمان مساره في الحكمة بالاشتغال ببيان إعجاز القرآن، عملاً بالرؤية الصادقة التي رآها، وهي رؤية انفلاق الجبل المذكورة أعلاه، إذ جاءه فيها شخص عظيم بأمر مخصوص، قائلاً: "بين إعجاز القرآن"³⁹.

ب. مبدأ الاستشكال: يرى بديع الزمان أن الصورة الأصح والأتم لمبدأ الاستشكال تتحقق هي الأخرى في حكمة القرآن، وذلك من وجهين هما:

◆ أن القرآن يحدد أفضل نطاق يمكن أن توضع فيه الأسئلة، ذلك أن السؤال لا يستقيم إلا إذا دار على مقصد مخصوص، والقرآن له مقاصد أصلية هي: "التوحيد" و"الوحي" و"الآخرة" و"الاستقامة" أو، بتعبير بديع الزمان، "إثبات الصانع" و"النبوة" و"الحشر" و"العدالة"⁴⁰؛ فما من آية من آياته البيّنات إلا وتتعلق بمقصد واحد أو أكثر من هذه المقاصد الأربعة، بل إن الآية الواحدة، على قصرها، قد تشتمل عليها جميعها، نازلة بذلك منزلة القرآن كله؛ وأما ما جاء فيه من مقاصد أخرى تتصل بالكائنات وخصائصها، فهو تابع لهذه المقاصد الأربعة وخدام لها؛ وعلى هذا، ينبغي أن تدور أسئلة الحكيم على هذه المقاصد وحدها، ولا تخرج إلى التساؤل عن الخواص الطبيعية للموجودات إلا أن يكون ذلك بغرض تبين هذه المقاصد الأصلية من ورائها.

◆ أن القرآن يجيب على أفضل وجه عن الأسئلة الموضوعية، فقد تقدم أن هذه الأسئلة ينبغي أن تتعلق بالمقاصد الأربعة المذكورة، أي أن تكون

³⁹ المكتوبات، ص. 475؛ وأيضاً الملاحق، ص. 183.

⁴⁰ إشارات الإعجاز، ص. 24؛ صيقل الإسلام، ص. 120.

كالتالي: "من أين؟ وبأمر من تأتون؟ من سلطانكم ودليكم وخطيبكم؟ وما تصنعون؟ وإلى أين تصيرون؟"⁴¹؛ والقرآن هو وحده القادر على إيراد الأجوبة الصحيحة على مثل هذه الأسئلة والتي تكون شفاء لما في الصدور.

ج. مبدأ الاستدلال: يرى بديع الزمان أن الصورة الأشمل والأيقن لمبدأ الاستدلال تتحقق هي الأخرى في القياس التمثيلي الذي تأخذ به حكمة القرآن، وذلك من الوجوه الآتية:

◆ أن هذا القياس يفيد في إقناع كافة الناس ولا يقتصر على فئة معدودة منهم، كما أنه يتسع لفنون مختلفة ولا ينحصر في فن واحد منها⁴²، نظرا لأنه يُلبس الحقائق المخبر بها لباس مألوفات الجمهور ومخيلاته، ولا يكلفه إدراكها على صورتها المجردة⁴³.

◆ أنه يُمكن من تحصيل منظور تقريبي لما يجاوز طور العقل المجرد من الحقائق الإلهية وشؤون الربوبية⁴⁴، فيكون أقدر من هذا العقل.

◆ أنه يؤمن طاعة الخيال للعقل، فيحذ من تشكيكاته وتهويماته التي تتهدد عادة استدلالاته غير التمثيلية⁴⁵، فيكون أقوى من هذه الاستدلالات.

◆ أنه يجمع بين الطريقتين الإدراكيين المتقابلين للإنسان، وهما: طريق العقل وطريق الوجدان⁴⁶، فيكون استدلالا متكاملًا.

◆ أنه يُثبت قانونا كليًا بإظهار حالة خاصة منه في صورة مثال جزئي⁴⁷؛ ومعنى هذا أن المثال عند بديع الزمان ليس مجرد شيء مشابه للشيء المُمثل، بل يحكمه نفس القانون الذي يحكم هذا الشيء، بحيث يكون التمثيل عنده أقرب إلى الاستقراء منه إلى الاستنباط (أو القياس الجامع)⁴⁸.

⁴¹ صيقل الإسلام، ص. 29؛ وأيضاً، إشارات الإعجاز، ص. 23.

⁴² نفس المصدر، ص. 320.

⁴³ صيقل الإسلام، ص. 59.

⁴⁴ المكتوبات، ص. 376.

⁴⁵ يقول: "ولقد أكثر القرآن الكريم من التمثيلات إلى أن بلغت الألف، لأن في التمثيل سرا لطيقا وحكمة عالية، إذ به يصير الوهم مغلوبا للعقل والخيال مجبورا لاتقياد للفكر..."، إشارات الإعجاز، ص. 113.

⁴⁶ نفس المصدر، ص. 126.

⁴⁷ الكلمات، ص. 735-736.

⁴⁸ معلوم أن فقهاء العلم اختلفوا كثيرا في تحديد البنية المنطقية لقياس التمثيل، فبعضهم جعلها بنية مستقلة وبعضهم جعلها أشبه ببنية الاستقراء في حين جعلها غيرهم أشبه ببنية الاستنباط، ورأينا أنها بنية كبرى مركبة من بنيتين فرعيتين: بنية استقرائية وبنية استنباطية، انظر التفاصيل في كتابنا: تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، بيروت، ص. 65-66.

ومما تقدم، يتبين أن الحكمة لا يمكن أن تجتمع مع الفلسفة، لأن الخير والحق يصيران كلهما في جانب الحكمة والشرّ والباطل يصيران كلهما في جانب الفلسفة، فتكونا متباينتين تباين النوعين؛ لذا، صح أن نسمي هذا الفصل النوعي بينهما باسم "الفصل الاستبدالي"⁴⁹، إذ تصبح الحكمة البديل الذي لا غنى عنه. ومن شأن العمل بهذا الفصل الثاني أن يُخرج لنا إنسانا متبصرا ومعتبرا ومعتزفا وسعيدا وناجيا، أو قل إنسانا مَرُضيا عليه.

وإذا اجتمعت للإنسان الهداية والرضى، كان إنسانا منعمًا عليه؛ فإذن الحكيم الذي يختص بكونه يجعل الحكمة تسود الفلسفة، بل يجعلها تستغني كليا عن خدمة الفلسفة يكون حقًا من أولئك الذين أنعم الله عليهم.

وخلاصة القول من هذا التحليل لموقف بديع الزمان من العلاقة بين الفلسفة والحكمة هي أن بديع الزمان انقلب من حال الفيلسوف الذي يوافق فلاسفة الإسلام في القول بالوصل بين الفلسفة والحكمة، إما وصل تداخل يجلب الضلالة أو وصل تصاحب يجلب غضب الله، إلى حال الحكيم الذي يقول بضرورة الفصل بينهما، إما فصلا استتباعيا يجلب الهداية، فتكون الفلسفة في خدمة الحكمة، أو فصلا استبداليا يجلب رضى الله، فتكون الحكمة بديلا عن الفلسفة.

وواضح أن هذا الانقلاب انقلاب "كوبيرنيكي" بحق؛ فبعد أن كانت الفلسفة تُعدّ موصولة بالحكمة، صارت تُعدّ مفصولة عنها؛ وبعد أن كانت الفلسفة تستتبع الحكمة في حالة الاختلاف بينهما، أصبحت الحكمة هي التي تستتبع الفلسفة في حالة الاتفاق بينهما؛ وبعد أن كانت الفلسفة تضاهي الحكمة وجودا، أضحت لا تضاهيها في هذا الوجود، بل أضحت تفقده بوجود الحكمة.

وحيثُ، لا نستغرب أن يلح بديع الزمان أيما إلحاح على وجود طورين متضادين في حياته: سعيد القديم وسعيد الجديد؛ ولذا، نعتقد أن العناصر التي تفرّق بين هذين الطورين ينبغي البحث عنها في الموقفين المتعارضين اللذين وقفهما من العلاقة بين الفلسفة والحكمة، بحيث يكون الوصل بينهما هو المعيار الذي نحدد به فكر سعيد القديم ويكون الفصل بينهما هو المعيار الذي نحدد به فكر سعيد الجديد.

⁴⁹ لتلاحظ أن الوضع المنطقي للفصل الاستبدالي أشبه بوضع ما يُسمى بـ"رابط الفصل المانع" (أو "الفصل الاستبعادي")، ومعلوم أن هذا الرابط لا يصدق إلا بصدق أحد المفصولين دون الآخر.

لكن هذا الانقلاب "الكوبيرنيكي" هو نقيض للانقلاب "الكوبيرنيكي" الذي قام به "كانط"؛ فإذا كان "كانط" قد جعل الحكمة تابعة للفلسفة في حال اتفاقهما، فإن بديع الزمان، على العكس من ذلك، يجعل الفلسفة تابعة للحكمة في الحال ذاته؛ وإذا كان "كانط" قد جعل الفلسفة بديلا عن الحكمة في حال تعارضهما، فإن بديع الزمان، على العكس من ذلك، يجعل الحكمة بديلا عن الفلسفة في الحال ذاته. ومن هنا، يظهر جليا أن البعد الذي يكتسبه إنتاج بديع الزمان لا ينحصر في تركيا حيث أثار الفلسفة "الكانطية" قد فعلت فعلها وبدلت قيم أهلها تبديلا، ولا هو ينحصر في الأمة الإسلامية التي تفككت أوصالها وفقدت وجهتها، وإنما يتعدى ذلك إلى العالم بأسره ليُنقذ الإنسان، خاصيته وعاميته، من سلطان فكر فلسفي أضر بوجوده في هذا العالم؛ ومن كان هذا عمله، فما أجدر به أن يُعدَّ في حكماء العالم الذين رفعوا همة الإنسان إلى الاضطلاع بأمر روحه كاضطلاعه بأمر جسمه، ومهدوا الطريق إلى تجديده، فاستوى إنسانا آخر في عالم آخر.

فلسفة الأخلاق في القرآن بمنظور رسائل النور

الدكتور جمال أحمد سعيد المرزوقي^Ψ

أولاً : “النورسي” الرجل والدور:

أ - “حيرة” لمن يكتب عن النورسي ورسائل النور :

قد لا أجد مبرراً للحيرة التي سكتني واحتوت نفسي وعقلي، بعد أن قرأت “كليات رسائل النور”، أو هكذا ظننت أنني قرأتها، فالأقرب إلى الصواب، تعبيراً عن حالتي مع رسائل النور، أن يظل المرء في قراءة متواصلة لها، ينكشف له جديدٌ مع كل قراءة، فالرسائل خزينة تنتظر الاكتشاف، كلما نظرت فيها، وتأملتها وعشت معها، وإن شئت الدقة، عايشتها، تضع يديك على الكثير من الكنوز المعرفية، وهذا راجعٌ إلى أن “رسائل النور” باقةٌ مختارة من جنان القرآن الكريم، المستوعب للعوالم والأكوان، فاضٌّ ومنَّ بها الحق تعالى على شيخنا النورسي¹.

فالرسائل مفعمة بالمتقول الإلهي، والمؤيد والمعزز بالمعقول الكوني، وفيها عبير رياض الرحمن المبارك ونفحاته، ونوره وضيأؤه، ترى الجمال والجلال يسريان جنباً إلى جنب في كلماتها وسطورها، الجمال يُغرينا بسمو الفكر وشرف العدل وحب الحق، وعشق الفضيلة، وأداء الأمانة، والشغف بالواجب، بينما يفجر الجلالُ فينا ينبوعاً دفاقاً من القوة، ويهبنا البسالة والشجاعة، ويمنحنا الحمية والأنفة والاستعلاء على الجبن والخوف². أقول قد لا أجد مبرراً لهذه الحيرة، بعد أن عايشت “رسائل النور” وهممت بالكتابة عن جانب من الجوانب العديدة التي احتوتها - فلسفة الأخلاق في القرآن بمنظور رسائل النور - أبلغ من بعض عبارات تضمنتها رسالة بعث بها الأستاذ أديب إبراهيم

^Ψ ولد سنة 1951 في القليوبية - مصر. أستاذ الفلسفة الإسلامية والتصوف المساعد كلية الآداب - جامعة عين شمس القاهرة - العباسية. له أبحاث في مجال إختصاصه كثيرة ويشرف على العديد من أطروحات الدراسات العليا.

الدباغ إلى السيد إحسان قاسم الصالحي، بمناسبة أن الأخير نوى كتابة سيرة ذاتية للأستاذ النورسي مستخلصة من تراثه الفكري والإيماني، تقول هذه العبارات :
“ لا بد للحقيقة من أن يتناولها قلم حار وإلا ظلت باردة غير قادرة على التحريك والتحفيز، فأنت - يا عزيزي - تتناول بقلمك شخصية حارة ملتتهمة، تتفجر حيوية، وتتدفق أفكاراً حارة لاهبة، فليكن قلمك مغموساً بهذا اللهب الإيماني النوراني لكي يلهب الأفكار وينير القلوب، فالرجل الذي نكتب عنه، لم يكن في يوم من الأيام عادياً أو تقليدياً في كل ما كتب وترك من تراث، وبالتالي وجب التأني في الكتابة عنه، ووجب ألا تكون الكتابة باردة فتقتلها البرودة في مهدها، صحيح أن العلمية مطلوبة والحقائق تفرض نفسها فرضاً على المؤلف، ولكن لا بد للحقيقة من أن يتناولها قلم حار يقترب من مستوى حرارة وحيوية الأفكار التي سيكتب عنها.
ومن هنا جاءت حيرتي، كيف يتوفر للكاتب عن شخصية النورسي وفكره، حرارة وحيوية وصدق وتدفق وإيمان، هذه الشخصية التي ألهبت الأفكار وأنارت القلوب.

ب - حياة النورسي بذرة لخدمة القرآن الكريم:

وإمامنا النورسي أشهر من أن يُعرف به، فهو “بديع الزمان سعيد النورسي”، وبديع الزمان لقبه، وسعيد اسمه، والنورسي نسبة إلى مسقط رأسه، قرية نورس التابعة لناحية “اسباريت” المرتبطة بقضاء “خيزان” من أعمال ولاية “بتليس” له سبعة عشر مؤلفاً باللغة العربية³، وبقية المؤلفات باللغة التركية⁴، يتكلم باللغة التركية والكردية، ويقراً ويكتب باللغة العربية والفارسية.

ولد سنة 1877م / 1294هـ، وتوفي يوم الأربعاء، الخامس والعشرين من رمضان سنة 1379هـ / 23 مارس 1960م، ودُفن في مقبرة “أولو جامع” بمدينة “أورفة”، وبعد مرور خمسة أشهر على وفاته، قامت السلطات بنقل رفاتهِ إلى مدينة “اسبارطة” حيث دُفن في مكان ما لا يزال مجهولاً.⁵

جرت أكثر أحداث حياة شيخنا النورسي خارجة عن طوق اقتداره وشعوره وتدبيره “إذا أعطيت لها سير معين ووجهت وجهة غريبة لتنتج هذه الأنواع من الرسائل التي تخدم القرآن الحكيم، بل كأن حياتي العلمية كلها بمثابة مقدمات تمهيدية لبيان إعجاز القرآن بـ “الكلمات”⁶.

وهو، باقتناع تام وبخالص نيته، لا يتكلف التواضع ونكران الذات، “إن خدماتي وأحداث حياتي قد أصبحت في حكم بذرة، لكي تكون مبدئاً لخدمة إيمانية جليلة، قد

منحت العناية الإلهية منها في هذا الزمان شجرة مثمرة برسائل النور النابعة من القرآن الكريم⁷ فحياة النورسي - وبكل ما فيها من ثراء وفاعلية - بذرة لخدمة القرآن الكريم. ودرس النورسي في ظل منهجية التعليم في زمانه علوماً شتى، هي مسالك متنوعة لإيصال الإنسان إلى الله الخالق سبحانه وتعالى، فهو قد درس طرق الكلام والفلسفة والتصوف المعرفية، غير أنه لم يقتنع بأي طريق من تلك الطرق في دعوته لإنقاذ الإيمان، وإنما اتبع طريق القرآن وحده للوصول إلى الله، لأنه أقرب الطرق إلى إثارة الفطرة الإنسانية، وتحريك العقول الباحثة عن الحق، والقلوب العامرة بالتوثب الدائم، وأكثر الطرق انطباقاً على آيات الأنفس والآفاق.⁸

وتأتي "رسائل النور" نوافذ تظهر في غاية الصفاء والتناسق والوثام، تلك المعرفة الإلهية التي تعتمد على القرآن وحده، الذي هو كتاب الكون الأكبر الذي يجد الإنسان فيه حقيقة الحياة وحقيقة وجوده معاً، بحديث في غاية الوضوح، وبأدلة في غاية اليقين. وفي مقارنة بين نتائج حكمة الفلسفة، وحكمة القرآن وما يعطيه كل منهما من تربية للمجتمع الإنساني،⁹ يقول النورسي:

"أما ما يعطيه حكمة الفلسفة وحكمة القرآن من تربية للمجتمع الإنساني فهي، أن حكمة الفلسفة ترى "القوة" نقطة الاستناد في الحياة الاجتماعية، وتهدف إلى "المنفعة" في كل شيء، وتتخذ "الصراع" دستوراً للحياة، وتلتزم بـ "العنصرية" والقومية السلبية رابطة للجماعات، ومن المعلوم أن من شأن القوة هو "الاعتداء" وشأن المنفعة هو "التزاحم" إذ لا تفي لتغطية حاجات الجميع وتلبية رغباتهم، وشأن "الصراع" هو "النزاع والجدال"، وشأن "العنصرية" هو "الاعتداء" إذ تكبر بابتلاع غيرها وتتوسع على حساب العناصر الأخرى، ومن هنا تلمس لِم سُلبت سعادة البشرية من جراء اللهاث وراء هذه الحكمة.¹⁰

أما حكمة القرآن الكريم، فهي تقبل "الحق" نقطة استناد في الحياة الاجتماعية، بدلاً من "القوة"، وتجعل "رضى الله سبحانه"، ونيل الفضائل هو الغاية بدلاً من "المنفعة"، وتتخذ دستور "التعاون" أساساً في الحياة، بدلاً من دستور "الصراع"، وتجعل غايتها الحد من تجاوز النفس الأمانة، ودفع الروح إلى معالي الأمور، وأشباع مشاعرها السامية لسوق الإنسان نحو الكمال والمثل الإنسانية.¹¹

وموقف النورسي من الفلسفة من حيث هي ليس موقفاً عدائياً، وهو يؤمن بطريق العقل المنطقي مصدراً من مصادر المعرفة، ولكنه يرفض تحريف العقل من خلال مذاهب فلسفية معينة ترفض مبادئ الدين الحق "الوحي الإلهي"، استمع إليه يقول:

“... فالفلسفة التي تخدم الحياة الاجتماعية، وتعين الأخلاق والمثل الإنسانية وتمهد للرقى الصناعي، فهي في وفاق ومصالحة مع القرآن، بل هي خادمة لحكمة القرآن، فلا تعارضها ولا يمكنها ذلك، وأما الفلسفة التي غدت وسيلة للتردي في الضلالة والإلحاد والسقوط في هاوية المستنقع الآسن للطبيعة، فإنها تنتج السفاهة واللهو والغفلة والضلالة وتعارض الحقائق القرآنية.¹²”

فأنت تجد أن النورسي انطلق من قلب القرآن إلى أعماق الأنفس والآفاق في ترابط كوني رائع، يُريح العقل ويستولي على القلب، وصاغ فكره من أسماء الله الحسنى بناءً كونياً متناسقاً، يُشكل نظرة الإنسان المسلم إلى الكون والحياة والمجتمع والإنسان، وينقذ الإنسان العصري الحاضر من غربة قاتلة وفصام نكد، مع آثار رحمة الله التي تغمر الحياة، من خلال قيم مجموعة موحدة¹³، فقدم لنا من خلال أكثر من مائة وثلاثين رسالة عميقة، انبثقت من هدى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، شرحاً لأصول العقائد الإسلامية بأدلتها العقلية والعلمية القاطعة الدامغة، وقدم لنا أيضاً مذهبية الإسلام الشاملة في الكون والحياة والمجتمع والإنسان، بدقائقها ومقدماتها ونتائجها، قدم لنا علاجاً للمشكلات الخطيرة التي أثرت في عصره أمام الإسلام، والشبهات التي نثرت بتعمد من حوله، وذلك بمنطق يتعد عن قيود المصطلحات الكلامية، وجمود المقدمات الفلسفية التي تزيد في الحيرة، دون أن تنقذ - هذه القيود الكلامية وهذا الجمود الفلسفي - في عصرنا هذا عقيدة أو تبني إيماناً، أو تدخل إشراق الروحانية الإسلامية المترنة في كيان الإنسان المسلم.

ج - بعض النواحي اللامعة في شخصية النورسي:

جاءت حياة شيخنا بين قوم انحسرت اللغة العربية عنهم، وأصبحوا في الغالبية الغالبة منهم لا يتكلمونها، فالنورسي إنسان غير عربي، يكشف من أسرار القرآن الكريم وإيجاءاته ومراميه وبلاغة ألفاظه وتراكيبه ونظمه وأبعاده والحكمة فيه، وهذا شيء يكاد يكون معجزة، وأمر يدعو للدهشة والإكبار حقاً.

ومن النواحي اللامعة أيضاً في شخصية النورسي، أنه كان مؤثراً غاية التأثير على سامعيه، مقنعاً لمن يريد أن يقتنع منهم، وهذه الملكة مكنت لهم من نفوس طلابه، وجعلتهم طاقة مقتدرة على حمل رسائل النور إلى كل مكان تمكن للإيمان وترشد إلى العمل الصالح وتغرس السلام الاجتماعي والتعاون المحبة، وتُرسى دعائم الأمة الإسلامية السعيدة في الدارين.¹⁴

فمن يتأمل "رسائل النور" يجدها تركز على تربية النفس البشرية وغرس الحقائق الإيمانية فيها وصيغها بما، لتصبح هذه الحقائق سلوكاً وحركة إنسانية تعمر الكون على سنة الله ورسوله، وخصوصاً وأن النورسي وجد نفسه يعيش في مجتمع إسلامي غاب عنه الوعي الإيماني العميق، وكان لا بد أن يعود، فكانت رسائل النور.

وقضية الإسلام الملحة عند شيخنا النورسي ليست قضية صراع سياسي يمكن أن يغلب فيه أو أن يكون مغلوباً، إنما هي قضية صراع حضاري رهيب، لا يمكن أن يغلب فيه الإسلام، إذا عرفه العالم على حقيقته، واعتقده وآمن به، لذا فهو يرى أن أوربا التي تمثل قمة حضارة اليوم يمكن أن تخفى في رحمها جنين الإسلام، إذا فهمته واستوعبته، وأن هذه الرحم ستنتشق عن هذا الوليد يوماً ما ليدرج في أحضان الغرب، وينمو ويكبر ويبلغ أشده.¹⁵

وقد وعى النورسي وأدرك همه وهدفه ورسالته، وقرر مستعيناً بالله تعالى وحده، أن يضحى بالغالي والرخيص من أجل تحقيق هذا الطموح، وتجسيد هذه الرسالة، وكان أن نزل إلى الميدان مدافعاً عن دين الله، مجاهداً في سبيله، ضحي في سبيل إنقاذ الإيمان وإيقاظ الأمة بكل شيء، بالدنيا كلها، راحة ومالاً ومنصباً، فنفى، وسجن، وشرد، ولوحق، حتى آخر لحظة من لحظات حياته المثمرة المباركة، وهو على فراش الموت.¹⁶

وما أجهل وأبلغ وأعمق عبارته التي يخاطب بها البائسين الذين سقطوا في درك الكفر المطلق، الذين باعوا دينهم بدنياهم، الذين زعموا أن الإلحاد ضرب من متطلبات السياسة، وأن النورسي، برسائل النور، يُفسد عليهم مدنيتهم، ويجول دون تمتعهم بمباهج الحياة وملذاتها، تقول كلمات هذه العبارة:

ألا فلتعلموا جيداً، بأنه لو كان من الرؤوس بعدد ما في رأسي من شعر، وفصل في كل يوم واحد عن جسدي، فلن أحيي هذا الرأس الذي نذرت له للحقائق القرآنية، أمام الزندقة والكفر المطلق، ولن أتخلى بحال من الأحوال عن هذه الخدمة الإيمانية النورية، ولا يسعني التخلي عنها.¹⁷

ولا شك أن رجلاً يمثل هذه القوة والشجاعة والثبات والإيمان بالحق، والاعتزاز بالعقيدة وبالانتساب إلى أفضل نسب وأعزه وأكرم، نسب الدين الإسلامي، لا شك أن مدافعاً عن دين الله، مجاهداً في سبيله، كالنورسي، فدائياً باع الدنيا كلها في سبيل الآخرة، ومرضاة الله ونفع الناس، نُفي وسجن وشرد، وكل همه إرشاد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان، وحثهم على احترام الفكر الإيماني، واعتباره الحياة التي لا غني لحياهم الإيمانية عنها.

أقول لا شك أن النورسي الذي تجسدت فيه كل هذه القيم، كان مُحاطاً بالعناية والفضل الإلهية، وكفى بما سنداً ووعوناً لأن يبرهن للعالم أجمع. "أن القرآن الكريم شمس معنوية لا يجبو سناها ولا يمكن إطفاء نورها".

وتأمل معي جميل عبارته التي يقول فيها:

"فتلك الفتوحات التي هيأها العناية الإلهية لرسائل النور، جعلتني أحب تلك الحياة الضجرة القلقة المضطربة، بل جعلتني أردد ألف شكر وشكر للبارئ سبحانه وتعالى.."
حقاً فقد جعلته هذه الفتوحات التي هيأها العناية الإلهية، راضياً بجميع المشقات الآتية على شخصه، وبكل سرور وامتنان، ويضحى بروحه ونفسه قبل جسده، في سبيل سلامة "رسائل النور" وسلامة "طلاب النور".

ثانياً: "مشكلة الشر" في رسائل النور:

أ - " الشر " ليس أصلاً في العالم، وإنما سبيل لمعرفة الخير:

الوجود عند النورسي خير محض، ونور وجمال، والعدم شر محض وظلام وقبح، ويصدر الخير من الخير المطلق تبارك وتعالى، من الجميل المطلق عز وعلا، ولا يصدر من الحكيم المطلق سبحانه العيب البتة.

ويذهب النورسي إلى أن الكمال والخير والحسن في الكائنات هي المقصودة بالذات، وهي الكليات، وأن الشر والقبح والنقصان جزئيات بالنسبة إليها قليلة تبعية مغمورة في الخلقة، خلقتها خالقها منتشرة بين الحسن والكمال، لا لذاها، بل لتكون مقدمة وواحداً قياسياً لظهور - بل لوجود - حقائق الخير والكمال والحسن.¹⁸

فالخير هو الأصل في العالم وكل ما ينزل بالحياة جميل وحسن، حتى الأوضاع التي تتسم بالآلام والمصائب - من وجهة نظرنا ورؤيتنا القاصرة - حتى هذه، أنوار جمال لطيف تشف عن لأشعة رحمة ضمن لمعات الحكمة الإلهية، إظهار لأحكام بعض الأسماء الحسنیة.¹⁹ والمحصلة أن الضلالة والشر بأكثريتها المطلقة شئ عدمي وسلي وغير أصيل، وهي إخلال وتخريب، أما الهداية والخير، فهي بأكثريتها المطلقة ذات وجود وشيء إيجابي وأصيل وهي أعمار وبناء²⁰ والشر ملازم للخير، والاثان نقيضان في الحياة لكنهما دائماً رفيقا درب وطريق، مادامت الحياة، ومادام الإنسان حيا يرزق، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها، ليحاسب الأشرار ويجزي الأخيار.

الخير والشر - عند شيخنا النورسي - عنصران موجودان في كل مكان، تتصارع آثارهما وثمارهما بعضها مع البعض الآخر، وينتج عن هذا، التغير الدائم والتبدل المستمر،

وفروع وأغصان هذين العنصرين المتضادين ونتائجهما سيمتدان ويستمران حتى يوم القيامة، وستفرقان أخيراً إلى جنة وإلى جهنم.²¹ فالخطيئة لن تختفي أبداً من حياتنا، وما علينا أن نفعله أن ندرس ونبحث لماذا يخطئ الناس، وما الذي أوصلهم إلى مستنقع الرذيلة ووحل الخطيئة، فإذا عرفنا تجنبنا الوقوع في مثل ما وقعوا فيه.

واليك بعض التفصيل لرؤية النورسي في مسألة الشر، والمستمدة أساساً من القرآن الكريم والتي تبصرنا بحقيقة أن الطريق الوحيد للتخلص من الشرور، من الخطيئة، هو طريق السير في نور التوحيد بكل إيمان وبكل محبة.

يحدثنا شيخنا النورسي في “كليات رسائل النور” عن حياة الغربة والأسر التي أضطر إليها، وما تضمنته من شعوره بالآلام كبيرة، إضافة إلى إحساسه بالآلام إخوانه ووطنه، بل والإنسانية جمعاء، بما منَّ الله عز وعلا عليه برقة إنسانية شفوقة موجودة في فطرته جعلته مهتماً ومهموماً بالعالم الإسلامي اهتمامه بداره ووطنه، بل إن شيخنا كان يتألم حتى لآلام الحيوان²² ويظهرنا النورسي على هدفه من عرض جروحه المؤلمة هذه، وهو يبيان كيف أن الترياق القدسي للقرآن الحكيم، شفاء ناجع ونور لامع لهذه الجروح²³، ونجده يحدثنا عن شرور أخرى - على الأقل من وجهة نظرنا غير المتعمقة - إضافة إلى هذه الشرور الأخلاقية، كالمصائب والأمراض والأوبئة والزلازل والفيضانات والموت، أقول يحدثنا عنها شيخنا من خلال رؤيته الجمالية لكل ما يحدث في هذه الدنيا، وبنص عبارته:-

“هذه الدنيا حديقة متجددة على الدوام، تظهر في مراهاها تجليات الأسماء الحسنی للصانع ذي الجلال، ومزرعة لغراس الآخرة²⁴، وهو أيضاً يفسر وجود الشر، سواء أكان أخلاقياً أم طبيعياً - تفسيراً يتلائم ويتوافق مع العلم والقدرة والإرادة والرحمة والشفقة والعناية الإلهية.

وتبدو رؤيته الجمالية لكل ما يحدث في هذه الدنيا، في كثير من عباراته التي ضمنها “وسائل النور”، استمع إليه مثلاً يقول:

“إن كل شئ في الكون ينطوي على خير، وفيه جمال وحسن، أما الشر والقبح فهما جزئيان جدا وهما بحكم وحدتين قياسيتين، أي أنهما وجدا لإظهار ما في الخير وما في الجمال من مراتب كثيرة وحقائق عديدة، لذا يعد الشر خيراً والقبح حسناً من هذه الزاوية، أي من زاوية كونهما وسائل لإبراز المراتب والحقائق²⁵ وهو يقول أيضاً:

“لقد تحققت لدي العقول السليمة، أن الخير هو الأصل في العالم، أما الشر فهو تبعي، فالخير كلي والشر جزئي، وثبت بشهادة العلوم جميعها وبتصديق الاستقراء التام

الناشئ من نظر الحكمة، أن الحسن والخير والحق والكمال، هو المقصود بالذات والغالب المطلق في خلق العالم، أما الشر والقبح والباطل، فهي أمور تبعية ومغلوقة ومغمورة، وحتى لو كانت لها الصولة فهي صولة مؤقتة²⁶. وما نطلق عليه اسم “الشرور” لكثير من الحوادث ليس شراً، فلأشياء، وللحوادث اتجاهات وزاوي مختلفة، إذ قد يبدو شيء ما شراً من زاوية معينة، وخيراً من زاوية أخرى، فهناك حوادث يبدو ظاهرها سيئاً وقبيحاً ومشوشاً، ولكن جمال براق خلف الستار الظاهري²⁷ لها حتى أن القرآن الكريم يشر إلى هذا الخصوص بشكل واضح { وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة: 216]؛ والسطحية، والتطلع إلى القشور، والاكتفاء بمطالعة الظاهر وراء حكم الإنسان بقبح شيء ما، وإطلاق إسم “الشر” عليه، وهذا انخداع معرفي ينبهنا إليه النورسي ويجذرنا منه.²⁸

ويحدثنا النورسي عن حكمة مزج الشر بالخير، وأن الشر هو سبيلنا لمعرفة “الخير”، إذ لا معنى للعافية دون وجود المرض، ولا تذوق لذة الصحة إن لم نجرب المرض فيقول: “أن الشر في الكون والمخلوقات ليس هدفاً لذاته، وأنا هو وحدة قياسية لتتقلب حقيقة واحدة للجمال إلى حقائق كثيرة، والشر كذلك، بل حتى الشيطان نفسه، إنما خلق وسلط على البشرية ليكون وسيلة لترقيات البشر غير المحدودة نحو الكمال التي لا تنال إلا بالتسابق والمجاهدة، وأمثلة هذه الشرور والقبايح الجزئية خلقت في الكون لتكون وسيلة لإظهار أنواع الخير والجمال الكليين.²⁹ وهو يقول أيضاً:

“ إن قبلاً يكون سبباً لإنتاج أنواع من الجمال أو سبباً لإظهارها، يعد كذلك جمالاً، وإن انعدام قبح يؤدي إلى إخفاء كثير من الجمال، وإلي عدم ظهوره، لا يعد قبلاً واحداً، بل أضعافاً مضاعفة من القبح³⁰، بل إن الشر القليل يفتقر بل يستحسن لأجل الخير الكثير، لأن في ترك الخير الكثير لأن فيه شراً قليلاً شراً كثيراً، وفي نظر الحكمة إذا قابل الشر القليل شراً كثيراً صار الشر القليل حسناً بالغير.³¹ وعن ملازمة الشر للخير، وأهمها دائماً رقيقاً درب وطريق، وعنصران موجودان في كل مكان حتى يرث الله الأرض، يقول النورسي:

“ إن الله جل جلاله لما أراد أن يبدع عالماً للإبتلاء والامتحان لحكم كثيرة تدق عن العقول، وأراد تغيير ذلك العالم وتحوله لحكم، مزج الشر بالخير، وأدرج الضر في النفع، وأدمج القبح في الحسن، فوصلها بجهنم وأمدّها بها، وساق المحاسن والكمالات تتجلى في

الجنة، وأيضاً لما أراد تجربة البشر ومسابقتهم وأراد وجود اختلافات وتغيرات فيهم في دار الابتلاء، خلط الأشرار بالأبرار، ثم لما انقضى وقت التجربة، وتعلقت الإرادة بأيديهم جعل الأشرار مظهر خطاب { وَأَمْتَاَزُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ } [سورة يس: 59].
 وصير الأبرار مظهر تلطيف وتشريف { فَأَدْخُلُوهَا خَالِدِينَ } [سورة الزمر: 73]، ولما امتاز النوعان تصنعت الكائنات فانسلت مادة الضر والشر عن عنصر النفع والخير والكمال، فاختارت جانباً، والحاصل: انه لو أمعن النظر في الكائنات صودف فيها عنصران أساسان، وعرقان ممتدان إذا تحصلا وتأبدا صار جنة وجهنم³².
 وتشكل المصائب والشورور - في رأي شيخنا - جزءاً من نتائج القوانين العامة والكلية التي تمثل الإرادة الكلية للسلطنة الربانية فقط، فهذه الشورور الجزئية - إذن - من مقتضى سريان وجريان هذه القوانين، ويرى النورسي أن الله تعالى يقوم بتجليات خاصة بمحافظلة الإنسان من الشورور الجزئية التي تظهر للوجود عند قيام القوانين الكلية بإجراء فعاليتها، ويسرع - عز وجل - إلى نجاته ويوصل رحمته إليه إما مباشرة أو بوساطة عبادة ودعاء ذلك الإنسان.

واستناداً إلى هذه الرؤية التي ترى الأشياء تجليات الأسماء الحسنى للمبدع ذي الجلال، ينظر النورسي إلى التلف والتخريبات والمرض والشيخوخة والموت و "حتى خلق الشيطان خير وجميل من هذه الزاوية، لأنه وسيلة للمنافسة والمسابقة والنضال، الذي هو المحرك لظهور الفروقات والتمايزات المعنوية.³³ وما أجمل عبارته التي يقول فيها:
 "إن حياة على وسادة الراحة ليست وجود خير محض، بل هي أقرب اتجاهها إلى العدم وإلى الشر المحض".³⁴

ب - الموت خيرٌ و "باب الرحمة" لأهل الإيمان:

مادم الله موجوداً، وعلمه يحيط بكل شيء، فلا بد ألا يكون هناك في عالم المؤمن، عدم، وإعدام، وانعدام وعبث، ومحو وفناء، من زاوية الحقيقة، بينما دنيا الكفار زاخرة بالعدم والفراق والانعدام وملبئة بالعبث والغناء، والإيمان مثلما ينقذ الإنسان من الإعدام الأبدي أثناء الموت، فهو ينقذ دنيا كل شخص أيضاً من ظلمات العدم والانعدام والعبث، بينما الكفر - ولا سيما إن كان مطلقاً - فإنه يعدم ذلك الإنسان، ويعدم دنياه الخاصة به بالموت، ويلقيه في ظلمات جهنم معنوية محولاً لذائذ حياته آلاماً وغصصاً.³⁵
 الموت - في رسائل النور - ليس إعداماً، ولا عبثاً ولا سدى ولا انقراضاً، ولا انطفاءً، ولا فراغاً أبدياً، بل هو تسريح من لدن فعال حكيم رحيم، وتبديل مكان وتغيير

مقام، وسوق نحو السعادة الخالدة، حيث الوطن الأم، الوطن الأصلي، أي هو باب وصال لعالم البرزخ، فالموت - ومهما يبدو ظاهراً إنحلالاً وانطفاءً - إلا أنه في الحقيقة مبدأ ومقدمة لحياة باقية للإنسان وعنوان لتلك الحياة، مثلما تضمّر البذرة تحت الأرض وتموت ظاهراً، إلا أنها تمضي باطنا من حياة البذرة الجزئية إلى حياة السنبل الكلية. ومادامت هذه هي ماهية الموت - من زاوية الحقيقة - فلا ينبغي أن ينظر إليه كأنه شئ مخيف، بل يجب اعتباره تباشير الرحمة والسعادة³⁶، وتأمل معي عبارة النورسي التي يقول فيها:

“اعلم إن في إكثار ذكر القرآن لمال {إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ} [الأنعام:60]، {وَالِيهِ تُرْجَعُونَ} [البقرة:28]، {وَالِيهِ الْمَصِيرُ} [المائدة:18] {وَالِيهِ الْمآبُ} [الرعد:36]، بشارة عظيمة - وإن تضمنت للعاصي تهديداً - إذ تقول هذه الآيات للناس، إن الموت والزوال والفناء والفراق من الدنيا، ليست أبواباً للعدم والسقوط في ظلمات الغناء والانعدام، بل أبواباً للقدوم والذهاب إلى حضور سلطان الأزل والأبد”³⁷.

فالموت في رؤية شيخنا القرآنية، بداية رحلة جديدة من الحياة تأتي بعد أن يسلم المرء الروح ليبدأ مرحلة حياتية أشرف وأسمى من تلك الحياة المرئية المألوفة، والموت بهذا هو ممر الخلوص إلى الحياة الأشرف، وتأمل حديث النورسي عن هذا المعنى السامي اللطيف الذي تضمنته الآية الكريمة: {تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [يوسف: 101] ففي الأثناء التي كان يوسف - عليه السلام - فيها في ذروة السعادة والسرور، بعد أن أقر الله عينه ولقي والديه وتعارف وتحاب هو وأخوته، في هذه الأثناء تخبر الآية الكريمة أن يوسف - عليه السلام - نفسه، هو الذي يسأل ربه الجليل وفاته لينال سعادة أعظم من هذه السعادة التي ينعم بها يوسف وهو الأنيس بالحقيقة، إذ طلب الموت المر وهو في ذلك الوضع الدنيوي المفرح اللذيذ كي ينال تلك السعادة العظمى هناك. والموت أمر وجودي عبر عنه القرآن الكريم بقوله: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الملك: 2] فهو مخلوق وهو نعمة كالحياة، فأما عن كون الموت أمراً وجودياً فأليك نص النورسي.

“إن الموت في حقيقته تسريح وإنهاء لوظيفة الحياة الدنيا، وهو تبديل مكان وتحويل وجود، وهو دعوة إلى الحياة الباقية الخالدة ومقدمة لها، إذا كما أن مجيء الحياة إلى الدنيا هو بخلق وبتقدير إلهي، كذلك ذهابها من الدنيا هو أيضاً بخلق وتقدير وحكمة وتدبير إلهي”³⁸.

وأما عن كونه - الموت - نعمة كالحياة، فإن ذلك يتجلي في رؤية شيخنا النورسي في مظاهر عدة منها، أنه إنقاذ للإنسان من أعباء وظائف الحياة الدنيا، ومن تكاليف المعيشة المتصلة - وهو خروج من قضبان سجن الدنيا المظلم الضيق المضطرب، ودخول في رعاية المحبوب الباقي، وفي كنف رحمته الواسعة³⁹ والله تعالى هو الذي يهب الموت "وبميت"، أي هو الذي يسرحك من وظيفة الحياة، ويبدل مكانك في الدنيا الفانية، وينقذك من عبء الخدمة، ويحررك من مسؤولية الوظيفة، أي يأخذك من هذه الحياة الغانية إلى الحياة الباقية.⁴⁰

أضف الى ذلك، أنه كما أن الحياة برهان الأحدية، ودليل وجوب الوجود، فالموت دليل السرمدية والبقاء، فالموجدات تشهد بوجودها على وجوب الوجود، وتشهد بزوالها مع أسبابها، ومجيء أمثالها عقيبتها على أزليته وسرمديته وأحدثته، إذا أن تجدد المصنوعات الجميلة، وتبدل الموجدات اللطيفة وغروبها في طلوع أمثالها وأفولها في ظهور أشباهها، تشهد شهادة قاطعة على وجود ذي جمال سرمدي دائم التجلي، وعلى بقاءه ووحدته.⁴¹

إن هذا التحليل العميق الذي قدمه النورسي للموت، وأنه ليس فناء ولا اضمحلالاً وانسحاباً، وإنما هو مجرد تحول ونقله إلى الأكمل والأشرف، وهو بذلك تباشير الرحمة والسعادة، أقول إن تحليل النورسي هذا مفيد كل الإفادة على أكثر من مستوى، فهو مفيد على المستوى العقدي لأنه ينصب على ظاهره الموت التي هي عتبة اليوم الآخر، وهو جزء من الغيب الذي يؤمن به كل مؤمن، كما أن هذا التحليل مفيد على المستوى النفسي، لكونه يكسب المرء إطمئناناً وانسجاماً مع الذات، فهو إعلان عن بقاء الإنسان واستمراره واتصال حياته الأخرى بالأولى، وغير خاف أن فلسفة الموت عند شيخنا النورسي رفض لفلسفة العدم والإلغاء والتشاؤم التي أشاعتها الفلسفات المادية التي حصرت حياة الإنسان في بعد واحد وهو حياته في الدنيا، مما أصابه باليأس والتأزم والقلق والكآبة والعيشية.

أما وأن يكون الموت رحلة نحو حياة تفر النفس وتطمئن بها، لأن {الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [العنكبوت: 84]، فهذا يهون من شأن الموت، فلا يجعله ذلك الشبح المرعب الذي يفنى الإنسان ويدمره، ومثل هذا الإحساس يُكسب الإنسان شجاعة خاصة لمواجهة المشاق واقتحام الصعاب.⁴²
وليس أجمل من قول النورسي في الشعاعات.

ان اثنى ما عند الإنسان، وأعظم ما يحرص عليه ويدافع عنه ويجهد في الحفاظ عليه، هو روحه بلا شك، والمؤمن يحس يقيناً - بفرح عميق إزاء تسليم الإنسان لأعز ما يملكه في الوجود - وهو روحه - إلى يد "قوي أمين" ليحفظه من العبث والضياع والفناء".

ج - الإنسان منبع الشرور الأخلاقية:

يرى النورسي أن خلق الشر ليس شرّاً، وإنما كسب الشر شرّاً، لأن الخلق والإيجاد ينظر إليه من حيث النتائج العامة، فوجود شر واحد، إن كان مقدمة لنتائج كثيرة فإن إيجاده يصبح خيراً باعتبار نتائجه، أي يدخل في حكم الخير.⁴³ ويعطينا - كعادته دائماً في تبسيط الفكرة وسرعة وصولها إلينا واستيعابنا لها - مثلاً لذلك، يقول:

"النار لها فوائد ومنافع كثيرة جداً، فلا يحق لأحد أن يقول: إن إيجاد النار شر، إذا ما أساء استعمالها باختياره وجعلها شرّاً ووبالاً على نفسه، وكذلك خلق الشياطين وإيجادهم فيه نتائج كثيرة ذات حكمة للإنسان، كسموه في سلم الكمال والرقى، فلا يسوغ لمن استسلم للشيطان باختياره وكسبه الخاطيء - أن يقول: أن خلق الشيطان شرّاً، إذ قد عمل الشر لنفسه بكسبه الذاتي".⁴⁴

وهو يذهب إلى أن سبب الشر يتمثل في عدم قبول الخير الوارد من الخير المطلق سبحانه قبولاً حسناً، وأن النفس الإنسانية أمانة أمانة بالسوء وبالتالي فهي منبع الشرور الأخلاقية، ونطالع له "مونولوجاً" راقياً سامياً بينه وبين نفسه الغوية، يجسد لنا هذه المعاني، ومن خلاله يوجه النورسي نصحاً لكل نفس غوية مغرمة بالفخر معجبة بالشهرة هائمة وراء المدح والثناء.

تقول عبارات هذا المونولوج الجميلة الموحية:

" يا نفسي الغوية إن كانت بذيرة التين التي هي منشأ ألوف الثمرات، والساق النحيفة الصلبة التي تعلق بها مئات العناقيد، إن كانت هذه الثمرات والعناقيد من عمل تلك البذيرة والساق ومن مهارتهما، لزم كل من يستفيد من تلك النتائج أن يبدي المدح ويُظهر الثناء لهما! إن كانت هذه الدعوى حقاً، فلربما يكون لك حق أيضاً في الفخر والغرور لما حملت من النعم، بينما أنت لا تستحقين إلا الدم، لأنك لست كتلك البذيرة، ولا كتلك الساق، وذلك لما تحملين من جزء اختياري فتنقصين بفخرك وغرورك من قيمة تلك النعم وتبخسين حقها، وتبطينها بكفرانك النعم، فليس لك الفخر، بل

الشكر، ولا تليق بك الشهرة، بل التواضع والحياء، وما عليك إلا الاستغفار وملازمة الندم، لا المدح، فليس كمالك في الأنانية، بل في الاستهداء.⁴⁵ فالنفس ليست الفاعل ولا المصدر، بل المنفعل ومحل الفعل، وخلقت قابلة للخير، مرجع للشر، ولها تأثير، فعل، واحد فقط، وهو تسببها في الشر، عند عدم قبولها للخير الوارد من الخير المطلق قبولاً حسناً.

وتواصل كلمات النورسي الجميلة، فيقول:

“فيا نفسي ! لا تقولي إنني قد انتخبت من دون الناس كلهم، وهذه الثمرات إنما تظهر بوساطتي. بمعنى أن لي فضلاً ومزية ! كلا... وحاش لله.. بل قد أعطيت تلك الثمرات لأنك أحوج الناس إليها، وأكثرهم إفلاساً، وأكثرهم تألماً.”⁴⁶ معنى ذلك أن النفس الإنسانية تأمر صاحبها بالسوء، ومن بينه وأخطره أن يُغرم الإنسان بالفخر، ويعجب بالشهرة، ويهيم وراء المدح والثناء، لجرد أن بعضاً من الثمار، بعضاً من الخير، ظهر على يديه، فيظن أنه فاعله، وأنه مصدره، وتفويه نفسه بالفخر، وانتظار المدح والثناء من الآخرين، والحقيقة أن هذه الثمار، ليست من عمل الإنسان، ولا من مهارته، وإنما هي فعل الفاعل الحق، المصدر الحق، الله تبارك وتعالى، وينبغي على المرء الذي يظهر الحق تعالى على يديه، ومن خلاله بعض هذه الثمرات، بعض هذه النعم، ينبغي عليه الشكر والتواضع له عز وعلا، والحياء منه، فليس للإنسان أي فضل ومزية، كلا وحاش لله، “بل قد أعطيت تلك الثمرات له، لأنه أحوج الناس إليها، وأكثرهم إفلاساً، وأكثرهم تألماً.”

وفي الإنسان - وكما يذهب إلى ذلك النورسي - قابلية عظمى للخير، وقابلية عظمى للشر، وهو - الإنسان - يستطيع الأولى، أي يستطيع أن يكون خيراً، ويستطيع الثانية، أي أن يكون شريراً، وذلك بما منّ الله تعالى عليه بنعمة التكليف وحمل الأمانة، وشرّفه بها، وسمي به منزلة فوق كل الكائنات، يقول شيخنا النورسي :

“ إن في الإنسان جهتين، الأولى، جهة الإيجاد والوجود والخير والإيجابية والفعل، والأخرى جهة التخريب والعدم والشر والسلبية والانفعال، تتمثل الأولى في قبوله الخير الوارد من الخير المطلق، وفي إيمانه بالله وحده، وعبوديته له تعالى وحده، فإذا ما فعل الإنسان ذلك فاز بموقع مرموق فوق جميع المخلوقات، وتتمثل الجهة الثانية، في استنكاف العبد من العبودية وتجاهلها، وتباهيه بقدرته وأنانيته، وتخليه عن الدعاء والتوكل، وتكبره وهنا يستحق احتقار جميع الكائنات وازدراءها واستهجانها، بل إن تباهي الإنسان بقدرته وأنانيته إهانة للإنسانية وترذيل لها، تلك التي جعل لها الحق تعالى مقاماً عالياً رفيعاً، ووظيفة سامية حين شرفها بحمل الأمانة، بالتكليف، بالعبودية له تعالى.

وإذا ما تخلى الإنسان عن أنانيته، وترك اتباع هوى النفس، واكتمل عبداً لله تعالى تائباً مستغفراً ذاكراً له سبحانه، فسيكون مظهرًا للآية الكريمة: {يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ} [الفرقان:70] فتقلب القابلية العظمى عنده للشر، إلى قابلية عظمت للخير، ويكتسب قيمة أحسن تقويم، فيحلق عاليًا إلى أعلى عليين⁴⁷.
وهكذا يُقوِّم شيخنا - وينصح كلاً منا بذلك - نفسه الأمانة بالسوء، تلك النفس الجاهلة المتفاخرة المغرورة المرئية المعجبة بنفسها، ويعود بها إلى التحليق عاليًا إلى أعلى عليين، بالشكر والتواضع والحياء والاستغفار والاستهداء، وفي كلمة واحدة، في تمام العبودية للحق تبارك وتعالى.

فالإنسان هو منبع الشرور الأخلاقية، وبالتالي وجب عليه إصلاح أنانيته التي هي مصدر لمصائب ومعاصي كثيرة، أشنعها وأكثرها سوء المصيبة الدينية، والتي تتمثل في الكفر سبب كل شرور، يقول النورسي:

“المصيبة الحقيقية هي المصيبة الدينية”⁴⁸ ذلك لأن الكفر شر وسوء وتخريب وعدم تصديق، ولكن هذا الشر والسيئة الواحدة تتضمن تحقيرًا للكون بأجمعه، وإهانة للأسماء الإلهية، وسخرية من الإيمان بأكمله، ذلك لأن الكفر يجر التحليلات إلى العتب.⁴⁹

والإيمان يمثل العلاج من هذه المصيبة - وغيرها - على المستوى النفسي وعلى المستوى الكوني، والمؤمن هو الإنسان الذي وضع كل شيء، وحتى موقعه في الوجود على المستوى الكوني، في مكانه الصحيح، و“مادما نملك نعمة كبيرة لا تحد ونعمة ثمينة جدًا وقيمة جدًا مثل نعمة الإيمان، إذن فأهلاً بكل شيء، أهلاً بالشيخوخة وبالمرض، وأهلاً بالموت والوفاة”⁵⁰ ومع حلاوة الإيمان والرضا والقناعة يجب أن نمزق “الأنانية التي تغذيها النفس الأمانة”، ونظهر “هو”⁵¹.

وهكذا فأنت تجد أن الوجود - عند النورسي - كمالٌ ونور، هو الله تعالى الواجب الوجود، والقادر المطلق، والعالم المطلق والصانع ذو الجلال والإكرام⁵²، ثم تأتي الأسماء الإلهية الحسنى، “فإذا نظرنا من زاوية الحقيقة نرى أن الكمال والجمال يعود إلى الأسماء الألهية الحسنى وإلى نقوشها وجلوتها، فما دامت هذه الأسماء باقية وجلواتها دائمية، إذن فلا بد أن تجدد على الدوام وتنضج على الدوام وتحمل إذن فهي لا تتجه نحو العدم ونحو الغناء، بل ربما كانت في تغير وتبدل نسبي.”⁵³

وتجدد الإشارة هنا إلى أن النورسي يفترق عن القائلين “بوحدة الوجود”، ذلك لأنه مادام يرى وجودًا حقيقيًا للأشياء، ويرى إثباتًا معينًا لهذا الوجود، أي وجودًا نابغًا من قدرة القادر الأزلي⁵⁴، لذا يقول:

“كل شيء هو” ليس صحيحًا، فالصحيح هو “كل شيء منه” ولذا فإن كل ما يشاهد في هذا الكون من اللطائف والمحاسن، وكل أنواع الكمال والاشتياقات

والإنجذابات وكل الأشواق والتراحم إنما هي “معاني” و “مضامين” وكلمات معنوية تظهر بالضرورة وبالبداهة تجليات ألطاف وإحسان وكرم صانع هذه الكائنات ذي الجلال، للقلب وتفتح عين العقل”⁵⁵.

د - نقد النورسي لمذهب “وحدة الوجود”:

يلاحظ قارئ “رسائل النور”، أن النورسي يعرض ويناقش المذاهب الفكرية المختلفة، كلامية، فلسفية، صوفية، وفي عبارة بسيطة واضحة، مقنعة، تكشف عن استيعاب تام لهذه المذاهب، ومن بينها مذهب “وحدة الوجود”، وهو أشهر وأهم وأخطر وأصعب مصطلح صوفي فلسفي تناوله متفلسفة الصوفية المسلمون وغيرهم، وعرضه في مصنفاتهم التي تركوها لنا، في لغة رمزية شديدة التكتيف بعيدة المنال حتى عن المتخصصين، يعرض شيخنا لهذا المذهب مبيناً مضمونه، والفروق الكثيرة بين تصور الماديين له، وتصور الأولياء - الصوفية - وتمييزاً أيضاً بين “وحدة الشهود” و “وحدة الوجود” ومنتهاً إلى أن المنهج القويم ليس هو الذي اتبعه أصحاب “وحدة الوجود”، وليس هو الذي اتبعه أصحاب “وحدة الشهود” وإنما هو طريق الصحابة الكرام، وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدون. كل هذا في لغة واضحة بسيطة يفهمها ويستوعبها القارئ العادي قبل المتخصص، وهذه هي إحدى سمات النورسي كمفكر مسلم أصيل، يطلع، يفتح على الآراء الأخرى، ولكنه يعود دائماً إلى روح وجوهر منبع أساسي يستقي منه، وهو القرآن الحكيم، وهذا يمثل سر أصالته وقوته وجاذبيته كمفكر مسلم، عاش آراءه، فلم يكن ثمة فجوة بين ما يعتقد وما يسلك.

وبداية تعني “وحدة الوجود” - كما يُعرفنا النورسي وكما هي في مصنفات أصحابها - “حصر النظر في وجود” واجب الوجود، أي أن الموجود الحق هو “واجب الوجود” سبحانه فحسب، وأن سائر الموجودات ظلال باهته وزيف ووهم لا تستحق إطلاق صفة الوجود عليها خيال “واجب الوجود”، فالموجودات الممكنة “الممكنات والمخلوقات” تصغر وتتضاءل عند أصحاب هذا المشرب بحيث تنزل عندهم إلى درجة العدم والوهم، أي أنهم ينكرون وجود الكون بجانب وجود الله تعالى الذي هو واجب الوجود.⁵⁶

وحول سؤال عن رأي شيخنا في “وحدة الوجود”، يجيب:

“إنه “مذهب وحدة الوجود”، استغراق في التوحيد، وتوحيد ذوقي لا ينحصر في نظر العقل والفكر، إذ أن شدة الإستغراق في التوحيد - بعد التوحيد الربوبية وتوحيد الألوهية - يفضي إلى وحدة القدرة، أي: لا مؤثر في الكون إلا الله، ثم يؤدي هذا إلى

وحدة الإدارة، وهذا يسوق إلى “وحدة الشهود”، ثم إلى “وحدة الوجود”، ومن بعدها رؤية وجود واحد ثم إلى رؤية موجود واحد.⁵⁷

ويرى النورسي أن سلطنة الألوهية تقتضي وجود أسماء حسنى حقيقية متعددة لها، أمثال الرحمن، الرزاق، الوهاب، الخلاق، الفعال، الكريم، الرحيم، وهذه الأسماء والصفات تقتضي كذلك وجود مرايا حقيقية لها، وحسب منطق أصحاب وحدة الوجود “لا موجود إلا هو”، لا تجد أسماء الله الحسنى هذه، تجلياتها الحقيقية، بل تصبح إعتبارية ونسبية، بينما هذه الأسماء هي أسماء حقيقية كاسم “الموجود”، ولا يمكن أن تكون ظلاً، وهي أصلية، لا يمكن أن تكون تابعة.⁵⁸

لذا فإن اعتبار أسماء معينة من أسماء الله الحسنى أمثال “الموجود” الواحد، الأحد، واجب الوجود” هي الأسماء الحقيقية فقط، وتوهم الأسماء الحسنى الأخرى تابعة وظلاً لها، حكمٌ غير عادل، وتنكب عن واجب الاحترام لهذه الأسماء الحسنى كما ينبغي.⁵⁹ ومن هنا فهناك - كما ينبهنا النورسي - محاذير ومخاطر لهذا المشرب، أولها وأهمها، أن أركان الإيمان ستة، فهناك عدا ركن الإيمان بالله أركان أخرى كالإيمان بالآخرة، فهذه الأركان تستدعي وجود الممكنات، أي أن هذه الأركان المحكمة لا يمكن أن تقوم على أساس خيالي.

فعلى صاحب هذا المشرب - وحدة الموجود - ألا يصحب معه هذا المشرب، وألا يعمل بمقتضاه عندما يفيق من عالم الاستغراق والنشوة، ثم إن عليه ألا يقلب هذا المشرب القلبي والوجداني والذوقي إلى أسس عقلية وقولية وعلمية، ذلك لأن الدساتير العقلية، والقوانين العلمية، وأصول علم الكلام النابعة من الكتاب والسنة المطهرين، لا يمكنها أن تتحمل هذا المشرب، ولا تتسع لإمكانية تطبيقه، إذن فليس هذا المشرب - وحدة الوجود - في أعلى المراتب وأسمائها، بل قد يكون ذا علو⁶⁰ إلا أنه ناقص في علوه.⁶¹

ويفرق النورسي بين ما لدى الفلاسفة الماديين - ومن وهنت عقيدتهم من المفكرين - من مذهب “وحدة الوجود”، وما لدى الأولياء منه، يقول:

“إن فروقاً كثيرة بين تصور الماديين للمذهب - وحدة الوجود - وتصور الأولياء - الصوفية، منها، أن علماء الصوفية قد حصروا نظرهم في “واجب الوجود” واستغرقوا التأمل فيه بكل قواهم، حتى أنكروا وجود الكائنات ولم يعودوا يرون في الوجود إلا هو، أما الآخرون “فلاسفة الماديون وضعفاء الإيمان” فقد صرفوا كل تفكيرهم ونظرهم في المادة، حتى ابتعدوا عن إدراك الألوهية، بل أولوا المادة أهمية عظيمة حتى جعلتهم لا يرون من الوجود إلا المادة، بل تبادوا في الضلالة بحيث مزجوا الألوهية في المادة، بل استغنوا

عنها لشدة حصرهم النظر في الكائنات، ومن هذه الفروق أيضاً، أن مسلك الأولياء مسلكٌ ذوقي، بينما مسلك الآخريين مسلكٌ عقلي، وأيضاً أن الأولياء عبّاد الله ومحبه، بينما الفلاسفة يعبدون أنفسهم وهواهم، فأين الثري من الثريا، وأين الضياء الساطع من الظلمة الدامسة.⁶²

ونحن واجدوه يميز أيضاً بين “وحدة الشهود” و “وحدة الوجود” قائلاً: “ولكن مشرب أهل” وحدة الشهود هو الصحو والتمييز والانتباه، بينما مشرب أهل “وحدة الوجود” هو الغناء والسكر، والمشرب الصافي هو مشرب الصحو والتمييز.⁶³

فشيخنا يميل هنا إلى مشرب الصحو والتمييز والانتباه، إلى الفرق بين الخالق والمخلوق، إلى الإثنية، ولا يستحسن مشرب أصحاب الغناء والسكر، أصحاب الجمع، أصحاب الوحدة بين الخالق والمخلوق، لما في ذلك من أخطار عديدة.⁶⁴

وبعد هذه السياحة العقلية والذوقية الممتعة والدقيقة للنورسي، ينتهي إلى أن معرفة الله تعالى الناتجة عن طريق علم الكلام، كما تبدو ناقصة وقاصرة في نظر ابن عربي “ت 638هـ⁶⁵، فإن المعرفة الناتجة عن طريق التصوف أيضاً ناقصة ومبتورة بالنسبة نفسها، أمام المعرفة التي استقاها ورثة الأنبياء، من القرآن الكريم مباشرة. ذلك لأن ابن عربي يقول “لا موجود إلا هو” لأجل الحصول على الحضور القلبي الدائم، أمام الله سبحانه وتعالى، حتى وصل به الأمر إلى إنكار وجود الكائنات، بينما المعرفة المستقاة من القرآن الكريم تمنح الحضور القلبي الدائم، فضلاً عن أنها لا تقضي على الكائنات بالعدم، ولا تسجنها في سجن النسيان المطلق، بل تنقذها من الإهمال والعبثية وتستخدمها في سبيل الله سبحانه، جاعلة من كل شيء مرآة تعكس المعرفة الإلهية، وتفتح في كل شيء نافذة إلى المعرفة الإلهية.⁶⁶

ولذا فإن الصراط المستقيم، إنما هو طريق الصحابة الكرام وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدون، والمنهج القويم إنما هو منهجهم، فهم يرون أن حقائق الأشياء ثابتة، وهي القاعدة الكلية لديهم، وهم الذين يعلمون أن الأدب اللائق بحق الله سبحانه وتعالى هو قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: 11]، أي أنه تعالى منزّه عن الشبيه والتميز والتجزؤ، وأن علاقته بالموجودات علاقة الخالق بالمخلوقات، فالموجودات ليست أوهاماً، كما يدعى أصحاب وحدة الوجود، بل هذه الأشياء الظاهرة هي من آثار الله سبحانه وتعالى، إذن فليس صحيحاً قولهم “لا موجود إلا هو” وإنما الصحيح “لا موجود إلا منه”، ذلك لأن الحادثات لا يمكن أن تكون القديم نفسه، أي أزلية.⁶⁷

وعندما يشير الصحابة والمجاهدون والأصفياء وأئمة أهل البيت، إلى أن "حقائق الأشياء ثابتة" فإنهم يقرون بأن لأسماء الله تعالى تجليات حقيقية، وأن لجميع الأشياء وجوداً عرضياً، أسبغ الله عليها بالخلق والإيجاد، ومع أن هذا الوجود يعتبر وجوداً عرضياً وضعيفاً وظلاً غير دائم بالنسبة لوجود "واجب الوجود"، إلا أنه ليس وهماً وليس خيالاً، فإن الله سبحانه وتعالى، قد أسبغ على الأشياء صفة الوجود بتجلي اسمه "الخالق"، وهو يديم هذا الوجود.⁶⁸

هـ - الإرادة الإنسانية بين القدر والجزء الاختياري:

1- الإنسان حر في نطاق رعاية القدر:

احترم النورسي إرادة الإنسان، ونظر إليها - كحقيقة كل نظراته - نظرة قرآنية وسطية، فهو لم يبلغها، وهو أيضاً لم يبلغ في قدراتها حتى يتحدى - أو هكذا يتوهم البعض - الضرورات القدرية، فهي - إرادة الإنسان - إرادة جزئية - يمكن تقويتها بالإيمان، وبممارسة التدريب الإرادي الخاص بالامتناع عن السلوك الفطري المتاح، والتدريب على الأعمال الإيجابية، والتكيف مع الصبر على الطاعة والبلاء، ونجده يحذر من اليأس والقنوط والطمع وحب الظهور والخوف والحزن والاستعجال والاستبداد بالرأي والتقليد والتسويق والراحة والإسراف والرياء والعجب والأنانية.

والإنسان - في رسائل النور - هو الصنعة الإلهية للخالق سبحانه وتعالى، وهو أرقى معجزة من معجزات قدرته وألطفها، حيث خلقه البارئ مظهراً ونموذجاً للكائنات بأسرها⁶⁹، ولذلك فإن الإنسان هو الثمرة النهائية لشجرة الحلقة⁷⁰، وللسبب ذاته جعل الله تعالى الإنسان مركزاً للكون ومحوراً، بل سخر له الكون بتنظيم أنواع النعم المبتوثة في الكائنات وربطها بأوامر المنافع والتي تخص الإنسان، من منطلق أنه من غير المعقول أن يترك الصانع الحكيم - تعالى - الإنسان سدى، وهو الذي خلقه، أعظم نتيجة للسموات والأرض، وأكمل ثمرة من ثمرات العالم، ومن غير المعقول أن يتركه للأسباب والمصادفات⁷¹، وهو - الإنسان - يملك أجهزة يتمكن بها تقدير وتنمية خزائن رحمته الواسعة، وهو مخلوق على صورة خليفة في الأرض، يملك من الأجهزة الحساسة ما يتمكن بها قياس أدق دقائق تجليات أسماء خالقه الحسن.⁷²

"رسائل النور" حرية الإرادة البشرية، في نطاق رعاية القدر، وعندما يتحدث النورسي عن القدر، لا يخالف المعنى المتفق عليه بين المدارس الإسلامية، غير أن معالجته للقدر عليها مسحة الخاصة في تناول الأمور الفكرية بتعمق وشمولية، وإخراجها من التجريدات إلى الوقائع.

وموضوع القدر من الموضوعات التي حيرت أصحاب العقول منذ فجر التاريخ، سواء كانوا من الفلاسفة أو العلماء أو رجال الدين، وقد عنى بها القرآن الكريم عناية كبيرة وأورد الإشارة إليها في آيات عديدة منها: {وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم} [الحجر:473]، {وكل شيء أحصيناه في إمام مبين} [يس:12]، {وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً} [آل عمران:145]، {ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك} [النساء:79].

وينتهي النورسي إلى أن جميع الآيات القرآنية التي أشارت إلى موضوع “القدر”، تدل دلالة واضحة لا لبس فيها على أن القدر بيده كل شيء، وأن اللوح المحفوظ مسطور فيه دقائق حياة كل إنسان من مولده إلى موته، وأن الإنسان في تصرفاته مربوط بالقدر ومشدود بخيوط لا يراها، وفي نفس الوقت تثبت الآيات جميعها أن الإنسان مسئول عن عمله، وأنه يثاب على العمل الصالح، ويعاقب على ارتكاب السيئات، ولهذا أعدت الجنة للمتقين، والنار للمعتدين الخارجين عن النهج الإسلامي، ولكن لا يمكن أن يسأل الإنسان إلا إذا كان له قدر من الاختيار والحرية فهناك مع القدر الثابت الوجود والتصرف، حيزاً لحرية الإرادة البشرية، وعلي ذلك فالمهمة تنحصر في توجيه ذلك الخير باستثمار الروح القرآنية.

وإليك بعض التفصيل لرؤية “رسائل النور” في الإرادة الإنسانية، والمستمدة من القرآن الكريم يستهل النورسي رسالته الخاصة بالقدر، في كلماته وهي الكلمة هي السادسة والعشرون بقوله:

“إن القدر والجزء الاختياري جزءان من إيمان حالي ووجداني، يبين نهاية حدود الإيمان والإسلام، وليس مباحث علمية ونظرية، أي أن المؤمن يعطي الله كل شيء، ويُحيل إليه كل أمر، وما يزال هكذا حتى يُحيل فعله ونفسه إليه، ولكي لا ينجو في النهاية من التكليف والمسؤولية يبرز أمامه الجزء الاختياري قائلاً له: أنت مسؤول، أنت مكلف.

وتتابع قراءة النورسي:

“أجل إن القدر والجزء الاختياري هما في أعلي مراتب الإيمان والإسلام، قد دخلا ضمن المسائل الإيمانية، لأنهما ينقدان النفس الإنسانية، فالقدر ينقدها من الغرور، والجزء الاختياري ينجيها من الشعور بعدم المسؤولية، وليس من المسائل العلمية والنظرية التي تفضي إلى ما يناقض سر القدر، وحكمة الجزء الاختياري كلياً بالتشبه بالقدر للتبرئة

من مسؤولية السيئات التي اقترفتها النفوس الأمارة بالسوء، والافتخار بالفضائل التي أنعمت عليه والاعتزاز بما وإسنادها إلى الجزء الاختياري.⁷³ ونحن واجدون في هذا النص رؤية واضحة وعميقة لمسألة القدر والاختيار، من بين ملاحظها:

- إن مسائل القدر والاختيار، من المسائل الإيمانية المهمة، لأنها ينقذان النفس البشرية، فالقدر ينقذها من الغرور، لأن الله تعالي خالق الإنسان وخالق فعله، واردة الإنسان ليست مستقلة عن الإرادة الإلهية، ويجدثنا النورسي عن بعض الآيات القرآنية الكريمة { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ } [النساء: 79] فيقول:

“ أن ما تقتضيه النفس دائما أنها تنسب الخير إلى ذاتها، ما يسوقها هذا إلى الفخر والعجب، فعلي المرء أن لا يرى من نفسه إلا القصور والنقص والعجز والفقر، وأن يرى كل محاسنه وكمالاته إحسانا من فاطره الجليل، ويتقبلها نعما منه سبحانه فيشكر عندئذ بدل الفخر، ويحمد بدل المدح والمباهاة.⁷⁴

وتوصل شيخنا النورسي إلى أن نوازع الخير في النفس البشرية مردها في الغالبية الغالبة منها إلى القدر، وقد استثمر هذا في دعوة النفس الخيرة إلى التواضع والبعد عن الغرور وزيادة الاعتداد بالنفس الذي إذا زاد قد يخرجها عن طاعة الله، ويدفعها إلى الطغيان والخطأ، بينما نوازع الشر والرذيلة في أعماق هذه النفس ودوافعها ذاتية، وتطلق النفس إليها مستقلة ما يتاح لها من حرية تستوجب مسؤوليتها، واستثمر ذلك في دفع النفس المخطئة إلى التوبة لضمان عدم العودة إلى ارتكاب السيئات، وكان تحريجه هذا منهجا تربويا رائعا.

واستمع إلى جميل عبارته التي يقول فيها :

“ إن الذي يعرف “ أنا ” على طبيعتها وعلي وجهها الصحيح، ويلزمها حدها، يدخل تحت بشارة “ قد أفلح من زكاهها ”، ولكن إذا نسي “ أنا ” حكمة خالقه معتمدا في نفسه إنه المالك، فقد خان الأمانة، ودخل ضمن النذير الإلهي { وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا } [الشمس: 10].⁷⁵

وتأمل أيضا - عبارته البالغة الوضوح، يقول:

“ إن الله تعالي لما خلق الخير المحض أعني الملائكة، والشر المحض أعني الشياطين، وما لا خير عليه ولا شر أعني البهائم، اقتضت حكمة الفيض المطلق وجود القسم الرابع الجامع

بين الخير والشر، إن انقادت القوة الشهوية والغضبية للقوة العقلية فاق البشر على الملائكة بسبب المجاهدة، وإن انعكست القضية صار أنزل من البهائم لعدم العذر.⁷⁶ وهكذا يضع النورسي من أسس التربية الإسلامية، محاربة شهوات النفس وطموحاتها، سبيلاً لتطويعها للعمل الصالح، وهي عودة حقيقية وعلمية إلى أسلوب القرآن الكريم في تربية النفس البشرية. والمحصلة لكل ما تقدم، أن المؤمن الكامل، المطمئن قلبه، يفوض أمر الكائنات كلها، ونفسه كذلك، إلى الله سبحانه وتعالى، فيتحمل المسؤولية، مستنداً إلى الجزء الاختياري الذي يعتبره مرجعاً للسيئات، وينظر إلى القدر في الحسنات والفضائل الصادرة عنه، لئلا يأخذ الغرور، فيشكر ربه بدل الفخر، ويرى القدر في المصائب التي تنزل به فيصبر.⁷⁷

- ومن بين ملامح رؤية النورسي الواضحة والعميقة لمسألة القدر والاختيار، أن الجزء الاختياري، ينجي الإنسان من الشعور بعدم المسؤولية، لأن الله تعالى لما كلفه خيره، إذا أن التكليف لا يكون بلا اختيار، وهو - الجزء الاختياري - لا ينافي القدر، بل القدر يؤيد الجزء الاختياري، لأن القدر نوع من العلم الإلهي وقد تعلق العلم الإلهي باختيارنا، ولهذا يؤيد الاختيار ولا يبطله، فكل شيء - كبيراً أو صغيراً - يدخل في دائرة الوجود، فهو بقدر الله تعالى، والقدر هو علم الله تعالى، بما يقع في ملكه. - وهنا يصل بنا شيخنا إلى مسألة عقائدية كلامية ذات أهمية جلية لدى العلماء المحققين، وتمثل أعمق وأعضل مسألة في القدر، وهي كيف يمكن التوفيق بين القدر والجزء الاختياري.

وتقدم لنا رسائل النور حلاً لهذه المعضلة يتمثل في التالي::

أن عدم علمنا بكيفية التوفيق - بين القدر والجزء الاختياري - لا يدل على عدم وجوده، وأن كل إنسان يشعر بالضرورة أن له إرادة واختياراً في نفسه، وأن القدر يؤيد الجزء الاختياري، لأن القدر نوع من العلم الإلهي - وقد تعلق العلم الإلهي باختيارنا، ولهذا يؤيد الاختيار ولا يبطله.⁷⁸

وتدخلنا رسائل النور - وهذه إحدى سماتها التي تميز بها - في حوار مع بعض الفرق الكلامية التي تناولت هذه المسألة وتقدم رأياً تتميز به عن هذه الفرق، حين تري أن القدر يتعلق تعلقاً واحداً بالسبب وبالمسبب معاً، فالإرادة لا تتعلق مرة بالمسبب ثم بالسبب مرة أخرى، أي أن هذا المسبب سيقع بهذا السبب، لذا يجب ألا يقال: مادام

موت الشخص الفلاني مقدراً في الوقت الفلاني، فما ذنب من يرميه ببندقية بإرادته الجزئية؟ إذ لو لم يرمه لمات أيضاً؟

ويوضح لنا شيخنا النورسي لم يجب الا يقال ذلك، يقول:

“لأن القدر قد عين موته ببندقية ذاك، فإذا فرضت عدم رميته، عندئذ تفرض تعلق القدر، فيم تحكم إذن على موته، إلا إذا تركت مسلك أهل السنة والجماعة، ودخلت ضمن الفرق الضالة التي تتصور قدراً للسبب للمسبب، كما عند الجبرية، أو تنكر القدر كالمعتزلة، أما نحن أهل الحق فنقول :-

لو لم يرمه، فإن موته مجهول عندنا، أما الجبرية فيقولون، لو لم يرمه لمات أيضاً، بينما المعتزلة يقولون لو لم يرمه لا يموت⁷⁹”.

2- الأسباب لا تأثير لها إيجاباً ولا خلقاً:

تظهرنا “رسائل النور” على أن الأسباب لا تعمل كيفما تشاء، حسب هواها وبلا بصيرة، بل تقوم بمهمتها وفق أمر يفرض عليها من الخالق عز وعلا، ويدعونا النورسي إلى تأمل قوله تعالى: {ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم} فيقول: تأمل “شاء” تجد أنها إشارة إلى أن الرابط بين السبب والمسبب إنما هي المشيئة والإرادة الإلهية، فالتأثير للقدرة، وما الأسباب إلا حجاب العزة والعظمة لئلا تباشر يد القدرة بالأمور الخسيسة في ظاهر نظر العقل، والتصريح بلفظه “الله” إشارة إلى زجر الناس عن الإبتلاء بالأسباب والإنغماس فيها، وأيضاً لدعوة الأذهان إلى رؤية يد القدرة خلف كل الأسباب.

وأما “لذهب” فإشارة إلى أن الأسباب ليس مسيطرة ومستولية على المسببات، حتى إذا رفعت بقيت المسببات في جوف العدم يلعب بها يد التصادف وتشتتها بالاتفاق، بل يد القدرة حاضرة خلف الأسباب، فـ “لذهب” رمز إلى ان الحواس الخمس الظاهرة ليست متولدة عن الطبيعة، ولا لازمة لتجاويف السمع والبصر، بل إنما هي هداياه تعالى وعطاياه، وما التجاويف والأسباب إلا شرائط عادية² “ويعطينا النورسي أمثلة على أن الأسباب تقوم بمهمتها وفق أمر يفرض عليها، منها أي من هذه الأمثلة - أن الآية الكريمة {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ} [الأنبياء: 69]، تبين معجزة سيدنا إبراهيم عليه السلام، ومن إشارتها اللطيفة، أن النار - كسائر الأسباب - ليس أمرها بيدها، فلا تعمل كيفما تشاء حسب هواها وبلا بصيرة، بل تقوم بمهمتها وفق أمر يفرض عليها، فلم تحرق سيدنا إبراهيم لأنها أمرت بعدم الحرق، وأن للنار درجة تحرق

بيرودها، أي تؤثر كالاحتراق، فالله سبحانه يخاطب البرودة بلفظه “سلاماً” بأن لا تحرقني أنت كذلك إبراهيم، كما لم تحرقه الحرارة، أي أن النار في تلك الدرجة تؤثر بيرودها كأنها تحرق، فهي نار وهي برد.⁸⁰

مثال آخر على أنه لا تأثير للأسباب قط، عندما ألقى بسيدنا يونس بن متى - عليه السلام - إلى البحر، فالتقمه الحوت، وغشيتة أمواج هائجة، فداهمته الرهبة والخوف من كل مكان وانقطعت أمامه أسباب الرجاء وانسدت أبواب الأمل، كانت مناجاته الرقيقة وتضرعه الخالص الزكي: {لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأنبياء: 87] واسطة نجاة ووسيلة خلاص، وسر هذه المناجاة العظيم هو، أن الأسباب المادية قد هوت كلياً في ذلك الوضع المرعب، وسقطت نهائياً، فلم تحرك ساكناً، ولم تترك أثراً، فلا ينجيه سبب، ولا يخلصه أحد، ولا يوصله إلى ساحل السلامة، إلا من بيده مقاليد الليل وزمام البحر والحوت معاً، ومن يسخر كل شيء تحت أمره، حتى لو كان الخلق أجمعين تحت خدمته عليه السلام ورهـن إشارته في ذلك الموقف الرهيب، ما كانوا ينفعون به شيء.⁸¹

وكل هذا يظهر بدهة أن وراء الأسباب رباً حكيماً، رحيمًا، وأن ما نراه من أشياء ليست إلا من صنعه وإبداعه سبحانه، وإن الأسباب عاجزة عجزاً تاماً عن الخلق والإيجاد، إذ “كيف يتصور أن تكون الأسباب الطبيعية البسيطة الجامدة التي لا شعور لها ولا اختيار قابلة لإيجاد الموجودات، ولاخترع أفرادها التي كل منها صنعة عجيبة من معجزات القدرة، فكل الأفراد مع سلاسلها تشهد بلسان حدوثها وإمكانها شهادة قاطعة على وجوب وجود خالقها جل جلاله.”⁸²

وأما حكمة وضع الأسباب فتتمثل في كونها حجب ومرايا تصرف القدرة الإلهية⁸³ واستمع إلى النورسي يقول:

“يا أيها الغافل المنغمس في الأسباب إن الأسباب حجاب تصرف، إذ العزة والعظمة تقتضيان الحجاب، لكن المتصرف الفعال هو القدرة الصمدانية، إذ التوحيد والجلال هكذا يقتضيان.”⁸⁴

وهكذا، فمن يطالع “رسائل النور” يجد تفرداً بما يميزها عن غيرها من الدعوات الإسلامية المعاصرة، ذلك أن النورسي ركز فيها وبشدة على القرآن الكريم وفهمه وهضمه وتمثيله وتفسيره تفسيراً لا يكتفي بمجرد الإفهام ونقل المعنى، ولكن يتعدى ذلك إلى التأثير في النفس وصبغ السلوك، وهو بهذا السلوك يحاول أن يتعدى بالرسائل مرحلة

بمجرد الدعوة، ليصل بها إلى مرحلة البرنامج العملي المنفذ، وكانت وسيلته إلى هذا، ألا يتوقف عند مجرد الإعلام أو إقناع الفكر، ولكن يتجاوزه إلى التأثير في أعماق الشعور والوجدان، وإثارة الإرادة للحركة والعمل.

وكانت دعوته، دعوة كريمة جامعة لا تعرف التعصب، ولا تؤمن بالفرقة، تمد الأيدي الحانية إلى المسلمين جميعاً، تحرص على تحريك الإيمان في قلوبهم، وبذور المحبة في نفوسهم، تحفر الخندق الواحد للأمة الواحدة، وتوجه أسلحتها المادية والمعنوية إلى الكفر والإلحاد، تؤمن بالعمل الدؤوب، تعشق التواضع والفصاحة، وتكره الكبرياء والخذلقة، والاستعلاء على الآخرين وقارئ الرسائل يعيش أكثر من حقيقة، منها، أن النورسي لم يكن موهبة فحسب، بل كان أيضاً موقفاً، ولم يكن موهبة وموقفاً فحسب، ولكنه كان فوق ذلك عملاً دائماً، وجهاداً لا يفتر، ولم يكن موهبة وموقفاً وعملاً فحسب، ولكنه كان مع ذلك كله فداًياً باع الدنيا كلها في سبيل الآخرة ومرضاة الله ونفع الناس.

ومن حقائق "رسائل النور" أنه حيث أن ما نظنه حياة، ما هو إلا الدقيقة التي نحن فيها، فما قبلها من زمان وما فيه من أشياء دنيوية كله ميت، وما بعد تلك الدقيقة من زمان وما فيه كله عدم، لا شيء، بمعنى أن ما تفتخر به ونفتخر به من حياة فانية ليس إلا دقيقة واحدة، حيث أن الأمر هكذا، فوجب العزوف عن الحياة المادية النفسية، والصعود إلى درجات حياة القلب والروح والسر.

ووجب أن نعيش مع شيخنا النورسي هذه الإشراقات، ونقول معه:

فيا نفسي:

مادام الأمر هكذا، أبكي كما يبكي قلبي واستغيثي وقولي:

أنا فان، من كان فانياً لا أريد.

أنا عاجز، من كان عاجزاً لا أريد.

سلمت روعي للرحمن، سواه لا أريد.

بل أريد، ولكن حبيباً باقياً أريد.

أنا ذرة.

ولكن شمساً سرمدياً أريد.

أنا لا شيء ومن غير شيء، ولكن الموجودات كلها أريد.

رحم الله شيخنا النورسي رحمة واسعة، وأجزل مثوبته، ورفع مقامه، وألحقه بموكب

الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

- د. جمال أحمد سعيد المرزوقي

* * *

www.alkottob.com

مصادر الدراسة

- 1“ ”بديع الزمان سعيد النورسي : الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، سوزلر للنشر، القاهرة، 1412 1992 م.
- 2“ ”بديع الزمان سعيد النورسي: المكتوبات، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، سوزلر للنشر، القاهرة، 1414 هـ 1992 م.
- 3“ ”بديع الزمان سعيد النورسي: اللمعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، سوزلر للنشر، القاهرة، 1413 1993 م.
- 4“ ”بديع الزمان سعيد النورسي: الشعاعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، سوزلر للنشر، القاهرة، 1414 هـ 1994 هـ .
- 5“ ”بديع الزمان سعيد النورسي: إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، سوزلر للنشر، القاهرة .
- 6“ ”بديع الزمان سعيد النورسي: المثنوي العربي النوري، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الأولى، سوزلر للنشر، القاهرة، 1415 هـ 1995
- 7“ ”بديع الزمان سعيد النورسي: الملاحق في فقه دعوة النور، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، سوزلر للنشر، القاهرة، 1416 هـ 1995 هـ .
- 8“ ”بديع الزمان سعيد النورسي: الشعاعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، سوزلر للنشر، القاهرة، 1416 هـ 1995 هـ .
- 9“ ”بديع الزمان سعيد النورسي: سيرة ذاتية، إعداد ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، سوزلر للنشر، القاهرة، 1419 هـ 1998 هـ .
- 10“ ”بديع الزمان سعيد النورسي: في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي، استانبول “27 – 29 / 1992 م، سوزلر
- 11“ ”إحسان قاسم الصالحي: بديع الزمان النورسي، نظرة عامة عن حياته وآثاره، الطبعة الثالثة، مطابع الوفاء المنصورة، 1998
- 12“ ”الدكتور محسن عبد الحميد، النورسي متكلم العصر الحديث، سوزلر للنشر، القاهرة، 1995 .
- 13“ ”محمد التهامي، النورسي أنوار لا تغيب، الطبعة الأولى، القاهرة، 1418 هـ – 1998 م.

الهوامش:

- 1 راجع كليات رسائل النور، الملاحق، ص 202 ، وما أجمل عبارته التي تشبه فيها نفسه والرسائل، يقول: "لا تبحث ما في عناقيد العنب اللذيذة من خصائص في سيقانها اليابسة، فأنا كذلك الساق اليابسة لتلك الأعناب اللذيذة، ولو بلغ صوتي إلى أرجاء العالم كافة لكنت أقول بكل ما أوتيت من قوة: إن سوزلر "الكلمات" جميلة رائعة، وأنها حقائق، وأنها ليست مني وإنما هي شعاعات التمتع من حقائق القرآن الكريم، فلم أجمل أنا الحقائق القرآن، بل لم أتمكن من إظهار جمالها، وإنما الحقائق الجميلة للقرآن هي التي جملت عباراتي، وما مدحت القرآن بكلماتي، ولكن مدحت كلماتي بالقرآن. وتتظر الرسائل إلى القرآن الكريم - الذي تتلمذ عليه النورسي - على أنه ثلاثة كيانات، الأول هو القرآن المقروء المتمثل في الكتاب المنزل، والثاني هو الكيان المشهود المتمثل في الكون كله، والكيان الثالث هو الكيان الناطق المتمثل في الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وسنته الشريفة بأقواله وأعماله.
- وجدير بالذكر أنه رغم انتشار الرسائل انتشاراً واسعاً للغاية، فقد لوحظت عليها أكثر من ملاحظة، أولها أن أحداً لم يقم بنقدها ابتداءً من العلماء ومروراً بالفلاسفة وحتى الأولياء الصالحين، لقد عرضت على الناس جميعاً، فلم يتناولها أحد بالنقد، وكان الإعجاب هو الصفة الغالبة على شعور الذين تلقوها، وهذا كله يعني أن الرسائل - وكما يقول الصوفية - لون من ألوان الفيض الإلهي على قلب بديع الزمان سعيد النورسي، وكما وصفها أحد تلاميذه "لمعات من نور الكتاب المبين".
- 2 أديب إبراهيم الدباغ، هوامش على فكر بديع الزمان سعيد النورسي وسيرته الذاتية، ضمن كتاب "بديع الزمان سعيد النورسي" - في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي، استانبول "27 - 29 / 1992م" سوزلر، ص 23 - 24.
- 3 هي إشارات الإعجاز في مكان الإيجاز، تعليقات، قزل إيجاز، الخطبة الشامية - راجع بديع الزمان سعيد النورسي، سيرة ذاتية، إعداد وترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، القاهرة، الطبعة الثانية، 1998م، ص 35 - 36.
- 4 وهي نقطة، شعاعات، سنوحات، مناظرات، محاكمات، طلوعات، لمعات، رموز، إشارات، خطوات سنة، المحكمة العسكرية العرفية، نوى الحقائق.
- 5 احسان قاسم الصالحي، بديع الزمان سعيد النورسي، نظرة عامة، عن حياته وأثاره، الطبعة الثالثة، مطابع الوفاء، المنصورة، 1988م، ص 1325، 136.
- 6 سيرة ذاتية، ص 10.
- 7 نفس المصدر ونفس الصفحة.
- 8 المثوي العربي النورسي، ص 428، المكنوبات، ص 425، 426
- 9 تكشف هذه المقارنة عن عمق اطلاع النورسي الفلسفي، وخاصة على الفلسفة الحديثة والمعاصرة، التي شكّلت بعضاً من ملامح عصره الفكري.
- ويقبل النورسي الفلسفة في حالة واحدة، وهي إذا رأى أنها استجارت بالدين وانقادت إليه، وأصبحت في طاعته، فحينئذ تنتعش الإنسانية بالسعادة وتعيش حياة إجتماعية هنيئة "الكلمات، ص 639".
- 10 كليات رسائل النور، الكلمات، الكلمة الثانية عشرة، ص 145
- 11 الكلمات، ص 145.

12 الملاحق، ملحق اميرادغ، وأيضاً الكلمات ص 508، 512، 644، 646، 648. وجدير بالذكر ان موقف النورسي من الجوانب العلمية من الحضارة الغربية، هو موقف المسلم الذي فرض عليه الإسلام، لأن يتحرك لاكتشاف قوانين الحياة والاستفادة منها لإقامة الحضارة وبناء التقدم، ولذلك فإنه دعا المسلمين للأخذ بأسباب الحضارة الصناعية، لأنها من ضرورات إقامة الحياة القوية.

وهو يذهب إلى أن مجيء الحضارة من الغرب، أهله غير المسلمين، لا يكون دليلاً على حرمة الأخذ بها، معنى ذلك أن شيخنا بعيد عن التزمت والتعصب، بل والجهل الذي يعيشه البعض من مفكرينا الآن الذين يصفون أنفسهم بأنهم مفكرون مسلمون، هو يدعو إلى ضرورة الأخذ بأسباب الحضارة الصناعية، لأنها من ضرورات إقامة الحياة القوية، دون أن يكون هذا على حساب القيم، الخلق، الدين الحق، هو مفكرٌ متسق متوازن، متناغم، مع نفسه، ولم لا، وهو يستمد، وهو ينهل، وهو يأخذ، من التوازن الحق، من الإتساق الحق، من التناغم الحق، من القرآن الكريم.

13 الدكتور محسن عبد الحميد، النورسي متكلم العصر الحديث، سوزلر للنشر، مدينة نصر، القاهرة، 1995، 246.

14 محمد التهامي، النورسي أنوار لا تغيب، الطبعة الأولى، القاهرة، 1418هـ، 1998، ص 20.

15 ورأى النورسي هذا، تضمنته إجابته عن سؤال وجهه مفتى الديار المصرية الشيخ محمد بخيت بن حسين المصطفى الحنفي "ت سنة 1354هـ" في زيارة له لاستانبول، وكان النورسي في الثلاثين من عمره، أما السؤال فهو: ما رأيك في الحرية الموجودة الآن في الدولة العثمانية، وماذا تقول في مدينة أوربا، وأما الإجابة فهي: أن الدولة العثمانية حبلى حالياً بجنين أوربا وستلد يوماً ما، أما أوربا فهي حبلى بجنين الإسلام وستلد يوماً ما. راجع إحسان الصالح، بديع الزمان، ص 31

16 النورسي متكلم العصر الحديث، ص 51، 52. وإليك طرفاً من خبر صراحته وشجاعته وقناعته بفضيلته ورسالته وتضحيته في سبيلها بالغالي والرخيص.

أ - في سنة 1907م، يقدم النورسي طلباً إلى السلطان عبد الحميد بفتح المدارس التي تُعلم العلوم الكونية الحديثة بجانب العلوم الإسلامية، ويرسل شيخنا إلى لجنة التفتيش العسكري، ويرفض محاولة رئيسها استمالته بمرتب سخي، ويهدده رئيس اللجنة، قائلاً: "إن العقاب لن تكون سارة" يرد شيخنا الشجاع: "عندما جئت إلى اسطنبول كنت واضعاً روعي على كفي، اعملوا ما شئتم، فإنني أريد أن أوقف أبناء الأمة، وأقوم بهذا العمل لأني فرد من هذا البلد، لأقتطف من ورائه منفعة شخصية" أراجع: نجم الدين شاهين، بديع الزمان سعيد النورسي وجوانب مجهولة من حياته، ص 95 - 96.

ب - جاء في دفاعه الصريح الجريء البليغ، ردًا على التهديد بشنقه بدعوى مطالبته بعودة الشريعة، "لو كان لي ألف روح، لكنت مستعداً للقاء به في سبيل حقيقة شرعية واحدة، ذلك لأن الشريعة هي السبيل الوحيد للسعادة، وهي العدالة المحضنة، وهي الفضيلة والشريعة الحقّة.

راجع سعيد النورسي، رجل القدر في حياة أمة، مخطوط بقلم المهندس أورخان محمد علي، ص 51 - [55]

ج - أثناء زيارة القائد العام الروسي، المعسكر المأسور به شيخنا، يقوم له الأسرى احتراماً، وإن شئت الدقة قلت خوفاً، فيما عدا شيخنا النورسي الذي تتشكل له محكمة عسكرية، وينصح بالاعتذار للقائد العام طلباً للعفو، وتأتي إجابة النورسي، الرجل الذي ملأ الإيمان قلبه، المنتسب بكل جوارحه إلى العقيدة، "إنني راغب في الرحيل إلى دار الآخرة، والمثول بين يدي الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فأنا بحاجة إلى جواز سفر فحسب للآخرة، لا أستطيع أن أعمل بما يخالف إيماني..".

قوة وشجاعة وثباتاً وإيماناً بالحق واعتزازاً بالعبقيدة، وبالانتساب إلى أفضل نسب، وأعزه وأكرمه وأنبله وأسماءه، نسب الدين الإسلامي، أقول رأيت موقفاً يظهر كل هذه المعاني والقيم عند كل مصلحينا ومجددينا، كهذا الذي وقفه شيخنا النورسي، لا أعتقد.

د- يقول لمصطفى كمال، عندما بدأت الحكومة في نصب تماثيله، تماثيل مصطفى "إن هجوم آيات قرآنا العظيم إنما ينصب على التماثيل، أما النصب التي يجب على المسلمين إقامتها، فهي المستشفيات والمدارس، وملجئ الأيتام والأقسام الداخلية للطلبة ودور العبادة وشق الطرق...". [راجع النورسي رجل القدر... ص 110.

17 راجع: الشعاعات، ص 409.

18 راجع " إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز"، ص 35، ص 87

19 الكلمات، ص 552؛ للمعات ص 130 وما بعدها.

20 للمعات ص 110؛ صيقل الإسلام ص 502

21 الكلمات ص 360.

22 راجع كليات رسائل النور - للمعات، اسطنبول 1993م، ص 373، 386.

23 المصدر نفسه ص 378

24 للمعات ص 359

25 للمعات ص 560؛ الكلمات ص 869

26 صيقل الإسلام ص 53

27 الكلمات ص 250؛ و المقام الثاني من المکتوب الرابع والعشرين

28 راجع الكلمات، ص 250، 387، 703

29 صيقل الإسلام، ص 502

30 الشعاعات، ص 37

31 إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص 35

32 إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص 192

33 راجع الشعاعات، ص 38

34 للمعات ص 13

35 الشعاعات، ص 523، 317

36 راجع للمعات، ص 323

37 المثنوي العربي النوري، ص 374، الملاحق، ص 247، الشعاعات ص 243، 244 و للمعات. ص 323

38 المکتوبات ص 366.

39 نفس المصدر ص 9

40 نفسه ص 293

41 المثنوي العربي النوري: ص 50

42 ص 318

43 للمعات، ص 117.

44 نفسه، ص 118.

45 الكلمات، ص 248 - 249

- 46 نفسه، ص 249.
- 47 الكلمات، ص 360 وما بعدها
- 48 للمعات، ص 16
- 49 الكلمات، ص 349، 534، الشعاعات، ص 37.
- 50 للمعات، ص 366.
- 51 الكلمات، ص 413.
- 52 راجع الكلمات، ص 794 – 795.
- 53 المكتوبات، ص 372.
- 54 للمعات، ص 55.
- 55 الكلمات، ص 617.
- 56 المكتوبات، ص 579.
- 57 المثنوي العربي النوري، ص 432.
- 58 راجع المكتوبات، ص 107
- 59 المصدر نفسه، ص 108.
- 60 لأن أصحابه يؤمنون بالله إيماناً عميقاً إلى درجة يعدون الكون وجميع الموجودات معدوماً بجانب حقيقة الوجود الإلهي، المكتوبات، ص 580.
- 61 المكتوبات، ص 579. ويصف النورسي ابن عربي (ت 638هـ) قائلاً: إنه خارقة الحقيقة وداهية علم الأسرار، وهو - ابن عربي - لا يخدع ولكن ينخدع، فهو مهتد، ولكنه لا يكون هادياً لغيره في كل ما كتبه، فما رآه صدق وصواب، ولكن ليس هو الحقيقة، راجع - للمعات، ص 52.
- 62 المثنوي العربي النوري، ص 433، وراجع في هذه المسألة أيضاً صيقل الإسلام، ص 133 وما بعدها. ويحسم النورسي هذه الفروق بين التصورين - الماديين والأولياء - في ص 132 من صيقل الإسلام، يقول: الإنصاف الانصاف أيها الناس! فالبعد بين المذهبين بعد الثرى عن الثريا، أقسم بالله الذي خلق المادة بأنواعها وأشكالها، لا أرى في الدنيا أبشع وأخسى وأنعى على صاحبه بانحراف مزاج عقله من الرأى الأحق الذي ينتج التماس بين هذين المسلكين.
- 63 المثنوي العربي النوري، ص 434.
- 64 راجع في التمييز بين "وحدة الشهود" و "وحدة الوجود"، صيقل الإسلام، ص 132
- 65 راجع رسالة ابن عربي - الموجهة إلى فخر الدين الرازي "544 - 606هـ / 1150 - 1210م" والتي قال له فيها: "إن معرفة الله غير معرفة وجوده"، أي أن ما بينه أئمة أصول الدين وعلماء الكلام فيما يخص العقائد ووجود الله سبحانه وتوحيده غير كاف في نظر ابن عربي.
- 66 المكتوبات، ص 424، 425
- 67 المكتوبات، ص 106، 425، 579، 580، للمعات، ص 61 وما بعدها، الكلمات، ص 561 وما بعدها. فالموجودات، ما سوى الله، ليست خيالية ووهمية، وإنما لها وجود، وإن كان عرضياً وضعيفاً وظلاً غير دائم بالنسبة لوجود، "واجب الوجود" القديم، الخالق، الذي "ليس كمثلته شيء".
- 68 المكتوبات، ص 107
- 69 راجع الكلمات، ص 349.
- 70 المصدر نفسه، ص 204.
- 71 المكتوبات، ص 307.

-
- 72 نفسه، ص، 473
73 الكلمات، ص 541
74 المكتوبات، ص، 594
75 الكلمات، ص 673، وأيضاً المثنوي العربي النوري “ ص 221.
76 إشارات الإعجاز، ص 237
77 الكلمات، ص 544.
78 راجع الكلمات، ص 545.
79 المصدر نفسه، ص 546-547 وراجع إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص 79 - 80.
80 الكلمات، ص 288.
81 اللغات، ص 6 وما بعدها
82 إشارات الإعجاز، ص 152.
83 راجع في ذلك: المثنوي العربي النوري ص 42 - 43، 50، 501، 781، 189، 195، 210، 350 -
351، وأيضاً صيقل الإسلام ص 74.
84 المثنوي العربي النوري، ص 39

ماهية الإنسان وصلاتها بحريته ووظيفته الاجتماعية من خلال رسائل النور (دراسة تحليلية نقدية مقارنة)

أ.د. عمار جيدل^Ψ

كان الإنسان وسيبقى المشكلة الكبرى التي انشغل بها الفكر البشري منذ أمد بعيد، وقد رام رجاله تجاوز تلك المشكلة بالإعراض عنها حيناً، وبالعقل ومنتجاته حيناً آخر، ومن هذا القبيل سلم أمره للفلسفة على تنوع مناهجها وغايات أساطينها، كما استجاب أحيانا أخرى إلى ما جاء به الأنبياء عليهم السلام... وقد توخى كل أولئك الكشف عن ماهية الإنسان، ليتسنى في ضوئها معرفة حريته عند البعض، والقيام بالوظيفة الاجتماعية لدى البعض الآخر، فهل كان الشيخ ميالا إلى أحد الاتجاهين؟ أم أنه اختار اتجاها ثالثا يتوافق مع الروح القرآنية التي ملكت عليه أنفاسه؟ وما هي هذه الصورة التي رسمها القرآن الكريم للصلة بين ماهية الإنسان وحرية ووظيفته الاجتماعية؟ تقتضي الإجابة عن الإشكالية السابقة وضع الخطة التالية :

تمهيد : نتوخى من خلاله بيان أهمية بحث المشكلة في الفكر البشري

أولا: ماهية الإنسان

سنبين من خلاله مفهوم الإنسان من خلال رسائل النور، لنكتشف من خلالها موقفه من مختلف الآراء في مفهوم الإنسان وماهيته.

^Ψ من مواليد سنة 1960 ولاية المسيلة في الجزائر . دكتوراه في العلوم الإسلامية واستاذ محاضر في العقيدة والفكر الإسلامي في جامعة الجزائر. ترأس العديد من الأقسام والمشاريع والوحدات العلمية . وعضو في عدد من المجالات العلمية المحكمة.

ثانيا : صلة الماهية بالحرية

الهدف الأصلي من استقراء نصوصه المبينة للصلة بين الماهية والحرية الكشف عن نقده للتصورات المختلفة للمشكلة المعروضة (صلة الماهية بالحرية)

ثالثا: صلة الماهية بالوظيفة الاجتماعية

تعتبر الماهية من أهم محددات الفعل الاجتماعي، وبالتالي فهي ضامن رئيس للقيام بالوظيفة الاجتماعية عند رواد الاتجاهات الاجتماعية، كما يعد من أهم محوري الإنسان من الضغط الاجتماعي أو الالتزامات الاجتماعية عند رواد الاتجاهات الليبرالية، أما التصور القرآني فهو على خلاف ذلك، يجمع بين خيرى الفريقين في إطار مرجعية وتصور نظري متميز ، سنحاول الكشف عنه من خلال رسائل النور.

تمهيد

تعتبر مشكلة الصلة بين ماهية الإنسان وحرية من جهة وصلتهما بالوظيفة الاجتماعية للإنسان من أهم ما شغل الفكر البشري منذ أمد بعيد، إذ القول بأن الإنسان وجد هكذا دون ماهية، وما ماهيته إلا ما يصنعه هو لنفسه ، فتكون الحرية من جرّاء ذلك ما يريده الشخص نفسه، ما هي في حقيقة الأمر إلا نظرة كونية وفلسفية معينة، وفي إطار هذا الفكر، يتبادر إلينا السؤال الجوهرى التالي: إذا تعارضت الحريات فلماذا تكون الغلبة في آخر المطاف؟ هل تكون لفكرة مطلق الإنسان أم أنها تكون لشخص معين، فرض رأيه بأسلوب من أساليب القهر والتسلط؟

ومن فرض رأيه كان له أن يحدد للناس - وفق قانون الغالب - الوظيفة الاجتماعية وفق ما حدد به حرياتهم، وهنا يتبادر إلى الأذهان التساؤل الآتي:

ما موقف النورسي من هذه المقولة؟ وما هي ماهية الإنسان في فكر النورسي؟ وما الصلة بين الماهية والحرية عند هذا الرجل الفذ؟ وهل لهذا التحديد صلة بالوظيفة الاجتماعية؟

تلك هي التساؤلات المركزية التي تشغل الباحث ، و سيجادل الإجابة عنها، وفق الخطة التي رسمها في فرشة البحث.

المقدمة:

كنت قد انتهيت في بعض ما كتبت عن النورسي إلى أنه شخصية قرآنية إلى النخاع، فقد جعل من أولويات التغيير المنشود بيان منزلة القرآن الكريم والسنة النبوية في سلم المعارف الإنسانية فضلا عن الإسلامية، إذ باكتشافها يتم التمييز بين المنتج المعرفي الزمني

(والذي يجب أن يقرأ قراءة نقدية من قبل المتخصصين) والوحي الإلهي الذي جعله الخالق سبحانه وتعالى فوق الزمان والمكان، أي أنه يتعالى عن الخبرة المعرفية الإسلامية والإنسانية، و يسمح هذا الترتيب بتجاوز مجموعة من الأمراض النفسية والمعرفية، لعل أهمها:

* إهمال البعد الوظيفي للدين الإسلامي بسبب هيمنة الخبرة المعرفية (الزمنية) على الوحي (فوق الزمن)، وقد كان ذلك سببا في بعث الخلافات المذهبية من مرقدها.

* إشاعة القراءة التبركية أو التاريخية للقرآن والسنة المطهرة، فأبعدت التلاوة الهدائية الخاشعة لله تعالى، وعوّضت بتعاويد تكررّ هنا وهناك دون أن يكون لها أدنى أثر على أفعال المسلم .

* أبعد القرآن والسنة المطهرة من خلال هذه القراءة من مصاف المصادر اليقينية للمعرفة الدينية (العقائد، والفقه، والأخلاق، ...) كما أبعدت أيضا في مجال نشأة الكون وخلق الإنسان و مصيره...¹

وما دام الغرض من البحث وفق ما خطّه القائمون على المؤسسة هو الكشف عن الإنسان في مؤلفات النورسي، و النورسي كما بينا رجل القرآن، فإننا ملزمون من الناحية المنهجية ببيان أهمية القرآن بالنسبة للإنسان من خلال مؤلفات النورسي، فماذا يمثل القرآن بالنسبة للإنسان وفق ما ذكره النورسي؟

أهمية القرآن بالنسبة للإنسان:

يعتبر القرآن الكريم مصدرا معرفيا وتربويا ضروريا من وجهين، أولهما جانب الموضوعات وثانيهما المناهج الموظفة في بيان حقائقه.

يبين الأول أن القرآن مصدر اليقين في مسألة نشأة الإنسان الأول ووظيفته الكونية بالإضافة إلى معارف أخرى²، كما يعتبر ملفتا لانتباه العقلاء إلى المناهج المعرفية الواجب اتباعها في تحصيل كثير من المعارف³.

يقول النورسي بعد ذكر أمثلة: "فشاهد في ضوء هذه الأمثلة ثروة القرآن الطائلة وغناه الواسع في معرفة الله في ميدان العلم والحكمة ... وهنا نجد في القرآن الكريم آلافا من القرائن حتى أنه يهب لكل ذي مشرب قرآنا منه، ..."⁴

و ورد عنه أيضا "إن القرآن الكريم يلقي الحكمة ويربي الإنسان في حياته الشخصية والاجتماعية فضلا عن رجحان القرآن الكريم على سائر الكلام وسموه على الأقوال قاطبة"⁵

و بتظافر هذين الجانبين يتحقق العديد من الأهداف المعرفية والتربوية:

* هداية البشرية إلى طريق السداد والرشاد، يبين ذلك ما يظهر في القرآن من صور أوفى وأرقى ما عرفت البشرية وعرف تاريخ الهدايات، فكانت في أمهى صور الإقناع شاملة لجميع مجالات الحياة. فقد "أبدع القرآن الكريم وأتى بالرائع المعجب في تصوير أدق فروع أركانه الخمسة وحافظ على جمال التناسب وكمال التوازن فيما بينها، بل حافظ على أبسط آدابها ومنتهى غاياتها وأعمق حكمها وأصغر فوائدها وثمراتها وأبهر دليل على ذلك هو كمال انتظام الشريعة النابعة من نصوص ذلك القرآن الجامع ومن إشارته ورموزه...⁶

* تعريف البشر بمعبودهم سبحانه وتعالى، وتحقيق الأجر بالتلاوة: من قرأ حرفاً من كتاب الله له أجر⁷، فكان طلب الثواب من التلاوة طريقاً للمعرفة والالتزام. قال النورسي: "إن حكمة تكرار القرآن الكريم من "خلق السماوات والأرض" و"رب السماوات والأرض" إنما لأجل الإرشاد إلى هذه الحقيقة العظيمة المذكورة، وتلقين هذا البرهان الباهر للتوحيد ولأجل تعريفنا بخالقنا العظيم سبحانه"⁸ ولهذا حق لنا أن نقول بأن القرآن الكريم هو كتاب صلة الإنسان بالله والتي في كنفها تكون صلته بسائر أجزاء الكون، صلته بأخيه الإنسان، صلته بعالم الجماد،...، فهو كما قال النورسي "كتاب قد نزل لأجل الإنسان"¹⁰

أبعاد فكرة القرآن كتاب صلة الإنسان بالله:

ليست هذه الصلة قضية معرفية فحسب، بل هي بالإضافة إلى ذلك مسألة متعددة الأبعاد، ففيها الجانب الاجتماعي والتربوي والفكري والاقتصادي... تطفوا بضلالها على جميع ميادين الفعل الإنساني، لهذا ستجلب عددا لا حصر له من الآثار على الإنسان والكون، منها على سبيل المثال لا الحصر:

* تمكّن هذه الصلة لوحدّة المسلمين اللغوية والدينية في كلياتها، وهما عاملان رئيسان لتيسير التفاهم ثم التضامن، فتعظم شوكتهم، وتعلوا كلمتهم وفق ما أراده خالقهم منهم * كانت هذه الصلة عاملاً مهماً للمحافظة عليه وبقائه مصوناً من التغيير والتبديل اللذين أصابا غيره من الكتب الإلهية، وهي من بين الطرق التي يحمي القرآن بها نفسه بنفسه وينفذ حكمه¹¹ وهي بمثابة حماية ذاتية.

* اقتضت حكمة الله أن يكون طريق طلب أجر تلاوة القرآن الكريم، سلماً ضرورياً للعروج إلى التدبر في القرآن الكريم والاهتداء بمديه طلباً للآخرة.¹²

ماهية الإنسان في فكر النورسي:

تتفق مؤلفات النورسي في عرض مسألة ماهية الإنسان وصلتها بحريته ووظيفته الاجتماعية، إذ تدور القضية بتفاصيلها حول فكرة مركزية تستهدف تحقيق مقاصد إنسانية عليا" على اختلاف مراتبها، ومكملاتها، وفق المصالح التي يفتقر إليها الوجود البشري¹³، وإنزال المقاصد الإنسانية منزلة المحرك للأداء الحضاري في تصور النورسي جعله يركز على الجانب التربوي التذكيري في بيان المسألة وتبليغها، فعرضت المسألة في أدبياته في قالب جواني وجداني تربوي ظاهر، بناه أساسا على بيان المؤاخذات التي يلام عليها الغافلون عن المسالك الإيمانية التي رسمتها وظيفة المسلم المتحرك بما أملتة ماهيته التي حددها خالقه، يؤكد الفكرة في جعله الإنسانية منتهى المطالب الدنيوية المنتظرة من الإيمان، حيث يقول: "حتى إن ما يطلق عليه "الإنسانية" التي هي قصيدة حكيمة منظومة تعلن إعلانا لطيفا جميع تجليات الأسماء الإلهية القدسية، وهي معجزة قدرة باهرة جامعة كالنواة لأجهزة شجرة دائمة باقية"¹⁴.

و لتحقيق هذه المقاصد الإنسانية في الإنسان حدد له الخالق الماهية والوظيفة وزوده باستعدادات فطرية ووسائل تكميلية وطرق تذكيرية تيسر له تحقيق تلك الغايات السامية، ومن ثم كانت الغفلة عن تلك الماهية وما تزال وستبقى، -مع عدم النظر إلى ما وهب من استعدادات - سببا في ضياع المقاصد الإنسانية في الفعل البشري.

فالكفر مثلا يقذف الإنسانية من القمة السامية العالية التي جعلها عليها خالقها إلى أدرك الدركات هي أدلّ و أدنى من أي مخلوق ذليل فانه عاجز ضعيف فقير، بل يريدها إلى دركة أتفه الصور القبيحة الزائلة سريعا¹⁵. وهكذا تتحول الإنسانية من صورتها الحية - خلافة الأرض - التي تفوّقت بها على الأرض والسموات إلى صورة ميتة ومميتة.

من هذا المنطلق سعى النورسي في مجموع مؤلفاته نحو تحقيق هذا المقصد، ولورمت بيان ذلك من خلال المجموع لما جئت بشيء إضافي غير ما حواه بعض تلك المؤلفات من هذه الزاوية، لهذا اخترت معالجة الموضوع من خلال الجزء الأول من كليات رسائل النور"الكلمات".

وقبل سرد التفاصيل، لنا أن نتساءل من الناحية المنهجية، ما المراد بالماهية وما هي الوظيفة المناطة بصاحب هذه الماهية وما صلة كل ذلك بحرية الإنسان ووظيفته الاجتماعية.

أولاً: ماهية الإنسان:

مصطلح الماهية في أدبيات النورسي قليل الورد، ويريد به في السياقات التي أوردتها فيها - وخاصة في مقام الحديث عن الإنسان - حقيقة الشيء، لهذا فماهية الإنسان حقيقته، و تتجلى تلك الحقيقة في أن منحه الحق سبحانه وتعالى منزلة أكرم من منزلة الملائكة، رافعا إياه إلى مرتبة الخلافة¹⁶... وعرفه بهذه الماهية فسماه خليفة، يشغل رتبة الخلافة في الأرض ويحمل مهمة الأمانة الكبرى¹⁷.

و بين أن الحديث في هذا السياق عن مطلق الإنسان في أصل خلقه، قال تعالى: "ولقد كرّمنا بني آدم"، فهي ماهية لجميع أصل بني آدم عندما أعدّهم خالقهم لعمارة الأرض والسير فيها باسمه والعمل بأمره، لهذا فهي بمثابة منبه أساسي لما من شأنه أن يؤسس للتقارب العملي بين بني آدم، بل ويدعوهم إلى المطالبة بالمساواة وتجسيدها العملي بالحجة حيناً والتذكير في كثير من الأحيان، وقد رام بذلك التحقيق النظري والعملي للمساواة بما يأتي:

1- التنبيه إلى أصل المادة التي خلقوا منها، فقد خلقهم البارئ المصورّ من مادة واحدة، وما التعبير عن مختلف المواد التي خلقها منها إلا تعبيراً عن المراحل التي مر بها خلق الإنسان.

2- أصل بني الإنسان يرجع إلى أب واحد وأم واحدة، وهو بمثابة التنبيه العملي إلى ضرورة تجاوز التكبر والتعجرف بوصفها أمراضاً تصيب الإنسان حين الغفلة عن الأخوة الإنسانية المحددة بالأبوة الواحدة.

3- نبههم الخالق في القرآن الكريم إلى أنهم تناسلوا بطريقة واحدة: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم"، لهذا فسبب التكبر ليس إلا من قبيل الغفلة عن هذه الحقائق التي يريد الخالق تجسيدها وتركيزها في الفطر البشرية بأسلوب تذكيري.

4- مصريهم واحد، وما دام مصيركم واحداً وهو السير نحو الموت، فلما التكبر والأنانية والغرور، والتميز عن سائر الناس، إنما بسبب الغفلة عن الحقائق التي يريد القرآن ترسيخها في قلوب البشر وعقولهم.

بين أن الإنسان رفيع القيمة بالنسبة لسائر المخلوقات، مكرّم نفيس غير ذليل في صورته وحركته، مفضّل بالمشاهدة، مهيم على سائر الكون بما منح من تدبير وتفكير، وقد زوّد بذلك بسبب ما أعد له من وظيفة نوعية متناغمة مع الماهية التي حددت له "إني جاعل في الأرض خليفة"، وظيفة يندرج فيها كل بني آدم، يشهد لهذا ما ورد عن ابن

مسعود وابن عباس في بيان الآية السابقة: "يحكمي في الحكم بين خلقي، وذلك هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين الخليقة"، ويعضده ما ورد في الأثر: "من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في كتاب الله ورسوله"، ويشهد له أيضا أن أمر الملائكة بالجود له، وسخر له الكون وذلك له، ومتّعه بكرامة ذاتية (جعله مهيبا للتعلم والتعليم والرقي الأخلاقي والفني)، ويؤكد مجموع ما سبق بيانه أن الإنسان متميّز عن سائر المخلوقات تميّزا ذاتيا (بما استودعه الله فيه) وتميّزا وظيفيا بما كلفه الله به (عمارة الكون على وفق مراد الله) جعلنا منه كائنا مسؤولا¹⁸.

آثار فكرة الماهية

الأثر التربوي	الأثر المعرفي
1/ رفض الإذلال أو الذل	1/ اكتشاف المنزلة الحقيقة
2/ نشر التكريم	2/ التحرر المعرفي من الأساطير
3/ رفض فكرة التمييز بين البشر	3/ تشجيع الروح النقدية
4/ رفض الاستخفاف بالآخر	4/ تدفع إلى التبليغ بعد الاقتناع
5/ الدفاع عن المستضعفين	5/ تشجيع الفضول

6/ التواضع مع الخلق لله عزّ وجلّ

ورغم قيمته الرفيعة التي عرفنا القرآن بها "ولقد كرّمنا بني آدم"، فقد صوّره في شقه الثاني كائنا تافها بالنظر إلى مادة خلقه، وطريقة تخلّقه (التوالد المستمر)، فهو مخلوق من تراب، ثم من سلالة من ماء مهين، وإن طال به العمر عاد إلى الضعف الذي كان فيه في بداية نشأته ومع ذلك يغلب عليه التكبر والتعجرف، قال تعالى منبها ومرشدا "فلينظر الإنسان مما خلق، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب"، ... إدراك هذه الحقيقة في سياق الإحاطة بوظيفته وماهيته يشعره بحاجة الناس جميعا لله تعالى من خلال حاجته هو نفسه.

و ما يجرّره من أسر الدنيا إلا التذكر المستمر لماهيته، وبها يرتفع الإنسان من كونه مخلوقا صغيرا وحيوانا ضعيفا وذا شعور عاجز إلى مقام رفيع ومرتبة عالية، بل إلى أرقى مقام عزيز مكرم على جميع المخلوقات¹⁹

وما وقع البشر فيما وقعوا فيه من ويلات ومصائب إلا بسبب غفلة بعضهم و تكبر وغفلة الآخر بقبول الاستخفاف، وما وقع في ذلك إلا حين نسيا الماهية أولا والنزوع

إلى جزئه التافه على حساب جزئه العلوي، وكلتاها جريمة لا تقل إحداها شناعة عن الأخرى، من حيث كونهما غفلة عن التكريم الإلهي المحسّد في الماهية المحددة بالخلافة.

الماهية والوجود:

يعرض النورسي المسألة في سياق الحديث عن حياة الكافر والملحد من جهة وحياة المسلم من جهة أخرى، يقول النورسي: "لأن الكفر جريمة كبرى، وجناية لا حدود لها، حيث أنه يهبط بقيمة الكائنات ودرجتها إلى هاوية العبث، يوهم عدم وجود الغاية من إيجادها... إنه تحقير بين للكائنات كلها وإنكار لما يشاهد..."²⁰ يظهر مما سلف أن الكافر لا يتصور ماهية للوجود سواء تعلّق الأمر بالآفاق أو بالأنفس، ولا شك أن هذا الموقف أملته الرغبة في الدنيا والغفلة عن الآخرة، وهكذا الحال بالنسبة لسائر الغافلين عن الله تعالى، يظنون أنهم هم الذين يصنعون ماهياتهم، وبالتالي تكون الماهية بعد الوجود، ولا شك أن هذا الرأي مخالف لبداية العقول وما دل عليه صحيح المنقول الصريح.

يتجلى مما سلف أن الماهية قبل الوجود في الفكر الإسلامي الأصيل يشهد لهذا المعنى أن الله تعالى خاطب الملائكة بماهية الإنسان قبل تحقيق وجوده العملي "إني جاعل في الأرض خليفة"، لهذا فالماهية لم يحققها الإنسان بعد الوجود بل حددها له خالقه قبل إيجاد المبداني.

يشهد لهذا في أدبيات النورسي قوله مخاطبا نفسه: فيا نفسي (لغرض تربوي) الغافلة، إن كنت تريد أن تفهمي شيئا من غاية حياتك، وماهية حياتك، و صورة حياتك، وسر حقيقة حياتك، وكمال سعادة حياتك... فانظري إلى مجمل "غايات حياتك" فإنها تسعة أمور، حدد من خلالها الربط بالخالق الذي حدد الماهية قبل الوجود المعبر عنها بقوله "غايات حياتك"²¹

ومن هنا تتحدد العلاقة بين الماهية والحرية، فما هي الصلة بينهما؟

ثانيا: الصلة بين الماهية والحرية:

حدد الشيخ النورسي ماهية الإنسان في كونه خليفة وفق ما بينها الله سبحانه وتعالى في محكم التنزيل، ومن ثم فالصلة بين الإنسان وحرية جلية في إطار هذه الفكرة المركزية.

الإنسان في أدبيات التُّورسي من حيث صلته بماهيته، إما أن يكون مستحضرا لها وإما أن يكون غافلا عنها، هو في الأولى مجسداً لحرته وفي الثانية غافلا عنها، مجسداً لأنانيته وحبّه للتغلب والأثرة، فكيف ذلك؟

يؤكد هذه المعاني في قوله: وما قيمة الدين عند الإنسان وكيف أنه "لولا الدين الحق لتحولت الدنيا إلى سجن رهيب"²²، وهكذا فإن فقد الدين الذي معناه الذهول عن الماهية سيكون سببا في فقد الحرية، فيصبح مكبلاً بهواه سجيناً في دنياه وإن كان في بجوحة من النعيم، لأن من يجعل الحياة الفانية مبتغاه فسيكون في جهنم حقيقة ومعنى²³ من خلال وقوعه أسير النفس والهوى والشيطان .

لهذا فالإنسان الحر في فكر التُّورسي هو الإنسان الكامل المستحضر الدائم لماهيته، وبالتالي يسوق جميع اللطائف التي خلق مزوداً بها إلى مقصوده الأساس وهو عبادة الله تعالى، فيسوق القلب كلقائد كل لطيفة منها ويوجهها نحو الحقيقة بطريق عبودية خاص بها. مصداقاً لقول المصطفى p "ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّهُ وإذا فسدت فسد الجسد كلّهُ ألا وهي القلب"²⁴، وعند ذلك تسير الكثرة الكاثرة من اللطائف جنوداً في ركب عظيم وفي ميدان واسع فسيح بقيادة السلطان(القلب)، كما هو لدى الصحابة الكرام رضوان الله عليهم²⁵، وبهذا يتحرر الإنسان من عدّة معوّقات:

1/ المعوّق الأول: فقد الانسجام مع الكون والحياة.

2/ المعوّق الثاني: فقد الانسجام بين الأعضاء.

3/ المعوّق الثالث: فقد الانسجام بين بني آدم.

وتحقيقاً لهذه المقاصد فإن إنسان القرآن يقصد الحق و يتحراه دوماً، وفق ما يحمله من فطرة مكرّمة، وقد يعثر على باطل فيظنه حقاً ويحافظ عليه، وقد يقع عليه الضلال من دون اختيار وهو ينقب عن الحقيقة، فيظنه حقاً ويصدقه

ومادامت حقيقة الحياة هكذا (دار فتنة) فقد دعاه خالقه إلى ترك الغرور والأنانية، وطلب منه إعلان العجز و الضعف أمام عتبة باب الألوهية، إعلان بلسان الاستمداد، ولا يكون ذلك إلا بالإفصاح عن فقرك وحاجتك بلسان التضرع والدعاء، وأظهر بأنك عبد لله خالص قائلاً "حسبنا الله ونعم الوكيل"، وبهذا ترتفع وترتقي في مدارج العلا²⁶، طريق الأنبياء والشهداء الأتقياء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

وإياك أن تسلم بقول الغافلين لسنا بشيء وما أهميتنا حتى يسخر لنا هذا الكون من لدن الحكيم العليم عن قصد وعناية وحتى يطلب مني الشكر الكلي، إنك بحسب

وظيفتك ومنزلتك مشاهد فطن، ومتفرج ذكي على الكائنات العظيمة، وذلك اللسان الناطق البليغ باسم هذه الموجودات الحكيمة.²⁷

و كثيرا ما يعرض مسألة الصلة بين الماهية والوجود في ثنايا الجواب عن التساؤل الآتي: ما أهمية هذا الإنسان الصغير وما قيمته حتى تنتهي هذه الدنيا العظيمة وتفتح دنيا أخرى لحسابته على أعماله؟ فكان جوابه: لأن هذا الإنسان، هو سيّد الموجودات رغم أنه صغير جدا، لما يملك من فطرة جامعة شاملة... فهو قائد الموجودات والداعي إلى سلطان ألوهية الله، والمثل للعبودية الكلية الشاملة ومظهرها، لذا فإن له أهمية عظمى²⁸ ولتيسير تجاوب الماهية مع الوظيفة ملكه الله سبحانه وتعالى فطرة سامية.²⁹ وهكذا أصبح الإنسان مكرّما بالخلافة والأمانة، وارتقى بذلك إلى مرتبة القائد والشاهد على المخلوقات، فهل يمكن أن يذهب إلى القبر لينام هادئا دون أن ينبّه ليسأل عن كل صغيرة وكبيرة من أعماله، ودون أن يساق إلى المحشر ليحاكم في المحكمة الكبرى؟ كلا ثم كلا.

نعم إن الإنسان الذي أنيط به - من بين جميع المخلوقات - مهام عظيمة وزود باستعدادات فطرية كاملة، إن لم يعرف ربه (بالإيمان) بعد أن عرفّ سبحانه نفسه إليه بمخلوقاته البديعة المنتظمة... وإن لم ينل محبته بالتقرب إليه ب"العبادة" بعد أن تحبب إليه سبحانه بنفسه وعرفّها إليه بما خلق له من الثمار المتنوعة الجميلة الدالة على رحمته الواسعة... وإن لم يقدّر بالتوقير والإجلال اللاتقنين به "بالشكر والحمد" بعد أن أظهر سبحانه محبته له ورحمته عليه بنعمه الكثيرة... نعم، إن لم يعرف هذا الإنسان ربه هكذا، فكيف يترك سدى دون جزاء، ودون أن يعدّ له ذو العزة والجلال دارا للعقاب؟³⁰

ولما كانت ماهية الإنسان عالية وفطرته جامعة فهو محتاج بألف حاجة وحاجة إلى ألف اسم واسم من الأسماء الحسنى وإلى كثير جدا من مراتب كل اسم، فالحاجة المضاعفة هي الشوق، والشوق المضاعف هو المحبة المضاعفة، والمحبة المضاعفة هي العشق، فحسب تكمّل روح الإنسان تنكشف مراتب المحبة وفق مراتب الأسماء، محبة جميع الأسماء أيضا تتحول إلى محبة ذاته الجليلة تلك الأسماء عناوين وتجليات ذاته جلّ وعلا.³¹

يشبه الإنسان البذرة فلقد وهبت أجهزة معنوية من لدن القدرة الإلهية و أدرجت فيها خطة دقيقة ومهمة جدا من لدن القدر لتتمكن من العمل داخل التربة، ومن النمو والترعرع والانتقال من ذلك العالم المظلم بلسان الضيق إلى عالم الهواء الطليق والدنيا الفسيحة... فقد أودعت في ماهيته أجهزة مهمة من لدن القدرة الإلهية، ومنح برامج دقيقة وثمينة من لدن القدر الإلهي، فإذا أخطأ هذا الإنسان التقدير والاختيار، وصرف أجهزته المعنوية تحت قرى الحياة الدنيا وفي عالم الأرض الضيق الحدود، إلى هوى النفس،

فسوف يتعفن ويتفسخ كتلك البذرة المتعفنة، لأجل لذة جزئية ضمن عمر قصير وفي مكان محصور وفي وضع متأزم مؤلم وستتحمل روحه المسكينة تبعات المسؤولية المعنوية فيرحل من الدنيا خائنا خاسرا.³²

وجعله مخاطبا كليا له، ومرآة جامعة لأسمائه الحسنی.. فهل يقبل العقل، يعطي للإنسان أجرة دنيوية زهيدة، زهادة شعرة واحدة، مع أنه أناط به وبجواسه مهامها ووظائف هي بعدد شعرات رأسه؟ فهل يمكن أن يقوم بمثل هذا العمل الذي لا معنى له ولا مغزى خلافا لعدالته الحققة، ومنافاة لحكمته الحقيقية؟ سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا.

"فهل يمكن أن يهب سبحانه للإنسان كل هذه الوظائف ثم لا يهب له غاياتها ونتائجها وثمارها وهي السعادة الأبدية؟"³³، إنه ضرب من المحال الذي ليس بعده محال، لهذا يحدد الثورسي في أكثر من موضع الغاية من وجود الإنسان والتي جعلت من حرية الإنسان لحمتها وسداها، بحث لا يتصور وجود تصرف سوي من إنسان غير حر، بمعنى لا يمكن تصور إنسان مهممل أو غافل عن ماهيته يتصرف تصرفا سويا، إذ مجمل غايات الحياة المحددة في تسعة أمور دالة بنفسها على الحرية التي يتمتع بها الإنسان الذي أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون خليفته (صارفا نفسه لما جعل له "خليفة الله")، ويتجلى هذا الأمر فيما يأتي:

أولها: القيام بالشكر الكلي، ووزن النعم المدخرة في خزائن الرحمة الإلهية بموازين الحواس المغروزة في جسمك، ولا يمكن أن يقوم بذلك من غافلا عن ماهيته.

ثانيهما: فتح الكنوز المخفية للأسماء الإلهية الحسنی بمفاتيح الأجهزة المودعة في فطرتك، ومعرفة الله جلّ وعلا بتلك الأسماء الحسنی، ومن تنازل عن حقيقته التي خلقه مولاه عليها لا يمكن أن كذلك.

ثالثها: إعلان ما ركبت فيك الأسماء الحسنی من لطائف تجلياتها وبدائع صنعتها، وإظهار تلك اللطائف البديعة أمام أنظار المخلوقات بعلم وشعور، وبجوانب حياتك كافة في معرض الدنيا هذه، وفاقد الحرية لا يمكنه ذلك.

رابعها: إظهار عبوديتك أمام عظمة ربوبية خالقك، بلسان الحال والمقال، وما فعل ذلك غافل عن ماهيته.

خامسها: التجمل بمزايا اللطائف الإنسانية التي وهبتها لك تجليات الأسماء، التجمل بين من صيغته أنه فعل إرادي والذي يمكن صدوره من فاقد لحيته غافل عن ماهيته.

سادسها: شهود مظاهر الحياة لذوي الحياة، شهود علم وبصيرة، وهو كسابقه من حيث صيته لا يمكن تصوّر صدوره من فاقد حرّيته، المكبّل بهواه وأنانيته. سابعها: معرفة الصفات المطلقة للخالق الجليل، وشؤونه الحكيمة، يقصد في هذا المقام المعرفة الوظيفية التي تورّث خشية وخشوعا. ثامنها: فهم الأقوال الصادرة من كل موجود في العالم وإدراك كلماته المعنوية فيما يخص وحدانية خالقه وربوبية مبدعه، ولا شك أن الغرض منه التحرر من معوّقات الحرية.

تاسعها: إدراك درجات القدرة الإلهية والثروة الربانية المطلقتين، بموازين العجز والضعف والفقر والحاجة المنطوية في نفسك³⁴ من أدرك ذلك بقلبه وعقله حرّره مولاه من الهوى والنفس الأمارة بالسوء فضلا عن إبليس وجنوده. من هذا المنطلق كان الكفر عاملا رئيسا في محو الماهية الإنسانية وتعطيل آثارها المقصودة من قبل الشارع الحكيم، ويقرب من الكفر والإلحاد الأمراض النفسية، إذ بها يعطلّ الإنسان المريض المقاصد الإنسانية من التشريع في جميع جوانبه، فيصبح الغرور قاعدة في التعامل، وتفقد بذلك الآداب والعواطف الإنسانية التي جاء الإسلام من أجل ترسيخها من خلال بيان ماهية الإنسان التي تعتبر الزخم الذي تستمد حركة التغيير منه وقودها وقوتها الدافعة.

لهذا فإن الإنسان إذا آمن بالله وحده وأصبح عبدا له وحده، فاز بموقع مرموق فوق جميع المخلوقات، أما إذا استنكف من العبودية وتجاهلها فسوف يكون عبدا ذليلا أمام المخلوقات العاجزة، وإذا تباهى بقدرته وأنانيته، فسيكون أضعف من النملة والنحلة من جهة الخير والإيجاد، بل أضعف من الذبابة، وسيكون أثقل من الجبل وأضرّ من الطاعون من جهة الشر والتخريب... وتتمخّض عن ذلك ويلات لا حصر لها فتهان الإنسانية وتبتذل بل وقد تصبح في أدرك الدركات.³⁵

وهكذا يتجلى أن الحرية في العبودية لله تعالى وهي المسلك الوحيد الذي يحرر الإنسان من معوّقات فعل الخير الفكري والاجتماعي والتربوي... وبالتالي فالحرية في الاستحضار الدائم للماهية، وما فقدت الحرية إلا بسبب التعلق بالدنيا والغفلة عن الماهية الحقيقية للإنسان، أنظر ذلك في كل ما يحيط بك من تصرفات اجتماعية وفكرية وتربوية وسياسية.

ثالثا: وظيفة الإنسان:

تبيّن ماهية الإنسان أنه موظّف وضيف على تعبير النورسي: إن الإنسان أرسل إلى الدنيا ضيفا وموظفا ووهبت له استعدادات مهمة جدا، وعلى هذا أسندت له وظائف جليلة، وليكد ويسعى لتلك الغايات والوظائف العظيمة فقد رغب ورهب لإنجاز عمله، ولهذا فإن وظيفته (الخليفة) ليست الاهتمام بالحياة الدنيا والاهتمام بها كالحيوانات، وإنما السعي والدأب لحياة خالدة.³⁶

أسس الوظيفة:

بيّن مما سلف أن ماهية الإنسان هي "الخلافة" وتتقضي هذه المهمة القيام بوظيفة عبادة من استخلفه على الأرض، ومن مقتضياتها عمارة الأرض على وفق مراد الله سبحانه وتعالى، وللقيام بهذه المهام وضعت مجموعة من الضوابط تحكمها في جميع مراحلها.

1/ النظرة التوحيدية للكون:

كلّف الله الإنسان بمهمة الاستخلاف في إطار نظرة كونية متكاملة شاملة بالنسبة لموضوع التكليف وتنوع المكلفين ومستوياتهم، فهي تحكم صلة الإنسان بالله تعالى، وصلة الإنسان بأخيه الإنسان، وصلته بسائر المخلوقات، فمحور تلك النظرة مبدأ التوحيد أساس العقيدة الإسلامية ومحرك جميع أبعادها المعرفية والسلوكية والاجتماعية والفردية بل وبعثها حين الغفلة بالتذكير.

قال النورسي: "إن سر التساند والترابط، المستتر في الكائنات كلها، المنتشر فيها.. وكذا روح التجاوب والتعاون من كل جانب.. يبيّن:

أنه ليست إلا قدرة محيطية بالعلم كله، تخلق الذرة وتضعها في موضعها المناسب، فكل حرف وكل سطر من كتاب العالم، حيّ، تسوقه الحاجة، وتعرّف الواحد الآخر، فيلي النداء أينما انطلق، وبسر التوحيد تتجاوب الآفاق كلها، إذ توجه القدرة كل حرف حي إلى كل جملة من جمل الكتاب وتبصرها".³⁷

وهكذا يظهر جليا أن التوحيد ينسحب على جميع ميادين الفعل الإنساني ومجالاته المنظورة (عالم الشهادة) وغير المنظورة (عالم الغيب)، لهذا تتناول المسألة جوانب عدة، تتلخّص فيما يأتي:

أ/الجانب الأول: الجانب الإلهي من النظرة التوحيدية

يعتبر هذا الجانب ركن الزاوية في النظرة التوحيدية، بوصفه العامل الفعّال في جوانب الفعل الإنساني، فهو يعني توحيد الخالق في أفعاله وصفاته وذاته، فالله تعالى موصوف بكل صفات الكمال منزّه عن جميع صفات النقصان، وهي المعرفة المركزية التي تنسحب على جميع ميادين الفعل البشري، وهي التي بمقدورها جعل فعله فعلا إنسانيا، "إذ الإنسان يمثل هذه العبادة والتفكير يصبح إنسانا حقا ويظهر نفسه أنه في "أحسن تقويم" فيصير بيمن الإيمان وبركته لائقا للأمانة الكبرى وخليفة أميننا على الأرض" وهذا هو أساس مجمل الوظائف الإنسانية وسر العبودية.³⁸

ويقول النورسي أيضا: "إن الإيمان يجعل الإنسان إنسانا حقا، بل يجعله سلطانا، لذا كانت وظيفته الأساس "الإيمان بالله تعالى والدعاء له" بينما الكفر يجعل الإنسان حيوانا مفترسا في غاية العجز"³⁹

ب/الجانب الثاني: الجانب الكوني

العالم بجميع مكوناته فعل الله تعالى، لهذا فالعالم واحد من ناحية المبدأ ومادة المنشأ والمصير، فلم يوجد العالم من أصول متعددة ولا يعود إلى أصول متعددة، وجد من أصل واحد وحقيقة واحدة "قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ" [الرعد:16]، ويعود إلى مصير واحد "أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ" [الشورى:53]⁴⁰

وبهذا يتحرر الإنسان في علاقته مع الكون من الخوف ويحثّه على استثمار الكون وفق مبدأ التسخير، ومن ثمّ الانتفاع به ماديا ومعنويا، باستثمار خيراتهِ والتأمل فيه بغرض كشف أسرارهِ، وتذكر الله به لمن رام هذا المقصد ثمّ التذكير به لما تضمنه من آيات وبراهين ربانية، أمعن النظر في ملامح الأرض وسيمائها، وفي مطرّزات تعاريجها، ونقوش الخناعات سطحها، والتواءات جسمها، ولاحظ شكلها وألوانها الزاهية المتنوعة بتنوع تربتها، والتي تتسم بالحكمة والإبداع، وتثير الحيرة والإعجاب.. فدونك الأهمّار والسواقي والبحار والجداول وسفوح الجبال، فإنها كلها قد هيئت ومهدت لتكون سكنا للمخلوقات ووسائط نقلهم من مكان إلى آخر"⁴¹

وقد استعمل النورسي من خلال النظرة التوحيدية للكون بعض أجزائه للاستدلال بها على خالقه، منها قوله: "إن الأرض التي هي بمثابة قلب الكون، قد أصبحت مشهرا لعجائب مصنوعات الله البديعة، ومحشرا لغرائب مخلوقاته الجميلة، وممرا لقافلة موجوداته الوفيرة، ومسجدا لعباده المتراصين صفوفها عليها، ونقرا لأداء عباداتهم.. هذه الأرض تظهر من شعاع التوحيد ما يملأ الكون نورا وضياء"⁴²

وورد عنه أيضا: "إن التساند، والتعاون، والتجاوب، والتعاقب، والتسخير، والانتظام الجاري في هذا الكون يشهد شهادة قاطعة أم مدبرا واحدا يديره، ومربيا واحدا يسوق جميع الكون بما فيه"⁴³

الجانِب الثالث: الجانب البشري من النظرة التوحيدية

يجوي التوحيد في جانبه البشري عنصرين رئيسين:

أ/ توحيد يؤصل فكرة وحدة بني البشر من حيث مادة خلقهم وعناصر بقائهم ووحدة مصيرهم، فالإنسان فعل من أفعال الله، خلق جميع أفراده من مادة واحدة (تراب) جعل تخلقهم على نسق واحد (التناسل)، ويصيرون إلى مصير واحد (الموت)، وهو ما يجعل الإنسان أو النوع الإنساني مصون الكرامة محفوظ الجانب في كل أحواله بصرف النظر عن لون البشرة أو العرق أو الجنس أو الدين...، فالنظرة مبنية إلى قيمته بالنظر إلى جوهر ماهيته.⁴⁴

ب/ توحيد في العبادة والتوجه إلى الله سبحانه وتعالى، بوصفه الخالق الرازق، أمداً بعناصر الوجود والبقاء وبملك مصيرنا، ولهذا يجب التوجه إليه وحده بالعبادة والطاعة، فيكون الله قبلة الروح ووجهة الحركة وغايتها، ومن ثم نبد كل مطاع أو جهة أو قبلة أو غاية أخرى.⁴⁵

فالإنسان بعد مجيئه إلى هذا العالم له عبودية من ناحيتين، كلاهما يعبر عن جانبي العبادة، فالناحية الأولى تشمل التصديق بالطاعة لسلطان الربوبية الظاهر في الكون والنظر إلى كماله سبحانه وتعالى وحسنه بإعجاب وتعظيم، ثم استنباط العبرة والدروس من بدائع نقوش أسمائه الحسنى القدسية وإعلانها ونشرها وإشاعتها، والتفكير بإعجاب عند مطالعة أوراق الأرض والسماء وصحائف الموجودات التي هي بمثابة كتابات قلم القدرة، أما الناحية الثانية فهي مقام الحضور والخطاب الذي ينفذ من الأثر إلى المؤثر، فيرى أن صانعا جليلا يريد تعريف نفسه إليه بمعجزات صنعته، فيقابله هو بالإيمان والمعرفة.⁴⁶

إن التوجه في التوحيد العملي إلى الله تعالى يورث لدى العباد الثبات في صلّتهم بالمعبود أولا، ثم في صلّتهم بسائر المخلوقات ثانيا، نظرا لثبات التوجه إليه (كمال مطلق) وثبات القواعد العامة في التعامل مع الإنسان والكون والله سبحانه وتعالى، بخلاف التوجه إلى غير الله فإنه يورث التغيير المعرفي والنفسي والسلوكي للخاضع للتغيير الحاصل على المخضوع له، إذ يرجع سبب الخضوع إما لقوة أو سلطان أو جاه أو مال أو... وهذه الأمور دول بين الناس فيما أن يفارقها المخضوع لغيره بما أو تفارقهن وهو حين

يفارقها أو تفارقه تفرض تغييراً على مستوى الخاضعين وفي ذلك شناعة ما بعدها شناعة، تؤثر سلباً على الخاضع بالتغيير المستمر وفق ما يتطلبه المخضع الجديد.

الوظيفة الاجتماعية:

تتركز الوظيفة الاجتماعية على استكشاف عناصر رئيسة تيسر الاستعداد الدائم للقيام بالوظيفة الحضارية المنتظرة والمنشودة ، يتجلى هذا الأمر في:

1/ معرفة الضعف البشري :

إذ باكتشاف ضعفه وقلة حليته وأنانيته وأثرته لنفسه المنقطعة النظير (كانت وما زالت سبباً في كثيراً من الصراعات)، فهذه الأمراض المعرفية والمعنوية كالأنانية ليس بمستطاعه التوصل منها لألماً تجري منه مجرى الدم، ولا سبيل لترشيدها بغير الإيمان، لأن الإيمان لا يلغيها بل يجعل لها بعداً ووظيفة اجتماعية ظاهرة، فيفعل الخير (فعل اجتماعي) بغرض فردي يحصل بموجبه الثواب عند الله تعالى، مصداقاً للحديث المتفق عليه "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه".

"إن المستند إلى أنانيته وغروره المتخذ الحياة الدنيا غاية آماله ، سوف يغرق في دائرة ضيقة ويذهب سعيه إدراج الرياح، وستشهد عليه يوم الحشر جميع الأجهزة والجوارح واللطائف التي أودعت فيه شاكية ضده، ساخطة ثائرة عليه، أما إذا أدرك أنه ضيف عزيز، وتحرك ضمن دائرة مرضاة من استخلفه فسوف يكون نشاطه وعمله ضمن دائرة فسيحة رحبة جدا تمتد إلى الحياة الأبدية الخالدة، وسيعيش سالماً آمناً مطمئناً، ويتنفس تنفس الصعداء ويستروح، و بإمكانه الصعود والرقى إلى أعلى عليين، وستشهد له في الآخرة ما منحه الله من الأجهزة والجوارح واللطائف"⁴⁷

وقد رام النورسي توضيح الأمر حين الحديث عن قوله تعالى: "وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ" (الأنعام: 32)، فقال بأن الحالة الروحية تبيّن من خمسة وجوه منها (محل الشاهد) إنه تعالى يدفع الإنسان ليستشعر ضعفه وعجزه غير المتناهيين، سواء بمدى ثقل الحياة أو تكاليف العيش أو أمور أخرى، فيولد لديه رغبة جادة في الخلود إلى الراحة وشوقاً خالصاً للمضي إلى ديار أخرى.⁴⁸

2/ جزئية الهدف وتفاهته:

نعلم أن حركة بناء الحضارة تستمد أساساً من قوة الدفع الداخلي لدى الساعي إلى البناء، فإن كانت قوة الدفع كلية وسامية كانت الحضارة مثلها، وإن كان الهدف تافهاً فإن جدوة بناء الحضارة تنطفئ. بمجرد تحقيق الهدف أو جزء منه، لأن الهدف بمثابة الزخم

الذي يستمد منه المشروع حركيته وديمومته⁴⁹، إن القيام بوظيفة العمارة وفق أمر الله تستمد قوتها من كلية الهدف وفاعليته في النفس الإنسانية (سنيّنه لاحقاً)، وتحرره من الأهداف الجزئية التافهة المانعة من الانطلاق نحو الرحاب الواسع، لأنها تجعله غارقاً في ذاته وأنانيتها، لما يحمله من استعداد لا نهاية له للشر والحدود، فهو قادر على تمرد و طغيان لا نهاية لهما⁵⁰، من هذا المنطلق، "كان كل من يجعل الحياة الفانية فسيكون في جهنم حقيقة ومعنى، حتى لو كان يتقلب ظاهراً في بحوحة النعيم، وكان كل متوجه نحو الحياة الباقية الساعي لها يجد وإخلاص فائراً بسعادة الدارين"⁵¹.

3/ مؤهلات القيام بالوظيفة الاجتماعية:

لا ينحصر التنبيه الإسلامي للإنسان حين القيام بمهام التكليف على جانب الضعف فقط، بل يشير أيضاً إلى عناصر قابلة للنماء إذا استحضرها كانت مؤهلات قوية للقيام بأعباء المهمة، وفي ذلك يقول الثورسي: "أودعت في ماهية الإنسان أجهزة مهمة من لدن القدرة الإلهية، ومنح برامج دقيقة وثمينة من لدن القدر الإلهي، وإذا ربي بذرة استعداده بماء الإسلام، وغذاها بضيء الإيمان تحت تراب العبودية موجهها أجهزتها المعنوية نحو غاياتها الحقيقية بامثال الأوامر القرآنية، فلا بد أن يستنشق عن أوراق وبراعم وأغصان تمتد فروعها وتتفتح فروعها وتتفتح أزاهيرها في عالم البرزخ وتولد في عالم الآخرة وفي الجنة نعماً وكمالات لا حد لها، فيصبح الإنسان بذرة قيمة حاوية على أجهزة جامعة لحقيقة دائمة وشجرة باقية، ويغدو آلة نفيسة ذات رونق وجمال، وثمره مباركة لشجرة الكون"⁵².

و تظهر مؤهلات الإنسان فيما يأتي:

أ/ المؤهلات الروحية:

منح الله الإنسان مؤهلات روحية عالية يصلح بموجبها لاستقبال الوحي، لهذا يعتبر الجانب الروحي أساسياً في استقطاب والتقاط أوامر الله ونواهيهِ والتفاعل معها تفاعلاً إيجابياً، يقيم أركانها في النفس البشرية أولاً، والمحافظة عليها بالإخلاص والصدق في النفس والأمة ثانياً، وهو ما يساهم في ديمومة الفكرة وانتشارها، لأن المجتمع هو الوسط الحيوي للفعل البشري.

ب/ المؤهلات البدنية:

زوّد الإنسان بقدرات بدنية تمكّنه من القيام بما طلب منه، فإمكاناته البدنية تيسّر له القيام بما كلّف به، بل هي منسجمة كل الانسجام مع تلك الوظائف ووفق قدرات كل شخص وقد ورد في الحديث "اعملوا فكل ميسر لما خلق له"، "فالإنسان وهب أجهزة معنوية ولطائف إنسانية والتي إذا قيست كل واحدة منها بما عند الحيوان لظهرت أهمّ أكثر انبساطاً وأكثر مدى بمائة مرة، فمثلاً: أين عين الإنسان التي تميّز جميع مراتب الجمال؟ وأين حاسته الذوقية التي تميّز مختلف الأطعمة بلذاتها الخاصة؟ وأين عقله... وأين قلبه... فقد خلق الإنسان في أحسن تقويم وفق ما يؤهله للقيام بوظيفة عبادة الله".⁵³

إن الصلة بين المؤهلين تشابكية، وإن كانت الأسبقية للمؤهل الأول من حيث الفاعلية بوصفه قوة دفع البدن وتحريكه تحقيقاً لمراد الله.

4/ عناصر القوة في المعرفة بالماهية:

تتميّز ماهية الإنسان بعناصر قوة تجعلها تمتد أفقياً وعمودياً عقلياً وجوانياً، تنمو نمواً سنياً (عادياً)، ولا تفقد (مؤقتاً) موقعا محرراً في الأنفس والآفاق إلا إذا حيل دون بقائها بوسائل غير موضوعية وغير أخلاقية وبالتالي غير مشروعة وفق التصور البشري، كالتشويه والكذب والدجل بأساليبه المتنوعة.⁵⁴

وتتلخّص عناصر قوتها في جوانب عدّة تستند جميعها إلى الحق في الحياة الاجتماعية بدلاً من القوة، وتجعل رضى الله ونيل الفضائل هو الغاية والهدف بدل المنفعة، والتعاون أساساً للحياة بدل الصراع، وجعل من غاياتها الحد من تجاوز النفس الأمانة بالسوء ودفع الروح نحو معالي الأمور وطمين مشاعرها السامية لسوق الإنسان نحو الكمال والمثل العليا لجعل الإنسان إنساناً حقاً وصدقاً⁵⁵، وهو ما يجعلها ضامنة لعناصر وجودها في النفس البشرية ودمومتها فضلاً عن انتشارها.

أ/ جانب الوجود:

تحمل ماهية الإنسان في فكر النورسي قوة ذاتية تمكّنها من النفس البشرية وتشبع مطالبها الفطرية النفسية منها والعقلية والاجتماعية، بمعنى أنها تستجيب لأساسيات مركوزة في النفس أصالة، لهذا أعتبر الوحي بمثابة مذكر بما هو كائن فيها إما بطريق الوعظ والإرشاد ومحاطبة الوجدان أو بالإقناع العقلي.

ب/ جانب البقاء:

إن رسالة المسلم تتمتع بحجج عقلية ونفسية واجتماعية، تجعل استقرارها في النفس ممكناً بل ومؤكداً بحجج النقل والعقل، لأن رسالة المسلم تبلغ بالإقناع "قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين" (البقرة: 111)، وتتوخى تلك الطريقة في المحاجة وهو ما يدفع المقتنعين بها إلى البحث الاستدلالي المستمر.

ج/ جانب الانتشار:

إن فكرة قامت واستمرت بالحجة العقلية المؤيدة للحقائق الواقعية، لا يمكن أن يمنع انتشارها الجهل والقهر... لأنها تحمل قوة ذاتية في الانتشار، وأكبر شاهد على ما ذهبنا إليه انتشار الإسلام بجهود العلماء مثل انتشاره بجهود غيرهم من التجار والعامة...

5/ التركيب العقائدي للماهية و غائية المسير:

غاية الغايات في ماهية الإنسان هي عبادة الله تعالى، بمعنى العمل على تحقيق مراده من خلال السعي إلى مرضاته، وهو هدف دافع نحو البذل المستمر، إذ السير نحوه باستمرار يكسب صاحبه أفقا جديدة وامتدادات غير منظورة، وزادت جذوته اتقادا وحركته نشاطا وإبداعا، لأن السير في طريق تحقيق الهدف المرسوم يشعر الإنسان بتقصيره دوماً، فكلما خطا خطوة ازداد اندفاعاً، لا لشيء سوى أن هذا الهدف بعيد المنال مع كمال الرضا.⁵⁶

إن جذوة ماهية الإنسان في أدبيات النُورسي لا تنطفئ لأنها حية متقدة باستمرار، لهذا فهو في مجاهبات دائمة مع نفسه (الجهاد الأكبر) ومع المفسدين والواقع الفاسد، وإن كملت المجاهدة في شق (وهو محال)، فتحت له آفاق جديدة للبذل المستمر، بل إن المطالبة بالتغيير وفق ما تقتضيه ماهية الإنسان تتطلب مراقبة دائمة لا يمكن أن يفتر عنها الإنسان في لحظة من اللحظات، لأنه ركب نفسياً على النزوع إلى الدعة والراحة واستئثار الطاعة والميل إلى المعاصي، وهو ما جعل القرآن الكريم يركز على التذكير أكثر من تركيزه على الاستدلال.

إن جعل طاعة الله تعالى هدفاً للمسيرة الإنسانية وغاية نهائية للتحرك الحضاري الصالح يمنح ماهية الإسلام تركيباً عقدياً، يمد حركة بناء الحضارة بوقود لا ينفد، لأنه هدف كلي ينسحب على جميع تصرفات البشر (فكرية، واجتماعية، وتربوية، ...) هدف متميز بوظيفته الإنسانية الظاهرة، ووظيفة تجعل الأهداف المرحلية منضبطة بها

وسائرة في فلكتها، إذ يعد تغليب الأهداف الجزئية على الأهداف الكلية موقعا في الظلم والقهر والاستبداد، فمن جعل غايته الفرعية كلية كالاستحواذ على السلطان أو المال أو الجاه أو... فقد البعد الإنساني في تصرفاته فيقع في المحذور والمحظور من ظلم وقهر و... أما إذا جعل الأهداف الجزئية مصبغة بالهدف الكلي المحدد بالماهية فإنه سيتمكن من جني الثمار الاجتماعية والإنسانية المرجوة منها، لأننا وفق هذا التصور نرفع الحضارة إلى مستوى القداسة.⁵⁷

5/ التركيب الأخلاقي لماهية الإنسان:

بناء العدالة الاجتماعية وتحمل مشاق البناء الصالح بحاجة إلى دوافع تنبع من الوجدان بوصفه وعاء الشعور والإحساس بالمسؤولية، تواجه هذه الدوافع عقبة كأداء تحول دون نموها بل قد تهددها بالزوال، لهذا قلما يوفق الإنسان في تجاوزها، ولعل أهم تلك المعوقات الانشداد إلى الدنيا وزينتها والتي سماها الرسول ρ "الوهن حب الدنيا وكرهية الموت."⁵⁸

يجمد الانشداد إلى الدنيا الإنسان ويكبحه عن المساهمة في بناء الحضارة، لأن البناء الحضاري مطلب كبير يقتضي بذل أنواع كثيرة من التضحيات التي تتلبس بالجهد العقلي حيناً وبالجهد العضلي حيناً آخر والمالي حيناً ثالثاً...

ونظراً لخطورة الارتباط بالدنيا والانشداد إليها نبه القرآن الكريم والسن المطهرة إلى خطورتها، قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ" [المنافقون:9] "الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا" [الكهف:46]، وورد في السنة "من كانت الآخرة همّة جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة ومن كانت الدنيا همّة جعل الله فقره بين عينيه وفرّق عليه شمله ولم يأت من الدنيا إلا ما قدر له."⁵⁹

ولكن هل يمكن أن يطلق الإنسان الدنيا وفيها معاشه؟

ليس المطلوب تطليقها خاصة وهي مسخرة له بأمر خالقها، بل الغرض هو انتزاع التعلق بها والانشداد إليها في حياته، لهذا أمر الشارع بالاستثمار الراشد وحرّم الانشداد إليها، لأنه في الحال هذه جعل الدنيا هدفاً كلياً تمون أمامه جميع المحرمات فيقع المخرج والمرج، فتتحول الدنيا إلى لهو ولعب وفساد وإفساد.

إن رفض الانشداد معناه إنزال الدنيا منزلة الطريق المفضي إلى الآخرة، وهي بمثابة ورقة امتحان إما أن يدخل بها صاحبها الجنة أو النار.

وهكذا كانت الدنيا بأهدافها الجزئية وسيلة لتحقيق غاية عظمى بأهداف اجتماعية وإنسانية، بمعنى أن رفض الانشداد إلى الدنيا ليس مطلوباً في ذاته بل هو من أهم مهام الوظيفة الاجتماعية، يكون خيرها مدروراً من الحق على الخلق ومن الخلق على الخلق بأمر الله تعالى، وبهذا يتضح أن ماهية الإنسان في القرآن الكريم ووفق ما وضّحه النورسي سبيل الحرية وتذكير الإنسان بوظيفته التي من أهم أبعادها تحقيق البعد الإنساني في التصرفات من بعث بعدها الاجتماعي.

6/القيام بالوظيفة ومعوّقاته:

يترتب عنها عدّة فوائد منها⁶⁰

1/ القيام بهذه الوظيفة دواء لمشكل الفناء ومعالجته بالبقاء الذي تكرم به الله (السلطان)، والذي يجد تكرم صرف من قبل الخالق الرازق، ويتجلى هذا الربح فيما يأتي:

أ/بيع الأمانة إلى مالكها الحقيقي، وفي هذا البيع خمس درجات من الربح في صفقة واحدة، يعود ربحها على البائع تكريماً من المالك الأصلي.

الربح الأول:

المال الفاني يجد البقاء، لأن العمر الزائل الذي يوهب للحي الباقي، ويذلل في سبيله سبحانه، ينقلب عمراً أبدياً باقياً، عندئذ تثمر دقائق العمر ثماراً يانعة وأزاهير سعادة وضاءة في عالم البقاء مثلما تفنى ظاهراً وتنشق عنها الأزهار والسنابل.

الربح الثاني:

الثلث الجنة أنظر كرم الله عليك يخلق ويمدّدك بعناصر الوجود والبقاء فإذا صرفتها وفق مراده الذي فيه صلاحك وصلاح بني الإنسان بل الكون كله أكرمه بالفلاح يوم القيامة.

الربح الثالث:

يرتفع ثمن كل عضو وحاسة ويعلو من الواحدة إلى الألف، وفق ما تبذله من جهد يكون الخير فيه مجعولاً للخلق من الحق بما يتكرم به الخلق على بعضهم بعضاً وفق أمر الله تعالى وتوجيهاته.

الربح الرابع:

استعمال الأعضاء في أصل ما جعلت لها، وفي ذلك تزكيتها وتثمينها، فقد جعلت للطاعة وطاعاتها متنوعة تنوع الأعضاء نفسها، وبهذا تتعدد الطاعات وتتعدد المنافع وآثارها في الكون والحياة

* معوقات الوظيفة⁶¹

أ/الأناية:

الإنسان الذي يعتمد على أنايته وغروره ويقع في شرك ظلمات الغفلة ويتلى بأغلال الضلالة القاتلة، وقد التورسي التذكير بهذا الأمر في كثير مكن المواضيع والمواضيع.

ب/الكفر:

بينما الكفر يجعل الإنسان حيوانا مفترسا في غاية العجز، لما فيه من تكريس للأناية والغفلة والبعد عن المحتوى الإنساني للعلاقات بين البشر.

ج/الغفلة عن القيام بالوظيفة:

تعريض عدم بيعها لله تعالى فتستعمل في سبيل الهوى والنفس، فتتحول إلى أعضاء مشؤومة مزعجة عاجزة، فيتحمّل صاحبها آلام الماضي الحزينة وأهوال المستقبل المخيفة، فينحدر عندئذ إلى درك آلة ضارة مشؤومة⁶²، فضلا عن خسارته خمس خسارات أخرى⁶³ :

الخسارة الأولى:

إن ما تحبه من مال وأولاد، وما تعشقه من هوى النفس وما تعجب به من حياة وشباب، سيضيع كله ويزول، مخلقا آثامه وآلامه مثقلة بما ظهرهك

الخسارة الثانية:

ستنال عقاب من يخون الأمانة، لأنك باستعمالك أئمن الآلات والأعضاء في أحسن الأعمال قد ظلمت نفسك

الخسارة الثالثة:

قد افتريت وحنيت على الحكمة الإلهية، إذ أسقطت جميع تلك الأجهزة الإنسانية الراقية إلى دركات الأنعام بل أضل

الخسارة الرابعة:

ستدعو بالويل والثبور دائما، وستئن من صدمة الفراق والزوال ووطأة تكاليف الحياة التي أرهقت الحياة بما كاهلك الضعيف مه أن ففرك قائم وعجزك دائم

الخسارة الخامسة:

إن هدايا الرحمن الجميلة - كالعقل والقلب والعين وما شابهها - ما وهبت لك إلا لتتهيئك لفتح أبواب السعادة الأبدية، فما أعظمها خسارة أن تتحول تلك الهدايا إلى صورة مؤلمة تفتح لك أبواب جهنم.

الخاتمة:

يستشف مما سلف أن لماهية الإنسان صلة وثيقة بجريته في فكر النورسني، فمن اكتشفها وعمل على تجسيدها حرّره خالقه من مجموعة من المعوقات والسجون لعل أهمها: الأنانية، والغفلة فضلا عن الكفر وما ينجر عنها جميعا من آثار وخيمة على الإنسان والوسط الذي حوله.

ويبين أيضا أن لهذه الحرية صلة وثيقة بالوظيفة الاجتماعية المنتظرة من الإنسان في إطار ماهيته، ولكل هذا أثرا محمودا على الأداء الاجتماعي والفكري لمن رام مرضاة ربّه باستحضاره الدائم لتلك الماهية في كنف الحضور الروحي المستمر مع خالقه جلّ وعلا.

الهوامش:

- 1 أنظر إثبات الحقائق الإيمانية عند النورسني - المنهج والتطبيق/عمار جيدل، دراسة منشورة بمجلة الصراط العدد الثاني 73-74
- 2 قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن/نديم الجسر 242، 244، 286
- 3 المعجزة الكبرى/ أبو زهرة 357
- 4 الكلمات 151
- 5 الكلمات 142
- 6 المرجع السابق 141
- 7 أنظر بحثنا رسالة الإنسان في الإسلام 3
- 8 الكلمات 178
- 9 العبادة في الإسلام/القرضاوي 49-52
- 10 الكلمات 292
- 11 م/س 878
- 12 رسالة الإنسان في الإسلام/جيدل عمار 3
- 13 من فلسفة أصول سياسة التشريع الدولي الكفيلة بإقامة التكافل الاجتماعي في الإسلام (5)/فتحي الدريني (بحوث خاصة بأقسام الدراسات العليا في الجامعة الأردنية).
- 14 الكلمات/النورسني، ترجمة إحسان قاسم الصالحي 361
- 15 المرجع السابق 361
- 16 المرجع السابق 94، 64
- 17 المرجع السابق 81
- 18 رسالة الإنسان في الإسلام/جيدل عمار
- 19 الكلمات 698

- 20 الكلمات 64
21 الكلمات 138
22 الكلمات 31
23 الكلمات 37
24 أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الإيمان، وهو جزء من حديث نصه: "الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما المشبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حنى ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه..."
25 المرجع السابق 582
26 المرجع السابق 370
27 المرجع نفسه
28 المرجع السابق 63
29 م/س 81
30 م/س 67
31 م س 768
32 م س 362-363
33 م س 94
34 م س 138
35 الكلمات 360
36 /الكلمات 371، 300
37 الكلمات 841
38 أنظر المرجع السابق 373، 372
39 السابق 354
40 نظام الإسلام العقائدي في العصر الحديث/محمد المبارك 25-30، النظرة التوحيدية للعالم /مرتضى مطهري 29-30
41 الكلمات 811
42 المرجع السابق 812
43 المرجع نفسه 338
44 رسالة الإنسان في الإسلام/عمار جيدل 10، الكلمات 81-83
45 المراجع نفسها
46 الكلمات 372
47 الكلمات 365
48 المرجع السابق 224
49 الإسلام يقود الحياة/باقر الصدر، وأنظر نظام الإسلام العقائدي 29-31
50 الكلمات 207
51 الكلمات 37
52 الكلمات 362-363
53 الكلمات 396-397
54 أنظر حقائق الإسلام وأباطيل خصومه/العقاد 113، خلافة الإنسان/النجار 49، نظام الإسلام العقيدة والعبادة/المبارك 27، 56

- وقولنا بهذه الفكرة ليس على إطلاقه وبالتالي لسنا من المائلين كل الميل للتحليل التأمري للتاريخ ولسنا من المائلين عنه كل الميل.
- 55 الكلمات 472-473 بتصرف
- 56 الإسلام يقود الحياة، الكتاب طافح بهذه المعاني
- 57 دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن/مالك بن نبي 30-40
- 58 الصدر مصدر سابق، وله أيضا موجز في أصول الدين 135، أخرج الحديث أبو داود في سننه(الملاحم) بلفظ: "يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها فقال قائل ومن قلة نحن يومئذ قال بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولنزعهن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن فقال قائل يا رسول وما الوهن قال حب الدنيا وكراهية الموت"
- 59 أخرجه الترمذي في سننه(صفة القيامة والرفائق والورع)
- 60 الكلمات 351، 354
- 61 الكلمات 351، 354
- 62 الكلمات 23
- 63 الكلمات 25

مباحث النبوة وعلاقتها بالإنسان من خلال رسائل النور

الأستاذ عبد الوهاب بوخلخال^Ψ

خطة البحث:

- تمهيد.
- المبحث الأول: المباحث العامة للنبوة:
 1. النبوة وحاجة الإنسان إليها.
 2. ظاهرة الوحي.
 3. صفات الأنبياء ووظيفتهم.
 4. المعجزة.
- المبحث الثاني: نبوة محمد صلى الله عليه وسلم :
 1. علاقة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بنبوة الأنبياء السابقين.
 2. الحقيقة المحمدية.
 3. دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم :
 - أ- الدلائل الذاتية.
 - ب- الدلائل الخارجة عن ذاته.
 - ج- مضمون الرسالة المحمدية وآثارها.
 - الخاتمة.
 - المصادر والمراجع.

^Ψ من مواليد سنة 1969 في مدينة تبسة الجزائرية. نال شهادة الماجستير في منهج النورسي في تقديم العقيدة من جامعة الأمير عبد القادر في قسنطينة. وحاليا يزاول التدريس في المعهد المذكور.

تمهيد:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وبعد:
إن مبحث النبوة لا يقل أهمية في نظر النورسي عن مبحث التوحيد¹، إذ يعده أحد المقاصد الأربعة التي يدور حولها القرآن الكريم، والتي يصادفها المتأمل في أغلب السور المطولة، وهي:

1- التوحيد.

2- النبوة.

3- الحشر.

4- العدل مع العبودية².

ولهذا بقدر ما وجدنا النورسي يسهب في بيان (التوحيد) باعتباره - كما رأينا - قطب الكمال الإلهي ومحوره، نراه أيضا يطيل الوقوف مع (النبوة) في مواضع عديدة من رسائله مجملة حيناً ومفصلة حيناً آخر، بشكل مستقل تارة وفي سياق إثبات التوحيد أو الحديث عن صفات واجب الوجود تارة أخرى، متحدثاً عن (النبوة) عامة طورا أو مركزا على نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم طورا آخر.

ومن هنا سنتناول هذه المسألة من خلال مبحثين:

- **الأول:** نبين فيه تناول النورسي لمباحث النبوة بشكل عام: كضرورة النبوة ووظيفة النبي وصفاته والوحي والإلهام والمعجزة والكرامة والولاية...
- **الثاني:** نبين فيه تناول النورسي لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعلاقتها بنبوة بقية الأنبياء، والحقيقة المحمدية، ودلائل نبوته صلى الله عليه وسلم.

المبحث الأول:

المباحث العامة للنبوة.

نبين في هذا المبحث تناول التُّورسي لمباحث النبوة بشكل عام، مركزين على المسائل الأهم والتي يكثر من إيرادها والتعرض إليها، ويمكن حصرها في:

- تعريف النبوة (الني) وظيفه النبي، صفاته، ظاهرة الوحي وما يتعلق بها، المعجزة، الولاية وعلاقتها بالنبوة.

والتُّورسي إذ يتناول هذه المسائل فهو لا يعطينا - كعادته - تعريفات مثل تلك التي نجدها عند المتكلمين، ولكنه يركز على ذكر الخصائص دون الخوض في الجزئيات والتفاصيل، كما لا نجد عنده مناقشات مباشرة للمنكرين أو المعترضين (إيراد الشبهة والرد عليها) ولكنه - حسب منهجه الذي سبق وأن أشرنا إليه في الفصل الثاني - يرد بشكل ضمني دون ذكر الشبهة أو الوقوف عندها طويلاً.

- والأهم في هذا المجال أن التُّورسي يحاول ربط هذه المباحث بالواقع وإن بدت في ظاهرها بعيدة عنه كل البعد (كتناوله لدلالة المعجزة)، وما ذاك إلا لتحقيق (الواقعية والحيوية) التي انطلق منها في عرض العقيدة.

وهذه الملاحظات التي تقدمنا بها، تجعلنا نتوسل بالاستقراء لنصوص التُّورسي كي نظفر بتعريفات تقريبية لما سنتناوله من مفاهيم، كما تفرض علينا أن لا نغفل علاقة هذه المباحث بالواقع كما أراد التُّورسي أن يوضح. وفيما يلي تفصيل هذه المسائل:

1- النبوة وحاجة الإنسان إليها:

تدور آراء الناس في النبوة بين الإثبات والإنكار، يقول الماتريدي: " تكلم الناس في الرسالة فأثبتها أئمة الهدى وقادة الخير وحكماء البشر، وأنكرها من جهل صانعه، ومن أقر من جهل أمره ونهيه، ومن أقر بذلك ممن زعم أن في العقل الغني عن الرسالة، مع ما إمكان مقابلة آيات من ادعى الرسالة بصنيع الكهنة والسحرة والمشعبذة"³.

فالمنكرون هم الذين جعلوا إرسال الرسل من قبيل المستحيل وهم البراهمة⁴ والسمنية، زعموا أن إرسالهم عبث لا يليق بالحكيم لأن العقل يغني عن الرسل فإن الشيء إن كان حسناً عند العقل فعله وإن لم تأت به الرسل، وإن كان قبيحاً عنده تركه وإن لم تأت به الرسل وإن لم يكن عنده حسناً ولا قبيحاً فإن احتاج إليه فعله وإلا تركه⁵.

أما المثبتون فقسمان: قسم جعل إرسال الرسل من قبيل الواجب على الله تعالى وهم المعتزلة بناء على قاعدة وجوب الصلاح والأصلح، فيقولون بأن النظام المؤدي إلى صلاح حال النوع الإنساني على العموم في المعاش والمعاد لا يتم إلا ببعثة الرسل⁶، والفلاسفة أيضا بناء على قاعدة التعليل أو الطبيعة، فيقولون: يلزم من وجود الله تعالى وجود العالم بالتعليل أو بالطبع ويلزم من وجود العالم وجود من يصلحه.

أما القسم الثاني: فجعلوا إرسال الرسل من قبيل الجائز في حقه تعالى يرسلهم تفضلا وإحسانا إلى عبادته⁷ وهم أهل السنة.

فالمثبتون على هذا وإن اختلفوا في حكم الإرسال هل هو واجب أو جائز، فإنهم اتفقوا على ضرورة إرسال الرسل وحاجة الإنسان إليهم، ويسلكون لبيان هذه الحاجة - كما أوضح الإمام محمد عبده - مسلكين:

- **الأول:** انطلقوا فيه من الاعتقاد ببقاء النفس الإنسانية بعد الموت، وأن لها حياة أخرى بعد الحياة الدنيا تتمتع فيها بنعيم أو تشقى فيها بعذاب أليم، وأن السعادة والشقاء في تلك الحياة الباقية معقودان بأعمال المرء في حياته الفانية.

ولما كان الإنسان عاجزا عن إدراك عالم الغيب بيقين، اقتضت حكمة الصانع الحكيم أن يصطفي من خلقه أناسا يميزهم بالفطرة السليمة ويبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه والأمانة على مكنون سره، فيشرفون على الغيب بإذنه ويعلمون ما يكون من شأن الناس فيه، ويكونون في مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين، نهاية الشاهد وبداية الغائب، فهم في الدنيا كأهم ليسوا من أهلها، وهم وفد الآخرة في لباس من ليس سكاكها، ثم يتلقون أمره أن يحدثوا عن جلاله ما خفي على العقول من شؤون حضرته الرفيعة بما شاء أن يعتقده العباد فيه، وما قدر أن يكون له مدخل في سعادتهم الأخروية، وأن يبينوا للناس من أحوال الآخرة ما لا بد لهم من عمله، معبرين عنه بما تحتمله طاقة عقولهم ولا يبعد عن متناول أفهامهم، وأن يبلغوا شرائع عامة تحدد لهم سيرهم في تقويم نفوسهم وكبح شهواتهم، وتعلمهم من الأعمال ما هو مناط سعادتهم وشقائهم في ذلك الكون المغيب عن مشاعرهم بتفصيله، اللاصق بعلمه بأعماق ضمائرهم في إجماله.

- **الثاني:** إنطلقوا فيه من طبيعة الإنسان نفسه، إذ الإنسان كائن اجتماعي، بيد أن تفاوت الناس في الإدراك والهمة والعزيمة قد يفضي بهم عند الاجتماع إلى التنارع وفوات المقاصد، فإذا أضفنا إلى هذا ذلك الشعور الفطري الذي يجده كل إنسان في نفسه يدفعه إلى البحث عن قوة أكمل وأقوى حتى لكأن كل نفس تشعر أنها مسوقة إلى

معرفة تلك القوة العظمى، فتطلبها من حسها تارة ومن عقلها تارة أخرى، فتقترب من الحق حيناً وتبتعد أحياناً أخرى، فتدين بالعبودية لمن تظنه الأكمل من المخلوقات كالحیوانات والكواكب والأشجار والأحجار..

فهاتان الخاصيتان جعلتا الإنسان - وهو الكائن الاجتماعي - في حاجة إلى أفراد من جنسه يكونون أكمل منه، فيعطونه المحبة التي توحد بين أفرادهم فلا يهلكهم التنارع ويحملهم على إقامة العدل الذي يمنعهم من أن يعتدي بعضهم على بعض، ويهدونهم إلى المعبود الحق - سبحانه -⁸.

وعلى هذا سار النورسي في التأكيد على ضرورة النبوة للإنسان، بل للعالم ككل، فهو يراها من مقتضى سر انتظام الكون بقدره الله - سبحانه وتعالى -، فيقول: "إن القدرة التي لا تترك النمل من دون أمير والنحل من دون يعسوب لا تترك حتماً البشر من دون نبي، من دون شريعة.. نعم هكذا يقتضي سر نظام العالم"⁹.

كما أن ضرورة النبوة للعالم المعنوي كضرورة الشمس للعالم المادي، يقول: "اعلم أن القرآن كما يفسر بعضه بعضاً، كذلك أن كتاب العالم يفسر بعض آياته بعضها، فكما أن العالم يحتاج احتياجاً حقيقياً إلى شمس يفيض منها عليه أنوار نعمته - تعالى -، كذلك العالم المعنوي يحتاج أيضاً إلى شمس النبوة لفيضان أضواء رحمته تعالى"¹⁰.

وحاجة الإنسان إلى النبوة - باعتبارها أمراً (خارجاً) يقوده إلى تحقيق سعادة الدنيا والآخرة - يؤكدها النورسي حينما يركز على إظهار أمرين:

1- ضعف الإنسان وعجزه.

2- سمو غاياته وأهدافه.

فالنورسي على امتداد الرسائل، وكلما تناول الإنسان بالبحث إلا ونبه إلى العجز والفقر ومحدودية القدرات التي ركبت فيه¹¹، على الرغم من أنه - أي الإنسان - يختلف عن الحيوان الذي زود بأجهزة للكسب في الحياة الدنيا فقط¹²، وعلى الرغم من أنه أيضاً إذا قورن ببقية الموجودات عد خلاصتها وفهرستها - كما سبق وأن أشرنا - فهو على ضعفه (عالم صغير).

فهذا الكائن الضعيف يحدد له النورسي غايات سامية لوجوده، نجملها في تسعة أمور وهي:

1- القيام بالشكر الكلي، ووزن النعم المدخرة في خزائن الرحمة الإلهية. بموازين الحواس المغرورة في جسمه.

- 2- فتح الكنوز المخفية للأسماء الإلهية الحسنى بمفاتيح الأجهزة المودعة في فطرته، ومعرفة الله - جلا وعلا - بتلك الأسماء الحسنى.
- 3- إعلان ما ركب فيه من الأسماء الحسنى من لطائف تجلياتها وبدائع صنعتها، وإظهار تلك اللطائف البديعة أمام أنظار المخلوقات بعلم وشعور وبجوانب حياته كافة في معرض الدنيا هذه.
- 4- إظهار عبوديته أمام عظمة ربوبية خالقه بلسان الحال والمقال.
- 5- التجمل بمزايا اللطائف الإنسانية التي وهبتها له تجليات الأسماء، وإبرازها أمام نظر الشاهد الأزلي - جل وعلا - مثله في ذلك مثل الجندي الذي يتقلد الشارات المتنوعة التي منحها له السلطان في مناسبات رسمية ويعرضها أمام نظره ليظهر آثار تكرمه عليه وعنايته به.
- 6- شهود مظاهر الحياة لذوي الحياة، شهود علم وبصيرة، إذ هي تحياتها ودلالاتها بجياتها على بارئها - سبحانه - ورؤية تسيحاتها لخالقها، رؤية بتفكر وعبرة، إذ هي رموز حياتها .. وعرض عبادتها على واهب الحياة - سبحانه - والشهادة عليها، إذ هي غاية حياتها ونتيجتها.
- 7- معرفة الصفات المطلقة للخالق الجليل، وشؤونه الحكيمة، ووزنها بما وهب لحياته من علم جزئي وقدرة جزئية وإرادة جزئية، أي يجعلها نماذج مصغرة ووحدة قياسية لمعرفة تلك الصفات المطلقة الجلييلة.
- 8- فهم الأقوال الصادرة من كل موجود في العالم وإدراك كلماته المعنوية - كل حسب لسانه الخاص - فيما يخص وحدانية خالقه وربوبية مبدعة.
- 9- إدراك درجة القدرة الإلهية والثروة الربانية المطلقتين، بموازين العجز والفقر المنطوي في نفسه، إذ كما يدرك أنواع الأطعمة ودرجاتها ولذاتها بدرجات الجوع وبمقدار الاحتياج إليه كذلك عليه فهم درجات القدرة الإلهية وثروتها المطلقتين بعجزه وفقره غير المتناهيين¹³.
- فإذا جمعنا طرفي (الصورة) نجد أن الإنسان الضعيف لا يمكنه تحقيق الغايات إلا (بهداية) يتجاوز بها عجزه ويتمكن من خلالها من الوصول إلى هدفه الأسمى وهو (كمال سعادة حياته)، والذي يحدده النورسي مخاطبا الإنسان بقوله: "أما (كمال سعادة حياتك) فهو: الشعور بما يتجلى من أنوار التجليات الإلهية في مرآة حياتك وحبها، وإظهار الشوق إليها، وأنت مالك للشعور، ثم الفناء في محبتها، وترسيخ تلك الأنوار المنعكسة وتمكينها من بؤبؤ عين قلبك"¹⁴.

فبلوغ الإنسان هذا المقام العالي، يحتاج إلى من ينير له الطريق ويعرفه مسالكها، ودرجات الرقي فيها، ومن أجل هذا عد التُوْرُسي النبوة (شمسا)، فكانت بذلك ضرورة لا يمكن للإنسان أن يستغني عنها، كما لا يمكنه أن يستغني عن النور أو عن مصدره.

2- ظاهرة الوحي :

إن الوحي هو قاعدة النبوة أو الرسالة، إذ عليه يبنى الإيمان بما جاء به الرسول والتصديق بما أخبر عنه من أمور الغيب، ومن هنا كان تأكيد القرآن الكريم في العديد من المواضع على إثبات الوحي باعتباره أمراً خارجاً عن ذات الرسول الموحى إليه، فلا مجال إلى خلطه بحديث النفس أو الإلهام كما أكد ذلك أيضاً من خلال الرد على المنكرين والمستعدين لحدوثه.

ففي مجال تأكيد مصدر (الوحي) وكونه مبيناً لذات الرسول نجد في القرآن الكريم تكرار ألفاظ:

(أوحينا)¹⁵، (نوحى)¹⁶، (أوحى)¹⁷، (يوحى)¹⁸، (يوحى)¹⁹، (نوحيه)²⁰، (نوحياً)²¹، (أوحى - بضم الهمزة -)²²، وكلها تفيد أن الفاعل غير المتلقي.

كما نجد الرد على المنكرين بمثل قوله تعالى معقبا على موقف المشركين من رسالة النبي صلى الله عليه وسلم {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ} ²³، إذ الوحي كان دائما يلقي اعتراضا وتشكيكا من الناس، لكن الاعتراض قديما - كما سجل القرآن كان يدور حول السؤال الاستنكاري (أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا؟) ²⁴، " ومبعث هذا السؤال هو عدم إدراك الناس أنفسهم لقيمة (الإنسان) الذي يتمثل فيهم، فهم يستنكرون على بشر أن يكون رسول الله، وأن يتصل الله به عن طريق الوحي، فيكلفه هداية الناس، إنهم ينتظرون أن يرسل الله ملكا أو خلقا آخر أعلى مرتبة من الإنسان عند الله، غير ناظرين إلى تكريم الله لهذا المخلوق ومن تكريمه أن يكون أهلا لحمل رسالته وأن يختار من بين أفراد من يتصل بالله هذا الاتصال الخاص" ²⁵.

أما في العصر الحديث فقد قام التشكيك في الوحي انطلاقا من استبعاد الاتصال بين الإنسان وهو ذو طبيعة مادية، وبين الله المخالف لطبيعة كل شيء مما خلق والذي ليس كمثله شيء.

فأصبحت (ظاهرة الوحي) تشكل - كما يقول بن نبي ²⁶ - أمرا أساسيا في نظر الدراسات النقدية التي تبحث عن تحديد (الظاهرة القرآنية) في علاقتها بـ (الأنا) الواعي لحمد صلى الله عليه وسلم ²⁷، وغدا هذا البحث في هذه العلاقة منفذا لإلقاء الشكوك

في إمكانية الوحي تارة أو الخلط بينه وبين الإلهام وحديث النفس وحتى الصرع تارة أخرى²⁸.

فمن الباحثين تم تناول المسألة انطلاقاً من جدلية (الوحي) و (الوعي)، فإذا اعتبرنا - كما يقول - الوعي هو كل ما ينتج عن عقل الإنسان وحواسه اعتبرنا الوحي ما يكون من خارج العقل البشري، فإن ثمة إشكالا سيواجهنا وهو: هل يمكن افتراض وحي داخلي (ذاتي - إجتماعي)، ووحي خارجي (إلهي - ملائكي) إلى العقل البشري المطلق وإلى العقل النبوي بشكل خاص؟، ثم يجيب " إذا كان هذا الافتراض قائماً في شقيه، فإن صراعاً سيدور بين نقيضين اعتقاديين، أولهما: يقول بوحدة الوحي كمنشآت من نشاطات وعي الإنسان العالم، بغض النظر عن مصدر الوحي، وثانيهما: يقول بأحدية الوحي (التنزيل) سواء من حيث المصدر (الله)²⁹ ومن حيث الجهة الموحى إليها (النبي)، وهذا الرأي الثاني هو ما نواجهه في جدلية القرآن، حين نطرح مسألة الصلة بين (التأويل)، التوحيد المطلق، المنقطع عن كل البشر وبين (التنزيل)، هذا الوحي الخاص المنزل على وعي المصطفى، فكيف يتحول التأويل إلى تنزيل؟ بعبارة أخرى كيف تقوم صلة بين ما هو مطلق أزلاً وأبداً وبين ما هو نسبي زمنياً وإدراكاً؟، أي كيف يتصل الإنسان من مقام المجتمع بالله في مقام الغيب؟"³⁰.

ومن الباحثين من رآها مسألة شائكة وحرجة لا يمكن فهمها في العصر الحديث انطلاقاً من التصورات التراثية القديمة، فهي عنده مرتبطة بالاشكالات التي تطرحها اللغة وعليه فـ" فمن الواضح أن أية إعادة تأويل حديثه لمفهوم الوحي تعتمد على الحلول التي يمكن إيجادها للمشاكل الأولية الخاصة بالسنتيات ومنطق التسمية في اللغات الطبيعية"³¹.

ومن الباحثين من سلك مسلكاً آخر في معالجة قضية الوحي، لا بإنكارها صراحة، وإنما بالتركيز على الدور (الذاتي) للنبي والتقليل من شأن الوحي في حياته ورسالاته، بحيث تكون (شخصية النبي القيادية) كإنسان هي الخاصة التي يجب إبرازها كأساس ثم الحديث عن نبوته بما تتضمنه من وحي بشكل عرضي، لهذا عندما يوصف النبي صلى الله عليه وسلم يوصف بأنه "هو الأمين الذي دخل القلوب وأثر في العقول، فكان صاحب عهد، وموضع ثقة وشهادة والتزام، والأمانة عنده قضية أخلاقية كبرى، فكأنه اعتبر صدق الرجل فيما يؤتمن عليه مادياً ومعنوياً أساس الأخلاق السياسية والدينية، فكانت شخصية محمد القيادية تفرض نفسها بقوة على مجتمع مكة، وتنمو في سياق الصراع الجديد الذي تعهده، إلى أن صار محورا سياسياً ودينياً لكل العرب.

وهو المصطفى الذي اصطفى نفسه حين نزهها عن إغراءات التجارة المكية وكرسها لا كتناه حقائق عصره وتناقضاته الداخلية والخارجية، ثم كان اصطفاء الغيب واصطفاء الناس للنبي محمد تنمة لاصطفائه الذاتي الذي ظل يتفاعل ويرتفع حتى بلغ ذروة التحقق التاريخي ذلك أن محمدا الذي تميز بكماله الخلقى وبجزمه السليم ومهارته القتالية وفطنته البالغة، تميز أيضا بإنجاز مهمة تاريخية كبرى هي مهمة توحيد العرب³². وأمام هذه الشبهة الحديثة اهتم المصلحون بإثبات إمكانية الوحي والرد على القائلين باستحالته.

- فانطلق (محمد عبده) من إعطاء تعريف جديد للوحي³³ بإمكانه - في ظنه - أن يقرب الظاهرة من عقل إنسان العصر، فقال: "أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت³⁴ ثم يسترسل في إثبات إمكان حصول هذا النوع من العرفان (الوحي) مرجعا ذلك إلى خاصية العقل البشري ذاته، فالعقول متفاوتة يعلوا بعضها بعضا والأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى إلا ما على وجه من الإجمال، وليس هذا التفاوت راجعا لتفاوت في مراتب التعليم فحسب بل أيضا لتفاوت في الفطر التي لا دخل لاختيار الإنسان وكسبه فيها، وكذلك الشأن في تفاوت المهتم، فإذا كان التفاوت في العقول والمهم من قبيل البديهيات عند العقلاء، فمن ضعف العقل والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها "أن لا يسلم بأن من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ما تستعد به من محض الفيض الإلهي لأن تتصل بالأفق الأعلى وتنتهي من الإنسانية إلى الذروة العليا، وتشهد من أمر الله شهود العيان ما لم يصل غيرها إلى تعقله أو تحسسه بعضا الدليل والبرهان وتتلقى عن العليم الحكيم ما يعلوا وضوحا على ما يتلقاه أحدنا على أساتذة التعاليم"، كما أن بعض الخصائص التي كشف عنها العلم الحديث في الأنفس والآفاق مما يؤكد إمكانية الوحي³⁵.

- أما (وحيد الدين خان) فناقش الذين يستبعدون حدوث الوحي بحجة عدم إدراك هذا الاتصال بين (الله) و (الرسول)، انطلاقا من المنجزات العلمية³⁶ التي توصل إليها الإنسان في العصر الحديث فيبين أننا "اليوم نستطيع أن نفهم هذه المسألة بسهولة تامة بفضل الحقائق المعلومة.

إن هناك وقائع كثيرة تجري من حولنا في كل لحظة، ونحن نعجز عن إدراكها أو سماعها أو الإحساس بها بواسطة أجهزتنا العصبية، وقد استطاع العلم الحديث أن ييسر لنا إدراكها بفضل الأجهزة العلمية التي اخترعناها، وهذه الأجهزة تستطيع أن تدل على صوت ذباب طائر على بعد بضعة أميال، وكأنه يطير عند أذنك.

ومن الأجهزة العلمية ما وصل التقدم فيه إلى حد أنها تسجل صدام الأشعة الكونية في الفضاء، ولقد اخترعنا آلات كثيرة أثبتت أنها تستطيع إدراك كثير جدا من الأحداث التي لا يمكننا سماعها بالطرق التقليدية³⁷.

كما استند في تقريب إمكانية الوحي إلى قدرة بعض الحيوانات والحشرات على سماع ما لا يقدر الإنسان على سماعه، وكذلك بظاهرة (الإشراق) التي يقف العلم عاجزا عن تفسير حقيقتها ليخلص في النهاية إلى تأكيد "إن الإشراق أمر معروف عند الناس، وهو يدلنا على فهم ذلك النظام الاشراقي العظيم بين الإله والعباد، والذي يكون في أكمل صورة حين يبلغ درجة (الوحي)، وهذا الوحي لا يعدو أن يكون (إشراقا كونيا) من نوع الاشراقات التي عهدناها في حياتنا على مستويات محدودة"³⁸.

- ولقد كان النورسي مدركا لهذه الأمور وهو يعرض (ظاهرة الوحي)، فبين إمكانها وحدد الفرق بين الوحي والإلهام في العديد من المواضع.

ففي مقدمة الكلمة الخامسة والعشرين، والتي خصصها للحديث عن المعجزات القرآنية أشار إلى الشبهات المثارة حول القرآن باعتباره وحيا من الله تعالى وبين منهجه في الرد على تلك الشبهات، يقول: "إن كل آية من أكثر الآيات الواردة في هذه الرسالة (المعجزات القرآنية) إما أنها أصبحت موضع انتقاد الملحدن أو أصابها اعتراض أهل العلوم الحديثة أو مستها شبهات شياطين الجن والإنس وأوهامهم... أما الشبهات فقد أجيب عنها أجوبة قاطعة من دون ذكر الشبهة نفسها وذلك لئلا تتذكر الأذهان"³⁹.

- فأما إمكان (الوحي) والرد على شبهة استبعاد الاتصال بين الله (المطلق)، والإنسان (النسي)، فقد تناولها النورسي عند الحديث عن إمكان (المعراج).

فهو يجدد (المعراج) بأنه (عبارة عن سير الذات الأحمدية وسلوكه صلى الله عليه وسلم في مراتب الكمالات)⁴⁰، التي تجعله "عبدا جامعا لجميع الكمالات الإنسانية، نائلا لجميع التجليات الإلهية، شاهدا على جميع طبقات الكائنات، داعيا إلى سلطان الربوبية، مبلغا للمرضيات الإلهية كشافا لطلسم الكائنات"⁴¹.

فالمعراج على هذا هو أرقى صور الاتصال بين الله تعالى وبين الرسول المصطفى، فإثباته إثبات لما دونه من الصور⁴²، كالاتصال بالوحي عن طريق رسول كما حدث مع النبي صلى الله عليه وسلم في الحالة العادية وبقية الأنبياء، وكالاتصال (بالإلهام) كما يحدث للأولياء والحيوانات والجمادات.

و إنا لنجد المطابقة التامة عند النُورسي بين الحكمة من المعراج والحكمة من بعثة (الأنبياء) في قوله: - بعد أن يتحدث عما بثه الله تعالى من بدائع الصنعة في الكون: "وحيث أنه يريد تعريف نفسه وتحيبها إلى ذوي الشعور بما أظهره من آثار اللطف والرحمة، وبما بث من بدائع الصنعة فلا شك أنه سيخبر بواسطة مبلغ أمين، ما يريده من ذوي الشعور وبم يرضى عنهم؟ وعليه فيعلن حتما ربوبيته بواسطة من يخصصه من ذوي الشعور.. ويشرف داعيا منهم بقرب حضوره جاعلا منه واسطة إعلان عن مصنوعاته المحبوبة لديه.. وسيعين معلما يظهر كمالاته بتعليم مقاصده العليا إلى سائر ذوي الشعور.. وسيعين مرشدا يدل على مغزى الموجودات كيلا يبقى ما أدرج في هذا الكون من طلسم دون كشف، وما أخفي في هذه الموجودات من شؤون الربوبية دون معنى.. وسيعين رائدا يعلم مقاصده كيلا يبقى عبثا دون نفع. ما أظهره من محاسن الصنعة أو نشره أمام الأنظار..

فمادامت الحقيقة والحكمة تقتضيان هذا، فإن أليق وأجدر من يوفي هذه الوظائف هو محمد صلى الله عليه وسلم فلقد أدى تلك الوظائف بأكمل صورة⁴³.
فالمعراج وحي (أرقى) يشرف فيه المصطفى (الرسول، النبي)⁴⁴ - زيادة على التكليف بالتبليغ والإرشاد والتعليم - بقرب الحضور، وهو شرف لم ينله من بين الأنبياء إلا الرسول صلى الله عليه وسلم والنُورسي يبرر إمكان الوحي بما سبق بيانه في الفصل السابق، عندما يجعل من حكمة خلق الموجودات إرادة الموجود رؤية جماله وكماله وجلاله من ناحية، وإراءته إلى ذوي الشعور من ناحية أخرى⁴⁵.
وهذه (الإراءة) لم يتركها - سبحانه - لشهادة المصنوعات فقط، بل تكلم هو نفسه بكلام أزي دال عليه⁴⁶ بلغه من خلال الارتقاء بعبده إلى مقام التجرد من الجزئية.

"وحيث أن كل إنسان لا يستطيع أن يرقى إلى أعلى مقام كلي متجردا من الجزئية والسفلية، فلا جرم أن بعضا من أفراد خواص من بين أولئك الناس سيكلف بتلك الوظيفة، ليكون ذا علاقة من جهتين معا، أن يكون إنسانا ليعلم الناس، وفي الوقت نفسه يكون ذا روح في غاية السمو بشرف الخطاب الإلهي مباشرة"⁴⁷.
فثبوت الوحي وتحققه من الأمور البديهية - كما يرى النُورسي - يقول: "اعلم أن تحقق حقيقة الوحي وثبوتها وصل إلى درجة البدهية بتواتر مائة ألف نبي⁴⁸، وباتفاق اخبارها في نقطة المظهرية للوحي الإلهي، وبدلائل معجزات الكتب المقدسة والصحف السماوية التي هي الوحي المشهود، وثمرات الوحي تصديق الأكثرية المطلقة من نوع البشر"⁴⁹.

ولكنه مع ذلك يناقش شبهة المستبعدين لإمكان الوحي، سواء كانوا من المؤمنين الذين التبس عليهم الأمر، أم من الملحدّين المنكرين.

- فللرد على شبهة استبعاد الاتصال بين (المطلق) و (النسي) يقرب المسألة إلى (الأذهان) بضرب مثالين من الواقع المشاهد، يخاطب بهما المؤمن بوجود الله تعالى - ولكن ساورته الشكوك - فيكون ذلك من باب الشرح والتفسير لظاهرة (الوحي) ولهذا سنجدّه ينطلق من كون المخاطب - بفتح الطاء - مسلماً بوجود الله تعالى، وهذان المثالان هما:

- **المثال الأول:** أن للسلطان نوعين من المكاملة والمقابلة، وطرازين من الخطاب والكلام والتكريم والاتفتات.

- الأول: مكاملة خاصة بوساطة هاتف خاص مع أحد رعاياه من العوام، في أمر جزئي يعود إلى حاجة خاصة.

- والأخر: مكاملة باسم السلطنة العظمى وبعنوان الخلافة الكبرى وبصفة الحاكمية العامة بأمر رفيع كريم يظهر عظمته ويبين هيئته، يقصد منها نشر أوامره السلطانية في الآفاق، فهي مكاملة تجري مع أحد مبعوثيه ممن له علاقة بتلك الأمور، أو مع أحد كبار موظفيه ممن له علاقة مع تلك الأوامر.

وهكذا يمثل هذا المثال - والله المثل الأعلى - فإن خلاق الكون ومالك الملك والملكوت والحاكم الأزلي المطلق، له طرازان من المكاملة والاتفتات والتكريم - الأول: جزئي وخاص⁵⁰.

- والأخر: كلي وعام.

فالمعراج النبوي مظهر رفيع سام للولاية الأحمدية ظهر بكلية تفوق جميع الولايات، وبرفعة وعلو يسمو عليها جميعاً، إذ أنه تشرف بمكاملة الله - سبحانه وتعالى - ومناجاته باسم رب العالمين وبعنوان خالق الموجودات⁵¹.

المثال الثاني: يتناول فيه النورسي المسألة من خلال (نظرية التجلي)⁵²، فيصوغه

بالشكل الآتي :

- إذا كان لدينا رجلان، أحدهما يحمل مرآة ويواجه الشمس بها، والآخر يواجه الشمس مباشرة فإن الأول يستفيد من ضياء الشمس بقدر سعة مرآته واستعدادها لالتقاط النور، فعلاقته بالشمس محدودة بنسبة تلك المرآة، واستفادته من الضوء بمقدار قابلية المرآة لما تعكسه من نور الشمس وليس بمقدار عظمة الشمس.

بينما الثاني يشاهد هيبة الشمس وعظمتها ويقابلها بالذات دون حجاب وبممكنه أن ينجحها ويجاورها، لأن ما يرى هو الضياء الدائم للشمس الحقيقية، بخلاف الرجل الأول الذي لا يستطيع أن يجاور الشمس وينجحها، لأن آثار ضوئها محددة بحدود المرآة وقيودها ومحصورة بحسب قابلية المرآة واستيعابها للضوء.

"وهكذا يظهر تجلي ذات الله الأحد الصمد - جل جلاله - وهو نور السماوات والأرض وسلطان الأزل والأبد على الماهية الإنسانية بصورتين، تتضمنان مراتب لا حد لها.

- الصورة الأولى : ظهور في مرآة القلب برباط رباني وانتساب إليه، بحيث أن لكل إنسان حظه من ذلك النور الأزلي، وله محاورة ومناجاة معه، سواء كانت جزئية أم كلية حسب استعداده ووفق تجليات الأسماء والصفات، وذلك في سيره وسلوكه لدى طيه المراتب، فدرجات الغالبية العظمى للولايات السائرة في ظلال الأسماء الحسنى والصفات الجليلة ومراتبها نابعة من هذا القسم.

- الصورة الثانية : تجل لله - سبحانه - لأسمى فرد في نوع البشر، وأفضلهم طرا، تجليا بذاته - جل وعلا - وبأعظم مرتبة من مراتب أسمائه الحسنى، لكون الإنسان قادرا على إظهار تجليات الأسماء الحسنى المتظاهرة في الوجود كافة دفعة واحدة في مرآة روحه، إذ هو أنور ثمرات شجرة الكائنات وأجمعها من حيث الصفات والاستعدادات⁵³.
فلاحظ أن المثالين يخاطب بها الثورسي - كما قلنا - المؤمن بيد أنه في المثال الأول وجه الخطاب إلى (العقل) باستعمال قياس الغائب على الشاهد، وفي المثال الثاني مخاطب (القلب) باستعمال مفهوم التجلي.

- أما حينما مخاطب المنكر لوجود الله تعالى فقد انطلق معه من الأساس، وهو إثبات وجود الله تعالى أولا ثم حدثه بعد ذلك عن مسألة (الوحي)، وعلاقة الخالق بالني المرسل.

يقول : "والآن نوجه كلامنا إلى ذلك الملحد الجالس في مقام الاستماع⁵⁴ فنقول: مادام هذا العالم شبيها بمملكة في غاية التناسق، وبقصر في غاية الزينة والجمال، فلا بد أن له حاكما مالكا صانعا.

وحيث أن ذلك المالك الجليل والحاكم الكامل والصانع الجميل موجود، وأن هناك إنسانا ذو نظر كلي وذو علاقة عامة بجواسه ومشاعره مع ذلك العالم، وتلك المملكة وذلك القصر، فلا بد أن ذلك الصانع الجليل ستكون له علاقة سامية قوية مع هذا الإنسان المالك للنظر الكلي والمشاعر العامة، ولاشك أنه سيكون له معه خطاب قدسي وتوجيه علوي.

وحيث أن محمدا النبي الأمين صلى الله عليه وسلم قد أظهر تلك العلاقة السامية - من بين من تشرفوا بها من زمن سيدنا آدم - عليه السلام - بأعظم صورة وأجلاها، بشهادة آثاره أي بحاكميته على نصف المعمورة وخمس البشرية وتبديله الملامح المعنوية للكائنات وتنويره لها، لهذا فهو أليق وأجدر من يتشرف بالمعراج الذي يمثل أعظم مرتبة من مراتب تلك العلاقة⁵⁵.

□ وسعيا منه لربط المبحث العقدي بالواقع، فإن التورسي بعد أن أثبت إمكان الوحي وأزال شبهة استبعاده، بين - من خلال الحديث عن أثره - أن المؤمن (بالوحي) يستفيد من إيمانه خمس حقائق قدسية هي:

1- زيادة المعرفة بخالقه: إذ يدرك أن الوحي من مقتضيات الربوبية فالذي "أنطق جميع مخلوقاته ذات الأرواح، ويعلم تكلماتها، فإن تدخله هو نفسه أيضا بتكلمه في تلك التكلمات هو مقتضى الربوبية أيضا".

2- زيادة التعرف على كمالات خالقه: فالله الذي عرف نفسه بآلاف الألسنة المتمثلة في مصنوعاته المبتوثة في الكون، يزيد من خلال الوحي تعريف نفسه للإنسان بكلماته هو - سبحانه -.

3- زيادة التعرف على علاقة الله بخلقه: فيدرك أن خالقه "كما أنه يقابل بالفعل مناجاة وشكر الناس الحقيقيين الذين هم أصفى الموجودات وأحوجها وألطفها وأشوقها فإن المقابلة بكلامه أيضا هي من شأن الخالقية".

4- زيادة استشعار الأنس بالله - تعالى - : إذ من ثبت الوحي يدرك " أن الذي منح العجز والاشتياق والفقر والاحتياج وفكر الاستقبال، والمحبة والتعبد، لمخلوقاته الفقيرة والعاجزة، والتي هي أشد عشقا وحبًا وفكرًا، وأحوج إلى نقطة الاستناد، وأشوق إلى اللقاء بصاحبه ومالكه⁵⁶، فإن إشعاره لهم بوجوده، بتكلمه هو مقتضى الألوهية".

5- زيادة إدراك العلاقة بين صفاته تعالى: فالذي يثبت حقيقة الوحي يدرك " أن صفة المكاملة هي لازم ضروري وتظاهر نوراني للعلم مع الحياة، توجد في صورة محيطية وسرمدية، فيمن يملك علما محيطا وحياة سرمدية قطعاً⁵⁷.

□ ولما كان الوحي قد يختلط عند البعض (بالإلهام) أو قد يلبس بعض المنكرين على الناس فيخلطونه بالإلهام، لم يغفل التورسي مسألة التفريق بين الأمرين.

- فبين أن نقطة الاشتراك بين (الوحي) و(الإلهام) كونهما من كلمات الله تعالى لكن هذه الكلمات تختلف من حيث القيمة والمرتبة، فيكون القرآن الكريم أعلاها وأعظمها ثم الوحي إلى الأنبياء وهكذا نترج نزولا إلى أن نصل إلى الإلهام إلى الجمادات.

يقول النُورسي عند تفسيره لقوله تعالى (ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم) [القمان: الآية 27]: "وهكذا فإن منح القرآن الكريم أعلى مقام من بين كلمات الله جميعا، تلك الكلمات التي لا تحدها حدود: مرده أن القرآن نزل من الاسم الأعظم ومن أعظم مراتب كل اسم من الأسماء الحسنى، فهو كلام الله بوصفه رب العالمين، وهو أمره بوصفه إله الموجودات، وهو خطابه الأزلي باسم السلطنة الإلهية العظمى، وهو سجل الالتفات والتكريم الرحماني نابع من رحمته الواسعة المحيطة بكل شيء، وهو مجموعة رسائل ربانية تبين عظمة الإلهية إذ في بدايات بعضها رموز وشفرات، وهو الكتاب المقدس الذي ينشر الحكمة.

ولأجل هذه الأسرار أطلق على القرآن الكريم بما هو أهله ولائق به اسم (كلام الله). أما سائر الكلمات الإلهية: فإن قسما منها كلام نابع باعتبار خاص، وبعنوان جزئي وبتجل جزئي لاسم خصوصي وربوبية خاصة، وسلطان خاص، ورحمة خصوصية، فدرجات هذه الكلمات متفاوتة من حيث الخاص والكلي، فأكثر الإلهامات من هذا القسم إلا أن درجتها متفاوتة جدا.

فمثلا أن ابسطها وأكثر جزئية هي إلهام الحيوانات ثم إلهام عوام الناس، ثم إلهام عوام الملائكة، ثم إلهام الأولياء ثم إلهام كبار الملائكة⁵⁸.

- أما نقطة الاختلاف بين الوحي وبين الإلهام فيوضحها النُورسي بشكل جلي في (مجموعة عصا موسى)، ويحصرها في فرقين أساسيين:

- الفرق الأول: أن أكثر الوحي - الذي هو أعلى من الإلهام بكثير - هو بواسطة الملائكة، وأن أكثر الإلهام بدون واسطة⁵⁹، فكما أن لسلطان مثلا كلاما وأوامر بصورتين:

- إحداهما: أنه يبعث بمستشار له إلى وال، بحيثية حشمة السلطنة والحاكمة العمومية ويفعل أحيانا إحتفالا مع الوسيط، لإظهار أهمية الأمر، واحتشام تلك الحاكمة، ثم يبلغ الأمر.

- الثانية: هي كلامه الخصوصي بهاتفه الخصوصي مع أحد خدامه الخاص، أو مع أحد رعاياه العامي الذي له مناسبة خصوصية ومعاملة جزئية، لا بعنوان السلطنة وباسم الملكية العامة بل بشخصه هو.

وكذلك فإن للسلطان الأزلي مكاملة باسم جميع العوالم، وبعنوان خالق الكائنات، بالوحي وبالإلهامات الشاملة التي تؤدي صفة الوحي، كما أن له نوعا من المكاملة بحيثية

كونه ربا وخالقا لكل فرد وكل ذي حياة في صورة خصوصية، ولكن وراء الحجاب حسب قابليتهم⁶⁰.

وهذا الفرق لاحظته النورسي في العبارات التي يستعملها النبي (صاحب الوحي) حينما يخبر عن ربه، وتلك التي يستعملها الولي (صاحب الإلهام) حينما يخبر هو أيضا عن ربه، يقول: "ومن هذا السر - يعني اختلاف الوحي والإلهام من حيث الكلية والجزئية - نرى أن وليا يقول (حدثني قلبي عن ربي) أي: بهاتف قلبه ومن دون وساطة ملك، فهو لا يقول (حدثني رب العالمين) أو نراه يقول (إن قلبي عرش ومرآة عاكسة لتجليات ربي) ولا يقول (عرش رب العالمين) لأنه يمكن أن ينال حظا من الخطاب الرباني وفق استعداداته وحسب درجة قابلياته وبنسبة رفع ما يقارب سبعين ألف حجاب"⁶¹.

"والفرق الثاني: إن الوحي بلا ظل وصاف وخاص بالخواص، أما الإلهام فهو ذو ظل، تخالطه الألوان، وعمومي، وأنه بأنواعه المتنوعة والكثيرة جدا، مثل إلهام الملائكة وإلهام الناس وإلهام الحيوانات، يشكل مهذا يكون مدارا لتكثير الكلمات الربانية بقدر قطرات البحار، ويفسر أحد وجوه آية (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي)⁶² " 63 .

فالوحي - انطلاقا من هذا الفرق - لا يمكن أن يختلط مع غيره، بينما لا تتحقق هذه الميزة في الإلهام، فالوحي معصوم بعصمة الله تعالى للمتلقي، أما الإلهام فلا يأمن صاحبه غير المعصوم من أن يلتبس بحديث النفس أو وسوسة الشيطان⁶⁴.

- ومثلما فعل مع (الوحي) ذكر النورسي أيضا ما يمكن تلمسه من آثار في (الإلهام)، فبين أن ماهية الإلهام "مع حكمته ونتيجة تتركب من أربعة أنوار" هي:

1- استشعار التحجب (القولي) بعد التحجب (الفعلي) من الخالق تجاه خلقه وهو المسمى بالتودد الإلهي وهو مقتضى الودودية والرحمانية.

2- استشعار الإستجابة (القولية) لدعوات العباد بعد الإستجابة الفعلية وهي شأن الرحيمية.

3- استشعار الإمداد (القولي) لأن الإلهام نوع من المكاملة لتخفيف أثقال الحياة، كالإمداد الفعلي وهذا من لوازم الربوبية.

4- استشعار وجوده تعالى وحضوره قولا في وجه مخصوص، خالص، ناظر إلى مخلوق ما، حسب قابليته، بهاتف قلبه وهو مقتضى شفقة الألوهية ورحمة الربوبية⁶⁵.

وبهذا يكون النورسي قد فصل بين (الوحي) و (الإلهام) من حيث الماهية والآثار، وبيان نقاط الاشتراك والاختلاف.

(3) صفات الأنبياء ووظيفتهم :

أ- صفات الأنبياء :

درج المتحدثون عن النبوة أن يقفوا مع الصفات الواجبة في حق الأنبياء والصفات المستحيلة عليهم وكذا الممكنة.

فقرروا أنه " يجب للأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - أربع صفات وهي: الصدق والأمانة والتبليغ والفتانة.

- ومعنى الصدق في حقهم: كون خبرهم مطابقا للواقع ونفس الأمر، فلا يصدر منهم كذب أصلا.

- ومعنى الأمانة في حقهم: كون ظواهرهم وبواطنهم محفوظة من الوقوع فيما لا يرضى الحق الذي اصطفاهم على سائر الخلق.

- ومعنى التبليغ: كونهم بينوا للناس كل ما أمرهم الله ببيانه أحسن بيان، فلم يكتموا من ذلك شيئا.

- ومعنى الفتانة: كونهم أكمل الخلق في النباهة والفهم⁶⁶.

وأنة يستحيل في حقهم " الكذب والعصيان والكتمان والغفلة، وكذلك يستحيل عليهم كل صفة تعد عند الناس من العيوب، وإن لم تكن من الذنوب كدناءة الحرفة أو النسب أو تنافي حكمة البعثة كالصمم والبكم⁶⁷.

أما ما يجوز في حقهم من صفات فهو " وقوع الأعراض البشرية التي لا تؤدي إلى نقص مراتبهم العلية كالأكل والشرب والجوع والعطش وإعتراء الحر والبرد والتعب والراحة والمرض والصحة، ومثل ذلك التجارة والاحتراف بحرفة من الحرف التي ليست دنية لأنهم بشر - يجوز عليهم ما يجوز على البشر مما لا يؤدي إلى نقص⁶⁸.

فإذا جئنا إلى النورسي ووجدناه يثبت للأنبياء جميع صفات الكمال التي تليق بسمو مكانتهم وشرف رسالتهم، إذ هو يرى - كما سبق أن أشرنا - بأنه: " لا يمكن للألوهية أن تظهر نفسها إلا بإرسال الرسل⁶⁹، وأن "الألوهية لا تكون بلا رسالة"⁷⁰، ومن هنا يجب أن يتصف الرسول المبلغ - زيادة على الصدق والأمانة والفتانة والتبليغ - بالصفات التالية:

1- أنه مصطفى ومختار من قبل الله تعالى: فالنبوة لا تكون بالكسب كما زعمت الفلاسفة⁷¹ وإنما تأتي من بين اختيارات الله تعالى التي خص بها بعض الموجودات.

يقول النورسي: " وما دام مالك الملك قد اختار الأرض من الكون واختار الإنسان من الأرض، ووهب له مكانة سامية وأولاه الاهتمام والعناية، واختار الأنبياء والأصفياء من الناس، وهم الذين انسجموا مع المقاصد الربانية، وحببوا أنفسهم إليه بالإيمان والتسليم، وجعلهم أولياءه المحبوبين المخاطبين له وأكرمهم بالمعجزات والتوفيق في الأعمال، وأدب أعدائهم بالصفعات السماوية واصطفى من هؤلاء المحبوبين إمامهم ورمز فخرهم واعتزازهم ألا وهو محمد صلى الله عليه وسلم فنور بنوره نصف الكرة الأرضية ذات الأهمية.. "72.

وقوله في هذا النص (وهم الذين انسجموا مع المقاصد الربانية وحببوا أنفسهم إليه بالإيمان والتسليم)، يوحي بأن النورسي يرى بأن الاصطفاء للنبوة كأنما هو جزاء على عمل الأنبياء، وهي مسألة وقع فيها الخلاف بين أصحاب المقالات⁷³.
2- أن للنبي إيمانا راسخا واعتقادا جازما هو بدرجة علم اليقين وعين اليقين⁷⁴، فإذا عرفنا علم اليقين بأنه (ما أعطى الدليل بتصور الأمور على ما هي عليه)⁷⁵، وعين اليقين بأنه (ما أعطت المشاهدة والكشف)⁷⁶، يكون إيمان الأنبياء - كما يرى النورسي - جامعا لثمرة (العقل) وثمره (الكشف)، وهو الإيمان الكامل الذي قد لا يجتمع عند الإنسان العادي.

3- أن النبي متصف بالكمال: فلما كانت " النبوة في البشرية فذلك الخير وخالصة الكمال وأساسه "77. اتصف الأنبياء بكل الخصال الحميدة وحازوا على كل الكمالات المعنوية التي طلب من الناس الإقتداء بهم فيهم⁷⁸.
وهذا الكمال هو الذي يجعل الأنبياء مؤهلين ليكونوا واسطة الاتصال بين الله تعالى وخلقته⁷⁹.

4- أن النبي معصوم: فكل تصرف بمقتضى النبوة يكون معصوما⁸⁰، يقول النورسي مفسرا ما ورد من وعد الله تعالى بالمغفرة للرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه في آخر (سورة الفتح): "...فكما أن كلمة (مغفرة) تدل على هذا الإيمان اللطيف، كذلك فهي ذات علاقة مع ما في بداية السورة (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر)⁸¹، فالمغفرة هنا ليست مغفرة ذنوب حقيقية لأن في النبوة العصمة فلا ثمة ذنب، وإنما هي بشرى المغفرة بما يناسب مقام النبوة⁸².

5- أن النبي له روح نيرة: فالرسالة تقتضي أن يتميز النبي بخصائص روحية تجعله مؤهلا ليكون مبلغا عن الله تعالى ومن هنا كان الأنبياء أصحاب أرواح نيرة في النوع الإنساني⁸³.

6- أن النبي تخفف من الأثقال الإنسانية فاكسب بذلك خصائص روحية مكنته من الارتقاء والسمو في مدارج الكمال، والصعود إلى السماء بإذن إلهي⁸⁴.

7- أن النبي يمثل كمال العبودية لله تعالى، إذ هو عبد اصطفاه الله تعالى وعرفه على ذاته العلية وكلفه بمهمة إراءة الكمالات للخلق، فكان بذلك أعرف من كل المخلوقين بخالقه، ومن ثمة أقدرهم على تمثل العبودية الكاملة، وهذا هو حال النبي صلى الله عليه وسلم الذي بسر عبوديته لخص عبودية جميع أمته بل عبودية الأنبياء الذين سبقوه، يقول النورسي: " أنظر إلى هذا النبي الكريم إلام يدعو.. إنه يدعو إلى السعادة الأبدية في صلاة كبرى شاملة، وفي عبادة رفيعة مستغرقة، حتى أن الجزيرة العربية، بل الأرض برمتها، كأنها تصلي مع صلاته، وتبتهل إلى الله تعالى بابتهاه الجميل، ذلك لأن عبوديته صلى الله عليه وسلم تتضمن عبودية جميع أمته الذين اتبعوه، كما تتضمن - بسر الموافقة في الأصول - سر العبودية لجميع الأنبياء - عليهم السلام - "85.

وصفة العبودية المطلقة هذه ملازمة لصفة الرسالة، فوظيفة الرسول -خصوصا محمد صلى الله عليه وسلم - تقتضي وجودهما في ذاته، إذ إعلان كمالات الله تعالى ووحدانيته لا يكون إلا "بوساطة مبعوث ذي جناحين، أي ذي صفتين: صفة العبودية الكلية، فهو ممثل طبقات المخلوقات عند الحضرة الربانية، وصفة الرسالة والقرب إليه، فهو مرسل من لدنه - سبحانه - "86.

ب- وظيفة الأنبياء :

انطلاقا من اعتبار النبوة شمسا، فإن النورسي يعطي الأنبياء مهمة (التنوير)، وهداية الناس إلى ما يحققون به سعادة الدنيا والآخرة، ويمكن - من خلال تتبع نصوص النورسي - أن نتبين المهام الآتية للأنبياء:

1- هداية الناس في شؤون الدنيا والآخرة: فالأنبياء بعثوا ليقتدي بهم الإنسان لا في أمور الآخرة فحسب، بل أيضا في أمور الدنيا، يقول: " يبين القرآن أن الأنبياء - عليهم السلام - قد بعثوا في مجتمعات إنسانية ليكونوا لهم أئمة الهدى يقتدي بهم في رقيهم المعنوي، ويبين في الوقت نفسه أن الله قد وضع بيد كل منهم معجزة مادية ونصبهم روادا للبشرية وأساتذة لها في تقدمها المادي أيضا⁸⁷، أي أنه يأمر بالافتداء بهم واتباعهم إتباعا كاملا في الأمور المادية والمعنوية⁸⁸.

وهذه الهداية تتخذ أشكالا منها:

أ- بيان مصدر الوجود وغايته ومصيره: إذ لا يمكن - كما يقول النورسي - "أن لا يبين مالك هذا الكون بوساطة رسول ما الغاية من تحولات هذا الكون وما القصد من هذا الطلسم المغلق؟".

وأن لا يجيب بوساطته عن ألباز الأسئلة الثلاثة المستعصية في الموجودات وهي: من أين؟ وإلى أين؟ ومن تكون؟".

ب- بيان نعم الله تعالى على الإنسان وما يطلبه - سبحانه - إزاءها من عبودية وشكر.

ج- توجيه الأنظار من الكثرة إلى التوحيد⁸⁹.

2- إظهار الألوهية: النورسي - كما سبق أن رأينا - يجعل من غايات الإنسان التعرف على الله تعالى وصفاته وشؤونه في الكون، وهي غاية لا يمكن للقدرات الإنسانية مجردة الوصول إليها، ومن هنا جاءت بعثة الأنبياء والرسول لإظهار ما انطوى عليه الكون من دلائل على الألوهية.

يقول: "نعم يلزم أن يكون لمثل هذا الكون البديع ولصانعه القدوس، مثل هذا الرسول الكريم كلزوم الضوء للشمس، لأنه كما لا يمكن للشمس إلا أن تشع ضياء، لا يمكن للألوهية إلا أن تظهر نفسها بإرسال الرسل الكرام".

فالجمال والحلال والكمال - وهي تجليات الأسماء والصفات كما مر بيانه - لا تظهر إلا بوجود نبي يحب الخلق فيها، فيكون بمثابة المعرف الحاذق والمعلن الوصاف لها⁹⁰.
وخلاصة القول - كما يقرر النورسي - أن الحديث عن وظائف النبوة ومهامها يؤكد (أن الألوهية لا تكون بلا رسالة)⁹¹.

3- الإخبار عن الوعد والوعيد: فما دام الإنسان خلق لغاية، فقد بعث الله تعالى الأنبياء بإخبارات فيها وعد لمن تحقق بما طلب منه خالقه، وفيها وعيد لمن خالف وانحرف عن ذلك⁹².

4- التعريف بالحياة الأزلية: فبعثة الأنبياء هي النافذة التي تفتح بين عالم الغيب المحجوب وعالم الشهادة والحس، يقول النورسي: "مادام الكون قد خلق لأجل الحياة، وأن الحياة هي أعظم تجل وأكمل نقش وأجمل صنعه للحى القيوم - جل جلاله - ومادامت حياته السرمدية الخالدة تظهر وتكشف عن نفسها بإرسال الرسل وإنزال الكتب، كذلك الأنبياء والرسول - عليهم السلام - والكتب المنزلة عليهم، يبينون ويدلون على ذلك المتكلم الحى الذي يأمر وينهى بكلماته وخطاباته من وراء الغيب المحجوب وراء ستار الكون"⁹³.

5- بث الحياة في الكون: فثن عد الإمام محمد عبده (النبوة) في الكون بمنزلة العقل في الإنسان⁹⁴، وذلك بالنظر إلى جانب الهداية والإرشاد في وظيفة النبي، فإن النُّورسي أضاف إلى الهداية معنى الحياة، وأعطى (للنبوة) - خصوصا نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم في الكون منزلة الروح في الجسد، فغياب النبوة لا يعني وقوع الكون في الضلال فحسب وإنما في الموت أيضا.

يقول: "إذا ما فارق نور الرسالة المحمدية الكون وغادره، مات الكون وتوفيت الكائنات، وإذا غاب القرآن وفارق الكون، جن جنونه وفقدت الكرة الأرضية صوابها، وزلزل عقلها، وظلت بلا شعور واصطدمت بإحدى سيارات الفضاء، وقامت القيامة"⁹⁵.

4- المعجزة :

الحديث عن المعجزة من المباحث المهمة في باب النبوات، إذ ما من نبي إلا وأيده الله تعالى بما يحمل الناس على تصديقه.

فالمعجزة دليل على النبوة لأن كل دعوى لا تقترن بدليل فهي غير مسموعة، وهي الفيصل أيضا بين من يدعي النبوة صادقا وبين من يدعيها كاذبا⁹⁶.

ولهذا اهتم العلماء ببيان تعريف المعجزة ووجه دلالتها على النبوة وكذا التمييز بينها وبين ما قد يشتهه عند الناس بما مثل الكرامة والسحر.

يقول الرازي: "المعجز أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي مع عدم المعارض، وإنما قلنا: أمر لأن المعجز قد يكون منعا من المعتاد، وإنما قلنا خارقا للعادة لتمييزه به المدعي من غيره وإنما قلنا: مقرون بالتحدي لئلا يتخذ الكاذب معجزة من مضي حجة لنفسه، ويتميز عن الإرهاص و الكرامات، وإنما قلنا مع عدم المعارض لتمييزه عن السحر والشعبذة"⁹⁷.

ولقد أطل النُّورسي الوقوف مع المعجزة، فبين حقيقتها، وأعطى لها مفهوما جديدا تجاوز به المفهوم الذي يجعل من معجزات الأنبياء مجرد حوادث تاريخية يؤتى بها على سبيل الحكاية عن أدلة تصديقهم أمام تحديات أقوامهم.

- فمن بين الجوانب التي ناقشها النُّورسي في موضوع المعجزة، مسألة مدى قبول العقل لانخراق القوانين التي تحكم الطبيعة.

إذ المنكرون للمعجزة يبنون إنكارهم على أساس استحالة كسر (القوانين الطبيعية) وخرقها جاعلين من الارتباط بين الأشياء ارتباطا عقليا ضروريا لا مجرد ارتباط عادي يمكن أن يتخلف. فالقول - عندهم - بالمعجزة مما يناقض العقل والحس.

وهذا الإنكار هو الذي جعل بعض المصلحين في العالم الإسلامي يجدون حرجا في إقرار المعجزات النبوية، فراحوا يتجاهلون ما ثبت للنبي صلى الله عليه وسلم من معجزات مركزين على القرآن الكريم باعتباره المعجزة الخالدة تارة، وتارة أخرى يتكفون التأويلات البعيدة، كي يجعلوا - على حد زعمهم - المعجزات أمورا ممكنة عقلا⁹⁸.

أما النورسي فلم يجد صعوبة في تقرير عدم مناقضة القول بالمعجزة كما يقرره العقل أو يحكم به الحس، منطلقا في ذلك من فكرة (الإمكان)، فيناقش إمكان المعجزة أو ما شابهها كالكرامة من هذه الزاوية.

يقول: "للإمكان أنواع وأقسام هي: الإمكان العقلي والإمكان العرفي والإمكان العادي. فإن لم تكن الحادثة الواقعة ضمن الإمكان العقلي فإنها ترد وترفض، وإن لم تكن ضمن الإمكان العرفي أيضا فإنها تكون معجزة ولا تكون كرامة بيسر، وإن لم تكن لها نظير عرفا وقاعدة فلا تقبل إلا ببرهان قاطع بدرجة الشهود"⁹⁹.

فهو هنا يقرر بشأن المعجزة أمرين أساسيين:

الأول: أن المعجزة تكون ضمن الإمكان العقلي.

الثاني: أن المعجزة لا يشترط فيها أن تكون ضمن الإمكان العرفي، بل هي خارقة له. واستنادا إلى هاتين القاعدتين ناقش منكري المعجزة ورد على أولئك الذين يحاولون تأويل النصوص لتتفق المعجزات - في زعمهم - مع مقتضيات العقل. فهو أثناء رده على شخص حاول أن يؤول النصوص القرآنية لينكر معجزة كون سيدنا عيسى - عليه السلام - ولد دون أب، ناقش معه المسألة من الجانب الحسي بأن أحاله إلى إمكان هذه الظاهرة في الطبيعة ومن الجانب العقلي ببيان مفهوم (القوانين الطبيعية) التي يتمسك بها منكر المعجزات.

يقول النورسي متحدثا عن هذا الشخص: "...وقد شعر الآن في هذه المسألة .. بهجوم الزنادقة العنيف على الأسس الإسلامية، وأظن أنه يحاول فتح طريق للمصالحة والسلام. يمثل هذه التأويلات السخيفة التي لا معنى لها¹⁰⁰.

إنه لا والد لعيسى - عليه السلام - كما تبينه يقينا الآية الكريمة (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم)¹⁰¹ وأمثالها من النصوص القاطعة، لذا لا يؤبه بكلام من يحاول تغيير هذه الحقيقة الرصينة الراسخة، بل لا يقام لقوله وزن ولا يستحق الاهتمام به أصلا، حيث يعد مخالفة قانون التناسل غير ممكن فيتشبه بتأويلات واهية.

ولا شك أنه لا قانون دون شذوذ منه، ودون نواذر له، ودون أفراد خارجة عنه، وليست هناك قاعدة كلية لم تخصص بأفراد خارقة.
وأنه لا يمكن ألا يشذ فرد - أي كان - من قانون ولا يخرج منه، منذ زمن آدم - عليه السلام -

فأولاً: أن هذا القانون، قانون التناسل قد حرق باعتبار المبدأ، بمبادئ مائتي نوع من أنواع الحيوانات وختم بها، أي أن آباء تلك الحيوانات الأولين، وهم بمثابة أوادم لها، قد حرقوا قانون التناسل، أي أن مائتي ألف أب من أولئك الآباء لم يأتوا إلى الوجود من أب وأم، بل أعطى لهم وجود خارج ذلك القانون.
ثم إننا نشاهد بأبصارنا في كل ربيع، أن القسم الأعظم من مائتي نوع من الكائنات الحية ومما لا تعد ولا تحصى من أفرادها، تخلق خارج ذلك القانون، قانون التناسل، تخلق على وجوه الأوراق وعلى المواد المتعفنة¹⁰².

ترى أن قانونا يحرق بشواذ بهذه الكثرة، في مبدئه، بل في كل سنة، ثم يأتي أحدهم ولا يتمكن أن يسع عقله شذوذ فرد واحد لذلك القانون خلال ألف وتسعمائة سنة، فيتشبه بتأويلات تافهة تجاه النصوص القرآنية القاطعة.. أقول ترى كم يكون مرتكبا حماقة وبلاهة (!) قس بنفسك.

علما¹⁰³ أن الأشياء التي يطلق عليها أولئك الشقاة اسم (القوانين الطبيعية) إنما هي قوانين عادة الله التي هي تجل كلي للأمر الإلهي والإرادة الإلهية، بحيث يغير - سبحانه تعالى - عاداته تلك لبعض الحكم مظهرا هيمنة إرادته واختياره على كل شيء وعلى كل قانون، فيحرق العادة في بعض الأفراد الخارقين وقوله تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم) يبين هذه الحقيقة¹⁰⁴.

فهذا النص - وإن كان في سياق مناقشة قضية جزئية يبين نظرة النورسي إلى المعجزة وكونها غير مناقضة للعقل بناء على:

1- أن العقل والحس يشتان أن ما من قانون إلا وله شواذ وما من قاعدة كلية إلا وتخصص بعض الأفراد الخارقين.

2- أن (قوانين الطبيعة) ما هي إلا (العادة) التي أجزاها الله تعالى في الوجود إظهارا لكمال مشيئته وإرادته، يقول النورسي: "إن القدير العليم والصانع الحكيم، يظهر قدرته وحكمته، وعدم تدخل المصادفة في أي فعل من أفعاله قطعاً، بالنظام والتناسق الذي تظهره عاداته التي هي على صورة القوانين الكونية.. وكذا يظهر - سبحانه - بشواذ القوانين الكونية وبخوارق عاداته بالتغيرات الظاهرية، وباختلاف الشخصيات، وتبديل

زمان الزوال والظهور.. يظهر مشيئته وإرادته وأنه الفاعل المختار، وأن اختياره لا يرضخ لأي قيد كان، ممزقا ستار الرتبة والاطراد فيعلم أن كل شيء، في كل آن، في كل شأن من شؤونه في كل ما يخصه ويعود إليه، محتاج إليه منقاد لربوبيته، وبهذا يشتم الغفلة ويصرف الأنظار، أنظار الجن والإنس من الأسباب إلى مسبب الأسباب¹⁰⁵.

- ومما ناقشه النورسي وأبدع فيه جوانب لم يسبق إليها، مسألة الهدف من المعجزة، ومن ذكر القرآن لمعجزات الأنبياء السابقين.

فهو لم يقف عند القول بأن المعجزة يؤتى بها للدلالة على صدق الرسول فيما يدعيه من إخبار عن الله تعالى كما يذهب إلى ذلك كل من كتب في الموضوع، فيغدو بهذا الحديث عن المعجزات التي ذكرها القرآن بالنسبة للأنبياء السابقين، حديثا (تاريخيا) يسجل ما طواه الزمن من حوادث ولا أثر لها في واقع الإنسان المخاطب بالقرآن ولا في مستقبله.

وإنما - وسعيا منه - لربط مباحث العقيدة بالواقع، أعطى النورسي لدلالة المعجزة بعدا آخر فجعل منها إشارة لما يمكن - بل لما يجب - أن يصل إليه العقل البشري من كشف لسنن الله تعالى في الأنفس والآفاق.

فهو لا يرى المعجزة حرقا للعادة فحسب بل هدفا وغاية لما يجب أن يصل إليه الإنسان في الجانب المادي، فهي بهذا لا تعطل الحاضر - حاضر النبي - وليست حديثا عن الماضي بالنسبة للمخاطب بالقرآن وإنما هي استشراف للمستقبل. ولكي يوضح النورسي فكرته هذه عرضها ضمن النقاط التالية:

1- توسيع مفهوم الإقتداء بالأنبياء - عليهم السلام - ليشمل كمالاتهم المعنوية ومعجزاتهم المادية.

2- تعميم مفهوم الإرشاد ليشمل كل آيات القرآن الكريم بما فيها تلك التي تحدثنا عن معجزات الأنبياء فتخرج بذلك عن مجرد السرد التاريخي.

3- عرض نماذج توضيحية لتأكيد هذه الفكرة، من خلال ربط معجزات الأنبياء ببعض ما استطاع الإنسان الوصول إليه.

- يقول شارحا النقطة الأولى: " يبين القرآن الكريم أن الأنبياء - عليهم السلام - قد بعثوا إلى مجتمعات إنسانية ليكونوا لهم أئمة الهدى يقتدي بهم في رقيهم المعنوي، ويبين في الوقت نفسه أن الله قد وضع بيد كل منهم معجزة مادية، ونصّبهم روادا للبشرية وأساتذة لها في تقدمهم المادي أيضا، أي أنه يأمر بالإقتداء بهم واتباعهم إتباعا كاملا في الأمور المادية والمعنوية إذ كما يحض القرآن الكريم الإنسان على الإستزادة من نور

الخصال الحميدة التي يتحلى بها الأنبياء - عليهم السلام - وذلك عند بحثه عن كمالهم المعنوية، فإنه عند بحثه عن معجزاتهم المادية أيضا يوصي إلى إثارة شوق الإنسان ليقوم بتقليد تلك المعجزات التي في أيديهم ويشير إلى حظه على بلوغ نظائرها، بل يصح القول: أن يد المعجزة هي التي أهدت إلى البشرية الكمال المادي وخوارق لأول مرة، مثلما أهدت إليها الكمال المعنوي¹⁰⁶.

- ويقول مبينا النقطة الثانية: " ولما كان العلماء المحققون من أهل البلاغة قد اتفقوا جميعا أن لكل آية كريمة وجوها عدة للإرشاد، وجهات كثيرة للهداية، فلا يمكن إذا أن تكون أسطع الآيات وهي آيات المعجزات سردا تاريخيا، بل لابد أن تتضمن أيضا معاني بليغة حجة للإرشاد والهداية.

نعم إن القرآن الكريم بإيراده معجزات الأنبياء إنما يخطط الحدود النهائية لأقصى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان في مجال العلوم والصناعات، ويشير إلى أبعد نهاياتها، وغاية ما يمكن أن تحقق البشرية من أهداف، فهو بهذا يعين أبعد الأهداف النهائية لها ويحدد لها، ومن بعد ذلك يبحث البشرية ويحضرها على بلوغ تلك الغاية ويسوقها إليها، إذ كما أن الماضي مستودع بذور المستقبل ومرآة تعكس شؤونه، فالمستقبل حصيلة بذور الماضي ومرآة آماله¹⁰⁷.

- أما في النقطة الثالثة: فهو يسوق نماذج على سبيل التمثيل، وفيما يلي ملخص عن بعضها¹⁰⁸.

(1) - مثلا قوله تعالى (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر)¹⁰⁹: هذه الآية الكريمة تبين معجزة من معجزات سيدنا سليمان - عليه السلام - وهي تسخير الريح له، أي أنه قد قطع في ما يقطع في شهرين في يوم واحد. فالآية تشير إلى أن الطريق مفتوح أمام البشر لقطع مثل هذه المسافة في الهواء، فإياها الإنسان حاول أن تبلغ هذه المرتبة واسع للدنو من هذه المنزلة مادام الطريق ممهدا أمامك.

فكأن الله - سبحانه وتعالى - يقول في معنى الآية الكريمة (إن عبدا من عبادي ترك هوى نفسه فحملته فوق متون الهواء، وأنت أيها الإنسان إن نبذت كسل النفس وتركته واستفدت جيدا من قوانين سنتي الجارية في الكون يمكنك أيضا أن تمتطي صهوة الهواء ".

(2) ومثلا قوله تعالى (فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا)¹¹⁰:

تبين معجزة من معجزات سيدنا موسى - عليه السلام - وتشير إلى إمكانية الاستفادة من خزائن الرحمة المدفونة تحت الأرض بالآت بسيطة، فهذه الآية تخاطب البشرية بهذا المعنى :

يمكنكم أن تجدوا الماء الذي هو ألطف فيض من فيوضات الرحمة الإلهية بوساطة عصي، فاسعوا واعملوا بجهد لتجدوه وتكشفوه، فأنت أيها الإنسان إن اعتمدت على قوانين رحمتي، يمكنك أيضا أن تخرع آلة شبيهة بتلك العصا أو نظيرة لها، فهيا اسع لتجد تلك الآية.

فأنت ترى كيف أن هذه الآية سبقة لإيجاد الآلة التي بها يتمكن من استخراج الماء في أغلب الأماكن، والتي هي إحدى وسائل رقي البشرية، بل إن الآية الكريمة قد وضعت الخط النهائي لحدود استخدام تلك الآلة ومنتهاى الغاية منها، بمثل ما عينت الآية الأولى أبعد النقاط النهائية وأقصى ما يمكن أن تبلغ إليه الطائرة الحاضرة.

(3) ومثلا قوله تعالى (وأبرئ الأكمة والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله)¹¹¹ :

فالآية ترسم أقصى المدى وأبعد الأهداف التي يصبو إليها الطب البشري، وتحت الإنسان على الوصول إليه، فبوسعه أن يجد دواء لكل داء¹¹² يصيبه فعليه بالسعي والكشف.

(4) ومثلا قوله تعالى (وألنا له الحديد)¹¹³، وقوله تعالى (وآتيناها الحكمة وفصل

الخطاب)¹¹⁴ :

هاتان الآيتان تخصان معجزة سيدنا داود - عليه السلام - والآية الكريمة (وأسلنا له عين القطر) تخص معجزة سيدنا سليمان - عليه السلام -، فهذه الآيات تشير إلى :

أن تليين الحديد ونعمة إلهية عظمى، إذ يبين الله به فضل نبي عظيم. فتليين الحديد وجعله كالعجين وإذابة النحاس وإيجاد المعادن وكشفها هو أصل جميع الصناعات البشرية وأساسها، وهو أم التقدم الحضاري من هذا الجانب ومعدنه.

فكأن الله تعالى يخاطب الناس من خلال هذه الآيات: أنه مثلما ألان الحديد وأذاب النحاس لعبادته، فأنتم إن أطعتم أوامر التكوينية توهب لكم أيضا تلك الحكمة والصنعة.

هكذا فإن بلوغ البشرية أقصى أمانيتها في الصناعة وكسبها القدرة الفائقة في مجال القوة المادية، إذ هو بتليين الحديد وإذابة النحاس - القطر -، فهذه الآيات تستقطب أنظار البشرية عامة إلى هذه الحقيقة، وتلفت نظر السالفين وكسالى الحاضرين إليها، فتنبه أولئك الذين لا يقدرونها حق قدرها.

(5) ومثلا قوله تعالى (قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده)¹¹⁵، فالآية تشير إلى أن إحضار الأشياء من مسافات بعيدة - عينا وصورة - ممكن.

(6) ومثلا قوله تعالى (قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم) [الأنبياء: 69] هذه الآية الكريمة تبين معجزة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وفيها ثلاث إشارات لطيفة:

- أولها: النار - كسائر الأسباب - ليس أمرها بيدها، فلا تعمل كيفما تشاء حسب هواها وبلا بصيرة، بل تقوم بمهمتها وفق أمر يفرض عليها، فلم تحرق سيدنا إبراهيم لأنها أمرت بعدم الإحراق.

- ثانيها: أن للنار درجة تحرق ببرودتها، أي تؤثر كالإحراق، فالله تعالى يخاطب البرودة بلفظه (سالما) بأن لا تحرقني أنت كذلك إبراهيم كما لم تحرقه الحرارة، أي أن النار في تلك الدرجة تؤثر ببرودتها كأنها تحرق، فهي نار وهي برد.

- ثالثها: مثلما الإيمان الذي هو (مادة معنوية) يمنع مفعول نار جهنم، كذلك هناك (مادة مادية) تمنع تأثير نار الدنيا.

فالآية بقدر ما تحدثنا عن معجزة سيدنا إبراهيم بقدر ما تحدثنا على اكتشاف المادة المانعة من الحريق وهو ما توصل إليه الإنسان فعلا.

- نكتفي هنا بهذه الأمثلة، ويمكن الرجوع إلى تفاصيلها مع بقية الأمثلة الأخرى في المقام الثاني من الكلمة العشرين¹¹⁶.

بهذا يتضح لنا أن النورسي بعث الحياة في مفهوم المعجزة، فلم تعد مجرد سرد تاريخي وإنما نوافذ تفتح أمام الإنسان آفاق المستقبل، وهذا الصنيع ينسجم مع فكرة (الحيوية والواقعية) التي حرص على أن يصبغ بها خطابه العقدي.

- وحتى لا تخرج مسألة دلالة المعجزة عن المخترعات الحديثة عن إطارها¹¹⁷، من كونها مجرد إشارات تنبه العقل الإنساني إلى صدق القرآن من ناحية، وإلى ما يجب عليه بلوغه من ناحية أخرى - يفترض النورسي سؤالين متعلقين بهذا الأمر ويجيب عنها موضحا مكان هذه المسألة من وظيفة القرآن الكريم الأصلية وعلاقتها بوظيفة الإنسان في الحياة.

فأما السؤال الأول فهو: "لما كان القرآن الكريم قد نزل لأجل الإنسان، فلم لم يصرح بما هو المهم في نظره من حوارات المدنية الحاضرة؟ وإنما يكتفي برمز مستمر وإيماء خفي وإشارة خفيفة وتنبيه ضعيف فحسب؟

والجواب:

أن حوارق المدنية البشرية لا تستحق أكثر من هذا القدر، إذ أن الوظيفة الأساسية للقرآن الكريم هي تعليم شئون دائرة الربوبية وكمالاتها ووظائف دائرة العبودية وأحوالها. لذا فإن حق تلك الحوارق البشرية وحصتها من تلك الدائرتين مجرد رمز ضعيف وإشارة خفية ليس إلا، فإنها لو ادعت حقوقها من دائرة الربوبية، فعندها لا تحصل إلا على حق ضئيل جداً¹¹⁸.

وأما السؤال الثاني فهو (لم لم يذكر القرآن الكريم تلك الحوارق وبصراحة تامة كي تجبر الكفرة العنيدون على التصديق والإيمان وتطمئن قلوبنا فتستريح.

والجواب:

إن الدين امتحان، وأن التكاليف الإلهية تجربة واختبار من أجل أن تتسابق الأرواح العالية والأرواح السافلة، ويتميز بعضها عن بعض في حلبة السباق.

فمثلما يختبر المعدن بالنار ليميز الألماس من الفحم والذهب من التراب، كذلك التكاليف الإلهية في دار الامتحان هذه، فهي ابتلاء وتجربة وسوق للمسابقة حتى تتميز الجواهر النفسية لمعدن قابليات البشر واستعداداته من المعادن الخسيسة.

فما دام القرآن قد نزل - في دار الإبتلاء هذه - بصورة اختبار للإنسان ليتم تكامله في ميدان المسابقة، فلا بد أنه سيشير - إشارة فحسب - إلى هذه الأمور الدنيوية الغيبية التي ستوضح في المستقبل للجميع، فاتحاً للعقل باباً بمقدار إقامة الحجة، وإلا فلو ذكرها القرآن الكريم صراحة لاختلت حكمة التكليف، إذ تصبح بديهية مثل كتابه (لا إله إلا الله) واضحا بالنجوم على وجه السماء، والذي يجعل الناس - أرادوا ذلك أم لم يريدوا - عندئذ مرغمين على التصديق، فما كانت ثمّة مسابقة ولا اختيار ولا تمييز، فحينئذ تتساوى الأرواح السافلة التي هي كالفحم مع التي هي كالألماس¹¹⁹.

- الولاية والكرامة:

قبل أن ننهي الحديث عن المعجزة لا بد وأن تكون لنا وقفة مع مفهومين يكثر ذكرهما - عند النورسي - مع (النبوة) و (المعجزة) أعني بذلك (الولاية) و(الكرامة). ففي العديد من المواضع يحرص النورسي على بيان الحد الفاصل بين النبوة والمعجزة من جهة وبين الولاية والكرامة من جهة أخرى، شأنه في ذلك شأن معتدلي الصوفية¹²⁰، فيقرر الأمور التالية:

1- أن رتبة النبوة أسمى وأرفع بكثير من درجة الولاية¹²¹، فالنبي صاحب وحي والولي صاحب إلهام، وأعظم ولي من الأولياء لا يبلغ أي نبي كان من الأنبياء¹²².

2- أن قرب النبوة والرسالة من الله تعالى يختلف عن قرب الولاية: فالولي يحتاج إلى طي المراتب للوصول إلى مقام الولاية، بينما الرسول لا يحتاج إلى ذلك، "الولاية سلوك في مراتب القرب إلى الله، وهي بحاجة إلى زمان وطي مراتب كثيرة، أما الرسالة التي هي أعظم نور فهي متوجهة إلى انكشاف الأقربية الإلهية، الذي تكفيه لحظة خاطفة وآن سيال" ¹²³.

3- يثبت النورسي الكرامة إنطلاقاً من فكرة الإمكان كما فعل مع المعجزة، فيعدها أيضاً داخله ضمن (الإمكان العرفي)، ويعني بذلك أن بعض الكرامات التي ثبتت للأولياء عند التأمل نجدها من قبيل (الممكن عرفاً)، بخلاف معجزات الأنبياء التي تقتضي خرق العرف والعادة.

يقول متحدثاً عن كرامات البدوي: "... فبناء على هذا، فإن الأحوال الخارقة للعادة المروية عن السيد أحمد البدوي - قدس سره - الذي لم يذق طعاماً طوال أربعين يوماً، إنما هي ضمن دائرة الإمكان العرفي، وتكون كرامة له، بل ربما هي عادة خارقة له. نعم! إن روايات متواترة تنتقل عن السيد أحمد البدوي - قدس سره - أنه أثناء استغراقه الروحاني كان يأكل كل أربعين يوماً مرة واحدة، فالحادثة وقعت فعلاً، ولكن ليست دائماً. وإنما حدثت بعض الأحيان من قبيل الكرامة، وهناك احتمال أن حالته الاستغراقية كانت غير محتاجة إلى طعام، لذا أصبحت بالنسبة إليه في حكم العادة. وقد رويت حوادث كثيرة موثوقة من هذا النوع من الأعمال عن أولياء كثيرين من أمثال السيد البدوي - قدس سره -.

فإذا كان الرزق المدخر يدوم أكثر من أربعين يوماً، وان الانقطاع عن الطعام طوال تلك الفترة من الأمور الممكنة عادة، وأنه قد رويت تلك الحالات روايات موثوقة عن أشخاص أفذاذ، فلا بد ألا تنكر قطعاً" ¹²⁴.

فالنورسي بهذا يقف موقفاً وسطاً بين مثبت الكرامة ومنكريها.
- فالذين أثبتوها قالوا بأن الكرامة هي (أمر خارق للعادة يظهر على يد الولي) ¹²⁵.
- والذين أنكروها ¹²⁶ برروا إنكارهم لها بالحرص على عدم الخلط بينها وبين المعجزة.

لكن النورسي من خلال ما سبق توسط الرأيين:
- فأثبت الكرامة ولكنها لم يعدها خرقاً (كاملاً) للعادة، بل وإن بدت في ظاهرها خرقاً للعادة فهي في دائرة (الإمكان العرفي)، أي هي أمر ممكن عرفاً وعادة وليس

خرقا لها كالمعجزة، يقول عن (الحادثة) - : " إن لم تكن ضمن الإمكان العرفي فإنها تكون معجزة ولا تكون كرامة بيسر"¹²⁷.

ومن هنا لا مسوغ لإنكارها بحجة خوف الخلط بينها وبين (المعجزة)، لأن المعجزة خرق (للإمكان العرفي) أما الكرامة فهي في حدود الإمكان العرفي.

وهو بهذا الموقف جعل العقل مقياسا مادامت (المعجزة) و (الكرامة) كلاهما قد شرطتا بعدم مخالفة (الإمكان العقلي)، فحافظ على مبدأ (معقولية الحقائق الإسلامية) وأغلق أبواب الخرافة التي فتحتها المفهوم القديم للكرامة.

- ولا ينسى النورسي وهو يتناول موضوع الكرامة أن ينبه إلى أن البحث عن ترسيخ الإيمان وزيادة آثاره في واقع الناس أولى من تتبع الأذواق والكرامات لأن "زيادة الإيمان الذي هو مفتاح السعادة الأبدية إنما هو على جانب عظيم من الأهمية فزيادته ولو بمقدار ذرة كنز عظيم، كما يقول الإمام الرباني أحمد الفاروقي السرهندي (إن انكشاف مسألة صغيرة من مسائل الإيمان هو أفضل في نظري من مئات من الأذواق والكرامات)"¹²⁸.

المبحث الثاني: نبوة محمد صلى الله عليه وسلم

لئن كان الإيمان بالرسول من الأركان التي أفاض النورسي في الحديث عنها، لأنه يرى بأنه أحد المقاصد الأربعة - مع التوحيد والحشر والعبودية - التي جاء القرآن بتقريرها وبيانها¹²⁹، فإنه ركز على نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم -، فتناولها في عدة مواضع، بل وأفرد لها برسائل خاصة¹³⁰، وناقش من خلالها عدة مسائل.

ونحن في هذا المبحث سنحصر الحديث في ثلاث مسائل هي: بيان علاقة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بنبوة من سبقه من الأنبياء، الحقيقة المحمدية، دلائل نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم.

1- علاقة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بنبوة الأنبياء السابقين:

لقد ركز النورسي في حديثه عن النبوة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وفصل القول فيها، لكونه صلى الله عليه وسلم هو صاحب النبوة الخاتمة، والرسالة المتوجهة للعالمين.

لذا وجدنا النورسي يعطي في العديد من رسائله (مبررات) تفصيله للرسالة المحمدية، والتي يمكن تلخيصها في العناصر التالية:

1- مكانته بين الموجودات: فهو يصفه بأنه " أعظم آية في كتاب الكون الكبير وأعظم اسم في ذلك القرآن الكبير، وبذرة شجرة الكون وأنور ثمارها وشمس قصر هذا العالم، والبدر المنور لعالم الإسلام والبدال على سلطان ربوبية الله والكشاف الحكيم للغز الكائنات، هو سيدنا محمد الأمين عليه أفضل الصلاة والسلام" ¹³¹.

2- مكانته بين الأنبياء: لا يكتفي التورسي بالاستناد إلى مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم بين الموجودات عامة ليرز تخصيص رسالته بالشرح والبيان، وإنما أيضا يستند إلى مكانته وعلاقته مع الأنبياء السابقين، والتي يمكن إظهارها من خلال النقاط التالية:

أ- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الأكثر أهلية من بين الأنبياء ليكون حاملا للرسالة الخاتمة، فيعد أن يبين التورسي وظائف النبوة الخاتمة ومهامها، وهي إظهار وإراءة الجمال الإلهي المطلق، والإجابة الواضحة عن الأسئلة الوجودية المستعصية، يتساءل: "فهل ظهر في العالم من هو أكثر أهلية وأجمع لتلك الأوصاف والوظائف التي ذكرت من محمد صلى الله عليه وسلم؟ أم هناك أحد أليق منه صلى الله عليه وسلم لمنصب الرسالة ومهمة التبليغ؟ وهل أظهر الزمان أحدا أعظم أهلية منه؟"، ويجب مؤكدا " كلا .. فهو إمام جميع المرسلين، وقررة عين كل الأصفياء وسلطان جميع المرشدين وزبدة كل المختارين والمقربين" ¹³².

ب- أن رسالته صلى الله عليه وسلم قد نسخت رسائلهم: إذ هو الوارث المطلق لأصول أديانهم، من أجل هذا أسرى به الله تعالى إلى المسجد الأقصى الذي هو مجمع الأنبياء ¹³³.

ج- أن كتابه يتضمن إجمالا جميع كتب الأنبياء المختلفة عصورهم، فهو المستحق لأن يوصف بأنه (كلام الله)، وتأتي بعده في المرتبة الكتب المقدسة لسائر الأنبياء - عليهم السلام - وصحفهم ¹³⁴.

هـ- أنه بينه صلى الله عليه وسلم وبينهم - عليهم السلام - تصديق متبادل: فبقدر ما أظهرت معجزاتهم إعجاز القرآن، والقرآن معجزة للرسول صلى الله عليه وسلم ¹³⁵ بقدر ما كانت معجزاته صلى الله عليه وسلم حججا ودلائل تشهد على صدق الأنبياء السابقين وتحمل الآخرين على تصديقهم ¹³⁶.

و يقدر ما صدقوه صلى الله عليه وسلم بالإشارات التي تضمنتها كتبهم ¹³⁷، كان هو أيضا مصدقا لهم إذ هو حامل سر إجماعهم وتصديقهم ¹³⁸، وهو رئيسهم الذي يركبهم ويصدقهم بجماعية دينه لأساسات أديانهم ¹³⁹.

وقد يبدو في هذا التصديق المتبادل الذي يتحدث عنه النورسي (دور)، إذ يصبح تصديق الأنبياء للرسول متوقفا على تصديقه هو لهم، لكن عند التأمل يتضح لنا ما يعنيه النورسي بهذه الفكرة، إذ يرى أن المعجزات التي أقامها الأنبياء على صدق نبوتهم وأثبتت صدقهم أثبتت بشكل غير مباشر نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم لأنهم بشروا به في كتبهم.

وكذلك الشأن لما أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم الدلائل التي أثبتت صدقه فقد أثبت بشكل غير مباشر صدق نبوة الأنبياء، ما دام قد أخبر عنهم في كتابه. وعليه فإنكار نبوة أي نبي من الأنبياء هو إنكار لنبوة الباقي¹⁴⁰.

2- الحقيقة المحمدية:

لمفهوم (الحقيقة المحمدية) مكانة مهمة لدى الصوفية، خصوصا عند الذين اهتموا منهم ببيان حقائق الموجودات ومراتبها وعلاقتها بعضها ببعض، إذ - كما يؤكد ابن خلدون - لما اهتم متأخرو القوم بالكشف " تكلموا في حقائق الموجودات العلوية والسفلية، وحقائق الملك والروح والعرش والكرسي وأمثال ذلك"¹⁴¹، فكان أن تطرقوا إلى بيان (الحقيقة المحمدية) واعتبروها مثلة لحقائق الصفات واللوح والقلم وحقائق الأنبياء والرسول أجمعين والكمال من أهل الملة المحمدية¹⁴².

والنورسي - متأثرا بصوفيته - يتحدث عن (الحقيقة المحمدية) أثناء تناوله لشخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبيان علاقته بالموجودات، فأقرب - كما سنرى - في العديد من المواضيع من آراء كبار الصوفية التي لا يمكن تحليلها بالنظر العقلي، كما يصعب التوفيق بينهما وبين ظواهر النصوص الشرعية، ولعلنا لا نملك أمامها إلا أن نقول كما قال ابن خلدون عنها: " وليس البرهان والدليل بنافع في هذا الطريق ردا وقبولا إذ هي من قبيل الوجدانيات"¹⁴³.

وآثرنا قبل التطرق لآراء النورسي في المسألة، أن نشير إليها - ولو بشكل موجز - عند غيره من الصوفية من باب المقارنة وإيضاح أصول بعض الأفكار الواردة عنده وكذا مدلولات بعض مصطلحاته.

فإذا جئنا إلى تعريف هذا المصطلح نجده مجملا عند صاحب (التعريفات) كما يلي:
"الحقيقة المحمدية هي الذات مع التعيين الأول وهو الاسم الأعظم"¹⁴⁴.
أما عند السرهندي - أستاذ النورسي الروحي - فهي: "ظهور أول وحقيقة الحقائق، بمعنى أن سائر الحقائق، سواء كانت حقائق الأنبياء الكرام أو حقائق الملائكة العظام - عليهم الصلاة والسلام - كالظلال لها، وأنها أصل جميع الحقائق، قال عليه الصلاة

والسلام (أول ما خلق الله نوري)¹⁴⁵ وقال عليه الصلاة والسلام (خلقت من نور الله والمؤمنون من نوري)¹⁴⁶، فبالضرورة تكون تلك الحقيقة بين سائر الحقائق وبين الحق - جلا وعلا -، ويكون وصول أحد بلا توسطه - عليه وعلى آله الصلاة والسلام - محالا، فهو نبي الأنبياء والمرسلين، وإرساله رحمة للعالمين، ومن ههنا يتمنى الأنبياء أولو العزم مع وجود الأصالة فيهم - تبعيته والدخول في عداد أمته كما ورد عنه - عليه وعليهم الصلاة والسلام -¹⁴⁷.

أما الأمير عبد القادر فقد تطرق هو أيضا إلى المسألة في العديد من (المواقف)¹⁴⁸، لكنه أجمل الحديث عنها في (الموقف التاسع والثمانين)، فشرح مفهومها عنده والمصطلحات التي يستعملها القوم للدلالة عليها.

يقول في تفسير قوله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) [الأنبياء: 107]: "اعلم أنه ليس المراد من إرساله رحمة للعالمين هو إرساله من حيث ظهور جسمه الشريف الطبيعي فقط، وإن قال به جمهور المفسرين وعامتهم، فإنه من هذه الحيشة غير عام الرحمة لجميع العالمين، فإن العالم اسم لما سوى الحق تعالى بل المراد إرساله من حيث حقيقته التي هي حقيقة الحقائق، ومن حيث روحه الذي هو روح الأرواح، فإن حقيقته صلى الله عليه وسلم هي الرحمة التي وسعت كل شيء، وعمت هذه الرحمة حتى أسماء الحق تعالى من حيث ظهور آثارها ومقتضياتها بوجود هذه الرحمة، وهذه الرحمة هي أول شيء فتق ظلمة العدم وأول صادر عن الحق تعالى بلا واسطة، وهي الوجود المفاض على أعيان المكونات، وقد ورد في الخبر (أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر).

ولهذه الحقيقة المحمدية أسماء كثيرة، باعتبار كثرة وجوهها واعتباراتها، وأذكر طرفا منها ليكون نموذجا لما لم أذكر، فإن كثيرا من الناس الذين يطالعون كتب القوم - رضوان الله عليهم - حين يرون هذه الأسماء الكثيرة يظنون أنها أسماء لمسميات متعددة، وليس الأمر كذلك، وإنما هي مثل: السيف والصارم والقضيب والهندواي والأبيض والصقيل والمحدد ونحو ذلك والمسمى واحد.

منها: التعيين الأول للحق تعالى ولذا قيل في حق الحقيقة المحمدية: أهما الذات مع التعيين الأول، ومنها القلم الأعلى، ومنها أمر الله، ومنها العقل الأول، ومنها سدرة المنتهى، ومنها الحد الفاصل، ومنها مرتبة صورة الحق والإنسان الكامل بلا تعدد، ومنها القلب ومنها الكتاب المسطور ومنها روح القدس، ومنها الروح الأعظم، ومنها التجلي الثاني، ومنها حقيقة الحقائق ومنها العما، ومنها الروح الكلي، ومنها الإنسان الكامل، ومنها الإمام المبين، ومنها العرش الذي استوى عليه الرحمن، ومنها مرآة الحق، ومنها المادة

الأولى، ومنها المعلم الأول، ومنها نفس الرحمن - بفتح الفاء - ومنها الفيض الأول، ومنها الدرة البيضاء، ومنها البرزخ الجامع، ومنها واسطة الفيض والمدد، ومنها حضرة الجمع، ومنها الوصل، ومنها مجمع البحرين، ومنها مرآة الكون، ومنها مركز الدائرة، ومنها الوجود الساري، ومنها نور الأنوار، ومنها الظل الأول، ومنها الحياة السارية في كل موجود، ومنها حضرة الأسماء والصفات ومنها الحق المخلوق به كل شيء، إلى غير ذلك مما يطول ذكره "149".

وبعد أن يسهب الأمير في شرح وبيان هذه الإطلاقات كلها¹⁵⁰، يخلص إلى القول: "ويكفي هذا القدر من ذكر أسماء هذه الحقيقة المحمدية لمن فهم، فإنها بحر لا ساحل له، ولذا ورد في الخبر عنه صلى الله عليه وسلم (لا يعلم حقيقي غيري)¹⁵¹، وقال العارف الكبير: أعجز الخلائق فلم يدركه منا سابق ولا حق، يعني العلم بحقيقته"¹⁵².

- فإذا عدنا إلى النورسي وجدناه يستعمل المصطلحات ذاتها، ويتبنى الآراء نفسها حول الحقيقة المحمدية، فالنبي صلى الله عليه وسلم ذو حقيقة تتميز بالصفات والخصائص التالية:

(1) فهو نور العالم وروحه: فشخصيته المعنوية لا تكفي بأن تمنح الكون النور بهداية النبوة وإنما تمنحه الحياة والجمال وتثبت في أرجائه الحركة أيضا.

يقول في (المثنوي): "اعلم أنه بينما ترى العالم يلبس صورة الشجرة ترى نوره - عليه الصلاة والسلام - نواتها أولا وثمرتها ثانيا.. وبينما ترى العالم جسما ترى نوره - عليه الصلاة والسلام - روجه.. وبينما ترى العالم حديقة مزهرة ترى نوره - عليه الصلاة والسلام - عندلبيه.. وبينما ترى العالم قصرا عاليا تغمره شعاعات سلطنة الأزل وخوارق حشمته، ومحاسن تجليات جماله ونقوش خوارق صنعته.. إذ ترى نوره - عليه الصلاة والسلام - نظارا كشافا يرى لنفسه أولا ثم ينادي: أيها الناس تعالوا إلى هذه المظاهر النزيهة، وهلموا على ما لكم فيها من روائع الجمال وآيات الحسن والكمال.

ثم يتقدمهم مرشدا ويريهما للناس ويشاهد ويشهد لهم.. يدهش ويثير دهشتهم.. يجب ويجب مالكة إليهم.. يستضيء ويضيء لهم.. يستفيض ويفيض عليهم"¹⁵³.

فالعلاقة بين الكون والذات المحمدية - سواء نظرنا إلى هذه الذات من جانب الشخصية المعنوية والمادية أم من جانب الرسالة - هي كعلاقة الكائن الحي بالروح التي تمنحه الحياة والعقل الذي يمنحه الهداية إذ "الحياة المحمدية - المادية والمعنوية - مترشحة من الحياة ومن الكون، فهي خلاصة زبدتها، والرسالة المحمدية كذلك مترشحة من حس الكون وشعوره وعقله، فهي أصفى خلاصته، بل إن حياة محمد صلى الله عليه وسلم المادية والمعنوية، بشهادة آثارها حياة حياة الكون، والرسالة المحمدية شعور لشعور الكون

ونور له، والوحي القرآني بشهادة حقائقه الحيوية - روح الحياة الكون وعقل لشعوره..
أجل.. أجل.. أجل.

فإذا فارق نور الرسالة المحمدية الكون وغادره، مات الكون وتوفيت الكائنات، وإذا
ما غاب القرآن وفارق الكون، جن جنونه وفقدت الكرة الأرضية صوابها وزال عقلها،
وظلت دون شعور، واصطدمت بإحدى سيارات الفضاء وقامت القيامة¹⁵⁴.

(2) هو أصل الكائنات ونتيجتها¹⁵⁵: أو هو نواة شجرة الموجودات وثمرتها،
فالنورسي ينظر إلى الموجودات وإلى العلاقة بينها كنظرته إلى الشجرة وتكامل أجزائها،
بدء بالنواة (البذرة) ومرورا بالجذع والأغصان والأوراق وانتهاء بالثمرة، فيجعل انطلاقا
من هذا - الرسول صلى الله عليه وسلم بذرة الكائنات ونواتها وهو في الوقت ذاته
ثمرتها!

والنورسي أدرك أن تصور هذه (الحقيقة) أمر صعب إذا نظرنا إليها بموازين العقل
فاستعان - في بيائها - بضرب مثال حسي لتقريبها إلى الإفهام.

يقول - مخاطبا من استشكل هذه الحقيقة -: "إن هذه الحقيقة التي إستشكلتها هي
عميقة الغور في ذاتها، وهي عالية سامية إلى حد لا يبلغها العقل بل لا يقترب منها، ومع
هذا فإنها ترى بنور الإيمان¹⁵⁶.

ونحن سنحاول أن نقرب إلى الأفهام شيئا من تلك الحقيقة العالية ببعض الأمثلة التي
تساعد على ذلك، وهي على النحو الآتي:

- إذا ما نظر إلى هذه الكائنات نظر الحكمة بدت كأها شجرة عظيمة وفي معناها،
فكما أن الشجرة لها أغصان وأوراق وأزاهير وثمرات، ففي العالم السفلي الذي هو شق
من شجرة الحلقة نشاهد أيضا أن العناصر بمثابة أغصانه، والنباتات والأشجار في حكم
أوراقه، والحيوانات كأها أزاهيره والأناسي كأها ثمراته.

فالقانون الإلهي الجاري على الأشجار يلزم أن يكون جاريا أيضا على هذه الشجرة
العظمية، وذلك بمقتضى اسم الله (الحكيم)، لذا فمن مقتضى الحكمة أن تكون شجرة
الحلقة هذه ناشئة أيضا من نواة، وأن تكون النواة جامعة على نماذج وأسس سائر العوالم
فضلا عن احتوائه¹⁵⁷ على العالم الجسماني، لأن النواة الأصلية للكائنات المتضمنة لألوف
العوالم ومنشأها لا يمكن أن تكون مادة جامدة قط.

وحيث أنه ليست هناك شجرة من غير نوع شجرة الكائنات قد سبقتها، فإن المعنى
والنور الذي هو في حكم المنشأ والنواة قد يتجسد بثمرة في شجرة الكائنات وألبس
ملايس الثمرة، وذلك لأن النواة لا تكون مجردة عارية دائما، إذ ما دامت لم تلبس لباس
الثمرة في أول الفطرة فتلبسها في الأخير.

ومادام الإنسان هو تلك الثمرة، وأفضل ثمرات نوع البشر وأنوارها وأحسنها وأعظمها وأشرفها وألطفها وأجملها وأنفعها هو محمد صلى الله عليه وسلم، - كما أثبت سابقا - الذي جلب نظر عموم المخلوقات بفضائله، وحصر نظر نصف الأرض وخمس البشرية في ذاته المباركة واستقطب أنظار العالمين إلى محاسنه المعنوية بالحبّة والتبجيل والإعجاب.. فلا بد أن النور الذي هو نواة تشكل الكائنات سيتجسد في ذاته صلى الله عليه وسلم وسيظهر بصورة ثمرة الختام¹⁵⁸.

وهو بعد هذا البيان يفترض أن المستمع يعترض عليه قائلا: (كيف يكون ذلك النبي الكريم صلى الله عليه وسلم نواة هذه الكائنات؟ حيث تقولون: أن الكائنات قد خلقت من نوره، وفي الوقت نفسه هو آخر ثمرة من ثمراتها وأنوارها؟)¹⁵⁹.

فيكون الجواب: "أيها المستمع لا تستبعد خلق هذه الكائنات البديعة العظيمة من ماهية جزئية لإنسان، فإن التقدير ذا الجلال الذي يخلق شجرة صنوبر ضخمة، وكأها عالم بذاته، من نواة صغيرة لها، كيف لا يخلق، أو يعجز عن خلق الكائنات من نور محمد صلى الله عليه وسلم؟"¹⁶⁰

نعم إن شجرة الكائنات شبيهة بشجرة طوبى الجنة، جذعها وجذورها متوغلة في العالم العلوي، وأغصانها وثمراتها متدلّية إلى العالم السفلي، لذا فإن هناك خيطا ذا علاقة نورانية ابتداء من مقام الثمرة في الأسفل إلى مقام النواة الأصلية، فالمعراج النبوي صورة وغلاف لخيط العلاقة النورانية ذاك¹⁶¹.

ونحن إذ ننظر إلى هذا الجواب الذي يقدمه النورسي نلاحظ أن المسألة ليست متعلقة بقدرة الله تعالى إذ السائل - سواء كان حقيقيا أم مفترضا - لم يستشكل الأمر من باب هل الله تعالى قادر على خلق الكائنات من ماهية جزئية هي ماهية الرسول صلى الله عليه وسلم ثم يجعله في الوقت نفسه ثمرة لها؟

لأن أي مؤمن مقتنع بأن قدرة الله تعالى مطلقة لا حد لها، وإنما الإشكال يطرح من باب الأدلة الشرعية التي تبرر القول بهذا الرأي، لأن النورسي - وإن لم يصرح بذلك - يبدو أنه استند إلى الأحاديث ذاتها التي اعتمد عليها أستاذه السرهندي وغيره من الصوفية في هذه المسألة، كزعمهم أنه صلى الله عليه وسلم قال: (خلقت من نور الله والمؤمنون من نوري)، وهو ما لم يجب عنه النورسي، وقصارى ما يبررون به رأيهم، القول بأنه من باب الوجدانيات التي لا يدرك العقل حقيقتها وإنما السبيل إليها إنما هو (الذوق) أو نور الإيمان.

(3) وهو الإنسان الكامل الذي كان سببا لخلق الأفلاك¹⁶²، بل من أجله أوجد الخالق هذا العالم بما فيه فهو " مدار ظهور مقاصد خالق الكائنات في خلق الموجودات، وواسطة تظاهر كمالات الكائنات، المرمز بشخصيته المعنوية إلى أنه نصب عين فاطر الكون في خلق الكائنات، يعني أن الصانع نظر إليه وخلق لأجله ولأمثاله هذا العالم"¹⁶³. بل التورسي يرفع الرسول صلى الله عليه وسلم من مرتبة (الإنسان الكامل)¹⁶⁴ التي يصفه بها الصوفية إلى مرتبة (الإنسان الأكمل)، فيقول عنه بأنه: "هو الإنسان الأكمل والدليل الأعظم على الله تعالى وقد أظهر جمع ما بيناه من كمالات الإنسان وقيمته ومهمته ومثله¹⁶⁵، فأظهر تلك الكمالات في نفسه، وفي دينه بأوضح صورة وأكملها، مما يدلنا على أن الكائنات مثلما خلقت لأجل الإنسان، أي أنه المقصود الأعظم من خلقها والمنتخب منها، فإن أجل مقصود من خلق الإنسان أيضا وأفضل مصطفى منه، بل أروع وأسطع مرآة للأحد الصمد إنما هو محمد عليه وعلى آله وأصحابه - الصلاة والسلام - بعدد حسنات أمته"¹⁶⁶.

(4) هو الذي حظي بالاسم الأعظم، ونال جميع تجليات الأسماء الحسنى : فلئن كانت الموجودات - كما سبق أن رأينا في الفصل السابق - هي ظلال لتجليات أسماء الله تعالى وصفاته فالتورسي يرى بأن كل موجود ينال حظه من التجلي بقدر استعدادة¹⁶⁷.

ومن هذه الحثية تفاوتت مقامات الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فعیسی عليه السلام مثلا في مقام تجلي اسم (القدير)، وموسى - عليه السلام - في مقام تجلي اسم (المتكلم)... وهكذا¹⁶⁸.

أما الرسول صلى الله عليه وسلم فلأنه قد حظي بالاسم الأعظم، ولأن نبوته عامة وشاملة، وقد نال جميع تجليات الأسماء الحسنى، كان له المقام الأعلى والمتمثل في العلاقة مع جميع دوائر الربوبية، ويجد التورسي في الإشارات التي تضمنتها حادثة الإسراء والمعراج (الالتقاء بالأنبياء والمرور ببعضهم كل في السماء المخصصة له) دليلا على ما يقول¹⁶⁹.

وها هنا نجد تقاربا بينه وبين الجليلي الذي يرى بأن الكمال الإلهي لا يظهر في الكون إلا في صورة (الإنسان الكامل)¹⁷⁰.

(5) هو الذي جمع في ماهيته العبودية الكلية والرسالة، إن جمال الله تعالى وكمالهما المطلقين لا يمكن أن يظهر في الكون إلا من خلال مبعوث مؤهل لذلك، أي حائر على الاستعداد الذي يمكنه من رؤية الكمال الإلهي وإراءته للموجودات، وهذا لا يتحقق إلا

مبعوث ذي جناحين " أي ذي صفتين: صفة العبودية الكلية، فهو يمثل طبقات المخلوقات عند الحضرة الربانية، وصفة الرسالة والقرب إليه فهو مرسل من لدنه - سبحانه - إلى العالمين كافة ".
و ليس بين الموجودات بل بين الأنبياء من هو أكثر أهلية لهذا المقام من محمد صلى الله عليه وسلم الذي هو " إمام جميع المرسلين وقرّة عين كل الأصفياء وسلطان جميع المرشدين وزبدة كل المختارين والمقربين "171 .

وبهذا أكمل فيه تعالى الجانبين، فكانت عبوديته صلى الله عليه وسلم كاملة ورسالته شاملة، وقد اتضح ذلك جليا من خلال حادثة المعراج حيث " عرج به إلى مقام (قاب قوسين) فشرفه بالأحذية، بكلامه وبرؤيته، ليجعل ذلك العبد عبدا جامعاً لجميع الكمالات الإنسانية نائلاً جميع التجليات الإلهية، شاهداً على جميع طبقات الكائنات، داعياً إلى سلطان الربوبية مبلغاً للمرضيات الإلهية، كشافاً لطلسم الكائنات "172 .

ومن أجل هذا بلغ من المقامات ما لم يبلغه أي نبي أو ولي، يقول النورسي: " فلأن أفضل من بلغ مقاصد رب العالمين من بين البشر وكشف طلسمها وحل لغز الخلق، وأكمل من دعا إلى عظمة محاسن الربوبية هو محمد صلى الله عليه وسلم، فلا ريب أن سيكون له من بين البشر سير وسلوك معنوي سام بحيث يكون له معراجاً في صورة سير وسياحة في العالم الجسماني، وسيقطع المراتب إلى ما وراء طبقات الموجودات وبرزخ الأسماء وتجلي الصفات والأفعال المعبر عنها بسبعين ألف حجاب "173 .

ومثلما تكاملت (العبودية) و(الرسالة) في الذات المحمدية تكاملت فيها أيضاً (الولاية) و(الرسالة) إذ محمد صلى الله عليه وسلم كما يرى النورسي - طوى تحت جناحه جميع الأولياء كما تقدم جميع الأنبياء، فولايته مهيمنة على جميع الولايات، ورسالته متضمنة لجميع الرسالات، وهذا المعنى يظهر من الإشارات التي تلوح من خلال معجزة المعراج، حيث يرى النورسي أن المعراج هو نقطة الارتقاء من مقام الولاية إلى مقام الرسالة.

يقول: " أما المعراج فلأنه كرامة كبرى للولاية الأحمدية ومرتبها العليا، فقد ارتقت وانقلبت إلى مرتبة الرسالة.

فباطن المعراج ولاية، إذ عرج من الخلق إلى الحق - سبحانه وتعالى - .
وظاهر المعراج رسالة، إذ يأتي من الحق - سبحانه وتعالى - إلى الخلق أجمعين.

فالولاية سلوك في مراتب القرب إلى الله، وهي بحاجة إلى زمان وإلى طي مراتب كثيرة، أما الرسالة - التي هي أعظم نور - فهي متوجهة إلى انكشاف سر الأقرية الإلهية، الذي يكفيه لحظة خاطفة وآن سيال¹⁷⁴.

□ إن التحديدات السابقة للذات المحمدية يبدو أن النورسي قد كتبها بلسان (الحقيقة)، ولذلك اقترب فيها من مفاهيم الصوفية، واستعمل لبيائها إطلاقاً ومصطلحاتهم، ولكنه لم يقف عند هذا الحد، وإنما تطرق أيضاً (للحقيقة المحمدية) بلسان (الشريعة)، مركزاً على واجب المسلم تجاه الرسول صلى الله عليه وسلم، فبين " إن اتباع السنة الشريفة لهذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم هو الذي يقود إلى الانضواء تحت لواء شفاعته والاقْتِباس من أنواره والنجاة من ظلمات البرزخ"¹⁷⁵.

فلكأنه - بدافع من حيوية خطابه العقدي وواقعيته - أدرك أن الصورة الصوفية للذات المحمدية لا يمكن أن ينتفع بها حقيقة إلا الخاصة، فسعى لتناول تلك الذات من زاوية الشريعة التي لا بد وأن يظهر أثرها في ضبط سلوك الفرد في الحياة. من أجل هذا خصص رسالة كاملة أسماها (مرقاة السنة وترياق البدعة)¹⁷⁶، انطلق فيها من ثلاث آيات، كل واحدة منهن تبين جانباً من شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته وهذه الآيات هي:

- قوله تعالى { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } [التوبة: الآية 128].

- وقوله تعالى { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } [سورة التوبة: الآية 129].

- وقوله تعالى { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ }¹⁷⁷.

فبين من خلال تحليله لها، أنه: كما أن (الحقيقة) ترشدنا إلى تنور الكون وحياته بل وخروجه من العدم إلى الوجود إنما كان بفضل (الذات المحمدية)، فإن (الشريعة) ترشدنا إلى أن حب الله تعالى ورحمته لا ينالهما العبد إلا ببركة اتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هذا الموصوف بأنه رؤوف رحيم وبأنه حبيب رب العالمين.

يقول النورسي: " أن محبة الله تستلزم إتباع السنة الطاهرة لمحمد صلى الله عليه وسلم، لأن حب الله هو العمل بمرضياته، وأن مرضياته تتجلى بأفضل صورها في ذات محمد صلى الله عليه وسلم

والتشبه بذاته المباركة في الحركات والأفعال يأتي من جهتين:

- إحداهما: جهة حب الله - سبحانه - وإطاعة أوامره، والحركة ضمن دائرة مرضياته، هذه الجهة تقتضي ذلك الإتياع، حيث أن أكمل إمام وأمثل قدوة في هذا الأمر هو محمد صلى الله عليه وسلم

- ثانيهما: جهة (ذاته المباركة) صلى الله عليه وسلم التي هي أسمى وسيلة للإحسان الإلهي غير المحدود للبشرية، فهي إذا أهل لمحبة غير محدودة لأجل الله وفي سبيله.

والإنسان يرغب فطرة في التشبه بالمحبوب ما أمكن، ولذا فالذين يسعون في سبيل حب (حبيب الله) عليهم أن يبذلوا جهدهم للتشبه به باتباع سنته الشريفة¹⁷⁸.

فالنورسي في هذا المقام يركز على الجانب العملي الذي يستفيد منه (العامة) قبل (الخاصة) فهو يشرح مدلول الآيات المشار إليها سابقا شرحا واضحا بعيدا عن المصطلحات الصوفية التي رأيناها يستعملها حينما تحدث عن (الحقيقة الحمديّة) بلسان القوم.

فهو هنا يؤكد بوضوح: "بما أن أحدا لا يمكنه أن يكون أهلا لمحبه - سبحانه - إلا باتباع السنة الأحمدية كما نص عليه كلامه العزيز، إذن فاتباع السنة الحمديّة هو أعظم مقصد إنساني وأهم وظيفة بشرية"¹⁷⁹.

ويخلص إلى القول: "فالسعيد المحظوظ هو من له أوفر نصيب من هذا الإتياع للسنة الشريفة، ومن لم يتبع السنة فهو في حسران مبين إن كان متكاسلا عنها.. وفي جناية كبرى أن كان غير مكترث بها.. وفي ضلالة عظيمة إن كان منتقدا لها بما يرمي التكذيب بها"¹⁸⁰.

- وحينما يقترب أكثر من شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم لا يحدثنا عنه باعتباره النور الذي كان مصدر الموجودات ولا عن ذاته التي كانت نواة العالم وثمرته وغير هذا من المفاهيم التي - كما أكد هو من قبل - يصعب على العقل تقبلها، وإنما يحدثنا عن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال ما جاءت به الآيات القرآنية، مركزا على الجانب العملي، حاثا على الإقتداء به، منكرًا على من ترك سنته، فجاء بيانه واضحا منسجما مع النصوص الشرعية سهلا على العقل تقبله.

- ولهذا وجدناه يعود إلى القرآن الكريم¹⁸¹ للحديث عن صفات الرسول صلى الله عليه وسلم ويختار منها ماله علاقة بالعمل والإقتداء، يقول: "لقد وصف الله -

سبحانه وتعالى - الرسول صلى الله عليه وسلم في القرآن الحكيم بقوله (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)¹⁸².. ففي الوقت الذي ينبغي أن يكون من أفعال هذا النبي العظيم صلى الله عليه وسلم وأقواله وأحواله، وكل حركة من حركاته نموذج إقتداء للبشرية، فما

اتعس أولئك المؤمنين من أمتهم الذين غفلوا عن سنته صلى الله عليه وسلم ممن لا يباليون بها أو يريدون تغييرها، فما أتعسهم وما أشقاهم" ¹⁸³.

- ووجدناه أيضا حينما يتحدث عن كمال شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم لا يدخل بنا في متاهات مفهوم (الإنسان الكامل) ذات البعد التجريدي، وإنما يوجهنا من خلال كمال الذات المحمدية إلى قضية واقعية عملية، كلما غفل عنها المسلمون ابتعدوا عن حقيقة دينهم أعني بذلك (الوسطية)، والتي هي نتيجة الاعتدال والاستقامة. يقول: " لما كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد خلق في أفضل وضع وأعدله وفي أكمل صورة وأتمها فحركاته وسكناته قد سارت على وفق الاعتدال والاستقامة، وسيرته الشريفة تبين هذا بيانا قاطعا وبوضوح تام، بأنه قد مضى وفق الاعتدال والاستقامة في كل حركة من حركاته متجنباً الإفراط والتفريط.

نعم لما كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد امتثل امتثالا كاملا قوله تعالى { فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ } ¹⁸⁴ فالاستقامة تظهر في جميع أفعاله وأقواله وأحواله ظهورا لا لبس فيه.

فمثلا: أن قواه العقلية قد سارت دائما ضمن الحكمة التي هي محور الاستقامة والحد الوسط مبرأة عما يفسدها ويكبتها من إفراط أو تفريط أي الغباء والخب.

وأن قواه الغضبية قد سارت دائما ضمن الشجاعة السامية التي هي محور الاستقامة والحد الوسط، منزهه عما يفسدها من إفراط أو تفريط أي الجبن والتهور.

وأن قوته الشهوية قد اتخذت محور الاستقامة دائما في العفة، واستقامت عليها بأسمى درجات العظمة، فصفت من فساد تلك القوة من إفراط وتفريط أي الخمود والفجور.

وهكذا فإنه صلى الله عليه وسلم قد اختار حد الاستقامة في جميع سننه الشريفة الطاهرة وفي جميع أحواله الفطرية وفي جميع أحكامه الشرعية، وتجنب كليا من الظلم والظلمات أي الإفراط والتفريط ¹⁸⁵.

- وهكذا يتضح لنا جليا أن النورسي تناول (الحقيقة المحمدية) بلسان (الحقيقة) مرة و بلسان (الشرعية) مرة أخرى، وكأنه بذلك يؤكد لنا ضرورة تنويع الخطاب العقدي ليمس أكبر شريحة من المخاطبين، وليحدث كل قوم بما يفهمون، وبما يحملهم إلى العمل ويحثهم على الإقتداء.

فأصحاب (الحقيقة) تحركهم (المحبة) و(الشوق)، فكان الحديث معهم عن النور والأحوال الروحية ومقامات السلوك والتجليات الإلهية.

وأصحاب (الشرعية) يحركهم (الجزاء) و(الطمع في الثواب) فكان الحديث معهم عن الإقتداء بالسنة لأتقن طريق الحب الموصل إلى مغفرة الذنوب ونيل الشفاعة يوم القيامة.

3- دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم :

إن النورسي يعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم من بين الأدلة على وجود الله تعالى¹⁸⁶ ولذلك اعتنى ببيان دلائل صدق نبوته، لإثبات وجود الله تعالى وكماله وجماله وجلاله إذ " تجليات عظمة الربوبية، وهيمنة سلطنة الإلهية إنما تعرف برسالة هذا الداعية العظيم إلى سلطان الربوبية وتبين بها، وتفهم عنها، وتؤخذ منها وتصدق بها "187، واعتنى بها من حيث الحديث عن الرسالة المحمدية في المقام الثاني.

والنورسي يعتبر صدق الرسول صلى الله عليه وسلم مسألة بديهية يمكن أن نتلمسها إذا تأملنا حسن الصنعة الموجودة في الكون، تماما مثلما رأيناها يعتبر إثبات وجود الله تعالى قضية بديهية، وهو يعلل هذا الأمر بقوله: " مادام حسن الصنعة موجودا في الكون، وهو أمر قطعي كما يشاهد، يلزم إذن ثبوت الرسالة الأحمديّة -عليه الصلاة والسلام - بقطعية يقينية بدرجة الشهود، لأن حسن الصنعة وجمال الصورة في هذه المصنوعات، يدلان على أن في صانعهما إرادة تحسين وطلب تزيين في غاية القوة، وأن إرادة التحسين وطلب التزيين يدلان على أن في صانعهما محبة علوية، ورغبة قدسية لإظهار كمالات صنعته التي في مصنوعاته، وأن تلك المحبة والرغبة تقتضيان قطعاً تركزهما في أكمل وأنور المصنوعات وأبدعها، ألا وهو الإنسان، ذلك لأن الإنسان هو الثمرة المجهزة بالشعور والإدراك لشجرة الخلق، وأن الثمرة هي أصح جزء وأبعده من جميع أجزاء تلك الشجرة، وله نظر عام وشعور كلي.

فالفرد الذي له نظر عام، وشعور كلي هو الذي يصلح أن يكون المخاطب للصانع الجميل والمائل في حضوره، ذلك لأنه يصرف كل نظره العام وعموم شعوره الكلي إلى التعبد لصانعه واستحسان صنعته وتقديرها وإلى شكر آلائه ونعمه، فبالبداهة يكون ذلك الفرد الفريد هو المخاطب المقرب والحبيب المحبوب¹⁸⁸.

ويؤكد هذا المعنى في (رسالة الحشر) بقوله: " يلزم أن يكون لمثل هذا الكون البديع ولصانعه القدوس، مثل هذا الرسول الكريم، كلزوم الضوء للشمس، لأنه كما لا يمكن للشمس أن تشع ضياء كذلك لا يمكن للألوهية إلا أن تظهر نفسها بإرسال الرسل الكرام - عليهم السلام - "189.

وبداهة صدق نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم لم تمنع النورسي من الإفاضة في إقامة الأدلة لإثباتها، في العديد من المواضع في رسائله، حتى أنه كتب رسائل خاصة بهذه

النقطة، فتناول فيها كل الأدلة¹⁹⁰، وخصص رسائل أخرى لتفصيل بعضها¹⁹¹، ولا تكاد تخلو رسالة من التنبيه إلى دليل من هذه الأدلة. ونحن سنعمد في حصر هذه الدلائل الكثيرة والمتكررة، على ما أورده النورسي في (الكلمة التاسعة عشر) و (الكلمة الحادية والثلاثين)، لأنهما جمعتا تقريبا ما تفرق في غيرهما من الرسائل الأخرى أو ذكر عرضا أثناء مناقشة ما لا يتصل مباشرة بموضوعنا. وعليه واعتمادا على أن النورسي، نظر إلى دلائل صدق الرسول صلى الله عليه وسلم من جانب الصفات الشخصية للنبي صلى الله عليه وسلم، ومن جانب مضمون رسالته وأثرها ومن جانب ما أيد به من معجزات¹⁹²، فيمكن تلخيص هذه الدلائل بما يلي:

أ- الدلائل الذاتية:

وهي تلك الدلائل العائدة إلى الصفات الذاتية التي يتحلى بها الرسول صلى الله عليه وسلم وقد أسماها النورسي (الدلائل الأنفسية)، إذ يرى بأنه صلى الله عليه وسلم "كالشمس يدل على ذاته بذاته"¹⁹³. وهذه الدلائل هي:

1- كمال الشخصية: فإذا ما وضع الرسول صلى الله عليه وسلم في الظروف التي ظهر فيها تبين أنه الأكمل، مما يدل على أنه مصطفى ومختار ومهيا للقيام بهذه الرسالة. يقول النورسي: "إعلم أن للمحيط الزماني والمكاني تأثيرا عظيما في محاکمات العقول، فإن شئت فتعال لنذهب إلى خير القرون وعصر السعادة لنحظى بزيارته الكريمة صلى الله عليه وسلم ولو بالخيال - وهو على رأس وظيفته يعمل، فافتح عينيك وأنظر، فإن أول ما يتظاهر لنا في هذه المملكة شخص خارق، له حسن صورة فائقة في حسن سيرة رائقة"¹⁹⁴.

ولئن كان ذو الحياة هم أشرف الموجودات، وذو الشعور هم أنبل الأحياء وبنو آدم هم أكرم ذوي الشعور فأكرم بني آدم وأكملهم جميعا هو الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم¹⁹⁵.

2- كمال الأخلاق: "فقد اتفق الأعداء والأولياء - بما لا ريب فيه- أن ما يتحلى به صلى الله عليه وسلم من الأخلاق الفاضلة هو أسمى الدرجات، وأن ما يتصف به من سجايا حميدة في دعوته هو في أعلى المراتب، تشهد بذلك معاملاته وسلوكه مع الناس،

وأن شريعته تضم أكمل الخصال الحسنة، تشهد بذلك محاسن الأخلاق في دينه القويم¹⁹⁶.

3- كمال العبودية لله تعالى: إن الرسالة الخاتمة الشاملة تقتضي عبودية كلية في المرسل - بفتح السين -، ولهذا اختار الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم لأنه أكمل من تحقق بهذه الصفة، فالربوبية المطلقة تتطلب - كما يرى النورسي - إظهار سلطنتها الكلية وإعلان وحدانيته وصمدانيته على مختلف الطبقات بمبعوث ذي الجناحين " أي ذي صفتين: صفة العبودية الكلية فهو ممثل طبقات المخلوقات عند الحضرة الربانية، وصفة الرسالة والقرب إليه، فهو مرسل من لدنه - سبحانه - إلى العالمين كافة¹⁹⁷.

فالرسول صلى الله عليه وسلم هو أكمل من عرف ربه وهو أكمل من عبده حق العبادة، حتى لكأن الكون كله قد غدا - بسر عبوديته - في صلاة وخشوع ودعاء، يصور لنا النورسي هذه الحقيقة بقوله: " فإن شئت فانظر إليه وهو في الصلاة الكبرى، التي بعظمتها وسعتها صيرت هذه الجزيرة، بل الأرض، مصلين بتلك الصلاة الكبرى.. ثم أنظر إنه يصلي تلك الصلاة بهذه الجماعة العظمى.. بدرجة كأنه هو إمام محراب عصره واصطف خلفه، مقتدين به، جميع أفاضل بني آدم، من آدم عليه السلام إلى هذا العصر إلى آخر الدنيا في صفوف الأعصار مؤتمنين به ومؤمنين على دعائه¹⁹⁸.

4- كمال الخصائص المرتبطة برسالته: ونعني بهذه الكمالات تلك التي عددها النورسي في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم باعتبارها خصائص ارتبطت مباشرة بوظيفة البلاغ، أو بعبارة أخرى هو وظيفة (رؤية الشؤون الإلهية وإراءتها)، فكأنها خصائص ساقها النورسي في معرض المقارنة - ولو ضمنا - بين نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ونبوة سائر إخوانه من الأنبياء لبيان أحقية المكانة التي نالها بينهم، وأهليته ليكون حاملا للوحي الشامل والرسالة الخاتمة.

وهذه الخصائص هي¹⁹⁹:

1- أنه صلى الله عليه وسلم هو أكمل من دل على جمال الله تعالى وكماله المطلق من خلال لفت الأنظار إلى جمال الصنعة، وكمال الإبداع المشاهدين في الكون، فكان بذلك مليبا لإرادة الله تعالى في إظهار ذلك الجمال وتنبية الخلق لروعته.

2- أنه صلى الله عليه وسلم أكمل من أعلن جميع مراتب التوحيد، فلي إرادة رب العالمين في إعلان الوحدانية على طبقات المخلوقات، فكان بذلك أجلى مرآة وأصفها لعكس محاسن جمال مالك العالم ولطائف حسنه.

3- أنه صلى الله عليه وسلم أكمل وأفضل من أحب الله تعالى وحببه إلى الخلق، فلي بذلك إرادته تعالى في رؤية ذلك الجمال المقدس وإراءته بمقتضى الحقيقة والحكمة.

4- أنه صلى الله عليه وسلم أكمل مرشد بالقرآن الكريم للجن والإنس ولجميع ذوي الشعور، فيارشاده:
 - عرفهم ما في خزائن الغيب المحجوب من كنوز مخفية وشوقهم إليها.
 - وجلي أمامهم معاني آثار صانع الكائنات لينعموا من خلالها النظر والتفكير والاعتبار.
 - وحل لهم لغز الوجود، فأجابهم عن الأسئلة المؤرقة (من أنت؟ ومن أين؟ وإلى أين؟).

- وبين لهم المقاصد الإلهية وسبل الوصول إلى مرضاة رب العالمين.
 وهذه الخصائص السابقة كلها، يرى الثورسي أن الرسول صلى الله عليه وسلم استحق أن يكون " بالبداهة أعظم من استوفى مهمة الرسالة بالقرآن الكريم وأداها في أسمى مرتبة وأبلغ صورة وأحسن طراز، فلي إرادة رب العالمين في صرف وجه الإنسان من الكثرة إلى الوحدة ومن الفاني إلى الباقي، ذلك الإنسان الذي خلقه - سبحانه - ثمرة للعالم، ووهب له في الاستعدادات ما يسع العالم كله، وهباً للعبودية الكلية وابتلاء بمشاعر متوجهة إلى الكثرة والدنيا"²⁰⁰.

ب- الدلائل الخارجة عن ذاته صلى الله عليه وسلم :

وهي تلك الأدلة التي تثبت صدق النبي صلى الله عليه وسلم إضافة إلى الخصائص الشخصية، وقد أسماها الثورسي (الدلائل الآفاقية)، فمادامت النبوة (حقاً)، فالمتأمل في الأنفس والآفاق يصل إلى الحق الذي دلت عليه.

وهذه الأدلة الآفاقية يحصرها الثورسي في العناصر الآتية:

1- الكون: يجعل الثورسي من حكمة خلق الكون منطلقاً للاستدلال به - أي بالكون - على صدق نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم.

فالثورسي يميل إلى أن الحكمة من خلق الله تعالى للكون هي رؤيته - سبحانه - لجماله وكماله واراته هذا الجمال والكمال لذوي الشعور²⁰¹، وهذه الإراءة تقتضي مبعوثاً قادراً على أن يكون (مرآة) عاكسة لجمال الله تعالى وكماله أمام نظر المخلوقات. يقول الثورسي: " مادام حسن الصنعة موجوداً في الكون، وهو أمر قطعي كما يشاهد، يلزم إذا ثبوت الرسالة الأحمدية - عليه الصلاة والسلام - بقطعية يقينية بدرجة الشهود، لأن حسن الصنعة وجمال الصورة في هذه المصنوعات يدلان على أن في صانعها إرادة تحسين وطلب تزيين في غاية القوة، وأن إرادة التحسين وطلب التزيين يدلان على أن في صانعها محبة علوية ورغبة قدسية لإظهار كمالات صنعته التي في مصنوعاته، وأن تلك المحبة والرغبة تقتضيان قطعاً تمركزها في أكمل وأنور المصنوعات

وأبدعها، ألا وهو الإنسان، ذلك لأن الإنسان هو الثمرة المجهزة بالشعور والإدراك لشجرة الخلق وأن الثمرة هي أجمع جزء وأبعده من جميع أجزاء تلك الشجرة وله نظر عام وشعور كلي²⁰².

وأكمل من تحقق بالإدراك الكلي والعبودية التامة هو محمد صلى الله عليه وسلم فكان أروع مصنوع بين مصنوعات الحق تعالى " فهل يقبل عقل ألا يبالي ولا يهتم صانع هذه المصنوعات المزينة بأنواع المحاسن ومنعم هذه النعم، المراعي لدقائق الأذواق حتى في أفواه الخلق، هل يعقل ألا يبالي بمثل هذا المصنوع الأجل والأكمل المتوجه إليه بالتعبد، وألا يهتم بمثل هذا المخلوق الذي هز العرش والفرش بتهليلات استحسانه وتكبيرات تقديراته لمحاسن صنعة ذلك الصانع، فاهتز البر والبحر إنتشاء من نعمات حمده وشكره وتكبيراته لنعم ذلك الفاطر الجليل ؟

وهل يمكن ألا يتوجه إليه ؟ وهل يمكن ألا يوحي إليه بكلام ؟ وهل يمكن ألا يجعله رسولا ؟ وألا يري خلقه الحسن وحالاته الجميلة إلى الخلق أجمعين ؟

كلا ! ، بل لا يمكن ألا يمنحه كلامه وألا يجعله رسولا للناس كافة.

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)²⁰³ ، (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)²⁰⁴.

فالتُّورُسي يرى بأن الكون المثبت لوجود الله تعالى هو نفسه الدال على صدق نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم وثبوتها ثبوتا قطعيا، فحسن الكون دليل على وجود صانع متصف بصفات الجمال والكمال²⁰⁵ وبنا على أن كل ذي جمال يجب أن يرى جماله وأن يري للآخرين هذا الجمال²⁰⁶، فالله تعالى اختار من بين عباده أكملهم ليكون أجلى مرآة عاكسة لتجليات صفاته تعالى في هذه الموجودات المتقنة الصنع.

2- المعجزات²⁰⁷:

رأينا في المبحث الأول نظرة التُّورُسي إلى المعجزة وعلاقتها بالنبوة من جهة وبجياة الإنسان من جهة أخرى.

أما هنا فسنتناول المعجزات التي أثبتتها التُّورُسي كدلائل على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فهو يقول مجملا هذه الدلائل: " نصلي ونسلم على ذلك الذات النوراني الهادي، ذي المعجزات بصلوات وسلاما يشير إلى قسم من معجزاته، على من أنزل عليه القرآن الحكيم من الرحمن الرحيم من العرش العظيم.. على سيدنا محمد ألف ألف صلاة وسلام بعدد حسنات أمته.. على من بشر برسالته التوراة والإنجيل والزبور والزبر

.. وبشر بنبوته الإرهاصات وهواتف الجن وكواهن البشر، وانشق بإشارته القمر.. سيدنا محمد ألف ألف صلاة وسلام بعدد حسنات أمته.

على من جاءت لدعوته الشجر، ونزل سرعة بدعائه المطر، وأظنته الغمامة من الحر، وشيع من صاع من طعامه مئات من البشر، ونبع الماء بين أصابعه كالكوثر، وانطق الله له الضبع والظبي والذئب والجذع والذراع والجمل والجبل والحجر والمدر والشجر.. صاحب المعراج وما زاغ البصر²⁰⁸.

فالتورسي في هذا النص يوسع من مفهوم (المعجزة) ليدخل في نطاقها كل ما دل على نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم من خوارق العادات، ولو كان ذلك قبل البعثة، فهو هنا لا يفرق - كما فعل في (الكلمة الحادية والثلاثين) - بين (الإرهاص)²⁰⁹ و(المعجزة) و (بشارة الأنبياء من قبل)²¹⁰.

وعليه يمكن أن نلخص هذه الدلائل (المعجزات) كما يلي:

1- القرآن الكريم:

لقد جعل التورسي القرآن الكريم من أعظم الأدلة على وجود الله تعالى وهو هنا يعتبره من أعظم المعجزات الدالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، ولن نكون في حاجة إلى إعادة ما سبق ذكره تفصيلاً²¹¹ من وجوه الإعجاز التي عددها التورسي في الكلمة الخامسة والعشرين (رسالة المعجزات القرآنية)، حيث أنه لخص فيها ما فصله في رسائل أخرى، يقول في مقدمتها: " لقد أشرنا إلى نحو أربعين وجهاً من وجوه إعجاز لا تحد للقرآن الحكيم الذي هو منبع المعجزات، والمعجزة الكبرى للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، ذلك في رسائل العربية وفي رسائل النور العربية، وفي تفسيري الموسم - (إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز وفي الكلمات الأربع والعشرين.. وفي هذه الرسالة نشير إلى خمسة من تلك الوجوه ونبينها بشيء من التفصيل وندرج فيها سائر الوجوه مجملة"²¹².

وقد فصل التورسي على امتداد (الكلمة الخامسة والعشرين) هذه الوجوه الخمسة، دون أن ينسى ربط مسألة الإعجاز بدلالة القرآن على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم إثبات وجود الله تعالى.

وهو يبدأ بتبنيه القارئ إلى أن ما نجده في القرآن الكريم من السلاسة الرائقة والسلامة الفائقة والتساند المتين والتناسب الرصين والتعاون القوي بين الجمل وهياتها والتجاوب الرفيع بين الآيات ومقاصدها.. كل هذا ليس من قبيل البلاغة الداخلة تحت قدرة البشر،

لأن الظروف والملابسات التي نزل فيها القرآن ما كانت لتساعد على إخراجها بهذا السبك البديع لو أنه من صنع بشر محدود القدرات والمدارك.

فالتورسي يرى أن ثمة سبعة أمور - على الأقل - كانت تحول دون أن يخرج القرآن على ما هو عليه الآن، لو أنه من وضع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذه الحوائل هي:

1- أن ذلك القرآن المبين نزل في ثلاث وعشرين سنة نجما نجما لمواقع الحاجات نزولا متفرقا متقطعا، مع أنه يظهر من التلازم الكامل كأنه نزل دفعة واحدة.

2- أن ذلك القرآن المبين نزل في ثلاث وعشرين سنة لأسباب نزول مختلفة متباينة، مع أنه يظهر من التساند التام كأنه نزل لسبب واحد.

3- أن ذلك القرآن جاء جوابا لأسئلة مكررة متفاوتة، مع أنه يظهر من الامتزاج التام والاتحاد الكامل كأنه جواب على سؤال واحد.

4- أن ذلك القرآن جاء بيانا لأحكام حوادث متفاوتة مع أنه يبين من الانتظام الكامل كأنه بيان لحادثة واحدة.

5- أن ذلك القرآن نزل متضمنا لتنزلات كلامية إلهية في أساليب تناسب أفهام مخاطبين لا يحصرون، ومن حالات من التلقي متخالفة متنوعة، مع أنه يبين من السلاسة اللطيفة والتماثل الجميل، كأن الحالة واحدة والفهم واحد، حتى تجري تلك السلاسة كالماء السلسيل.

6- أن ذلك القرآن جاء مكلما متوجها إلى أصناف متعددة متباعدة من المخاطبين، مع أنه يظهر من سهولة البيان وجزالة النظام ووضوح الإفهام كأن المخاطبين صنف واحد بحيث يظن كل صنف أنه المخاطب وحده بالأصالة.

7- أن ذلك القرآن نزل هاديا موصلا إلى غايات إرشادية متدرجة متفاوتة، مع أنه يبين من الاستقامة الكاملة والموازنة الدقيقة والانتظام الجميل كأن المقصد واحد

213

والتورسي يعتقد أن بيان وجوه الإعجاز كاملة يحتاج إلى بضعة مجلدات، لذا فهو يكتفي بالإشارات وهي تغني من كان ذا قلب غير سقيم وعقل مستقيم ووجدان غير مريض وذوق سليم، في الدلالة على كون القرآن الكريم هو أعظم معجزة دالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدقه فيما أخبر به من حقائق الإيمان.

فالتأمل المنصف لا بد وأن يسلم بأن " هذا القرآن ذا المعجزات بكل جهة هكذا، قد شهد في صورة الإثبات بالدلائل، على وجوب وجود واجب وجود واحد أحد، وعلى

وحدته وصفاته وأسمائه، بإجماع سوره وباتفاق آياته، وبتوافق أسراره وأنواره، وبتطابق ثمراته وآثاره، فترشحت ما لا حد لها من شهادات جميع أهل الإيمان من شهادته²¹⁴. فالقرآن عند النورسي يثبت بإعجازه نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم فيكون بذلك مثبته لوجود الله تعالى ووحدانيته إذ هي أعظم حقيقة أخبر بها هذا الرسول، وهو بإعجازه يثبت أيضا وجود الله تعالى ووحدانيته فيكون بذلك مثبته لنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يدعى إرساله من قبيل الله تعالى، ولعل هذا ما جعل النورسي يذكر القرآن كدليل على وجود الله تعالى ويذكره في هذا المقام كدليل على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم²¹⁵.

2- المعجزات الأخرى:

والتي - كما أشرنا- يجمع فيها النورسي بين المعجزة والإرهاص، ويذكر منها الأمثلة التالية:

- بشارات التوراة والإنجيل والزيور والزيبر²¹⁶.
 - " ما حدث ليلة مولده صلى الله عليه وسلم من سقوط الأصنام في الكعبة وانشقاق ديوان كسرى وأمثالها من مئات الارهاصات والخوارق المشهودة في كتب التاريخ"²¹⁷.
 - بشارات الكهان وهواتف الجن²¹⁸.
 - انشقاق القمر²¹⁹.
 - نزول المطر²²⁰.
 - تكثير الطعام²²¹.
 - أنطق له الجذع²²² والشجر²²³.
 - أنطق له الحجر²²⁴.
 - نبعان الماء من بين أصابعه الشريفة وسقيه الجيش به²²⁵.
 - تكليم الذراع المسمومة له²²⁶.
 - تكليم الجبل²²⁷ والضب والظبي والجمل.
 - المعراج²²⁸.
- تكلم هي الأمثلة التي يسوقها النورسي لبيان بعض معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ما عدا القرآن الكريم.
- وقبل أن نختتم الحديث عن مسألة المعجزات نشير إلى أن النورسي حينما تناولها أكد على أمرين:
- الأول:

أن عددها كثير جدا، وإنما هو اكتفى في رسائله بالإشارة إلى بعض منها على سبيل التمثيل لا الحصر.

يقول في (الكلمة التاسعة عشر): "اعلم أن دلائل النبوة الأحمدية لا تعد ولا تحد ولقد صنف في بيانها أعظم المحققين"²²⁹، ويكرر الملاحظة في (الكلمة الحادية والثلاثين) بعد أن يعطي أمثلة عن المعجزات فيقول: "... وأمثالها من المعجزات الثابتة لدى العلماء المحققين والتي تبلغ الألف قد أثبتتها كتب السير والتاريخ"²³⁰.

- الثاني:

أن المعجزات المادية في حياة النبي صلى الله عليه وسلم لها (دور محدد) بالنظر إلى طبيعة الرسالة المحمدية ووظيفتها، فالرسول صلى الله عليه وسلم جاء للناس أجمعين وكلف بهدايتهم إلى المناهج القويمة في حياتهم الفردية والاجتماعية على السواء، وهذان العاملان (عموم الرسالة وشمول الهداية) يجعلان من غالب أحوال الرسول صلى الله عليه وسلم السير وفق السنن الكونية والاجتماعية، فتكون المعجزة - باعتبارها خرقا لهذه السنن - استثناء يؤتى بها في حالات خاصة محددة لإرغام المعاندين والمكذبين.

يقول النورسي مجيبا عن سؤال: كيف يغلب الرسول صلى الله عليه وسلم في بعض الغزوات كأحد وحين على الرغم من كونه رسولا مؤيدا من قبل الله تعالى بالمعجزات؟ الجواب: "أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أرسل إلى البشرية كافة، قدوة وإماما ورائدا كي تتعلم منه مناهج الحياة الاجتماعية والشخصية ودساتيرها، وتتعود على الانقياد لقوانين الإرادة الإلهية الحكيمة وتنسجم مع دساتيرها الربانية. فلو كان الرسول صلى الله عليه وسلم مستندا إلى المعجزات وخوارق العادات في جميع أفعاله الشخصية منها والاجتماعية لما تسنى له أن يكون إماما مطلقا ولا قدوة كاملة حسنة للبشرية قاطبة.

ولهذا السبب لم يظهر صلى الله عليه وسلم المعجزات إلا تصديقا لدعواه بشكل متفرق عند الحاجة لكسر عناد المنكرين"²³¹، في سائر الأوقات فقد كان صلى الله عليه وسلم مراعيًا بكل دقة لقوانين عادة الله ولسننه الجارية، ومطيعًا طاعة كاملة لنواميسه المؤسسة على الحكمة الربانية والمشية الإلهية، كطاعته ومراعاته للأوامر الإلهية، لذا كان صلى الله عليه وسلم يلبس الدرع في الحروب ويأمر الجند بالترس بالموانع ضد الأعداء، ويجرح ويتأذى ويتحمل المشقات.. كل ذلك لكي يبين مدى طاعته الكاملة ومراعاته للقوانين الإلهية الحكيمة وانقياده التام لشريعة الفطرة الكونية ونواميسها"²³².

والتُّورسي هنا بقدر ما يحدد علاقة المعجزة بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم ورسالته فهو أيضا يغلق أمام الناس أبواب الخرافات والأساطير التي يخلو للبعض منهم أن يلصقوها بالحياة النبوية، فيصرون هذه الحياة بشكل تكتنفه الخوارق من كل جانب، فيكونون بفعلهم قد فصلوا الرسالة المحمدية عن الإنسان والحياة.

وهذا التنبيه من قبل التُّورسي يؤكد أيضا سعيه - كما قلنا من قبل - إلى عرض مباحث العقيدة انطلاقا من معقوليتها وربطها بواقع الإنسان وجعلها عاملا محركا للعمل لا مجرد تصورات مبتوتة الصلة بالحياة والأحياء.

- وهذه الرؤية الواضحة للمعجزة وموضعها في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وعلاقتها بالتكليف بالإيمان، تبرز بشكل جلي أثناء رد التُّورسي على شبهات الفلاسفة الماديين، الذين ينكرون المعجزات بدعوى عدم رؤيتها أو منافاتها للحقائق العلمية والتاريخية.

وعلى الرغم من أنه لا يتناول - عادة - شبهات المنكرين بشكل تفصيلي وإنما بشير إليها ضمنا ويرد عليها دون ذكرها صراحة، إلا أننا نجده في نهاية (الكلمة الحادية والثلاثين) يقف مطولا مع شبهة منكري (معجزة انشقاق القمر)، وكأنما أراد أن يضع أمامنا مثلا عن منهجه في الرد على منكري المعجزات.

والذي يجعلنا نقول بأن ما أورده في نهاية الكلمة الحادية والثلاثين هو عبارة عن مثال لمنهج الرد على الشبهات أننا عند القراءة نجد ما يلي:

1- أنه أورد الرد تحت عنوان (ذيل: الكلمة التاسعة عشر والحادية والثلاثين): - وكما سبق وأن أشرنا - فكلتا الكلمتين (الرسالتين) قد خصصنا لبيان معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكأنه بعد أن سرد المعجزات أراد أن يضع أمام القارئ منهجا للرد على منكريها من خلال مناقشة شبهات منكري معجزة (انشقاق القمر)، وإلا فالاعتراض وارد من الماديين أيضا على بقية المعجزات الأخرى.

2- أن طريقة المناقشة تبين أن التُّورسي إنما يضع قواعد عامة لبيان حقيقة (المعجزة)، وعلاقتها بالرسالة المحمدية وبالتكليف بالإيمان، ثم يطبق ذلك على القضية الجزئية محل النقاش (انشقاق القمر).

3- أنه خلال المناقشة يشير إلى بقية المعجزات التي سبق تفصيلها في الرسالتين، بشكل يفهم منه أنها أيضا مقصودة بالحديث وإن كان التفصيل تناول (انشقاق القمر). وفيما يلي النص المحدد لهذا المنهج الذي يراه التُّورسي مناسبا لمناقشة الماديين المنكرين للمعجزات.

يقول: " ذيل: الكلمة التاسعة عشر والحادية والثلاثين.

معجزة انشقاق القمر:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ. وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ) [القمر: الآية 1-2].

إن فلاسفة ماديين - ومن يقلدوهم تقليدا أعمى - يريدون أن يطمسوا ويخسفوا بمعجزة انشقاق القمر الساطع كالبدر، فيثيروا حولها أوهاما فاسدة، إذ يقولون (لو كان الانشقاق قد حدث فعلا لعرفه العالم، ولذكرته كتب التاريخ كلها).

الجواب: إن انشقاق القمر معجزة لإثبات النبوة، وقعت أمام الذين سمعوا بدعوى النبوة وأنكروها، وحدثت ليلا في وقت تسود فيه الغفلة، وأظهر أنبا، فضلا عن أن اختلاف المطالع ووجود السحاب والغمام وأمثالها من الموانع تحول دون رؤية القمر، علما أن أعمال الرصد ووسائل الحضارة لم تكن في ذلك الوقت منتشرة، لذا لا يلزم أن يرى الانشقاق كل الناس، في كل مكان، ولا يلزم أيضا أن يدخل كتب التاريخ²³³.
فاستمع الآن إلى نقاط خمس فقط من بين الكثير منها، تبعد - بإذن الله - سحب الأوهام التي تلبدت على وجه هذه المعجزة الباهرة.

- **النقطة الأولى:** إن تعنت الكفار في ذلك الزمان معلوم ومشهود تاريخيا، فعندما أعلن القرآن الكريم (انشق القمر) وبلغ صده الآفاق لم يجروا أحد من الكفار - وهم يجحدون القرآن - أن يكذب بهذه الآية الكريمة، أي ينكر وقوع الحادثة، إذ لو لم تكن الحادثة قد وقعت فعلا في ذلك الوقت، ولم تكن ثابتة لدى أولئك الكفار، لاندفعوا بشدة ليبطلوا دعوى النبوة ويكذبوا الرسول صلى الله عليه وسلم، بينما لم تنقل كتب التاريخ والسير شيئا من أقوال الكفار حول إنكارهم حدوث الانشقاق، إلا ما تبينه الآية الكريمة (ويقولوا سحر مستمر) وهو أن الذين شاهدوا المعجزة من الكفار قالوا: هذا سحر فابعثوا إلى أهل الآفاق حتى تنظروا أ رأوا ذلك أم لا؟ ولما حان الصباح، أتت القوافل من اليمن وغيرها فسألوهم، فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك فقالوا: أن سحر يتيم أبي طالب قد بلغ السماء.

- **النقطة الثانية:** لقد قال معظم أئمة علم الكلام، من أمثال سعد التفتزاني: إن انشقاق القمر متواتر، مثل فوران الماء من بين أصابعه الشريفة صلى الله عليه وسلم وارتواء الجيش منه، ومثل حنين الجذع من فراقه صلى الله عليه وسلم الذي كان يستند إليه أثناء الخطبة وسماع جماعة المسجد لأنينه أي أن الحادثة نقلته²³⁴ جماعة غفيرة عن

جماعة غفيرة يستحيل طواطؤهم على الكذب، فالحادثة متواترة تواتر قطعيا كظهور المذنب قبل ألف سنة وكوجود جزيرة سرنديب التي لم نرها. وهكذا ترى أن إثارة الشكوك حول هذه المسألة القاطعة وأمثالها من المسائل المشاهدة شهود عيانا إنما هي بلاهة وحماقة، إذ يكفي فيها أمما من الممكنات وليست مستحيلا²³⁵.

علما أن انشقاق القمر ممكن كانفلاق الجبل ببركان.

- **النقطة الثالثة:** إن المعجزة تأتي لإثبات دعوى النبوة عن طريق إقناع المنكرين وليس إرغامهم على الإيمان، لذا يلزم إظهارها للذين سمعوا دعوى النبوة، بما يوصلهم إلى القناعة والاطمئنان إلى صدق النبوة، أما إظهارها في جميع الأماكن، أو إظهارها إظهارا بديهيا بحيث يضطر الناس إلى القبول والرضوخ فهو مناف لحكمة الله الحكيم ذي الجلال، ومخالف أيضا لسر التكليف الإلهي، ذلك لأن سر التكليف الإلهي يقتضي فتح المجال أمام العقل دون سلب الاختيار منه.

فلو كان الخالق الكريم قد ترك معجزة الانشقاق باقية لساعتين من الزمان، وأظهرها للعالم أجمع ودخلت بطون التاريخ كما يريد الفلاسفة، لكان الكفار يقولون أمما ظاهرة فلكية معتادة وما كانت حجة على صدق النبوة ولا معجزة تخص الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم أو لكانت تصبح معجزة بديهية ترغم العقل على الإيمان وتسليه من الاختيار وعندئذ تتساوى أرواح سافلة كالفحم الحسيس من أمثال أبي جهل مع الأرواح العالية الصافية كالأملاس من أمثال أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أي لكان يضيع سر التكليف الإلهي.

ولأجل هذا فقد وقعت المعجزة أنيا، وفي الليل، وحين تسود الغفلة، وغدا اختلاف المطالع والغمام وأمثالها حجبا أمام رؤية الناس لها، فلم تدخل بطون كتب التاريخ.

- **النقطة الرابعة:** أن هذه المعجزة التي وقعت ليلا وأنيا، وعلى حين غفلة، لا يراها كل الناس دون شك في كل مكان، بل حتى لو ظهرت لبعضهم فلا يصدق عينيه، ولو صدقها، فإن حادثة كهذه مروية من شخص واحد لا تكون ذات قيمة للتاريخ. ولقد رد العلماء المحققون ما يزيد في رواية المعجزة من أن القمر بعد انشقاقه قد هبط إلى الأرض، قالوا: ربما أدخل هذه الزيادة بعض المنافقين ليسقطوا الرواية من قيمتها ويهونوا من شأنها²³⁶.

ثم إن في ذلك الوقت كانت سحب الجهل تغطي سماء انكلترا، والوقت على وشك الغروب في إسبانيا وأمريكا في وضح النهار، والصبح قد تنفس في الصين واليابان²³⁷.. وفي غيرها من البلدان هناك موانع أخرى للرؤية، فلا تشاهد هذه المعجزة العظيمة فيها. فإذا علمت هذا فتأمل كلام الذي يقول (إن تأريخ انكلترا والصين واليابان وأمريكا وأمثالها من البلدان لا تذكر هذه الحادثة، إذن لم تقع) أي هذر هذا.. ألا تبا للذين يقتاتون على فتات أوروبا.

– **النقطة الخامسة:** إن انشقاق القمر ليس حادثة حدثت من تلقاء نفسها، بناء على أسباب طبيعية وعن طريق المصادفة، بل أوقعها الخالق الحكيم – رب الشمس والقمر – حدثا خارقا للسنن الكونية، وتصديقا لرسالة الحبيب صلى الله عليه وسلم وإعلانا عن صدق دعوته، فأبرزه – سبحانه وتعالى – وفق حكمته بمقتضى سر الإرشاد والتكليف وحكمة تبليغ الرسالة وليقيم الحجة على من شاء من المشاهدين له، بينما أخفاه – اقتضاء لحكمته سبحانه ومشيتته – عن من لم تبلغهم دعوة نبيه صلى الله عليه وسلم من الساكنين في أقطار العالم، وحجبه عنهم بالغيوم والسحاب وباختلاف المطالع وعدم طلوع القمر أو شروق الشمس في بعض البلدان وانحلاء النهار في أخرى وغروب الشمس في غيرها.. وأمثالها من الأسباب الداعية إلى حجب رؤية الانشقاق.

لو أظهرت المعجزة²³⁸ إلى جميع الناس في العالم فإما أنها كانت تبرز لهم نتيجة إشارة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم وإظهار لمعجزة نبوته، وعندها تصل إلى البداة، أي يضطر الناس كلهم إلى التصديق أي يسلب الاختيار منهم، فيضيع سر التكليف، بينما الإيمان يحافظ على حرية العقل في الاختيار ولا يسلبها منه²³⁹.. أو أنها تبرز لهم كحادثة سماوية محضة وعندها تنقطع صلتها بالرسالة الأحمدية ولا يبقى لها مزينة خاصة²⁴⁰.

ج- مضمون الرسالة المحمدية وآثارها:

لم يكتب النورسي بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ولا بما أيد به من معجزات، كدلائل على صدق نبوته، بل تناول بالتحليل أيضا، مضمون الرسالة التي جاء بها وأثرها في الكون والإنسان.

فكما أن المنصف إذا تأمل شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ووزنها بموازن العقل السليم أقر بنبوته وكذلك إن هو تتبع المعجزات الثابتة بالدليل القطعي ووقف بالخصوص مع أعظم المعجزات (القرآن الكريم) لا يسعه إلا التصديق بها، فإنه إن نظر إلى

ما يدعو إليه هذا الرسول وتلمس الآثار التي أحدثها بدعوته تلك فحتمًا سيصل إلى النتيجة ذاتها.

ومن هنا كثر حديث التورسي في رسائله عن الرسالة المحمدية مبينا مضمونها ومبرزا آثارها، جاعلا من ذلك دليلا على صدق صاحبها. وسنحصر كلامنا هنا في نقطتين تناول من خلالها التورسي هذه المسألة: (الأولى): مضمون الرسالة، (الثانية): آثارها.

1- مضمون الرسالة المحمدية:

لقد تناول التورسي هذه النقطة من خلال حديثه عن القرآن الكريم - باعتباره أصل الرسالة المحمدية- وكذلك من خلال عقد الموازنات بين ما يدعو إليه القرآن، وما تدعو إليه الفلسفات المادية، وأيضا من خلال الحديث عن دلائل صدق الرسول صلى الله عليه وسلم

ولئن كان الأمران الأولان (الحديث عن القرآن²⁴¹ والموازنات²⁴²) قد سبق وأن أشرنا إليهما في بحث سابق، فإن حديثنا يركز هنا أساسا على الأمر الثالث (أي اعتبار مضمون الشريعة دليلا على صدق الرسول).

- ينطلق التورسي في بيان مضمون الرسالة المحمدية وكونها دليلا على صدق نبوة صاحبها، من خلال بيان أن هذه الرسالة إنما هي المرآة التي تظهر تجلي أسماء الله الحسنى في الكون.

فالشريعة هي (الدرس) الذي يعلم (الإنسان) وينبئه إلى ما بث في الكون من جمال إلهي، وكل درس لابد له من (معلم) مؤهل لإيصال المعرفة إلى المتعلم. فيكون دليل التورسي في هذه المسألة مركبا بالشكل التالي وذلك بناء على نظرية التجلي:

- الكون والموجودات هي تجليات لأسماء الله الحسنى.
- الرسالة ترشد الإنسان وتعرفه بسلطان الربوبية.
- هذا التعريف يقتضي معرفا مؤهلا لذلك وهو الرسول صلى الله عليه وسلم يقول موضحا هذا الأمر: " يصح أن يقال: إن اسم الله (الحكم) و(الحكيم) يقتضيان بدهة نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - ورسالته، ويدلان عليها ويستلزمانها.

نعم! ما دام الكتاب البليغ بمعانيه ومرامييه، يقتضي بالضرورة معلما بارعا لتدريسه، والجمال الفائق يقتضي مرآة يترأى فيها، ويرى جماله وحسنه، والصنعة البديعة تستدعي مناديا داعيا إليها.

فلا بد أن يوجد بين بني البشر، الذي هو موضوع خطاب كتاب الكون الكبير المتضمن مئات المعاني البليغة والحكم الدقيقة في كل حرف من حروفه، أقول: لا بد أن يوجد رائد أكمل، ومعلم أكبر، ليرشد الناس إلى ما في ذلك الكتاب الكبير من حكم مقدسة حقيقية.. وليعلم وجود الحكم الماثوثة في أرجائه ويدل عليها.. وليكون مبعث ظهور المقاصد الربانية في خلق الكون، بل السبب في حصولها.. وليرشد إلى ما يريد الخالق إظهاره من كمال صنعته البديعة، وجمال أسمائه الحسنى، فيكون كالمرآة الصافية لذلك الكمال البديع والجمال الفائق.. ولينهض بعبودية واسعة باسم المخلوقات قاطبة، تجاه مظاهر الربوبية الواسعة، مثيرا الشوق وناثرا الوجد في الآفاق برا وبحرا وملفتا أنظار الجميع إلى الصانع الجليل بدعوة ودعاء وتهليل وتسييح وتقديس، ترن به أرجاء السماوات والأرض²⁴³.

ويزيد الأمر بيانا بقوله: " مثلما يقتضي التجلي الأعظم لاسم (الحكم الحكيم) - في أوسع مداه - الرسالة الأحمدية، فإن أغلب الأسماء الحسنى (الله، الرحمن، الرحيم، الودود، المنعم، الكريم، الجميل، الرب...) وأمثالها تستلزم الرسالة الأحمدية في أعظم تجلياتها وإحاطتها بالكون كله استلزاما قاطعا لا ريب فيه...²⁴⁴.

ويخلص في النهاية إلى أن " تجليات عظمة الربوبية وهيمنة سلطنة الألوهية إنما تعرف برسالة هذا الداعي العظيم إلى سلطان الربوبية وتبين بها، ونفهم عنها، وتؤخذ منها وتصدق بها.

وهكذا فأغلب الأسماء الحسنى إنما هي برهان باهر على الرسالة الأحمدية²⁴⁵.

- وينظر النورسي أيضا إلى مضمون الرسالة المحمدية من خلال تركيزها على (التوحيد)، فيرى أن كل دليل يثبت (التوحيد) هو دليل مثبت للرسالة التي قامت عليه، ومن ثم دليل على صدق الداعي إليها فيما يدعي من النبوة.

يقول: " إن هذا التوحيد الحقيقي بجميع مراتبه، وبأتم صورته الكاملة، قد أثبتته وأعلنه وفهمه وبلغه محمد صلى الله عليه وسلم، فلا بد أن رسالته ثابتة وقاطعة كقطعية ثبوت التوحيد نفسه، لأنه: لما كان التوحيد هو أعظم حقيقة في عالم الوجود وأن الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم هو الذي تولى تبليغه وتعليمه بجميع حقائقه.. فلا بد أن

جميع البراهين التي تثبت التوحيد تكون بدورها براهين لإثبات رسالته وأدلة على صدق نبوته وأحقية دعوته صلى الله عليه وسلم²⁴⁶.

- وينظر إلى انسجام مضمونها مع ما ركب في الإنسان من حب للاستطلاع وشوق إلى المعرفة وكشف حقائق الأشياء، بل ما يدعو هذا الرسول إلى معرفته (وهو الله - تعالى)، لا تعد الأشياء التي يسعى الإنسان إلى معرفتها، إلا حقائق تافهة لا وزن لها، زيادة إلى قيام الأدلة على صدق ما يدعو إليه.

يقول: " أنظر واستمع إلى ما يقول [يعني الرسول صلى الله عليه وسلم]، هاهو ذا يبحث عن حقائق مذهشة عظيمة، ويبحث عن مسائل جاذبة للقلوب جالبة للعقول إلى الدقة والنظر، إذ من المعلوم أن شوق كشف حقائق الأشياء قد ساق الكثيرين من أهل حب الاستطلاع واللهفة والاهتمام إلى فداء الأرواح، ألا ترى أنه لو قيل لك: إن افتديت نصف عمرك أو نصف مالك، لنزل من القمر أو المشتري شخص يجبرك بغرائب أحوالهما ويجبرك بحقيقة مستقبل أيامك؟ أظنك ترضى بالفداء.

فيا للعجب: ترضى لدفع ما تتلفه إليه بنصف العمر والمال، ولا تهتم بما يقول هذا النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم -، ويصدقه إجماع أهل الشهود وتواتر أهل الاختصاص من الأنبياء والصديقين والأولياء المحققين، بينما هو يبحث في شؤون سلطان، ليس القمر في مملكته إلا كذاب يطير حول فراش، وهذا يحوم حول سراج من بين ألوف من القناديل التي أسرجها في منزل من بين ألوف منازل، الذي أعده لضيوفه.. وكذا يخبر عن عالم هو محل الخوارق والعجائب، وعن انقلاب عجيب، بحيث لو انقلقت الأرض، وتطايرت جبالها كالسحاب، ما ساوت عشر معاشر غرائب ذلك الانقلاب، فإن شئت فاستمع من لسانه أمثال السور الجلييلة (إذا الشمس كورت) و(إذا السماء انفطرت) و(إذا زلزلت الأرض زلزالها) و(القارعة).

وكذا يخبر بصدق عن مستقبل، ليس مستقبل الدنيا بالنسبة إليه إلا كقطرة سراب بلا طائل بالنسبة إلى بحر بلا ساحل.

وكذا يبشر عن شهود بسعادة، ليست سعادة الدنيا بالنسبة إليها إلا كبرق زائل بالنسبة إلى شمس سرمدية²⁴⁷.

- وينظر إلى مضمون الرسالة في علاقتها بالإنسان والكون، فصاحبها يدعو إلى الكمال الذي لولاه لسقطت الموجودات إلى أسفل سافلين، فسمو الغاية التي تهدف إليها هذه الرسالة دليل على صدق صاحبها.

يقول: " ثم أنظر لأي مقصد وغاية يتضرع ؟ هاهو يدعو لمقصد لولا حصول ذلك المقصد لسقط الإنسان بل العالم، بل كل المخلوقات، إلى أسفل سافلين لا قيمة لها ولا معنى، وبمطلوبه تترقى الموجودات إلى مقامات كمالها "248.

بل إن من كمالات الرسالة في علاقتها بالكون، أن أصبحت في نظر النورسي روحا تمنح الكون الحياة وعقلا يهب له الهداية " فإذا ما فارق نور الرسالة الحمديّة الكون وغادره مات الكون وتوفيت الكائنات، وإذا ما غاب القرآن وفارق الكون جن جنونه وفقدت الكرة الأرضية صوابها، وزال عقلها، وظلت دون شعور، واصطدمت بإحدى سيارات الفضاء وقامت القيامة "249.

تلکم هي الزوايا التي نظر من خلالها النورسي إلى مضمون الرسالة الحمديّة، باعتباره - أي المضمون - دليلا على صدق محمد صلى الله عليه وسلم في نبوته، فهي رسالة (تعلم الإنسان شؤون الربوبية المتجلية في الكون) وهي (رسالة قامت على التوحيد الذي يثبت بالعديد من الأدلة) وهي (رسالة دعت إلى رقي الإنسان والكون إلى أعلى مقامات الكمال).

فهذه الأمور إن فحصت مجتمعة أو منفردة قادت إلى التصديق بنبوة صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم.

2- آثار الرسالة الحمديّة:

إن مما يبين صدق نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم كما يرى النورسي، تلك الآثار التي أحدثتها رسالته في الحياة، والتي برزت من خلال التغيرات التي طرأت على الكون والإنسان، أي على جميع الموجودات.

ولهذا وجدناه يقف مع بيان هذه الآثار، مشيرا إلى الحياة مرة وإلى الكون أخرى وإلى الإنسان حيننا وإلى العرب خاصة حيننا آخر.

وهذه الآثار كما ينبه إليها النورسي يمكن حصرها فيما يلي:

أ- فبرسالة محمد صلى الله عليه وسلم تحولت (الحياة) كلها - الكون والإنسان - إلى لحظة صلاة (كونية)، تتعالى عن الزمن فيحضرها كل العباد من آدم - عليه السلام - إلى آخر الزمن، ويصطف فيها من يعبد الله اختيارا (الإنسان) ومن يعبد اضطرارا (بقية الكائنات).

يصور لنا النورسي هذه (الصلاة الكونية) بلسان الصوفية الذين يجعلون من الذات الحمديّة مركز الكون، فيقول: " فإن شئت فانظر إليه وهو في الصلاة الكبرى.. ثم أنظر إليه يصلي تلك الصلاة بهذه الجماعة العظمى، بدرجة كأنه هو إمام في محراب عصره،

واصطف خلفه، مقتدين به، جميع أفاضل بني آدم، من آدم -عليه السلام- إلى هذا العصر إلى آخر الدنيا، في صفوف الأعصار مؤتمين به ومؤمنين على دعائه، ثم استمع ما يفعل في تلك الصلاة بتلك الجماعة.. فهاهو يدعو لحاجة شديدة عظيمة عامة بحيث تشترك معه في دعائه الأرض والسماء، بل كل الموجودات، فيقولون بالسنة الأحوال: نعم يا ربنا تقبل دعائه، فنحن أيضا بل مع جميع ما تجلى علينا من أسمائك نطلب حصول ما يطلب هو.. ثم أنظر إلى طوره في طرز تضرعاته كيف يتضرع، بافتقار عظيم، في اشتياق شديد وبجزن عميق في محبوبة حزينة، بحيث يهيج بكاء الكائنات فيكيها، فيشركها في دعائه، ثم أنظر لأي مقصد وغاية يتضرع؟ ها هو يدعو لمقصد لولا حصول ذلك المقصد لسقط الإنسان، بل العالم، بل كل المخلوقات إلى أسفل سافلين لا قيمة لها ولا معنى، وبمطلوبه تترقى الموجودات إلى مقامات كمالاتها.. ثم أنظر كيف يتضرع باستمداد مديد، في غياث شديد، في استرحام بتودد حزين، بحيث يسمع العرش والسموات، ويهيج وجدها، حتى كأن العرش والسموات بقول: آمين، اللهم آمين.. ثم ينظر ممن يطلب مسئوله؟ نعم! يطلب من القدير السميع الكريم ومن العليم البصير الرحيم الذي يسمع أحفى دعاء من أحفى حاجة، إذ يجيبه بقضاء حاجته بالمشاهدة، وكذا يبصر أدنى أمل في أدنى ذي حياة في أدنى غاية، إذ يوصله إليها من حيث لا يحتسب بالمشاهدة ويكرم ويرحم بصورة حكيمة وبطرز منتظم، لا يبقى ريب في أن هذه التربية والتدبير من سميع عليم وبصير حكيم²⁵⁰.

2- ورسالته صار للحياة والأحياء أهداف أسمى وأرقى، وأصبح للحياة وللعلاقات بين الأحياء معان إيجابية نقلتها من العداوة والتصادم إلى الأخوة والتحابب، يستوي في ذلك ذو الحياة والجمادات.

يقول: " أنظر إلى هذا الشخص النوراني كيف ينشر من الحقيقة ضياء نوارا، ومن الحق نورا مضيئا، حتى صير ليل البشر نهارا، وشتاءه ربيعا، فكأن الكائنات تبدل شكلها فصار العالم ضاحكا مسرورا بعدما كان عبوسا قنطريرا.. فإذا ما نظرت إلى الكائنات خارج نور إرشاده، تر في الكائنات مأتما عموميا، وتر موجوداتها كالأجانب الغرباء والأعداء، لا يعرف بعض بعضا، بل يعاديه، وتر جامداتها جنائز دهاشة، وتر حيواناتها أيتاما باكين بضربات الزوال والفراق.

فهذه هي ماهية الكائنات عند من لم يدخل دائرة نوره، فانظر الآن بنوره وبمرصاد دينه وفي دائرة شريعته، إلى الكائنات كيف تراها؟ فانظر، قد تبدل شكل العالم، فتحول بيت المأتم العمومي، مسجد الذكر والفكر ومجلس الجذبة والشكر، وتحول الأعداء

الأجانب من الموجودات أحبابا وإخوانا، وتحول كل من جماداتها الميتة الصامتة حيا مؤنسا مأمورا مسخرا ناطقا بلسان حاله آيات خالقه، وتحول ذو الحياة منها - الأيتام الباكون والشاكون - ذاكرين في تسييحاتهم، شاكرين لتسريحهم عن وظائفهم²⁵¹.
فهذا الأثر - كالأثر السابق - صاغه النورسي بلسان المتصوف الذي يحاول أن يتجاوز الظاهر لينفذ ببصيرته إلى باطن الأشياء، متوسلا في ذلك بلغة مجازية تضيء الحياة على الجمادات وتبعث الروح فيها، لتقريب المعنى للمخاطب²⁵².

3- وبرسالته خرجت الموجودات من دائرة العيب إلى دائرة الحكمة: "لقد تحولت بذلك النور حركات الكائنات وتنوعاتها وتغيراتها من العيشية والتفاهة وملعبة المصادفة إلى مكاتيب ربانية، وصحائف آيات تكوينية ومرابا أسماء إلهية، حتى ترقى العالم وصار كتاب الحكمة الصمدانية"²⁵³.

4- وبرسالته منح الكائنات وجودا حقيقيا، لا باعتباره (خالقا)، ولكن باعتباره (معرفا) لحكمة الله فيها، و(دالا) على بديع صنعته تعالى فيها، و(عارضيا) لها أمام أعين ذوي الشعور، ولولا بعثته ورسالته لبقيت في طي (العدم).

يقول: "لو لم يوجد هذا الشخص لسقطت الكائنات والإنسان، وكل شيء إلى درجة العدم، لا قيمة ولا أهمية لها، فيلزم لمثل هذه الكائنات البديعة الجميلة من مثل هذا الشخص الخارق الفائق، المعرف المحقق، فإذا لم يكن هذا فلا تكن الكائنات، إذ لا معنى لها بالنسبة إلينا"²⁵⁴.

5- أما حينما يتناول النورسي أثر الرسالة المحمدية على الإنسان، فهو يشير إلى أثرها في الإنسان عموما وفي العرب بشكل خاص، على اعتبار أنهم أمثل نموذج يتبين من خلاله الباحث أثر الرسالة وصدق صاحبها.

- فبين أن الرسالة المحمدية وهي تخاطب الإنسان، ارتفعت به من درجة (الحيوانية) (والعجز) (والفقر) وغيرت نظرتة إلى (الزمن)، وبالجملة هيأته (للخلافة) والارتقاء إلى أعلى المراتب في سلم الموجودات، على الرغم من ضعفه وقصوره وعجزه.

يقول: "وانظر إلى الإنسان كيف ترقى من حضبيض الحيوانية الذي هوى إليه بعجزه وفقره وبقله الناقل لأحزان الماضي ومخاوف المستقبل، ترقى إلى أوج الخلافة بتنور ذلك العقل والعجز والفقر، فانظر كيف صارت أسباب سقوطه - من عجز وفقر وعقل - أسباب صعوده بسبب تنورها بنور هذا الشخص النوراني"²⁵⁵.

- وبين أن أثر رسالته على العرب خاصة، ظهرت في أمرين بارزين:

1- نقلهم في مدة وجيزة من طور (البداءة) إلى طور (المدنية والحضارة): حيث زودهم بمقومات الحضارة وأخلاقها، وهذا عمل لا يمكن أن يحدث - بالنظر إلى العرب آنذاك وما كانوا عليه من مستوى وأخلاق - في تلك المدة القصيرة، إلا إذا كان وراء رسالة التغيير (قوة قدسية).

يقول: " فإن شئت أن تعرف أن ما يحركه، إنما هو قوة قدسية، فانظر إلى إجراءاته في هذه الجزيرة الواسعة، ألا ترى هذه الأقوام المختلفة البدائية في هذه الصحراء الشاسعة، المتعصين لعاداتهم، المعاندين في عصبيتهم وخصامهم، كيف رفع هذا الشخص جميع أخلاقهم السيئة البدائية وقلعها في زمان قليل دفعة واحدة؟ وجهزهم بأخلاق حسنة عالية، فصيروهم معلمي العالم الإنساني وأساتيد الأمم المتمدنة" ²⁵⁶.

وهذا التغيير الذي أحدثه في العرب لم يكن (ظاهريا) ناشئا عن قوة (السيف) كما قد يتوهم متوهم، وإنما هو تغيير ضارب بجذوره في أعماق النفس، يقول النورسي - مستطرداً - " فانظر، ليست سلطته على الظاهر فقط بل هاهو يفتح القلوب والعقول، ويسخر الأرواح والنفوس، حتى صار محبوب القلوب ومعلم العقول ومربي النفوس وسلطان الأرواح" ²⁵⁷.

2- تخليصهم في مدة وجيزة من عادات سيئة متوارثة: إذ ليس من السهل على الإنسان - مهما كانت سلطته - أن يرفع عادة بسيطة إذا استحكمت في شخص، فكيف إذا غدت عرفا اجتماعيا، ومن هنا عد التغيير الذي أحدثه الرسول صلى الله عليه وسلم برسائله في العرب دليلا على صدق نبوته وأنه مؤيد بقوة قدسية.

يقول: " ومن المعلوم أن رفع عادة صغيرة - كالتدخين مثلا - من طائفة صغيرة بالكلية، قد يعسر على حاكم عظيم، بممة عظيمة، مع أنا نرى هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم قد رفع بالكلية، عادات كثيرة، من أقوام عظيمة، متعصين لعاداتهم، معاندين في حسياتهم، رفعها بقوة جزئية، وهمة قليلة في ظاهر الحال، وفي زمان قصير، وغرس بدلها برسوخ تام في سجيبتهم عادات عالية، وخصال عالية، فيتراءى لنا من حوارق إجراءاته الأساسية أوف ما رأينا، فمن لم ير هذا العصر السعيد، ندخل في عينه هذه الجزيرة ونتحدها، فليجرب بنفسه فيها، فليأخذوا مائة من فلاسفتهم وليذهبوا إليها ليعملوا مائة سنة، هل يتيسر لهم أن يفعلوا جزء من مائة جزء مما فعله صلى الله عليه وسلم في سنة بالنسبة إلى ذلك الزمان" ²⁵⁸.

خاتمة

في ختام هذا البحث المقتضب، والذي جلنا من خلاله مع النورسي في مباحث النبوة وعلاقتها بالإنسان، يمكننا أن نسجل الملاحظات التالية:

1- أن تناول النورسي لهذه المباحث يأتي منسجما مع منهجه العام في تناول الحقائق الإيمانية، هذا المنهج الذي يتشكل إطاره النظري من المحددات التالية:

1- معقولية الحقائق الإسلامية.

2- اتباع المنهج القرآني.

3- التوازن في عرض أقسام العقيدة.

4- الواقعية والحيوية.

وهذا المنهج قد فصلناه في دراسة أخرى وتبعنا فيها كيف عرض من خلاله النورسي بقية مباحث العقيدة الإسلامية²⁵⁹.

2- أصالة النورسي وطرافة بعض أفكاره، خصوصا ما تعلق منها بالمفهوم الجديد لدلالة المعجزة.

3- استيعاب النورسي للمعارف الإسلامية (علم الكلام - فلسفة - تصوف) وإطلاعه على معارف عصره واستثمار كل ذلك في عرض قضايا العقيدة تقريرا واستدلالاتا وردا على الشبهات.

4- وعي النورسي بالتحديات التي يطرحها العصر أمام قضايا الإيمان.

ومع هذا يبقى ما خلفه النورسي تراثا ضخما ليس من السهل التعامل معه، لأنه - رحمه الله - لم يكن يكتب ما يكتب وهو قابع خلف مكتبه يعالج موضوعا (باردا) لا حياة فيه، وإنما كان يكتب بدافع الذود عن حصون الإيمان التي تهددها هجمات الفلاسفة المادية الإلحادية، وينفخ من روحه في روح أمة أريد لها أن تموت، فرحمه الله رحمة واسعة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

1 وهو يكتسي الأهمية ذاتها عند المتكلمين، يقول الجويني: " إثبات النبوءات من أعظم أركان الدين، والمقصود منه في المعتقد حصره في خمسة أبواب (أحدها) إثبات جواز انبعاث الرسل ردا على البراهمة و (الثاني) المعجزات وشرائطها وتبين تميزها عن الكرامات والسحرة وما يتميز به مدعي النبوة و(الثالث) في إيضاح درجة دلالة المعجزة على صدق الرسول و(الرابع) تخصيص نبوءة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالآيات والرد على منكريها من أهل الملل و(الخامس) الكلام في أحكام الأنبياء وما يجب لهم وما يجوز عليهم ". أنظر: الجويني: الإرشاد، ص 257.

- 2 الكلمات: ص 533.
- 3 كتاب التوحيد: ص 176.
- 4 أنظر التعريف بهم وشبهاتهم والرد عليها في: الشهرستاني: الملل والنحل (250/2-252) وأنظر أيضا ما نقله (ابن العربي) من شبهات منكري النبوة في كتابه (العواصم من القواصم).
- راجع: - د/عمار الطالبي: أراء أبي بكر بن العربي الكلامية ونقده للفلسفة اليونانية (العواصم من القواصم)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع (الجزائر)، د ط، د.ت، ج 2 ص 227-229.
- 5 البيجوري: تحفه المرید، ص 70 وأيضا العدوي: الشرح الجديد لجوهرة التوحيد، ص 98.
- 6 وإلى هذا الرأي يذهب الماتريدي أيضا ولكن ليس بناء على الصلاح والأصلح كالمعتزلة، أنظر: - الماتريدي: كتاب التوحيد، ص 177.
- 7 أنظر " تحفة المرید " ص 70، والشرح الجديد ص 98.
- 8 محمد عبده: رسالة التوحيد، ص 91-103، وبعض هذه المعاني نجدتها عند الماتريدي، أنظر: كتاب التوحيد، ص 177-188.
- 9 الكلمات: ص 843.
- 10 مختارات من المثوي: ص 57.
- 11 راجع مثلا الفهرس التحليلي لكتاب (الكلمات) مادة إنسان [عجزه وضعفه، ص 910]، وأيضا الفهرس التحليلي لكتاب اللغات مادة الإنسان [عجزه وفقره، ص 625].
- 12 الكلمات: ص 137.
- 13 الكلمات: ص 137-139.
- 14 المصدر نفسه: ص 139.
- 15 كقوله تعالى (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً) [النساء: 163] وأنظر أيضا: [الأعراف: 117، 160]، [يونس: 2، 87]، [يوسف: 3، 15]، [الرعد: 30]، [النحل: 123]، [الإسراء: 73، 86]، [طه: 77]، [المؤمنون: 27]، [الشعراء: 52، 63]، [فاطر: 35]، [الشورى: 7، 17، 52] [لم نشر إلى الآيات التي ورد فيها الوحي بمعنى الإلهام كما في [طه: 38].
- 16 كقوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون) [يوسف: 109] وأنظر أيضا: [النحل: 43]، [الأنبياء: 7، 25].
- 17 كقوله تعالى (ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا) [الإسراء: 39] وأنظر أيضا: [إبراهيم: 13]، [النجم: 10].
- 18 كقوله تعالى (كذلك يوحي إليك ربك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم) [الشورى: 3]، وأنظر أيضا: [الشورى: 57]، [سبأ: 50].
- 19 كقوله تعالى (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنني ملك أن أتبع إلا ما يوحى إلي قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون)، [الأنعام: 50]، وأنظر أيضا: [الأعراف: 203]، [يونس: 15، 109]، [هود: 12]، [الكهف: 110]، [طه: 13]، [الأنبياء: 108]، [الأحزاب: 2]، [فصلت: 6]، [الأحقاف: 9]، [النجم: 4].
- 20 كقوله تعالى (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون) [آل عمران: 44] وأيضا: [يوسف: 102].

- 21 كقوله تعالى (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين) [هود: 49].
- 22 كقوله تعالى (قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإني بريء مما تشركون) [الأنعام: 19] وأنظر أيضا [الأنعام: 63، 106، 145]، [هود: 36]، [الكهف: 27]، [طه: 48] [العنكبوت: 45]، [الزمر: 65]، [الزخرف: 43]، [الجن: 01***].
- 23 يونس: الآية 2، وتامهما (ويشرك الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين).
- 24 الإسراء: الآية 94، وبدايتها (وما منع الناس أن يؤمنوا إذا جاءهم الهدى إلا أن قالوا) وأنظر اعتراض المشركين على الرسالة بسبب (بشرية) الرسول في: [المؤمنون: 24، 33، 34]، [التغابن: 6]، [المدثر: 25]، [هود: 27]، [القمر: 54].
- 25 سيد قطب: في ظلال القرآن (1759/3).
- 26 مالك بن نبي (1905-1973)، مفكر جزائري، ولد في مدينة قسنطينة، انتقل بعد إنهاء الدراسة الثانوية إلى باريس حيث تخرج عام 1935 مهندسا كهربائيا، ذهب إلى القاهرة سنة 1956 وفيها ترجم كتبه إلى العربية وأصدر البقية باللغة العربية، عاد إلى الجزائر سنة 1963 وعين مديرا عاما للتعليم العالي، وفي عام 1967 استقال من منصبه وتفرغ للعمل الفكري وتنظيم ندوات فكرية، اهتم بإبراز مشكلة العالم المتخلف -ومنه الإسلامي- باعتبارها مشكلة حضارة ولهذا وضع جميع كتبه تحت عنوان (مشكلات الحضارة)، أهم كتبه: الظاهرة القرآنية، شروط النهضة، وجهة العالم الإسلامي، المسلم في عالم الاقتصاد، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مذكرات شاهد القرن... وغيرها.
- 27 Malek Ben Nabi : Le phénomène Coranique , S.E.C, Alger, 1992, p 57.
- 28 الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة، دار الشهاب، باتنة (الجزائر)، د.ط، 87، ص 83-84.
- 29 كذا في الأصل ولعل الأصح (أو).
- 30 الدكتور خليل أحمد خليل: جدلية القرآن، دار الطليعة، بيروت، ط2، 1981، ص 95-96.
- 31 محمد أركون: الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، ترجمة: هاشم صالح، لافوميك والمؤسسة الوطنية للكتاب، د.ط، 1993، ص 76. - وأركون كعادته لا يفصل بين الإسلام والمسيحية واليهودية، وإنما يطابق بينهما بشكل كامل في كتابه، كما هو شأنه هنا بالنسبة لمسألة الوحي.
- 32 خليل أحمد خليل: جدلية القرآن، ص 76 وما بعدها، وعن هذا الاتجاه في النظر إلى (النبوة) وتاريخه وأسباب ظهوره وأهم ممثليه أنظر: - د/ البوطي: فقه السيرة، ص 24-29 وأيضاً كتابه: كبرى اليقينيات الكونية ص 186-195.
- 33 لتعريف الوحي لغة واصطلاحاً أنظر: - مناع القطان: مباحث في علوم القرآن، ص 32.
- 34 رسالة التوحيد: ص 103، يرى (مالك بن نبي) أن هذا التعريف يبقى نوعاً من الغموض والاختلاط فيما يتعلق باليقين عند الرسول أنظر: Le phénomène Coranique, p 59 - وهذا الغموض والاختلاط هو الذي استند إليه (الدكتور خليل أحمد خليل) في مناقشة ظاهرة الوحي متوسلاً بمفاهيم المنطق الجدلي، أنظر: - جدلية القرآن، ص 97-101.
- 35 رسالة التوحيد، ص 103-106.

- 36 يعلق (سيد قطب) على هذا المسلك بقوله: " ولقد جهد ناس من المفسرين المحدثين في إثبات الوحي عن طريق العلم للتقريب، ونحن لا نقر هذا المنهج من أساسه، فللعلم ميدان، هو الميدان، الذي يملك أدواته، للعلم آفاق هي الآفاق التي يملك أدوات كشفها ومراقبتها، والعلم لم يدع أنه يعرف شيئا حقيقيا عن الروح فهي ليست داخلية في نطاق عمله لأنها ليست شيئا قابلا للاختبار المادي الذي يملك العلم وسائله ". (في ظلال القرآن: 1760/3).
- 37 الإسلام يتحدى: ص 96.
- 38 المرجع نفسه: ص 98.
- 39 الكلمات: ص 420.
- 40 الكلمات: ص 672.
- 41 الكلمات: ص 672.
- 42 وقد حدد القرآن صور الوحي في قوله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم)، [الشورى: الآية 51].
- 43 الكلمات: ص 677.
- 44 النورسي لا يفرق بين (النبي) و(الرسول)، كما يظهر مثلا في [الكلمات، ص 149] وإنما يهتم بالمقارنة بين جانب (النبوّة) وجانب (الولاية) وفي شخصية الرسول وسيأتي الحديث عن هذا لاحقا.
- 45 راجع فصل (عرض النورسي للإلهيات) المبحث الثاني، في رسالتنا لنيل الماجستير تحت عنوان (النورسي ومنهجه في عرض العقيدة).
- 46 مجموعة عصا موسى: ص 135.
- 47 الكلمات: ص 687، قارن مع ما أورده محمد عبده في رسالة التوحيد: ص 105.
- 48 ورد في بعض الأحاديث تحديد لعدد الأنبياء منها:
- عن أبي ذر رضي الله عنه قال: " يا رسول الله أي الأنبياء أول ؟، قال آدم، قلت: يا رسول الله ونبي كان؟ قال: نعم نبي مكرم، قلت: يا رسول الله كم المرسلون؟ قال: ثلاثمائة وبضع عشر جما غفيرا).
- وفي رواية عن أبي أمامة قال أبو ذر: " قلت يا رسول الله كم المرسلون ؟، قال: مائة ألف وأربعمائة وعشرون ألفا، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جما غفيرا ". رواه أحمد.
- 49 مجموعة عصا موسى: ص 135-136.
- 50 يشير النورسي بهذا إلى (الإلهام).
- 51 الكلمات: ص 669.
- 52 راجع فصل (النورسي والمنهج الصوفي) وقد فصلنا هذه النظرية عند النورسي، في رسالتنا المشار إليها أعلاه.
- 53 الكلمات: ص 669-670 وأيضا ص 146-147.
- 54 بنى النورسي الكلمة الحادية والعشرين (المعراج النبوي) على أساس أن الخطاب موجه ابتداء إلى المؤمن الذي ساورته الشكوك، وافترض الملحد في مقام المستمع الذي يلتفت إليه من حين إلى آخر بما يلزمه ويبطل شبهته، أنظر مقدمة الرسالة (الكلمات: ص 666).
- 55 الكلمات: ص 671.
- 56 كذا في الأصل والسياق يقتضي (بصاحبها ومالكها).
- 57 مجموعة عصا موسى: ص 136.
- 58 الكلمات: ص 147.

- 59 وهو يقترب هنا من التعريف الذي ساقه الجرجاني حيث عرف الإلهام بأنه: (ما يلقي في الروح بطريق الفيض، وقيل الإلهام ما وقع في القلب من علم، وهو يدعو إلى العمل من غير استدلال بأية ولا نظر في حجة، وهو ليس حجة عند العلماء إلا عند الصوفيين). [أنظر كتاب التعريفات، ص 51].
- 60 مجموعة عصا موسى: ص 137، قارن مع ما أورده الأمير في (الموقف السادس والخمسون)، أنظر: الموافق، ج 1 ورقة رقم 34ب.
- 61 الكلمات: ص 147-148.
- 62 الكهف: الآية 109 وتامها (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا).
- 63 مجموعة عصا موسى: ص 137-138.
- 64 ولعل هذا ما جعل العلماء لا يعتبرون (الإلهام) حجة كما ذكر الجرجاني، وجعل كبار الصوفية كأبي يزيد والجنيد والغزالي والشاذلي، يقدون الأخذ بالإلهام بمدى اتفاهه مع الوحي المعصوم، يقول أبو الحسن الشاذلي: "إنه يرد علي الوارد فلا أقبله إلا بشاهدين عدلين وهما الكتاب والسنة". (أنظر: الأمير عبد القادر: الموافق، ج 1، ورقة رقم 19ب). وقال أيضا: "إذ تعارض كشفك مع الكتاب والسنة، تمسك بالكتاب والسنة ودع كشفك، وقل لنفسك إن الله ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها في جانب الكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة إلا بعد عرضها على الكتاب والسنة". (أنظر: د/عبد الحليم محمود: المنقذ من الضلال (بحوث التصوف ضمن المجموعة الكاملة)، ص 246-247، وأنظر أيضا: القشيري: الرسالة، ص 18-19.
- 65 مجموعة عصا موسى: ص 138.
- 66 الشيخ طاهر الجزائري: الجواهر الكلامية في إيضاح العقيدة الإسلامية، قدم لها وعلق عليها: محمد الصالح الصديق، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 1990، ص 68-69.
- 67 نفس المرجع: ص 69.
- 68 المرجع نفسه: ص 71، وأنظر في ذلك أيضا: - البيجوري: تحفة المرید على جوهره التوحيد، ص 71-75. العدوي: الشرح الجديد لجوهرة التوحيد، ص 99-100.
- 69 الكلمات: ص 62.
- 70 المصدر نفسه: ص 63.
- 71 يقول صاحب الجوهره: ولم تكن نبوة مكتسبة ولو رقى في الخير أعلى عقبه. ويعلق (البيجوري) على هذا البيت بقوله: "أي لا يكتسبها العبد بمباشرة أسباب مخصوصة كمالزمة الخلو والعبادة وتناول الحلال كما زعمت الفلاسفة (لعنهم الله تعالى) فالذي ذهب إليه المسلمون جميعا أن النبوة خصيصة من الله تعالى لا يبلغ العبد أن يكتسبها". - أنظر: تحفة المرید، ص 75.
- 72 الكلمات: ص 112، وأيضا ص 486.
- 73 يقول الأشعري: "اختلفوا في النبوة: هل هي ابتداء أم ثواب؟ فقال قائلون: هي ابتداء، وقال قائلون هي جزء على عمل الأنبياء، هذا قول (عباد)، وقال (الجبائي): يجوز أن تكون ابتداء". أنظر: مقالات الإسلاميين (137/2).
- 74 الكلمات: ص 109.
- 75 الجرجاني: التعريفات، ص 201.
- 76 المرجع نفسه: ص 206.
- 77 للمعات: ص 194.

- 78 الكلمات: ص 279 وأيضاً مجموعة عصا موسى: ص 129.
- 79 الكلمات: ص 55.
- 80 حول مسألة عصمة الأنبياء، ويشأن ما ورد في القرآن ويفيد بظاهره وقوع بعض المخالفات منهم. أنظر: الشيخ طاهر الجزائري: الجواهر الكلامية، ص 70-71.
- 81 سورة الفتح: الآية 2، وتامها (ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً).
- 82 اللّمعات: ص 45.
- 83 الكلمات: ص 109 وأيضاً ص 790.
- 84 المصدر نفسه: ص 204.
- 85 المصدر نفسه: ص 74.
- 86 المصدر نفسه: ص 62.
- 87 سنعود إلى هذه المسألة لاحقاً حينما نبين تصور النورسي لدلالة المعجزة.
- 88 الكلمات: ص 279، وهنا نلمس رداً ضمنياً على الدعوات العلمانية التي كانت تسعى إلى حصر الدين (الإسلام بالخصوص) في الجانب الروحي.
- 89 الكلمات: ص 63، قارن مع: السرهندي: المكتوبات: (75-71/1).
- 90 الكلمات: ص 62.
- 91 المصدر نفسه: ص 63.
- 92 المصدر نفسه: ص 84.
- 93 المصدر نفسه: ص 119، وأيضاً اللّمعات: ص 567.
- 94 رسالة التوحيد: ص 103.
- 95 الكلمات: ص 119، واللّمعات: ص 568.
- 96 الشيخ طاهر الجزائري: الجواهر الكلامية، ص 65.
- 97 الرازي: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكام والمتكلمين، ص 151، وأنظر أيضاً البوطي: كبرى اليقينيّات الكونية، ص 214 وما بعدها
- 98 لبيان الظروف التاريخية التي نشأ فيها هذا التيار وأهم أفكاره وزعمائه راجع: - د/البوطي: كبرى اليقينيّات الكونية، ص 221-228.
- 99 اللّمعات: ص 99.
- 100 من هذا النص يتبين لنا وعي النورسي بالدوافع التي حملت بعض المصلحين على أن يتعسفوا في تأويل النصوص كي تتوافق مع ما ظنوه صدقاً وحقاً في الآراء الغربية، كما هو الشأن مع الإمام (محمد عبده) في بعض آرائه.
- 101 آل عمران: الآية 59. وتامها (خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون).
- 102 وجودها بهذا الشكل لا ينفي كونها صادرة من (أب) و (أم) ومن ثمة تكون خارجة عن قانون التناسل، إلا إذا كان مقصود الأستاذ: أنها تأتي إلى الوجود على غير معهود قانون التناسل الذي نجده عند الإنسان أو الثدييات.
- 103 هذه الفكرة الثانية في النص، فكان ينبغي أن يقول (ثانياً) بعد أن قال في البداية (أولاً).
- 104 اللّمعات: ص 58-59.
- 105 الكلمات: ص 221.
- 106 الكلمات: ص 279.

- 107 المصدر نفسه: ص 279.
- 108 الكلمات: ص 280-296، وقد ذكرت الأمثلة على امتداد هذه الصفحات مفصلة.
- 109 سبأ: الآية 12 وتامها (وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بأذن ربه ومن يزغ منهم عن امرنا نذقه من عذاب السعير).
- 110 البقرة: الآية 60، وتامها (وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين).
- 111 آل عمران: الآية 49، وتامها (ورسولا إلى بني إسرائيل إني قد جنتكم بأية من ربكم، أني اخلق لكم من الطين كهينة الطير فانفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمة والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تآكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين).
- 112 قول النورسي (داء) يشير إلى أن معجزة إحياء الموتى ليست داخلية تحت ما يمكن أن يصل الطب البشري لأن الموت ليس داء.
- 113 سبأ: الآية 10، وبدآيتها (ولقد آتينا داود فضلا يا جبال أوبي معه والطير).
- 114 ص: الآية 20، وبدآيتها (وشددنا ملكه...).
- 115 النمل: الآية 40، وتامها (قال هذا من فضل ربي ليبلوني أ أشكر أم أكفر ومن شكر فإتوا يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم).
- 116 أنظر: الكلمات: ص 280-296.
- 117 وذلك مثلما حدث لمسألة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، أنظر: - الزرقاني: منا هل العرفان (261-253/2).
- 118 الكلمات: ص 293.
- 119 المصدر نفسه: ص 295-297.
- 120 أنظر هذه المباحث مثلا عند السرهندي: المكتوبات (89/1).
- 121 للمعات: ص 36.
- 122 الكلمات: ص 149، قارن مع آراء (الجيلي) الذي يرى بأن نهاية الولي هي بداية النبي، أنظر يوسف زيدان: عبد الكريم الجيلي فيلسوف الصوفية، ص 158.
- 123 الكلمات: ص 671.
- 124 للمعات: ص 100.
- 125 أنظر في ذلك: طاهر الجزائري: الجواهر الكلامية، ص 67، - البيجوري: تحفة المرديد، ص 90-91.
- 126 وهم جمهور المعتزلة.
- 127 للمعات: ص 99.
- 128 للمعات: ص 575.
- 129 الكلمات: ص 533.
- 130 مثل (الكلمة التاسعة عشرة: إثبات الرسالة الأحمدية) [الكلمات: ص 268]، (والكلمة الحادية والثلاثون: المعراج النبوي) [الكلمات: ص 666-706].
- 131 الكلمات: ص 343، وسنعود إلى هذه الخصائص عند الحديث عن (الحقيقة المحمدية).
- 132 المصدر نفسه: ص 63.

- 133 الكلمات: ص 497 وأيضاً ص 668.
- 134 المصدر نفسه: ص 423.
- 135 المصدر نفسه: ص 515.
- 136 المصدر نفسه: ص 107.
- 137 الكلمات: ص 255.
- 138 المصدر نفسه: ص 344، ص 618.
- 139 المصدر نفسه: ص 255.
- 140 وهذه الفكرة نصادفها أيضاً عند صوفي آخر تأثر النورسي بتعاليمه، وهو (جلال الدين الرومي)، حيث يقول مبينا العلاقة بين الأنبياء: "بما أن كل رسول يعرف الرسل الآخرين، فإذا تنكرت لأحدهم كأنك لم تعترف بأي أحد منهم، إنهم نور واحد يشع من نوافذ متعددة، ويتجلى في شخص كل منهم، إذا رفضت جزءاً من هذا النور فكأنك تشبه الخفاش لما يرفض شمس هذه السنة بينما يتقبل شمس السنة الماضية، إن شمس السنة الماضية وشمس هذه السنة في الحقيقة شيء واحد، الفرق أنه لم يجرب شمس السنة الماضية".
- (أنظر: إيفادي فيتري مايروفيتش: الإسلام الطريق إلى الحق، ترجمة: ويزة قلاز، دار الأمة، الجزائر، ط1، 1998، ص 24).
- 141 المقدمة: ص 520.
- 142 المرجع نفسه: ص 521.
- 143 المرجع نفسه: ص 521.
- 144 الجرجاني: التعريفات، ص 122، وهذا تعريف (ابن عربي)، أنظر: السرهندي: المکتوبات (174/3).
- 145 ذكر (العجلوني) عن هذا الحديث كلاماً كثيراً ولكنه لم يشر لا إلى صحته ولا إلى ضعفه أو وضعه، وإنما قارن بينه وبين حديث (أول ما خلق الله القلم)! . أنظر: إسماعيل بن محمد العجلوني: كشف الحفاء ومزيل الالتباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، تصحيح وتعليق: أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة، ط 4، 1405هـ/1985، ج 1، ص 311-314. ولم يذكره الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وإنما تعرض لأحاديث تبيِّن أسبقية الرسول صلى الله عليه وسلم من حيث الخلق كحديث: (كنت نبياً وآدم بين الماء والطين) قال الألباني: موضوع، ومثله (كنت نبياً ولا آدم ولا ماء ولا طين)، موضوع ذكر هذا والذي قبله السيوطي في ذيل الأحاديث الموضوعة نقلاً عن ابن تيمية وأقره.
- أنظر: ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ على الأمة، مكتبة المعارف، الرياض، ط1، 1412هـ/1993، ج 1 ص 473.
- 146 لم أجده بهذا اللفظ وإنما الذي عثرت عليه (أنا من الله والمؤمنون مني). قال عنه السخاوي: قال شيخنا -يعني ابن حجر- أنه كذب مختلق، وقال بعض الحفاظ لا يعرف بهذا اللفظ مرفوعاً، ولكن ثبت في الكتاب والسنة أن المؤمنون بعضهم من بعض، وفي السنة قوله صلى الله عليه وسلم لحي من الأشعريين: هم مني وأنا منهم.
- أنظر: الحافظ شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي: المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، دار الهجرة، بيروت، د.ط، 1406هـ/1986م، ص 98.
- وقال الألباني: هو كذب مختلق كما قال الحافظ ابن حجر، وقال بعض الحفاظ لا يعرف بهذا اللفظ مرفوعاً.

- أنظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (237/1).
- 147 المكتوبات (173/3)، وأنظر تفصيل هذا النص على امتداد الصفحات (174-184) من نفس الجزء، وهو مليء بالعبارات الغامضة والآراء التي لا ينفع معها إلا استعمال منهج "ابن خلدون" المشار إليه أعلاه.
- 148 أنظر مثلا (المواقف) رقم: 86، 89، 156، 162، وغيرها.
- 149 الأمير عبد القادر: المواقف، ج1، ورقة رقم 54 أ.
- 150 أنظر الأمير عبد القادر: المواقف، ورقة رقم 54 ب - رقم 57 ب.
- 151 تخريج الحديث! .
- 152 المواقف: ج1، ورقة رقم 57 ب.
- 153 مختارات من المثوي: ص 48-49.
- 154 للمعات: ص 567-568، وأيضا: الكلمات: ص 119.
- 155 هذا السبق الوجودي للذات المحمدية على وجود الموجودات يبرره الصوفية بحديث (كنت نبيا وأدم بين الماء والطين). قال عنه الألباني: موضوع، ومثله (كنت نبيا ولا آدم ولا ماء ولا طين) ذكر هذا والذي قبله السيوطي في ذيل الأحاديث الموضوعة نقلا عن ابن تيمية وأقره. أنظر: الألباني: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (473/1).
- 156 من بين (محن) الصوفية أن اللغة تقصر عن التعبير عن مرادهم ويصالح (وجدانيتهم) إلى المخاطبين، ولذا تراهم يتوسلون بضرب الأمثلة، ويطلبون من المستمع إما التسليم أو حمل الأقوال على مراد القوم دون خلط أو غلط، يقول الأمير عبد القادر - بعد أن ضرب مثلا لتوضيح واحدة من هذه المسائل - "وهذا غاية ما قدر عليه أهل الوجدان في التفهيم، فافهم السر واحذر الغلط، وإذا عرفت فاحمد الله وإلا أمن به على مراد أهله وذوقهم فإنهم الفرقة الناجية". (المواقف: ج1، ورقة رقم 55 ب - 56 أ).
- 157 كذا في الأصل والسياق يقتضي أن يقول (احتوائها) إذ الضمير يعود على (النواة).
- 158 الكلمات: ص 692-693 وأيضا: مختارات من المثوي: ص 87-88.
- 159 الكلمات: ص 688.
- 160 يشرح الأمير عبد القادر هذه المسألة بضرب مثال فيقول: "ولا يفهم مما ذكرناه حلول وتجزئة ولا جزئية، فإن معنى إيقاد سراج من نور سراج أن الأول أثر في الثاني فظهر الثاني على صورة الأول بل الثاني عين الأول ظهر في فتيلة ثانية من غير انتقال عن الأول". (أنظر: المواقف: ج1، ورقة رقم 55 ب).
- 161 الكلمات: ص 693.
- 162 مختارات من المثوي: ص 78.
- 163 للمعات: ص 498.
- 164 يقول الجرجاني: "الإنسان الكامل: هو الجامع لجميع العوالم الإلهية والكونية، الكلية والجزئية، وهو كتاب جامع للكتب الإلهية والكونية، فمن حيث روحه وعقله: كتاب عقلي مسمى بأمر الكتاب، ومن حيث قلبه: كتاب اللوح المحفوظ، ومن حيث نفسه: كتاب المحو والإثبات، فهو الصحف المكرمة، المرفوعة المطهرة، التي لا يمسه ولا يدرك أسرارها إلا المطهرون من الحجب الظلمانية، فنسبة العقل الأول إلى العالم الكبير وحفائقه بعينها نسبة الروح الإنساني إلى البدن وقواه، وإن النفس الكلية قلب العالم الكبير، كما أن النفس الناطقة قلب الإنسان، ولذلك يسمى العالم بالإنسان الكبير". (التعريفات: ص 56).

- 165 قارن مع قول الأمير عبد القادر: " وأما وجه تسميته - يعني الرسول صلى الله عليه وسلم بالإنسان الكامل فلأن كل إنسان كامل من حيث صورته الظاهرة والباطنة مظهر له وللوازمه". (المواقف: ج1، ورقة رقم 57 ب).
- 166 للمعات: ص 598-599.
- 167 الكلمات: ص 670.
- 168 المصدر نفسه: ص 674.
- 169 الكلمات: ص 673-674.
- 170 أنظر: يوسف زيدان: الجيلي فيلسوف الصوفية، ص 120-121.
- 171 الكلمات: ص 62-63.
- 172 المصدر نفسه: ص 672.
- 173 المصدر نفسه: ص 678.
- 174 الكلمات: ص 671.
- 175 للمعات: ص 345.
- 176 وهي اللمعة الحادية عشر (للمعات: ص 78-96).
- 177 سورة آل عمران: الآية 31، وتمامها (ويفغر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم).
- 178 للمعات: ص 93.
- 179 للمعات: ص 94.
- 180 المصدر نفسه: ص 95.
- 181 في حين أنه لما تحدث عنه بلسان (الحقيقة) اكتفى بدلالة الوجدان.
- 182 سورة القلم: الآية 4.
- 183 للمعات: ص 95.
- 184 سورة هود: الآية 112، وتمامها (ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير).
- 185 للمعات: ص 95-96.
- 186 راجع الفصل السادس (النورسي و عرض الإلهيات)، من بحث (النورسي ومنهجه في عرض العقيدة).
- 187 للمعات: ص 537.
- 188 الكلمات: ص 252.
- 189 رسالة الحشر: ص 36، وأيضا: الكلمات: ص 62.
- 190 أنظر: (الكلمة التاسعة عشر): الكلمات: ص 254-268.
- 191 حيث نجده تناول القرآن باعتباره أعظم معجزة للرسول في (رسالة المعجزات القرآنية) وهي الكلمة الخامسة والعشرون [الكلمات: 419-540]، ومعجزة (المعراج النبوي) الكلمة الحادية والثلاثون [الكلمات: 666-701].
- 192 وهذا ما اعتمده أبو منصور الماتريدي، أنظر: كتاب التوحيد، ص 202-210.
- 193 الكلمات: ص 255.
- 194 الكلمات: ص 256.
- 195 المصدر نفسه: ص 691.
- 196 المصدر نفسه: ص 589، وأيضا ص 255-256.

- 197 رسالة الحشر: ص 36.
- 198 الكلمات: ص 261، وقريبا من هذا المعنى نجده عند (مالك بن نبي)، إذ يعتبر قول النبي صلى الله عليه وسلم (وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا) [البخاري، (86/1)]، وقد حول الأرض إلى مكان (مقدس) " فالقداسة أضحت في كل شيء، وأضفت القداسة مسحتها على العالم كله "، أنظر: مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة: بسام بركة وأحمد شعيبو، دار الفكر (الجزائر)، دار الفكر (دمشق)، ط1، 1413هـ/1992م، ص 73-74.
- 199 الكلمات: ص 690-691، وقد أوردتها النورسي مفصلة ومتداخلة، ومما أدى إلى التكرار، ولذلك نسعد إلى اختصارها وضم المتقارب منها تحت عنصر مشترك.
- 200 الكلمات: ص 691.
- 201 أنظر: الفصل السادس، مبحث الأسماء والصفات، من بحث (النورسي ومنهجه في عرض العقيدة).
- 202 الكلمات: ص 252، وأيضا: للمعات: ص 537، ص 538.
- 203 آل عمران: الآية 19، وتامها (وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب).
- 204 الفتح: الآية 29، وتامها (تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما).
- 205 الكلمات: ص 252-253.
- 206 هذه القاعدة يقرها النورسي بناء على قياس الغائب على الشاهد.
- 207 لخص (ابن الوزير اليميني) معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يلي:
معجزاته صلى الله عليه وسلم قسما: حسية وعقلية.
الحسية ثلاثة أقسام:
الأشياء الخارجة عن ذاته (كانشقاق القمر).
الأشياء العائدة إلى ذاته (كالخاتم بين كتفيه).
ما يتعلق بصفاته الكثيرة (الشجاعة، الرحمة...).
- العقلية وهي ست أقسام:
ظهر بين قبيلة لم يكونوا أهل علم.
تحمل المتاعب والمشاق في سبيل دعوته.
وردت البشارة به في الكتب السابقة.
لم يكن مشغولا قبل البعثة بالمسائل التي جاء بها في رسالته.
مستجاب الدعوة.
إخباره بالغييب.
- أنظر: دلائل التوحيد، ص 257-258، (نقلا عن كتاب إيثار الحق على الخلق لابن الوزير).
- 208 الكلمات: ص 262-263.
- 209 يقول الجرجاني: " الأرهاص: ما ظهر من الخوارق عن النبي صلى الله عليه وسلم قبل ظهوره، كالنور الذي كان في جبين آباء نبينا صلى الله عليه وسلم، وإحداث أمر خارق للعادة دال على بعثة

- نبي قبل بعثته، وما يصدر عن النبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة من أمر خارق للعادة، قيل: أنها من قبيل الكرامات، فإن الأنبياء لا يقصرون عن درجة الأولياء". (التعريفات، ص 31).
- 210 إذ نجده في (الكلمة الحادية والثلاثين) يعدد هذه الدلائل: أولاً: بشارات الأنبياء، ثانياً: بشارات الكهان، ثالثاً: الإرهاصات، رابعاً: المعجزات، (أنظر: الكلمات: ص 684).
- 211 راجع تفصيل ذلك في الفصل السادس، من بحث (النورسي ومنهجه في عرض العقيدة).
- 212 الكلمات: ص 421.
- 213 الكلمات: ص 481-482.
- 214 مجموعة عصا موسى: ص 154-155.
- 215 - للمعات: ص 553-556.
- 216 أنظر بعد هذه الدلائل التي أحصاها العلماء من خلال تتبعهم لما ورد في الكتب السابقة:
- عبد الرحمان حبنكة الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص 328، 337.
- 217 الكلمات: ص 689، يعلق الشيخ محمد الغزالي رحمه الله- على مثل هذه الأمور فيقول: "وقد روى البعض أن إرهاصات بالبعثة وقعت عند الميلاد، فسقطت أربعة عشر شرفة من ديوان كسرى، وخمدت النار التي يعيها المجوس، وانهدمت الكنائس حول (ساوة) بعد أن غاضت... وهذا الكلام تعبير غلط عن فكرة صحيحة، فإن ميلاد محمد كان حقا إيذانا بزوال الظلم واندثار عهده واندكاك معالمه، وكذلك كان ميلاد موسى، ألا ترى أن الله لما وصف جبروت فرعون واستكائة الناس إلى بغيه، ثم أعلن عن إرادته في تحرير العبيد واستنقاذ المستضعفين قص علينا قصة البطل الذي يقوم بهذه الأعمال فقال (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه...). وقد كانت رسالة محمد بن عبد الله أخطر ثورة عرفها العالم للتحرر العقلي والمادي، وكان جند القرآن أعدل رجال وعاهم التاريخ وأحصى فعالهم في تدويخ المستبدين وكسر شوكتهم، طاغية أثر طاغية. فلما أحب الناس بعد انطلاقهم من قيود العسف- تصوير هذه الحقيقة، تخيلوا هذه الإرهاصات وأحدثوا لها الروايات الواهية، ومحمد غني عن هذا كله، فإن نصيبه الضخم من الواقع المشرف يزهدنا في هذه الروايات وأشباهاها". (أنظر: الشيخ محمد الغزالي: فقه السيرة، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة (الجزائر)، د.ط، د.ت، ص 60-61).
- 218 أنظر: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: الجامع الصحيح، شركة الشهاب، الجزائر، د.ط، د.ت، ج4، ص 242-243.
- 219 وهي ثابتة بقوله -تعالى- (اقتربت الساعة وانشق القمر)، [سورة القمر: الآية 1]، وأنظر أيضا: صحيح البخاري (4/186، 243-244).
- 220 أخرج البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: أصاب أهل المدينة قطط على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبينما هو يخطب يوم الجمعة، إذ قام رجل فقال: يا رسول الله هلكت الكراع هلكت الشاء فادع الله يسقينا، فمد يديه ودعا، قال أنس: وإن السماء كمثل الزجاج فهاجت ريح أنشأت سحابا، ثم اجتمع ثم أرسلت السماء عز إليها [إشارة إلى شدة المطر] فخرجنا نخوض الماء حتى أتينا منازلنا، فلم نزل نمطر إلى الجمعة الأخرى، فقام إليه ذلك الرجل أو غيره فقال: يا رسول الله تهدمت البيوت فادع الله بحبسه، فتبسم وقال: حوالينا ولا علينا فنظرت إلى السحاب تصدع حول المدينة كأنه أكيل". (صحيح البخاري: 4/172-173).
- 221 جاء في المسألة عدة أحاديث منها ما أخرجه البخاري عن أنس (4/170-171)، وعن جابر (4/172)، وعن عبد الرحمن بن أبي بكر (4/172).

- وأیضا ما أخرجه مسلم عن جابر " أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم يستطعمه فأطعمه شطرا وسق شعير، فما زال الرجل يأكل منه وامرأته وضيئفهما حتى كاله ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: لو لم تكله لأكلتم منه ولقام لكم)، أنظر: - أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري: صحيح مسلم، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، د.ط، د.ت، ج7، ص 60. وفيه أيضا حديث آخر عن جابر (60-59/7) وآخر عن أبي حميد (61/7).
- 222 حديث الجذع أخرجه البخاري عن ابن عمر (173/4) وعن جابر (173/4) وفيه (كان يقوم إلى شجرة أو نخلة)، وعن جابر أيضا (174/4).
- 223 لعله يقصد الجذع أو ما أورده البخاري عن معن بن عبد الرحمن قال: سمعت أبي قال: سألت مسروقا من أذن النبي صلى الله عليه وسلم بالجن ليلة استمعوا القرآن، قال: حدثني أبوك - يعني عبد الله - أنه أذنت بهم شجرة ". أنظر: صحيح البخاري (240/4).
- 224 لعله يشير إلى ما أخرجه مسلم عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث، إلي لأعرفه الآن ". (صحيح مسلم: 58/7-59).
- 225 ذكره النورسي في (الكلمات: ص 689)، والأحاديث المثبتة لهذه المعجزة ثابتة عند الشيخين. - فعند البخاري: عن عمران بن الحصين (168/4-169)، وفيه تكثير الماء وعن أنس أربعة أحاديث (169-170/4)، وعن البراء (170/4). - وعند مسلم: عن أنس أربعة أحاديث (59/7).
- 226 الحديث عند البخاري (32/7)، وعند مسلم (14/7-15)، وليس فيهما تكليم الذراع. قال الشيخ الألباني - رحمه الله - في تعليقه على الحديث: حديث صحيح رواه هكذا ابن هشام (240/2-241)، وعن ابن إسحاق بدون سند... ومثله عند أحمد (رقم 2785)، من حديث ابن عباس وسنده حسن، كما قال ابن كثير (109/4) وعزاه الحافظ (101/10) لابن سعد بسند صحيح، ومثله عند أبي داود (46/1) والدارمي (33/1) عن جابر وهو منقطع لكن يقويه مرسل أبي سلمى عندهما، وفي حديثهما إخبار الذراع بإياه بأنها مسمومة، وفي الثاني منهما موت بشر مسموما، وقد وصله الحاكم وصححه عن أبي هريرة وسنده حسن وفيه أنه صلى الله عليه وسلم قتلها -أي قتل اليهودية التي وضعت السم- [أنظر: الغزالي: فقه السيرة، ص 376-377 (بالهامش)].
- 227 لعله يشير إلى ما أخرجه البخاري عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- أن النبي صلى الله عليه وسلم سعد أحدا وأبو بكر وعمر وعثمان فرجف رجفة بهم فقال: اثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان). (صحيح البخاري: 197/4).
- 228 (أنظر: سورة النجم: الآية 7- الآية 17)، وأيضا: البخاري (168/4، 248-250)، مسلم (99/1-100، 109)، وغير هذا من المواضع.
- 229 الكلمات: ص 263.
- 230 المصدر نفسه: ص 689، ولا يخفى ما في هذا الكلام من مبالغة إذ لا تبلغ المعجزات الثابتة بالأحاديث الصحيحة العدد الذي أشار إليه الأستاذ.
- 231 وهذا ما جعلنا نعتبر قوله بأن معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم بلغت الألف، من قبيل المبالغة.
- 232 للمعات: ص 125.
- 233 يظهر لنا من هذه المقدمة اعتماد النورسي على التحليل العقلي للمسألة واستتاده إلى المعارف العلمية التي حصلها في الفلك والتاريخ.
- 234 كذا في الأصل والصواب: نقلتها.

- 235 نلاحظ هنا استعمال النورسي للتعميم كي يشمل كلامه جميع المعجزات، ثم يخصص ما هو بصدده مناقشته (إنشاق القمر)، كما نلاحظ اعتماده على الأدلة العقلية والتجارب الحسية، وحتى الدليل النقلي (الآية)، لما استعمله حله في إطار الظروف التاريخية أي في النهاية حوله إلى دليل عقلي.
- 236 وهنا يرجعنا النورسي إلى ما سبق وأن قرره بأن المعجزة تكون في حدود الإمكان العقلي.
- 237 نلاحظ أن النورسي بدأ الجملة بتعبير مجازي لكنه عاد إلى لاستعمال الكلمات للدلالة على حقيقة الزمن واختلاف البلدان من حيث التوقيت.
- 238 وهذا يصدق أيضا على بقية المعجزات.
- 239 أنظر تفصيل مسألة حرية الإنسان في فصل (القدر وسلوك الإنسان)، من بحث (النورسي ومنهجه في عرض العقيدة).
- 240 وفي هذا إشارة ضمنية إلى مسلك أولئك الذين يحاولون تقريب مفهوم المعجزات بإرجاعها إلى الأشياء العادية التي تحدث في الكون بدعوى (عقله) المعجزة! .
- 241 راجع فصل (عرض النورسي للإلهيات)، عنصر: الاستدلال بالقرآن، من بحثنا (النورسي ومنهجه في عرض العقيدة).
- 242 راجع فصل (النورسي والمنهج الفلسفي)، عنصر: الموازنة بين الفلسفة والقرآن، من بحثنا (النورسي ومنهجه في عرض العقيدة).
- 243 للمعات: ص 536.
- 244 المصدر نفسه: ص 537.
- 245 للمعات: ص 537.
- 246 المصدر نفسه: ص 553.
- 247 الكلمات: ص 259-260.
- 248 المصدر نفسه: ص 261.
- 249 للمعات: ص 567.
- 250 الكلمات: ص 261.
- 251 المصدر نفسه: ص 256-257.
- 252 وقد بين (الدكتور طه عبد الرحمن) أن اللغة الصوفية، عند التأمل، نجدها أبعد ما يكون عن (الغموض) الذي قد يصفها به خصومها، بل هي على العكس من ذلك، أوفى بحاجة مستعملها في إيصال خطابه، أنظر هذه الملاحظات في: - د/ طه عبد الرحمن: العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي، ط2، 1997، ص 162-165.
- 253 الكلمات: ص 257.
- 254 المصدر نفسه: ص 257.
- 255 المصدر نفسه: ص 257.
- 256 المصدر السابق: ص 258، وهو هنا يلتقي مع (ابن خلدون) الذي يرى (أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة)، وذلك لما فيهم من أخلاق (التوحش) التي تجعلهم أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة... [أنظر: المقدمة، ص 166-167].
- 257 الكلمات: ص 258.
- 258 المصدر نفسه: ص 258.

259 والدراسة تحت عنوان (النُورُسي ومنهجه في عرض العقيدة) وهو بحث تقدم به الباحث لنيل شهادة الماجستير من كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية (الجزائر).

www.alkottob.com

مفهوم المعرفة من خلال رسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسي

أ. مصطفى فوزيل^Ψ

مقدمة

إن البحث في مفهوم المعرفة بحث في عمق الإنسان، واقعا وتاريخا. إذ هذا المفهوم هو الذي تأسست عليه إنسانية الإنسان منذ وجد، وظل ملازما له وسيظل، ولذلك حظي بالعبارة سواء على مستوى الوحي النازل أو على مستوى الدراسات والتأملات البشرية المختلفة.

فالباحث فيه إذن بحث في جوهر الإنسان! وبطبيعة الحال فإن مفهوما بهذه القيمة والقوة يشد إليه منظومة من المفاهيم والقضايا، ويرتبط بها تأثرا وتأثيرا. إن شعور الباحث هذا تجاه مفهوم المعرفة قد تبلور من خلال الاطلاع على النصوص المعالجة له مما هو مبثوث في رسائل النور للإمام المجدد بديع الزمان سعيد النورسي نور الله ضريحه.

والحق أن ما اجتمع لدى الباحث من نصوص المفهوم المستخلصة المستخرجة، قد جعله على تمام اليقين أن الأمر أكبر مما كان يتصور، وأن البحث في هذا المفهوم - كمي يستوي على سواقه - يستلزم مساحة أوسع وزمانا أطول، وذلك للأسباب الآتية:
أن الإمام النورسي بنى منهجه في رسائل النور على حقائق القرآن الكريم، واعتبر مرارا أن بحثه في المفاهيم مستخلص من مشكاة الوحي باعتباره علما مستقلا بذاته، ومنهجها شامخ الأركان قائما بنفسه، ولا شك أن هذا الأمر الجليل يستدعي مزيدا من التدقيق والاحتياط.

^Ψ ولد سنة 1962 في مدينة فاس - المغرب. أنهى شهادة الماجستير سنة 1992. له مقالات تفوق العشرين حول القرآن الكريم. حاليا أستاذ في معهد الدراسات المصطلحية جامعة سيدي محمد بن عبد الله كلية الآداب - ظهر المهرز - فاس - المغرب.

أنه - في كثير من الأحيان - يكتفي بالإشارة عن العبارة، فيتطلب كلامه كثيرا من التأمل. وكما قال الدكتور محسن عبد الحميد: "فإن أسلوب رسائل النور نراه لنا رقيقا جدا، حتى تكاد تشعر أنه همسات قلب، أو أنفاس رقيقة، ونراه أحيانا أخرى أسلوبا علميا دقيقا ذا عبارات منطقية فطرية تستدعي تركيزا فكريا، وينقلب الأسلوب في حالة الدفاع أمام المحاكم إلى أسلوب قوي هادر كالأمواج المتلاطمة"¹.

- أن لغته الخاصة ومعجمه الاصطلاحي المتميز مما يستلزم الحذر من إسقاط عدد من المفاهيم على أفكاره وآراءه. ويلاحظ في أسلوب النورسي حرصه الشديد على التعبير - عن أفكاره ومفاهيمه - بألفاظ القرآن وعباراته، وهو - وإن كان يستعمل ألفاظا ومصطلحات نشأت بعد مرحلة التنزيل أي في أحضان العلوم الإسلامية - إلا أنه يحيطها بسياج من لغة القرآن الكريم، وقد ساعد هذا المنهج على تخفيف الحدة المصطلحية الزمنية المرتبطة ببعض المصطلحات التي ترجع في أصلها إلى مرجعية أخرى (غير إسلامية).

- أنه عرض مفهوم المعرفة ضمن شبكة من المعاني والمفاهيم والقضايا التي تخدم ذلك المفهوم وتتبادل معه التأثير والتأثير. كما أنه بحث في امتداده التاريخي وواقعه الآني وآفاقه المستقبلية، ودخل في مناقشات ساخنة مع المخالف الذي انحرف بدلالة المفهوم نتيجة لسوء الفهم، والمضاد الذي انحرف بها إلى جهة الضلال نتيجة لسوء القصد وفساد التفكير وضيق الأفق.

- أنه كان يرى قضية المعرفة من أهم القضايا المركزية في رؤيته التجديدية. وقد اتضح وتأكد عنده أن معالجتها هي المدخل الطبيعي لإعادة التوازن إلى شخصية الأمة ونفض الركام الذي غطى حقيقتها وشوهها وجعلها مثار سخرية لأعداء الدين. وفي هذا السياق كانت جهوده في إعادة تأسيس المفهوم وبيان أبعاده العظيمة. يقول: "إن الذي دفعني وشجعني إلى مبارزة أفكار العصور الخوالي، والتصدي للخيبات والأوهام التي تقوت واحتشدت منذ مئات السنين.. هو اعتقادي و يقيني بأن الحق سينمو نحو البذرة النابتة، وإن تسترت تحت التراب، وأن أهله سينتصرون وإن كانوا قلة وضعفاء يظلم الأحوال. واعتقادي أن حقيقة الإسلام هي التي ستسود قارات العالم وتستولي عليها.. نعم إن الإسلام هو الذي سيحتل عرش الحقائق والمعارف، فلا يكشفها ولا يفتحها إلا الإسلام.. الإمارات تبدو هكذا..

... نعم إن أعظم سبب سلب منا الراحة في الدنيا وحرمان الأجناب من سعادة الآخرة وحجب شمس الإسلام وكسفها هو سوء الفهم وتوهم مناقضة الإسلام ومخالفتها لحقائق

العلوم. فيا للعجب! كيف يكون العبد عدو سيده.. وكيف يعارض الابن والده!!
فالإسلام سيد العلوم ومرشدها ورئيس العلوم الحقة ووالدها. ولكن، يا للأسف.. هذا
الفهم الخاطيء.. الباطل قد أجرى حكمه إلى الوقت الحاضر فألقى بشبهاته في النفوس،
وأوصد أبواب المدنية والمعرفة².

وقد ظهر بعد كل هذا أنه - بحسب الفرصة المتاحة - يمكن نسج رؤية عامة عن
مفهوم المعرفة كما دار في رسائل النور، ونسق دلالاته بخيط منهجي جامع، فخلص
الباحث إلى المحاور الآتية:

تعريف المعرفة.

المعرفة الإيمانية.

أصل المعرفة.

خصائص المعرفة.

جامعية الإنسان (الذات العارفة)

المعرفة الإيمانية.

غايات المعرفة.

إمكان المعرفة.

أقسام المعرفة.

مصادر المعرفة وطرقها:

أولاً: الوحي،

الحاجة إلى النبوة،

دلائل صدق النبي صلى الله عليه وسلم،

القرآن الكريم: (تعريف القرآن، إعجاز القرآن، طريقة القرآن في المعرفة، بين القرآن

والعلوم الإسلامية، بين القرآن والفلسفة)

ثانياً: الكون: (بين القرآن والعلوم الكونية)

ثالثاً: العقل.

رابعاً: الإلهام.

خاتمة.

تعريف المعرفة :

"لا تخرج المعرفة عند النورسي عن واحدة من ثلاثة:
معرفة كونية تشمل علوم ما في السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى.
معرفة إنسانية تشمل الكينونة الإنسانية وكل ما يتعلق بالإنسان فردا ونوعا ظاهرا
وباطنا.

ومعرفة إلهية ترتبط بوجود الله تعالى وبربوبيته، وشؤونه في خلقه.
وكلها يفضي بعضها إلى بعض، والعلاقة بينها علاقة تلازم وتكامل.
وبعبارة أخرى فإن المعرفة الحقة لا تخرج عنده عن معرفة الله تعالى، وهي المعرفة
الإيمانية، وكل ما عداها داخل فيها قطعا، فمعرفة الإنسان، ومعرفة الكون، والحياة، كل
أولئك وسائل تقود إليها".³

المعرفة الإيمانية :

والمعرفة في اصطلاح النورسي ليست مجردة في الخيال ولا محلقة في الهواء بدون معنى.
بل تأخذ دلالة محددة من خلال إضافتها إلى الله تعالى، فتصبح ضمنية اصطلاحية، أي
مصطلحا قائما بنفسه له دلالاته الخاصة وعلاقاته في النسق الذي يحتويه. يقول: "اعلم
يقينا أن أسمى غاية للخلق، وأعظم نتيجة للفطرة الإنسانية.. هو الإيمان بالله، واعلم أن
أعلى مرتبة للإنسانية وأفضل مقام للبشرية.. هو معرفة الله التي في ذلك الإيمان.. واعلم
أن أزهى سعادة للإنس والجن وأحلى نعمة.. هو محبة الله النابعة من تلك المعرفة.. واعلم
أن أصفى سرور لروح الإنسان وأنقى بهجة لقلبه هو اللذة الروحية المترشحة من تلك
المحبة".⁴

في هذا النص يرسم النورسي موقع معرفة الله تعالى في بنية الحياة الإسلامية للإنسان.
والنص يقرر ضمنا أنه لا يتصور "الإنسان" في غياب أربعة أمور:

غاية تعطي لوجوده معنى.

موقع لائق في الكون.

سعادة وطمأنينة تلي حاجته الوجدانية.

متعة صافية تجيب الأشواق.

فهذه الأمور الأربعة مركوزة في فطرة الإنسان، وهي تستقي مضمونها الحقيقي من
ماء الوحي النازل من عند الله تعالى، وتأخذ قوتها من الحبل الموصول به جل وعلا.

وبالتأمل في النص نجد للمعرفة موقعا خاصا، بدلالة قصر الكلام في الفقرتين الثانية والثالثة عليها وعلى المحبة. وهذا يعني أنه لا يتصور إيمان بدون معرفة، كما لا تتصور معرفة إذا لم تتبع منها المحبة.

وقول الإمام التورسي "المعرفة التي في ذلك الإيمان" يقتضي الاندماج والامتزاج حتى إنه ليصعب رسم الحدود بينهما.

ومما يشهد لهذا أنه لما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم حارثة: كيف أصبحت يا حارثة؟ قال: أصبحت والله مؤمنا حقا، فقال عليه السلام: انظر ماذا تقول، فإن لكل حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ فقال عزفت نفسي عن الدنيا، وأسهرت ليلي، وأظمأت نھاري وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاوون فيها، وإلى أهل النار يتعاوون فيها، فقال عليه الصلاة والسلام: عرفت فالزم، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من سره أن ينظر إلى رجل نور الله الإيمان في قلبه فلينظر إلى هذا، ثم قال: يا رسول الله، ادع الله لي بالشهادة، فدعا له، فنودي بعد ذلك: يا خويلد الله أركبي، فكان أول فارس ركب، فاستشهد في سبيل الله⁵.

فوصف نفسه بالإيمان، لكن لما وصف إيمانه لرسول الله صلى الله عليه وسلم نعته بالمعرفة فقال عرفت ولم يقل له آمنت. كما أن الحديث واضح في التعبير عن المحبة التي نعت لحارثة من معرفته حتى قاده - تحت وطأة اللذة الروحية - إلى الاقتحام في لجة الموت طلبا للشهادة.

وشبيه بمصطلح المعرفة الإيمانية مصطلح المعارف الإلهية، يقول: "إن النظر إلى ما سواه تعالى لا بد أن يكون بالمعنى الحرفي وبحسابه تعالى، وإن النظر إلى الكائنات بالمعنى الاسمي أي بحساب الأسباب خطأ. ففي كل شيء وجهان: وجه إلى الحق، ووجه إلى الكون. فالتوجه إلى الكوني لا بد أن يكون حرفيا وعنوانا للمعنى الاسمي الذي هو جهة نسبتته إليه تعالى. فمثلا: لا بد أن يرى النعمة مرآة للإنعام، والوسائط والأسباب مرايا لتصرف القدرة.. وكذا إن النظر والنية يعبران ماهيات الأشياء، فيقلبان السيئات حسنات. كما يقلب الأكسير التراب ذهبا، كذلك تقلب النية الحركات العادية عبادات، والنظر يقلب علوم الأكوان معارف إلهية.. فإن نظر بحساب الأسباب والوسائط فجهاالات، وإن نظر بحساب الله فمعارف إلهية"⁶.

والمعرفة بهذا المعنى الشمولي الذي يتدنى من أصغر شيء وينتهي إلى أعظم موجود، تتميز بخصائص وصفات تمنح لها شخصيتها الإسلامية المستقلة.

أصل المعرفة :

"إن القرآن الكريم يتميز في أول قضية يعرضها فيتحدث عن الوجود والمعرفة ويجعلهما دائرتين حول مفهوم الخالقية والمخلوقية"⁷ ومن هنا يأتي التعليم والمعرفة إثر الخلق. يقول الإمام النورسي: "(وعلم آدم الأسماء كلها) [البقرة: 31] أي صورته بفطرة تضمنت مبادئ أنواع الكمالات، وخلقته باستعداد زرع فيه أنواع المعالي وجهزه بالحواس العشر، وبوجدان تتمثل فيه الموجودات، وأعدّه بهذه الثلاث لتعلم حقائق الأشياء بأنواعها ثم علمه الأسماء كلها"⁸.

خصائص المعرفة :

من هذه الخصائص:

- 1- توجهها إلى الله تعالى الذي له الكمال المطلق التام، وله الأسماء الحسنى. "إن لكل كمال وعلم وتقدم وفن حقيقة سامية تستند إلى اسم من أسماء الله الحسنى، وفي هذا الاستناد يجد كل منها كماله، ويصبح حقيقة فعلا، وإلا فهو ظل باهت ناقص مبتور مشوش."⁹
- 2- وهذه الأسماء تتضمن صفات معرفة بالخالق جل جلاله، وكما لها تعرف بالذات العلية فهي تعرف بتجلياتها في كل ما سواه من الموجودات، إذ هي داخلة ضمن أفعاله جل وعلا.
- 3- توجهها إلى الكمال الإنساني - بانسجامها مع خصائص الذات العارفة- وذلك بمراعاة حاجاتها التابعة لتكوينها البديع. فالإنسان "جبل على محبة غير متناهية لخالق الكون، وذلك لأن الفطرة البشرية تكن حبا للجمال وودا بالكمال وافتتانا بالإحسان وتزايد المحبة بحسب درجات الجمال والكمال والإحسان حتى تصل إلى أقصى درجات العشق ومنتهاه. نعم إن في القلب الصغير لهذا الإنسان يستقر عشق بكر الكون، إذ إن نقل محتويات ما في مكتبة كبيرة من كتب وخزنها في القوة الحافظة للقلب - وهي بحجم حبة عدس - يبين أن قلب الإنسان يمكنه أن يضم الكون ويستطيع أن يحمل حبا بقدر الكون. فما دامت الفطرة البشرية تملك استعدادا غير محدود للمحبة تجاه الإحسان والجمال والكمال.. وأن لخالق الكون جمالا مقدسا غير متناه، ثبوته متحقق بدهاءه بآثاره الظاهرة في الكائنات.. وأن له كمالا قدسيا لا حدود له، ثبوته متحقق بدهاءه بآثاره صنعتها الظاهرة في الموجودات.. وأن له إحسانا غير محدود ثابت الوجود يقيننا، يمكن لمسه ومشاهدته ضمن إنعامه وآلائه الظاهرة في جميع أنواع الأحياء.. فلا بد أنه سبحانه

يطلب محبة لا حد لها من الإنسان الذي هو أجمع ذوي الشعور صفة، وأكثرهم حاجة، وأعظمهم تفكراً، وأشدّهم شوقاً إليه¹⁰

وكما "أن الإنسان عالم صغير كذلك العالم إنسان كبير، فهذا الإنسان يمثّل خلاصة الإنسان الكبير وفهرسته، فالنماذج المصغرة في الإنسان لا بد أن أصولها الكبيرة المعظمة موجودة في الإنسان الأكبر بالضرورة. فمثلاً إن وجود القوة الحافظة في الإنسان دليل قطعي على وجود اللوح المحفوظ في العالم"¹¹

ويصطلح على هذا الاتساع في الإنسان بعبارة: "جامعية الإنسان" التي لأجلها يشعر (الحي القيوم) الإنسان بجميع أسمائه الحسنى ويعرّفه بجميع أنواع إحسانه، ويذوقه طعم آلائه، .. فجعله سبحانه مركزاً للكون ومحوراً له، بل سخر الكون له فمد أمامه سفرة عظيمة عظم الكون لتتلذذ أنواع معداته المادية والمعنوية"¹²

"إن "جامعية استعداد الإنسان" تخبرنا بأن البشر ثمرة شجرة الخلق، فيكون أكمل وأبعد، فوجهه الشفاف متوجه إلى الظلمة وفضاء العدم الذي هو باطن الدنيا. وما في جامعية الاستعداد من قابلية العبادة تخبرنا بأن الإنسان ما خلق هكذا ليكون منكوس الرأس يخلد إلى الفاني، بل قابلية العبادة لصرف وجهه الشفاف من الظلمة إلى النور، ومن فضاء العدم إلى الوجود، ومن المنتهى إلى المبتدأ، ومن الفاني إلى الباقي، ومن الخلق إلى الحق. كأن العبادة حلقة اتصال بين المنتهى والمبدأ في دائرة الخلق. فتشهد الفطرة بهذا اللسان على وجوب وجود من خلق الخلق ليعرف وخلق الجن والإنس ليعبد."¹³

ويدقق النورسي في تحليل المكونات المعنوية للإنسان، فيفصلها إلى ما أسماه اللطائف. وهو يرى "أن لطائف كثيرة مندرجة في ماهية الإنسان الجامعة وفي استعداده للحياة، إلا أن عشرًا منها قد اشتهرت حتى أن الحكماء والعلماء الظاهريين أيضاً قد جعلوا تلك اللطائف العشر أساساً لحكمتهم في صورة أخرى، حيث قالوا إن الحواس الخمس الظاهرة نوافذ أو نماذج لحواس خمس باطنة. حتى أن ما اشتهر لدى العوام والخواص من لطائف الإنسان العشر منسجمة مع اللطائف العشر لدى أرباب الطرق الصوفية. فمثلاً: الوجدان والأعصاب والحس والعقل والهوى والقوة الشهوية والقوة الغضبية، إذا ما ألحقت هذه اللطائف بالقلب والروح والسر تظهر اللطائف العشر في صورة أخرى. وهناك لطائف أخرى كثيرة غير هذه اللطائف أمثال السائقة والشائقة، الحس قبل الوقوع.."¹⁴

"وقد أودع البارئ سبحانه في ماهيتك أجهزة ولطائف معنوية دقيقة، إذا ابتلع بعضها الدنيا فلا يشبع، ويضيق بعضها ذرعا عن ذرة ولا يتحمل شعيرة - كالعين التي لا

تتحمل شعرة والرأس الذي يتحمل أثقالا هائلة، فتلك اللطيفة لا تتحمل ثقلا كالشعرة الدقيقة، أي لا تتحمل حالة هينة جدا نشأت من الضلالة ونجمت من الغفلة، بل قد تنطفئ جذوتها وتموت. فاحذر وخفف الوطاء وخف من الغرق فيغرق معك ألطف لطائفك التي تبتلع الدنيا في أكلة أو كلمة أو لمعة أو إشارة أو بقلة أو قبلة. فهناك أشياء صغيرة جدا تتمكن - في جهة - أن تستوعب ما هو ضخم جدا. فانظر إن شئت كيف تغرق السماء بنجومها في مرآة صغيرة، وكيف كتب الحق سبحانه في خردلة حافظتك أكثر ما في صحيفة أعمالك وأغلب ما في صحائف أعمارك. فسبحانه من قادر قيوم".¹⁵

ونستطيع أن نستخلص مفهوم الاكتمال في المعرفة والاطمئنان القلبي الناتج عنه من قوله: "إن الإيمان لا يحصل بالعلم وحده، إذ هناك لطائف كثيرة للإنسان لها حظها من الإيمان، فكما أن الأكل إذا ما دخل المعدة ينقسم ويتوزع إلى مختلف العروق حسب كل عضو من الأعضاء، كذلك المسائل الإيمانية الآتية عن طريق العلم إذا ما دخلت معدة العقل والفهم، فإن كل لطيفة من لطائف الجسم - كالروح والقلب والسر والنفوس وأمثاله - تأخذ منها وتمصها بحسب درجاتها. فإن فقدت لطيفة من اللطائف غذاءها المناسب، فالمعرفة إذن ناقصة مبتورة، وتظل تلك اللطيفة محرومة منها".¹⁶

فكمال المعرفة يكمن في مدى تلبيتها لحاجات الإنسان الإيمانية بحسب مكونات بنيته الداخلية، فيكون تعريف الكمال هنا بالمأل، أي بما تؤول إليه كل معلومة وكل جزئية معرفية في علاقتها بمواقعها التي تستقبلها وتقع فيها.

ونحن نقراً وراء سطور الإمام أنه ما دام الجانب الغائب في بنية الإنسان متسع الأرجاء فسيح الآفاق عميق الأغوار متداخل العلاقات فإنه لا يتصور منهج يستطيع ارتيادها جميعا إلا إذا كان ذا طبيعة خاصة وهي الإحاطة، وهذه الخصوصية مستحيلة في الإنسان. فإذا كانت الروح - وهي لطيفة واحدة من اللطائف التي ذكرها النورسي - كما قال تعالى: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا" [الإسراء: 85] فكيف بسائر اللطائف الأخرى! إن الإحاطة شرط ضروري في هذا المقام!! وإن الروح من أمر الله جل وعلا!! وإن القرآن من أمر الله جل وعلا أيضا!! "وكذلك أنزلنا إليك روحا من أمرنا". وقد شبه النورسي القرآن بالماء مرارا!! فلا شك أن الماء الدفاق النافع والروح المخترق الدافئ يتسرب إلى كل جزء من أجزاء الإنسان ليبله بالحياة. فنخلص إلى أن القرآن الكريم بطبيعته الربانية هو المؤهل الوحيد لتغذية اللطائف الإنسانية، فهو غذاء مكتمل بتناوله تأخذ كل لطيفة حظها منه.

ومن وجوه الكمال هنا أن مميز الإنسان عن الحيوان: "شمول علاقته بالماضي والمستقبل، وكلية إدراكه بالأنفس والآفاق.. وكشفه لترتب العلل الظاهرية في إنشائه

الأشياء الظاهرية. فأعظم وظيفته وأقدمها، وأتم جهازاته وألزمها التسبيح والتحميد بالجهاز المخلوق لهما... وبسر مشاهدته لتسبيحات المخلوقات وشهادته عليها يثني على صانع الأشياء بقراءة أسمائه المكتوبة بالترتيب والترتب في حكمة صنع الأشياء".¹⁷

4- النزوع إلى الأبد. "ألا ترى أن فيك لطيفة لا ترضى إلا بالأبد والأبدي، ولا تتوجه إلا إلى ذلك الخالد، ولا تنزل لما سواه؟ حتى إذا أعطيت لها الدنيا كلها فلا تطمان تلك الحاجة الفطرية.. تلك هي سلطان لطائفك ومشاعرك.. فأطع سلطان لطائفك المطيع لأمر فاطره الحكيم جل جلاله، وانج بنفسك".¹⁸

إن الإنسان "هو أعظم معجزات القدرة الصمدانية، بل هو أعجوبة الخلق لما انطوى فيه العالم الأكبر ولما تشهد جميع أجهزته بأنه مخلوق للسير قدما نحو الأبدية والخلود"¹⁹

"أجل إن الإنسان مخلوق للأبد وإنما تحصل له اللذة الحقيقية في الأمور الأبدية كالمعرفة الإلهية والمحبة والكمال والعلم وأمثالها"²⁰.

المعرفة تكليف وتشريف :

وهكذا تأخذ المعرفة أبعادا ضخمة جدا، وقيمة عظيمة في حياة الإنسان وتصبح - بمنظار الحكمة - في حقه تكليفا - ومنظار الرحمة - في صالحه تشريفا! "نعم إن هذا الإنسان... الذي أنيط به - من بين جميع المخلوقات - مهام عظيمة وزود باستعدادات فطرية كاملة، إن لم يعرف ربه بالإيمان بعد أن عرف سبحانه نفسه إليه بمخلوقاته البديعة المنتظمة.. وإن لم ينل محبته بالتقرب إليه بالعبادة بعد أن تحبب إليه سبحانه بنفسه وعرفها إليه بما خلق له من الثمار المتنوعة الجميلة الدالة على رحمته الواسعة.. وإن لم يقم بالتوقير والإجلال اللائقين به بالشكر والحمد بعد أن أظهر سبحانه محبته له ورحمته عليه بنعمه الكثيرة.. نعم، إن لم يعرف هذا الإنسان ربه هكذا فكيف يترك سدى دون جزاء ودون أن يعد له ذو العزة والجلال دارا للعقاب؟ وهل من الممكن أن لا يمنح ذلك الرب الرحيم دار ثواب وسعادة أبدية لأولئك المؤمنين الذين قابلوا تعريف ذاته سبحانه لهم بمعرفتهم إياه بالإيمان ومحبته لهم بالحب والتحبب له بالعبادة ورحمته لهم بالإجلال والتوقير له بالشكر"²¹.

غايات المعرفة :

يجرص الإمام الثورسي على تجلية المعرفة بمعناها الإيماني الذي يورده القرآن الكريم ويخاطب به الإنسان باعتباره مخلوقا مكرما متميزا باستعدادات هائلة للتلقي والاستيعاب، ومن هنا تتحدد غاية المعرفة العميقة والنهائية في تحقيق العبودية لله تعالى. هذه الغاية هي

التي تعطي للإنسان معنى في الوجود، ممتدا في الماضي البعيد مع قصة آدم، ومتوصلا مع المستقبل بيقينه القوي في الآخرة. يقول متأملا في قوله تعالى: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" (الذاريات:56): "يفهم من أسرار هذه الآية الجليلة أن حكمة مجيء الإنسان إلى هذه الدنيا والغاية منه هي: معرفة خالق الكون سبحانه، والإيمان به، والقيام بعبادته. كما أن وظيفة فطرته وفريضة ذمته هي معرفة الله والإيمان به، والتصديق بوجوده وبوحدانيته إذعانا ويقينا. نعم، هذا الإنسان الضعيف الذي ينشد فطرة الحياة الدائمة الخالدة، والعيش الأبدى الرغيد، والذي له آمال بلا حدود وآلام بلا نهاية، لا بد أن تكون جميع الأشياء والكمالات هابطة بالنسبة إليه، بل ليس لأكثرها أية قيمة تذكر، ما عدا الإيمان بالله ومعرفته، وما عدا الوسائل التي تأخذ بيده إلى ذلك الإيمان الذي هو أس الأساس لتلك الحياة الأبدية ومفتاحها"²².

والعبادة بهذه الدلالة الشمولية تتحقق بمختلف أنشطة الإنسان وحركاته وسكناته، وهذا الحد لا يترك مجالاً لتسرب شبهة إهمال العلوم وأمور المعاش ومصالح العالم، إذ كل ذلك يأخذ موقعه النافع في نسق العبادة. ومن هنا تصحيح النورسي لكثير من الأوهام.

إمكان المعرفة :

لقد سبق أن رأينا كيف ينظر الأستاذ النورسي إلى الإنسان من خلال نور القرآن الكريم، حيث بين أن هذا المخلوق المكرم المزود بطاقات هائلة ولطائف كثيرة أخصها العقل والقلب، ورأينا كيف صارت المعرفة بالنسبة للإنسان مكلفا بما لا مجرد ممكنة فقط ومن هنا يشن هجومه على من أنكروا المعارف: "إن هؤلاء الفلاسفة الذين لم يتسن لهم النظر إلى الموجودات بنور القرآن المبين، عندما نظروا إليها بمنظار "الطبيعة" و"الأسباب" توصلوا إلى أن وجود هذه الموجودات، وافترض تشكلها بعوامل "الطبيعة" و"الأسباب" مسألة تطرح مشكلات عويصة بدرجة الامتناع - على غرار ما ذكرناه في بيان الاحتمالات ومحالاتها - فانقسم هؤلاء الفلاسفة إزاء هذه العقبة الكأداء إلى قسمين:

قسم منهم صاروا سوفسطيين وعافوا العقل الذي هو خاصة الإنسان وسقطوا إلى درك أدنى من الحيوانات، إذ وصل بهم أمر فكرهم إلى إنكار الوجود عموما، بل حتى إنكار وجودهم، وذلك عندما رأوا أن هذا الإنكار أجدى على العقل وأيسر عليه وأسلم من تصور "الطبيعة" و"الأسباب" مالكة لزمام الإيجاد، فأنكروا وجود أنفسهم ووجود الموجودات جميعا، فسقطوا في هاوية الجهل المطلق.

أما القسم الثاني : فقد نظروا إلى الموجودات أنها لو سلم إيجادها إلى "الأسباب" و"الطبيعة" كما هو شأن أهل الضلالة فإن إيجاد شيء صغير جدا كالبعوضة والبذرة فيه من المشكلات ما لا يجد، ويقتضي قدرة عظيمة لا يبلغ مداها العقل، فوجدوا أنفسهم مضطرين إلى إنكار "الإيجاد" نفسه ، فقالوا : "لا يحدث شيء من العدم" ورأوا أن إعدام الشيء محال أيضا فقرروا أنه "لا يفنى الموجود". وتخللوا جملة من الأوضاع الاعتبارية سارية ما بين تحليل وتركيب وتفريق وتجميع، ناتجة عن حركات الذرات، وسيل المصادفات!

فتأمل في هؤلاء الذين يظنون أنفسهم في ذروة العقل، قد سقطوا في حضيض من حماقة والجهل، واعلم من هذا كيف تضع الضلالة هذا الإنسان المكرم - حين يلغي إيمانه - موضع سخرية وازدراء من كل أحد...
ويدرونا نسأل هؤلاء:

ترى كيف يمكن استبعاد إيجاد شيء ما من القدرة المطلقة التي توجد على سطح الأرض في كل سنة أربعمائة ألف من الأحياء؟ والتي خلقت السماوات والأرض في ستة أيام؟ والتي تنشئ في كل ربيع تحت بصر الإنسان وسمعه، على سطح الأرض كونا حيا من النبات والحيوان هو أظهر إتقاننا وأجلى حكمة من الكون كله ، في ستة أسابيع؟ كيف يستبعد منها أن تخلق الموجودات العلمية - التي تعينت خططها ومقاديرها ضمن دائرة العلم الأزلي - فتخلقها بسهولة مطلقة سهولة إظهار الكتابة غير المنظورة بإمرار مادة كيميائية عليها. فاستبعاد إضفاء الوجود الخارجي على الموجودات العلمية - والتي هي معدومات خارجيا - من تلك القدرة الأزلية ، ثم إنكار الإيجاد نفسه لهو حماقة وجهالة أشد من حماقة السوفسطائيين المعروفين وجهالتهم"²³.

"إن مما ورط الظاهرين، بل السبب الأول الذي دفعهم إلى القلق والتردد، هو: التباس الإمكانيات بالوقوعات، والخلط بينهما. فيقولون مثلا: إذا كان الشيء هكذا، فهو ممكن في القدرة الإلهية، وهو أدل على عظمته تعالى في عقولنا، فهو إذا واقع!... هيهات! أيها المسكين! أين عقولكم من أن تكون مهندسة الكون؟ فانتهم عاجزون عن أن تحيطوا بالحسن الكلي بعقلكم الجزئي هذا! لو كان أنف بطول ذراع من ذهب ربما يستحسنه من حصر فيه النظر!!

ثم إن الذي حيرهم، هو توهمهم منفاة الإمكان الذاتي لليقين العلمي، فيتقربون إلى مذهب "اللاأدرية" بترددهم وتشككهم في العلوم العادية اليقينية. بل لا يجلسون، إذ يلزم مسكلهم هذا أن يتشكك الإنسان في أمور بديهية كوجود بحيرة "وان" وجبل

“سبحان” لأن هذا ممكن في مسكلهم، أي أن تنقلب بحيرة “وان” إلى دبس، وينقلب جبل “سبحان” إلى عسل مغطى بالسكر!! أو انهما يذهبان إلى بحر العدم – كقسم من أصدقائنا الذين لم يرضوا بكروية الأرض فسافروا فزلت أقدامهم – بمعنى: يلزم عدم التصديق بالحال السابقة للبحيرة والجبل!!.

أيها المحرمون من المنطق! أين أنتم؟ تأملوا! فقد تقرر في علم المنطق: أن الوهميات التي في المحسوسات، من البديهيات فإن أنكرتم هذه البداهة، فليس لي إلا أن أقدم لكم التعازي بدل النصائح، بموت العلوم العادية بينما السفسطة قد بعثت لديكم.

البلاء الرابع: الذي شوش أهل الظاهر هو: التباس الإمكان الوهمي بالإمكان العقلي. علما أن الإمكان الوهمي متولد من عرق التقليد، لا من أساس. وهو الذي يولد السفسطة، وحيث لا دليل له، يفتح في البديهيات طريقا إلى الشك والاحتمال والظن، هذا الإمكان الوهمي غالبا ما ينتج من عدم المحاكمة العقلية، ومن ضعف عصبي قلبي، ومن مرض عصبي عقلي، ومن عدم تصور الموضوع والحمول. بينما الإمكان العقلي هو تردد في أمر لا يظفر بدليل قطعي على وجوده وعدمه ما لم يكن واجبا ولا ممتنعا. فإن كان الإمكان ناشئا عن دليل فهو مقبول وإلا فلا اعتبار له.

ومن أحكام الإمكان الوهمي هذا: أن قسما من المتشككين يقولون ربما لا يكون الأمر على ما أظهره البرهان، لأن العقل لا يستطيع أن يدرك كل شيء. وعقلنا يعطي لنا هذا الاحتمال. نعم... لا... بل الذي يعطيكم هذا الاحتمال هو شككم ووهمكم. لأن العقل من شأنه المضي على برهان.

صحيح أن العقل لا يتمكن أن يدرك ويوازن كل شيء، ولكن مثل هذه الماديات ولا سيما ما لا يفلت من البصر مهما كان صغيرا فإنه يزنه ويدركه. ولو لم تتمكن من دركه نكون في تلك المسألة غير مكلفين، كالأطفال..²⁴.

وإزاء هذا الإفراط في التردد والتشكك يقف الإمام النورسي عند مسألة الوسواس التي تعرض للمؤمن، ويضعها في سياق الموضوعي الطبيعي، فيبين أنها لا تضر ما دام الأساس مبنيا على اليقين، وإدراك المشكل بهذا المستوى يخفف عن المؤمن ما يجده من المعاناة في هذا المجال.

“إن أخطر دسائس الشيطان هو أنه يلبس على بعض ذوي القلوب الصافية والحس المرهف: تخيل الكفر بتصديق الكفر، ويظهر لهم تصور الضلالة تصديقا للضلالة نفسها، ويجلب إلى خيالهم خواطر قبيحة في حق الأشخاص والأمور المنزهة المقدسة، ويوهمهم بالشك في بعض يقينيات الإيمان يجعل الإمكان الذاتي في صورة الإمكان العقلي. وعندئذ

يظن هذا المسكين المهرف الحس أنه قد هوى في الكفر والضلالة، ويتوهم أنه قد زال يقينه الإيماني، فيقع في اليأس والقنوط. ويكون بيأسه هذا أضحوكة للشيطان الذي ينفث في يأسه القاتل، ويضرب دوماً على وتره الحساس، وينفخ في التباساته ويشيرها، فأما أن يخل بأعصابه وعقله، أو يدفعه إلى هاوية الضلالة.

وقد بحثنا في بعض الرسائل مدى تفاهة هذه الهمزات والوساوس، وكيف أنها لا سند لها ولا أساس، أما هنا فنسجملها بما يأتي:

كما أن صورة الحية في المرآة لا تلدغ، وانعكاس النار فيها لا يحرق، وظل النجس فيها لا ينجس، كذلك ما ينعكس على مرآة الخيال أو الفكر من صور الكفر والشرك، وظلال الضلالة، وخيالات الكلمات النابية والشتم، لا تفسد العقيدة... واليقين ولا تغيير الإيمان، ولا تثلم أدب التوقير والاحترام. ذلك لأنه من القواعد المقررة: "تخيّل الشتم ليس شتماً، وتخيّل الكفر ليس كفراً، وتصور الضلالة ليس ضلالة".

أما مسألة الشك في الإيمان، فإن الاحتمالات الناشئة من "الإمكان الذاتي" لا ينافي اليقين ولا يخل به. إذ من الواعد المقررة في علم أصول الدين: "أن الإمكان الذاتي لا ينتفي اليقين العلمي".

فمثلاً: نحن على يقين من أن بحيرة "بارلا" مملوءة بالماء ومستقرة في مكانها، إلا أن يمكن أن تخسف في هذه اللحظة. فهذا إمكان ذاتي واحتمال، وهو من الممكنات. ولكن لأنه لم ينشأ من أمانة، أو دليل، فلا يكون "إمكاناً ذهنياً" حتى يوجب الشك. لأن القاعدة المقررة في علم أصول الدين أنه: "لا عبرة للاحتمال غير الناشئ عن دليل". بمعنى: لا يكون الاحتمال الذاتي الذي لم ينشأ عن أمانة أمكاناً ذهنياً، فلا أهمية له كي يوجب الشك. فبمثل هذه الإمكانيات والاحتمالات الذاتية يظن المسكين المبتلى أنه قد فقد يقينه بالحقائق الإيمانية. فيخطر بباله مثلاً خواطر كثيرة من الإمكان الذاتي من جهة بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا شك أنها لا تخل بيقينه وجزئه الإيماني، لكن ظنه أن هذا يضر هو الذي يسبب له الضرر.

وأحياناً أخرى تلقي لمة الشيطان - التي هي على القلب - كلاماً لا يليق بجلال الله سبحانه وتعالى. فيظن صاحبه أن قلبه هو الذي فسد فصدر عنه هذا الكلام، فيضطرب ويتألم. والحال أن اضطرابه وخوفه وعدم رضاه دليل على أن تلك الكلمات لم تكن صادرة من قلبه، وإنما هي من اللمة الشيطانية، أو أن الشيطان يخيلها إليه ويذكره بها. وكذلك فإن من بين اللطائف الإنسانية - وهي بضع لطائف لم استطع تشخيصها - ما لا ترسخ للإدارة والاختيار، ولا تدخل تحت وطأة المسؤولية - فتتحكم أحياناً وتسيطر دون أن تنصت لنداء الحق، وتلج في أمور خاطئة، وعندئذ يلقي الشيطان في

روح هذا الإنسان المبتلى: أن فطرتك فاسدة لا تنسجم مع الإيمان والحق، ألا ترى أنها تلج بلا إرادة في مثل هذه الأمور الباطلة؟ إذن فقد حكم عليك قدرك بالتعاسة وقضى عليك بالشقاء!! فيهلك ذلك المسكين في هذا اليأس المدمر. وهكذا فإن حصن المؤمن الحصين من الدسائس الشيطانية المتقدمة هي المحكمات القرآنية والحقائق الإيمانية المرسومة حدودها بدساتير العلماء المحققين والأصفياء الصالحين. أما الدسائس الأخيرة فإنها ترد بالاستعاذة بالله سبحانه وتعالى وبإهمالها، لأن من طبيعة الوسوس أنها تكبر وتتضخم كلما زاد الاهتمام بها. فالسنة المحمدية للمؤمن هي البلسم الشافي لمثل هذه الجرحات الروحية".²⁵

أقسام المعرفة :

يقسم النورسي العلوم من جهة تأثيرها بتلاحق الأفكار وتراكم المعلومات إلى قسمين:
1- قسم من العلوم هو كرفع الصخر، بحاجة إلى التعاون وتلاحق الأفكار. وأغلب هذا القسم هو من العلوم المادية.
2- وقسم تكمله دفعي أو شبيه الدفعي وأغلب هذا القسم هو من المعنويات ومن العلوم الإلهية. ولكن على الرغم من أن تلاحق الأفكار لا يغير ماهية هذا القسم الثاني ولا يكمله ولا يزيده إلا أنه يفيض وضوحاً وظهوراً وقوة في مسالك براهينه"²⁶.
ويقسمه من جهة أخرى إلى نظري وضروري وكسي. ويشير في هذا المقام إشارة لطيفة إلى أهمية النظر في التصور الإسلامي، وأنه مقصود في التكليف. يقول: "إن إظهار الخوارق ما هو إلا تصديق النبوة، والتصديق يحصل على أكمل وجه بمعجزاته الظاهرة، فإذا زادت عن الحاجة، فإما أن تكون عبثاً.. أو منافية لسر التكليف -الذي هو امتحان في الأمور النظرية دون البديهيات أو ما يقرب منها حيث يتساوى الأدنى مع الأعلى- أو تكون مخالفة للتسليم والانقياد لجريان الحكمة"²⁷.

مصادر المعرفة وطرقها :

أولاً: الوحي :

"إن حقيقة الوحي الإلهي مهيمنة كل حين - بظواهر في غاية الوضوح - على أرجاء عالم الغيب كافة. فتأتي الشهادة لوجوده وتوحيده سبحانه من لدن علام الغيوب. وهي شهادة الوحي والإلهام وهي أقوى بكثير من شهادة الكائنات والمخلوقات؛ إذ لا يدع سبحانه تعريف ذاته ولا دلائل وجوده ووحدانيته محصوراً في شهادة مخلوقاته وحدها، بل يتكلم كلاماً أزلياً يليق بذاته، فلا حد ولا نهاية لكلام من هو حاضر وناظر بقدرته وعلمه في كل مكان. ومثلما يعرفه معنى كلامه فإن تكلمه أيضاً يعرفه بصفته.

نعم إن تواتر مائة ألف من الأنبياء عليهم السلام واتفاقهم في جميع إخباراتهم الصادرة من الوحي الإلهي، ودلائل ومعجزات الكتب المقدسة والصحف السماوية التي هي الوحي المشهود وثماره، والتي صدقتها الأكثرية المطلقة للبشرية واقتدت بها واهتدت بهديها.. يدل بدهاءة على أن الوحي حقيقة ثابتة لا مرء فيها"²⁸.

الحاجة إلى النبوة:

"نعم! ما دام الكون قد خلق لأجل الحياة، وأن الحياة هي أعظم تجل وأكمل نقش وأجمل صنعة للحي القيوم جل جلاله، وما دامت حياته السرمدية الخالدة تظهر وتكشف عن نفسها بإرسال الرسل وإنزال الكتب. إذ لو لم تكن هناك رسل ولا كتب لما عرفت تلك الحياة الأزلية، فكما أن تكلم الفرد يبين حيويته وحياته كذلك الأنبياء والرسل عليهم السلام والكتب المنزلة عليهم، يبينون ويدلون على ذلك المتكلم الحي الذي يأمر وينهى بكلماته وخطاباته من وراء الغيب المحجوب وراء ستار الكون. فلا بد أن الحياة التي في الكون تدل دلالة قاطعة على الحي الأزلي سبحانه وتعالى وعلى وجوده، كما أن شعاعات الحياة الأزلية كذلك وتجلياتها تنظر وتتوجه إلى ما لها ارتباطات وعلاقات معها من أركان الإيمان مثل (إرسال الرسل) و(إنزال الكتب) وتشبهما رمزاً، ولا سيما (الرسالة المحمدية) و(الوحي القرآني) إذ يصح القول: إنهما ثابتان قاطعان كقطعية ثبوت الحياة حيث إنهما بمثابة الروح والعقل والحياة."²⁹

إن إدراك الإنسان وكشفه عن الترتيب في الأشياء الناشئ من العلل المترتبة المتسلسلة في الحلقة.. وقابليته العلمية والتركيبية ومعرفته الحاصلة من تحليله مركبات بذور كمالات الإنسانية إلى بسيطات وإرجاعها إلى أصلها.. وقدرته على محاكاة الطبيعة ومساوقة نواميس الله الجارية في الكون بصنعتة ومهارته، بالسر الكامن في القاعدة: (بداية الفكر نهاية العمل، نهاية الفكر بداية العمل). فالإنسان الذي هذه قابلياته يدرك قصور نظره في صنعتة، وزحمة الأوهام عليه، وافتقاره في جبلته الإنسانية.. مما يدل على حاجته الماسة إلى نبي مرشد يحافظ على موازنة النظام المتقن في العالم"³⁰.

دلائل صدق النبي صلى الله عليه وسلم:

يشير النورسي إلى أن هذه الدلائل لا تحصى، ولكنه خلص إلى تسع منها:

- 1- اتصافه صلى الله عليه وسلم بجميع السجايا الفاضلة حتى شهد لها غرماؤه.. وظهور مئات المعجزات منه.. ومن كان كذلك فلا جرم أنه صاحب أصدق حديث..

- 2- كون القرآن الذي بين يديه صلى الله عليه وسلم معجزا... والأمين على كلام الله، والمترجم الفعلي له، والمبلغ لهذا النبأ العظيم إلى الناس كافة، وهو الحق بعينه، لا يمكن أن يصدر منه كذب قط، ولن يكون موضع شبهة أبدا.
- 3- أنه صلى الله عليه وسلم قد بعث بشريعة مطهرة، ودين فطري، وعبودية خالصة، وبدعاء خاشع، وبدعوة شاملة، وبإيمان راسخ، لا مثيل لما بعث به ولن يكون، وما وجد أكمل منه ولن يوجد.
- 4- إجماع الأنبياء عليهم السلام واتفقهم على الحقائق الإيمانية نفسها هو دليل قاطع على وجود الله سبحانه وعلى وحدانيته، وهو شهادة صادقة أيضا على صدق هذا النبي صلى الله عليه وسلم وعلى رسالته.
- 5- أن وصول آلاف الأولياء إلى الحق والحقيقة وما نالوا من الكمالات والكرامات.. ليس إلا بالافتداء بمهدي دساتير هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وبترتيبه واتباعه.
- 6- أن ملايين العلماء المدققين الأصفياء.. ودهاة الحكماء المؤمنين، بفضل ما درسوا وتعلموا على ما جاء به هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم - مع كونه أميا - من الحقائق القدسية، وما نبع منها من العلوم العالية، وما كشفت عنه من المعرفة الإلهية.. إن هؤلاء جميعا مثلما يثبتون الوحدانية التي هي الأساس لدعوته صلى الله عليه وسلم ويصدقونها متفقين - ببراهينهم القاطعة - فإنهم يتفقون كذلك ويشهدون على صدق هذا المعلم الأكبر وصواب هذا الأستاذ الأعظم وعلى أحقية كلامه صلى الله عليه وسلم.
- 7- أن الجمع العظيم الذين يطلق عليهم (الآل والأصحاب) هم أشهر بني البشر بعد الأنبياء فرائد وأكثرهم دراية وأسماهم كمالات وأفضلهم منزلة وأعلاهم صيتا وأشداهم اعتصاما بالدين واحدهم نظرا"
- 8- أن هذا الكون يدل على صانعه وكاتبه.. الذي يتصرف فيه بالتصوير والتقدير والتدبير.. فهو كذلك يستدعي لا محالة وجود من يعبر عما في هذا الكتاب الكبير من معان ويعلم ويعلم المقاصد الإلهية من وراء خلق الكون، ويعلم الحكم الربانية في تحولاته وتبدلاته، ويدرس نتائج حركاته الوظيفية، ويعلن قيمة ماهيته وكمالات ما فيه من الموجودات.
- 9- ما دام هناك وراء الحجاب من يشهر كمال بديعته وإتقانه، بمصنوعاته هذه ذات الإتقان والحكمة.. ويعرف نفسه ويوددها، بمخلوقاته غير المحدودة ذات الزينة والجمال.. ويوجب الشكر والحمد له بنعمه التي لا تحصى ذات اللذة والنفاسة.. ويشوق الخلق إلى

العبادة نحو ربوبيته بعبودية تتسم بالحب والامتنان والشكر إزاء هذه التريفة والإعاشة العامة، ذات الشفقة والحماية... ويدين الخلق إلى الإيمان والتسليم والانقياد والطاعة نحو ألوهيته التي يظهرها بتبديل المواسم، وتكوير الليل على النهار واختلافهما وأمثالها من التصرفات العظيمة والإجراءات الجليلة والفعالية المدهشة والخلاقية الحكيمة.. ويظهر عدالته وحقانيته بحميته دوما البر والأبرار وإزالته الشر والأشرار ومحقة الظالمين والمكذبين وإهلاكهم بنوازل سماوية. فلا جرم أن أحب مخلوق لدى ذلك المستر بالغيب وأصدق عبد له هو من كان عاملا عملا خالصا لمقاصده المذكورة آنفا، ومن يجل السر الأعظم في خلق الكون ويكشف لغزه، ومن يسعى دوما باسم خالقه ويستمد القوة منه ويستعينه وحده في كل شيء فينال المدد والتوفيق منه سبحانه. ومن ذا يكون هذا غير محمد القرشي صلى الله عليه وسلم.³¹

فهذه دلائل كبيرة مجتمعة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم في تبليغ الوحي وبيان الحقائق الإيمانية.

وفي التفاتة ذكية من الإمام النورسي ينظر إلى النبوة في سياقها الموضوعي المقصدي، ويؤكد من خلالها التوازن المعرفي في التعامل مع مثل هذه القضايا، وذلك لأن مفهوم المعجزة يتعدى ما هو شائع من ارتباطها بخرق العادة المادية الظاهرة. والواقع أن هذا ما هو إلا وجه من وجوهها، ومن أهم هذه الوجوه "القدوة الكاملة"، ومن خلال هذا الوجه يصحح ويعالج التشويش الذي أصاب طائفة ممن سماهم بالظاهريين. يقول: "إنه مما يشوش أفكار الظاهريين.. اعتقادهم أن دلائل صدق الأنبياء عليهم السلام محصورة ضمن حوارات العادات، واعتبارهم أن جميع أحوال رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم وحركاته - أو معظمها- لا بد أن تكون خارقة. وهذا ما لا يسمح به الواقع، لذا لا يستقيم ولا يصلح لهم ما يتخيلون. إذ أن اعتقادا كهذا غفلة عظيمة عن سر الحكمة الإلهية في الوجود، وعن تسليم الأنبياء عليهم السلام مقاليد الانقياد إلى قوانين الله الجارية في العالم. نعم! إن كل حال من أحواله صلى الله عليه وسلم وكل حركة من حركاته دليل على صدقه، وتشهد على تمسكه بالحق، مع أنه يتبع السنن الإلهية وينقاد إليها.. ثم إن إظهار الحوارات ما هو إلا لتصديق النبوة، والتصديق يحصل على أكمل وجه بمعجزاته الظاهرة، فإذا زادت عن الحاجة، فيما أن تكون عبثا.. أو منافية لسر التكليف - الذي هو امتحان في الأمور النظرية دون البديهيات أو ما يقرب منها حيث يتساوى الأدنى مع الأعلى- أو تكون مخالفة للتسليم والانقياد لجريان الحكمة".³²

وهكذا ينتصب الوحي مصدرا أصيلا ضروريا في التوصل إلى الحقائق، وتنتصب النبوة طريقا لتوصيل هذا الوحي وتبليغه ضمن الصورة النموذجية للإنسان. ولأن النورسي انطلق من دافع المنافحة عن أصول الإسلام في مواجهة الهجمات المضللة، فقد بحث في مصدر الوحي متمثلا في القرآن الكريم، وبحث في النبوة متمثلة في سنته الشريفة وسيرته العطرة. هذه هي المصادر التي هي أصح الوثائق في العالم على الإطلاق، ولذلك رفعها الإمام النورسي شعارا في التحدي، واستند إليها في مقارعة المخالفين.

القرآن الكريم: مصدرا ومنهجنا : تعريف القرآن:

"فإن قلت ما هو القرآن؟ قيل لك هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات والترجمان الأبدي لألستها التاليات للآيات التكوينية، ومفسر كتاب العالم. وكذا هو كشاف لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السموات والأرض. وكذا هو مفتاح لحقائق الشؤون المضمرة في سطور الحادثات. وكذا هو لسان الغيب في عالم الشهادة. وكذا هو خزينة المخاطبات الأزلية السبحانية والالتفاتات الأبدية الرحمانية. وكذا هو أساس وهندسة وشمس لهذا العالم المعنوي الإسلامي. وكذا هو خريطة للعالم الأخرى. وكذا هو قول شارح وتفسير واضح وبرهان قاطع وترجمان ساطع لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه. وكذا هو مرب للعالم الإنساني. وكالماء وكالضياء للإنسانية الكبرى التي هي الإسلامية. وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر، وهو المرشد المهدي إلى ما خلق البشر له. وكذا هو للإنسان كما أنه كتاب شريعة كذلك كتاب حكمة. وكما أنه كتاب دعاء وعبودية كذلك هو كتاب أمر ودعوة. وكما أنه كتاب ذكر كذلك هو كتاب فكر. وكما أنه كتاب واحد لكن فيه كتب كثيرة في مقابلة جميع حاجات الإنسان المعنوية، كذلك هو كمنزل مقدس مشحون بالكتب والرسائل، حتى إنه قد أبرز لمشرب كل واحد من أهل المشارب المختلفة، ولمسلك كل واحد من أهل المسالك المتباينة من الأولياء والصديقين ومن العرفاء والمحققين رسالة لائقة لمذاق ذلك المشرب وتنويره، ولمساق ذلك المسلك وتصويره حتى كأنه مجموعة الرسائل"³³.

وأنت تلاحظ - بتأملك في هذا التعريف كيف ركز الأستاذ فيه على بيان المعارف العظيمة الكثيرة التي يقدمها القرآن الكريم للإنسان.

إعجاز القرآن :

إن اعتبار القرآن الكريم أهم مصادر المعرفة يستند إلى طبيعته الربانية، وهذه العلاقة ثابتة بدلائل الإعجاز التي تجعل من معانيه حقائق قيمة ترتقي بالإنسان في درجات اليقين.

"ويتجلى إعجاز القرآن - عند الإمام النورسي - في:

- "سلاسة لسانه من فصاحة اللفظ..

- وكونه إخباراً سماوياً عن الغيوب في الحقائق الغيبية الكونية والأسرار الغيبية للحقائق الإلهية..

- وامتلاكه لجامعية خارقة من خمس جهات: لفظه ومعناه وأحكامه وعلمه ومقاصده..

- وأن شبابه الخارقة شاملة محيطه وأنسيته جعلته محبوب الإنس والجان وذلك بالتنزلات الإلهية إلى عقول البشر لتأنيس الأذهان والمتنوعة بتنوع أساليب التنزيل.

- ومجىء نقوله وأخباره في أسلوب بديع غزير المعاني، فينقل النقاط الأساس للأخبار الصادقة كالشاهد الحاضر لها..

- وكونه مؤسس دين الإسلام ومتضمنه.. ولن تجد مثل الإسلام إن تحريت الزمان والمكان..

- وأن الأنوار الستة المفاضة من هذه المنابع الستة يمتزج بعضها مع بعض فيصدر شعاع حسن فائق، ويتولد حدس ذهني، وهو الوسيلة النورانية. والذي يصدر عن هذا: ذوق يدرك به الإعجاز. لساننا يعجز عن التعبير عنه والفكر يقصر دونه.."³⁴

طريقة القرآن في المعرفة :

يتميز الإمام النورسي باعتماده القرآن الكريم منهجاً متكاملًا في المعرفة، ولا يتعامل معه باعتباره مصدراً فحسب، ويمكن رسم بعض عناصر هذا المنهج في ما يلي:

1- إشاعة المعرفة وخطاب كل طبقة من البشر بما يناسبهم: "إن آياته مع كمال الانسجام وغاية الارتباط وتمام الاتصال بينها يتيسر لكل أحد أن يأخذ من السور المتعددة آيات متفرقة لهدايته وشفائه كما أخذها عموم أهل المشارب والعلوم"³⁵.

2- ضرب الأمثال: "فبمنظار" ضرب الأمثال" قد أظهرت الحقائق البعيدة جداً أنها قريبة جداً، وبوحدة الموضوع في ضرب الأمثال قد جمعت أكثر المسائل تشبهاً وتفرقا، وبسلم ضرب الأمثال" قد توصل إلى أسمى الحقائق وأعلاها بسهولة ويسر. ومن نافذة "ضرب الأمثال" قد حصل اليقين الإيماني بحقائق الغيب وأسس الإسلام مما يقرب من

الشهود، فاضطر الخيال إلى الاستسلام، وأرغم الوهم والعقل إلى الرضوخ، بل النفس والهوى، كما اضطر الشيطان إلى إلقاء السلاح³⁶.

وكأني بالإمام التورسي - وهو يخط هذه المكتوبات - يلوح للقارئ بالشعار العظيم: "وَتَلِكُ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ" (العنكبوت: 43). "فضرب الأمثال" - كما يقرره الدرس المصطلحي - ضميمة إضافية تشكل بتركيبها هذا مصطلحا قرآنياً مكتسزاً بالدلالات، حتى إنه يمكن اعتباره محورا في منهج القرآن وطريقته في البيان. ولا أدل على ذلك من تلك الخصائص التي اقترنت بهذا المصطلح في الفقرة السابقة: وهي على التوالي:

أ- أن "ضرب الأمثال" منظر يخترق الأبعاد - في مختلف الاتجاهات - ويتجاوز الحدود والحواجز حتى يصل إلى الحقائق فيأتي بما حتى يضعها أمام الناظر ليس بينها وبينه حجاب ولا ضباب!!

ب- أن "ضرب الأمثال" وحدة تصل بين جميع الكائنات الموجودات، وما ينتج عن تفاعلها من مسائل وقضايا، يخطط رفيع يشدها إلى أصولها وكلياتها وسننها، حتى تنتهي إلى الله جل جلاله (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) [المك: 3] (لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا) [الأنبياء: 22] (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) [النساء: 82].

ج - أن "ضرب الأمثال" سلم، ينسجم مع الطبيعة البشرية التي تأنس بالتدرج، وتنفر من الطفرات وحرق المراحل، فالقرآن الكريم يرتقي بالإنسان في مدارج المعرفة حتى يصل إلى الحقائق الكونية الكبرى بسهولة ويسر، حتى قال بعض الحكماء "وإن المؤمن البسيط في أمة محمد صلى الله عليه وسلم بقوله لا إله إلا الله يبدأ من حيث انتهى إليه الفيلسوف هذا الذي أفنى عمره كله للتعرف على مبدع الكون".

د- أن "ضرب الأمثال" نافذة. نطل - عبرها - من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، فهذا القبس من نور الله جل جلاله، الذي أنزله على خلقه وأذن لهم بعلمه هو حبل الله المتين الذي يصلنا بأقوى درجات اليقين بعالم الغيب، وقد أفاض القرآن الكريم في وصف هذا العالم، وصرف القول فيه حتى صار مشهودا!!!

هذه الخصائص الأربعة منفردة ومجمعة من أهم ما يميز منهج القرآن في المعرفة، وهي تجمع بين القوة والتساند والتدرج والتواصل والشمول.

وإذا كان هذا المنهج يوصل إلى أعظم الحقائق فهو يوصل إلى ما دونها بالضرورة، أو يسهل الوصول إليها، ويهيئ الظروف المناسبة لبلوغها.

والواقع أن القرآن مستكمل للأدلة القاطعة بما صرف فيه من الأمثال، وإنما الإشكال هو في الإنسان "وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا" [الكهف:54]

3- تفصيل القول قصد البيان الشافي. ويعبر عنه بمصطلح التكرار منبها على فوائده المنهجية في تبليغ المعلومات وتبيان الحقائق وتحصيل المعارف.³⁷

4- ومن ملامح الدقة في التوجيه والقصد في التبليغ: "أن ذكر القرآن لبعض الغايات الراجعة إلى الإنسان إنما هو للإخطار لا للانحصار. أي لتوجيه نظره إلى الدقة في فوائده نظام ذلك الشيء ذي الغاية وفي انتظامه الدال على أسماء صانعه"³⁸.

5- ومن مميزات القرآن الكريم أنه يحتوي على المعاني الكلية التي تتضمن مراتب كثيرة.³⁹

6- بل إن الإمام النورسي من شدة تأمله في علاقة القرآن بالكون، وبالأرض بالتحديد أي المجال الذي يسكن فيه الإنسان، يكشف عن اتصال روعي معرفي (عقلاني) بين القرآن والأرض.⁴⁰

7- ومن مميزاته تميزه لحجاب الألفة: "اعلم أن أكثر معلومات البشر الأرضية ومسلماته، بل بديهياته مبنية على الألفة، وهي مفروشة على الجهل المركب. ففي الأساس فساد أي فساد. فلهذا توجه الآيات أنظار البشر إلى العاديات المألوفة وتتقب نجوم القرآن حجاب الألفة ويأخذ بأذن البشر ويميل رأسه ويريه ما تحت الألفة من حوارق العادات في عين العاديات"⁴¹.

إن القرآن الكريم بهذه الصفات والخصائص فصار - بحق وبجدارة - أستاذاً يعلم البشرية ويبلغ إليها المعارف والحقائق بأصح ما يكون وأسهله وأدقه وأشمله. وتبقى جميع النصوص والمناهج البشرية عاجزة عن بلوغ هذا المستوى. ومما يؤكد هذا ويجليه تلك المقارنات التي أجزاها النورسي بين منهج القرآن في المعرفة وغيره من المناهج، سواء منها ما كان منتبهاً إلى الدائرة الإسلامية، أو ما كان من إفرازات العقل الغربي. وقبل أن نورد نماذج من هذه المقارنات نود أن نسجل الملاحظات الهامة التالية.

إن الإمام النورسي ينطلق من القرآن ويستند إليه باعتباره علماً مستقلاً بنفسه، ومنهجاً قائماً بذاته تام الأركان ومكتمل العناصر، والنظر إلى القرآن الكريم - بهذا الاعتبار - يفتح آفاقاً علمية ويكشف عن ميزان معرفي يمكن الاحتكام إليه. وهذا الاعتبار يختلف عن كثيراً عنه اعتبار القرآن الكريم مصدراً في المعرفة يرجع إليه عند الحاجة. ولا يخفى ما بين الاعتبارين من البون الشاسع.

وهذا لا يعني أن الاعتبار الأول يلغي الثاني، وإنما المقصود هو اعتمادهما معاً، على أن الأول أكد في الرتبة من الثاني.

إن نظر النورسي بهذا المستوى هو الذي أتاح له منازلة أقوى المدارس والمذاهب الفكرية الإسلامية وغير الإسلامية وكشف وجوه الخلل فيها، مجليا حقائق القرآن الكريم ساطعة صافية. "إن رسائل النور ليست كالمؤلفات الأخرى التي تستقي معلوماتها من مصادر متعددة من العلوم والفنون، فلا مصدر لها سوى القرآن، ولا أستاذ لها إلا القرآن، ولا ترجع إلا إلى القرآن.. ولم يكن عند المؤلف أي كتاب آخر حين تأليفها، فهي ملهمة مباشرة من فيض القرآن الكريم، وتنزل من سماء القرآن ومن نجوم آياته الكريمة"⁴².

بين القرآن العلوم الإسلامية :

علم الكلام والتصوف:

يقول:

(حقاً إن معرفة الله المستنبطة بدلائل علم الكلام ليست هي المعرفة الكاملة، ولا تورث الاطمئنان القلبي، في حين أن تلك المعرفة متى كانت على نهج القرآن الكريم المعجز، تصبح معرفة تامة وتكسب الاطمئنان الكامل في القلب).. ثم إن معرفة الله التي استقاها الرازي من علم الكلام كما تبدو ناقصة وقاصرة في نظر ابن عربي، فإن المعرفة الناتجة عن طريق التصوف أيضاً ناقصة ومبتورة بالنسبة نفسها أمام المعرفة التي استقاها ورثة الأنبياء من القرآن الكريم مباشرة، ذلك لأن ابن عربي يقول: (لا موجود إلا هو)، لأجل الحصول على الحضور القلبي الدائم، أمام الله سبحانه وتعالى حتى وصل به الأمر إلى إنكار وجود الكائنات.

أما الآخرون فلأجل الحصول على الحضور القلبي أيضاً قالوا: "لا مشهود إلا هو" وألقوا ستار النسيان المطلق على الكائنات واتخذوا طوراً عجبياً.

بينما المعرفة المستقاة من القرآن الكريم تمنح الحضور القلبي الدائم، فضلاً عن أنها لا تقضي على الكائنات بالعدم، ولا تسجنها في سجن النسيان المطلق، بل تنقذها من الإهمال والعبثية، وتستخدمها في سبيل الله سبحانه، جاعلة من كل شيء مرآة تعكس المعرفة الإلهية وتفتح في كل شيء نافذة إلى المعرفة الإلهية.

... ولقد شبهنها - في كلمات أخرى من رسائل النور لبيان الفروق بين الذين يستلهمون نهجهم من القرآن الكريم - ذلك المنهج الأقوم - والذين يسلكون نهج علماء الكلام بمثال هو:

أنه لأجل الحصول على الماء، هناك من يأتي به بواسطة أنابيب من مكان بعيد يحفره في أسفل الجبال، وآخرون يجدون الماء أينما حفروا ويفجرونه أينما كانوا، فالأول سير في طريق وعر وطويل، والماء معرض فيه للانقطاع والشحة. بينما الذين هم أهل لحفر الآبار فإنهم يجدون الماء أينما حلوا دونما صعوبة ومتاعب. فعلماء الكلام يقطعون سلسلة الأسباب بإثبات استحالة الدور والتسلسل في نهاية العالم ومن بعده يشبتون وجود واجب الوجود.

أما المنهج الحقيقي للقرآن الكريم فيجد الماء في كل مكان ويحفره أينما كان. فكل آية من آياته كعصا موسى تفجر الماء أينما ضربت، وتستقرئ كل شيء القاعدة الآتية:
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد.

ثم إن الإيمان لا يحصل بالعلم وحده، إذ هناك لطائف كثيرة للإنسان لها حظها من الإيمان، فكما أن الأكل إذا ما دخل المعدة ينقسم ويتوزع إلى مختلف العروق حسب كل عضو من الأعضاء، كذلك المسائل الإيمانية الآتية عن طريق العلم إذا ما دخلت معدة العقل والفهم، فإن كل لطيفة من لطائف الجسم - كالروح والقلب والسر والنفس وأمثالها - تأخذ منها وتمصها بحسب درجاتها. فإن فقدت لطيفة من اللطائف غذاءها المناسب، فالمعرفة إذن ناقصة مبتورة، وتظل تلك اللطيفة محرومة منها⁴³.

يقدم النورسي قراءة نقدية "لنهج المعرفة" كما هو في علم الكلام جاعلاً من موقف ابن عربي من ذلك العلم ونقده لأحد أعلامه (الرازي) مدخلاً له، غير أنه يعود على ابن عربي نفسه بالنقد باعتباره نموذجاً للمتصوفة الذين يمثلون طريقاً آخر مختلفاً تمام الاختلاف عن طريق المتكلمين.

فهو يأخذ على طريقة المتكلمين افتقارها إلى أمرين أساسيين:

التمام المعرفي.

الطمأنينة القلبية.

ويأخذ على طريقة المتصوفة غلوها في إنكار أو نسيان الكائنات سعيها منها إلى تحقيق الحضور القلبي الدائم. وهذه الطريقة - وإن حققت قدراً كبيراً من الأساس الثاني الذي هو طمأنينة القلب - إلا أنها فرطت في قدر كبير من تمام المعرفة. والإمام النورسي في نقده لهاتين الطريقتين يستند إلى الوحي مسلطاً ضوءه الوهاج عليهما، ومستخلصاً منه طريقة منهج القرآن الكريم الأقوم في المعرفة.

الفقه :

يلاحظ الإمام النورسي من خلال ر صده لتاريخ الفقه ظاهرة سلبية مفادها أن نظر العامة يتركز في الكتب الفقهية فحسب فلا ينتقل ذهنهم إلى القرآن الكريم إلا خيالاً، ونادراً ما يتصورون قدسيته - من خلال نظرهم المنحصر - ومن هنا يعتاد الوجدان التسبب ويتعود على الإهمال فينشأ الجمود. "ومن هنا يرى أن الكتب الفقهية ينبغي أن تكون شفافة لعرض القرآن الكريم وإظهاره، ولا تصبح حجاً باهياً كما آلت إليه - بمرور الزمان - من جراء بعض المقلدين".⁴⁴

إن ما أوردنا من نصوص لا يعني بحال رفضاً لمجمل العلوم الناشئة في تاريخ الإسلام، فقد أحال النورسي كثيراً على علماء الكلام والتصوف في معالجتهم لكل القضايا، إذ رأى فيها نقاشاً واسعاً واحتجاجاً قاطعاً وفوائد كثيرة مفيدة في باهما.

بين القرآن والفلسفة :

يقسم النورسي الفلسفة إلى نوعين: فلسفة ضارة أو سقيمة ، وفلسفة صائبة.⁴⁵ "إن الفلسفة التي تهاجمها رسائل النور وتصفعها.. هي الفلسفة المضرة وحدها، وليست الفلسفة على إطلاقها، لأن قسماً من الفلسفة التي تخدم الحياة الاجتماعية.. وتعين الأخلاق والمثل الإنسانية، وتمهد السبل للرفق الصناعي، هي في وفاق ومصالحة مع القرآن الكريم، بل هي خادمة لحكمة القرآن ولا تعارضها، ولا يسعها ذلك؛ لذا لا تتصدى رسائل النور لهذا القسم من الفلسفة.

أما القسم الثاني من الفلسفة فكما أصبح وسيلة للتردي في الضلالة والإلحاد والسقوط في هاوية المستنقع الآسن للفلسفة الطبيعية، فإنه يسوق الإنسان إلى الغلظة والضلالة بالسفاهة واللهو. وحيث إنه يعارض بخوارقه التي هي كالسحر الحقائق المعجزة للقرآن الكريم، فإن رسائل النور تتصدى لهذا القسم الضال من الفلسفة في أغلب أجزائها وذلك بنصبها موازين دقيقة، ودساتير رصينة، وبعقدها موازنات ومقاييسات معززة ببراكين دامغة. فتصفعها بصفعاتها الشديدة، في حين أنها لا تمس القسم السديد النافع من الفلسفة"⁴⁶.

"نعم أقول: إن الحكمة (الفلسفة) لأنها خير كثير مع تضمنها الشر، إلا أنه شر جزئي. ومن الأصول المسلمة أنه يلزم اختيار أهون الشرين.. نعم، إن الحكمة القديمة (الفلسفة القديمة) خيرها قليل، خرافاتها كثيرة، حتى نهي السلف - إلى حد ما - عنها حيث إن الأذهان كانت غير مستعدة.. بينما الفلسفة الحاضرة فخيرها كثير - من جهة المادة - بالنسبة للقديمة وكذبها وباطلها قليل. والأفكار حرة في الوقت الحاضر، والمعرفة

مسيطرة على الجميع. وفي الحقيقة لا بد أن يكون لكل زمان حكمه⁴⁷. إن الإمام النورسي بكلامه هذا يقدم العقلانية بأجمل صورها، ويجعل الحق والحكمة هدفا ساميا.

ثانياً: الكون :

هذا الكون الممتد أمام الإنسان وخلفه وتحتة وفوقه وعن يمينه وشماله في رؤية الإمام النورسي له وجود قائم متحقق، وهيئة منتظمة في غاية الدقة والكمال والجمال. وهو بهذا المعنى يعتبر "قرآناً منظوراً"⁴⁸. أي مصدراً مهما للمعرفة، وخاصة حين يقرأ في ضوء الكتاب المسطور، فهذا الكتاب بالنسبة لذلك بمثابة الدليل المفسر. "وكتيرا ما يبين النورسي أن كل علم من مئات العلوم التي توصل الإنسان إلى كشفها بما يملك من شعور يعرف تحلياً واحداً من تجليات اسم "الحكم" فهذه الكائنات ينظر إليها علم الطب والصيدلة والكيمياء والهندسة والزراعة والتجارة وعلم الإعاشة وعلم التغذية بما يحقق المصلحة للبشر.. وكذا لو سئل علم العسكرية عن هذه الأرض، وعلم الكهرباء؛ لنظروا إليها من الزاوية نفسها. إن كل علم من مئات العلوم يشهد قطعاً أن هذا الكون قد زين بحكم ومصالح شتى ضمن انتظام كامل لا نقص فيه، وأن تلك الأنظمة البديعة والحكم السامية النابعة من تلك الحكمة المعجزة المحيطة بالكون قد أدرجت بمقياس أصغر حتى في أصغر كائن حي وفي أصغر بذرة. وهذا يعني أن العلاقة القائمة بين العلوم وغاياتها ووحدة نظامها وفلسفتها علاقة تلازم وتكامل، فكما أن العلوم تشهد بوجود الخالق المدير الواحد الأحد، كذلك تكون هذه الوجدانية منتظمة في هذه العلوم، فتكون كالروح الذي يسري فيها جميعاً. وكما تؤدي هذه العلوم إلى معرفة الخالق، كذلك فإن معرفة الخالق تتطلب السير في الأرض والنظر في الكون والأنفس؛ لاكتشاف العلوم ومعرفة نظامها وطبيعتها، فإنما يخشى الله من عباده العلماء. وهذا كله يشير بوضوح لكل ذي عينين إلى أهمية الوحي وضرورته القاطعة في قيام فلسفة العلوم وأهدافها على توجيهاته وإرشاداته، وعلى التصورات التي بناها عن هذا الوجود بأكمله"⁴⁹.

إن هذه الصورة الحقيقية النموذجية التي يكشفها النورسي في العلاقة الوثيقة في القرآن الكريم والكون تمثيل الميزان الذي في ضوئه نظر إلى تقدم الغرب وتأخر المسلمين وحاول أن يكشف عن السر في ذلك.⁵⁰

إن تلاحق الأفكار إذا أخذ سيره الطبيعي وتوفرت له الشروط يجعل التقدم في العلوم والارتقاء في المدينة أمراً طبيعياً فقد يكون بديها ما هو نظري في الماضي. هكذا تحقق،

ففي العالم ميل للاستكمال وبه يتبع العالم قانون التكامل. ولأن الإنسان من ثمرات العالم وأجزائه ففيه كذلك ميل الترقى المستمد من الميل للاستكمال. وميل الترقى ينمو مستمداً من تلاحق الأفكار الذي ينسب بتكامل المبادئ واكتمال الوسائل، وتكامل المبادئ يلقي - من صلب الخلق - بذور علوم الأكوان ملقحة رحم الزمان التي تربي تلك البذور وتنبتها فتستوي بالتجارب المتعاقبة التدريجية"⁵¹.

ومن هنا "فضياء القلب هو العلوم الدينية، ونور العقل هو العلوم الحديثة، فبامتزاجها تتجلى الحقيقة"⁵².

"لقد ظهر ميل شديد إلى التحري عن الدين الحق في أعماق كل إنسان فهو يبحث قبل كل شيء عن حقيقة الدين الحق لتنقذه من الموت الأبدي. ووضع العالم الحاضر خير شاهد على هذه الحقيقة.. وعلى هذا فإن المستقبل الذي لا حكم فيه إلا للعقل والعلم سوف يسوده حكم القرآن الذي تستند أحكامه إلى العقل والمنطق والبرهان"⁵³.

ويأسف الإمام النورسي إزاء انهيار العلم في ديار المسلمين رغم أنهم يملكون هذا المصدر العظيم، ويبين أن الخلل ناتج عن سوء الفهم، وسوء التعامل مع القرآن الكريم ومن هنا "فالصديق الجاهل يمكنه أن يضر الدين بمثل ما يضر به العدو"⁵⁴. وقد تصرف "المغرمون بالظاهر إزاء كروية الأرض مثلاً". تصرفات جنونية كمن يريد أن يجعل النهار ليلاً بإغماض العين.. وفي ظنهم كأن الذي يحكم بكروية الأرض يخالف كثيراً من مسائل الدين. فتذرعوا بهذا وافتروا فرية كبيرة"⁵⁵.

ومن هنا نقده أيضاً لتعامل أمثال هؤلاء مع بعض المتشابهات التي وردت في نصوص الوحي والسنة المشرفة كحديث الثور والحوت"⁵⁶.

وفي سياق كشفه عن العوائق التي أدت بالمسلمين إلى ما هم عليه؛ يشير النورسي إلى مشكلة المجاز حين "يقع من يد العلم إلى يد الجهل فينقلب إلى حقيقة، ويفتح الباب للخرافات. إذ المجازات إذا ما اقتطفتها يسار الجهل المظلم من يمين العلم المنور أو استمرت انقلبنا إلى "حقيقة" .. إن كثيراً من الكلمات أو الحكايات أو الخيالات أو المعاني التي كان السلف يتذوقونها لم توافق الرغبات الشابة لدى الخلف لأنها غدت عجوزاً لا زينة لها.. ولهذا لا ينبغي الحكم على أي شيء بظاهره. إذ من شأن المحقق سير غور الموضوع والتجرد من المؤثرات الزمانية والغوص في أعماق الماضي ووزن الأمور بموازين المنطق ووجدان منبع كل شيء ومصدره"⁵⁷.

ثالثا: العقل:

إن من البديهيات عند الإمام النورسي اعتبار مصدرا في المعرفة. ورسائل النور تكتنز بمدح العقل وكونه آية من آيات الله تعالى، وعلامة على تميز الإنسان. ومن يقرر الإمام النورسي أنه " ما جعل الإسلام يتجلى دوما، وتنكشف حقائقه وتنسبط بنسبة انبساط أفكار البشر إلا تأسسه على الحقيقة وتقلده البرهان ومشاورته العقل واعتلاؤه عرش الحقيقة ومطابقته دساتير الحكمة المتسلسلة من الأزل إلى الأبد ومحاكاته لها. ألا يشاهد كيف يحيل القرآن الكريم في فواتح أكثر الآيات وخواتمها البشر إلى مراجعة الوجدان واستشارة العقل بقوله تعالى: "أفلا ينظرون" و"فانظروا" و"أفلا يتدبرون" و"أفلا تتذكرون" و"تفكروا" و"ما يشعرون" و"يعقلون" و"لا يعقلون" و"يعلمون" و"فاعتبروا يا أولي الأبصار"⁵⁸.

بل إن "من الأصول المقررة أنه إذا تعارض العقل والنقل يعد العقل أصلا ويؤول النقل، ولكن ينبغي لذلك العقل أن يكون عقلا حقا"⁵⁹.

رابعا: الإلهام:

"إن الإلهامات الصادقة مع أنها تتشابه - من جهة - مع الوحي، من حيث إنها نوع من المكالمات الربانية إلا أن هناك فرقين:

أولهما: أن معظم الوحي الذي هو أسمى وأعلى من الإلهام بكثير إنما يتم بوساطة الملائكة، بينما أغلب الإلهام يتم دون وساطة..

الثاني: أن الوحي صاف ودون ظل، خاص للخواص. أما الإلهام ففيه ظل واختلاط ألوان. وهو عام وله أشكال متنوعة ومتفاوتة جدا؛ كإلهامات الملائكة وإلهامات الإنسان وإلهامات الحيوانات، وهي بأنواعها المختلفة وأشكالها المتباينة جدا تبين مدى سعة وكثرة الكلمات الربانية."⁶⁰

ويرى الإمام النورسي أن في الإنسان استعدادا فطريا للتعامل مع الإلهام باعتباره مصدرا في المعرفة مثله مثل باقي المصادر (الوحي/ الكون..) التي يتعامل معها ويستفيد منها بما زود به من العقل والحواس واللطائف. ولذلك يسمي الإلهام بأنه الحدس المضاعف، والحدس هو سرعة انتقال في الفهم⁶¹. "والإنسان لا تقتصر حواسه الظاهرة والباطنة على الحواس الخمسة المعروفة.. وإنما له نوافذ كثيرة مظلة إلى عالم الغيب، فله حواس كثيرة غير معلومة.. ولذلك فإن "الوجدان لا ينسى الخالق مهما عطل العقل نفسه وأهمل عمله، بل حتى لو أنكر نفسه فالوجدان يبصر الخالق ويراه، ويتأمل فيه ويتوجه إليه"⁶².

خاتمة :

خلص الباحث بعد رحلته المتواضعة مع الإمام النورسي في تأملاته حول مفهوم المعرفة إلى أن رسائل النور تنطوي على رؤية متكاملة ونظرية تامة في المعرفة، مستوعبة لأصولها وغاياتها وطرقها ومصادرها وأقسامها وغير ذلك من مباحثها. وقد توصل الأستاذ النورسي إلى ذلك بسر استناده إلى القرآن الكريم باعتباره المنهج الأقوم. والواقع أن مادة البحث غزيرة وعميقة جداً، تفتح آفاقاً فسيحة في قضية المعرفة جملة، نسأل الله تعالى أن ييسر الأسباب لمتابعة الطريق في كشفها. ويود الباحث أن يسجل التوصيات التالية:

إعادة تكشيف وفهرسة "رسائل النور" بتفصيل وتدقيق أكثر لتسهيل الوصول إلى المصطلحات والمفاهيم والنصوص والقواعد والفوائد وغيرها. اقتراح تسجيل رسائل جامعية للبحث في المحاور والمفاهيم والقضايا الرئيسية التي تتضمنها رسائل النور. إعداد معجم جامع للمصطلحات المعرفة عند الأستاذ النورسي. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

مصادر ومراجع :

- تفسير الرازي المسمى مفاتيح الغيب.
كليات رسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي.
مجلة الأمة القطرية، السنة الثانية، العدد: 19 / 1402 - 1982.
مجلة المسلم المعاصر، العدد: 83 / 1997.

الهوامش:

- 1 مجلة الأمة س2 ع19 رجب 1402/ مايو 1982 ص: 47.
- 2 صيقل الإسلام: 22.
- 3 إسلامية المعرفة في ضوء إعجاز القرآن كما يصورها النورسي/ د. زياد الداغمين/ المسلم المعاصر، عدد 83، 1997، ص51.
- 4 المکتوبات 289.
- 5 تفسير الرازي 1/130.
- 6 المثنوي العربي: 105.
- 7 نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة/ راجح عبد الحميد الكردي، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي ط1، 1412 - 1992 ص 88
- 8 إشارات الإعجاز 241.

- 9 الكلمات 290.
 10 للمعات: 90 - 91.
 11 نفسه: 127.
 12 نفسه: 593 - 594.
 13 المثنوي العربي 121.
 14 للمعات 171 / 207.
 15 نفسه: 207.
 16 المکتوبات 424 - 426.
 17 المثنوي العربي 338.
 18 للمعات: 174.
 19 الشعاعات 273.
 20 إشارات الإعجاز 196.
 21 الكلمات 67.
 22 الشعاعات 135.
 23 للمعات 296 - 297.
 24 نفسه: 88 - 89.
 25 نفسه: 115 - 117.
 26 صيقل الإسلام: 33.
 27 نفسه: 65 - 66.
 28 الشعاعات: 162.
 29 الكلمات 118 - 119.
 30 صيقل الإسلام: 136.
 31 الشعاعات 169 - 171.
 32 صيقل الإسلام 65 - 66.
 33 المثنوي العربي 69 - 70.
 34 الملاحق: 183 - 186.
 35 المثنوي العربي 249 - 281 - 321، صيقل الإسلام 30 - 59.
 36 المکتوبات 487.
 37 انظر للمعات 196 - 420 والمثنوي العربي 70.
 38 المثنوي العربي 357.
 39 الشعاعات 354.
 40 نفسه 120.
 41 المثنوي العربي 324.
 42 الملاحق: 221.
 43 المکتوبات 424 - 426.
 44 صيقل الإسلام 348.
 45 المثنوي العربي: 338 وصيقل الإسلام 68.
 46 الملاحق: 286 - 287.
 47 صيقل الإسلام: 41.
 48 للمعات 530.

-
- 49 إسلامية المعرفة في ضوء إعجاز القرآن كما يصورها النورسي/ د. زياد الداغمين/ المسلم المعاصر، عدد 83، 1997، ص51.
- 50 انظر صيقل الإسلام: 367 – 369.
- 51 نفسه: 32.
- 52 نفسه: 428.
- 53 نفسه: 494 – 495.
- 54 نفسه: 65.
- 55 نفسه: 64 – 65 – 70 – 71.
- 56 نفسه: 73 – والملاحق 129 و اللغات: 138.
- 57 نفسه: 40.
- 58 نفسه: 27.
- 59 نفسه: 52.
- 60 الشعاات 163 – 164.
- 61 المثنوي العربي: 431.
- 62 نفسه: 431.